



نفسير أبي السَّعْوِي
أو
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضى القضاة أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى

٥٩٨٢ — ٥٩٠٠

تحقيق
عبد الفادر أحمد عطا

الجزء الأول

يطلب من الناشر
مكتبة الرياض الحديثة
بالرياض

جميع حقوق الطبع محفوظة للناس



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عالم الروم أبو السعود العمادى

من دلائل عظمة القرآن الكريم ، وعزة سلطانه ، وعالمية دعوته ، أن كان له في كل قطر من أقطار الأرض ، وبين كل جنس من أجناس الناس فقهاء يأخذون بطرف من أسرارهِ المنبئة ، ويكشفون عن سمات إعجازه الرفيع ، على اختلاف ثقافتهم وبيئاتهم ، وتباين تراثهم الحضارى ، فاختلفت مآخذهم ، واتحدت سرائيرهم جميعاً على التبتل في محرابه ، والاستسلام لجلاله في إطار من التوحيد والإسلام المأثور عن إبراهيم الخليل عليه السلام ، والمتدرج في مراتبه حتى السجود على يد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

فكما كان الإسلام دين الله منذ بدء الخليقة ، يعلنه الرسل عبر العصور والدهور باسمه ومعناه ، كان القرآن كتاب الإسلام المتكامل في المناهج والقوانين ، كتاب العالم ودستوره الذى ينسجم مع بيئاته وثقافته وأجناسه وحضاراته ، لا يتنافر مع جنس ، ولا يتضارب مع بيئة ، ولا يتعارض مع زمان ، فهو هو الجديد المتفاعل مع جميع العقليات على اختلاف تكوينها على مدى القرون والأجيال .

وكان من حاول اجتلاء أسرار القرآن ودلالات إعجازه عالم من علماء الروم هو : أبو السعود محمد بن مصطفى العمادى ، فأبدع وأجاد في الميدان الذى اختاره لنفسه وارتناءه لكتاب الله تعالى ، ألا وهو سر لغة القرآن في إعجاز القرآن .

والرجل وإن لم يكن عربى المنبت والأرومة فإنه بلغ قمة الإجازة في استكشاف أسرار العربية لغة الكتاب الكريم ، شأنه في ذلك شأن غيره

(ب)

من العلماء المسلمين من غير العرب ، ولكنه زاد عليهم يشملون بحثه لجوانب القرآن الكريم كله ، ولم يكشف بمواضع معينة منه يركز عليها دراسته لأسرار الإعجاز القرآني المنيع .

لقد سبقه من غير العرب عبد القاهر الجرجاني في كتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، ولكن بحث عبد القاهر عن إعجاز القرآن من الجانب اللغوي لم يكن متكافئاً ، بل كان مجرد قواعد وأصول يمكن أن يحتذيها الباحث في هذا الميدان . وسبقه كذلك جاز الله الزحشرى في كتابه « الكشف » ولكنه انتحى جانب الكشف عن أسرار المجاز والاستعارة في القرآن ، أما جانب التركيب الأسلوبى للقرآن فقد كان فيه قليل البضاعة . أما نضر الدين الرازى في كتابه « أنوار التنزيل » ، فعج جلالته قدره لم يفتح منهج التخصص ، بل أخذ بأطراف من وجوه الإعجاز القرآني في اللغة والفلسفة والتشريع .

وأما خطيب المفسرين أبو السعود فقد كان متخصصاً ، وكان إلى جانب ذلك رجلاً لا يفتقر عن العلماء المخترعين في معاملهم فالقارىء المتدبر لكتابته هذا الذى نقدم له يأخذ الدهش من جميع أقطاره ، لأنه يجد نفسه بالفعل أمام رجل بينه وبين علماء المعامل المخترعين شبه وثيق .

فإذا كان علماء المعامل الكيميائية يؤلفون بين العناصر والمواد ليبتكروا للناس ما فيه ترف أو نعيم أو علاج لأبدانهم ، أو ليخترعوا سلاحاً من أسلحة الدفاع عن النفس والوطن ، أو وسيلة من وسائل تيسير الحياة على الناس ، فإن إمامنا أبا السعود ما هو إلا رجل يضع عناصر اللغة القرآنية تحت منظار بصيرته المتألق ، ونور عقله الروحى العميق ، ويستكشف من خلالها كل ما يخدم قوى الإنسان الإيمانية ، فإذا الإنسان موقن بأنه آوى إلى ركن شديد ، وآمن برب عزيز ، وأن مواهبه الباطنة قد بدأت تتفتح عن وعى جديد يؤكد أن الله هو القاهر فوق عباده ، وأن العمل على هدى الإيمان به هو الخير والقوة والسيادة العزيزة النال . وعلى أى حال فمامل الأصوات اللغوية منهج جديد من مناهج البحث اللغوى لها فى أوربا شأن عظيم فى عصرنا الحاضر .

(ج)

ولد الإمام أبو السعود العبادي المولى الرومي في قرية قريبة من القسطنطينية عام تسعمائة من الهجرة ، وقال صاحب العقد المنظم في تاريخ علماء الروم إن مولده كان في عام ثمان وتسعين وثمانمائة . واتفق الجميع على أن وفاته كانت في اثنتين وثمانين وتسعمائة . أي إنه عاش ثمانين عاما أو اثنين وثمانين عاما على خلاف في عام ولادته .

وكان والده رجلا من أهل العلم والفضل فأخذ عليه الفتى أبو السعود أصول العلوم الشرعية ، ودرس عليه اللغة العربية والفارسية والتركية ، فكان مجيدا لها جميعاً . ثم تنقل في مدارس العلم التي انتشرت في بلاده ، وانتهى به المطاف إلى ملازمة العلامة المولى سعدى جلبي فتخرج به ، ونضج على يديه .

تولى أبو السعود عددا من المناصب كلها تدل على تفوقه في علوم الشريعة وللمامه بها لما يدل على وثاقه شأنه فيها . فقد تولى قضاء مدينة « بروسا » ثم قضاء « القسطنطينية » ، ثم قضاء العسكر ودام فيه ثمان سنين ، ثم عين مفتيا عاما للقسطنطينية وهو أعلى منصب ديني في الخلافة العثمانية ، وعين له السلطان كل يوم مائتين وخمسين درهما .

وكانت فسكرة هذا التفسير قد راودته في شبابه وفي أثناء دراسته ، وبدأ في إعداده ، ولكن عمله في القضاء عوق من تيار نشاطه في سبيل لإنائه ، ولما تقدم به العمر جد في إعداده خوفا من أن يحول الموت بنيه وبين تمامه ، وأهداه إلى السلطان سليمان خان بن بايزيد . ويقول الشوكاني في البدر الطالع : إن السلطان أعجب بالكتاب فأنعم على مؤلفه نعمة عظيمة ، وزاد في معلومه اليومي زيادة واسعة ، إلى جانب ما تناهت به عظيمته في جميع الممالك الرومية حتى صار المرجع لعلمائها في جميع العلوم كما يقول صاحب السكواكب السائرة . وصاحب البدر الطالع أيضا .

وأبو السعود حنفى المذهب سنى المعتقد ، روحى الوجدان ، وكان له من دراسة مذهب الإمام أبي حنيفة قدرة هائلة على مناقشة القضايا والخروج من

(٥)

ذلك بأحكام لا تقبل الجدل ، كما كان له من سنية معتقده ، وروحية وجدانه .
إحساس بواطن لغة القرآن ، وعمق تشريع الإسلام ، أضفى على بحثه العلمي .
البحث روحا جديدة بثها في أنحائه فأصبح شهيا للقارئ لا يمل من شدته ،
ولامن عمق فلسفته .

ولأبي السعود العبادى مؤلفات أخرى غير التفسير هي :

١ — بضاعة القاضى فى الصكوك .

٢ — تهافت الأجداد فى فروع الفقه الحنفى .

٣ — تحفة الطلاب فى المناظرة .

ولكن أبرعها وأجدها كلها هي التفسير الذى يعتبر بحق معجزة العقل .
البشرى فى كله فى كشف أسرار لغة القرآن الكريم ، والاسترشاد بتلك الأسرار
اللغوية فى تقرير أصل عظيم هو إعجاز القرآن لغويا وأديبا لقوم كانت بضاعتهم
الأولى والأخيرة هي الشعر والأدب ، وإن يأتى بعدهم من الأجيال ، ثم
بالنسبة لجميع اللغات فى العالم كله .

ومن ين طالع أبى السعود أنه لما مات بالقسطنطينية دفن بجوار صحابى .
جليل هو أبو أيوب الأنصارى وكان ذلك فى الخامس من جمادى الأولى
عام ٩٨٢ من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مناهج فهم القرآن

الواقع أن القرآن الكريم لم يكن تحدياً لغوياً وأديباً للعرب من أهل الجاهلية حسب كما يظن بعض الباحثين ، وإنما كان تحدياً للعالم كله في جميع أنحاء النشاط البشرى والإنسانى جميعاً .

ولئن كان في إبان نزوله يشكل تحدياً تعجيزياً لعرب الجاهلية من ناحية الأسلوب الأدبي والتراكيب اللغوى وغير ذلك من خصائص الأدب العربى فإن إعجازه في هذا الجانب ما زال قائماً لسكل من يتخذون العربية لغة تخاطب وتعليم لهم ، ولو كان إعجاز القرآن مقصوراً على هذا الجانب وحده لما كان الإسلام ديناً عالمياً ، أو لسكان على أى قابل للإسلام أن يتعلم العربية حتى يدرك المعجزة القرآنية التى نقنعه بالإيمان بدين الإسلام ، والواقع لا يدل على ذلك .

فالقرآن بنصه يقرر أن النبى صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة ، وأن خلفاءه مأمورون بالجهاد الدائم حتى يكون الدين كله لله ، وأن القرآن فيه تبيان لسكل شئ ، وأن الله تعالى لم يفرط فيه فى شئ من شئون الدنيا ولا الآخرة ، على أن هناك نصوصاً قرآنية تثبت أن إعجاز القرآن ليس كامناً فى لغته وأدبه حسب ، وإنما هو كامن فى إنسانياته وقانونه ودستوره العالمى ، ومبادئه المحسنة التى لا تحتاج إلى تعديل باختلاف الزمان أو المكان . فאלله تعالى قد تحدى الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بمثله . ومعلوم لنا أنه لم يتحد الإنجليزى ولا الألمانى بهربينه ، بل بأنواع أخرى من التحدى لا تقل عن تحدى الناطقين بالعربية ببيان وأسلوبه المعجز . فهو الآن يتحدى الفقهاء الدستوريين بقوانينه ، ويتحدى المنظمات العالمية بإنسانياته ، ويتحدى العلماء الممهلين بإشاراته ، ويتحدى الأطباء بمناهجه الصحى الأصيل ، والزراع والصناع وغيرهم

(هـ)

بما بث من أصول ترك للعقل البشرى توسيعها وتعميقها ، حتى يستحق الإنسان لقب الإنسان .

فلو آمن ناس من غير العرب بالإسلام ، ثم ترجعوا آياته إلى لغتهم لكان لهم من تلك الترجمة جانب من جوانب الإعجاز على أى حال ، وقدما انبهر ناس من غير العرب بالعدل الإسلامى النابع من تطبيق القرآن فآمنوا به معجبين عاجزين عن مثل العدل المقرر فيه .

لهذا كله آتى القرآن الكريم ثماره فى كل بيئة وبين كل جنس تماما كما آتى ثماره فى جزيرة العرب مع اختلاف فى المنهج وتقابل فى الفهم ، فأثره فى الفرس مقابل لأثره فى بلاد الروم وهكذا كان القرآن ولا يزال إكسيراً عجيباً يمس أى بيئة من البيئات فتتحول معارف تلك البيئة وثقافتها إلى ثقافة قرآنية على وجه من الوجوه تعتبر قمة فى مجال الثقافة والحضارة العالمية .

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الشمول فى مناهج فهم القرآن أن يتخصص العرب فى الجوانب اللغوى ، وأن يتخصص غيرهم فى الجوانب الأخرى من الإعجاز ، وكان لذلك حكمة عليا هى نفسها من دلائل الإعجاز وإن كانت من نتائجها .

فالإسلام والقرآن قانون وتطبيق وعلم وثقافة ، والقانون كما هو معروف فى أرجاء العالم يحتاج إلى دقة فى الصياغة ، وفهم عميق لمدلولات الألفاظ ومرامها ، حتى يكون استنباط الأحكام منها قائماً على أسس دقيقة لا تمنح إلى الظن ، ولا تميل نحو الخطأ ، ولذلك كان تفسير السلف من العرب للقرآن يتجه إلى هذا الاتجاه ، ومنه اتجه المجتهدون إلى أصول التشريع ، ثم استنباط الأحكام على ضوء هذه الأصول فكان العرب بذلك أول العلماء المنهجيين ، وسبقوا غيرهم فى هذا المجال ، كما كانوا أعظم العلماء فى تحقيق نص القرآن عند تدوينه على الوجه المعروف للدارسين جميعاً .

(و)

وهذا المنهج هو الأساس الذى تنطلق منه جذوة الإيمان الصحيح إلى أرجاء العالم بحيث تسلم العقيدة من كل عبث فى أى بيئة غير البيئة التى ولد فيها الإسلام وهو ما كان بحمد الله حينها نشأت البدع والآهواء والفرق الزائفة فلما لبثت أن تحطمت على صخرة الحق الصلبة بفضل الفهم الدقيق لمعانى القرآن على أيدي السلف من العرب فى عصر الصحابة والتابعين .

وهكذا تفاعل القرآن فى بيئته وفى كل زمان مع العقلية الجديدة فلم يحسد العقل عن الأصل المرسوم، فقد اتسعت مطالب الحياة باتساع البلدان المفتوحة وبادر العلماء إلى استنباط أحكام شرعية للمحالات الناشئة على هدى من الكتاب والسنة ، ومن ثم نشأ التفسير التشريعى ، وتفاعل مع بيئة الفرس التى ورثت ثقافات عريقة وخيالات أدبية قديمة فنشأ التفسير الإشارى ، وتفاعل مع عقلية الروم وارثة الفلسفات فنشأ فهم فلسفى للقرآن مختلف الاتجاهات ، ومنه الفهم الفلسفى اللغوى الذى تزعمه أبو السعود دون منازع له على الإطلاق

تفسير أبي السعود

والواقع أن منهج أبي السعود يعتبر لازماً لأى بيئة إسلامية عربية كانت أو غير عربية ، فهو محاولة لإقناع العالم بتفاعل كلمات القرآن بعضها مع بعض تقديماً وتأخيراً ، أو إجمالاً وتفصيلاً ، حتى الحرف يؤثره القرآن دون غيره من الحروف ، فينتج من هذا التفاعل فهم مذهل لآياته ومعانيه ، فهو مع كل وجه من الوجوه يعطى معنى غير سابقه ، وتسكون النتيجة أن كلاماً يعطى مع التقديم والتأخير والإجمال والتفصيل والالتفات وغير الالتفات معانى كلها قم من الإعجاز والقوة والرصانة لا يمكن أن يكون كلام بشر ، فما من كلام البشر ما يعطى تلك الوجوه المتعددة مع الاحتفاظ بدرجة القوة والمتانة . ومن هنا كان أساس الإيمان صلباً متيناً لا تؤثر فيه العواصف ولا الأهواء .

وهو ناقد فذ لأراء من سبقوه من علماء اللغة ، فكثيراً ما تراه يرفض آراءهم ويقيم الدليل على أنها لا تليق بجزالة النظم السريمة ، ولا بسباق الأسلوب ولا سياقه .

وهو مع ذلك عالم فحل بفنون الإعراب القرآنى وآرائه السابقة ، فتراه يعرضها كلها عرضاً سريعاً ، ثم يبدأ فى تحليلها ، فلما رجع أحدهما أو بعضها ، ثم يبدأ رحلته التحليلية الدقيقة صاعداً إلى قمة الإعجاز ، فيدعك وقد احتواك الإيمان بالقرآن من كل أقطارك لا تبغى به بدلاً ، ولا بدين الإسلام ديناً .

وهو مع ذلك خبير بالقراءات المسأورة للقرآن ، يعرضها ليستنبط منها معانى للكلمات منفردة ومجموعة .

ولا ينسى أبو السعود أن يتعرض لمذاهب الفقهاء فى فهم القرآن واستنباط الأحكام منه ، وهو يستوعبها أحياناً منذ عهد الصحابة إلى المجتهدين الأربعة وأصحابهم ، وأحياناً يقتصر على مذاهب المجتهدين الأربعة بحيث يبرز رأى الحنفية

(ح)

بشيء من التفصيل والاحتجاج ، مع تحقيق فاحص ، وبحث دقيق قل أن نجد في غيره من التفاسير .

ثم هو لا يغفل الآثار الواردة في أسباب النزول ، أو الموضحة لبعض المعاني من الحديث الصحيح والآثر المروى عن الصحابة والتابعين ، كما لا يغفل الوقائع التاريخية ، فتراه يتعرض لها بشيء من التفصيل والبحث ، ويورد آراء السابقين فيها دون تعرض لنقدها إلا فيما يتصل بدعاوى بني إسرائيل .

وقد عني كذلك بالناسخ والمنسوخ وتمحيص الرأي فيه ، وبفضائل السور دائماً ، والأذكار القرآنية أحياناً ، فأورد في كل مناسبة حديثاً دون تخريج ولكنها على أي حال لا تخرج عن دائرة الصحة أو الحسن .

أما مصادره في كتابه هذا فهي كما قال الجمع بين الكشف وأنوار التنزيل ، وإضافة الشوارد من مطالعته ودراسته الخاصة . فهو ينقل عن الواحد في تفاسيره : « البسيط » و « الوجيز » و « الوسيط » . وكلها لا تزال مخطوطة وينقل كذلك عن معاني القرآن لمكي بن إبراهيم وهو مخطوط أيضاً ، كما ينقل عن سيبويه والفراء والفارسي وغيرهم من أساطين العربية إلى غير ذلك من المصادر التي يمكن استقراؤها من كتابه ، فهو أمين في النقل يعزو كل رأي إلى صاحبه ، وما كان له من الرأي فهو واضح من السياق .

ولا شك في أن كتاب أبي السعود هذا يعتبر قصة شائعة في الفكر اللغوي وفلسفته وأسراره فاق به عبد القاهر الجرجاني وغيره من تعرضوا لهذا الشأن فهو فوق أنه تفسير للقرآن يعتبر كتاباً لإعجاز القرآن ، ومصدراً غنياً من مصادر العربية في شواردها ومسائلها النادرة التي اختلف فيها علماؤها ، ولا سيما أهل البصرة وأهل الكوفة ، كما يعتبر مصدراً جامعاً من مصادر إعراب القرآن الذي ألقت فيه كتب مستقلة ، فأصبح كتابه بحق موسوعة لعالم القرآن من جميع جوانبها .

وأخيراً يعتبر مصدراً أصيلاً من مصادر الإيمان . فهو يقنعك بالإعجاز

(ط)

اللغوى بطريقة لم يسبق إليها ، وهو منهج شامل متكامل يدعك أشد استمساكا بالقرآن ، وأكثر رغبة في مصاحبته ، واستجلاء أسرارہ بالتأمل والفكر والذوق ، إذ هو الكتاب الأوحى الذى لا تنقض عجايبه ، ولا تنفد غرائبه .

منهج العمل

تفسير أبى السعود طبع مرتين بمصر ولكن طبعاته لم تعن بوضع الهمزات على الألفات حتى إنه ليعتذر على القارىء العادى أن يفرق بين إما وأما ، أو بين إن وأن ، وما شابه ذلك ، كما أن المطبوعات خلطت آيات القرآن التى أوردتها المؤلف للاستشهاد بكلام المؤلف فلا يميز القارىء بينهما بسهولة ، كما أن فيها أخطاء لم تثبت فى نهاية الطبع لتصحيحها .

ولذلك قمنا بإكمال هذا النقص ، ثم راجعناه على أقدم نسخه المخطوطة ، وهى رقم ٤٨٥،١٠ . واستعنا فيما هو غير واضح بنسخ أخرى ، وأثبتنا الفروق بالهامش . أما مسائله اللغوية وتحقيقاته فهى أكبر من أن نتألفها يد محقق بالتصحيح ولا التمهين ، فهو عالم فحل أوتى من الذكاء قدرا عظيما لا يستهان به .

ثم وضعنا عناوين لموضوعات السور تسهيلا للقارىء الباحث وقتنا بعمل فهرس موضوعية لكل جزء من التفسير ، إذ أن الفهرس الموجود فى المطبوعة لا يسمن ولا يعنى ودققنا فى مراجعة تجارب الطبع فجاء بحمد الله متقنا لإلا مواضع يسيرة جداً سننبه عليها كما أن عنوان الكتاب فى المطبوعة غير مطابق للإسم الذى وضعه المؤلف . فقد جاء فى المطبوعة : إرشاد العقل للسليم فى مزايا القرآن الكريم . بينما سماه المؤلف : إرشاد العقل السليم فى مزايا الكتاب الكريم .

كلمة أخيرة

يقول المستشرق الكسندى «سمت» فى كتابه «الإسلام فى العصر الحديث» :
إن الإسلام هو المحور الرئيسى الذى تقوم من أجله الصراعات الدولية الحديثة ،

(ى)

فالدول الكبرى تتصارع على مناطق يغلب فيها الإسلام ، لأنها فرعة قلقلة من سرخلود الإسلام حتى وصل سلليا على مدى تلك القرون المتطاولة لم يمسه سوء . وأفاض دسئت ، فى التدليل على نظريته ، وأهاب بالمسلمين أن يحاولوا تفهم دينهم على منهج يتفق مع تلك الصراعات الرهية التى تتخذ أهبتهما من أجل الإسلام .

ونقول : إن القرآن لا زال يحتاج إلى بحوث وجهود ضخمة من الباحثين ليكون مستعدا دائما لغزو أقطار بعيدة عن المحيط العربى غزوا ثقافيا ودستوريا وعلميا .

وهذا العمل فى الحقيقة فرض على أمم الإسلام التى فرض عليها الجهاد حتى يكون الدين كله لله ، والجهاد يشمل أنواع القوة كلها : العسكرية ، والثقافية ، والاقتصادية ، وغيرها من صنوف القوى . وأهمها الغزو القرآنى للعالم فى العصر الحاضر ، استجابة لأمر الله ورسوله ، وقيامها بما له من حق فى عنق كل مسلم .

وأبو السعود العبادى قد قام بعمل مجيد فى عصر من عصور التمهقروالانخذال فكان من الواجب ولا زال أن تتضافر الجهود فى سبيل التعريف بالإسلام على المستوى العالمى على أساس من الدراسات القرآنية الواعية التى تنسم بتأصيل الإيمان فى قلوب الشباب وفتح مسالك جديدة للبحوث القرآنية .

ولسكنا نحذر من ورطة خطيرة وقع فيها الكشليون ، هى تلمس وجوه شبه بين بعض النصوص القرآنية وبعض المخترعات الحديثة ، فىسارع السكتاب إلى تأكيد أنها تنطبق تمام الانطباق على ما تنبأ به القرآن ، وهو عكس للأصل المقرر وهو معرفة الرجال بالحق ، لامعرفة الحق بالرجال ، فلا يجوز أن يحكم هؤلاء على السكتاب مع سلامة مقصدهم لأنهم يحكمون الرجال فى القرآن وهو خطأ شنيع ، فالنظريات العلمية الحديثة ليست مستقرة ، ولاتلبث أن يثبت خطأها أو نقصها ، أما القرآن فهو القول الثابت الذى لا يعثره خلل ولا نقص .

(ك)

ولئن كان هناك تشابه بين بعض نصوص القرآن وبعض المبتكرات والمخترعات الحديثة ، فإن تلك المخترعات لم تصل بعد إلى التطابق مع نص القرآن .

والقرآن على أى حال قد وضع أصول العلم والبحث ، وأشار إلى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان فى هذا المجال لإشارة أساسية لاتفصيل فيها ، فأحرى بمن يتهج ذلك المنهج أن ينبه إلى تلك الأحوال ويثير العزائم إلى بحثها والسير على نهجها .

وقديما كتب الشيخ طنطاوى جوهرى تفسيراً علمياً للقرآن من هذا القبيل ولكن لم يكتب له الخلود ، لأنه منهج خاطيء كما قلنا .

ونسأل الله أن يكون قد آن للذين آمنوا أن يتفهموا ما أراد الله منهم فى كتابه على المستوى المحلى والمستوى العالمى جميعاً ، وأن يوفقهم إلى مرضيه . وأن يخلص نوايانا جميعاً لوجهه ، ربنا لئلك سميع الدعاء .

عبد القادر أحمد عطا

القاهرة { ٢٤ من رجب ١٣٩١ هـ
١٤ من سبتمبر ١٩٧١ م

رموز التحقيق

() أو [] = كلمات سقطت من المطبوعة وزيدت من المخطوطات
ط : = المطبوعة .
الأرقام = أرقام المطبوعات في فهرس التفسير بدار الكتب المصرية

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبحان من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وبين له من شعائر الشرائع كل ما جل ودق ، أنزل عليه أظهر بينات وأبهر حجج ، قرآنا عربيا غير ذي عوج ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ، ناطقا بكل أمر رشيد ، هاديا إلى صراط العزيز الحميد ، أمرا بعبادة الصمد المعبود ، كتابا متشابها مثاني تقشعر منه الجلود ، تسكاد الرواسي لهيبته تمور ، ويندوب منه الحديد وتميع الصم الصنخور ، حقيقة بأن تفسير به الجبال ويتيسر به كل صعب محال ، معجزا ألحم كل مصقع من مهرة قحطان ، وبكت كل مفلق من سحرة البيان ، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته ومباراته ، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ، نزله عليه على فترة من الرسل ليرشد الأمة إلى أقوم السبل ، فهداهم إلى الحق وهم في ضلال مبين ، فاضمحل دجى الباطل وسطع نور اليقين ، فن أتبع هداه فقد فاز بمنه ، وأما من عانده وعصاه ، واتخذ إلهه هواه ، فقد هام في مواى الردى ، وتردى في مهاوى الزور ، ومن لم يجعل الله له نورا فلاه من نور . صلى الله عليه وعلى آله الأخيار ، وصحبه الأبرار ، ما تناوبت الأنواء ، وتعاقت الظلم والأضواء ، وعلى من تبعهم بإحسان ، مدى الدهور والأزمان . وبعد :

فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الهادي ، أبو السعود بن محمد العمادي :
إن الغاية القصوى من تحرير نسخة العالم وما كان حرف منها مسطورا ،
والحكمة الكبرى في تخمير طينة آدم ولم يكن شيئا مذكورا ، ليست إلا معرفة
الصانع المجيد ، وعبادة البارئ المبدئ المعيد ، ولا سبيل إلى ذلك المطلب
الجليل ، سوى الوقوف على مواقف التنزيل فإنه عز سلطانه ، وبهر برهانه ،
وإن سطر آيات قدرته في صحائف الأكوان ، ونصب رايات وحدته في

صفائح الأعراض والأعيان ، وجعل كل ذرة من ذرات العالم ، وكل قطرة من قطرات العيلم ، وكل نقطة جرى عليها قلم الإبداع وكل حرف رقم في لوح الاختراع ، مرآة لمشاهدة جماله ، ومطالعة صفات كماله ، حجة نيرة واضحة المكنون ، وآية بينة لقوم يعقلون ، برهانا جليلا لاريب فيه ، ومنهاجا سويا لا يضل من يلتحيه ، بل ناطقا يتلو آيات ربه فهل من سامع واع ، ومجيبا صادقا فهل له من داع ، يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويرد جوابهم بحسب مقولهم ، يحاور تارة بأوضح عبارة ، ويلوح أخرى بالطف إشارة .

لكن الاستدلال بتلك الآيات والدلائل ، والاستشهاد بتلك الأمارات والمخايل ، والتنبيه لتلك الإشارات السرية ، والتفطن لمعانى تلك العبارات العبقريّة ، وما في تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر وكنوز آثار التعجيب والعبر مما لا يطبق به عقول البشر إلا بتوفيق خلاق القوى والقدر فإذا مدار المراد ، ليس إلا كلام رب العباد ، إذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينيّة ، والمفسر لمشكلات الآيات التكوينيّة ، والكاشف عن خفايا حظائر القدس ، والمطلع على خبايا سرائر الأنس ، وبه تكتسب الملكات الفاخرة وبه يتوصل إلى سعادة الدنيا والاخرة ، خلا أنه أيضاً من علو الشأن ، ونمو المكان ، ونهاية الغموض والإعصال ، وصعوبة المسأخذ وعزة المنال ، في غاية الغايات القاصية ، ونهاية النهايات النائية ، أعز من بيض الأنوق ، وأبعد من مناط العيوق لا يتسنى الخروج إلى مبارجة الرفيعة ، ولا يتأتى الرقي إلى مدارجه المنيبه ، كيف لا وإنه مع كونه متضمنا لدقائق العلوم النظرية والعملية ، ومنطويا على رقائق الفنون الخفية والجلية ، حاويا لتفاصيل الأحكام الشرعية ومحيطا بمناط الدلائل الأصلية والفرعية ، ومنبثا عن أسرار الحقائق والنعوت مخبراً بأطوار الملك والملسكوت ، عليه يدور فلك الأوامر والنواهي ، وإليه تستند معرفة الأشياء كما هي ، قد نسخ على أبدع منوال وأغرب طراز^(١)

.. (١) في المطبوعة : أغرب منوال وأبدع طراز .

واحتجبت طلمعته بسبجات الإعجاز ، وطويت حقائقه الآبية عن العقول ، وزويت دقايقة الخفية عن أذهان الفحول ، يرد عيون العقول سبهجانه ، ويخطف أبصار البصائر بريقه ولمعانه .

ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير في كل عصر من الأعصار وتولى تفسير عويصات معضلاته سلاطين أسرة التقرير والتحرير في كل قطر من الأقطار ، فغاصوا في لججه ، وخاضوا في ثبجه ، فنظموا فرائده في سلك التحرير ، وأبرزوا فوائده في معرض التقرير ، وصنفوا كتباً جليلة الأقدار وأقروا زبراً جميلة الآثار ، أما المتقدمون المحققون فاقنصروا على تمهيد المعاني ، وتشديد المباني ، وتبيين المرامي^(١) وترتيب الأحكام ، حسبما بلغهم من سيد الأنام ، عليه شرائف التحية والسلام ، وأما المتأخرون المدققون ، فراموا مع ذلك لإظهار مزاياه الرائقة ، وإبداء خباياه المائقة ، ليعين الناس دلائل إعجازه ويشاهدوا شواهد فضله وامتنازه عن سائر السكاتب السكريمة الربانية ، والزبر العظيمة السبحانية ، فدوّنوا أسفاراً بارعة ، جامعة لفنون المحاسن الرائعة ، يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان ، وعوائد لطيفة تفتش^(٢) بها آذان الأذهان ، لا سيما الكشف وأنوار التنزيل ، المتفردان بالشأن الجليل ، والنعت الجميل ، فإن كلامهما قد أحرز نصب السبق أي إحراز ، كأنه مرآة لا اجتلاء وجوه الإعجاز^(٣) ، صحائفهما مرايا المزايا الحسان ، وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقيان .

ولقد كان في سوابق الأيام وسوائف الدهر والأعوام . أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما ، وزمان اتصالي لمفاوضتهما ومدارستهما ، يدور في خلدي على استمرار ، آناه الليل وأطراف النهار ، أن أنظم درر فوائدهما في نمط^(٤)

(١) في المطبوعة : يبين المرام .

(٢) في المطبوعة : يتشرف .

(٣) في المطبوعة : وجه الإعجاز .

(٤) في المطبوعة : في سمط .

دقيق ، وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق ، وأضيف إليهما ما ألفتيه في
تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق ، وصادفته في أصداف العيالم
الزاهرة من زواهر الدقائق ، وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق
وأسلوب بديع ، حسبما يقتضيه جلاله شأن التنزيل ، ويستدعيه جزالة نظمه
الجليل ، ماسنح للمعكر العليل بالعناية الربانية ، وسمح به النظر السليل بالهداية
السبحانية ، من عوارف معارف تمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب ،
وغرائب رغائب تنو إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب ، وتحقيقات
رصينة ثقيل عثرات الأفهام في مداحض الأقدام ، وتدقيقات متينة تزيل خطرات
الآوهام ، من خواطر الأنام ، في معارك أفكار تشتهب فيها الشوؤن ، ومدارك
أنظار تختلط فيها الظنون ، وأبرز من وراء أستار الكمون ، من دقائق السر
المخزون ، في خزائن الكتاب المكشون ، ما تطمعت إليه النفوس وتقر به العيون ،
من خفايا الرموز ، وخبايا الكنوز ، وأهديها إلى الخزانة العامة الغامرة
للبحار الزاهرة ، لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الأرض ، واصطفاه لسلطنتها
في الطول والعرض ، ألا وهو السلطان الأسعد الأعظم ، والخاقان الأجد
الأخيم ، مالك الإمامة العظمى ، والسلطان الباهر ، وارث الخلافة الكبرى
كابرا عن كابر ، رافع رايات الدين الأزهر ، موضح آيات الشرع الأنور ،
مرغم أنوف الفراعنة والجبابة ، معفر جباه القياصرة والآكاسره ، فاتح بلاد
المشارك والمغارب ، بنصر الله العزيز وجنده الغالب ، الهمام الذي شرق عزمه
المنير فانهى إلى المشرق الأسنى ، وغرب حتى بلغ مغرب الشمس أو أدنى ،
بخميس عرمم متزاحم الأفواج ، وعسكر كخضم متلاطم الأمواج ، فأصبح
ما بين أفق الطلوع والغرب ، وما بين نقطتي الشمال والجنوب ، منتظما في سلك
ولاياته الواسعة ، ومندرجا تحت ظلال راياته الراتقة ، فأصبحت منابر الربع
المسكون مشرفة بذكر اسمه الميمون ، فياله من ملك استوعب ملكه البر البسيط ،
واستغرق فلمكه وجه البحر المحيط ، فكأنه فضاء ضربت فيه خيامه ، أو نصبت
عليه ألويته وأعلامه ، مالك ممالك العالم ، ظل الله الظليل على كافة الأمم ،

ديباجة الكتاب

٥

قاصم القياصرة وقاهر القروم ، سلطان العرب والعجم والروم ، سلطان
المشرقين ، وخاقان الخاقين ، الإمام المقتطد بالقدرة الربانية ، والخليفة المعتن
بالعزة السبحانية ، المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين ، وحاية المقامين الجليلين
المفخمين ، ناشر القوانين السلطانية ، عاشر الخواقين العثمانية السلطان ابن
السلطان سليمان خان ابن السلطان المظفر المنصور ، والخاقان الموقر المشهور ،
صاحب المغازى المشهورة فى أقطار الأمصار ، والفتوحات المذكورة فى
صحائف الأسفار ، السلطان سليم خان ، ابن السلطان السعيد والخاقان المجيد
السلطان بايزيد خان ، لازالت سلسلة سلطنته متسلسلة إلى انتهاء سلسلة الزمان
وأرواح أسلافه العظام متنزهة فى روضة الرضوان .

وكننت أتردد فى ذلك بين إقدام وإحجام ، لقصور شأنى وعزة المرام .
أين الحضيض من الذرى ، شتان بين الثرى والثرى ، وهيهات اصطيد العنقاء
بالشباك ، واقتياد الجوزاء من بروج الأفلاك ، ففضت عليه الدهور والسنون ،
وتغيرت الأطوار ، وتبدلت الشؤون . فابتليت بتدبير مصالح العباد برهة فى قضاء
البلاد ، وأخرى فى قضاء العساكر والأجناد ، لخال يبنى وبين ما كنت إخال
تراكم المهمات ، وتزاحم الأشغال ، وجموم العوارض والعلائق ، وهجوم
الصوارف والعوائق ، والتردد إلى المغازى والأسفار ، والتنقل من دار
إلى دار .

وكننت فى تضاعيف هاتيك الأمور أقدر فى نفسى أن أنتهز نزهة من
الدهور ، ويتسنى لى القرار ، وتطمئن بى الدار ، وأظفر حينئذ بوقت خال
أبتل فيه إلى جناب ذى العظمة والجلال ، وأوجه إليه وجهتى ، وأسلم له سرى
وعلائقى ، وأنظر إلى كل شىء بعين الشهود ، وأتعرف سر الحق فى كل موجود
تلافيا لما قد فات ، واستعداداً لما هو آت ، وأتصدى لتحصيل ما عزمت عليه ،
وأتولى لتكميل ما توجهت إليه ، برفاهة واطمئنان ، وحضور قلب وفراغ
جنان ، فبينما أنا فى هذا الخيال ، إذ بدالى ما لم يخطر بالبال ، تحولت الأحوال

والدهر حول ، ف وقعت في أمر أشق من الأول ، أمرت بحل مشكلات الأنام
فيما شجر بينهم من النزاع والخصام ، فلقيت معضلة طويلة الذيول ، وصرت
كالهارب من المطر إلى السيول ، فبلغ السيل الزبي ، وغمرني أي غمر ،
غوارب ماجرى بين زيد وعمرو ، فأضحيت في ضيق المجال ، وسعة الأشغال ،
أشهر ممن يضرب بها الأمثال « فجعلت أتمثل بقول من قال :

لقد كنت أشكوك الحوادث برهة وأستمرض الأيام وهي صحائح
إلى أن تغشتنى - وقيت - حوادث تحقق أن السالفات منائح

فلما انصرفت عرى الآمال ، عن الفوز بفراغ البال ، ورأيت أن الفرصة
على جناح الفوات ، وشمل الأسباب في شرف الشتات ، وقد مسنى الكبير ،
وتضاءلت القوى والقدر ، ودنا الأجل من الحلول ، وأشرفت شمس الحياة
على الأفول عزمت على إنشاء ما كنت أنويه ، وتوجهت إلى إملاء ما ظلمت
أبتغيه ، ناويا أن أسميه عند تمامه بتوفيق الله تعالى وإنعامه «إرشاد العقل السليم إلى
مزايا الكتاب الكريم فشرعت»^(١) فيه مع تفاهم المسكاره على ، وتزحم المشادة
بين يدي ، متضرعا إلى رب العظمة والجبروت ، خلاق عالم الملك والمسلوك
في أن يعصمني عن الزيغ والزلل ، ويقيني مصارع السوء في القول والعمل ،
ويوفقني لتحصيل ما أرومه وأرجوه ، ويهديني إلى تكميله على أحسن الوجوه
ويجعله خير عدة وعتاد ، أتمتع به يوم المعاد .

فيامن توجهت وجوه الذل والابتهال نحو باب المنيع ، ورفعت أيدي
الضراعة والسؤال إلى جنابه الرفيع ، أفض علينا شوارق أنوار التوفيق ،
وأطلعنا على دقائق أسرار التحقيق ، وثبت أقدامنا على مناهج هداك ، وأنطقنا
بما فيه أمرك ورضاك ، ولا تكلنا إلى أنفسنا في لحظة ولا آن ، وخذ بناصيتنا

سورة فاتحة الكتاب

٧

إلى الخير حيث كان ، جئناك على جنباه الاستكانة ضارعين ، ولأبواب فيضك قارعين ، أنت الملاذ في كل أمر مهم ، وأنت المعاذ في كل خطب ملم ، لأرب غيرك ولاخير إلاخيرك ، بيدك مقاليد الأمور ، لك الخلق والأمر وإليك النشور .

سورة فاتحة الكتاب سبع آيات

معنى فاتحة الكتاب وأسمائها

الفاتحة في الأصل : أول ما من شأنه أن يفتح ، كالكتاب والثوب ، أطلقت عليه لكونه واسطة في فتح السك ، ثم أطلقت على أول كل شيء فيه تدريج بوجه من الوجوه كالسكلام التدريجي حصولا ، والسطور والأوراق التدريجية قراءة وعداه والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية ، أو هي مصدر بمعنى الفتح ، أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر ، إشعارا بأصالته كانه نفس الفتح ، فإن تعلقه به بالذات ، وبالباقى بواسطته ، لكن لأعلى معنى أنه واسطة في تعلقه بالباقى ثانيا . حتى يرد أنه لا يتسنى في الخاتمة ، لما أن ختم الشيء عبارة عن باوغ آخره ، وذلك لأنما يتحقق بعد انقطاع الملازمة عن أجزائه الأول ، بل على معنى أن الفتح المتعلق بالأول فتح له أولا وبالذات ، وهو بعينه فتح للمجموع^(١) بواسطته ، لكونه جزءا منه ، وكذا السكلام في الخاتمة فإن باوغ آخر الشيء يعرض للآخر أولا وبالذات ، وللشكل بواسطته ، على الوجه الذي تحققتة .

والمراد بالأول ما يعم الإضافى فلا حاجة إلى الاعتذار بأن إطلاق الفاتحة على السورة السكرية بتمامها باعتبار جزئها الأول ، والمراد بالكتاب هو المجموع الشخصى ، لا القدر المشترك بينه وبين أجزائه ، على ما (هو)^(٢) اصطلاح

(١) فى ١١ أولا وبالذات وللشكل بواسطته (٢) سقطت من المطبوعة

أهل الأصول ، ولا ضير في اشتهار السورة السكرية بهذا الاسم في أوائل عهد النبوة ، قبل تحصيل المجموع بنزول السكّل ، لما أن التسمية من جهة الله عز اسمه أو من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإذن ؛ فيسكني فيها تحصله باعتبار تحققه في عليه عز وجل أوفى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة إلى السماء الدنيا ، وأمله جبريل^(١) على السفرة ، ثم كان ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم نجوماً في ثلاث وعشرين سنة كما هو المشهور والإضافة بمعنى اللام كما في جزء الشئ لا بمعنى من كما في خاتم فضة ، لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف إليه ، لا جزئ له ، ومدار التسمية كونه مبدءاً للكتاب على الترتيب المعهود ، لا في القراءة في الصلاة ، ولا في التعليم ولا في النزول كما قيل .

أما الأول فبين ، إذ ليس المراد بالكتاب القدر المشترك الصادق على ما يقرأ في الصلاة حتى تعتبر في التسمية مبدئيتها له . وأما الأخيران فلأن اعتبار المبدئية من حيث التعليم ، أو من حيث النزول يستدعي مراعاة الترتيب في بقية أجزاء الكتاب من تينك الحثيثتين ؛ ولا ريب في أن الترتيب التعليمي والنزولي ليسا على نسق الترتيب المعهود .

وتسمى أم القرآن لسكونها أصلاً ومثلاً ، لما المبدئيتها له ، ولما لاشتغالها على ما فيه من الثناء على الله عز وجل ، والتعبد بأمره ونهيهِ ، وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب .

وتسمى أم الكتاب أيضاً كما يسمى بها اللوح المحفوظ ، لسكونه أصلاً لسكّل الكائنات ، والآيات الواضحة الدالة على معانيها لسكونها بيئة تحمل عليها

المتشابهات ، ومناطق التسمية ما ذكر في أم القرآن لاما أو رده الإمام البخاري في صحيحه من أنه يبدأ بقراءتها في الصلاة ، فإنه عما لاتعلق له بالتسمية كما أشير إليه ، وتسمى سورة الكنز ، لقوله عليه السلام : « إنها أنزلت من كنز تحت العرش »^(١) ، ولما ذكر في أم القرآن ، كما أنه الوجه في تسميتها الأساس ، والسكافية ، والرافية ، وتسمى سورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسئلة ، لاشتغالها عليها ، وسورة الصلاة لجوب قراءتها فيها ، وسورة الشفاء والشفافية لقوله عليه السلام : « هي شفاء من كل داء » ، والسبع المثاني لأنها سبع آيات تثنى في الصلاة ، أو لتكرر نزولها على ما روى أنها نزلت مرة بمكة حين فرضت الصلاة^(٢) ، وبالمدينة أخرى حين حولت القبلة ، وقد صح أنها مكية لقوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثاني » وهو مكي بالنسب .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

هل البسملة من القرآن

اختلف الأئمة في شأن التسمية في أوائل السور الكريمة فقليل إنما ليست من القرآن أصلا ، وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه ومذهب مالك ، والمشهور من مذهب قدماء الحنفية ، وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها . وقيل إنها آية مفردة^(٣) من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها ؛ وهو الصحيح من مذهب الحنفية . وقيل هي آية تامة من سورة صدرت بها ، وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ، وقد نسب إلى ابن عمر أيضا رضى الله عنهم ، وعليه يحمل إطلاق عبارة ابن الجوزي في زاد المسير^(٤) حيث قال: روى

(١) أخرجه الحافظ الدهياطي في المنبع الرابع من طريق مسلم في ثواب فاتحة .

(٢) انظر ملشا بلفاتحة في إرشاد الرحمن للاجهوري

(٣) (فذة) هكذا في ٤٨٦ ، وما اخترناه من ١١ أوضح

(٤) هو التفسير الصغير لابن الجوزي طبع أخيراً في دمشق

عن ابن عمر رضى الله عنهما أنها أنزلت^(١) مع كل سورة ، وهو أيضاً مذهب سعيد بن جبير والزهرى وعطاء وعبد الله بن المبارك ، وعليه قراءة مكة والكوفة وفقهاؤهما ، وهو القول الجديد للشافعى رحمه الله ، ولذلك يجهر بها عنده ، فلا عبرة بما نقل عن الجصاص من أن هذا القول من الشافعى لم يسبقه إليه أحد ، وقيل : إنها آية من الفاتحة مع كونها قرآناً في سائر السور أيضاً من غير تعرض لكونها جزءاً منها أولاً ، ولا لكونها آية تامة أولاً ، وهو أحد قولى الشافعى على ما ذكره القرطبي . ونقل عن الخطابي أنه قول ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم . وقيل إنها آية تامة في الفاتحة وبعض في البواقي : وقيل بعض آية في الفاتحة وآية تامة في البواقي ، وقيل إنها بعض آية في الكل ، وقيل إنها آيات من القرآن متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزءاً منها ، وهذا القول غير معزو^(٢) في الكتاب إلى أحد ، وهناك قول آخر ذكره بعض المتأخرين ولم ينسبه إلى أحد وهو أنها آية تامة في الفاتحة وليست بقرآن في سائر السور ، ولو لا اعتبار كونها آية تامة لكان ذلك أحد محملى تردد الشافعى ، فإنه قد نقل عنه أنها بعض آية في الفاتحة ، وأما في غيرها فيقول له فيها متردد ، فقول بين أن يكون قرآناً أولاً ، وقيل بين يكون آية تامة أولاً ، قال الإمام الغزالي : والصحيح من الشافعى هو التردد الثانى . وعن أحمد بن حنبل في كونها آية كاملة وفي كونها من الفاتحة روايتان ذكرهما ابن الجوزى ، ونقل أنه مع مالك ، وغيره ممن يقول إنها ليست من القرآن .

هذا والمشهور من هذه الأقاويل هى الثلاث^(٣) الأولى ، والاتفاق على إثباتها في المصاحف مع الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله عز وجل يقضى بنفى القول الأول ، وثبوت القدر المشترك بين الأخيرين

(١) فى ١١ نزلت .

(٢) فى المطبوعة : معزى خطأ .

(٣) فى المطبوعة : الثلاث .

من غير دلالة على خصوصية أحدهما ، فإن كونها جزءا من القرآن لا يستدعى كونها جزءا من كل سورة منه ، كما لا يستدعى كونها آية منفردة منه .
وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى : وما روى عن أبي هريرة من أنه عليه السلام قال : « فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم » .

وما روى عن أم سلمة من أنه عليه السلام قرأ سورة الفاتحة وعد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية . وإن دل كل واحد منها على نفي القول الثانى فليس بشيء منها نصا فى إثبات القول الثالث ، أما الأول فلأنه لا يدل إلا على كونها آيات من كتاب الله تعالى متعددة بعدد السور المصدرة بها ، لأعلى ما هو المطلوب من كونها آية تامة من كل واحدة منها ، إلا أن يلتجأ إلى أن يقال إن كونها آية متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزءا منها قول لم يقل به أحد ، وأما الثانى فساكت عن التعرض لحاها فى بقية السور ، وأما الثالث فنطاق بخلافه مع مشاركته للثانى فى السكوت المذكور . والباء فيها متعلقة بمضمر ينهى عنه الفعل المصدر بها ، كما أنها كذلك فى تسمية المسافر عند الحلول والارتحال ، وتسمية كل فاعل عند مباشرة الأفعال .

تفسيرها بالبسملة

ومعناها الاستعانة أو الملازمة تبركا ، أى باسم الله أقرأ ، أو أتلو . وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص ، كما فى إياك نعبد ، وتقدير أبدا لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية مغل بما هو المقصود ، أعنى شمول البركة للكل ، وادعاء أن فيه امثالا للحديث^(١) الشريف من جهة اللفظ والمعنى معاً ،

(١) فى المطبوعة : الحديث .

وفي تقدير أقرأ من جهة المعنى فقط ليس بشيء ، فإن مدار الامتثال هو البدء بالتسمية لا تقدير فعله ، إذ لم يقل في الحديث الكريم : « كل أمر ذي بال لم يقل فيه أو لم يضم فيه أبداً ، وهذا إلى آخر السورة الكريمة مقول على السنة العباد تلقيناً لهم ، وإرشاداً إلى كيفية التبرك باسمه تعالى ، وهداية إلى منهاج الحمد وسؤال الفضل ، ولذلك سميت السورة الكريمة بما ذكر من تعليم المسألة ، وإنما كسرت ومن حق الحروف المفردة أن تفتح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر ، كما كسرت لام الأمر ، ولام الإضافة داخلة على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء . والاسم عند البصريين من الأسماء المحذوفة الأعجاز . المبنيّة الأوائل على السكون قد أدخلت (١) عليها عند الابتداء همزة ، لأن من دأبهم البدء بالمتحرك والوقف على الساكن ، ويشهد له تصرّفهم على أسماء ويسمى (٢) وسميت ، وسمى كهدى لغة فيه قال :

والله أسماك سمي مبارك آثرك الله به إشاركا

والقلب بعيد غير مطرد ، واشتقاقه من السمو لأنه رفع للمسمى وتنويه له ، وعند الكوفيين من السمة ، وأصله وسم ، حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل إعلاها ، ورد عليه بأن الهمزة لم تعهد داخلة على ما حذف صدره في كلامهم ، ومن لغاتهم سيم (٣) وسم قال :

باسم الذي في كل سورة سمة

ولمّا لم يقل بالله للفرق بين اليمين واليمين ، أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة ههنا ، فإنها تكون تارة بذاته تعالى . وحقيقتها طلب المعونة على إيقاع الفعل وإحداثه ، أي إفاضة القدرة المفسرة عند الأصوليين من أصحابنا

(١) في ٤٨٦ ، دخلت .

(٢) في المطبوعة ، وسمى .

(٣) في المطبوعة : سم وسم

بما يتمكن به العبد من أداء مآزمه ، المنقسمة إلى ممكنة وميسرة ، وهى المطلوبة بإيادك نستعين ، وتارة أخرى باسمه عز وجل وعلا . وحقيقتها طلب المعونة فى كون الفعل معتداً به شرعاً فإنه مالم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم . ولما كانت كل واحدة من الاستعانتين واقعة وجب تعيين المراد بذكر الاسم ، وإلا فالمبتادر من قولنا بالله عند الإطلاق لاسيما عند الوصف بالرحمن الرحيم هى الاستعانة الأولى .

إن قيل : فليحمل الباء على التبرك وليستغن عن ذكر الاسم ، لما أن التبرك لا يكون إلا به ، قلنا : ذلك فرع كون المراد بالله هو الاسم ، وهل التشاجر إلا فيه ، فلا بد من ذكر الاسم لينقطع احتمال إرادة المسمى . ويتعين حمل الباء على الاستعانة الثانية أو التبرك ، وإنما لم يكتب الألف لكثرة الاستعمال قالوا : وطولت الباء عوضاً عنها .

والله أصله الإله ، فحذفت همزته على غير قياس كما ينبى عنه وجوب الإدغام ، وتعويض الألف واللام عنها ، حيث لزماه وجردا من معنى التعريف ، ولذلك قيل يا الله بالقطع ، فإن المحذوف القياسى فى حكم الثابت ، فلا يحتاج إلى التدارك بما ذكر من الإدغام والتعويض . وقيل : على قياس تخفيف الهمزة ، فيكون الإدغام والتعويض من خواص الاسم الجليل ، ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسماه عما سواه بما لا يوجد فيه من نعوت الكمال . والإله فى الأصل اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو باطل ، أى مع قطع النظر عن وصف الحقيقة والبطلان ، لامع اعتبار أحدهما لا بعينه ، ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم والصعق . وأما الله فحذف الهمزة فعلم مختص بالمعبود الحق^(١) لم يطلق على غيره أصلا ، واشتقاقه من الألاهة والألوهة .

والألوهية بمعنى العبادة حسبما نص عليه الجوهرى ، على أنه اسم منها بمعنى المألوه ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، لاعلى أنه (اسم)^(٢) صفة منها ، بدليل أنه

(١) فى المطبوعة : بالحق .

(٢) سقطت من المطبوعة

يوصف ولا يوصف به ، حيث يقال إله واحد ، ولا يقال شيء إله ، كما يقال كتاب مرقوم ، ولا يقال شيء كتاب . والفرق بينهما أن الموضوع له في الصفة هو الذات المبهمة باعتبار اتصافها بمعنى معين وقيامه بها . فمدلولها مركب من ذات مبهمة لم يلاحظ معها خصوصية أصلا ، ومن معنى معين قائم بها على أن ملاك الأمر تلك الخصوصية ، فبأي ذات يقوم ذلك المعنى يصح إطلاق الصفة عليها ، كما في الأفعال . ولذلك تعمل عملها كاسمى الفاعل والمفعول . والموضوع له في الاسم المذكور هو الذات المعينة . والمعنى الخاص ، فمدلوله مركب من ذينك المعنيين من غير رجحان للمعنى على الذات كما في الصفة ، ولذلك لم يعمل عملها .

وقيل اشتقاقه من أله بمعنى تحير ، لأنه سبحانه تحار في شأنه العقول والأفهام . وأما أله كعبد وزنا ومعنى فاشتق من الأله المشتق من أله بالكسر ، وكذا تأله واستأله اشتقاق استنوق واستحجر من الناقة والحجر . وقيل : من أله إلى فلان أى سكن إليه ، لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الأرواح إلى معرفته . وقيل من أله إذا فزع من أمر نزل به ، وآله غيره إذا أجاره ، إذ العائد به تعالى يفزع إليه وهو يجيره حقيقة أو في زعمه . وقيل : أصله لاه على أنه مصدر من لاه يليه بمعنى احتجب وارتفع ، أطلق على الفاعل مبالغة . وقيل هو اسم علم للذات الجليل ابتداء ، وعليه مدار أمر التوحيد في قولنا « لا إله إلا الله » .

ولا يخفى أن اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن إطلاقه على غيره أصلا كاف في ذلك ، ولا يقدح فيه كون ذلك الاختصاص بطريق الغلبة بعد أن كان اسم جنس في الأصل ، وقيل : هو وصف في الأصل لكنه لما غلب عليه بحيث لا يطلق على غيره أصلا صار كالعلم ، ويرده امتناع الوصف به .

واعلم أن المراد بالمنكر في كلمة التوحيد هو المعبود بالحق ، فعناها : لافرد^(١) من أفراد المعبود بالحق إلا ذلك المعبود بالحق . وقيل : أصله لاها بالسريرية فحذف الألف الثانية ، وإدخال الألف واللام عليه وتفخيم لاهه إذا لم ينكسر ما قبله سنة ، وقيل مطلقا ، وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ، ولا ينعقد به صريح اليمين ، وقد جاء لضرورة الشعر في قوله :

ألا لا بارك الله في سهيل إذا ما الله بارك في الرجال

و (الرحمن الرحيم) صفتان مبيتان من رحم د بعد جعله لازما ، بمنزلة الغرائز ، بنقله إلى رحم بالضم كما هو المشهور . وقد قيل : إن الرحيم ليس بصفه مشبهة ، بل هي صيغة مبالغة ، نص عليه سيبويه في قوله : هو رحيم فلانا . والرحمة في اللغة رقة القلب والانعطاف ، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها . والمراد ههنا التفضل والإحسان ، وإرادتهما بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه البعيد أو القريب ، فإن أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال ؛ دون المبادئ التي هي انفعالات . والأول من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى ، وإنما امتنع صرفه إلحاقا له بالأغلب في بابه من غير نظر إلى الاختصاص العارض ، فإنه كما حظر وجود فعلي حظر وجود فعلاية ، فاعتباره يوجب اجتماع الصرف وعدمه ، فلزم الرجوع إلى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص ، بأن تقاس إلى نظائرها من باب فعل يفعل ، فإذا كانت^(٢) كلها ممنوعة من الصرف لتحقق وجود فعلي فيها علم أن هذه الكلمة أيضاً في أصلها مما تحقق فيها وجود فعلي ، فتمنع^(٣) من الصرف ، وفيه من المبالغة ما ليس في الرحيم ؛ ولذلك قيل يارحم الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وتقديمه مع كون القياس تأخير رعايته لأسلوب الترقى إلى الأعلى كما في قولهم

(١) في المطبوعة : لافراد . خطأ

(٢) في المطبوعة : كان (٣) في المطبوعة : فتمنع

فلان عالم نحرير وشجاع بأسل وجواد فياض ، لأنه باختصاصه به عز وجل صار حقيقاً بأن يكون قريناً للاسم الجميل الخاص به تعالى ، ولأن ما يدل على جلال النعم وعظائمها وأصولها أحق بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها ، وإفراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة .

الحمد والمدح والشكر

(الحمد لله) الحمد هو : النعت بالجميل على الجميل ، اختيارياً كان أو مبدأً له ، على وجه يشعر ^(٣) بتوجيه إلى المنعوت وبهذه الحيثية يمتاز عن المدح ، فإنه نخال عنها ، يرشدك إلى ذلك ما ترى بينهما من الاختلاف في كيفية التعلق بالمفعول في قولك : حمدته ومدحته ، فإن تعلق الثاني بمفعوله على مناجاة تعلق عامة الأفعال بمفعولاتها ، وأما الأول فتعلقه بمفعوله منبئ عن معنى الإنهاء ، كما في قولك كلمته ، فإنه معرب عما تفيدته لام التبليغ في قولك قلت ونظيره ، وشكرته وعبدته وخدمته ، فإن تعلق كل منها منبئ عن المعنى المذكور وتحقيقه أن منفعول كل فعل في الحقيقة هو الحدث الصادر عن فاعله ولا يتصور في كيفية تعلق الفعل به — أى فعل كان — اختلاف أصلاً . وأما المفعول به الذي هو محله وموقعه فلما كان تعلقه به ووقوعه عليه على أنحاء مختلفة حسباً تقتضيه خصوصيات الأفعال بحسب معانيها المختلفة ، فإن بعضها يقتضى أن يلابسه ملابسة تامة مؤثرة فيه كعامة الأفعال ، وبعضها يستدعى أن يلابسه أدنى ملابسة . إما بالانتهاء إليه كالإعانة مثلاً ، أو بالابتداء منه كالاستعانة مثلاً ، اعتبر في كل نحو من أنحاء تعلقه به كيفية لائقة بذلك النحو ، مغايرة لما اعتبر في النحويين الآخرين .

فنظم القسم الأول من التعلق في سلك التعلق بالمفعول الحقيقي مراعاة لقوة الملابسة ، وجعل كل واحد من القسمين الآخرين من قبيل التعلق بواسطة

الجار المناسب له ، فإن قولك أعنته مشعر بانتهاء الإعانة إليه ، وقولك استعنته بابتدائها منه ، وقد يكون لفعل واحد مفعولان يتعلق بأحدهما على السكيفية الأولى ، وبالأخر على الثانية أو الثالثة ، كما في قولك حدثني الحديث ، وسألني المال ، فإن التحديث مع كونه فعلا واحدا قد تعلق بك على السكيفية الثانية ، وبالحديث على الأولى ، وكذا السؤال فإنه فعل واحد ، وقد تعلق بك على السكيفية الثالثة ^(١) وبالمال على الأولى .

ولاريب في أن اختلاف هذه السكيفيات الثلاث وتباينها واختصاص كل من المفاعيل المذكورة بما نسب إليه منها مما لا يتصور فيه تردد ولا تكبير وإن كان لا يتضح حق الاتضاح إلا عند الترجمة والتفسير ، وأن مدار ذلك الاختلاف ليس إلا اختلاف الفعل أو اختلاف ^(٢) المفعول ، وإذ لا اختلاف في مفعول الحمد والمدح تعين أن اختلافهما في كيفية التعلق ، لاختلافهما في المعنى قطعا . هذا وقد قيل المدح مطلق عن قيد الاختيار ، يقال مدحت زيدا على حسنه ورشاقته قده ، وأيا ما كان فليس بينهما ترادف ، بل أخوة من جهة الاشتقاق الكبير ، وتناسب تام في المعنى كالنصر والتأييد فإنهما يتناسبان ^(٣) معنى من غير ترادف لما ترى بينهما من الاختلاف في كيفية التعلق بالمفعول ، وإنما مرادف النصر الإعانة ، ومرادف التأييد التقوية ، فتدبر .

ثم إن ما ذكر من التفسير هو المشهور من معنى الحمد ، واللائق بالإرادة في مقام التظيم ، وأما ما ذكر في كسب اللغة من معنى الرضى مطلقا كما في قوله تعالى « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » وفي قولهم : لهذا الأمر عاقبة حميدة ، وفي قول الأطباء ، بحران محمود ، مما لا يختص بالفاعل فضلا عن الاختيار

(١) في المطبوعة الثانية : خطأ .

(٢) في ٢٩٦٠ : لاختلاف .

(٣) في المطبوعة : متناسبان

فبمعزل من^(١) استحقاق الإرادة ههنا استقلالاً أو استتباعاً بحمل الحمد على ما يعم المعنيين ، إذ ليس في إثباته له عز وجل فائدة يعتد بها . وأما الشكر فهو مقابلة النعمة بالشاء وآداب الجوارح ، وعقد القلب على وصف المنعم بنعمت الكمال كما قال من قال :

أفاددتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجب
فاذن هو أعم منهما من جهة ، وأخص من أخرى . ونقيضه الكفران ، ولما كان الحمد من بين شعب الشكر أدخل في إشاعة النعمة والاعتداد بشأنها ، وأدل على مكانها لما في عمل القلب من الخفاء ، وفي أعمال الجوارح من الاحتمال جعل الحمد رأس الشكر ، وملاكاً لأمره في قوله عليه السلام : الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لم يحمده ، وارتفاعه بالابتداء ، وخبره الطرف ، وأصله النصب كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرات التي لا تنكاد تستعمل معها ، نحو شكر أعجباً ، كأنه قيل : نحمد الله حمداً بنون الحكاية ، ليوافق ما في قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) لانحاد الفاعل في الكل ، وأما ما قيل من أنه بيان لخدمهم له تعالى ، كأنه قيل : كيف تحمدون فقيل إياك نعبد فمع أنه لا حاجة إليه بما لا صحة له في نفسه ، فإن السؤال المقدر لا بد أن يكون بحيث يقتضيه انتظام الكلام وتنساق إليه الأذهان والأفهام ، ولا ريب في أن الحامد بعد ما ساق حمده تعالى على تلك الكيفية اللائقة لا يخطر ببال أحد أن يسأل عن كيفيته على أن ما قدر من السؤال غير مطابق للجواب ، فإنه مسوق لتعيين المعبود ، لا لبيان العبادة ، حتى يتوهم كونه بياناً لخدمهم^(٢) والاعتذار بأن المعنى نخصك بالعبادة وبه كيفية الحمد تعكيس الأمر ، وتمحل لتوفيق المنزل المقرر بالموهوم المقدر .

وبعد التليا والتي إن فرض السؤال من جهته عز وجل فانت نكتة الالتفات التي أجمع عليها السلف والخلف ، وإن فرض من جهة الغير يحتل النظام لا بتناء الجواب على خطابه تعالى ، وبهذا يتضح فساد ما قيل إنه استئناف جواب السؤال

(١) في ١١ «عن» واخترنا ما في ٤٨٦ (٢) في ١١ لسبب كيفية حمد

يقتضيه إجراء تلك الصفات العظام على الموصوف بها ، فيكأنه قيل : ما شأنكم معه وكيف توجهكم إليه ، فأجيب بحصر العبادة والاستعانة فيه ، فإن تناسى جانب السائل بالكلية وبناء الجواب على خطابه عن وعلا بما يجب تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله .

والحق الذي لا يحيد عنه استئناف صدر عن الحامد بمحض ملاحظة اتصافه تعالى بما ذكر من النعوت الجليلة الموجبة للإقبال الكلي عليه ، من غير أن يتوسط هناك شيء آخر كما يستحيط به خبرا ، ولا يثار الرفع على النصب الذي هو الأصل الإيذان بأن ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لإثبات مثبت ، وأن ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما نفيده قراءة النصب ، وهو السر في كون تسمية الخليل للملائكة عليهم التحية والسلام أحسن من تسميتهم له في قوله تعالى : (قالوا سلاما قال سلام) وتعريفه للجنس ، ومعناه الإشارة إلى الحقيقة من حيث هي حاضرة في ذهن السامع ، والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى المستدعى لتخصيص جميع أفرادها به سبحانه على الطريق البرهاني ، لكن لا بناء على أن أفعال العباد مخلوقة له تعالى ، فتكون الأفراد الواقعة بمقابلة ما صدر عنهم من الأفعال الجليلة راجعة إليه تعالى ، بل بناء على تنزيل تلك الأفراد ودواعيها في المقام الخطابى منزلة عدم كيفاً وكماً .

وقد قيل للاستعراق الحاصل بالقصد إلى الحقيقة من حيث تحققها في ضمن جميع أفرادها ، حسبما يقتضيه المقام ، وقرئ : الحمد لله بكسر الدال إتباعاً لها باللام ، وبضم اللام إتباعاً لها بالدال ، بناء على تنزيل الكلمتين لسكثرة استعمالهما مقترنتين منزلة كلمة واحدة ، مثل المغيرة ومنحدر الجبل .

(رب العالمين) بالجر على أنه صفة لله ، فإن إضافته حقيقية مفيدة للتعريف على كل حال ، ضرورة تعيين إرادة الاستمرار ، وقرئ منصوباً على المدح ، أو بما دللت عليه الجملة السابقة ، كأنه قيل : نحمد الله رب العالمين ولا مساغ لنصبه بالحمد لقلة أعمال المصدر المحلى باللام ، وللزوم الفصل بين العامل والمعمول بالخبر ، والرب في الأصل مصدر بمعنى التربية وهى تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ، وصف به الفاعل مبالغة كالعدل .

وقيل : صفة مشبهة ، من ربه يربه ، مثل نمة ينمه ، بعد جعله لازماً بنقله إلى فعل بالضم ، كما هو المشهور ، سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربّه ، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كرب الدار ورب الدابة ، ومنه قوله تعالى (فيسقى ربه خمرآ) وقوله تعالى (فارجع إلى ربك) وما في الصحيحين من أنه عليه السلام قال : « لا يقل أحدكم أطعم ربك ، وضئ ربك ، ولا يقل أحدكم ربى ، وليقل سيدى ومولاي » .

فقد قيل إن النهى فيه للتنزيه ، وأما الأرباب فحيث لم يمكن ^(١) إطلاقه على الله سبحانه جاز في إطلاقه الإطلاق والتقيد ، كما في قوله (أرباب متفرقون خير) الآية . والعالم اسم لما يعلم به ، كالتام والقالب . غلب فيما يعلم به الصانع تعالى من المصنوعات أى فى القدر المشترك بين أجناسها وبين مجموعها ، فإنه كما يطلق على كل جنس جنس منها فى قولهم عالم الأفلاك ، وعالم العناصر ، وعالم النبات ، وعالم الحيوان ، إلى غير ذلك ، يطلق على المجموع أيضاً ، كما فى قولنا العالم بجميع أجزائه محدث ، وقيل : هو اسم لأولى العلم من الملائكة والمثقلين وتناوله لما سواهم بطريق الاستتباع .

وقيل : أريد به الناس فقط ، فإن كل واحد منهم من حيث اشتماله على نظائر ما فى العالم الكبير من الجواهر والأعراض يعلم بها الصانع ، كما يعلم بما فى كل ^(٢) عالم على خياله ، ولذلك أمر بالنظر فى الأنفس كالنظر فى الآفاق ، فقل (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) والأول هو الأحق الأظهر ، وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى بجميع ^(٣) الأجناس ، والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها ، إذ لو أفرد لربما توهم أن المقصود بالتعريف هو الحقيقة من حيث هى ، أو استغراق أفراد جنس واحد على الوجه الذى أشير إليه فى

(١) فى المطبوعة لم يكن . خطأ

(٢) فى المطبوعة بما فيه عالم . خطأ

(٣) فى المطبوعة ؛ جميع الاجناس .

تعريف الحد ، وحيث صح ذلك بمساعدة التعريف نزل العالم — وإن لم ينطلق على آحاد مدلوله — منزلة الجمع ، حتى قيل إنه جمع لا واحد له من لفظه ، فكما أن الجمع المعرف يستغرق آحاد مفرده وإن لم يصدق عليها كما في مثل قوله تعالى (والله يحب المحسنين) أى كل محسن ، كذلك العالم يشمل أفراد الجنس المسمى به ، وإن لم ينطلق عليها ، كأنها آحاد مفرده التقديرى ، ومن قضية هذا التنزيل تنزيل جمعه منزلة جمع الجمع ، فكما أن الأقاويل تتناول كل واحد من آحاد الأقوال ، يتناول لفظ العالمين كل واحد من آحاد الأجناس التى لا تسكاد تخصى .

روى عن وهب بن منبه أنه قال : لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، والدنيا عالم منها ، وإنما جمع بالواو والتون مع اختصاص ذلك بصفات العقلاء وما فى حكمها من الأعلام لدلالته على معنى العلم ، مع اعتبار تغليب العقلاء على غيرهم ، واعلم أن عدم انطلاق اسم العالم على كل واحد من تلك الآحاد ليس إلا باعتبار الغلبة والاصطلاح ، وأما باعتبار الأصل فلا ريب فى صحة الإطلاق قطعاً لتحقيق المصداق حتماً فإنه كما يستدل على الله سبحانه بمجموع ما سواه ، وبكل جنس من أجناسه يستدل عليه تعالى بكل جزء من أجزاء ذلك المجموع ، وبكل فرد من أفراد تلك الأجناس ، لتحقيق الحاجة إلى المؤثر الواجب لذاته فى الكل ، فإن كل ما ظهر فى المظاهر مما عز وهان وحضر فى هذه المحاضر كأنها ما كان دليل لأشع على الصانع المجيد ، وسبيل واضح إلى عالم التوحيد ، وأما شمول ربوبيته عز وجل للكل فما لا حاجة إلى بيانه ، إذ لا شئ مما أحقق به نطاق الإمكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات والجسمانيات^(١) إلا وهو فى حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه أنا واحداً لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار ، إلا فى مطمورة العدم

(١) فى المطبوعة : والجسمانيات .

ومهاوى البوار ، لكن يفيض عليه من الجنب الأقدس ، تعالى شأنه وتقدس ، في كل زمان يمضى ، وكل آن يمر وينقضى ، من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ، وجوده وصفاته وكمالاته مما لا يحيط به فلك التعبير ولا يعلمه إلا العليم الخبير ، ضرورة أنه كما لا يستحق شيء من الممكنات بذاته الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء ، وإنما ذلك من جنب المبدى الأول^(١) عز وعلا ، فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسده عليه جميع أنحاء عدمه الأصلي ، لا يتصور بقاءه على الوجود بعد تحققه بعلمه ، ما لم ينسده عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ ، لما أن الدوام من خصائص الوجود الواجب ، وظاهر أن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التي هي الله وشرائطه وإن كانت متناهية لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود ، لكن الأمور العدمية التي لها دخل في وجوده وهي المعبر عنها بارتفاع الموانع ليست كذلك ، إذ لا استحالة في أن يكون لشيء واحد موانع غير متناهية يتوقف وجوده أو بقاءه على ارتفاعها ، أى بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها^(٢) فإبقاء تلك الموانع التي لا تنهاى على العدم تربية لذلك الشيء من وجوه غير متناهية .

وبالجملة فآثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات في كل آن من آتات الوجود غير متناهية فسبحانه ما أعظم شأنه^(٣) لا تلاحظه العيون بأنظارها ، ولا تطالعه العقول بأفكارها ، شأنه لا يضاهى ، وإحسانه لا يتناهى ، ونحن في معرفته حائرون . وفي إقامة مراسم شكره قاصرون ، نسألك اللهم الهداية إلى مناهج معرفتك ، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك ، لانخصي ثناء عليك لا إله إلا أنت ، نستغفرك ونتوب إليك .

(١) في المطبوعة المبدأ الأول .

(٢) في المطبوعة : في نفسها .

(٣) في المطبوعة : سلطنة .

سورة فاتحة الكتاب

٢٣

(الرحمن الرحيم) صفتان لله ، فإن أريد بما فيهما من الرحمة ما يخص بالعقلاء من العالمين ، أو ما يفيض على الكل بعد الخروج إلى طور الوجود من النعم ، فوجه تأخيرهما عن وصف الربوبية ظاهر ، وإن أريد ما يعم الكل في الأطوار كلها حسبا في قوله تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء) فوجه الترتيب أن الترتيب لا تقتضي المقارنة للرحمة ، فأرادها في عقبيها ^(١) للإيدان بأنه تعالى متفضل فيها فاعل بقضية رحمته السابقة من غير وجوب عليه ، وبأنها واقعة على أحسن ما يكون والاقتصار على نعمته تعالى بهما في التسمية لما أنه الأنسب بحال المتبرك المستعين باسمه الجليل ، والأوفق لمقاصده .

(مالك يوم الدين) صفة رابعة له تعالى ، وتأخيرها عن الصفات الأولى بما لا حاجة إلى بيان وجهه ، وقرأ أهل الحرمين المزمعين (مالك) من المالك الذي هو عبارة عن السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، والغلبة العامة ، والقدرة على التصرف السطحي في أمور العامة ، بالامر والنهي وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى يوم الدين ، كما في قوله تعالى (لمن المالك اليوم لله الواحد القهار) وقرئ (ملك) بالتخفيف و (ملك) بلمعظ الماضي ، (وملك) بالنصب على المدح ، أو الحال ، وبالرفع منونا ومضافا على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وملك مضافا بالرفع والنصب ، واليوم في العرف عبارة عما بين حناجع الشمس وغروبها من الزمان ، وفي الشرع عما بين صاوع العجر الثاني وغروب الشمس والمراد ههنا مطلق الوقت ، والدين الجزاء خيرا كان أو شرا ، ومنه الثاني في المثل السائر كما تدين تدان ، والأول في بيت الحسانه :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وأما الأول في الأول والثاني في الثاني فليس بجزم حقيقة ، وإنما سمي به

(١) في المطبوعة : فأرادها في عقبيها .

مشاكلة . أو تسمية للشئ باسم مسببه كما سميت إرادة القيام والقراءة باسمهما في قوله عز اسمه (إذا قمتم إلى الصلاة) وقوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) ولعله هو السر في بناء المفاعلة من الأفعال التي تقوم أسبابها بمفعولاتها ، نحو عاقبت اللص ونظائره ، فإن قيام السرقة التي هي سبب للعقوبة باللص نزل منزلة قيام المسبب به ، وهي العقوبة ، فصار كأنها قامت بالجانبين ، وصدرت عنهما ، فبنيت صيغة المفاعلة الدالة على المشاكلة بين^(١) اثنين وإضافة اليوم إليه لأدنى ملازمة كإضافة سائر الظروف الزمانية إلى ما وقع فيها من الحوادث ، كيوم الأحزاب وعام الفتح ، وتخصيصه من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والجمع والحساب لكونه أدخل في الترغيب والترهيب ، فإن ما ذكر من القيامة وغيرها من مبادئ الجزاء ومقدماته وإضافة مالك إلى اليوم لإضافة اسم الفاعل إلى الظرف ، على تهيج الاتساع المبني على إجرائه مجرى المفعول به ، مع بقاء المعنى على حاله ، كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار . أى : مالك أمور العالمين كلها في يوم الدين . وخلو إضافته عن إفادة التعريف المسوغ لوقوعه صفة للمعرفة إنما هو إذا أريد به الحال ، أو الاستقبال ، وأما عند إرادة الاستمرار الثبوتى كما هو اللائق بالمقام فلا ريب في كونها إضافة حقيقية كإضافة الصفة المشبهة إلى غير معمولها في قراءة (ملك يوم الدين) .

ويوم الدين وإن لم يكن مستمرا في جميع الأزمنة إلا أنه لتحقيق وقوعه وبقائه أبدا أجرى مجرى المتحقق المستمر . ويجوز أن يراد به الماضى بهذا الاعتبار ، كما تشهد به القراءة على صيغة الماضى ، وما ذكر من إجراء الظرف مجرى المفعول به إنما هو من حيث المعنى ، لا من حيث الإعراب ، حتى يلزم كون الإضافة لفظية ، ألا ترى أنك تقول في مالك عبده أمس لأنه مضاف إلى المفعول به ، على أنه كذلك معنى ، لا أنه منصوب محلا ، وتخصيصه بالإضافة إما

(١) فى المطبوعة : على المشاركة بين الاثنين .

لتعظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر فيه ، وانتطاع العلائق الجارية^(١) بين الملاك والأملاك حينئذ بالكلية ، وإجراء هاتيك الصفات الجائلة عليه سبحانه لتعليل لما سبق من اختصاص الحمد له تعالى ، المستلزم لاختصاص استحقاقه به تعالى ، وتمهيد لما لحق من اقتصار العبادة والاستعانة عليه ، فإن كل واحدة منها مفصحة عن وجوب ثبوت كل واحد منها له تعالى ، وامتناع ثبوتها لما سواه .

أما الأولى والرابعة فظاهر ، لأنهما متعريضتان صراحة لكونه تعالى ربا مالسكا وما سواه مربوباً بملوكا له تعالى .

وأما الثانية والثالثة فلأن اتصافه تعالى بهما ليس إلا بالنسبة إلى ما سواه من العالمين وذلك يستدعي أن يكون الكل منهما عليهم ، فظهر أن كل واحدة من تلك الصفات كما دلت على وجوب ثبوت الأمور المذكورة له تعالى دلت على امتناع ثبوتها لما عداه على الإطلاق ، وهو المعنى بالاختصاص .

(إياك نعبد وإياك نستعين) .

سر وجوب الفاتحة في الصلاة

التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وتلوين للنظم من باب إلى باب ، جار على نهج البلاغة في افتتان الكلام ، ومسالك البراعة حسبا يقتضى المقام ، لما أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب ، أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكليم والخطاب ، وإخيه إلى كل واحد من الآخرين ، كما في قوله عز وجل (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا) الآية ، وقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردة

(١) فى المطبوعة : المجازية . خطأ

في التنزيل لأسرار تقتضيها ، ومن ايا تستدعيها . وبما استأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة الدالة على أن تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى لما أجرى عليه من النعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكمل تميز ، وأتم ظهور ، بحيث تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور ، فاستدعى استعمال صيغة الخطاب ، والإيذان بأن حق التالي بعد ما تأمل فيما سلف من فقرده تعالى بذاته الأقدس ، المستوجب للعبودية ، وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية ، واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميزة له عن جميع أفراد العالمين ، وافتقار الكل إليه في الذات والوجود ابتداء وبقاء ، على التفصيل الذي مرت إليه الإشارة أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة البيان^(١) وينتقل من عالم الغيبة إلى معالم الشهود ، ويلاحظ نفسه في حظائر القدس حاضرا في محاضر الأنس ، كأنه واقف لدى مولاه مائل بين يديه ، وهو يدعو بالخضوع والإخبات ، ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلا : يا من هذه شؤون ذاته وصفاته ، نخصك بالعبادة والاستعانة ، فإن ما سواك كائننا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود ، فضلا عن استحقاق أن يعبد ويستعان ، ولعل هذا هو السر في اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعة من الصلاة التي هي (من)^(٢) مناجاة العبد لمولاه وممنته للتبتل إليه بالكلية ، وإيا ضمير منفصل منصوب ، وما يلحقه من الكاف والياء والهاء حروف زيدت لتعيين الخطاب ، والتكلم والعيبة لالحل لها من الإعراب ، كالتاء في أنت والكاف في رأيك ، وما ادعاه الخليل من الإضافة محتجا عليه بما حكاه عن بعض العرب : إذا بلغ الرجل الستين فيأياه وإيا الشواب ، فيما لا يعول عليه . وقيل هي : الضمائر ، وإيا دعامة لها لتصيرها منفصلة ، وقيل الضمير هو المجموع ، وقرى (إياك) بالتخفيف وبفتح الهمزة والتشديد ، وهياك بقلب الهمزة هاء .

(٢) سقطت من المطبوعة

(١) في ٤٨٦ : العيان .

العبادة والعبودية والاستعانة

والعبادة أقصى غاية التذلل والخضوع ، ومنه طريق معبد أى مذل ، والعبودية أدنى منها ، وقيل : العبادة فعل ما يرضى به الله ، والعبودية الرضى بما فعل الله تعالى ، والاستعانة طلب المعونة على الوجه الذى مر بيانه ، وتقديم المفعول فيهما لما ذكر من القصر والتخصيص كما فى قوله تعالى (ولما رأى فارهبون) مع ما فيه من التعظيم والاهتمام به ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : معناه نعبدك ولا نعبد غيرك ، وتكرير الضمير المنصوب للتخصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة ، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب ، وتقديم العبادة لما أنها من مقتضيات مدلول الاسم الجليل ، وإن ساعدته^(١) الصفات المجراة عليه أيضاً ، وأما الاستعانة فن الأحكام المبنية على الصفات المذكورة ولأن العبادة من حقوق الله تعالى ، والاستعانة من حقوق المستعين ، ولأن العبادة واجبة حتماً ، والاستعانة تابعة للمستعان فيه فى الوجوب ، وعدمه ، وقيل لأن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول ، هذا على تقدير كون إطلاق الاستعانة على المفعول فيه ليتناول كل مستعان فيه ، كما قالوا وقد قيل : إنه لما كان المسئول هو المعونة فى العبادة والتوفيق لإقامة مراسمها على ما ينبغى ، وهو اللائق بشأن التنزيل ، والمناسب لحال الخادم ، فإن استعانت به مسبوقة بملاحظة فعل من أفعاله ، ليستعينه تعالى فى إيقاعه ، ومن البين أنه عند استغراقه فى ملاحظة شؤونه تعالى ، واشتغاله بأداء ما توجبه تلك الملاحظة من الحمد والثناء ، لا يكاد يخطر بباله من أفعاله وأحواله إلا الإقبال الكلى عليه ، والتوجه التام إليه ، ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى أولاً ، وباستدعاء الهداية إلى ما يوصل إليه آخرأ فكيف يتصور أن يشتغل فيما بينهما بما لا يعنيه من أمور دنياه أو بما يعمها وغيرها ، كأنه قيل : وإياك

(١) فى المطبوعة : ساعده خطأ .

نستعين في ذلك ، فإننا غير قادرين على أداء حقوقك^(١) من غير إعانة منك فوجه الترتيب حينئذ واضح ، وفيه من الإشعار بعلو رتبة عبادته تعالى وعزة منالها ، وبكونها عند العابد أشرف المباحي والمقاصد وبكونها من مواهبه تعالى لامن أعمال نفسه ، ومن الملائمة^(٢) لما يعقبه من الدعاء ما لا يخفى .

وقيل الواو للحال ، أى إياك نعبد مستعينين بك ، وإيثار صيغته المتكلم مع الغير في الفعلين للإيذان بقصور نفسه ، وعدم لياقته للوقوف^(٣) في مواقف الكبرياء منفرداً ، وعرض العبادة ، واستدعاء المعونة والهداية مستقلاً ، وأن ذلك إنما يتصور من عصاية هو من جملتهم ، وجماعة هو من زميرتهم ، كما هو ديدن الملوكة ، أو للإشعار باشتراك سائر الموحدين له في الحالة العارضة له ، بناء على تعاضد الأدلة الملجئة إلى ذلك ، وقرىء (نستعين) بكسر النون على لغة بني تميم .

(إهدنا الصراط المستقيم) لإفراد لمعظم فراد المعونة المسئولة بالذكر ، وتعيين لما هو الأهم أو بيان لها ، كأنه قيل : كيف أعينكم فقل : اهدنا .

أجناس الهداية

والهداية دلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية ، ولذلك اختصت بالخير ، وقوله تعالى (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وارد على نهج التهميم ، والأصل تعديتها^(٤) إلى واللام ، كما في قوله تعالى : (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق) فعومل معاملة اختار في قوله تعالى (واختار موسى

(١) في المطبوعة : حقوقه . خطأ .

(٢) في المطبوعة : الملائمة . خطأ .

(٣) في المطبوعة : بالوقوف .

(٤) في المطبوعة : تعديته .

قوله (وعليه قوله تعالى : (لنهدينهم سبلنا) وهداية الله تعالى مع تنوعها إلى أنواع لاتكاد تحصر منحصرة في أجناس مترتبة ، منها انفسية ، كإفاضة القوى الطبيعية والحيوانية التي بها يصدر عن المرء فاعيله الطبيعية الحيوانية ، والقوى المدركة ، والمشاعر الظاهرة والباطنة التي بها يتمكن من إقامة مصالحه المعاشية والمعادية ، ومنها آفاقية فإما تكوينية معربة عن الحق بلسان الحال ، وهي نصب الأدلة المودعة في كل فرد من أفراد العالم حسبما لوح به فيما سلف ، وإماتنزيلية مفصحة عن تفاصيل الأحكام النظرية والعملية بلسان المقال ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب المنطوية على فنون الهدايات التي من جملتها الإرشاد إلى مسلك الاستدلال بتلك الأدلة التكوينية الآفاقية والانفسية ، والتبنيه على مكانها ، كما أشير إليه مجملًا في قوله تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وفي قوله عز وعلا : (إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) ومنها الهداية الخاصة وهي كشف الأسرار على قلب المهدي بالوحى ، أو الإلهام .

ولسكل مرتبة من هذه المراتب صاحب ينتجها ، وطالب يستدعيها ، والمطلوب إما زيادتها كما في قوله تعالى (والذين اهتمدوا زادهم هدى) وإما الثبات عليها كما روى عن علي وأبي رضى الله عنهما : إهدنا ثبتنا ، ولفظ الهداية على الوجه الأخير^(١) مجاز قطعاً ، وأما على الأول فإن اعتبر مفهوم الزيادة داخلاً في المعنى المستعمل فيه كان مجازاً أيضاً ، وإن اعتبر خارجاً عنه مدلولاً عليه بالقرائن كان حقيقة ، لأن الهداية الزائدة هداية ، كما أن العبادة الزائدة عبادة ، فلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وقرىء أرشدنا ، والصرط الجادة وأصله السين ، قلبت صاداً لمكان الطاء كمصيطر في مسيطر ، من شرط الشيء إذا ابتلعه ، سميت به لأنها تسترط السابلة إذا سلكوها ، كما سميت لقا لأنها

(١) في المطبوعة الآخر .

لأنها تلتقيهم وقد تشم الصاد صوت الزامى تحرياً للقرب من المبدل منه . وقد قرىء بهن جميعاً ، وفصحاهن لإخلاص الصاد ، وهي لغة قريش ، وهي الثابتة في الإمام ، وجمعة صراط ككتاب وكتب ، وهو كالطريق والسبيل في التذكير والتأنيث ، والمستقيم المستوى ، والمراد به طريق الحق وهي الملة الخفيفة السمحة المتوسطة بين الإفراط والتفريط .

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ بدل من الأول بدل السبيل ، وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة ، وفائدته التأكيد والتنصيص على أن طريق الذين أنعم الله عليهم وهم المسلمون هو العلم في الاستقامة ، والمشهود له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم إلا إليه .

النعم ومن الذين أنعم الله عليهم

ولإطلاق الإناعام لقصد الشمول ، فإن نعمة الإسلام عنوان النعم كلها ، فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها : وقيل : المراد بهم الأنبياء عليهم السلام ولعل الأظهر أنهم المذكورون في قوله عز قائلًا (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) بشهادة ما قبله من قوله تعالى (ولهديناهم صراطاً مستقيماً) وقيل : هم أصحاب موسى وعيسى عليهما (الصلاة^(١) و) السلام قبل النسخ والتحريف وقرىء صراط من أنعمت عليهم والإناعام إيصال النعمة وهي في الأصل الحالة التي يستلذها الإنسان من النعمة وهي اللين ثم أطلقت على ما تستلذه النفس من طيبات الدنيا .

ونعم الله تعالى مع استحالة إحصائها تنحصر^(٢) أصولها في دنيوى وأخروى والأول قسمان : وهبى وكسبى ، والوهبى أيضاً قسمان : روحانى كتفخ الروح

(١) سقطت من المطبوعة .

(٢) في ١١ : تستعصر .

فيه ، وإمداده بالعقل ، وما يتبعه من القوى المدركة ، فإنها مع كونها من قبيل الهدايات نعم جليلة في أنفسها ، وجسماني كتحليق البدن والقوى الحاملة فيه ، والهيئات العارضة له من الصحة وسلامة الأعضاء ، والسكبي تخلية النفس عن الرذائل ، وتحليتها بالأخلاق السنية ، والمملكات البهية ، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المرصية ، وحصول الجاه والمال .

والثاني^(١) مغفرة ما فرط منه ، والرضى عنه ، وتبوءته في أعلى عليين ، مع المقرين والمطلوب هو القسم الأخير ، وما هو ذريعة إلى نيله من القسم الأول ، اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم ، ورحمتك الواسعة .

﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ : صفة للموصول على أنه عبارة عن إحدى الطوائف المذكورة المشهورة بالإلزام عليهم ، وباستقامة المسلك ، ومن ضرورة هذه الشهرة شهرتهم بالمغايرة لما أضيف إليه كلمة غير من المتصفين بضد الوصفين المذكورين ، أعنى مطلق المغضوب عليهم والضالين ، فاكتملت بذلك تعريفاً مصححاً لوقوعها صفة للمعرفة كما في قولك : عليك بالحركة غير السكون ، وصفوا بذلك تكلمة لما قبله وإيذاناً بأن السلامة مما ابتلى به أولئك نعمة جليلة في نفسها ، أى الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التي هي نعمة الإيمان ونعمة السلامة من الغضب والضلال . وقيل المراد بالموصول طائفة من المؤمنين لا بأعيانهم ، فيكون بمعنى النكرة كندى اللام إذا أريد به الجنس في ضمن بعض الأفراد لا بعينه ، وهو المسمى بالمعهود الذهنى ، و(المراد)^(٢) بالمغضوب عليهم والضالين اليهود والنصارى ، كما ورد في مسند أحمد والترمذى فيبقى لمض غير على إيهامه نكرة مثل موصوفة ، وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة محل ببدلية ما أضيف ، إليه بما قبله ، فإن مدارها كون صراط المؤمنين

(١) المراد النعم الأخروية .

(٢) سقطت من المطبوعة

علما في الإستقامة مشهوداً له بالاستواء على الوجه الذي تحققت فيه سلف ، ومن البين أن ذلك من حيث إضافته وانتسابه إلى كلهم لا إلى بعض مذهب منهم ، وبهذا تبين ألا سبيل إلى جعل غير المغضوب عليهم بدلا من الموصول^(١) لما عرفت من أن شأن البدل أن يفيد متبوعه مزيد تأكيد وتقرير ، وفضل إيضاح وتفسير ، ولا ريب في أن قصارى أمر مانحن فيه أن يكتسب بما أضيف إليه نوع تعرف مصحح لوقوعه صفة للموصول ، وأما استحقاق أن يكون مقصودا بالنسبة مفيداً لما ذكر من الفوائد فكلا ، وقرىء بالنصب على الحال ، والعامل أنعمت ، أو على المدح ، أو على الاستثناء إن فسر النعمة بما يعم القليل .

والغضب هيجان النفس لإرادة الانتقام وعند اسناده إلى الله سبحانه يراد به غايته بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه القريب إن أريد به إرادة الانتقام ، وعلى مسببه البعيد إن أريد به نفس الانتقام ، ويجوز حمل الكلام على التمثيل ، بأن تشبه الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة وإرادة الانتقام منهم لمعاصيهم بما ينتزع من حال الملك إذا غضب على الذين عصوه ، وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبهم ، وعليهم مرتفع بالمغضوب ، قائم مقام فاعله والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخير إليه عز وجل ، دون أضدادها ، كما في قوله تعالى : (الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين) ، وقوله تعالى : (ولنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) ولا مزيدة لتأكيد ما أفاده غير من معنى النفي كأنه قيل : إن ولا المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولذلك جاز إن زيداً^(٢) غير ضارب ، جواز إن زيداً لا ضارب وإن امتنع إن زيداً مثل ضارب ، والضلال هو

(١) في ١١ . الموصوف .

(٢) في المطبوعة ، أن زيداً في الفقرة كلها خطأ .

العدول عن الصراط السوى ، وقرىء وغير الضالين ، وقرىء ولا الضالين ، بالهمزة على لغة من جد في الهرب عن التقاء الساكنين .

﴿ آمين ﴾ اسم فعل هو : استجب ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آمين ، فقال : « افعل » ، بنى على الفتح كأين لايتقاء الساكنين ، وفيه لغتان مد ألفه وقصرها قال :

* ويرحم الله عبداً قال آمينا * وقال : * آمين فزاد الله ما بيننا بعداً *

عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لقننى جبريل آمين عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب ، وقال : إنه كالتخم على الكتاب » .

حكم قراءة آمين فى الصلاة

وليس من القرآن وفاقا ، ولكن يسن ختم السورة الكريمة بها والمشهور عن أبى حنيفة رحمه الله أن المصلى يأتى بها مخافتة ، وعنه أنه لا يأتى بها الإمام لأنه الداعى وعن الحسن مثله ، وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس بن مالك عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وعند الشافعى رحمه الله يجهر بها ، لما روى وائل بن حجر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ، ورفع بها صوته . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بن كعب « ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والإنجيل والقرآن مثلها ؟ قلت بلى يا رسول الله قال : فاتحة الكتاب لأنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته ^(١) » وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا ، فيقرأ صبي من صبيانهم فى الكتاب الحمد لله رب العالمين ، فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة » ^(٢) .

(١) أخرجه الحافظ الديلمى فى المتجر الرابع لمسلم وأحمد والطبرانى فى الأوسط .

(٢) الطبرانى فى الصغير وفى إسناده كلام

سورة البقرة مدنية وهي مائتان وسبع وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم
آراء في الحروف المقطعة

﴿ ألم ﴾ الالفاظ التي يعبر بها عن حروف المعجم التي من حملتها المقطعات المرقومة في فواتح السور السكرية أسماء لها ، لاندرجها تحت حد الاسم ، ويشهد به ما يعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الاسم ، وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية ، وما وقع في عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة ، وأما ماروى عن ابن مسعود رضى الله عنه من أنه عليه السلام قال : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف ، وفي رواية الترمذى والدارمى : « لا أقول ألم حرف ذلك الكتاب حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف والذال حرف والكاف حرف ، فلا تعلق له بما نحن فيه قطعاً ، فإن إطلاق الحرف على ما يقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة . وإنما الحرف عند الأوائل ما يتركب منه الكلام من الحروف المبسوطة ، وربما يطلق على الكلمة أيضاً تجوزاً وأريد^(١) بالحديث الشريف دفع توهم التجوز ، وزيادة تعيين إردة المعنى الحقيقي ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية ، بل بعدد حروفها المكتوبة في المصاحف ، كما يلوح به ذكر كتاب الله دون كلام الله أو القرآن ، وليس هذا من تسمية الشيء باسم مدلوله في شيء كما قيل كيف لا والمحكوم عليه بالحرفية واستتباع الحسنة إنما هي المسميات البسيطة الواقعة في كتاب الله عز وجل^(٢) ، سواء عبر عنها بأسمائها المؤلفة كما إذا قلنا^(٣) الألف مؤلف من ثلاثة أحرف ، فسكاً أن الحسنة في قراءة قوله تعالى

(١) في المطبوعة : فأريد .

(٢) في المطبوعة : وجل .

(٣) في المطبوعة : قلت .

(ذلك الكتاب) بمقابلة حروفه البسيطة ، وموافقة لعددتها كذلك في قراءة قوله تعالى (ألم) بمقابلة حروفه الثلاثة المكتوبة وموافقة لعددتها ، لا بمقابلة أسمائها الملفوظة ، والألفات الموافقة في العدد ، إذ الحكم بأن كلا منها حرف واحد مستلزم للحكم بأنه مستتبع لحسنة واحدة ، فالعبرة في ذلك بالمعبر عنه دون المعبر به ، ولعل السرفيه أن استتباع الحسنة منوط بإفادة المعنى المراد بالكلمات القرآنية . فكما أن سائر الكلمات الشريفة لا تفيد معانيها إلا بتلفظ حروفها بأنفسها ، كذلك الفواتح المكتوبة لا تفيد المعاني المقصودة بها إلا بالتعبير عنها بأسمائها ، فجعل ذلك تلفظاً بالمسميات كالقسم الأول من غير فرق بينهما .

ألا ترى إلى ما في الرواية الأخيرة من قوله عليه السلام « والذال حرف والكاف حرف ، كيف عبر عن طرفي ذلك بإسميهما ، مع كونهما ملفوظين بإسميهما^(١) ، ولقد روعيت في هذه التسمية نسكته رابعة^(٢) ، حيث جعل كل مسمى لاسكونه من قبيل الألفاظ صدرأ لاسمه ، ليكون هو المفهوم منه لثَر ذى أثر ، خلا أن الألف حيث تعذر الابتداء بها استعيرت مكانها الهمزة . وهى معرفة إذ لا مناسبة بينها وبين مبنى الأصل ، لاسكنها ما لم تلتها العوامل ساكنة الأعجاز على الوقف كأسماء الأعداد وغيرها ، حين خلّت عن العوامل ، ولذلك قيل : صاد ، وقاف ، مجموعا فيهما بين الساكنين ، ولم تعامل معاملة أين وكيف وهؤلاء وإن وليها عامل مسها الإعراب ، وقصر ما آخره ألف عند التهجي لا بتغاء الحقة لا لأن وزانه وزان لا تقصر تارة فتسكون حرفاً وتمد أخرى فتسكون اسماً لها كما في قول حسان رضى الله عنه :

ما قال لا قط إلا في تشده لولا التشهد لم تسمع له لاء

هذا وقد تسكّموا في شأن هذه الفواتح الكريمة وما أريد بها فليل : إنها

من العلوم المستورة ، والأسرار المحجوبة ، روى عن الصديق أنه قال د في كل كتاب سر ، وسر القرآن أوائل السور ، وعن علي رضي الله عنه د إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال د عجزت العلماء عن إدراكها ، وسئل الشعبي عنها فقال د سر الله عز وجل فلا تطلبوه ، وقيل : إنها من أسماء الله تعالى وقيل : كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء الله تعالى ، أو صفة من صفاته تعالى . وقيل : إنها صفات الأفعال ، الألف آلاؤه ، واللام لطفه ، والميم مجده ومملكه ، قاله محمد ابن كعب القرظي . وقيل : إنها من قبيل الحساب ، وقيل الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد ، أى الله أنزل^(١) الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام . وقيل هي أقسام من تعالى بهذه الحروف المعجمة ، لشرفها من حيث إنها أصول اللغات ومبادئ كتبه المنزلة ، ومباني أسمائه الكريمة ، وقيل : إشارة إلى انتهاء كلام وابتداء كلام آخر ، وقيل ، وقيل .

ولكن الذى عليه التعويل : لما كونها أسماء للسور المصدرة بها ، وعليه إجماع الأكثر ، وإليه ذهب الخليل وسيبويه ، قالوا سميت بها إيداناً بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ ، فيكون فيه إيماء إلى الإعجاز والتحدى على سبيل الإيقاظ. فلولا أنه^(٢) وحى من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته ، ويقرب منه ما قاله الكلبي والسدي وقتادة من أنها أسماء للقرآن والتسمية بثلاثة أسماء فصاعداً إنما تستنكر في لغة العرب إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً ، كما في حزم وموت ، فأما إذا كانت منشورة فلا استنكار فيها ، والمسمى هو المجموعة لا الفاتحة فقط ، حتى يلزم اتحاد الاسم والمسمى ، غاية الأمر دخول الاسم في المسمى ، ولا محذور فيه ، كما لا محذور في عكسه حسبما

(١) في المطبوعة : أنزل الله . (٢) في ١١ : أنها .

تحققته آنفا ، وإنما كتبت في المصاحف صور المسميات دون صور الأسماء لأنه أدل على كيفية التلفظ بها ، وهي أن يكون على نهج التهجي دون التركيب ولأن فيه سلامة من التطويل لاسيما في الفواتح الخماسية ، على أن خط المصحف مما لا يناقش فيه بمخالفة القياس ، وإما كونها مسرودة على نمط التعديد ، وإليه جنح أهل التحقيق .

قالوا إنما وردت هكذا ليكون إيقاظا لمن تحدى بالقرآن ، وتنبيهها لهم على أنه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فلو لا أنه خارج عن طوق البشر ، نازل من عند خلاق القوى والقدر ، لما تضاعفت قوتهم ، ولا تساقطت قدرتهم ، وهم فرسان حلبة الحوار ، وأمرأه الكلام في نادى الفخار ، دون الإتيان بما يدانيه ، فضلا عن المعارضة بما يساويه ، مع تظاهرهم في المضادة والمضاره ، وتهاالكهم على المعازة والمعاره .

أو ليكون مطلع ما يتلى عليهم مستقلا بضرب من الغرابة أنموذجا لما في الباقي من فنون الإعجاز ، فإن النطق بأنفس الحروف في تضاعيف الكلام ، وإن كان على طرف التمام ، يتناول الخواص والعوام ، من الأعراب والأعجام لكن التلفظ بأسمائها إنما يتأتى بمن درس وخط ، وأما من لم يحم حول ذلك قط ، فأعز من يبيض الأنوق ، وأبعد من مناط العميق ، لاسيما إذا كان على نمط عجيب ، وأسلوب غريب ، منبئ عن سر سرى ، مبنئ على نهج عبقرى ، بحيث يحار في فهمه أرباب العقول ، ويعجز عن إدراكه ألباب الفحول .

كيف لا وقد وردت تلك الفواتح في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، مشتملة على نصفها تقريبا ، بحيث ينطوى على أنصاف أصنافها تحقيقا أو تقريبا ، كما يتضح عند الفحص والتنقيب ، حسبما فصله بعض أفاضل أئمة التفسير .

فسبحان من دقت حكيمته من أن تطالعها الأنظار ، وجلت قدرته عن أن تنالها أيدي الأفسكار ، وإيراد بعضها فرادى وبعضها ثنائية إلى الخامسة جرى

على عادة الافتنان ، مع مراعاة أبنية الحكم وتفريقها على السور ، دون إيراد كلها مرة لذلك ولما في التكرير والإعادة من زيادة إفادة ، وتخصيص كل منها بسورتها مما لاسبيل إلى المطالبة بوجهه ، وعد بعضها آية دون بعض ، مبني على التوقيف البحث .

هل الحروف آيات ؟ إعرابها

أما المآية حيثما وقعت ، وقيل في آل عمران ليست بآية ، والمص آية ، والمرم تعد آية ، والر ليست بآية في شيء من سورها الخمس ، وطسم آية في سورتها ، وطه ويس آيتان ، وطس ليست بآية ، وحم آية في سورها كلها ، وكهيعص آية ، وحهم عسق آيتان . وص وق ون لم تعد واحدة منها آية . هذه على رأى الكوفيين .

وقد قيل : إن جميع الفوائخ آيات عندهم في السور كلها بلا فرق بينها ، وأما من عداهم فلم يعدوا شيئاً منها آية ، ثم إنها على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد لا تشتم رائحة الإعراب ، ويوقف عليها وقف التمام ، وعلى تقدير كونها أسماء للسور أو للقرآن كان لها حظ منه إما الرفع على الابتداء أو على الخبرية ، وإما النصب بفعل مضمّر ، كاذكر ، أو بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن ، وإما الجر بتقدير حرفه حسبما يقتضيه المقام ، ويستدعيه النظام ، ولاوقف فيما عدا الرفع على الخبرية والتلفظ بالشكل على وجه الحكاية ساكنة الأعجاز إلا أن ما كانت منها مفردة مثل ص وق ون يتأتى فيها الإعراب اللفظي أيضاً ، وقد قرئت بالنصب على إضمار فعل ، أى اذكر أو اقرأ صاد وقاف ونون ، وإنما لم تنون لامتناع الصرف ، وكذا ما كانت منها موازنة لمفرد نحو حم ويس وطس الموازنة لقابيل وهابيل ، حيث أجاز سيبيويه فيها مثل ذلك قال في باب أسماء السور من كتابه : وقد قرأ بعضهم

ياسين والقرآن ، وقاف والقرآن ، فكأنه جعله اسما أعجميا ، ثم قال اذكر ياسين ، انتهى .

وحكى السيرا في أيضا عن بعضهم قراءة ياسين ويجوز أن يكون ذلك في الكل تحريكا لالتقاء الساكنين ، ولا مساع للنصب بإضمار فعل القسم ؛ لأن ما بعدها من القرآن والقلم مخلوف بهما ، وقد استكرهوا الجمع بين قسمين على مقسم عليه واحد قبل انقضاء الأول ، وهو السر في جعل ما عدا الواو الأولى في قوله تعالى (والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى) عاطفة ، ولا مجال للعطف ههنا للدخالة بين الأول والثاني في الإعراب ، نعم يجوز ذلك بجعل الأول مجرورا بإضمار الباء القسمية ، مفتوحا لكونه غير منصرف ، وقرئ ص وق بالكسر على التحريك لالتقاء الساكنين ، ويجوز في طاسين ميم أن تفتح نونها ، وتجعل من قبيل دار الجرد ذكره سيبويه في كتابه . وأما ما عدا ذلك من الفواتح فليس فيها إلا الحكاية وسيجيء تفصيل سائر أحكام كل منها مشروحة في مواقعها بإذن الله عز سلطانه أما هذه الفاتحة الشريفة فإن جعلت اسما للسورة أو للقرآن فحلها الرفع ، إما على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هذا المسمى به ، وإنما صحت الإشارة إلى القرآن بعضا أو كلا مع عدم سبق ذكره لأنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار في حكم الحاضر المشاهد ، كما يقال هذا ما اشترى فلان .

ولما على أنه مبتدأ ، أى المسمى به والأول هو الأظهر ، لأن ما يجعل عنوان الموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه عند المخاطب وإذ لا علم بالتسمية قبل فحقها الإخبار بها وادعاء شهرتها بأباه التردد في أن المسمى هى السورة أو كل القرآن .

(ذلك) ذا اسم إشارة واللام كناية عما جىء به للدلالة على بعد المشار إليه ، والكاف للخطاب ، والمشار إليه هو المسمى ، فإنه منزل منزلة المشاهد بالحس البصرى ، وما فيه من معنى البعد ، مع قرب العهد بالمشار إليه ، للإيذان

بعلو شأنه ، وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف ، إثر تنويهه بذكر اسمه ، وما قيل من أنه باعتبار التقصى أو باعتبار الوصول من المرسل إلى المرسل إليه في حكم المتباعد ، وإن كان مصححا لإيراده ، لكنه بمعزل من ترجيحه على إيراد ما وضع للإشارة إلى القريب ، وتذكيره على تقدير كون المسمى هي السورة ، لأن المشار إليه هو المسمى بالاسم المذكور من حيث هو مسمى به ، لامن حيث هو مسمى بالسورة ، ولئن ادعى اعتبار الحيثية الثانية في الأول بناء على أن التسمية تميز السور بعضها من بعض ، فذلك لتذكير ما بعده ، وهو على الوجه الأول مبتدأ على حدة ، وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثان .

وقوله عز وعلا (السكتاب) إما خبر له ، أو صفة ، أما إذا كان خبرا له فالجمله على الوجه الأول مستأنفة مؤكدة ، لما أفادته الجملة الأولى من نباهة شأن المسمى ، لاحتل لها من الإعراب ، وعلى الوجه الثاني في محل الرفع على أنها خبر للبتدأ الأول . واسم الإشارة مغن عن الضمير الرابط ، والكتاب إما مصدر سمي به المفعول مبالغة كالخلق والتصوير للمخلوق والمصور ، وإما فعل بني للمفعول كاللباس ، من السكتاب الذي هو ضم الحروف بعضها إلى بعض وأصله الجمع والضم في الأمور البادية للحس البصرى ، ومنه السكتيبة للعسكر ، كما أن أصل القراءة الجمع والضم في الأشياء الخافية عليه ، وإطلاق السكتاب على المنظوم عبارة لما أن مآله السكتابة ، والمراد به على تقدير كون المسمى هي السورة جميع القرآن الكريم ، وإن لم يتم نزوله نزول السورة إما باعتبار تحققه في علم الله عز وجل ، أو باعتبار ثبوته في اللوح ، أو باعتبار نزوله جملة إلى السماء الدنيا ، حسبما ذكر في فاتحة السكتاب المعهود ، الغنى عن الوصف بالسكال لاشتهاره به فيما بين السكتب على طريقة قوله عليه السلام : « الحج عرفة ، وعلى تقدير كون المسمى كل القرآن .

فالمراد بالسكتاب الجنس ، واللام للحقيقة ، والمعنى أن ذلك هو السكتاب السكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لتفوقه على بقية الأفراد في

حيازة كمالات الجنس ، كأن ماعداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة إليه كما يقال هو الرجل ، أى الكامل فى الرجولية الجامع لما يكون فى الرجال من مراضى الخصال ، وعليه قول من قول :

« هم القوم كل القوم يا أم خالد »

فالمح كما ترى من جهة حصر كمال الجنس فى فرد من أفراد ، وفى الصورة الأولى من جهة حصر كمال السبك فى الجزء ، ولا مساغ هناك لحمل الكتاب على الجنس ، لما أن فرد المعهود هو مجموع القرآن المقابل لسائر أفراد من الكتب السماوية ، لا بعضه الذى ينطلق عليه اسم الكتاب باعتبار كونه جزءا لهذا الفرد ، لا باعتبار كونه جزئيا للجنس على حياله ، ولأن حصر الكمال فى السورة مشعر بنقصان سائر السور ، وإن لم يكن الحصر بالنسبة إليها لتحقيق المغايرة بينهما ، هذا على تقدير كون الكتاب خبرا لذلك ، وأما إذا كان صفة له فذلك الكتاب على تقدير كون ألم خبر مبتدأ محذوف ، إما خبر ثان أو بدل من الخبر الأول ، أو مبتدأ مستقل خبره ما بعده ، وعلى تقدير كونه مبتدأ إما خبر له ، أو مبتدأ ثان خبره ما بعده ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والمشار إليه على كلا التقديرين هو المسمى ، سواء كان هى السورة أو القرآن ، ومعنى البعد ما ذكر من الإشعار بعلو شأنه ، والمعنى ذلك الكتاب العجيب الشأن ، البالغ أقصى مراتب الكمال .

وقيل المشار إليه هو الكتاب الموعود ، فعنى البعد حيثئذ ظاهر ، خلا أنه إن كان المسمى هى السورة ينبغى أن يراد بالوعد ما فى قوله تعالى : (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) كما قيل ، وإن كان هو القرآن فهو ما فى التوراة والإنجيل ، هذا على تقدير كون (الم) اسماً للسورة أو القرآن ، وأما على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد فذلك مبتدأ ، والكتاب إما خبره أو صفته ، والخبر ما بعده على نحو ما سلف ، أو يقدر مبتدأ ، أى المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب ، وقرئ (الم تنزيل الكتاب) .

وقوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ إما فى محل الرفع على أنه خبر لذلك

الكتاب على الصور الثلاث المذكورة ، أو على أنه خبر ثان لآلاف لام ميم أو لذلك على تقدير كون الكتاب خبره ، أو للببتدأ المقدر آخرًا على رأى من يجوز كون الخبر الثانى جملة ، كما فى قوله تعالى : (فإذا هى حية تسمى) وإما فى محل النصب على الحالية من ذلك ، أو من الكتاب ، والعامل معنى الإشارة ، وإما جملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب مؤكدة لما قبلها ، وكلمة لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق ، عاملة عمل إن بحملها عليها ، لكونها نقيضا لها ، ولازمة للاسم لزومها ، واسمها مبنى على الفتح لكونه مفردا نكرة لامضافا ولا شيئا به ، وأما ما ذكره الزجاج من أنه معرب وإنما حذف التنوين للتخفيف فمما لا تعويل عليه ، وسبب بنائه تضمنه لمعنى من الاستغراقية لأنه مركب معها تركيب خمسة عشر كما توهم ، وخبرها محذوف ، أى لا ريب موجود أو نحوه ، كما فى قوله تعالى : (لا عاصم اليوم من أمر الله) والظرف صفة لاسمها ، ومعناه نفي الكون المطلق وسلبه عن الريب المفروض فى الكتاب ، أو الخبر هو الظرف ، ومعناه سلب الكون فيه عن الريب المطلق وقد جعل الخبر المحذوف ظرفا ، وجعل المذكور خبرا لما بعده .

وقرىء لا ريب فيه على أن لا بمعنى ليس ، والفرق بينه وبين الأول أن ذلك موجب للاستغراق ، وهذا مجوز له ، والريب فى الأصل مصدر رابى إذا حصل فيك الريبة ، وحقيقتها قلق النفس واضطرابها ، ثم استعمل فى معنى الشك مطلقا ، أو مع تهمة ، لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة ، وفى الحديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . ومعنى نفيه عن الكتاب أنه فى علو الشأن وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب فى حقيقته ، وكونه وحياً منزلا من عند الله تعالى ، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلا ، ألا ترى كيف يجوز ذلك فى قوله تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا) الخ . فإنه فى قوة أن يقال : وإن كان لكم ريب فيما نزلنا ، أو إن ارتبتم فيما نزلنا ، الخ إلا أنه خولف فى الأسلوب حيث فرض كونهم فى الريب لا كون الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه ، مع نوع إشعار بأن ذلك من جهتهم ، لا من جهته .

العالية ، ولم يقصد ههنا ذلك الإشعار ، كما لم يقصد الإشعار بثبوت الرب في سائر الكتب ، ليقضى المقام تقديم الظرف ، كما في قوله تعالى : (لا فيها غول) .

الهدى والضلال

(هدى) مصدر من هداه كالسرى والبسكا ، وهو الدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية ، أى ما من شأنه ذلك ، وقيل : هى الدلالة الموصلة إليها ، بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته ، فى قوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) وقوله تعالى : (ولنا أو إياكم لهدى أو فى ضلال مبين) ولا شك فى أن عدم الوصول معتبر فى مفهوم الضلال ، فيعتبر الوصول فى مفهوم مقابله ، ومن ضرورة اعتباره فيه اعتباره فى مفهوم الهدى المتعدى ، إذ لا فرق بينهما إلا من حيث التأثير ، والتأثر ، ومحصله أن الهدى المتعدى هو التوجيه الموصول ، لأن اللازم هو التوجه الموصول ، بدليل أن مقابله الذى هو الضلال توجه غير موصول قطعاً ، وهذا كما ترى مبنى على أمرين اعتبار الوصول وجوباً فى مفهوم اللازم ، واعتبار وجود اللازم وجوباً فى مفهوم المتعدى ، وكلا الأمرين بمنزل من الثبوت ، أما الأول فلأن مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصول وعدمه على الإطلاق ، بل هما معتبران فى مفهوميهما على وجه مخصوص به ، ليتحقق التقابل بينهما .

وتوضيحه أن الهدى لا بد فيه من اعتبار توجه عن علم إلى ما من شأنه الإيصال إلى البغية ، كما أن الضلال لا بد فيه من اعتبار الجور عن القصد إلى ما ليس من شأنه الإيصال قطعاً ، وهذه المرتبة من الاعتبار مسلمة بين الفريقين ، ومحقة للتقابل بينهما ، وإنما النزاع فى أن إمكان الوصول إلى البغية هل هو كاف فى تحصيل مفهوم الهدى ، أو لا بد فيه من خروج الوصول من القوة إلى الفعل ، كما أن عدم الوصول بالفعل معتبر فى مفهوم الضلال قطعاً .

إذا تقرر هذا فنقول إن أريد باعتبار الوصول بالفعل في مفهوم الهدى
اعتباره مقارناله في الوجود زمانا حسب اعتبار عدمه في مفهوم مقابله فذلك بين
البطلان ، لأن الوصول غاية للتوجه المذكور ، فينتهى به قطعاً ، لاستحالة
التوجه إلى تحصيل الحاصل ، وما يبقى بعد ذلك فهو إما توجه إلى الثبات عليه ،
وإما توجه إلى زيادته ، ولأن التوجه إلى المقصد تدريجي ، والوصول إليه
دفعي ، فيستحيل اجتماعهما في الوجود ضرورة ، وأما عدم الوصول فحيث كان
أمراً مستمرا مثل ما يقتضيه من الضلال وجب مقارنته له في جميع أزمنة
وجوده . إذ لو فارقه في آن من آتات تلك الأزمنة لقارنه في ذلك الآن مقابله
الذي هو الوصول ، فما فرضناه ضلالا لا يكون ضلالا ، وإن أريد اعتباره
من حيث أنه غاية له واجبة الترتب عليه لزم أن يكون التوجه المقارن لغاية
الجد في السلوك إلى ما من شأنه الوصول عند تخلفه عنه لمانع خارجي كاخترام
المنية مثلا من غير تقصير ولا جور من قبل المتوجه ، ولا خلل من جهة المسلك
ضلالا ، إذ لا واسطة بينهما ، مع أنه لا جور فيه عن القصد أصلا ، فبطل
اعتبار وجوب الوصول في مفهوم اللازم قطعاً ، وتبين منه عدم اعتباره في
مفهوم المتعدي حتماً ، وأما اعتبار وجود اللازم فيه وجوباً وهو الأمر الثاني ،
فبيانته مبنى على تمهيد أصل . وهو أن فعل الفاعل حقيقة هو الذي يصدر عنه
ويتم من قبله ، لكن لما لم يكن له في تحققه في نفسه بد من تعلقة بمفعوله اعتبر
ذلك في مدلول اسمه قطعاً ، ثم لما كان له باعتبار كيفية صدورهِ عن فاعله ،
وكيفية تعلقه بمفعوله ، وغير ذلك آثار شتى مترتبة عليه متميزة في أنفسها ،
مستقلة بأحكام مقتضية لإفرادها بأسماء خاصة ، وعرض له بالقياس إلى كل
أثر من تلك الآثار إضافة خاصة متميزة عما عداها من الإضافات العارضة له
بالقياس إلى سائرهما ، وكانت الآثار تابعة له في التحقق غير منفكة عنه أصلاً
إذ لا مؤثر لها سوى فاعله عدت من متماته ، واعتبرت الإضافة العارضة له
بحسبها داخلة في مدلوله كالاكتفاء المتعلق بالجسم مثلاً ، وضع له باعتبار الإضافة
العارضة له من انكسار ذلك الجسم الذي هو أثر خاص لذلك الاعتماد اسم

السكسر ، وباعتبار الإضافة العارضة له من انقطاعه الذى هو أثر آخر له اسم القطع ، إلى غير ذلك من الإضافات العارضة له بالقياس إلى آثاره اللازمة له وهذا أمر مطرد فى آثاره الطبيعية .

وأما الآثار التى له مدخل فى وجودها فى الجملة من غير إيجاب لها تترتب عليه تارة وتفارقة أخرى ، بحسب وجود أسبابها الموجبة لها وعدمها ، كالآثار الاختيارية الصادرة عن مؤثراتها بواسطة كونه داعيا إليها فحيث كانت تلك الآثار مستقلة فى أنفسها مستندة إلى مؤثراتها غير لازمة له لزوم الآثار الطبيعية التابعة له لم تعد من متمماته ، ولم تعتبر الإضافة العارضة له بحسبها داخلية فى مدلوله كالإضافة العارضة للأمر بحسب امثال المأمور والإضافة العارضة للدعوة بحسب إجابة المدعو ، فإن الامثال والإجابة وإن عدا من آثار الأمر والدعوة باعتبار ترتبهما عليهما غالبا ، لكنهما حيث كانا فعلين اختياريين للمأمور والمدعو مستقلين فى أنفسهما غير لازمين للأمر والدعوة ، لم يعدا من متمماتهما ولم تعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلية فى مدلول اسم الأمر والدعوة بل جعلتا عبارة عن نفس الطلب المتعلق بالمأمور والمدعو سواء وجد الامثال والإجابة أولا . إذا تمهد هذا فنقول كما أن الامثال والإجابة فعلا مستقلان فى أنفسهما صادران عن المدعو والمأمور باختيارهما غير لازمين للأمر والدعوة لزوم الآثار الطبيعية التابعة للأفعال الموجبة لها ، وإن كانا مترتبين عليهما فى الجملة ، كذلك هدى المهدي أى توجهه إلى ما ذكر من المسلك فعل مستقل له صادر عنه باختياره ، غير لازم للهداية ، أعنى التوجيه إليه لزوم ما ذكر من الآثار الطبيعية ، وإن كان مترتبا عليها فى الجملة ، فلما لم يعدا من متممات الأمر والدعوة ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلية فى مدلولهما علم أنه لم يعد الهدى اللازم من متممات الهداية ، ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبه داخلية فى مدلولها ، إن قيل ليس الهدى بالنسبة إلى الهداية كالامثال والإجابة بالقياس إلى أصليهما ، فإن تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يقتضى

إلا اتصافهما بكونهما مأمورا ومدعوا ، وليس من ضرورته اتصافهما بالامتثال والإجابة ، إذ لا تلازم بينهما وبين الأولين أصلا ، بخلاف الهدى بالنسبة إلى الهداية ، فإن تعلقها بالمهدى يقتضى اتصافه به ، لأن تعلق الفعل المتعدي المبني للفاعل بمفعوله يدل على اتصافه بمصدره المأخوذ من المبني للمفعول قطعاً ، وهو مستلزم لاتصافه بمصدر الفعل اللازم ، وهل هو الاعتبار وجود اللازم في مدلول المتعدي حتماً ؟ قلنا كما أن تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يستدعى إلا اتصافهما بما ذكر من غير تعرض للامتثال والإجابة إيجاباً وسلباً ، كذلك تعلق الهداية التي هي عبارة عن الدلالة المذكورة بالمهدى لا يستدعى إلا اتصافه بالمدلولية ، التي هي عبارة عن المصدر المأخوذ من المبني للمفعول ، من غير تعرض لقبول تلك الدلالة ، كما هو معنى الهدى اللازم ، ولا لعدم قبوله ، بل الهداية عين الدعوة إلى طريق الحق ، والاهتداء عين الإجابة ، فكيف يؤخذ في مدلولها ، واستلزام الاتصاف بمصدر الفعل المتعدي المبني للمفعول للاتصاف بمصدر الفعل اللازم مطلقاً إنما هو في الأفعال الطبيعية كالمكسورية والانكسار ، والمقطوعية والانقطاع ، وأما الأفعال الاختيارية فليست كذلك كما تحققت فيها سلف .

وإن قيل : التعلم من قبيل الأفعال الاختيارية مع أنه معتبر في مدلول التعليم قطعاً ، فليكن الهدى مع الهداية كذلك ، قلنا : ليس ذلك لكونه فعلاً اختيارياً على الإطلاق ، ولا لكون التعليم عبارة عن تحصيل العلم للتعلم ، كما قيل ، فإن المعلم ليس بمستقل في ذلك ، ففي إسناده إليه ضرب تجوز ، بل لأن كلاهما مفتقر في تحصيله إلى الآخر ، فإن التعليم عبارة عن إلقاء المبادئ العلمية على المتعلم وسوقها إلى ذهنه شيئاً فشيئاً على ترتيب يقتضيه الحال ، بحيث لا يساق إليه بعض منها إلا بعد تلقيه لبعض آخر ، فكل منهما هتتم للآخر ؛ معتبر في مدلوله . وأما الهدى الذي هو عبارة عن التوجه المذكور ففعل اختياري مستقل به فاعله لا دخل للهداية فيه سوى كونها داعية إلى إيجادها باختياره ، فلم يكن من متماتها ولا معتبراً في مدلولها .

إن قيل : التعليم نوع من أنواع الهداية ، والتعلم نوع من أنواع الاهتداء فيكون اعتباره في مدلول التعليم اعتبارا للمدى في مدلول الهداية ، قلنا إطلاق الهداية على التعليم إنما هو عند وضوح المسلك ، واستبعاد المتعلم بسلوكه من غير دخل للتعليم فيه ، سوى كونه داعيا إليه ، وقد عرفت جليلة الأمر على ذلك التقدير ، إن قيل : أليس تخلف الهدى عن الهداية كتخلف النعم عن التعليم ، فحيث لم يكن ذلك تعليلها في الحقيقة فلتكن الهداية أيضا كذلك ، وليحمل تسمية ما لا يستتبع الهدى بها على التجوز ، قلنا : شتان بين التخلفين ، فإن تخلف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه ، كما أن تخلف الانكسار عن الضرب الضعيف لذلك .

وأما تخلف الهدى عن الهداية فليس لشائبة قصور من جهتها ، بل إنما هو لفقد سببه الموجب له من جهة المهدى ، بعد تكامل ما يتم من قبل الهادى .

وهذا التحرير اتضح طريق الهداية ، وتبين أنها عبارة عن مطلق الدلالة على ما من شأنه الايصال إلى البغية بتعريف معاملة وتبيين مسالكه ، من غير أن يشترط في مدلولها الوصول ولا القبول ، وإن الدلالة المقارنة لهما أو لأحدهما والمفارقة عنهما ، كل ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها أفراد حقيقة لها ، وأن ما في قوله تعالى : (إنك لاتهدى من أحببت) وقوله تعالى : (ولو شاء لهداكم) ونحو ذلك بما اعتبر فيه الوصول من قبيل المجاز ، وانكشف أن الدلالات التكوينية المنصوبة في الأنفس والآفاق والبيانات التشريعية الواردة في السكتب السماوية على الإطلاق بالنسبة إلى كافة البرية برها وفاجرها هدايات حقيقية ، فائضة من عند الله سبحانه ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(للبتين) أى أى المتصفين بالتقوى حالا أو مآلا ، وتخصيص الهدى بهم لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره ، وإن كان ذلك شاملا

لكل ناظر ، من مؤمن وكافر ، وبذلك الاعتبار قال الله (هدى للناس) والمتقى اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة .

معانى التقوى ومراتبها

والتقوى فى عرف الشرع عبارة عن كمال التوقى عما يضره فى الآخرة قال عليه السلام : « جماع التقوى فى قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، الآية ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه ترك ما حرم الله ، وأداء ما فرض الله ، وعن شهر بن حوشب : المتقى من يترك ما لا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس ، وعن أبى يزيد : أن التقوى هو التورع عن كل ما فيه شبهة ، وعن محمد بن حنيف : أنها مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى ، وعن سهل المتقى من تبرأ عن حوله ، وقدرته . وقيل التقوى : ألا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . وعن ميمون بن مهران : لا يكون الرجل تقيا حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر ، وعن أبى تراب : بين يدى التقوى خمس عقبات لا ينهاها من لا يجاوزهن : لإيثار الشدة على النعمة ، وإيثار الضعف على القوة ، وإيثار الذل على العزة ، وإيثار الجهد على الراحة ، وإيثار الموت على الحياة ، وعن بعض الحكماء أنه لا يبلغ الرجل سنام التقوى إلا أن يكون بحيث لو جعل ما فى قلبه فى طبق فطيف به فى السوق لم يستحى من ينظر إليه : وقيل : التقوى أن تزين ، سرك للحق ، كما تزين علانيتك للخلق .

والتحقيق أن للتقوى ثلاث مراتب : الأولى : التوقى عن العذاب المخلة بالتبرؤ عن الكفر ، وعليه قوله تعالى (وألزهم التقوى) كلمة الثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك ، حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى فى الشرع ، وهو المعنى بقوله تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) والثالثة أن يتزهد عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ، ويتبتل إليه بكليته ، وهى

التقوى الحقيقية المأمور بها في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) وهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الإلهية ، المبنية على الحكم الأليمة ، أقصاها ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، حيث جمعوا بذلك بين رياستي النبوة والولاية ، وما عاقدتهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معالم الأرواح ، ولم تصدحهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شئون الحق ، لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية ، وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين ، فإن أريد بكونه هدى للمتقين إرشاده لإياهم إلى تحصيل المرتبة الأولى ونيلها ، فالمراد بهم المشارفون للتقوى مجازا ، لاستحالة تحصيل الحاصل ، وإثارة على العبارة المعربة عن ذلك للإيجاز ، وتصدير السورة الكريمة بذكر أولياته تعالى وتفخيم شأنهم وإن أريد به إرشاده إلى تحصيل إحدى المرتبتين الأخيرتين ، فإن عنى بالمتقين أصحاب الطبقة الأولى تعينت الحقيقة ، وإن عنى بهم أصحاب إحدى الطبقتين الأخيرتين تعين المجاز ، لأن الوصول إليهما إنما يتحقق بهديته المترتبة ، وكذا الحال فيما بين المرتبة الثانية والثالثة ، فإنه إن أريد بالهدى الإرشاد إلى تحصيل المرتبة الثالثة ، فإن عنى بالمتقين أصحاب المرتبة الثانية تعينت الحقيقة ، وإن عنى بهم أصحاب المرتبة الثالثة تعين المجاز ، ولفظ الهداية حقيقة في جميع الصور ، وأما إن أريد بكونه هدى لهم تنبيتهم على ما هم عليه أو إرشادهم إلى الزيادة فيه على أن يكون مفهوما داخل في المعنى المستعمل فيه فهو مجاز لا محالة ، ولفظ المتقين حقيقة على كل حال واللام متعلقة بهدى أو بمحذوف وقع صفة له ، أو حالا منه ، ومحل هدى الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى هو هدى ، أو خبر مع لا ريب فيه لذلك الكتاب ، أو مبتدأ خبره الظرف المقدم ، كما أشير إليه ، أو انصب على الحالية من ذلك ، أو من الكتاب ، والعامل معنى الإشارة ، أو من الضمير في فيه ، والعامل ما في الجار والمجرور من معنى (٤ - أبو السعود - أول)

الفعل المنفي ، كأنه قيل : لم يحصل فيه الريب حال كونه هاديا ، على أنه قيد للنفي لا للنفي ، وحاصله انتفاء الريب فيه حال كونه هاديا ، وتنكيره للتفخيم وحمله على الكتاب إما للبالغة ، كأنه نفس الهدى ، أو لجعل المصدر بمعنى الفاعل ، هذا والذي يستدعيه جزالة التنزيل في شأن ترتيب هذه الجمل أن تكون متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ، ولذلك لم يتخلل بينها عاطف ، (فإلم) جملة برأسها على أنها خبر لمبتدأ مضمرة ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها دالة على أن المتحدث به هو المؤلف من جنس ما يؤلفون منه كلامهم ، وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة المتحدث لما دلت عليه من كونه منعوتا بالسكال الفائق ، ثم سجل على غاية فضله بنفي الريب فيه ، إذ لا فضل أعلى مما للحق ، واليقين ، وهدى للمتقين مع ما يقدر له من المبتدأ جملة مؤكدة لكونه حقا لا يحوم حوله شائبة شك ما ، ودالة على تكميله بعد كماله ، أو يستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول ، فإنه لما نبه أولا على إعجاز المتحدث به من حيث أنه من جنس كلامهم ، وقد عجزوا عن معارضته بالمرءة ، ظهر أنه الكتاب البالغ أقصى مراتب السكال ، وذلك مستلزم لكونه في غاية الزهامة عن مظنة الريب ، إذ لا أنقص مما يعتريه الشك ، وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين ، وفي كل منها من النسكت الرائقة والمزايا الفائقة مالا يخفى جلالة شأنه حسبما تحققته .

﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ إما موصول بالمتقين ، ومجمله الجر على أنه صفة مقيدة له إن فسر التقوى بترك المعاصي فقط ، مترتبة عليه ترتب التحلية على التخليّة ، وموضحة إن فسر بما هو المتعارف شرعا والمتبادر عرفا ، من فعل الطاعات وترك السيئات معا ، لأنها حينئذ تكون تفصيلا لما انطوى عليه اسم الموصوف لإجمالاً ، وذلك لأنها مشتملة على ما هو عماد الأعمال وأساس الحسنات ، من الإيمان والصلاة والصدقة ، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر القرب الداعية إلى التجنب

عن المعاصي غالباً ألا ترى إلى قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقوله عليه السلام . « الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام ، أو مادحة للموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات وتخصيص ما ذكر من الحاصل الثلاث بالذكر لإظهار شرفها وإزائتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات ، أو النصب على المدح بتقدير أسمى أو الرفع عليه بتقديرهم ، وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرة باسم الإشارة كما سيأتي بيانه ، فالوقف على المتقين حينئذ وقف تام لأنه وقف على مستقل ما بعده أيضاً مستقل ، وأما على الوجه الأول فحسن لاستقلال الموقوف عليه غير تام لتعلق ما بعده به وتبعيته له ، أما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر ، وأما على تقدير النصب أو الرفع على المدح فلما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه في الإعراب ، وبذلك سميا قطعا لكونهما تابعان له حقيقة ، ألا ترى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ في النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبها على شدة الاتصال بينهما ، قال أبو علي : إذا ذكرت صفات للمدح وخواف في بعضها الإعراب فقد خواف للافتنان ، أي للنفن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجد في الإصغاء ، فإن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوكة ينفى عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ، ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب .

إن قيل : لا ريب في أن حال الموصول عند كونه خبراً لمبتدأ محذوف كحاله عند كونه مبتدأ خبره أولئك على هدى في أنه ينسبك به جملة اسمية مفيدة ، لاتصاف المتقين بالصفات الفاضلة ، ضرورة أن كلا من الضمير المحذوف والموصول عبارة عن المتقين . وأن كلا من اتصافهم بالإيمان وفروعه ، وإحرازهم للهدى والفلاح من النعوت الجلية ، فما السر في أنه

جعل ذلك في الصورة الأولى من توابع المتقين ، وعد الوقف غير تام ، وفي الثانية مقتطعا عنه ، وعد الوقف تاما ، قلنا : السر في ذلك أن المبتدأ في صورتين وإن كان عبارة عن المتقين ، لكن الخبر في الأولى لما كان تفصيلا لما تضمنه المبتدأ إجمالا حسبما تحققته معلوم الثبوت له بلا اشتباه ، غير مفيد للسامع سوى فائدة التفصيل والتوضيح ، نظم ذلك في سلك الصفات مراعاة لجانب المعنى ، وإن سمى قطعاً مراعاة لجانب اللفظ ، كيف لا وقد اشتهر في الفن أن الخبر إذا كان معلوم الانتساب إلى الخبر عنه فحقه أن يكون وصفاً له ، كما أن الوصف إذا لم يكن معلوم الانتساب إلى الموصوف حقه أن يكون خبراً له ، حتى قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار ، والأخبار بعد العلم بها صفات . وأما الخبر في الثانية فحيث لم يكن كذلك بل كان مشتملاً على ما لا ينبئ عنه المبتدأ من المعاني اللائقة كما ستحيط به خبراً مفيداً للمخاطب فوائد راتقة ، جعل ذلك مقتطعا عما قبله محافظة على الصورة والمعنى جميعاً .

الإيمان

والإيمان أفعال من الأمن المتعدى إلى واحد ، يقال آمنته ، وبالنقل تعدى إلى اثنين ، يقال آمننيه غيرى ، ثم استعمل في التصديق ، لأن المصدق يؤمن المصدق ، أى يجعله آميناً من التكذيب والمخالفة ، واستعماله بالباء لتضمنه معنى الاعتراف ، وقد يطلق على الوثوق . فإن الوثائق يصير ذا أمن وطمأنينة ، ومنه ما حكى عن العرب ما أمنت أن أجد صحابة ، أى ما صرت ذا أمن وسكون ، وكلا الوجهين حسن هنا وهو في الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام ، كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها ، وهل هو كاف في ذلك أولابد من انضمام الإقرار إليه للتمكن منه ؟

والأول : رأى الشيخ الأشعري ومن شايعه ، فإن الإقرار عنده منشأ

لإجراء الأحكام ، والثاني مذهب أبي حنيفة ومن تابعه وهو الحق ، فإنه جعلهما جزأين له ، خلا أن الإقرار ركن محتمل للسقوط بعذر ، كما عند الإكراه ، وهو مجموع ثلاثة أمور : اعتقاد الحق ، والإقرار به ، والعمل بموجبه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج ، فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق ، ومن أخل بالإقرار فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق اتفاقا وكافر عند الخوارج ، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة .

وقرى يؤمنون بغير همزة ، والغيب إما مصدر وصف به الغائب مبالغة كالشهادة في قوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) أو فاعيل خفف كقتل في قتل وهين في هين ، وميت في ميت ، لكن لم يستعمل فيه الأصل كما استعمل في نظائره . وأياما كان فهو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة ، بحيث لا يدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البدهة ، وهو قسمان : قسم لا دليل عليه ، وهو الذي أريد بقوله سبحانه : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته ، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع ، واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء ، وهو المراد ههنا ، فالباء صلة للإيمان ، إما بتضمينه معنى الاعتراف ، أو بجعله مجازا من الوثوق ، وهو واقع موقع المفعول به ، وإما مصدر على حاله كالغيبة فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما في قوله تعالى : (الذين يخشون ربهم بالغيب) وقوله تعالى : (ليعلم أني لم أخنه بالغيب) أى يؤمنون ماتبسين بالغيبة ، إما عن المؤمن به ، أى غائبين عن النبي صلى الله عليه وسلم غير مشاهدين لما فيه من شواهد النبوة ، لما روى أن أصحاب ابن مسعود رضى الله عنه ، ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيمانهم فقال رضى الله عنه : إن أمر محمد عليه الصلاة والسلام كان بينا لمن رآه ، والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من الإيمان بغيب ، ثم تلا هذه الآية . وإما عن الناس أى غائبين عن المؤمنين ، لا كالمنافقين الذين إذ لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم .

وقيل المراد بالغيب القلب ، لأنه مستور ، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فالباء حينئذ للآلة ، وترك ذكر المؤمن به على التقادير الثلاثة إما للقصد إلى إحداث نفس الفعل كما في قولهم فلان يعطى ويمنع ، أى يفعلون الإيمان ، وإما للاكتفاء بما سيحصى ، فإن السكتب الإلهية ناطقة بتفاصيل ما يجب الإيمان به .

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ لإقامتها عبارة عن تعديل أركانها ، وحفظها من أن يقع فى شيء من فرائضها وسننها وآدابها زيغ ، من إقامة العود إذا قومه وعدله . وقيل عن المواظبة عليها ، مأخوذ من قامت السوق إذا نفقت ، وأقامتها إذا جعلتها نافقة ، فإنها إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذى يرغب فيه . وقيل عن التشمر لأدائها عن غير فتور ولاتوان من قولهم قام بالامر وأقامه إذا جده فيه واجتهد وقيل عن أدائها ، عبر عنه بالإقامة لاشتماله على القيام كما عبر عنه بالقنوت الذى هو القيام وبالركوع والسجود والتسبيح ، والأول هو الأظهر ، لأنه أشهر ، وإلى الحقيقة أقرب ، والصلاة فعللة من صلى إذا دعا ، كالزكاة من زكى ، وإنما كتبتا بالواو مراعاة اللفظ المفخم ، وإنما سمي الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء ، وقيل أصل صلى حرك الصلوتين ، وهما العظمان الناتئان فى أعلى الفخذين ، لأن المصلى يفعله فى ركوعه وسجوده واشتهار اللفظ فى المعنى الثانى دون الأول لا يقدح فى نقله عنه ، وإنما سمي الداعى مصليا تشبيها له فى تخشعه بالراكع والساجد^(١).

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ والرزق فى اللغة العطاء ، ويطلق على الحفظ المعطى ، نحو ذبح ورعى للذبوح والمرعى . وقيل : هو بالفتح مصدر ، وبالكسر اسم ، وفى العرف ما ينتفع به الحيوان .

(١) انظر بمحا فى معنى الصلاة لغة فى (القول البديع) للعافظ السخاوى .

هل يدخل الحرام في الرزق ؟

والمعتزلة لما أحالوا تمسكين الله تعالى من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لا يتناول الحرام ، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق إلى ذاته إذانا بأنهم ينفقون من الحلال والصرف ، فإن إنفاق الحرام بمزول من إيجاب المدح ، وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) جعلوا الإسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الإنفاق ، والذم لتحريم ما لم يحرم ، واختصاص ما رزقناه بالحلال للقرينة ، وتمسكوا لشمول الرزق لهما بما روى عنه عليه السلام في حديث عمرو بن قرعة حين أتاه فقال : يا رسول الله ، إن الله كتب على الشقوة ، فلا أرى أرزق إلا من دفى بكفى ، فأذن لي في الغناء من غير فاحشة ، من أنه قال عليه السلام : « لا آذن لك ولا كرامة ، ولا نعمة ، كذبت أى عدو الله ، والله لقد رزقك الله حلالا طيبا ، فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله ، وبأنه لو لم يكن الحرام رزقا لم يكن المتنفذ به طول عمره مرزوقا ، وقد قال الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) والإنفاق والإنفاد أخوان ، خلا أن فى الثانى معنى الإذهاب بالسكينة دون الأول ، والمراد بهذا الإنفاق الصرف إلى سبيل الخير ، فرضا كان أو نفلا ، ومن فسر بالزكاة ذكر أفضل أنواعه ، الأصل فيه ، أو خصصه بها لاقترائه بما هو شقيقها ، والجملة معطوفة على ما قبلها من الصلة ، وتقديم المفعول للاهتمام والمحافظة على رموس الآى ، وإدخال من التبعية عليه للكف عن التنبير .

هذا وقد جاز أن يراد به الإنفاق من جميع المعاون التى منحهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة ، ويؤيده قوله عليه السلام : « إن علما لا ينال به كسب ولا ينفق منه ، وإليه ذهب من قال : وبما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون » (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) معطوف

على الموصول الأول ، على تقدير وصله بما قبله ، وفصله عنه مندرج معه في زمرة المتقين من حيث الصورة والمعنى معا ، أو من حيث المعنى فقط ، اندراج خاصين تحت عام ، إذ المراد بالأوليين الذين آمنوا بعد الشرك والغفلة عن جميع الشرائع كما يؤذن به التعبير عن المؤمن به بالغيب ، وبالأخرين الذين آمنوا بالقرآن بعد الإيمان بالكتب المنزلة قبله ، كمبد الله بن سلام وأضرابه أو على المتقين على أن يراد بهم الأولون خاصة ، ويكون تخصيصهم بوصف الالتقاء للإيدان بتنزههم عن حالتهم الأولى بالكلية ، لما فيها من كمال القباحة والمباينة للشرائع كلها ، الموجبة للالتقاء عنها ، بخلاف الآخرين ، فإنهم غير تاركين لما كانوا عليه بالمرّة ، بل متمسكون بأصول الشرائع التي لا تنكاد تختلف باختلاف الأعصار ، ويجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجا تحت المتقين ، ولا يكون توسط العاطف بينهما لاختلاف الذوات ، بل لاختلاف الصفات كما في قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم

وقوله :

* يالهف زياطة للحارث الصابح فالغانم فالآيب *

للإيدان بأن كل واحد من الإيمان بما أشير إليه من الأمور الغائبة والإيمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله ، له شأن خطير مستتبع لأحكام جمّة ، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ، ولا يجعل أحدهما تنمة للآخر ، وقد شفع الأول بأداء الصلاة والصدقة اللتين هما من جملة الشرائع المندرجة تحت تلك الأمور المؤمن بها تسكّله له ، فإن كمال العلم بالعمل ، وقرن الثاني بالإيقان بالآخرة مع كونه منظويا تحت الأول تنبيها على كمال صحته ، وتعريضا بما في اعتقاد أهل الكتابيين من الخلل كما سيأتي ، هذا على تقدير تعلق الباء بالإيمان ، وقس عليه الحال عند تعلقها

بالمحذوف ، فإن كلا من الإيمان الغيبي المشفوع بما يصدقه من العبادتين مع قطع النظر عن المؤمن به والإيمان بالكتب المنزلة الشارحة لتفاصيل الأمور التي يجب الإيمان بها مقرونا بما قرن به فضيلة باهرة ، مستدعية لما ذكر ، والله تعالى أعلم .

وقد حمل ذلك على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة والإتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الإيمان لا طريق إليه غير السمع ، وتسكير الموصول للتنبيه على تغاير القبيلين ، وتباين السبيلين فليتأمل ، وأن يراد بالموصول الثاني بعد اندراج الكل في الأول فريق خاص منهم ، وهم مؤمنوا أهل الكتاب ، بأن يخصوا بالذكر تخصيص جبريل ومكائيل به لئلا جريان ذكر الملائكة عليهم السلام تعظيما لشأنهم وترغيبا لأمثالهم ، وأقرانهم في تحصيل ما لهم من السكال .

إنزال الكتب

والإنزال النقل من الأعلى إلى الأسفل ، وتعلقه بالمعاني إنما هو بتوسط تعلقه بالأعيان المستتبعة لها ، فنزول ما عدا الصحف من الكتب الإلهية إلى الرسل عليهم السلام والله تعالى أعلم بأن يتلقاها الملك من جنابه عز وجل تلقيا روحانيا ، أو يحفظها من اللوح المحفوظ ، فينزل بها إلى الرسل فيلقها عليهم عليهم السلام ، والمراد بما أنزل إليك هو القرآن بأسره ، والشرعية عن آخرها والتعبير عن إنزاله بالماضي مع كون بعضه متوقفا حينئذ لتغليب المحقق على المقدر ، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع لتحقيقه منزلة الواقع كما في قوله تعالى : (لنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) مع أن الجن ما كانوا سمعوا الكتاب جميعا ولا كان الجميع إذ ذاك نازلا ، وبما أنزل من قبلك التوراة والإنجيل وسائر الكتب السالفة ، وعدم التعرض لذكر من أنزل إليه من الأنبياء عليهم السلام ، لقصد الإيجاز مع عدم تعلق الغرض بالتفصيل حسب تعلقه به في قوله تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل)

الآية . والإيمان بالكل جملة فرض ، وبالقرآن تفصيلا من حيث أنا متعبدون بتفاصيله فرض كفاية ، فإن في وجوبه على الكل عينا حرجا بينا ، وإخلالا بأمر المعاش ، وبناء الفعلين للمفعول للإيدان بتعين الفاعل ، والجرى على سنن الكبرياء ، وقد قرنا على البناء للفاعل .

﴿ وبالأخرة هم يوقنون ﴾ الإيقان لإتقان العلم بالشئ بنفى الشك والشبهة عنه ، ولذلك لا يسمى عليه تعالى يقينا ، أى يعلمون علما قطعيا مزيجا لما كان أهل الكتاب عليه من الشكوك والأوهام التى من جملتها زعمهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى ، وأن النار لن تمسهم إلا أيا ما معدودات ، واختلافهم فى أن نعم الجنة هل هو من قبيل نعم الدنيا أو لا ، وهل هو دائم أو لا ، وفى تقديم الصلة وبناء يوقنون على الضمير تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب ، فإن اعتقادهم فى أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول إلى مرتبة اليقين ، والآخرة تأنيث الآخر ، كما أن الدنيا تأنيث الأدنى ، غلبتا على الدارين بجزا بجرى الأسماء ، وقرىء بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وقرىء يؤقنون بقلب الواو همزة ، لإجراء لضم ما قبلها بجرى ضمها فى وجوه ووقت ، ونظيره ما فى قوله :

لحب المؤقدان إلى موسى وجعدة إذ أضاءهما الوقود

وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها ، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز ، منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ، وهو مبتدأ ، وقوله عز وعلا ﴿ على هدى ﴾ — خبره ، وما فيه من الإبهام المفهوم من التنكير لكمال تفخيمه ، كأنه قيل : على أى هدى لا يبلغ كنهه ، ولا يقادر قدره . وإيراد كلمة الاستعلاء بناء على تمثيل حالهم فى ملابتهم بالهدى بحال من يعتلى الشئ ويستولى عليه

يتصرف فيه كيفما يريد ، أو على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية ، متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه ، أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للإيذان بقوة تمسكهم منه وكال رسوخهم فيه ، وقوله تعالى : ﴿ من ربههم ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مبينة لفخامته الإضافية لإثر بيان فخامته الذاتية ، مؤكدة لها ، أى على هدى كائن من عنده تعالى ، وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى ، وفنون توفيقه والتعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوف والمضاف إليهم ، وتشريفهما ، ولزيادة تحقيق مضمون الجملة ، وتقريره ببيان ما يوجب ويقتضيه ؛ وقد أدمغت النون في الراء بغنة أو بغير غنة ، والجملة على تقدير كون الموصولين موصولين بالمتقين مستقلة لاحتل لها من الإعراب ، مقرر لمضمون قوله تعالى : (هدى المتقين) مع زيادة تأكيد له وتحقيق .

كيف لا وكون الكتاب هدى لهم فن من فنون ما منحوه واستقروا عليه من الهدى ، حسبها تحققت ، لاسيما مع ملاحظة ما يستتبعه من الفوز والفلاح . وقيل هى واقعة موقع الجواب عن سؤال ربما ينشأ عما سبق ، كأنه قيل ما للمنعوتين بما ذكر من النعوت اختصوا بهداية ذلك الكتاب العظيم الشأن ، وهل هم أحقاء بتلك الأثرة ؟ فأجيب بأنهم بسبب اتصافهم بذلك ما يكون لزام أصل الهدى الجامع لفنونه ، المستتبع للفوز والفلاح ، فأى ريب فى استحقاقهم لما هو فرع من فروعه ؟

ولقد جار عن سنن الصواب من قال فى تقرير الجواب : بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا ، وبالفلاح أجلا .

وأما على تقدير كونهما مفصولين عنه فهى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدأ الذى هو الموصول الأول ، والثانى معطوف عليه ، وهذه الجملة استئناف

وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الذهن من تخصيص ما ذكر بالمتقين قبل بيان مبادئ استحقاقهم لذلك ، كأنه قيل : ما يال المتقين مخصوصين به ، فأجيب بشرح ما انطوى عليه اسمهم إجمالاً من نعوت الكمال ، وبيان ما يستدعيه من النتيجة ، أى الذين هذه شئونهم أحقاء بما هو أعظم من ذلك ، كقولك : أحب الأنصار الذين قارعوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلوا مهجتهم في سبيل الله ، أولئك سواد عيني ، وسويداء قلبي .

واعلم أن هذا المسلك يسلك تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث ، كقولك أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان ، وأخرى بإعادة صفته ، كقولك أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك ، ولا ريب في أن هذا أبلغ من الأول لما فيه من بيان الموجب للحكم وإيراد اسم الإشارة بمنزلة إعادة الموصوف بصفاته المذكورة ، مع ما فيه من الإشعار بكمال تمييزه بها ، وانتظامه بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة ، والإيماء إلى بعد منزلته ، كما مر ، هذا وقد جوز أن يكون الموصول الأول مجرى على المتقين حسبما فصل ، والثاني مبتدأ ، وأولئك الخ خبره ، ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بغير المؤمنين من أهل الكتاب حيث كانوا يزعمون أنهم على الهدى ، ويطمعون في نيل الفلاح .

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ تكرير اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم ، وللتنبية على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من تينك الآرتين ، وأن كلا منهما كاف في تمييزهما عما عداهم ، ويؤيده توسط العاطف بين الجملتين ، بخلاف ما في قوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فإن التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيد تشبيههم بالبهائم ، فتكون الجملة الثانية مقررة للأولى ، وأما الإفلاح الذى هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغايراً للهدى نتيجة له وكان كل منهما في نفسه أعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فعل ما فعل ، وهم ضمير فصل يفصل

الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة ، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه ، أو مبتدأ خبره المفلحون ، والجملة خبر لأولئك ، وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة ، أو إشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم ، هذا وفي بيان اختصاص المتقين ببليل هذه المراتب الفائقة على فنون من الاعتبارات الرائقة اللائقة حسبما أشير إليه في تضاعيف تفسير الآية الكريمة من الترغيب في اقتفاء أثرهم والإرشاد إلى اقتداء سيرهم ما لا يخفى مكانه والله ولي الهداية والتوفيق .

أحوال الكفر والكفار

((إن الذين كفروا)) كلام مستأنف سيق لشرح أحوال الكفرة الغواة المردة العتاة ، لأثر بيان أحوال أضدادهم المتصفين بنموت السكال الفازين بمباغيتهم في الحال والمآل ، وإنما ترك العاطف بينهما ولم يسلك به مسلك قوله تعالى (إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم) لما بينهما من التنافي في الأسلوب ، والتباين في الغرض ، فإن الأولى مسوقة لبيان رفعة شأن الكتاب في باب الهداية والإرشاد ، وأما تعرض لأحوال المهتدين به فإنما هو بطريق الاستطراد ، سواء جعل الموصول موصولا بما قبله ، أو مفصولا عنه ، فإن الاستئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام المتقدم ، فهو من مستبهمات لا محالة وأما الثانية فسوقة لبيان أحوال الكفرة أصالة ، وتراعى أمرهم في الفراية والضلال إلى حيث لا يهديهم الإنذار والتبشير ، ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير فهم ناكبون في تيه الغى والفساد عن منهاج العقول ، وراكبون في مسلك المسكارة والعماد متن كل صعب وذلول ، وإنما أوردت هذه الطريقة ولم يؤسس الكلام على بيان أن الكتاب هاد الأولين وغير مجد للآخرين لأن العنوان الأخير ليس بما يورثه كالا حق يتعرض له في أثناء تعداد كالاته ، وإن من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم

الاسماء ودخول فون الوقاية عليها ، كأننى ولعلمنى ونظائرهما ، وإعطاء معانيه ، والمتعدى خاصة فى الدخول على اسمين ، ولذلك أعملت عمله الفرعى وهو نصب الأول ورفع الثانى لإيذاننا بكونه فرعاً فى العمل دخيلاً فيه ، وعند الكوفيين لا عمل لها فى الخبر ؛ بل هو باق على حاله بقضية الاستصحاب . وأجيب بأن ارتفَاع الخبر مشروط بالتجرد عن العوامل ، وإلا لما انتصب خبر كان وقد زال بدخولها ، فتعين لإعمال الحرف وأثرها تأكيد النسبة وتحققها ، ولذلك يتلقى بها القسم ، وتصدر بها الأجوبة ، ويؤتى بها فى مواقع الشك والإنكار لدفعه وردّه ، قال المبرد : قولك عبد الله قائم لإخبار عن قيامه وإن عبد الله قائم جواب سائل عن قيامه شك فيه ، وإن عبد الله لقائم جواب منكّر لقيامه .

وتعريف الموصول إما للهد والمراد به ناس بأعيانهم كإبى لُحَب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم وأخبار اليهود ، أو للجنس وقد خص منه غير المصرين بما أسند إليه من قوله تعالى : سواء عليهم أخرج ، والكافر فى اللغة ستر النعمة ، وأصله الكفر بالفتح أى الستر . ومنه قيل للزارع والليل كافر ، قال تعالى (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) وعليه قول لبيد :

* فى ليلة كفر النجوم ، غمامها *

ومنه المتكفر بسلاحه وهو الشاكى الذى غطى السلاح بدنه ، وفى الشريعة إنكار ما علم بالضرورة بحجى الرسول عليه الصلاة والسلام به ، وإنما عد لبس الغيار وشد الزنار بغير اضطراب ونظائرهما كفرآ لدلالته على التكذيب ، فإن من صدق النبى عليه السلام لا يكاد يجترأ على أمثال ذلك ، إذ لا داعى إليه كالزنى وشرب الخمر ، واحتجت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضى على وجه الإخبار ، فإنه يستدعى سابقة الخبر عنه للاحالة ، وأجيب بأنه من مقتضيات التعليق وحدثه لا يستدعى

حدوث الكلام ، كما أن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعى حدوث العلم
 ﴿سواء﴾ هو اسم بمعنى الاستواء ، نعت به كما ينعت بالمصادر مبالغة ، قال
 تعالى (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) وقوله تعالى ﴿عليهم﴾ متعلق به ،
 ومعناه عندهم وارتفاعه على أنه خبر ، لأن قوله تعالى ﴿أنذرهم أم لم تنذرهم﴾
 مرتفع به على الفاعلية ؛ لأن الهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام ، لتحقيق
 الاستواء بين مدخوليهما ، كما جرد الأمر والنهي لذلك عن معنييهما في قوله تعالى :
 (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وحرف النداء في قولك : اللهم اغفر لنا أيها
 العصاة عن معنى الطلب لمجرد التخصيص ، كأنه قيل : إن الذين كفروا مستو
 عليهم إنذارك وعدمه ، كقولك ، إن زيدا مختمهم أخوه وابن عمه ، أو مبتدأ
 وسواء عليهم خبر قدم عليه اعتناء بشأنه ، والجملة خبر لأن ، والفعل إنما يتمتع
 الإخبار عنه عند بقاءه على حقيقته .

وأما لو أريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمنا على طريقة
 الاتساع فهو كالاسم في الإضافة والإسناد إليه ، كما في قوله تعالى (هذا يوم
 ينفع الصادقين صدقهم) وقوله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا) وفي قولهم :
 تسمع بالمعدي خير من أن تراه ، كأنه قيل : إنذارك وعدمه بيان عليهم ،
 والعدول إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد والتوصل إلى إدخال الهمزة ومعادلتها
 عليه لإفادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده ، كما أشير إليه ؛ وقيل : سواء مبتدأ
 وما بعده خبره وليس بذلك ؛ لأن مقتضى المقام بيان كون الإنذار وعدمه
 سواء ، لا بيان كون المستوى الإنذار وعدمه ، والإنذار إعلام المخوف
 للاحتراز عنه ، أفعال من من نذر بالشئ إذا علمه فخره ، والمراد ههنا
 التخويف من عذاب الله وعقابه على المعاصي ، والاقتصار عليه لما أنهم ليسوا
 بأهل للبشارة أصلا ، ولأن الإنذار أوقع في القلوب ، وأشد تأثيرا في النفوس
 فإن دفع المضار أهم من جلب المنافع ، فحيث لم يتأثروا به فلا يرفعوا للبشارة رأسا
 أولى ، وقرئ بتوسيط ألف بين الهمزتين مع تحقيقهما وتوسيطها والثانية

بين بين وبشخفيف الثانية بين بين بـلاتوسيط ، وبحذف حرف الاستفهام ، وبحذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله ، كما قرئ قد أفلح ، وقرئ بقلب الثانية ألفا ، وقد نسب ذلك إلى اللحن .

﴿ لا يؤمنون ﴾ جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها ، مبينة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء ، فلا محل لها من الإعراب ، أو حال مؤكدة له ، أو بدل منه أو خبر لأن ، وما قبلها اعتراض بما هو علة للحكم ، أو خبر ثان على رأى من يجوز عند كونه جملة ، والآية السكرية بما استدل به على جواز التكليف بما لا يطاق ، فإنه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون ، فظهر استحالة إيمانهم لاستلزامه المستحيل الذى هو عدم مطابقة إخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالإيمان ، باقين على التكليف ، ولأن من جملة ما كلفوه الإيمان بعدم إيمانهم المستمر ، والحق أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلا من حيث أن الأحكام لا تستدعى أغراضا لاسيما الامتثال ، لكننه غير واقع للاستقرار ، والإخبار بوقوع الشيء أو بعدمه لا ينفي القدرة عليه ، كإخباره تعالى عما يفعل هو ، أو العبد باختياره ، وليس ما كلفوه الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلفوا الإيمان بعدم إيمانهم المستمر ، بل هو الإيمان بجميع ما جاء به النبى عليه السلام إجمالا ، على أن كون الموصول عبارة عنهم ليس معلوما لهم .

وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا يفيد إلزام الحجة وإحراز الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الإبلاغ ، ولذلك قيل سواء عليهم ، ولم يقل عليك ، كما قيل لعبدة الأصنام سواء عليكم أدعوتهم أم أتم صامتون ، وفى الآية السكرية إخبار بالغييب على ما هو به إن أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهى من المعجزات الباهرة ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ استئناف تعليل لما سبق الحكم ، وبيان لما يقتضيه ، أو بيان وتأكيده ، والمراد بالقلب محل القوة العاقلة من الفؤاد ، والختم على الشيء الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانة

له ، أو لما فيه من التعرض له كما في البيت الفارغ والكيس المملوء ، والأول هو الأنسب بالمقام ، إذ ليس المراد به صيانة ما في قلوبهم ، بل لإحداث حالة تجعلها بسبب تماديهم في الغنى وانهماكهم في التقليد ، وإعراضهم عن مناج النظر الصحيح ، بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ، ولا ينفذ فيها الحق أصلا ، إما على طريقة الاستعارة التبعية ، بأن يشبه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنية للسكنى تشبيه معقول بمحسوس بجامع عقلي هو الاشتغال على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبله ، ويستعار له الختم ثم يشتق منه صيغة الماضي ، وإما على طريقة التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم وقد فعل بها ما فعل من إحداث تلك الحالة المانعة من أن يصل إليها ما خلقت لأجله من الأمور الدينية النافعة ، وحيل بينها وبينه بالمرّة بهيئة منتزعة من محال معدة لحلول ما يحلها حلولاً مستتبعا لمصالح مهمة وقد منع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لأجله بالسكينة ، ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة المشبهة بها فيكون كل من طرفي التشبيه مركبا من أمور عدة قد اقتصر من جانب المشبه به على ما عليه يدور الأمر في تصوير تلك الهيئة وانزعاعها وهو الختم ، والباقي منوى مراد قصداً بالفاظ متخيلة بها يتحقق التركيب ، وتلك الألفاظ وإن كان لها مدخل في تحقيق وجه الشبه الذي هو أمر عقلي منتزع منها وهو امتناع الانفعال بما أعدله بسبب مانع قوى ، ليس في شيء منها على الانفراد تجوز باعتبار هذا المجاز ، بل هي باقية على حالها من كونه حقيقة أو مجازاً أو كناية ، وإنما التجوز في المجموع ، وحيث كان معنى المجموع بمجموع معاني تلك الألفاظ التي ليس فيها التجوز المأمور ، ولم تكن الهيئة المنتزعة منها مدلولاً وضعياً لها ليسكون ما دل على الهيئة المشبهة بها عند استعماله في الهيئة المشبهة مستعملاً في غير ما وضع له ، فيندرج تحت الاستعارة التي هي قسم من المجاز اللغوي ، الذي هو عبارة عن الكلمة المستعملة في غير ما وضع له ذهب قدماء المحققين كالشيخ عبد القاهر وأضرابه إلى جعل التمثيل قسماً برأسه ، ومن رام (هـ - أبو السعود - أول)

تقاييل الأقسام عد تلك الهيئة المشبه بها من قبيل المدلولات الوضعية ، وجعل الكلام المفيد لها عند استعماله فيما يشبه بها من هيئة أخرى منتزعة من أمور آخر من قبيل الاستعارة ، وسماء استعارة تمثيلية ، وإسناد لإحداث تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عندنا من حيث الخلق إليه سبحانه وتعالى ، وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة إليهم ، فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح كما يعرب عنه قوله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) ونحو ذلك .

وأما المعتزلة فقد سلموا مسلك التأويل ، وذكروا في ذلك عدة من الأقاويل منها أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلقى المجبول عليه ، ومنها أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفطن ، أو بقلوب قد ختم الله تعالى عليها كما في : سال به الوادى إذا هلك ، وطارت به العنقاء إذا حالت غيبته ، ومنها أن ذلك فعل الشيطان أو الكافر ، وإسناده إليه تعالى باعتبار كونه بإقداره تعالى وتمكينه ، ومنها أن أعراقهم لما رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق إلى تحصيل إيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف عبر عن ذلك بالختم ، لأنه سد لطريق إيمانهم بالسكينة ، وفيه إشعار بترامى أمرهم في الغنى والعناد ، وتناهى انهماكهم في الشر والفساد ، ومنها أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه مثل قولهم (قلوبنا في أكنة بما تدعوننا إليه ، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) تنكيا بهم ، ومنها أن ذلك في الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضى لتحقيق وقوعه ويعضده قوله تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا) ومنها أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمة يعرفها الملائكة فيبغضوهم ويشفروا عنهم .

((وعلى سمعهم)) عطف على ما قبله داخل في حكم الختم لقوله عز وجل

(وختم على سمعه وقلبه) وللولفاق على الوقف عليه لاعلى قلوبهم ، ولاشترأ كهما
 فى الإدراك من جميع الجوانب ، ولإعادة الجار للتأ كيد والإشعار بتغاير الختمين
 وتقديم ختم قلوبهم للإيدان بأنها الأصل فى عدم الإيمان وللإشعار بأن ختمها
 ليس بطريق التبعية بختم سمعهم ، بناء على أنه طريق إليها ، فالختم عليه ختم عليها
 بل هى مختومة بختم على حدة ، لو فرض عدم الختم على سمعهم فهو باق على
 حاله حسبما يفصح عنه قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم
 لتولوا وهم معرضون) والسمع إدراك القوة السامعة ، وقد يطلق عليها وعلى
 العضو الحامل لها وهو المراد ههنا ، إذ هو المختوم عليه أصالة ، وتقديم حاله
 على حال أبصارهم للاشتراك بينهما وبين قلوبهم فى تلك الحال ، أو لأن جنائتهم
 من حيث السمع الذى به يتلقى الأحكام الشرعية ، وبه يتحقق الإنذار أعظم
 منها من حيث البصر الذى به يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد ، فبيانها أحق
 بالتقديم ، وأنسب بالمقام .

قالوا : السمع أفضل من البصر ، لأنه عز وعلا حيث ذكرهما قدم السمع
 على البصر ، ولأن السمع شرط النبوة ولذلك ما بعث الله رسولا أصم ، ولأن
 السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارف التى تتلقف من أصحابها وتوحيده
 للأمن عن اللبس ، واعتبار الأصل ، أو لتقدير المضاف ، أى وعلى حواس
 سمعهم ، والكلام فى إيقاع الختم على ذلك كما مر من قبل ﴿ وعلى أبصارهم
 غشاوة ﴾ الأبصار جمع بصر ، والكلام فيه كما سمعته فى السمع ، والغشاوة
 فعالة من التغطية أى التغطية ، بنيت لما يشتمل على الشئ كالعصابة والعمامة ،
 وتنكيرها للتفخيم والتهويل ، وهى على رأى سيبويه مبتدأ خبره الظرف
 المقدم والجملة معطوفة على ما قبلها ، وإيثار الاسمىة للإيدان بدوام مضمونها ،
 فإن ما يدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة فى الآفاق والأنفس حيث
 كانت مستمرة كان تعاميمهم من ذلك أيضا كذلك .

وأما الآيات التى تتلقى بالقوة السامعة فلما كان وصولها إليها حيننا فحيننا

أوثر في بيان الختم عليها وعلى ما هي أحد طريق معرفته أعنى القلب الجملة الفعلية ، وعلى رأى الأخفش مرتفع على الفاعلية مما تعلق به الجار ، وقرىء بالنصب على تقدير فعل ناصب ، أى وجعل على أبصارهم غشاوة ، وقيل على حذف الجار وإيصال الختم إليه ، والمعنى وختم على أبصارهم بغشاوة وقرىء بالضم والرفع وبالفتح والنصب ، وهما لغتان فيها ، (وغشوة) بالكسر مرفوعة وبالفتح مرفوعة ومنصوبة ، وغشاوة بالعين غير المعجمة والرفع ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه فى الآخرة والعذاب كالنكال بناء ومعنى يقال أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه ومنه الماء العذب لما أنه يجمع العطش ويردعه ، ولذلك يسمى نقاخا ، لأنه ينقخ العطش ويكسره ، وفراثا لأنه يرفته على القلب ويكسره ، ثم اتسع فيه فأطلق على كل ألم فادح ، وإن لم يكن عقابا يراد به ردع الجانى عن المعاودة ، وقيل اشتقاقه من التعذيب الذى هو إزالة العذاب ، كالتقذية والتريض . والعظيم نقيض الحقيق ، والكبير نقيض الصغير ، فن ضرورة كون الحقيق دون الصغير كون العظيم فوق الكبير ، ويستعملان فى الجشث والأحداث . تقول رجل عظيم وكبير تريد جشته أو خطره ، ووصف العذاب به لتأكيد ما يفيدته التنكير من التفخيم والتهويل والمبالغة فى ذلك .

والمعنى : أن على أبصارهم ضربا من الغشاوة خارجا عما يتعارفه الناس ، وهى غشاوة التعامى عن الآيات ، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يبلغ كنهه ولا يدرك غايته ، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك كله يا أرحم الراحمين .

من علامات النفاق

﴿ومن الناس﴾ شروع فى بيان أن بعض من حكيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصرين على ما ذكر من محض الإصرار على الكفر والعناد ، بل يضمون إليه فنونا آخر من الشر والفساد وتعدد لجنایاتهم الشنيعة المستتعبة

لأحوال هائلة عاجلة وآجلة ، وأصل ناس أناس ، كما يشهد له إنسان وأناسي وإنس ، حذفت همنته تخفيفاً كما قيل لوقة في ألوقة ، وعوض عنها حرف التعريف ، ولذلك لا يكاد يجمع بينهما وأما ما في قوله :

لن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا

فشاذ ، سمو بذلك لظهورهم وتعلق الإيناس بهم كما سمي الجن جننا لاجتماعهم وذهب بعضهم إلى أن أصله النوس وهو الحركة انقلبت واوه ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، وبعضهم إلى أنه مأخوذ من نسي ، نقلت لامه إل موضع العين فصار نيسا ، ثم قلبت ألفا سموا بذلك لنسيانهم ، ويروى عن ابن عباس أنه قال : سمي الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فئسى ، واللام فيه إما للعهد ، أو للجنس المقصود على المصرين حسبها ذكر في الموصول ، كأنه قيل : ومنهم أو من أولئك ، والعدول إلى الناس للإيذان بكثرتهم ، كما ينبىء عنه التبعيض ، ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه . أو نعت لمقدر هو المبتدأ ، كما في قوله عز وجل (ومننا دون ذلك) أى وجمع منا الخ ، ومن في قوله تعالى ﴿ من يقول ﴾ موصولة أو موصوفة ، ومحلها الرفع على الخبرية ، والمعنى وبعض الناس ، أو وبعض من الناس الذى يقول ، كقوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبى) الآية ، أو فريق يقول ، كقوله تعالى : (من المؤمنين رجال) الخ ، على أن يكون مناط الإفادة والمقصود بالإصالة اتصافهم بما في حين الصلة أو الصفة ، وما يتعلق به من الصفات جميعا ، لا كونهم ذوات أولئك المذكورين .

وأما جعل الظرف خبرا كما هو الشائع في موارد الاستعمال فيأباه جنالة المعنى ، لأن كونهم من الناس ظاهر فالإخبار به عار عن الفائدة كما قيل ، فإن مبناه توهم كون المراد بالناس الجنس مطلقا ، وكذا مدار الجواب عنه بأن الفائدة هو التنبيه على أن الصفات المذكورة تنافى الإنسانية ، فحق من

يتصف بها ألا يعلم كونه من الناس ، فيخبر به ويتعجب منه ، وأنت خير بأن الناس عبارة عن المعهودين ، أو عن الجنس المقصور على المصريين ، وأيا ما كان فالفائدة ظاهرة ، بل لأن خبرية الظرف تستدعي أن يكون اتصاف هؤلاء بتلك الصفات القبيحة المفصلة في ثلاث عشرة آية عنواناً للموضوع مفروغا عنه ، غير مقصود بالذات ، ويكون مناط الإفادة كونهم من أولئك المذكورين ، ولا ريب لأحد في أنه يجب حمل النظم الجليل على أجزال المعاني وأكملها وتوحيد الضمير في يقول باعتبار لفظة من وجمعه في قوله ﴿ آمنا بالله واليوم الآخر ﴾ وما بعده باعتبار معناها ، والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى ، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، إذ لا حد ورامه ، وتخصيصهم للإيمان بهما بالذكر مع تكرير الباء لادعاء أنهم قد حازوا الإيمان من قطريه ، وأحاطوا به من طرفيه ، وأنهم قد آمنوا بكل منهما على الأصالة والاستحكام ، وقد دسوا تحتهم ما هم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكن لإيمانهم بواحد منهما إيمانا في الحقيقة ، إذ كانوا مشركين بالله بقولهم (عزير ابن الله) وجاحدين باليوم الآخر بقولهم (لن تمسنا النار إلا أيا ما معدودة) ونحو ذلك وحكاية عبارتهم لبيان كمال خبثهم ودعارتهم ، فإن ما قالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم وعقيدتهم لم يكن ذلك إيمانا ، فكيف وهم يقولونه تمويهاً على المؤمنين واستهزاء بهم ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ رد لما ادعوه ونفى لما انتحلوه وما حجازية ، فإن جواز دخول الباء في خبرها لتأكيد النفي اتفاقى بخلاف التيمية ، وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة في الرد بإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة لا في الماضي فقط كما يفيد الفعلية ، ولا يتوهم أن الجملة الاسمية الإيجابية تفيد دوام الشبوت ، فعند دخول النفي عليها يتعين الدلالة على نفي الدوام ، فإنها بمعونة المقام تدل على دوام النفي قطعاً ، كما أن المضارع الخالي عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود وعند دخول حرف الامتناع عليه يدل على استمرار ،

الامتناع ، لا على امتناع الاستمرار ، كما في قوله عز وجل (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) فإن عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل لا لعدم استمرار التعجيل ، وإطلاق الإيمان عما قيدوه به للإيدان بأنهم ليسوا من جنس الإيمان في شيء أصلا ، فضلا عن الإيمان بما ذكروا ، وقد جوز أن يكون المراد ذلك ، ويكون الإطلاق للظهور ، ومدلول الآية السكينة أن من أظهر الإيمان واعتقاده بخلافه لا يكون مؤمنا ، فلا حجة فيها على السكينة القائلين بأن من تفوه بكلمتي الشهادة فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه مؤمن .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ بيان ليقول وتوضح لما هو غرضهم بما يقولون ، أو استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن ، كأنه قيل : ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين ، فقيل يخادعون الله الخ أى يخدعون ، وقد قرئ كذلك وإيثار صيغة المفاعلة لإفادة المبالغة في الكيفية ، فإن الفعل متى غلب فيه بولغ فيه قطعاً أو في السكينة كما في الممارسة والمزاولة ، فإنهم كانوا مداومين على الخدع ، والخدع أن يؤم صاحبهم خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب ، أو يؤمهم المساعدة على ما يريد هو به ليغترب بذلك فينجو منه بسهولة من قولهم ضب خادع وخدع وهو الذى إذا أمر الحارس يده على باب جحره يؤمهم الإقبال عليه فيخرج من بابه الآخر ، وكلا المعنيين مناسب للمقام ، فإنهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى المنافذين ، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائر الكفرة .

وأيا ما كان فنسبته إلى الله سبحانه إما على طريق الاستعارة والتشليل ، لإفادة كمال شناعة جنائيتهم أى يعاملون معاملة الخادعين ، وإما على طريقة المجاز العقلى ، بأن ينسب إليه تعالى ما حقه أن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لإبانة مكانته عنده تعالى ، كما ينسب عنه قوله تعالى : (إن الذين

يُبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) وقوله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) مع إفادة كمال الشناعة كما مر ، وإما لمجرد التوطئة والتهديد لما بعده من نسبته إلى الذين آمنوا ، والإيذان بقوة اختصاصهم به تعالى كما في قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه ، وقوله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله) وإبقاء صيغة المخادعة على معناها الحقيقي بناء على زعمهم الفاسد ، وترجمة عن اعتقادهم الباطل ، كأنه قيل : يزعمون أنهم يخدعون الله والله يخدعهم ، أو على جعلها استعارة تبعية ، أو تمثيلا لما أن صورة صنعهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعه تعالى معهم بإجراء أحكام الإسلام عليهم ، وهم عنده أخبث الكفرة ، وأهل الدرك الأسفل من النار استدراجا لهم ، وامتنال الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأمر الله تعالى في ذلك بجازاة لهم بمثل صنعهم صورة صنيع المخادعين كما قيل ، بما لا يرتضيه النوق السليم أما الأول فلأن المتناقضين لو اعتقدوا أن الله تعالى يخدعهم بمقابلة خدعهم له لم يتصور منهم التصدي للخدع ، وأما الثاني فلأن مقتضى المقام لإيراد حالهم خاصة وتصويرها بما يليق بها من الصورة المستهجنة ، ويبان أن غائلها آيلة إليهم من حيث لا يحتسبون كما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ فالتعرض لحال الجانب الآخر بما يخل بتوفية المقام حقه ، وهو حال من ضمير يخادعون ، أى يفعلون والحال أنهم ما يضرون بذلك إلا أنفسهم ، فإن دائرة فعلهم مقصورة عليهم ، أو ما يخدعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يغرونها بالأكاذيب فيلقونها في مهاوى الردى ، وقرئ (وما يخادعون) والمعنى هو المعنى ، ومن حافظ على الصيغة فيما قبل قال وما يعاملون تلك المعاملة الشبيهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم لأن ضررها لا يحيق إلا بهم ، أو ما يخادعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ، وهى أيضا تغرهم وتمنيهم الأمانى الفارغة ، وقرئ (وما يخدعون) من التخديع ، (وما يخدعون) أى يخدعون ، ويخدعون ويخادعون على البناء للمفعول ، ونصب أنفسهم بنزع الخافض ، والنفس ذات الشئ وحقيقته وقد يقال للروح لأن نفس

الحى به وللقلب أيضاً لأنه محل الروح أو متعلقه وللدن أيضاً لأن قوامها به وللدن أيضاً لشدة حاجتها إليه والمراد هنا هو المعنى الأول لأن المقصود بيان أن ضرر مخادعتهم راجع إليهم لا يتخطاهم إلى غيرهم .

وقوله تعالى ﴿ وما يشعرون ﴾ حال من ضمير ما يخدعون ، أى يقتصرون على خدع أنفسهم والحال أنهم ما يشعرون أى ما يحسون بذلك لتعاديتهم فى الغواية ، وحذف المفعول إما لظهوره أو لعمومه ، أى ما يشعرون بشئ أصلاً ، جعل لحوق وبال ما صنعوا بهم فى الظهور بمنزلة الأمر المحسوس الذى لا يخفى إلا على مؤوف الخواص مختل المشاعر .

﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ المرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويوجب الخلل فى أفعيله ، ويؤدى إلى الموت ، استعير ههنا لما فى قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة ، وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدى إلى الهلاك الروحانى ، والتشكير للدلالة على كونه نوعاً مبهماً غير ما يتعارفه الناس من الأمراض والجملة مقررة لما يفيدته قوله تعالى (وما هم بمؤمنين) من استمرار عدم إيمانهم ، أو تعليل له كأنه قيل ما لهم لا يؤمنون فقيل فى قلوبهم مرض يمنعهم ^(١) ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والإنذار ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، والفاء للدلالة على ترتب مضمونها عليه ، وبه اتضح كونهم من الكفرة المختوم على قلوبهم مع زيادة بيان السبب ، وقيل زادهم كفراً بزيادة التكليف الشرعية ، لأنهم كانوا كلوا ازداد التكليف بنزول الوحي يزدادون كفراً ، ويجوز أن يكون المرض مستعاراً لما تداخل قلوبهم من الضعف والجن والخور عند مشاهدتهم لعزة المسلمين ، فزيادته تعالى إياهم مرضاً ما فعل بهم من إلقاء الروع وقذف الرعب فى قلوبهم عند إغزاز الدين بإمداد النبى صلى الله عليه وسلم بإنزال الملائكة ، وتأنيده بفنون النصر والتسكين ، فقوله تعالى

(١) فى : يمنة

(في قلوبهم مرض) الخ حينئذ استئناف تعليلي لقوله تعالى (يخادعون الله) الخ ، كأنه قيل ما لهم يخادعون ويداهنون ولم لا يجاهرون بما في قلوبهم من الكفر ، فقيل في قلوبهم ضعف مضاعف هذه حالهم في الدنيا ، (ولهم) في الآخرة (عذاب أليم) أى مؤلم يقال ألم وهو أليم كوجع وهو وجيع وصف به العذاب للبالغته كما في قوله :

✽ تحية بينهم ضرب وجيع ✽

على طريقة جد جده فإن الألم والوجع حقيقة للمؤلم والمضروب ، كما أن الجد للجد ، وقيل هو بمعنى المؤلم كالسميع بمعنى المسمع وليس ذلك بثبت كما سيحىء في قوله تعالى بديع السموات والأرض (بما كانوا يكذبون) الباء للسببية أو وما مصدرية داخلية في الحقيقة على يكذبون ، وكلية كانوا مقحمة للمقابلة لإفادة دوام كذبهم وتجده أى بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذى هو قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) وهم غير مؤمنين ، فإنه لإخبار بإحداثهم الإيمان فيما مضى لا لإنشاء للإيمان ولو سلم فهو متضمن للإخبار بصدوره عنهم وليس كذلك لعدم التصديق القلبى بمعنى الإذعان والقبول قطعاً ويجوز أن يكون محمولا على الظاهر بناء على رأى من يجوز أن يكون لكان الناقصة مصدر ، كما صرح به فى قول الشاعر :

يبدل وحلم ساد فى قومه الفقى وكونك إياه عليك يسير

أى لهم عذاب أليم بسبب كونهم يكذبون على الاستمرار ، وترتيب العذاب عليه من بين سائر موجباته القوية إما لأن المراد بيان العذاب الخاص بالمنافقين بناء على ظهور شركتهم للمجاهرين فيما ذكر من العذاب العظيم حسب اشتراكهم فيما يوجبهم من الإصرار على الكفر كما يفتى عنه قوله تعالى : (ومن الناس) الخ وإما للإيدان بأن لهم بمقابلة سائر جنائياتهم العظيمة من العذاب ما لا يوصف ، وإما للرمز إلى كمال سماجة الكذب نظراً إلى ظاهر العبارة المخيلة لانفراده بالسببية ، مع إحاطة علم السامع بأن لحوق العذاب بهم

من جهات شتى ، وأن الاقتصار عليه للإشعار بنهاية قبجه والتنفير عنه . عن الصديق رضى الله عنه ويروى مرفوعاً أيضاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم « إياكم والكذب فإنه بجانب للإيمان ، وما روى أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات^(١) فالمراد به التعريض ، وإنما سمي به لشبهه به صورة ، وقيل مامو صولة والعائد محذوف أى بالذى يكذبون والمفعول محذوف ، وهو إما النبي صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن وما مصدرية ، أى بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام ، أو القرآن أو موصلة أى بالذى يكذبونه على أن العائد محذوف ، ويجوز أن يكون صيغة التفعيل للبالغة كما فى بين فى بان وقلص فى قلص ، أو للتكثير كما فى موت البهائم وبركت الإبل ، وأن يكون من قولهم كذب الوحشى إذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ما وراءه فإن المنافق متوقف فى أمره متردد فى رأيه ولذلك قيل له مذهب .

﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ﴾ شروع فى تعديد بعض من قبائحهم المتفرعة على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق وإذا ظرف زمن مستقبل ويلزمها معنى الشرط غالباً ، ولا تدخل إلا فى الأمر المحقق أو المرجح وقوعه ، واللام متعلقة بقليل ومعناها الإنهاء والتبليغ ، والقائم مقام فاعله جملة لا تفسدوا على أن المراد بها اللفظ ، وقيل هو مضمرة يفسره المذكور والفساد خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والصالح مقابله ، والفساد فى الأرض هيج الحروب والفتن المستتبعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد واختلال أمر المعاش والمعاد والمراد بما نهوا عنه ما يؤدى إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار ، وإغرائهم عليهم ، وغير ذلك من فنون الشرور ، كما يقال للرجل لا تقتل نفسك بيدك ، ولا تلق نفسك فى النار إذا أقدم على ما تلك عاقبته وهو

() هى قوله : إني سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله عن سارة إنها أخته لازوجته ، وفى الأخيرة نظر .

لما معطوف على يقول ، فإن جعلت كلمة من موصولة فلا محل له من الإعراب ولا بأس بتخلل البيان أو الاستئناف وما يتعلق بهما بين أجزاء الصلة فإن ذلك ليس توسيطا بالأجنبي ، وإن جعلت موصوفة فتحله الرفع ، والمعنى ومن الناس من إذا نهوا من جهة المؤمنين عما هم عليه من الإفساد في الأرض ﴿ قالوا ﴾ إرادة للناهين أن ذلك غير صادر عنهم مع أن مقصودهم الأصلي إنكار كون ذلك إفسادا وادعاء كونه إصلاحا محضا كما سيأتى توضيحه ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ أى مقصرون على الإصلاح المحض ، بحيث لا يتعلق به شائبة الإفساد والفساد ، مشيرين بكلمة إنما إلى أن ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغي أن يرتاب فيه ، ولما كلام مستأنف سيق لتعديد شنائعهم وأما عطفه على يكذبون بمعنى ولهم عذاب أليم بكذبهم وبقولهم حين نهوا عن الإفساد إنما نحن مصلحون كما قيل ، فيأباه أن هذا النحو من التعليل حقه أن يكون بأوصاف ظاهرة العلية مسلبة الثبوت للموصوف غنية عن البيان لشهرة الاتصاف بها عند السامع أو لسبق ذكره صريحا كما في قوله تعالى (بما كانوا يكذبون) فإن مضمونه عبارة عما حكى عنهم من قولهم (آمنا بالله وباليوم الآخر) أو لذكر ما يستلزمه استلزاما ظاهرا كما في قوله عز وجل (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) فإن ما ذكر من الضلال عن سبيل الله مما يوجب حتما نسيان جانب الآخرة التى من جملتها يوم الحساب وما لم يكن كذلك فحقه أن يخبر بعلمته قصدا كما في قوله تعالى (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار) الآية وقوله (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) الآية إلى غير ذلك ولا ريب فى أن هذه الشرطية وما بعدها من الشرطيتين المعطوفتين عليها ليس مضمون شئ منها معلوم الاتصاف إليهم عند السامعين بوجه من الوجوه المذكورة ، حتى تستحق الانتظام فى سلك التعليل المذكور ، فإذا حقها أن تكون مسوقة على سنن تعديد قبائحهم على أحد الوجهين ، مفيدة لاتصافهم بكل واحد من تلك الأوصاف قصدا واستقلا لا كيف لا وقوله عز وجل ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ ينادى بذلك نداء جليا فإنه رد من جهته

تعالى لدعواهم المحسكية أبلغ رد ، وأدله على سخط عظيم حيث سلك فيه مسلك الاستئناف المؤدى إلى زيادة تمكن الحكم في ذهن السامع (وصدرت الجملة الجملة بحرفي التأكيد ألا المنبهة على تحقق ما بعدها ، فإن الهمزة الإنكارية الداخلة على النفي تفيد تحقيق الإثبات قطعاً كما في قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها من الجملة إلا مصدرة بما يتلقى به القسم ، وأختها التي هي أما من طلائع القسم .

وقيل : هما حرفان بـسـيـطـان موضوعان للتنبيه والاستفتاح وإن المقررة للنسبة ، وعرف الخبر ووسط ضمير الفصل لرد ما في قصر أنفسهم على الإصلاح من التعريض بالمؤمنين ثم استدرك بقوله تعالى ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ للإيذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة ، لكن لا حس لهم حتى يدركوه ، وهكذا الكلام في الشرطيتين الآتيتين وما بعدهما من رد مضمونهما ، ولولا أن المراد تفصيل جنائياتهم وتعدد خباياهم وهنأهم ثم إظهار فسادها وإبانة بطلانها لما فتح هذا الباب والله أعلم بالصواب .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف لإثرائهم عن المنكر إتماماً للنصح وإكمالاً للإرشاد ﴿ آمنوا ﴾ حذف المؤمن به لظهوره أو أريد أفعالوا الإيمان ﴿ كما آمن الناس ﴾ الكاف في محل نصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف أي آمنوا إيماناً مماثلاً لإيمانهم فامصدرية أو كافة ، كما في ربما ، فإنها تكلف الحرف عن العمل ، وتصحيح دخولها على الجملة ، وتكون للتشبيه بين مضموني الجملتين ، أي حققوا إيمانكم كما تحقق إيمانهم ، واللام للجنس ، والمراد بالناس الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل ، فإن اسم الجنس كما يستعمل في مسماه يستعمل فيما يكون جامعاً للمعاني الخاصة به المقصودة منه ، ولذلك يسلب عما ليس كذلك ، فيقال هو ليس بإنسان وقد جمعهما من قال :

* إذ الناس ناس والزمان زمان *

أو للهدى والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ، أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام وأضرابه ، والمعنى آمنوا لإيماننا مقروننا بالإخلاص ، متمحضا عن شوائب النفاق ، مماثلا لإيمانهم ﴿قالوا﴾ مقابلين للأمر بالمعروف بالإنكار المنكر واصفين للمراجيح الرزان بضد أوصافهم الحسنات ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ مشيرين باللام إلى من أشير إليهم في الناس من الكاملين ، أو المعهودين ، أو إلى الجنس بأسره . وهم متدرجون فيه على زعمهم الفاسد ، والسفه خفة وسخافة رأى يورثهما قصور العقل ، ويقابله الحلم والأناة ، وإنما نسبوهم إليه مع أنهم في الغاية القاصية من الرشد والريانة والوقار ، لئلا ، انهمك أنفسهم في السفاهة ، وتماديهم في الغواية ، وكونهم بمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فمن حسب الضلال هدى يسمى الهدى لا محالة ضلالا أو لتحقير شأنهم ، فإن كثيرا من المؤمنين كانوا فقراء ، ومنهم موال كصبيب وبلال ، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد بالناس عبد الله بن سلام وأمثاله ، وأيا ما كان فالذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعى نظامه شأنه الجليل أن يكون صدور هذا القول عنهم بمحض من المؤمنين الناصحين لهم جوابا عن نصيحتهم ، وحيث كانوا فحواه تسفيه أولئك المشاهير الأعلام ، والقدح في إيمانهم لزم كونهم مجاهرين لا منافقين . وذلك مما لا يكاد يساعده السباق والسياق ، وعن هذا قالوا ينبغى أن يكون ذلك فيما بينهم لا على وجه المؤمنين .

قال الإمام الواحدى : إنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين ، فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام والمؤمنين بذلك عنهم ، وأنت خبير بأن إبراز ما صدر عن أحد المتحاورين في الخلاء في معرض ما جرى بينهما في مقام المحاورة مما لا عهد به في الكلام فضلا عما هو في منصب الإعجاز فالحق الذى لا محيد عنه أن قولهم هذا وإن صدر عنهم بمحض من الناصحين لا يقتضى كونهم مجاهرين ، فإنه ضرب من الكفر أنيق ، وفن في النفاق

عريق ، مصنوع على شاكلة قولهم (واسمع غير مسمع) فكما أنه كلام ذو وجهين مثلهم محتمل للشر ، بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاما نرضاه ونحوه ، وللخير بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء به ، مظهرين لإرادة المعنى الأخير ، وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأول ، مطمئنون به ، ولذلك نهوا عنه ، كذلك هذا الكلام محتمل للشر كما ذكر في تفسيره ، وللخير بأن يحمل على ادعاء الإيمان كإيمان الناس وإنكار ما انهموا به من النفاق ، على معنى أنؤمن كما آمن السفهاء والمتجانبين الذين لا اعتداد بإيمانهم ، لو آمنوا ولا تؤمن كإيمان الناس حتى تأمرونا بذلك ، قد خاطبوا به الناصحين استهزاء بهم مرارتي لإرادة المعنى الأخير ، وهم معولون على الأول ، فرد عليهم ذلك بقوله عز قائلًا ﴿ أَلَا لَهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ ، وَلَسَكُنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أبلغ رد وجهلوا أشنع تجهيل حيث صدرت الجملة بحر في التأكيد حسبما أشير إليه فيما سلف ، وجعلت السفاهة مقصورة عليهم وبالغة إلى حيث لا يدرون أنهم سفهاء ، وعن هذا اتضح لك سر مامر في تفسير قوله تعالى (إنما نحن مصلحون) فإن حملة على المعنى الأخير كما هو رأى الجمهور مناف لحالهم ضرورة أن مشافهتهم للناصحين بادعاء كون ما نهوا عنه من الإفساد إصلاحا كما مر إظهار منهم للشقاق ، وبروز بأشخاصهم من نفق النفاق .

والاعتذار بأن المراد بما نهوا عنه مداراتهم للمشركين كما ذكر في بعض التفاسير ، وبالإصلاح الذي يدعونه لإصلاح ما بينهم وبين المؤمنين ، وأن معنى قوله تعالى (ألا لهم المفسدون) أنهم في تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين ، لإشعارها بإعطاء الدنية ، وإناباتهم عن ضعفهم الملقى إلى توسيط من يتصدى لإصلاح ذات البين ، فضلاع عن كونهم مصلحين لا سبيل إليه قطعاً ، فإن قوله تعالى ، ولكن لا يشعرون ناطق بفساده كيف لا وهو ^(١) يقتضى أن يكون المنافقون في تلك الدعوى صادقين

(١) في ط أنه .

قاصدين للإصلاح ، ويأتيهم الإفساد من حيث لا يشعرون ، ولا ريب في أنهم فيهم كاذبون لا يعاشرهم إلا مضارة للدين ، وخيانة للمؤمنين ، فإذا طريق حل الإشكال ليس إلا ما أشير إليه ، فإن قولهم إنما نحن مصلحون محتمل للحمل على الكذب ، وإنكار صدور الإفساد المنسوب إليهم عنهم ، على معنى ، وهم معرجون على المعنى الأول ، فرد عليهم بقوله تعالى (ألا إنهم هم المفسدون) الآية ، والله سبحانه أعلم بما أودعه في تضاعيف كتابه المسكون من السر المخزون ، نسأله العصمة والتوفيق ، والهداية إلى سواء الطريق .

وتفصيل هذه الآية الكريمة بلا يعلمون لما أنه أكثر طباقا لذكر السفه الذى هو فن من فنون الجهل ، ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوط بالتمييز بين الحق والباطل ، وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال ، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والإفساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسدا فأمر بديهي يقف عليه من له شعور ، ولذلك فصلت الآية الكريمة السابقة بلا يشعرون ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ بيان لتباين أحوالهم وتناقض أقوالهم في أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين ومساك ما صدرت به قصتهم لتحرير مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ، ولذلك لم يتعرض ههنا لمعلق الإيمان فليس فيه شائبة التكرير .

روى أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة ، فقال ابن أبي انظروا كيف أورد هؤلاء السفهاء عنكم ، فلما دنوا منهم أخذ بيد أبي بكر رضى الله عنه فقال : مرحبا بالضيف سيد بنى تيم ، وشيخ الإسلام ، وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال : مرحبا بسيد بنى عدى ، الفاروق القوى فى دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ بيد على كرم الله وجهه فقال : مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه ، وسيد بنى هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنزلت . وقيل : قال له على رضى الله عنه يا عبد الله اتق الله ، ولا تنافق ، فإن المنافقين شر خلق الله تعالى ، فقال له مهلا يا أبا الحسن أفى تقول هذا ، والله إن إيماننا كإيمانكم ، وتصديقنا كتصديقكم ثم افترقوا فقال ابن أبى لأصحابه كيف رأيتمونى فعلت ، فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت ، فأنثوا عليه خيراً ، وقالوا لا نزال بخير ما عشت فينا فرجع المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروه بذلك فنزلت ، واللقاء المصادفة ، يقال لقيته ولاقيته أى صادفته واستقبلته وقرىء إذا لاقوا ﴿ وإذا خلوا ﴾ من خلوت إلى فلان ، أى انفردت معه ، وقد يستعمل بالباء ، أو من خلا بمعنى مضى ، ومنه القرون الخالية ، وقولهم خلاك ذم أى جاوزك ومضى عنك ، وقد جوز كونه من خلوت به إذا سخرت منه ، على أن تعديته يالى فى قوله تعالى ﴿ إلى شياطينهم ﴾ لتضمنه معنى الإنهاء ، أى وإذا أنصروا إليهم السخرية الخ . وأنت خير بأن تقييد قولهم المحكى بذلك الإنهاء بما لاوجه له والمراد بشياطينهم المائلون منهم للشيطان فى الترد والعناد ، المظهرون لكفرهم ، وإضافتهم إليهم للمشاركة فى الكفر ، أو كبار المنافقين ، والقائلون صغارهم ، وجعل سيديويه نون الشيطان تارة أصلية فوزنه فيعال ، على أنه من شطن إذا بعد ، فإنه بعيد من الخير والرحمة ، ويشهد له قولهم تشيطان ، وأخرى زائدة فوزنه فعلان ، على أنه من شاط أى هلك أو بطل ، ومن أسمائه الباطل ، وقيل معناه هاج واحترق ﴿ قالوا إنا معكم ﴾ أى فى الدين والاعتقاد لانفارقكم فى حال من الأحوال ، وإنما خاطبهم بالجملة الاسمية المؤكدة ، لأن مدعاهم عندهم تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين ، والتأكيد للإنباء عن صدق رغبتهم ، ووفور نشاطهم ، لا لإنكار الشياطين ، بخلاف معاملتهم مع المؤمنين ، فإنهم إنما يدعون عندهم لإحداث الإيمان لجزمهم بعدم رواج ادعاء السكال فيه أو الثبات عليه ﴿ إنما نحن ﴾ أى فى إظهار الإيمان عند المؤمنين ﴿ مستهزون ﴾ بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان حقيقة وهو استئناف مبنى على سؤال ناشئ من ادعاء المعية كأنه قيل لهم عند قولهم إنا معكم فما بالكم (٦ - أبو السعود - أول)

توافقون المؤمنين في الإيمان بكلمة الإيمان ، فقالوا : إنما نحن مستهزئون بهم فلا يقدح ذلك في كوننا معكم ، بل يؤكدوه وقد ضمنوا جوابهم أنهم يهينون المؤمنين ، ويعدون ذلك نصرة لدينهم ، أو تأكيد لما قبله ، فإن المستهزىء بالشىء مصر على خلافه أو بدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر والاستهزاء بالشىء السخرية منه ، يقال هزأت واستهزأت بمعنى ، وأصله الخفة من الهزؤ ، وهو القتل السريع ، وهزأ يهزأ مات على مكانه . وتهزأ به فاقته أى تسرع به وتخف .

﴿ الله يستهزى بهم ﴾ أى يحازيهم على استهزائهم ، سمي جزاؤه باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة إما للبشاشة في اللفظ ، أو المقارنة في الوجود ، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم ، فيسكون كالمستهزىء بهم ، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم . أما في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم ، واستدراجهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التماذى في الطغيان ، وأما في الآخرة فبما يروى أنه يفتح لهم باب إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى : (فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون) وإنما استؤنف للإيدان بأنهم قد بلغوا في المبالغة في استهزاء المؤمنين إلى غاية ظهرت شناعاتها عند السامعين ، وتعاضم ذلك عليهم حتى اضطربهم إلى أن يقولوا ما مصير أمر هؤلاء وما عاقبة حالهم ، وفيه أنه تعالى هو الذى يتولى أمرهم ولا يحوجهم إلى المعارضة بالمثلى ، ويستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذى ليس استهزأؤهم عنده من باب الاستهزاء ، حيث ينزل بهم من النكال ويحل عليهم من الذل والهوان ما لا يوصف ، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ، كما يعرب عنه قوله عز قائلنا : (أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين) وما كانوا خالين في أكثر الأوقات من تهتك أستار وتكشاف أسرار ، ونزول في شأنهم ، واستشعار حذر من ذلك ، كما أنبأ عنه قوله عز وجل (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما

في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴿ ويدهم ﴾ أى يزيدهم ويقويهم من مد الجيش وأمدّه إذا زاده ، ومنه مددت الدواة والسراج إذا أصلحتهما بالخبر والزيت ؛ وإشارته على يزيدهم الرمز إلى أن ذلك منوط بسوء اختيارهم لما أنه إنما يتحقق عند الاستمداد وما يجرى مجراه من الحاجة الداعية إليه . كما في الأمثلة المذكورة ، وقرىء يدهم من الإمداد وهو صريح في أن القرامة المشهورة ليست من المد في العمر ، على أنه يستعمل باللام كالإمداء ، قال تعالى (ونمد له من العذاب مدا) وحذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل ﴿ في طغيانهم ﴾ متعلق بيمدهم والطفغان مجاوزة الحد في كل أمر ، والمراد إفراطهم في العتو ، وغلوهم في الكفر ، وقرىء بكسر الطاء ، وهى لغة فيه كلقيان لغة في لقيان ، وفى إضافته إليهم لإيدان باختصاصه بهم ، وتأيد لما أشير إليه من ترتب المد على سوء اختيارهم ﴿ يعمهون ﴾ حال من الضمير المنصوب أو المجرور ، لكون المضاف مصدرا فهو مرفوع حكما ، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر ، وهو التحير والتردد ، بحيث لا يدرى أين يتوجه ، وإسناد هذا المد إلى الله تعالى مع إسناده في قوله تعالى (وإخوانهم يدونهم في الغى) بحقق لقاعدة أهل الحق من أن جميع الأشياء مستندة^(١) من حيث الخلق إليه سبحانه ، وإن كانت أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم .

والمعتزلة لما تعذر عليهم لإجراء النظم الكريم على مسلسلته نسكبوا إلى شعاب التأويل ، فأجابوا أو لا بأنهم لما أصروا على كفرهم خذلهم الله تعالى ومنعهم اللطافة ، فتزايد الرين في قلوبهم فسمى ذلك مددا في الطغيان ، فأسند لإيلاؤه إليه تعالى ، فى المسند مجاز لغوى ، وفى الإسناد عقلى ، لأنه إسناد للفعل إلى المسبب له ، وفاعله الحقيقي هم الكفرة ، وثانيا بأنه أريد بالمد فى الطغيان ترك القسر والإلجاء إلى الإيمان كما فى قوله تعالى (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) فالجواز فى المسند فقط ، وثالثا بأن المراد به معناه الحقيقي وهو فعل

الشیطان ، لکنه أسند إلیه سبحانه مجازا ، لأنه بتمکینه تعالی وإقداره ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلی المذکورین باعتبار اتصافهم بما ذکر من الصفات الشنیعة الممیزة لهم عن (١) عداهم أکل تمیز . بحیث صاروا كأنهم حضار مشاهدون علی ما هم علیه ، وما فیہ من معنی البعد للإیذان ببعد منزلتهم فی الشر وسوء الحال ، ومحله الرفع علی الابتداء خبره قوله تعالی ﴿ الذین اشتروا الضلالة بالهدی ﴾ والجملة مسوقة لتقیر ما قبلها و بیان لسکال جهالتهم فیما حکى عنهم من الأقوال والأفعال بإظهار غایة سماجتها ، وتصویرها بصورة ما لا یکاد یعطاه من له أدنی تمیز فضلاء عن العقلاء والضلالة الجور عن القصد ، والهدی التوجه إلیه ، وقد استعیر الأول للعدول عن الصواب فی الدین ، والثانی للاستقامة علیه ، والاشترای استبدال السلعة بالثمن ، أى أخذها به لایذله لتحصیلها کما قیل ، وإن کان مستلزما له ، فإن المعتبر فی عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب ، الذی هو المعتبر فی عقد البیع ، ثم استعیر لأخذ شیء یاعطاء ما فی یده عینا کان کل منهما أو معنی ، لا للإعراض عما فی یده محصلا به غیره کما قیل ، وإن استلزمه لمسا من سره ومنه قوله :

أخذت بالجملة رأسا أزعرا وبالثنايا الواضحات الدرورا

وبالطویل العمر عمرا جیدرا کما اشترى المسلم إذ تنصرا

فاشترای الضلالة بالهدی مستعار لأخذها بدلا منه أخذنا منوطا بالرغبة فیها والإعراض عنه ، ولما اقتضى ذلك أن یکون ما یجرى بجرى الثمن حاصلًا للکفرة قبل العقد وما یجرى بجرى المبیع غیر حاصل لهم إذ ذاک حسبما هو فی البیت ، ولا ریب فی أنهم بمعزل من الهدی ، مستمرون علی الضلالة استدعى الحال تحقیق ما جرى بجرى العوضین ، فنقول وبالله التوفیق .

ولیس المراد بما تعلق به الاشرای ههنا جنس الضلالة الشاملة لجميع أصناف الکفرة ، حتى تكون حاصلة لهم من قبل ، بل هو فردها السکامل الخاص

(١) فی ط : عن عداهم .

بهؤلاء ، على أن اللام للعهد ، وهو عندهم المقرون بالمد في الطغيان ، المترتب على ما حكى عنهم من القبايح . وذلك إنما يحصل لهم عند اليأس عن اهتدائهم والختم على قلوبهم ، وكذا ليس المراد بما في حيز الثمن نفس الهدى بل هو التمكن التام منه بتعاضد الأسباب ، وتأخذ المقدمات المستتبعة له بطريق الاستعارة كأنه نفس الهدى بجامع المشاركة في استتباع الجدوى ، ولا مزية في أن هذه المرتبة من التمكن كانت حاصلة لهم بما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبما سمعوه من نصائح المؤمنين التي من جعلتها ما حكى من النهي عن الإفساد في الأرض ، والأمر بالإيمان الصحيح ، وقد نبذوها وراء ظهورهم ، وأخذوا بدلها الضلالة الهائلة التي هي العمه في تيه الطغيان ، وحمل الهدى على الفطرة الأصلية الحاصلة لكل أحد ياباه أن إضاعتها غير مختصة بهؤلاء ، ولئن حملت على الإضاعة التامة الواصلة إلى حد الختم على القلوب المختصة بهم فليس في إضاعتها فقه من الشناعة ما في إضاعتها مع ما يؤيدها من المؤيدات العقلية والنقلية ، على أن ذلك يفضى إلى كون ذكر ما فصل من أول للسورة السكرية إلى هنا ضائعا ، وأبعد منه حمل اشتراء الضلالة بالهدى على مجرد اختيارها عليه من غير اعتبار كونه في أيديهم ، بناء على أنه يستعمل اتساعا في إيثار أحد الشيثيين السكانيين في شرف الوقوع على الآخر ، فإنه مع خلوه عن المزايا المذكورة بالمرّة محل بروق الترشيح الآتي ، هذا على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارة عن معاملتهم السابقة المحكية وهو الأنسب بتجاوب أطراف النظم الكريم .

وأما إذا جعل ترجمة عن جنائية أخرى من جنائياتهم فالمراد بالهدى ما كانوا عليه من معرفة صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقة دينه ، بما كانوا يشاهدونه من نعوته عليه الصلاة والسلام في التوراة وقد كانوا على يقين منه حتى كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعمة في التوراة ، ويقولون لهم قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم

ما عرفوا كفروا به كما سيأتى ولا مبالغ على الهدى على ما كانوا يظهرونه عند لقاء المؤمنين فإنها ضلالة مضاعفة .

﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ عطف على الصلة داخل في حيزها والفاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها ، والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدى للبيع والشراء لتحصيل الربح ، وهو الفضل على رأس المال ، يقال ربح فلان في تجارته أى استشف فيها وأصاب الربح وإسناد عدمه الذى هو عبارة عن الخسران إليها ، وهو لأربابها بناء على التوسع المبنى على ما بينهما من الملازمة ، وفائدته المبالغة في تخسيرهم لما فيه من الإشعار بكثرة الخسار وعمومه المستتبع لسرايته إلى ما يلابسهم ، وإيرادهما إثر الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة ، وتصوير لما فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسارة التجارة الذى يتحاشى عنه كل أحد للإشباع في التخسير ، والتحسين ، ولا ينافى ذلك أن التجارة في نفسها استعارة لانهما كهم فيما هم عليه من إثارة الضلالة على الهدى ؛ وتمرهم عليه معرفة عن كون ذلك صناعة لهم راسخة ، إذ ليس من ضروريات الترشيح أن يكون باقيا على الحقيقة ، تابعا للاستعارة لا يقصد به إلا تقويتها ، كما في قولك رأيت أسدا وافي البرائن ، فإنك لا تريد به إلا زيادة تصوير للشجاع ، وأنه أسد كامل من غير أن تريد بلفظ البرائن معنى آخر بل قد يكون مستعارا من ملائم المستعار منه لملائم المستعار له ومع ذلك يكون ترشيحا لأصل الاستعارة كما في قوله :

فلما رأيت النسر عن ابن دأية وعشش في وكره جاش له صدرى

فإن لفظ الوكرين مع كونه مستعارا من معناه الحقيقي الذى هو موضع يتخذ الطائر للتفرخ للرأس واللحية أو للفودين أعنى جانبي الرأس ترشيح باعتبار معناه الأصل ، لاستعارة لفظ النسر للشيب ، ولفظ ابن دأية للشعر الأسود ، وكذا لفظ التعشيش مع كونه مستعارا للحلول والنزول المستمرين ترشيح لتبينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور ، وقرىء تجارتهم وتعددتها لتعدد المضاف إليهم ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ أى إلى طرق التجارة ، فإن المقصود

منها سلامة رأس المال مع حصول الربح ، ولئن فات الربح في صفقة فربما يتدارك في صفقة أخرى لبقاء الأصل ، وأما إتلاف السكك بالمرّة فليس من باب التجارة قطعاً فهو لاء الذين كان رأس مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلتا الطلبتين ، فبقوا خائبين خاسرين نائنين عن طريق التجارة بألف منزل فالجملة راجعة إلى الترشيع معطوفة على ما قبلها مشاركة له في الترتب على الاشتراء المذكور والأولى عطفها على اشتروا الخ ﴿ مثلهم ﴾ زيادة كشف لحالهم وتصوير غب تصويرها بصورة ما يؤدي إلى الخسارة بحسب المآل بصورة ما يفضي إلى الخسار من حيث النفس تهويلاً لها وإبانة لفظاعتها ، فإن التمثيل ألفت ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، واستنزاه من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي ، وقمع سورة الجامع الأبى ، كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وإبراز لها في معرض المحسوسات الجليلة ، وإبداء للمنكر في صورة المعروف ، وإظهار للوحشى في هيئة المألوف ، والمثل في الأصل بمعنى المثل والنظير ، يقال مثل ومثل ومثيل وكشبه وشبه وشبيه ، ثم أطلق على القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك إلا قولاً بديعاً فيه غرابة صيرته جديراً بالتسيير في البلاد وخليقاً بالقبول فيما بين كل حاضرو باد ، استعير لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن عجيب ، وخطر غريب من غير أن يلاحظ بينها وبين شئ آخر تشبيه ومنه قوله عز وجل (والله المثل الأعلى) أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل وقوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) أى قصتها العجيبة الشأن ﴿ كمثل الذى ﴾ أى الذين كما فى قوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) خلا أنه وحد الضمير فى قوله تعالى ﴿ استوقد ناراً ﴾ نظراً إلى الصورة ، وإنما جاز ذلك مع عدم جواز وضع القائم مقام القائمين ، لأن المقصود بالوصف هى الجملة الواقعة صلة له دون نفسه ، بل إنما هو وصلة لوصف المعارف بها ولأنه حقيقى بالتخفيف لاستطالته بصلته ، ولذلك بولغ فيه فحذف ياؤه ثم كسرتة ثم اقتصر على اللام فى أسماء الفاعلين والمفعولين ولأنه

ليس باسم تام بل هو كجزئه ، فحقه ألا يجمع ، ويستوى فيه الواحد والمتعدد كما هو شأن إخواته ، وليس الذين جمعه المصحح بل النون فيه مزيدة للدلالة على زيادة المعنى ، ولذلك جاء بالياء أبداً على اللغة الفصيحة ، أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج أو الفريق المستوقد ، والنار جوهر لطيف مضى حار محرق واشتقاقها من نار ينور إذا نضر لأن فيها حركة واضطراباً واستيقادها طلب وقودها . أى سطوعها وارتفاع لهبها وتمكيدها للتفخيم ﴿ فلما أضاءت ما حوله ﴾ الإضاءة فرط الإنارة كما يعرب عنه قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) وتجيء متعدية ولازمة ، والفاء للدلالة على ترتبها على الاستيقاد أى فلما أضاءت النار ما حول المستوقد ، أو فلما أضاء ما حوله ، والتأنيث لكونه عبارة عن الأماكن والأشياء ، أو أضاءت النار نفسها فيما حوله على أن ذلك ظرف لإشراق النار المنزل منزلتها لا لنفسها ، أو ما مزيدة وحوله ظرف وتأليف الحول للدوران وقيل للعام حول لأنه يدور ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ النور ضوء كل نير ، واشتقاقه من النار ، والضمير للذى واجمع باعتبار المعنى أى أطفأ الله نارهم التى هى مدار نورهم ، وإنما علق الإذهاب بالنور دون نفس النار لأنه المقصود بالاستيقاد ، لا الاستدفاء ونحوه كما ينبىء عنه قوله تعالى (فلما أضاءت) حيث لم يقل فلما شب ضرامها أو نحو ذلك ، وهو جواب لما أو استئناف أجيب به عن سؤال سائل يقول ما بالهم أشبهت حالهم حال مستوقد انطفأت ناره ، أو بدل من جملة التمثيل على وجه البيان والضمير على الوجهين للنافقين والجواب محذوف كما فى قوله تعالى (فلما ذهبوا به) للإيجاز والأمن من الإلباس ، كأنه قيل فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا فى الظلمات خابطين متحيرين خائبين بعد الكيد فى إحيائها ، وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى إما لأن الكل بخلقه تعالى ، وإما لأن الانطفاء حصل بسبب خفى ، أو أمر سماوى كريح أو مطر وإما للبالغة كما يؤذن به تعدية الفعل بالباء دون الهمزة لما فيه من معنى الاستصحاب والإمساك ، يقال ذهب السلطان بماله إذا أخذه ، وما أخذه الله عز وجل فأمسكه فلا مرسل

له من بعده ولذلك عدل عن الضوء الذى هو مقتضى الظاهر إلى النور لأن ذهاب الضوء قد يجامع بقاء النور فى الجملة لعدم استلزام عدم القوى لعدم الضعيف ، والمراد لإزالته بالكلية كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وتتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ فإن الظلمة التى هى عدم النور وانطوائه بالمرّة ، لاسيّما إذا كانت متضاعفة متراكبا بعضها على بعض كما يفيد الجمع والتشكيك التفتيحى وما بعدها من قوله تعالى (لا يبصرون) لا يتحقق إلا بعد ألا يبق من النور عين ولا أثر ، وإما لأن المراد بالنور ما لا يرضى به الله تعالى من النار المجازية التى هى نار الفتنة والفساد كما فى قوله تعالى : (كلوا أو قدوا نارا للحرب أطفأها الله) ووصفها بإضاءة ما حول المستوقد من باب الترشيح ، أو النار الحقيقية التى يوقدها الغواة ليتوصلوا بها إلى بعض المعاصى ، ويهتدوا بها فى طرق العبث والفساد ، فأطفأها الله تعالى ، وخيب آمالهم ، وترك فى الأصل بمعنى طرح وخلّى ، وله مفعول واحد ، فضمن معنى التصيير فجرى مجرى أفعال القلوب قال :

فتركته جزر السباع ينشئه يقضمن حسن بنائه والمعصم
والظلمة مأخوذة من قولهم : ما ظلمك أن تفعل كذا ، أى مامنعك ،
لأنها تسد البصر وتمنعه من الرؤية ، وقرئ فى ظلمات بسكون اللام ، وفى
ظلمة بالتوحيد ، ومفعول لا يبصرون من قبيل المظروح ، كأن الفعل غير
متعد ، والمعنى أن حالهم العجيبة التى هى اشتراؤهم الضلالة التى هى عبارة عن
ظلمتى الكفر والنفاق المستتبعين لظلمة سخط الله تعالى ، وظلمة يوم القيامة
يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، وظلمة العقاب
السرمدى بالهدى ، الذى هو النور الفطرى المؤيد بما شاهدوه من دلائل الحق
أو بالهدى الذى كانوا حصلوه من التوراة حسبها ذكر ، كحال من استوقد
نارا عظيمة حتى كاد ينتفع بها فأطفأها الله تعالى ، وتركه فى ظلمات هائلة
لا يتسنى فيها الإبصار ﴿ صم بكم عمى ﴾ أخبار لمبتدأ محذوف هو ضمير
المنافقين ، أو خبر واحد بالتأويل المشهور ، كما فى قولهم : هذا حلو حامض
والصمم آفة مانعة من السماع ، وأصله الصلابة واكتناز الأجزاء ، ومنه

الحجر الأصم ، والقناة الصماء ، وصمام القارورة : سدادها ، سمي به فقدان حاسة السمع لما أن سببه اكتناز باطن الصماخ ، وانسداده منافذه بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموجه ، والبكم الخرس ، والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر ، وصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الإصاخة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم ، وأبوا أن يتلقوها بالقبول ، وينطقوا بها ألسنتهم ، ولم يحتلوا ما شاهدوا من المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينظروا إلى آيات التوحيد المنصوبة فى الآفاق والأنفس بعين التدبر ، وأصروا على ذلك بحيث لم يبق لهم احتمال الارعواء عنه ، صاروا كفقادى تلك المشاعر بالكلية ، وهذا عند مفلق سحرة البيان من باب التمثيل البليغ ، المؤسس على تناسى التشبيه كما فى قول من قال :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء
لما أن المقدر فى النظم فى حكم الملفوظ ، لا من قبيل الاستعارة التى يطوى فيها ذكر المستعار له بالكلية ، حتى لو لم يكن هناك قرينة تحمل^(١) على المعنى الحقيقى ، كما فى قول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم
(فهم لا يرجعون) الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، أى هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون إلى الهدى الذى تركوه وضيعوه أو عن الضلالة التى أخذوها ، والآية نتيجة للتمثيل ، مفيدة لزيادة تهويل وتفضيع ، فإن قصارى أمر التمثيل بقاؤهم فى ظلمات هائلة من غير تعرض لمشعرى السمع والنطق ، ولاختلال مشعر الإبصار ، وقيل الضمير المقدر وما بعده الموصول باعتبار المعنى ، كالضمائر المتقدمة .

فالآية الكريمة تنمة للتمثيل ، وتكمل له بأن ما أصابهم ليس مجرد انطفاء نارهم وبقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة ، مع بقاء حاسة البصر بحالها ، بل

اختلت مشاعرهم جميعا ، واتصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أو الحقيقة فبقوا جامدين في مكاناتهم ، لا يرجعون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون ، وكيف يرجعون إلى ما ابتدأوا منه والعدول إلى الجملة الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم ، وقرىء صما بكما عميا ، إما على الذى كما فى قوله تعالى : (حمالة الخطب) والمخصوص بالذم هم المنافقون ، أو المستوقدون وإما على الحالية من الضمير المنصوب فى تركهم ، أو المرفوع فى لا يهضرون وإما على المفعولية لتركهم ، فالضميران للمستوقدين ﴿ أو كصيب ﴾ تمثيل لحالهم إثر تمثيل ، ليعم البيان منها كل دقيق وجليل ، ويوفى حقها من النفضيع والتهويل ، فإن تفننهم فى فنون الكفر والضلال وتنقلهم فيها من حال إلى حال حقيق بأن يضرب فى شأنه الأمثال ، ويرخى فى حلبته أعنة المقال ، ويمد لشرحه أطناب الإطناب ، ويعقد لأجله فصول وأبواب ، لما أن كل كلام له حظ من البلاغة ، وقسط من الجزالة والبراعة ، لا بد أن يوفى فيه حق كل من مقامى الإطناب والإيجاز ، فما ظنك بما فى ذروة الإعجاز من التنزيل الجليل ، ولقد نعى عليهم فى هذا التمثيل تفاصيل جنائياتهم ، وهو عطف على الأول على حذف المضاف لما سيأتى من الضمائر المستدعية لذلك ، أى كمثل ذوى صيب ، وكلمة أو للإيدان بتساوى القصتين فى الاستقلال بوجه التشبيه وبصحة التمثيل بكل واحدة منهما وبهما معا ، والصيب فيعمل من الصوب وهو النزول الذى له وقع وتأثير ، يطلق على المطر وعلى السحاب قال الشماخ :

عفا آيه نسج الجنوب مع الصبا وأسحم دان صادق الوعد صيب
ولعل الأول هو المراد ههنا لاستلزامه الثانى ، وتنكيره لما أنه أريد به نوع منه شديد هائل كالنار فى التمثيل الأول ، وأمد به ما فيه من المبالغات من جهة مادته الأولى التى هى الصاد المستعلية والياء المشددة والباء الشديدة ، ومادته الثانية أعنى الصوب المنبىء عن شدة الانسكاب ، ومن جهة بنائه اللال على الثبات ، وقرىء أو كصائب ﴿ من السماء ﴾ متعلق بصيب ، أو بمحذوف وقع صفة له ، والمراد بالسما هذه المظلة ، وهى فى الأصل كل ما علاك من

سقف ونحوه ، وعن الحسن أنها موج مكشوف ، أى ممنوع بقدره الله عز وجل من السيلان ، وتعريفها للإيدان بأن انبعاث الصيب ليس من أفق واحد ، فإن كل أفق من آفاقها أى كل ما يحيط به كل أفق منها سماء على حدة ، قال :

* ومن بعد أرض يئتنا وسماء *

كما أن كل طبقة من طباقها سماء قال تعالى : (وأوحى فى كل سماء أمرها) والمعنى أنه صيب عام نازل من غمام مطبق آخذ بالآفاق ، وقيل المراد بالسماء السحاب ، واللام لتعريف المساهية .

((فيه ظلمات)) أى أنواع منها ، وهى ظلمة تسكافه وانتساجه بتتابع القطر ، وظلمة الهلال^(١) ما يلزمه من الغمام الأسحج المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل ، وجعله محلا لها مع أن بعضها لغيره كظلمتى الغمام والليل ، لما أنهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغه فى شدته وتهويلا لأمره ، وإيدانا بأنه من الشدة والهلول بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام ، وهو السر فى عدم جعل الظلمات هى الأصل المستتبع للبواقي ، مع ظهور ظرفيتها للكل ، إذ لو قيل أو كظلمات فيها صيب الخ لما أفاد أن للصيب ظلمة خاصة به فضلا عن كونها غالبية على غيرها (وفيه)^(٢).

((ورعد)) وهو صوت يسمع من السحاب ، والمشهور أنه يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض ، أو من انفلاق بعضها عن بعض عند اضطرابها ، بسوق الرياح إياه سوفا عنيقا ((وبرق)) وهو ما يلعب من السحاب من برق الشئ بريقا أى لمع ، وكلاهما فى الأصل مصدر ، ولذلك لم يجمعا ، وكونهما فى الصيب باعتبار كونهما فى أعلاه ومصبه ووصول أثرهما إليه وكونهما فى الظلمات السكائنة فيه والتنوين فى الكل للتفخيم والتهويل كأنه قيل فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف وبرق خاطف ، وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعلية لتحقيق شرط العمل بالاتفاق ، وقيل بالابتداء ، والجملة

(٢) سقطت من المطبوعة .

(١) فى المطبوعة : أظلال .

لما صفة لصيب أو حال منه لتخصه بالصفة ، أو بالعمل فيها بعده من الجار أو من المستكن في الظرف الأول على تقدير كونه صفة لصيب ، والضائر في قوله عز وجل : (يجعلون أصابعهم في آذانهم) للمضاف الذي أقيم مقامه^(١) المضاف إليه فإن معناه باق وإن حذف لفظه تعويلا على الدليل كافي قوله (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون) فإن الضمير للأهل المدلول عليه بما قام مقامه من القرية .
قال حسان رضى الله عنه :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
فإن تذكير الضمير المستكن في يصفق لرجوعه إلى الماء المضاف إلى بردى وإلا لأنث حتما ، وإيثار الجعل المنبئ عن دوام الملازمة ، واستمرار الاستقرار على الإدخال المفيد لمجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل للمبالغة في بيان سد المسامع باعتبار الزمان كما أن إيراد الأصابع بدل الأنامل للإشباع في بيان سدها باعتبار الذات ، كأنهم سدوها بجملة لا بأناملها فحسب كما هو المعتاد ويجوز أن يكون هذا إيماء إلى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح على النهج المعتاد ، وكذا الحال في عدم تعيين الأصابع المعتاد أعنى السبابة ، وقيل : ذلك لرعاية الأدب والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب ، مبنى على سؤال نشأ من الكلام ، كأنه قيل عند بيان أحوالهم الهائلة : فماذا يصنعون في تضاعيف تلك الشدة فقيل يجعلون إلخ . وقوله تعالى :

(من الصواعق) متعلق بيجعلون أى من أجل الصواعق المقارنة للردع من قولهم سقاه من الغيمة والصاعقة قصفة رعد تنهض معها شعلة^(١) نار لا تمر بشيء إلا أتت عليه . من الصعق وهو شدة الصوت ، وبنائها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد أو للردع ، والتاء للمبالغة . كما في الرواية ، أو

(١) في ط بثقة نار .

(١) في ١٠ مقام

مصدر كالعافية . وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد ، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق ، أو بشدة الصوت ، وسد الأذان إنما يفيد على التقدير الثانى دون الأول ، وقرىء من الصواعق وليس ذلك بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين فى التصرف يقال صعق الديك ، وخطيب مصقع أى مجهر بخطبته ﴿ حذر الموت ﴾ منصوب يجعلون على العلة وإن كان معرفة بالإضافة كقوله :

وأغفر عوراء الكريم إدخاره وأصفح عن شتم اللثيم تسكرما ولا ضير فى تعدد المفعول له ، فإن الفعل يعمل بعلى شتى ، وقيل هو نصب على المصدرية أى يحذرون حذرا مثل حذر الموت ، والحذر والحذار هو شدة الخوف ، وقرىء حذار الموت ، والموت زوال الحياة ، وقيل عرض يضادها ، لقوله تعالى (خالق الموت والحياة) ورد بأن الخلق بمعنى التقدير والإعدام مقدرة (والله محيط بالكافرين) أى لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط شبه شمول قدرته تعالى لهم ، وانطواء ملكوته عليهم ، بإحاطة المحيط بما أحاط به فى استحالة الفوت أو شبه الهيئته المنزعة من شؤونه تعالى معهم بالهيئة المنزعة من أحوال المحيط مع المحاط فلا استعارة المبنية على التشبيه الأول استعارة تبعية فى الصفة متفرعة على ما فى مصدرها من الاستعارة والمبنية على الثانى تمثيلية قد اقتصر من طرف المشبه به على ما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى الإحاطة والباقي منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعبر فى التمثيل كما مر تحريره فى قوله عز وجل (ختم الله على قلوبهم) والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سد الأذان بالأصابع لا يغنى عنهم شيئا فإن القدر لا يدفعه الحذر ، والحيل لا ترد بأس الله عز وجل .

وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع إلى أصحاب الصيب الإيذان بأن مادمهم من الأمور الهائلة المحسكية بسبب كفرهم على مناج قوله تعالى : (كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) فإن الإهلاك الناشئ من السخط أشد ، وقيل هذا الاعتراض من جملة أجوال المشبه

على أن المراد بالكافرين المنافقون ، قد دل به على أنه لا مدفع لهم من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وإنما وسط بين أحوال المشبه مع أن القياس تقديمه أو تأخيرهِ لإظهار كمال العناية وفرط الاهتمام بشأن المشبه .

(يكاد البرق) استئناف آخر وقع جواباً عن سؤال مقدر ، كأنه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ ف قيل يكاد ذلك (يخطف أبصارهم) أى يختلسها ويسلبها^(١) بسرعة وكاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لتأخذ أسبابه وتعا ضد مبادئه لكنه لم يوجد بعد لفقد شرط أو لعروض مانع ، ولا يكون خبرها إلا مضارعاً عارياً عن كلمة أن ، وشذ مجيئه اسماً صريحاً كما في قوله :

✽ فأبّت إلى فهم وما كدت آيباً ✽
وكذا مجيئه مع أن حملاً لها على عسى في مثل قول رؤبة :
✽ قد كاد من طول البلى أن يمحصا ✽

كما تحمل هي عليها بالحذف لما بينهما من المقارنة في أصل المقاربة وليس فيها شائبة الانشائية كما في عسى ، وقرئ يخطف بكسر الطاء ويخطف ويخطف بفتح الياء والحاء بنقل فتحة التاء إلى الحاء وإدغامها في الطاء ، ويخطف بكسرهما على اتباع الياء والحاء ، ويخطف من صيغة التفعيل ويخطف من قوله تعالى : (ويخطف الناس من حولههم) (كلوا أضاء لهم) كل ظرف وما مصدرية والزمان محذوف ، أى كل زمان إضاءة ، وقيل ما نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف ، أى كل وقت أضاء لهم فيه والعامل في كلها جوابها ، وهو استئناف ثالث ، كأنه قيل ما يفعلون في أثناء ذلك الهول ، يفعلون بأبصارهم ما فعلوا بأذانهم أم لا ، ف قيل كلما نور البرق لهم يمشى ومسلكاً على أن أضاء

(١) في ط : ويستلبها .

متعد والمفعول محذوف ، أو كلما لمع لهم على أنه لازم ، ويؤيده قراءة (كلما أضاء) (مشوا فيه) أى فى ذلك المسلك أو فى مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم ، وإيثار المشى على ما فوقه من السعى والعدول للإشعار بعدم استطاعتهم لها (وإذا أظلم عليهم) أى خفى البرق واستتر ، والمظلم وإن كان غيره لكن لما كان الإظلام دائراً على استتاره أسند إليه مجازاً تحقيقاً لما أريد من المبالغة فى موجبات تخبطهم ، وقد جوز أن يكون متعدياً منقولاً من ظلم الليل . ومنه ما جاء فى قول أى تمام :

هما أظلمنا حالى ثمت أجليبا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب
ويعضده قراءة أظلم على البناء للمفعول (قاموا) أى وقفوا فى أما كنهم على ما كانوا عليه من الهيئة متحيرين مترصدين لحفظة^(١) أخرى عسى يتسنى لهم الوصول إلى المقصد أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم ، وإيراد كلما مع الإضاءة وإذا مع الإظلام للإيذان بأنهم حراس على المشى ، مترقبون لما يصححه ، فكلماً وجدوا فرصة انتهزوها ، ولا كذلك الوقوف ، وفيه من الدلالة على كمال التحير وتطاير اللب ما لا يوصف (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) كلمة لو لتعليق حصول أمر ماض هو الجزاء بحصول أمر مفروض فيه هو الشرط لما بينهما من الدوران حقيقة أو ادعاء ، ومن قضية مفروضية الشرط دلالتها على انتفاءه قطعاً ، والمنازع فيه مكابر ، وأما دلالتها على انتفاء الجزاء فقد قيل وقيل . والحق الذى لا محيد عنه أنه إن كان ما بينهما من الدوران كلياً أو جزئياً قد بنى الحكم على اعتباره فهى دالة عليه بواسطة مدلولها الوضعى للاحالة ، ضرورة استلزام انتفاء العلة لانتفاء المعلول ، أما فى مادة الدوران الكلى كما فى قوله عز وجل (ولو شاء لهداكم أجمعين) وقولك لو جئتنى لأكرمك فظاهر لأن وجود المشيئة علة لوجود الهداية حقيقة ، ووجود المحيى علة لوجود الإكرام ادعاء ، وقد انتفيا بحكم المفروضية فانتفى معلولاهما حتماً ، ثم إنه قد

(١) فى ١٠ لحقيقة .

يساق الكلام لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما في المثالين المذكورين وهو الاستعمال الشائع لكلمة لو ، ولذلك قيل هي لامتناع الثاني لامتناع الأول وقد تساق للاستدلال بانتفاء الثاني لكونه ظاهرا أو مسلما على انتفاء^(١) الأول لكونه خفيا أو متنازعا فيه ، كما في قوله سبحانه (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا) وفي قوله تعالى (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) فإن فسادهما لازم لتعدد الآلهة حقيقة وعدم سبق المؤمنين إلى الإيمان لازم لخيرته في زعم الكفرة ولا ريب في انتفاء اللازمين ، فتعين انتفاء الملزومين حقيقة في الأول وإدعاء باطلا في الثاني ضرورة استلزام انتفاء الملزوم ، لكن لا بطريق السببية الخارجية ، كما في المثالين الأولين ، بل بطريق الدلالة العقلية الراجعة إلى سببية العلم بانتفاء الثاني للعلم بانتفاء الأول ومن لم يتنبه له زعم أنه لا انتفاء الأول لا انتفاء الثاني .

وأما في مادة الدوران الجزئي كما في قولك لو طلعت الشمس لوجد الضوء ، فلأن الجزاء المنوط بالشرط الذي هو طلوعها ليس وجود أي ضوء كان كضوء القمر المجامع لعدم الطلوع مثلا ، بل إنما هو وجود الضوء الخاص الناشئ عن^(٢) الطلوع ، ولا ريب في انتفائه بانتفاء الطلوع ، هذا إذا بنى الحكم على اعتبار الدوران ، وأما إذا بنى على عدمه فإما أن يعتبر هناك تحقق مدار آخر له أولا ، فإن اعتبر بالدلالة تابعة لحال ذلك المدار فإن كان بينه وبين انتفاء الأول منافاة تعين الدلالة كما إذا قلنا^(٣) لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء ، فإن وجود الضوء وإن علق بصورة بعدم الطلوع لكنه في الحقيقة معلق بسبب آخر له ضرورة أن عدم الطلوع من حيث هو وليس مدارا لوجود الضوء في الحقيقة ، وإنما وضع موضع المدار لكونه كاشفا عن تحقق مدار آخر له ، فكأنه قيل لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء بسبب آخر كالقمر مثلا ولا ريب في أن هذا الجزاء منتف عند انتفاء الشرط لاستحالة وجود الضوء القمري عند طلوع الشمس ، وإن لم يكن بينهما منافاة تعين عدم الدلالة كما في قوله صلى الله

(١) في المطبوعة ابتفاء . (٢) في المطبوعة من (٣) في المطبوعة قلت .

(٧ — أبو السعود — أول)

عليه وسلم في بنت أبي سلمة : « لو لم تكن ريبيتي في حجرى ما حلت لى لأنها لا بنته أختى من الرضاة ، فإن المدار المعتبر فى ضمن الشرط أعنى كونها ابنة أخيه عليه السلام من الرضاة غير مناف لانتفائه الذى هو كونها ريبيته عليه السلام ، بل مجامع له ، ومن ضرورته مجامعة أثرهما أعنى الحرمة الناشئة من كونها ريبيته عليه السلام ، والحرمة الناشئة من كونها ابنة أخيه من الرضاة . وإن لم يعتبر هناك تحقق مدار آخر بل ينبنى^(١) الحكم على اعتبار عدمه فلا دلالة لها على ذلك أصلا .

كيف لا ومساق الكلام حينئذ لبيان ثبوت الجزاء على كل حال بتعليقه بما ينافيه ليعلم ثبوته عند وقوع ما لا ينافيه بالطريق الأولى ، كما فى قوله عز وجل (قل لو أتمتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لم تسكتتم) وقوله عليه السلام « لو كان الإيمان فى الثريا لناله رجال من فارس » ، وقول على رضى الله عنه « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » ، فإن الأجزئية المذكورة قد نيطت بما ينافيها ويستدعى نقائضها . إيدانا بأنها فى أنفسها بحيث يجب ثبوتها مع فرض انتفاء أسبابها أو تحقق انتفاء أسبابها^(٢) ، فكيف إذا لم يكن كذلك على طريقة لو الوصلية ، فى مثل قوله تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) ولها تفاصيل وتفاريح حررهاها فى تفسير قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وقول عمر رضى الله عنه « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » ، إن حمل على تعليق عدم العصيان فى ضمن عدم الخوف بمدار آخر نحو الحياء والإجلال وغيرهما مما يجماع الخوف كان من قبيل حديث ابنة أبى سلمة ، وإن حمل بيان استحالة عصيانه مبالغة كان من هذا القبيل ، والآية الكريمة ، واردة على الاستعمال الشائع مفيدة لسكال فظاعة حالهم وغاية هول ما دهمهم من المشاق ، وأنها قد بلغت من الشدة إلى حيث لو تعلققت مشيئة الله تعالى بإزالة مشاعرهم لزال ، لتحقق ما يقتضيه اقتضاء تاما ، وقيل ، كلمة لو فيها لربط جزائها بشرطها مجردا

(٢) فى المطبوعة : أسباب انتفائها .

(١) فى المطبوعة : بنى

عن الدلالة على انتفاء الآخر بمنزلة كلمة أن ومفعول المشيئة محذوف جريا على القاعدة المستمرة فإنها إذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمونا للجزاء فلا يكاد يذكر إلا أن يكون شيئا مستغربا كما في قوله :

فلو شئت أن أبكى دما لبكىته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع
 أى لو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لفعل ، ولكن لم يشأ لما يقتضيه من الحكم والمصالح ، وقرئ لأذهب بأسماعهم على زيادة الباء كما في قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) الآية (١) ، والإفراد في المشورة لأن السمع مصدر في الأصل ، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها من أجل الاستثنائية ، وقيل على كلها أضاء إلخ وقوله عز وجل ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ تعليل للشرطية وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق البرهاني ، والشئ بحسب مفهومه اللغوي يقع على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه كائن ما كان ، على أنه في الأصل مصدر شأ أطلق على المفعول واكتفى في ذلك باعتبار تعلق المشيئة به من حيث العلم والإخبار عنه فقط ، وقد خص ههنا بالممكن موجودا كان أو معدوما بقضية اختصاص تعلق القدرة به ، لما أنه عبارة عن التمكن من الإيجاد والإعدام الخاصين به ، وقيل هي صفة تقتضي ذلك التمكن والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، والتقدير هو الفعال لكل ما يشاء كما يشاء ، ولذلك لم يوصف به غير الباري جل جلاله (وتقدسست أسماؤه) (٢) ومعنى قدرته تعالى على الممكن الموجود حال وجوده أنه إن شاء إبقاءه على الوجود أبقاه عليه ، فإن علة الوجود هي علة البقاء ، وقدرته تحقيقه في تفسير قوله تعالى (رب العالمين) وإن شاء إعدامه أعدمه ، ومعنى قدرته على المعدوم حال عدمه أنه إن شاء لإيجاده أوجده وإن لم يشأ لم يوجده ، وقيل قدرة الإنسان هيئة بها يتمكن من الفعل والترك ، وقدرة الله تعالى عبارة عن فني العجز ، واشتقاق القدرة من القدر لأن القادر يوقع الفعل بقدر ما تقتضيه

(١) سقط من المطبوعة .

(٢) ما بين الحاصرين سقط من المطبوعة

إرادته أو بقدر قوته ، وفيه دليل على أن مقدور العبد مقدور لله تعالى حقيقة ،
لأنه شيء وكل شيء مقدور له تعالى .
واعلم أن كل واحد من التمثيلين وإن احتمل أن يكون من قبيل التمثيل
المفرق كما في قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي
بأن يشبه المنافقون في التمثيل الأول بالمستوقدين وهداهم الفطرى بالنار
وتأييدهم لها^(١) بما شاهدوه من الدلائل باستيقادها وتمسكهم التام من الانتفاع
به بإضائها ما حولهم وإزالته بإذهاب النور النارى ، وأخذ الضلالة بمقابلته
بملاستهم الظلمات الكثيفة وبقائهم فيها ، وشبهوا^(٢) في التمثيل الثانى بالسابلة
والقرآن وما فيه من العلوم والمعارف التى هى مدار الحياة الأبدية بالصيب الذى
هو سبب الحياة الأرضية وما عرض لهم بنزوله من الغيوم والأحزان وانكساف
البال بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وهو تصامهم عما يقرع
أسماعهم من الوعيد بحال من يهوله الرعد والبرق فيخاف صواعقه فيفسد أذنه
عنها ، ولا خلاص له منها ، واهتزازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رقد
يحرزونه بمشيهم فى مطرح ضوء البرق ، كلما أضاء لهم ، وتخيرهم فى أمرهم
حين عن لهم مصيبة بوقوفهم إذا أظلم عليهم لسكن الحمل على التمثيل المركب الذى
لا يعتبر فيه تشبيه كل واحد من المفردات الواقعة فى أحد الجانبين بواحد من
المفردات الواقعة فى الجانب الآخر على وجه التفصيل ، بل ينتزع فيه من
المفردات الواقعة فى جانب المشبه هيئة فتشبه به هيئة أخرى منتزعة من المفردات
الواقعة فى جانب المشبه به بأن ينتزع من المنافقين وأحوالهم المفصلة فى كل
واحد من التمثيلين هيئة يحيا لها فتشبه كل واحدة من الأولين بما يضاهيها من
الآخرين هو الذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه نغامة شأنه الجليل لاشتراكه
على التشبيه الأول إجمالا مع أمر زائد هو تشبيه الهيئة بالهيئة وإيدانه بأن

(٢) فى ط : أو يشبهوا .

(١) فى ط : إياه .

اجتماع تلك المفردات مستتب طيبة عجيبة حقيقة بأن تكون مثلاً في الغرابة .

التحريض على العبادة

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ إثر ما ذكر الله تعالى من علو طبقة كتابه الكريم وتحزب الناس في شأنه إلى ثلاث فرق مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام . وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى منبذة بينهما بالمخادعة والنفاق ونعت كل فرقة منها بما لها من النعوت والأحوال وبين ما لهم من المصير والمآل أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هذا لهم إلى الإصغاء وتوجيها لقلوبهم نحو التلقي ، وجبرالما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب ، فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الإشراف به ، ويا حريف وضع لنداء البعيد ، وقد ينادى به القريب تنزيلاً منزلة البعيد إما لإجلالها كما في قول الداعي يا الله ويارب ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد استقصاراً لنفسه واستبعاداً لها من محافل الزلنى ومنازل المقربين ، ولما تنبها على غفلته وسوء فهمه وقد يقصد به التنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه ، وأى اسم مبهم جعل وصله إلى نداء المعروف باللام لا على المنادى أصالة بل على أنه صفة موصحة له منزلة لإيهامه ، والتزم رفعه مع انتصاب موصوفه محلاً لإشعاراً بأنه المقصود بالنداء . وأقحمت بينهما كلمة التنبيه تأكيداً لمعنى النداء وتعويضاً عما يستحقه أى من المضاف إليه ، ولما ترى من استقلال هذه الطريقة بضروب من أسباب المبالغة والتأكيد كثير سلوكها في التنزيل المجيد ، كيف لا وكل ما ورد في تضاعيفه على العباد من الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوط جليلة حقيقة بأن تقشعر منها الجلود وتطمئن بها القلوب الآبية ، ويلقوها بأذان واعية ، وأكثرهم عنها غافلون ، فافتضى الحال المبالغة والتأكيد في الإيقاظ والتنبيه والمراد بالناس كافة المسكفين الموجودين في ذلك العصر . لما أن الجموع وأسماءها المحلاة باللام للعموم بدليل صحة الاستئناء منها والتأكيد بما يفيد العموم كما في قوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) واستدلال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بعمومها شأنها ذاتها ، وأما من عداهم ممن سيوجد منهم

فغير داخلين في خطاب المشافهة ، وإنما دخولهم تحت حكمه لما تواتر من دينه صلى الله عليه وسلم ، ضرورة أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للموجودين من المكلفين ولمن سيوجد منهم إلى قيام الساعة ، ولا يقدح في العموم ما روى عن علقمة والحسن البصري من أن كل ما نزل فيه (يا أيها الناس) فهو مكى ، إذ ليس من ضرورة نزوله بمكة شرفها الله تعالى اختصاص حكمه بأهلها ولا من قضية اختصاصه بهم اختصاصه بالكفار ، إذ لم يكن كل أهلها حينئذ كفره ولا ضير في تحقق العبادة في بعض المكلفين قبل ورود هذا الأمر لما أن المأمور به القدر المشترك الشامل لإنشاء العبادة والثبات عليها والزيادة فيها مع أنها متكررة حسب تكرر أسبابها ولا في انتفاء شرطها في الآخرين منهم أعنى الإيمان لأن الأمر بها منتظم للأمر بما لا تتم إلا به وقد علم من الدين ضرورة اشتراطها به فإن أمر المحدث بالصلاة مستتبع للأمر بالتوضي لا محالة .

وقد قيل المراد بالعبادة ما يعم أفعال القلب أيضاً لما أنها عبارة عن غاية التذلل والخضوع وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل ما ورد في القرآن من العبادات فمعناها التوحيد وقيل معنى اعبدوا وحدوا وأطيعوا ولا شك في كون بعض من الفرقتين الأخيرتين من لا يجدى فيهم الإنذار بموجب النص القاطع لما أن الأمر لقطع الأعداء ليس فيه تسكينهم بما ليس في وسعهم من الإيمان بعدم إيمانهم أصلاً ، إذ لا قطع لأحد منهم بدخوله في حكم النص قطعاً ، وورد النص بذلك لكونهم في أنفسهم بسوء اختيارهم كذلك لا أن كونهم كذلك لورود النص بذلك ، فلا جبر أصلاً .

نعم لتخصيص الخطاب بالمشركون وجه لطيف ستقف عليه عند قوله تعالى (وأنتم تعلمون) وإيراده تعالى بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير مخاطبين لتأكيد موجب الأمر بالإشعار بعليتها للعبادة (الذى خلقكم) صفة أجريت عليه سبحانه للتبجيل والتعليل إثر التعليل وقد جوز كونها للتقيد والتوضيح بناء على تخصيص الخطاب بالمشركون ، وحمل الرب على ما هو أعم من الرب الحقيقي ، والآلهة التى يسمونها أرباباً والخلق لإيجاد الشيء على تقدير واستواء

وأصله التقدير يقال خلق النعل أى قدرها وسواها بالمقياس ، وقرىء خلقكم بإدغام القاف فى السكاف ﴿والذين من قبلكم﴾ عطف على الضمير المنصوب ومتمم لما قصد من التعظيم والتعليل ، فإن خلق أصولهم من موجبات العبادة كخلق أنفسهم ، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف أى كانوا من زمان قبل زمانكم وقيل خلقهم من قبل خلقكم فحذف الخلق وأقيم الضمير مقامه والمراد بهم من تقدمهم من الأمم السالفة كافة ومن ضرورة عموم الخطاب بيان شمول خلقه تعالى لكل وتخصيصه بالمشركين يؤدى إلى عدم التعرض لخلق من عداهم من معاصريهم وإخراج الجملة مخرج الصلة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصول عندهم أيضا مع أنهم غير معترفين بغاية الخلق وإن اعترفوا بنفسه كما ينطق به قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) للإيدان بأن خلقهم للتقوى من الظهور بحيث لا يتأتى لأحد إنكاره وقرىء وخلق من قبلكم وقرىء والذين من قبلكم بإقحام الموصول الثانى بين الأول وصلته توكيدا كإقحام اللام بين المضافين فى لا أبالك ، أو بجعله موصوفا بالظرف خبرا لمبتدأ محذوف ، أى الذين هم أناس كائنون من قبلكم ﴿لعلكم تتقون﴾ المعنى الوضعى لكلمة لعل هو لإنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول إما محبوب فيسمى ترجيا ، أو مكروه فيسمى إشفاقا ، وذلك المعنى قديعبر تحققة بالفعل إما من جهة المتسكلم كما فى قولك لعل الله يرحمنى وهو الأصل الشائع فى الاستعمال . لأن معانى الإنشاءات قائمة به وإما من جهة المخاطب تنزيلا له منزلة المتسكلم فى التلبس التام بالكلام الجارى بينهما ، كما فى قوله سبحانه (فقلوا له قلوا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقد يعتبر تحققة بالقوة بضرب من التجوز إيدانا بأن ذلك الأمر فى نفسه مثنة للتوقع متصف بحيثية مصححة له من غير أن يعتبر هناك توقع بالفعل من متوقع أصلا .

فإن روعيت فى الآية الكريمة جهة المتسكلم يستحيل إرادة ذلك المعنى لامتناع التوقع من علام الغيوب عز وجل فيصار إما إلى الاستعارة بأن يشبه طلبه تعالى من عباده التقوى مع كونهم مثنة لها لتعاوض أسبابها برجاء الراجى من

المرجو منه أمراً هين الحصول في كون متعلق كل منهما متردداً بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول فيستمار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للمبالغة في الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع ولما إلى التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى لإياهم مستعدين للتقوى وطلبه إياها منهم وهم متمكنون منها جامعون لأسبابها ، وينتزع من ذلك هيئة قنشبه بهيئة متزعة من الراجي ورجائه من المرجو منه شيئاً سهل المنال ، فيستعمل في الهيئة الأولى ما حقه أن يستعمل في الثانية ، فيكون هناك استعارة تمثيلية قد صرح من ألفاظها بما هو العمدة في انزعاع الهيئة المشبه بها أعنى كلمة الترجي والباقي منبوي بالفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر في التمثيل كما مر مراراً وأما جعل المشبه لإرادته تعالى في الاستعارة والتمثيل فأمر مؤسس على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلف المراد عن إرادته تعالى ، فالجملة حال إما من فاعل خلقكم أى طالباً منكم التقوى أو من مفعوله ، وما عطف عليه بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين ، لأنهم المسأورون بالعبادة أى خلقكم وإياهم مطلوباً منكم التقوى أو علة له ، فإن خلقهم على تلك الحال في معنى خلقهم لأجل التقوى ، كأنه قيل خلقكم لتتقوا ، أو كي تتقوا ، إما بناء على تجويز تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى العباد كما ذهب إليه كثير من أهل السنة ، وإما تنزيلاً لترتب الغاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له ، فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقدمة جليلة من غير أن تكون هي علة غائية لها بحيث لولاها لما أقدم عليها مما لانزعاع فيه وتقييد خلقهم بما ذكر من الحال أو العلة لتسكيل عليه للأمور به وتأكيدها ، فإن لإتيانهم بما خلقوا له أدخل في الوجوب ، وإيثار تتقون على تعبدون مع موافقته لقوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) للمبالغة في إيجاب العبادة والتشديد في إلزامها ، لما أن التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده ، فإذا لزمتهم التقوى كان ما هو أدنى منها ألزم ، والإتيان به أهون .

وإن روعيت جهة المخاطب فلعل في معناها الحقيقي ، والجملة حال من ضمير

أعبدوا ، كأنه قيل أعبدوا ربكم راجين للانتظام في زمرة المتقين الفائزين بالهدى والفلاح .

المراد بالتقوى

على أن المراد بالتقوى مرتبتها الثالثة ، التي هي التبتل إلى الله عز وجل بالسلوكية ، والتزهر عن كل ما يشغل سره عن مراقبته ، وهي أقصى غايات العبادة التي يتنافس فيها المتنافسون ، وبالانتظام القدر المشترك بين إنشائه والثبات عليه ليرتجيه أرباب هذه المرتبة ومادونها من مرتبتي التوقي عن العذاب المخلد ، والتجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك كما مر في تفسير المتقين .

ولعل توسيط الحال من الفاعل بين وصفى المفعول لما في التقديم من فوات الإشعار بكون الوصف الأول معظم أحكام الربوبية ، وكونه عريقاً في إيجاب العبادة وفي التأخير من زيادة طول الكلام هذا على تقدير اعتبار تحقق التوقع بالفعل ، فأما إن اعتبر تحققه بالقوة فالجملة حال من مفعول خلقكم ، وما عطف عليه على الطريقة المذكورة أي خلقكم وإياهم حال كونكم جميعاً بحيث يرجو منكم كل راج أن تتقوا ، فإنه سبحانه وتعالى لما برأهم مستعدين للتقوى ، جامعين لمبادئ الآفاقية والانفسية ، كان حالهم بحيث يرجو منهم كل راج أن يتقوا لا محالة ، وهذه الحالة مقارنة لخلقهم وإن لم يتحقق الرجاء قطعاً .

واعلم أن الآية الكريمة مع كونها بعبارتها ناطقة بوجوب توحيده تعالى . هي تحتم عبادته على كافة الناس مرشدة لهم بإشارتها إلى أن مطالعة الآيات التكوينية المنصوبة في الأنفس والآفاق مما يقضى بذلك قضاء متقناً ، وقد بين ههنا أولاً من تلك الآيات ما يتعلق بأنفسهم من خلقهم وخلق أسلافهم لما أنه أقوى شهادة وأظهر دلالة ، ثم عقب بما يتعلق بمعاشهم ففيل .

عود إلى بواعث التقوى

((الذي جعل لكم الأرض فراشا)) وهو في محل النصب على أنه صفة ثمانية لربكم ، موضحة أو مادحة ، أو على تقدير أخص أو أمدح ، أو في محل الرفع على المدح والتعظيم بتقدير المبتدأ ، قال ابن مالك : التزم حذف الفعل

فى المنصوب على المدح إشعارا بأنه إنشاء كما فى المنادى ، وحذف المبتدأ فى المرفوع إجراء للوجهين على سنن واحد ، وأما كونه مبتدأ خبره فلا تجعلوا كما قيل فيستدعى أن يكون مناط النهى ما فى حين الصلة فقط من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلق من قبلهم مدخل فى ذلك مع كونه أعظم شأنًا ، وجعل بمعنى صير والمنصوبان بعده مفعولاه ، وقيل هى بمعنى خلق ، وانتصاب الثانى على الحالية والظرف متعلق به على التقديرين ، وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين ، وللتشويق إليه لأن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما عند ^(١) الإشعار بمنفعته تبقى مترتبة له ، فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن ، أولما فى المؤخر وما عطف عليه من نوع طول . فلو قدم لفات تجاوب ^(٢) أطراف النظم الكريم ، ومعنى جعلها فراشا جعل بعضها بارزا من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب ، وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للعود عليها والنوم فيها كاللبساط المفروش ، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا ، فإن كرية شكلها مع عظم جرمها مصحح ^(٣) لافتراضها ، وقرىء بساطا ومهادا .

﴿ والسما بناء ﴾ عطف على المفعولين السابقين ، وتقديم حال الأرض لما أن احتياجهم إليها وانتفاعهم بها أكثر وأظهر ، أى جعلها قبة مضروبة عليهم والسما اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد ، أو جمع سماوة أو سماء ، والبناء فى الأصل مصدر سمي به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ، ومنه قولهم بنى على أمراته لما أنهم كانوا إذا تزوجوا امرأة ضربوا عليها خباء جديدا .

﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ عطف على جعل أى أنزل من جهتها ، أو منها إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض ، كما روى ذلك عنه عليه الصلاة والسلام أو المراد بالسماء جهة العلو كما ينبىء عنه الإظهار فى موضع الإضمار ، وهو على الأولين لزيادة التقرير ، ومن لا ابتداء الغاية متعلقة بأنزل أو بمحذوف

(١) فى الأصل : بعد الإشعار (٢) فى ١١ : تجاذب (٣) فى الأصل : مصححة

وقع حالا من المفعول أى كائنا من السماء ، قدم عليه لكونه نكرة ، وأما تقديم الظرف على الوجه الأول مع أن التأخير عن المفعول الصريح فإما لأن السماء أصله ومبدؤه ، وإما لما مر من التشويق إليه مع ما فيه من مزيد انتظام بينه وبين قوله تعالى : ﴿ فأخرج به ﴾ أى بسبب الماء ﴿ من الثمرات رزقا لكم ﴾ .

وذلك بأن أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة منفعة ، فتولد من تفاعلها أصناف الثمار ، أو بأن أجرى عاداته بإفاضة صور الثمار وكيفيتها المخالفة على المادة الممتزجة منها وإن كان المؤثر في الحقيقة قدرته تعالى ومشيبته ، فإنه تعالى قادر على أن يوجد جميع الأشياء بلا مباد ومواد كما أبدع نفوس المبادئ والأسباب ، لكن له عز وجل في إنشائها متقلبة في الأحوال وفي الأطوار من بدائع حكم باهرة تجدد لأولى الأبصار عبدا ومزيد طمأنينة ، إلى عظيم قدرته ولطيف حكمته ما ليس في إبداعها بغتة ، ومن للتبعض لقوله تعالى (فأخرجنا به ثمرات) ولوقوعها بين منكرين . أعنى ماء ورزقا كأنه قيل : وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليسكون بعض رزقكم ، وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء كل الماء ، ولا أخرج من الأرض كل الثمرات ، ولا جعل كل المرزوق ثمارا ، أو للثنين ورزقا مفعول بمعنى المرزوق ، ومن الثمرات بيان له ، أو حال منه كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج ، لأنه بمعنى رزق .

ولما شاع ورود الثمرات دون الثمار مع أن الموضع موضع كثرة لأنه أريد بالثمرات جماعة الثمرة في قولك : أدركت ثمرة بستانه ، ويؤيده القراءة على التوحيد ، أو لأن الجموع يقع بعضها موقع بعض ، كقوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون) وقوله تعالى : (ثلاثة قروء) أو لأنها محلاة باللام خارجة عن حد القلة ، واللام متعلقة بمحذوف وقع صفة لرزقا على تقدير كونه بمعنى المرزوق ، أى رزقا كائنا لكم ، أو دعامة لتقوية عمل رزقا على تقدير كونه مصدرا ، كأنه قيل رزقا إياكم .

﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ إما متعلق بالأمر السابق مترتب عليه ، كأنه قيل : إذا أمرتم بعبادة من هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والأفعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكا ، وإنما قيل أندادا باعتبار الواقع ، لا لأن مدار النهي هو الجمعية ، وقرئ ندا ، وإيقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود بالذات إثر تعيينه بالصفات وتعيين^(١) الحكم بوصف الألوهية التي عليها يدور أمر الوجدانية واستحالة الشركة والإيدان باستتباعها لسائر الصفات ، وإما معطوف عليه كما في قوله تعالى : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والفاء للإشعار بعلاقة ما قبلها من الصفات المجراة عليه تعالى للنهي أو الانتهاء أو لأن مآل النهي هو الأمر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها ، كأنه قيل : اعبدوه فخصوها به ، والإظهار في موضع الإضمار لما مر آنفاً ، وقيل هو نفي منصوب بإضمار أن جوابا للأمر ، ويأباه أن ذلك فيما يكون الأول سببا للثاني . ولأرب في أن العبادة لا تكون سببا للتوحيد ، الذي هو أصلها ومبناها .

وقيل هو منصوب بلعل نصب (فأطلع) في قوله تعالى : (لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) أى خلقكم لتتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه ، وحيث كان مدار هذا النصب تشبيه لعل في بعد المرجو بليت كان فيه تنبيه على تقصيرهم بجعلهم المرجو القريب بمنزلة المسمى البعيد ، وقيل هو متعلق بقوله تعالى : (الذي جعل الخ) على تقدير رفعه على المدح ، أى هو الذي خصكم بهذه الآيات العظام والدلائل النيرة ، فلا تتخذوا له شركاء ، وفيه ما مر من لزوم كون خلقهم وخلق أسلافهم بمعزل من مناطية النهي مع عراقتهم فيها . وقيل هو خبر للموصول بتأويل مقول في حقه ، وقد عرفت ما فيه مع لزوم المصير إلى مذهب الأخفش في تنزيل الاسم الظاهر بمنزلة الضمير كما في قولك زيد قام أبو عبد الله إذا كان ذلك كنيته .

(١) في الأصل : وتعليل

والند المثل المساوى من ند ندودا إذا نفر ، وناددته خالفته ، خص
بالمخالف المائل بالذات كما خص المساوى بالمائل في المقدار ، وتسمية ما يعبد
المشركون من دون الله أندادا والحال أنهم ما زعموا أنها تماثله تعالى في صفاته
ولا أنها تخالفه في أفعاله لما أنهم لما تركوا عبادته تعالى إلى عبادتها ، وسموها
آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات ، قادرة على أن
تدفع عنهم بأس الله عز وجل ، وتمنحهم ما لم يرد الله تعالى بهم من خير ،
فتمسكهم بهم وشنع عليهم أن جعلوا أندادا لمن يستحيل أن يكون له ند واحد
وفي ذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا واحدا أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا^١ كذلك يفعل الرجل البصير

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حال من ضمير لا تفعلوا بصرف
التقييد إلى ما أفاده النهى من قبح المنهى عنه ووجوب الاجتناب عنه ، ومفعول
تعلمون مطروح بالسكينة كأنه قيل لا تفعلوا^(١) ذلك فإنه قبيح واجب الاجتناب
عنه ، والحال أنكم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور وإصابة الرأى ،
أو مقدر حسبما يقتضيه المقام ، نحو وأنتم تعلمون بطلان ذلك ، أو تعلمون ،
أنه لا يماثله شيء ، أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت ، أو تعلمون أنها
لا تفعل مثل أفعاله كما في قوله تعالى : (هل من شركائكم من يفعل من ذلکم
من شيء) أو غير ذلك .

وحاصله تنشيط المخاطبين وحثهم على الانتهاء عما نهوا عنه هذا هو الذى
يستدعيه عموم الخطاب فى النهى بجعل المنهى عنه القدر المشترك المنتظم لإنشاء
الانتهاء كما هو المطلوب من الكفرة ، وللثبات عليه كما هو شأن المؤمنين
حسبما مر مثله فى الأمر ، وأما صرف التقييد إلى نفس النهى فليستدعى
تخصيص الخطاب بالكفرة لا محالة إذ لا يتسنى ذلك بطريق قصر النهى على
حالة العلم ضرورة شمول التكليف للعالم والجاهل والمتمكن من العلم بل إنما

(١) فى الأصل : لا تفعلوا

يتأتى بطريق المبالغة في التوبيخ والتفريع ، بناء على أن تعاطى القبائح من العالمين بقبحها أقبح ؛ وذلك إنما يتصور في حق الكفرة ، فمن صرف التقييد إلى نفس النهى مع تعميم الخطاب للمؤمنين أيضا فقد نبأى عن التحقيق .

إن قلت : أليس في تخصيصه بالكفرة في الأمر والنهى خلاص من أمثال ما مر من التكاليف وحسن انتظام بين السياق والسياق إذ لا محيد في آية التحدى من تجريد الخطاب وتخصيصه بالكفرة لامحالة مع ما فيه من رءاء محل المؤمنين ورفع شأنهم عن حين الانتظام في سلك الكفرة والإيذان بأنهم مستمررون على الطاعة والعبادة حسبما مر في صدر السورة الكريمة مستغنون في ذلك عن الأمر والنهى ؟ قلت ، بلى إنه وجه سرى ، ونهج سوى ، لا يضل من ذهب إليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه ، فتأمل .

دلائل أن القرآن من عند الله

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ شروع في تحقيق أن الكتاب الكريم الذى من جملته ما نزل من الآيتين السكريميتين ، الناطقتين بوجوب العبادة والتوحيد منزل من عند الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أن ما ذكر فيهما من الآيات التكوينية الدالة على ذلك صادرة عنه تعالى لتوضيح اتصافه بما ذكر في مطلع السورة الشريفة من النعوت الجليلة التى من جملتها نراهته عن أن يعتريه ريب ما والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر كما يعرب عنه قوله تعالى (إن كنتم صادقين) لما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا فى غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياح فى شأنه ، وأما الجزم المذكور بخارج من دائرة الاحتمال ، كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع ، ولما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ونهاية قوتها .

ولما لم يقل وإن اردتم فيما نزلنا الخ لما أشير إليه فيما سلف من المبالغة فى تنزيهه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قوله تعالى :

(لاريب فيه) للإشعار بأن ذلك إن وقع فن جهتهم لامن جهته العالية ، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته ، لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابتهم به لاقوته وكثرته ، ومن في مما ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لريب ، وحملها على السببية ربما يوهم كونه علا للريب في الجملة وحاشاه (من) ^(١) ذلك وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن الكتاب الكريم لاعن القدر المشترك بينه وبين أبعاضه ، وليس معنى كونهم في ريب منه ارتيابهم في استقامة معانيه ، وصحة أحكامه ، بل في نفس كونه وحيامن لا من عند الله عز وجل ، وإيثار التنزيل المنهي ^(٢) عن التدرج على مطلق الإنزال لتذكير منشأ ارتيابهم ، وبناء التحدى عليه لإرخاء للعنان وتوسيعا للميدان ، فإنه كانوا اتخذوا نزوله منجما وسيلة إلى إنكاره ، فجعل ذلك من مبادئ الاعتراف به ، كأنه قيل : إن ارتبتم في شأن ما نزلناه على مهل وتدرج فها تواتم مثل نوبة فذة من نوبه ، ونجم فرد من نجومه ، فإنه أيسر عليكم من أن ينزل جملة واحدة ، ويتحدى بالكل .

وهذا كما ترى غاية ما يكون في التبكيت وإزاحة العلل وفي ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وإنقياده لأوامره تعالى ما لا يخفى . وقرئ على عبادنا والمراد هو صلى الله عليه وسلم وأمته ، أو جميع الأنبياء عليهم السلام ، ففيه إيدان بأن الارتياب فيه إرتياب فيما أنزل (على) ^(٣) من قبله لكونه مصدقاً له ومهيئاً عليه والأمر في قوله تعالى ﴿فأتوا بسورة﴾ من باب التعجيز وإلقام الحجر ، كما في قوله تعالى (فأت بها من المغرب) والفاء للجواب وسببية الارتياب للأمر أو الإتيان بالمأمور به لما أشير إليه من أنه عبارة عن جزمهم المذكور ، فإنه سبب الأول مطلقاً ، وللثاني على تقدير الصدق ، كأنه قيل إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتوا بمثله ، لأنكم تقدرون على

(١) سقطت من الأصل (٢) في ١١ : المبني (٣) سقطت من الأصل

ما يقدر عليه سائر بنى نوعكم . والسورة الطائفة من القرآن العظيم المترجمة ، وأقلها ثلاث آيات . وواوها أصلية منقولة من سور البلد ، لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حياها ، أو محتوية على فنون رائقة من العلوم احتواء سور المدينة على ما فيها ، أو من السورة التي هي الرتبة قال :

ولرھط حراب وقد سورة في المجد ليس غرابها بمطار

فإن سور القرآن مع كونها في أنفسها رتبا من حيث الفضل والشرف أو من حيث الطول والقصر ، فهي من حيث انتظامها مع أخوانها في المصحف مراتب يرتقى إليها القارئ شيئا فشيئا . وقيل واوها مبدلة من الهمزة ، فعناها البقية من الشيء ، ولا يخفى ما فيه ومن في قوله تعالى ﴿ من مثله ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة ، والضمير لما نزلنا ، أى بسورة كائنة من مثله في علو الرتبة وسمو الطبقة ، والنظم الرائق والبيان البديع ، وحيازة سائر نعوت الإعجاز وجعلها تبعيضية يوم أن له مثلا محققا قد أريد تعجيزهم عن الإتيان ببعضه ، كأنه قيل ، فأتوا ببعض ما هو مثل له فلا يفهم منه كون المماثلة من تنمة المعجوز عنه فضلا عن كونها مدارا للعجز مع أنه المراد ، وبناء الأمر على المجازاة معهم بحسب حسابهم حيث كانوا يقولون (لو نشاء لقلنا مثل هذا) أو على التهكم بأباه ما سبق من تنزيله منزلة الريب ، فإن مبنى التهكم على تسليم ذلك منهم وتسويفه ولو بغير جد ، وقيل هي زائدة كما هو رأى الأخفش ، بدليل قوله تعالى (فأتوا بسورة مثله) ، (بعشر سور مثله) وقيل هي ابتدائية ، فالضمير حينئذ للمنزل عليه حتما ، لما أن رجوعه إلى المنزل يوم أن له مثلا محققا (بالفعل)^(١) قد ورد الأمر التعجيزى بالإتيان بشيء منه ، وقد عرفت ما فيه بخلاف رجوعه إلى المنزل عليه ، فإن تحقق مثله عليه السلام في البشرية والعربية والامية يهون الخطب في الجملة ، خلا أن تخصيص التحدى بفرد يشاركه عليه السلام فيما ذكر من الصفات المنافية للإتيان بالمأمور به لا يدل على عجز من ليس كذلك من علمائهم ، بل ربما يوم قدرتهم على ذلك في

(١) سقط من ط .

الجملة فرادى أو مجتمعين ، مع أنه يستدعى عراء المنزل عما فصل من النعوت الموجبة لاستحالة وجود مثله ، فأين هذا من تحدى أمة حجة وأمرهم بأن يحتشدوا في حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ على الإتيان بقدر يسير مماثل في صفات الكمال لما أتى بجملته واحد من أبناء جنسهم .

والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر ، ومعنى دون أدنى مكان من شيء ، يقال هذا دون ذاك إذا كان أحط منه قليلا ، ثم استعير للتفاوت في الأحوال والرتب فقبل زيد دون عمرو ، أى فى الفضل والرتبة ، ثم اتسع فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد وتخطى حكم إلى حكم من غير ملاحظة انحطاط أحدهما عن الآخر ، فجرى مجرى أداة الاستثناء ، وكلمة من إما متعلقة بادعوا فتكون لابتداء الغاية ، والظرف مستقر والمعنى أدعوا متجاوزين الله تعالى لاستظهار من حضركم كائننا من كان ، أو الحاضرين فى مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرفكم الذين تفرعون إليهم فى الملل ، وتعملون عليهم فى المهمات ، أو القائمين بشهادتكم الجارية فيما بينكم من أمنائكم المتولين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة ، أو القائمين بنصرتكم حقيقة أو زعما من الإنس والجن ليعينوكم .

ولإخراجه سبحانه وتعالى من حكم الدعاء فى الأول مع اندراجهم فى الحضور لتأكيد تناوله لجميع ما عداه ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يؤم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه ؛ وأما فى سائر الوجوه فالتصريح من أول الأمر ببرائتهم منه تعالى ؛ وكونهم فى عدوة المحادة والمشاقة له قاصدين^(١) استظهارهم على مأسواه ؛ والالتفات لإدخال الروعة وتربية المهابة ؛ وقيل المعنى ادعوا من دون أولياء الله شهداءكم الذين هم وجوه الناس وفرسان المفاولة والمناقلة ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله ، لإيداننا بأنهم

(١) فى الأصل : قاصرين

يأبون أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة ما هو بين الفساد وجلى الاستحالة وفيه أنه يؤذن بعدم شمول التحدى لأولئك الرؤساء وقيل المعنى أدعوا شهداءكم فصيحوا بهم دعواكم ولا تستشهدوا بالله تعالى قائلين الله يشهد أن ما ندعيه حق فإن ذلك ديدن المحجوج وفيه أنه إن أريد بما يدعون حقيقة ما هم عليه من الدين الباطل فلا مساس له بمقام التحدى وإن أريد مثلية ما أتوا به للتحدى به فمع عدم ملامته لا ابتداء التحدى يوم أنهم قد تصدوا للمعارضة وأتوا بشيء مشتببه الحال مترددين بين المثلية وعدمها ، وأنهم ادعوا مستشهادين في ذلك بالله سبحانه ، إذ عند ذلك تمس الحاجة إلى الأمر بالاستشهاد بالناس والنهي عن الاستشهاد به تعالى ، وأنى لهم ذلك ، وما نبض لهم عرق ولا نبسوا ببذت شفة .

ولما متعلقة بشهداءكم والمراد بهم الأصنام ، ودون بمعنى التجاوز على أنها ظرف مستقر وقع حالا من ضمير المخاطبين ، والعامل ما دل عليه شهداءكم ، أى أدعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله تعالى في اتخاذها ، كذلك وكلمة من ابتدائية فإن الاتخاذ ابتداء من التجاوز ، والتعبير عن الأصنام بالشهداء لتعيين مدار الاستظهار بها بتذكير ما زعموا من أنها بمكان من الله تعالى وأنها تنفعهم بشهادتها لهم أنهم على الحق ، فإن ما هذا شأنه يجب أن يكون ملاذا لهم في كل أمر مهم ، وملجأ يأوون إليه في كل خطب ملم ، كأنه قيل : أولئك عدتكم فادعوهم لهذه الداهية التى دهمتكم ، فوجه الالتفات الإيذان بكمال سخافة عقولهم حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة ما لا أحقر منه .

وقيل لفظة دون مستعارة من معناها الوضعى الذى هو أدنى مكان من شيء لقدامه ، كما في قول الأعشى :

• تريك القذى من دونها وهى دونه •

أى تريك القذى قدامها وهى قدام القذى ، فتكون ظرفا لغويا معمولا لشهداءكم لكفاية راحة الفعل فيه ، من غير حاجة إلى اعتماد ولا إلى تقدير

يشهدون ، أى أدعوا شهداءكم الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى ليعينوكم في المعارضة ، ولم يرادها بهذا العنوان لما مر من الإشعار بمناسبات الاستعانة بها ، ووجه الالتفات تربية المهابة وترشيح ذلك المعنى فإن ما يقوم بهذا الأمر في ذلك المقام الخطير حقه أن يستعان به في كل مرام ، وفي أمرهم على الوجهين بأن يستظهروا في معارضة القرآن الذى أخرس كل منطق بالجناد من التمسك بهم ما لا يوصف ، وكلمة من ههنا تبعية ، لما أنهم يقولون جلس بين يديه وخلفه بمعنى فى لأنهما طرفان للفعل ومن بين يديه ومن خلفه لأن الفعل إنما يقع فى بعض تينك الجهتين كما تقول جثته من الليل تريد بعض الليل .

وقد يقال كلمة من الداخلة على دون فى جميع المواقع بمعنى فى كما فى سائر الظروف التى لا تنصرف ، وتكون منصوبة على الظرفية أبدا ، ولا تنجر إلا بمن خاصة ، وقيل المراد بالشهداء مداره القوم ووجوه المحافل والمحاضر ، ودون ظرف مستقر ومن ابتدائية أى ادعوا الذين يشهدون لكم أن ما أنتم به مثله متجاوزين فى ذلك أولياء الله ، وعصمه شهداء مغايرين لهم إيدانا بأنهم أيضا لا يشهدون بذلك ، وإنما قدر المضاف إلى الله تعالى رعاية للمقابلة ، فإن أولياء الله تعالى يقابلون أولياء الأصنام ، كما أن ذكر الله تعالى يقابل ذكر الأصنام ، والمقصود بهذا الأمر لإرخاء العنان والاستدراج إلى غاية التبعييت ، كأنه قيل تركنا لإلزامكم بشهداء لا ميل لهم إلى أحد الجانبين كما هو المعتاد ، واكتفينا بشهداءكم المعروفين بالذنب عنكم ، فإنهم أيضا لا يشهدون لكم حذرا من اللائمة^(١) وأنفة من الشهادة البينة البطلان .

كيف لا وأمر الإعجاز قد بلغ من الظهور إلى حيث لم يبق إلى إنكاره سبيل قطعا ، وفيه ما مر من عدم الملازمة لابتداء التحدى وعدم تناوله لأولئك الشهداء ، وإيهام أنهم تعرضوا للمعارضة وأتوا بشيء احتاجوا فى إثبات مثلته للمتحدى به إلى الشهادة ، وشتان بينهم وبين ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى زعمكم أنه من كلامه عليه السلام . وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق

عليه ، أى إن كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله إلخ ، واستلزام المقدم للتالى من حيث أن صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه السلام فى البشرية والعربية ، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار وكثرة المزاولة لأساليب العظم والتغر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، لا سيما عند المظاهرة والتعاون ولا ريب فى أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعى الأمر به .

((فإن لم تفعلوا)) أى ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد ما بذلتم فى السعى غاية المجهود ، وجاوزتم فى الجد كل حد معهود ، متشبثين بالذبول ، راكبين متن كل صعب وذلول ، وإنما لم يصرح به لإيداننا بعدم الحاجة إليه ، بناء على كمال ظهور تمام السكهم على ذلك ، وإنما أورد فى حيز الشرط مطلق الفعل وجعل مصدر المأمور به مفعولا لا للإيجاز البديع المغنى عن التطويل والتكرير ، مع سرسرى استقل به المقام وهو الإيدان بأن المقصود بالتسكين هو إيقاع نفس الفعل المأمور به ، لإظهار عجزهم عنه لا لتحصيل المفعول أى المآل به ضرورة استحالة ، وأن مناط الجواب فى الشرطية أعنى الأمر باتقاء النار هو عجزهم عن إيقاعه لا فوت حصول المفعول فإن مدلول لفظ هو أنفس الأفعال الخاصة لازمة كانت أو متعدية من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة ، فإذا علق بفعل خاص متعد فإنما يقصد به إيقاع نفس ذلك الفعل وإخراجه من القوة إلى الفعل ، وأما تعلقه بمفعوله المخصوص فهو خارج عن مدلول الفعل المطلق وإنما يستفاد ذلك من الفعل الخاص ، ولذلك تراهم يتوسلون بذلك إلى تجريد الأفعال المتعدية عن مفعولاتها وتنزيلها منزلة الأفعال اللازمة ، فيقولون مثلا ، معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الإعطاء ، والمنع ، يرشدك إلى هذا قوله تعالى (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) بعد قوله تعالى (أئتوني بأخ لكم من أبيكم) فإنه لما كان مقصود يوسف عليه السلام بالأمر ومرمى غرضه بالتسكين منه استحضار بنيامين لم يكتف فى الشرطية الداعية لهم إلى الجد فى الامتثال ، والسعى فى تحقيق المأمور به بالإشارة الإجمالية إلى الفعل الذى ورد

به الأمر بأن يقول : فإن لم تفعلوا ، بل أعاده بعينه متعلقاً بمفعوله تحقيقاً لمطلبه وإعرا باً عن مقصده .

هذا وقد قيل أطلق الفعل وأريد به الإتيان مع ما يتعلق به إما على طريقة التعبير عن الأسماء الظاهرة بالضائر الراجعة إليها حذراً من التكرار ، أو على طريقة ذكر اللزوم وإرادة الملزوم ، لما بينهما من التلازم المصحح للانتقال بمعونة قرائن الحال فتدبر ، وإيثار كلمة إن المفيدة للشك على إذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم بحجارة معهم بحسب حسابهم قبل التجربة أو تسكم بهم .

﴿ولن تفعلوا﴾ كلمة لن لنفي المستقبل كلا ، خلا أن في لن زيادة تأكيد وتشديد ، وأصلها عند الخليل (لا أن) وعند الفراء (لا) أبدلت ألفها نوناً ، وعند سيديويه حرف مقتضب للمعنى المذكور ، وهي إحدى الروايتين عن الخليل والجملة اعتراض بين جزأى الشرطية مقرر لمضمون مقدمها ، ومؤكد لايجاب العمل بتاليها ، وهذه معجزة باهرة حيث أخبر بالغيب الخاص عليه به عز وجل وقد وقع الأمر كذلك ، كيف لا ولو عارضوه بشيء يدانيه في الجملة لتناقله الرواة خلفاً عن سلف .

﴿فاتقوا النار﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد ، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتبه عليه ، كأنه قيل : فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله كما هو المقرر فاحتزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه فإنه مستوجب للعقاب بالنار ، لكن أوتر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملازمة بها للهبالة في تهويل شأنه ، وتفظيع أمره . وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه ، وتنفيرهم عنه ، وحثهم على الجهد في تحقيق المكنى عنه ، وفيه من الإيجاز البديع ما لا يخفى ، حيث كان الأصل ، فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم ، وإذا صح ذلك كان الزومكم العناد وترككم الإيمان به سبباً لاستحقاقكم العقاب بالنار ، فاحتزوا منه واتقوا النار (التي وقودها الناس والحجارة) صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفضاعة أعادنا الله من ذلك ، والوقود ما توقد به النار وترفع من الحطب .

وقرىء بضم الواو وهو مصدر وسمى به المفعول مبالغة كما يقال فلان نخر قومه وزين بلده ، والمعنى أنها من الشدة بحيث لا تمس شيئاً من رطب أو يابس إلا أحرقت ، لا كمنيران الدنيا تفتقر في الالتهاب إلى وقود من حطب أو حشيش وإنما جعل هذا الوصف صلة للموصول مقتضية لكون انتسابها إلى ما نسبت هي إليه معلوماً للمخاطب بناء على أنهم سمعوه من أهل الكتاب قبل ذلك ، أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو سمعوا قبل هذه الآية المدنية قوله تعالى (نارا وقودها الناس والحجارة) فأشير هنا إلى ما سمعوه أولاً ، وكون سورة التحريم مدنية لا يستلزم كون جميع آياتها كذلك كما هو المشهور ، وأما أن الصفة أيضاً يجب أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب فالخطب فيه حين ، لما أن المخاطب هناك المؤمنون ، وظاهر أنهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالحجارة الأصنام ، وبالناس أنفسهم حسبما ورد في قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية .

﴿ أعدت للكافرين ﴾ أى هيئت للذين كفروا بما نزلناه وجعلت عدة لعذابهم والمراد إما جنس الكفار والمخاطبون داخلون فيهم دخولا أولياً ، وإما هم خاصة ، ووضع الكافرين موضع ضميرهم لنهم وتعليل الحكم بكفرهم وقرىء (أعدت) من العتاد بمعنى العدة ، وفيه دلالة على أن النار مخلوقة موجودة الآن ، والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب مقرر للمضمون ما قبلها ، ومؤكدة لإيجاب العمل به ، ومبينة لمن أريد بالناس دافعة لاحتمال (١) العموم وقيل حال بإضمار قد من النار ، لا من ضميرها في وقودها ، لما في ذلك من الفصل بينهما بالخبر ، وقيل صلة بعد صلة أو عطف على الصلة بترك العاطف .

بشارات المؤمنين

﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ أى بأنه منزل من عند الله عز وجل ، وهو معطوف على الجملة السابقة لسكن لا على أن المقصود عطف نفس الأمر حتى يطلب له مشا كل يصح عطفه عليه ، بل على أنه عطف قصة المؤمنين بالقرآن ووصف

ثوابهم ، على قصة الكافرين به وكيفية عقابهم ، جريا على السنة الإلهية من شفع
الترغيب بالترهيب ، والوعد بالوعيد ، وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين
بين حالى الفريقين ، وقرىء وبشر على صيغة الفعل مبنيًا للمفعول عطفًا على
أعدت ، فيكون استئنافا وتعايق التبشير بالموصول للإشعار بأنه معلل بما في
حين الصلة من الإيمان والعمل الصالح ، لكن لا لذاتهما ، فإنهما لا يكافئان
النعم السابقة فضلا من أن يقتضيا ثوابا فيما يستقبل ، بل يجعل الشارع ،
ومقتضى وعده وجعل صلته فعلا مفيدا للحدث بعد إيراد الكفار بصيغة
الفاعل لحث المخاطبين بالالتقاء على إحداث الإيمان ، وتحذيرهم من الاستمرار
على الكفر ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل لكل من يتأتى منه
التبشير ، كما في قوله عليه السلام : «بشر المشائين إلى المساجد في ظلم الليالي بالنور
التام يوم القيامة ، فإنه عليه السلام لم يأمر بذلك واحدا بعينه بل كل أحد ممن
يتأتى منه ذلك ، وفيه رمز إلى أن الأمر لعظمه ونفامة شأنه حقيق بأن يتولى
التبشير به كل من يقدر عليه ، والبشارة الخبر السار الذى يظهر به أثر السرور
في البشارة ، وتباشير الصبح أوائل ضوئه » (وعملوا الصالحات) الصالحة كالحسنة
في الجريان بحرى الاسم ، وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل
واللام للجنس ، واجمع لإفادة أن المراد بها جملة من الأعمال الصالحة التى أشير
إلى أهمياتها في مطلع السورة الكريمة ، وطائفة منها متفاوتة حسب تفاوت حال
المكلفين في مواجب التكليف ، وفي عطف العمل على الإيمان دلالة على
تغايرهما وإشعار بأن مدار استحقاق البشارة بمجموع الأمرين ، فإن الإيمان
أساس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء بأس لا بناء به .

﴿أن لهم جنات﴾ منصوب بنزع الخافض وإفضاء الفعل إليه ، أو مجرور
بإضماره مثل : «الله لأفعلن ، والجنة هى المرة من مصدر جنة إذا ستره ، نطلق
على النخل والشجر المتكاثف المظل بالتفاف أغصانه قال زهير :

كأن عيني في غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

أى نخلا طولا كأنها لفرط تكاثفها والتفافها وتغطيتها لما تحتها بالمرّة نفس

السترة وعلى الأرض ذات الشجر ، قال الفراء الجنة مافيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم ، فحق المصدر حينئذ أن يكون مأخوذاً من الفعل المبني للمفعول وإنما سميت دار الثواب بها مع أن فيها ما لا يوصف من الغرفات والقصور لما أنها مناط نعيمها ، ومعظم ملاذها ، وجمعها مع التنكير لأنها سمع على ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما : جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، ودار الخلد ، وجنة المأوى ، ودار السلام ، وعليون . وفي كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها .

﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ في حيز النصب على أنه صفة جنات . فإن أريد بها الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل .

عن مسروق أن أنهار الجنة تجرى في غير أخدود ، واللام في الأنهار للجنس ، كما في قولك : لفلان بستان فيه الماء الجارى والتين والعنب ، أو عوض عن المضاف إليه كما في قوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) أو للعهد والإشارة إلى ما ذكر في قوله عز وعلا : (أنهار من ماء غير آسن) الآية . والنهر بفتح الهاء وسكونها المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات ، والتركيب للسعة والمراد بها ماؤها على الإضمار أو على المجاز اللغوى ، أو المجرى أنفسها ، وقد أسند إليها الجريان مجازاً عقلياً كما في سال الميزاب .

﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا ﴾ صفة أخرى لجنات أخرت عن الأولى لأن جريان الأنهار من تحتها وصف لها باعتبار ذاتها ، وهذا وصف لها باعتبار أهلها المتنعمين بها ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو جملة مستأنفة ، كأنه حين وصفت الجنات بما ذكر من الصفة وقع في ذهن السامع أثمارها كثمار جنات الدنيا أولاً ، فبين حالها ، و (كلما) نصب على الظرفية ، ورزقا مفعول به ، ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع

الحال ، كأنه قيل كل وقت رزقوا مرزوقا مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة على أن الرزق مقيد بكونه مبتدأ من الجنات ، وابتدأوه منها مقيد بكونه مبتدأ من ثمرة ، فصاحب الحال الأولى رزقا ، وصاحب الثانية ضميره المستكن في الحال ، ويجوز كون من ثمرة بيانا قدم على المبين كما في قولك رأيت منك أسدا ، وهذا إشارة إلى ما رزقوا ، وإن وقعت على فرد معين منه كقولك مشيراً إلى نهر جار هذا الماء لا ينقطع ، فإنك إن أشرت إلى ما تعينه بحسب الظاهر لك أنك إنما تعني بذلك النوع المعلوم المستمر ، فالمعنى هذا مثل الذى رزقناه من قبل ، أى من قبل هذا في الدنيا ، ولكن لما استحکم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته ، وإنما جعل ثمر الجنة كشمار الدنيا لتبيل النفس إليه حين تراه ، فإن الطباع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غير معروف ، ولتبتين لها ميزته وكنه النعمة فيه إذ لو كان جنسا غير معروف لظن أنه لا يكون إلا كذلك أو مثل الذى رزقناه من قبل في الجنة لأن طعامها متشابه الصور كما يحكى عن الحسن رضى الله عنه أن أحدهم يؤتى فيها كل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول ذلك ، فيقول الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف ، أو كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : (والذى نفسى بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة لياً كلها فما هى وأصله إلى فيه حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها) والأول أنسب لمحافظة عموم كلها ، فإنه يدل على ترديدهم هذه المقالة كل مرة رزقوا لا فيما عدا المرة الأولى يظهرون بذلك التبعج ، وفرط الاستغراب لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذة مع اتحادهما في الشكل واللون ، كأنهم قالوا هذا عين ما رزقناه في الدنيا فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب .

ولا يقدح فيه ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه ليس في الجنة من أطعمة الدنيا إلا الاسم ، فإن ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما من حيث اللذة والحسن والهيئة لالبيان ألا تشابه بينهما أصلا ، كيف لا وإطلاق الأسماء منوط بالاتحاد النوعى قطعا ، هذا وقد فسرت الآية الكريمة بأن

مستلذات أهل الجنة بمقابلة ما رزقوه في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة الحال ، فيجوز أن يريدوا هذا ثواب الذي رزقناه في الدنيا من الطاعات ، ولا يساعده تخصيص ذلك بالثمرات ، فإن الجنة وما فيها من فنون الكرامات من قبيل الثواب .

﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ اعتراض مقرر لما والضمير المجرور على الأول راجع إلى ما دل عليه خوى الكلام مما رزقوا في الدارين كما في قوله تعالى : (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) أى بجنسى الغنى والفقير ، وعلى الثانى إلى الرزق ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى مما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقدرة كالحيض والدرن وذنس الطبع وسوء الخلق ، فإن التطهر يستعمل فى الأجسام والأخلاق والأفعال ، وقرىء مطهرات ، وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن وهن فاعلة وفواعل قال :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت واستعجلت نصب القدور فملت

فالجمع على اللفظ ، والإفراد على تأويل الجماعة ، وقرىء (مطهرة) بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى متطهرة ومطهرة أبلغ من طاهرة ومتطهرة . للإشعار بأن مطهراً طهرهن ، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى . وأما التطهر فيحتمل أن يكون من قبل أنفسهن كما عند اغتسالهن والزواج يطلق على الذكر والأنثى ، وهو فى الأصل اسم لماله قرين من جنسه ، وليس فى مفهومه اعتبار التوالد الذى هو مدار بقاء النوع حتى لا يصح إطلاقه على أزواج أهل الجنة لخلودهم فيها ، واستغنائهم عن الأولاد ، كما أن المدارية لبقاء الفرد ليست بمعتبرة فى مفهوم اسم الرزق حتى يحل ذلك بإطلاقه على ثمار الجنة .

﴿ وهم فيها خالدون ﴾ أى دائمون والخلود فى الأصل الثبات المديد دام أو لم يدم ، ولذلك قيل للأثافي والأحجار الخوالد وللجزء الذى يبقى من الإنسان على حاله خالد ، ولو كان وضعه للدوام لما قيد بالتأييد فى قوله عز وعلا (خالدين فيها أبداً) ولما استعمل حيث لا دوام فيه لكن المراد ههنا الدوام

قطعا لما يفضى به من الآيات والسنن ، وما قيل من أن الأبدان مؤلفة من الأجزاء المتضادة في الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية إلى الانحلال. والانفسك مداره قياس ذلك العالم الكامل بما يشاهد في عالم السكون والفساد على أنه يجوز أن يعيدها الخالق تعالى بحيث لا يعثرها الاستحالة ، ولا يعثرها الانحلال قطعا ، بأن تجعل أجزاؤها متفاوتة في الكيفيات متعادلة في القوى ، بحيث لا يقوى شيء منها عند التفاعل على إحالة الآخر ، متعاقبة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض ، وتبقى هذه النسبة متحفظة فيما بينها أبدا لا يعثرها التغير بالأكل والشرب والحركات وغير ذلك .

واعلم أن معظم المذات الحسية لما كان مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح حسبما يقضى به الاستقرار ، وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات إذ كل نعمة وإن جلت حيث كانت في شرف الزوال ومعرض الاضمحلال فإنها منغصة غير صافية من شوائب الألم بشر المؤمنين بها وبدوامها تكميلاً للبهجة والسرور ، اللهم وفقنا لمراضيك ، وثبتنا على ما يؤدي إلينا من العقد والعمل .
دفع شبهات عن القرآن الكريم

﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة ﴾ شروع في تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب خاص اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الأمثال وبيان حكمته ، وتحقيق للحق لإثر تنزيها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدي ، وإلقام الحجر ، وإفحام كافة البلغاء من أهل المدر والوبر روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المنافقين طعنوا في ضرب الأمثال بالنار والظلمات والرعد والبرق ، وقالوا : الله أجل وأعلى من ضرب الأمثال . وروى عطاء رضى الله عنه أن هذا الطعن كان من المشركين .

وروى عنه أيضاً أنه لما نزل قوله تعالى : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) الآية ، وقوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) الآية ، قالت اليهود : أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله تعالى بهما وجعلوا ذلك ذريعة إلى إنكار كونه من عند الله تعالى ، مع

أنه لا يخفى على أحد من له تمييز أنه ليس مما يتصور فيه التردد فضلا عن النكير ، بل هو من أوضح أدلة كونه خارجا عن طوق البشر ، نازلا من عند خلاق القوى والقدر ، كيف لا وإن التمثيل كما مر ليس إلا إبرازاً للمعنى المقصود في معرض الأمر المشهود ، وتحلية المعقول بحلية المحسوس ، وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس ، لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستمعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية ، وفهم الدقائق الآبية ، كي يتابعه فيما يقتضيه ويشايعه إلى ما يرتضيه ، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية والسكلمات النبوية وذاعت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء ، ومن قضية وجوب التماثل بين الممثل والممثل به في مناط التمثيل تمثيل العظيم بالعظيم ، والحقير بالحقير ، وقد مثل في الإنجيل غل الصدر بالنخالة ، ومعارضة السفهاء بإثارة الزنا بغير ، وجاء في عبارات البلغاء : أجمع من ذره ، وأجراً من الذباب ، وأسمع من قراد ، وأضعف من بعوضة ، إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصر .

والحياء تغير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم عليه ، يقال حيي ، الرجل وهو حيي ، واشتقاقه من الحياة اشتقاق شطى وحشى ونسى من الشطى والنسى والحشى ، يقال شطى الفرس ونسى وحشى إذا اعتلت منه تلك الأعضاء كأن من يعتريه الحياء تعتل قوته الحيوانية وتنتقص ، واشتكى بمعناه خلا أنه يتعدى بنفسه وبحرف الجر ، يقال : استحييته واستحييت منه ، والأول لا يتعدى إلا بحرف الجر ، وقد يحذف منه لإحدى اليامين . ومنه قوله :

ألا يستحي منا الملوك ويتقى محارمنا لا ييؤء الدم بالدم
وقوله :

إذا ما استحين الما يعرض نفسه كرعن بسبت في إماء من الورد
فكما أنه إذا أسند إليه سبحانه بطريق الإيجاب في مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يستحي من ذى الشبهة المسلم أن يعذبه ، وقوله عليه السلام « إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا » ، يراد به الترك الخاص على طريقة التمثيل حيث مثل في الحديثين

السكرمين تركه تعذيب ذى الشبهة ، وتخيب العبد من عطائه بترك من يتركهما حياء ، كذلك إذا نفي عنه تعالى في المواد الخاصة كما في هذه الآية الشريفة ، وفي قوله تعالى : (والله لا يستحي من الحق) يراد به سلب ذلك الترك الخاص المضاهى لترك المستحي عنه ، لا سلب وصف الحياء عنه تعالى رأسا ، كما في قولك إن الله لا يوصف بالحياء : لأن تخصيص السلب ببعض المواد يوهم كون الإيجاب من شأنه تعالى في الجملة ، فالمراد هنا عدم ترك ضرب المثل المائل لترك من يستحي من ضربه ، وفيه رمز إلى تعاضد الدواعي إلى ضربه وتأخذ البواعث إليه ، إذ الاستحياء إنما يتصور في الأفعال المقبولة للنفس ، المرضية عندها ، ويجوز أن يكون وروده على طريقة المشاكلة ، فإنهم كانوا يقولون ، أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بالأشياء المحقرة كما في قول من قال :
من مبلغ أفناء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل

وضرب المثل استعماله في مضربه وتطبيقه به لاصنعه^(١) وإنشاؤه في نفسه وإلا لكان لإنشاء الأمثال السائرة في موارد ضربها لها دون استعمالها بعد ذلك في مضاربها ، لفقدان الإنشاء هناك . والأمثال الواردة في التنزيل وإن كان استعمالها في مضاربها عين لإنشائها في أنفسها ، لكن التعبير عنه بالضرب ليس بهذا الاعتبار ، بل بالاعتبار الأول قطعا ، وهو مأخوذ إما من ضرب الخاتم بجامع التطبيق ، فكما أن ضربه تطبيقه بقالبه ، كذلك استعمال الأمثال في مضاربها تطبيقها بها ، كأن المضارب قوالب تضرب الأمثال على شاكلتها ، لكن لا بمعنى أنها تنشأ بحسبها بعد أن لم تكن كذلك ، بل بمعنى أنها تورد منطبقه عليها سواء كان لإنشاؤها حينئذ كعامة الأمثال التنزيلية ، فإن مضاربها قوالبها ، أو قبل ذلك كسائر الأمثال السائرة ، فإنها وإن كانت مصنوعة من قبل إلا أن تطبيقها أى إيرادها منطبقه على مضاربها إنما يحصل عند الضرب ، وإما من ضرب الطين على الجدار ليلتزم به بجامع الإصاق ، كأن من يستعملها يلصقها بمضاربها ويجعلها ضربة لازب^(٢) لا تنفك عنها أشدة تعلقها بها .

ومحل أن يضرب على تقدير تعدية يستحي بنفسه النصب على المفعولية ،
وأما على تقدير تعديته بالجار فعند الخليل الخفض بإضمار من ، وعند سيبويه
النصب بإفشاء الفعل إليه بعد حذفها ، ومثلاً مفعول ليضرب ، وهما اسمية إبهامية
تزيد ما تقارنه من الاسم المنكر إبهاما وشياعا ، كما في قولك أعطاني كتابا ما ،
كأنه قيل مثلاً ما من الأمثال ، أى مثل كان . فهى صفة لما قبلها ، أوحرفية
مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها كما في قوله تعالى : (فبما رحمة من الله) وبعوضة
بدل من مثلاً أو عطف بيان عند من يجوز في النكرات ، أو مقحول ليضرب
ومثلاً حال تقدمت عليها لكونها نكرة ، أوهما مفعولاه لتضمنته معنى الجعل
والتصيير ، وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو يعوضة .

والجملة على تقدير كون ما موصولة صلة لها محذوفة المصدر كما في
قوله تعالى : (تماما على الذى أحسن) على قراءة الرفع ، وعلى تقدير كونها
موصوفة لها كذلك ، ومحل ما ، على الوجهين النصب على أنه بدل من مثلاً ،
أو على أنه مفعول ليضرب ، وعلى تقدير كونها إبهامية صفة لمثلاً كذلك ،
وأما على تقدير كونها استفهامية فهى خبر لها ، كأنه لما رد استبعادهم
ضرب المثل قيل : ما بعوضة ، وأى مانع فيها حتى لا يضرب بها المثل ، بل
له تعالى أن يمثل بما هو أصغر منها وأحقر كجناحها على ما وقع في قوله
صلى الله عليه وسلم : ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر
منها شربة ماء ، والبعوض فاعول من البعض وهو القطع كالبيض والعصب
غلب على هذا النوع كالخوش في لغة هذيل من الخش وهو الخدش .

(فما فوقها) عطف على بعوضة على تقدير نصبها على الوجوه المذكورة
وما موصولة أو موصوفة صلتها أو صفتها الظرف وأما على تقدير رفعها
فهو عطف على ما الأولى على تقدير كونها موصولة أو موصوفة ، وأما على
تقدير كونها استفهامية فهو عطف على خبرها أعنى بعوضة لا على نفسها كما
قيل ، والمعنى ما بعوضة فالذى فوقها أو فشىء فوقها ، حتى لا يضرب بها المثل ،
وكذا على تقدير كونها صفة للنكرة أو زائدة ، وبعوضة خبر للمضمر ،

وذكر البعوضة فما فوقها من بين أفراد المثل إنما هو بطريق التمثيل دون التعمين والتخصيص ، فلا يخجل بالشيوع بل يقرره ويؤكد بطريق الأولوية والمراد بالفوقية إما الزيادة في المعنى الذي أريد بالتمثيل أعنى الصغر والحقارة . وإما الزيادة في الحجم والجثة لكن لا بالغا ، بل في الجملة كالذباب والعنكبوت . وعلى التقدير الأول يجوز أن تكون ما الثانية خاصة استفهامية إنكارية والمعنى : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فأى شيء فوقها في الصغر والحقارة ، فإذا له تعالى أن يمثل بكل ما يريد ، ونظيره في احتمال الأمرين ما روى أن رجلا بنى خر على طنب فسطاط فقالت هائشة رضى الله عنها حين ذكر لها ذلك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة » فإنه يحتمل ما يجاوز الشوكة في القلة كنخبة النملة بقوله عليه السلام : « ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كنفارة لخطاياها حتى نخبة النملة » وما تجاوزه من الألم كأمثال ما حكى من الحرور .

حكمة ضرب المثل في القرآن

﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ شروع في تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم لئلا يحقق حقيقة صدوره عنه تعالى . والغاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يدل عليه ما قبلها ، كأنه قيل : فيضربه فأما الذين آمنوا ، وتقديم بيان حال المؤمنين على ما حكى من الكفرة بما لا يفتقر إلى بيان السبب ، وفي تصدير الجملةتين بإما من إحماد أمر المؤمنين وذم الكفرة مالا يخفى ، وهو حرف متضمن للمعنى الشرط وفعله بمنزلة مهما يكن من شيء ، ولذلك يحجب بالغاء وفائدته تأكيد ما صدر به وتفصيل ما في نفس المتكلم من الأقسام ، فقد تذكر جميعا وقد يقتصر على واحد منها ، كما في قوله عز من قائل (١) ، فأما الذين في قلوبهم زيغ الخ قال سيديويه أما زيد معناه مهما يكن من شيء

فهو ذاهب لا محالة ، وأنه منه عزيمة ، وكان الأصل دخول الفاء على الجملة لأنها الجزاء لكن كرهوا إيلاها حرف الشرط ، فأدخلوها الخبر وعوض المبتدأ عن الشرط لفظاً ، والمراد بالموصل فريق المؤمنين المعهودين كما أن المراد بالموصل الآتي فريق الكفرة لا من يؤمن بضرب المثل ، ومن يكفر به ، لاختلال المعنى أى فأما المؤمنين .

﴿ فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ كسائر ما ورد منه تعالى والحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لاحاله ، بحيث لا سبيل للعقل إلى إنكاره لا الثابت مطلقاً ، واللام للدلالة على أنه مشهود له بالحقيقة ، وأن له حكماً ومصالح ، ومن لا ابتداء الغاية المجازية ، وعاملها محذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى الحق ، أو من الضمير العائد إلى المثل ، أو إلى ضربه ، أى كائناً وصادراً من ربهم ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم ، وللإيدان بأن ضرب المثل تربية لهم ، وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كما لهم اللاتق بهم ، والجملة سادة مسد مفعولى يعلمون عند الجمهور ، ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش ، أى فيعلمون حقيقته ثابتة ، ولعل الاكتفاء بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كما فى قوله تعالى : (والراستخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) للإشعار بقوة ما بينهما من التلازم وظهوره المغنى عن الذكر .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ بمن حكيت أقوالهم وأحوالهم ﴿ فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ أوثر يقولون على لا يعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال غلوهم فى الكفر ، وتراعى أمرهم فى العتو ، فإن مجرد عدم العلم بحقيقته ليس بمنابة إنكارها والاستهزاء به صريحاً وتمهيداً لتعداد مانع عليهم فى تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ونقض العهد وغير ذلك من شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور .

على أن عدم العلم بحقيقته لا يعم جميعهم ، فإن منهم من يعلم بها ، وإنما يقول ما يقول مكابرة وعناداً ، وحمله على عدم الإذعان والقبول الشامل للجبل والعناد

تعسف ظاهر . هذا وقد قيل كان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ،
ليطابق قرينه ويقابل قسيمه ، لكن لما كان قولهم هذا دليلاً واضحاً على
جهلهم عدل إليه على سبيل السكناية ليسكون كالبرهان عليه ، فتأمل وكن على
الحق المبين ، و (ماذا) إما مؤلفة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ خبره ذا
بمعنى الذى وصلته ما بعده والعائد محذوف ، فالأحسن أن يجيء جوابه
مرفوعاً ، وإما منزلة اسم واحد بمعنى أى شيء ، فالأحسن فى جوابه النصب
والإرادة نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها إليه أو القوة التى هى مبدؤه ،
والأول مع الفعل ، والثانى قبله ، وكلاهما مما لا يتصور فى حقه تعالى ، ولذلك
اختلفوا فى إرادته عز وجل ، فقيل إرادته تعالى لأفعاله كونه غير ساه فيه ،
ولا مكره ، ولأفعال غيره أمره بها ، فلا تكون المعاصى بإرادته تعالى ، وقيل
هى علمه باشتغال الأمر على النظام الأكمل ، والوجه الأصح ، فإنه يدعو
القادر إلى تحصيله والحق عبارة عن ترجيح أحد طرفي المقدور على الآخر
وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى بوجهه ، وهى أعم من الاختيار ، فإنه
ترجيح مع تفضيل ، وفى كلمة (هذا) تحقير للمشار إليه واستئزال له^(١) ومثلاً نصب
على التمييز أو على الحال كما فى قوله تعالى : (ناقة الله لكم آية) وليس مرادهم
بهذه العظيمة استفهام الحكمة فى ضرب المثل ولا القدح فى اشتباهه على الفائدة
مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا ، بل غرضهم التنبيه بادعاء أنه من الدناءة
والحقارة بحيث لا يليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلة تحت إرادته
تعالى ، على استحالة أن يكون ضرب المثل به من عنده سبحانه ، فقوله عز
من قائل ﴿ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ﴾ جواب عن تلك المقالة الباطلة ،
ورد لها بيان أنه مشتمل على حكمة جليلة وغاية جميلة هى كونه ذريعة إلى
هداية المستعدين للهداية ، وإضلال المنهمكين فى الغواية ، فوضع الفعلان
موضع الفعل الواقع فى الاستفهام مبالغة فى الدلالة على تحققهما ، فإن إرادتهما

(١) فى ٤٦٠ : واستئزال له

دون وقوعهما بالفعل وتجاوفاً عن نظم الإضلال مع الهداية في سلك الإرادة لإيهامه تساويهما في تعلقهما ، وليس كذلك ، فإن المراد بالذات من ضرب المثل هو التذكير والاهتداء كما ينبىء عنه قوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وفظائره .

وأما الإضلال فهو أمر عارض مترتب على سوء اختيارهم ، وأوثر صيغة الاستقبال لإيداناً بالتجدد والاستمرار ، وقيل . وضع الفعلان موضع مصدر كأنه قيل : أراد إضلال كثير وهداية كثير وقدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظلياً يسوءهم ويفت في أعضادهم وهو السر في تخصيص هذه الفائدة بالذكر وقيل هو بيان للجملتين المصدرتين بأما وتسجيل بأن العلم بكونه حقاً هدى وأن الجهل بوجه إرادته والإنكار لحسن^(١) موارده ضلال وفسوق وكثرة كل فريق إنما هي بالنظر إلى أنفسها لا بالقياس إلى مقابلهم فلا يقدح في ذلك أقلية أهل الهدى بالنسبة إلى أهل الضلال حسبما نطق به قوله تعالى : وقليل من عبادى الشكور . ونحو ذلك واعتبار كثرتهم الذاتية دون قلنتهم الإضافية لتسكيل فائدة ضرب المثل وتكثيرها ويجوز أن يراد فى الأولين الكثرة من حيث العدد وفى الآخرين من حيث الفضل والشرف كما فى قول من قال :

إن السكرام كثير فى البلاد وإن قلو كما غيرهم قل وإن كثروا
وإسناد الإضلال^(٢) أى خلق الضلال إليه سبحانه مبنى على أن جميع الأشياء مخلوقة له تعالى وإن كان أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم وجعله من قبيل إسناد الفعل إلى سببه يأباه التصريح بالسبب وقرىء يضل به كثير ويهدى به كثير على البناء للمفعول وتكرير به مع جواز الاكتفاء بالأول لزيادة تقرير السببية وتأكيدها ﴿وما يضل به﴾ أى بالمثل أو بضربه ﴿إلا الفاسقين﴾ عطف على ما قبله وتكملة للجواب والرد وزيادة

تعيين لمن أريد إضلالهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له وإشارة إلى أن ذلك ليس إضللا ابتدائيا بل هو تثبيت على ما كانوا عليه من فنون الضلال وزيادة فيه وقرىء وما يضل به إلا الفاسقون على البناء للمفعول والفسق في اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها والفأرة من جحرها أى خرجت قال رؤبة :

يذهبن في نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جواررا
وفي الشريعة الخروج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التي من جملتها الإصرار على الصغيرة وله طبقات ثلاث الأولى التغابي وهو ارتكابها أحيانا مستقبحا لها والثانية الانهماك في تعاطيها والثالثة المثابرة عليها مع جحود قبحها وهذه الطبقة من مراتب الكفر فالمراتب الأولى لا يبلغها الفاسق لا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي عليه يدور الإيمان ولقوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) والمعتزلة لما ذهبوا إلى أن الإيمان عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل والكفر عن تكذيب الحق وجحوده ، ولم يتسن لهم إدخال الفاسق في أحدهما فجعلوه قسما بين قسمة المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض أحكامه . والمراد بالفاسقين ههنا العاتون الماردون في الكفر ، الخارجون عن حدوده بمن حكي عنهم ما حكي من إنكار كلام الله تعالى ، والاستهزاء به وتخصيص الإضلال بهم مترتبا على صفة الفسق وما أجرى عليهم من القبائح للإيذان بأن ذلك هو الذي أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال فإن كفرهم وعدوهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرف وجوه أنظارهم عن التدبر في حكمة المثل إلى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا فيه ما قالوا .

صفات الفاسقين

((الذين ينقضون عهد الله)) صفة للفاسقين للذم وتقرير ما هم عليه من الفسق والنقض فسخ الترتيب من المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما ، واستعماله في إبطال العهد من حيث استعارة الحبل له لما فيه من ارتباط أحد

كلامى المتعاقدين^(١) بالآخر ، فإن شفع بالحبل وأريد به العهد كان ترشيحا للمجاز ، وإن قرن بالعهد كان رمزا إلى ما هو من روادفه وتبنيها على مكانه ، وأن المذكور قد استعير له كما يقال شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس تنبيها على أنه أسد فى شجاعته وبحر فى إفاضته ، والعهد الموثق يقال عهد إليه كذا إذا وصاه به ووثقه عليه والمراد ههنا إما العهد المسأخوذ بالفعل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على وجوده (تعالى)^(٢) ووحدته وصدق رسوله عليه السلام ، وبه أول قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أو المعنى الظاهر منه أو المسأخوذ من جهة الرسل على الأمم بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره وذكروه فى السكتب المتقدمة ولم يخالفوا حكمه كما ينبى عنه قوله عز وجل (ولذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليؤمننه للناس ولا يكتُمونه) ونظائره ، وقيل عهد الله تعالى ثلاثة الأول ما أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقرأوا به وبربوبيته^(٣) والثانى ما أخذه على الأنبياء عليهم السلام بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه والثالث ما أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتُموه .

(من بعد ميثاقه) الميثاق إما اسم لما يقع به الوثيقة والإحكام ، وإما مصدر بمعنى الوثيقة كالمعاد بمعنى الوعد ، فعلى الأول إن رجع الضمير إلى العهد كان المراد بالميثاق ما وثقوه من القبول والالتزام وإن رجع إلى لفظ الجلالة يراد به آياته وكتبه وإنذار رسله عليهم السلام ، والمضاف مخذوف على الوجهين ، أى من بعد تحقق ميثاقه ، وعلى الثانى إن رجع الضمير إلى العهد والميثاق مصدر من المبني للفاعل فالمعنى من بعد أن وثقوه بالقبول والالتزام ، أو من بعد أن وثقه الله عز وجل بإنزال السكتب وإنذار الرسل ، وإن كان مصدرا من المبني للمفعول فالمعنى من بعد كونه موثقا إما بتوثيقهم إياه بالقبول وإما بتوثيقه تعالى إياه بإنزال السكتب وإنذار الرسل .

(١) فى ط : المتعاقدين (٢) سقطت من ط . (٣) فى ط : على ربوبيته .

﴿ولا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه وتعالى كقطع الرحم وعدم موالاة المؤمنين والفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب في التصديق ، وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التي هي المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ، والأمر هو القول الطالب للفعل مع العلو ، وقيل بالاستعلاء ، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور تسمية للفعول بالمصدر ، فإنه مما يؤمر به كما يقال له شأن وهو القصد والطلب لما أنه أثر للشأن ، وكذا يقال له شيء وهو مصدر شاء لما أنه أثر للشيء ، ومحل أن يوصل إما النصب على أنه بدل من الموصول أو من ضميره والثاني أولى لفظاً ومعنى .

﴿ويفسدون في الأرض﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التي عليها يدور فلك نظام العالم وصلاحه ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفاسقين باعتبار اتصافهم بما فصل من الصفات القبيحة ، وفيه إيدان بأنهم متميزون بها أكمل تميز ومنتظمون بسبب ذلك في سلك الأمور المحسوسة ، وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم في الفساد ﴿هم الخاسرون﴾ الذين خسروا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية واستبدال الإنكار والطعن في الآيات بالإيمان بها والتأمل في حقائقها والافتقار من أنوارها واشتراء النقص بالوفاء والفساد بالصلاح والقطيعة بالصلة والعقاب بالثواب .

﴿كيف تكفرون بالله﴾ التفات إلى خطاب المذكورين مبني على إيراد ما عد^(١) من قبائحهم السابقة لتزايد السخط الموحب للشفافة بالتوبيخ والتقريع والاستفهام إنكارى لا بمعنى إنكار الوقوع كما في قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) الخ بل المعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجب منه ، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الكافر

بأن يقال أنكفرون ، لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعاً فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني ، وقوله عز وجل ﴿ وكنتم أمواتا ﴾ إلى آخر الآية حال من ضمير الخطاب في تكفرون مؤكدة للإنكار والاستبعاد بما عدد فيها من الشؤون العظيمة الداعية إلى الإيمان الرادعة من الكفر من حيث كونها نعمة عامة ومن حيث دلالتها على قدرة تامة كقوله تعالى (وقد خلقكم أطوارا) وكيف منصوبة على التشبيه بالظرف عند سيويوه ، وبالحال عند الأخفش ، أى فى أى حال أو على أى حال تكفرون به تعالى ، والحال أنكم كنتم أمواتا أى أجساما لاهياة لها ، عناصر وأغذية ونظفا ومضغا مخلقة وغير مخلقة ، والأموات جمع ميت كأقوال جمع قيل ، وإطلاقها على تلك الأجسام باعتبار عدم الحياة مطلقا كما فى قوله تعالى (بلدة ميتا) وقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة) ، ﴿ فأحياءكم ﴾ بنفخ الأرواح فيكم ، والفاء للدلالة على التعقيب فإن الإحياء حاصل لإثر كونهم أمواتا وإن توارد عليهم فى تلك الحياة^(١) أطوار مترتبة بعضها مترسخ عن بعض كما أشير إليه آنفا ﴿ ثم يميتكم ﴾ أى عند انقضاء آجالكم ، وكون الإماتة من دلائل القدرة ظاهر ، وأما كونها من النعم فليكونها وسيلة إلى الحياة الثانية التى هى الحيوان والنعمة العظمى ، والتراخى المستفاد من كلمة ثم بالنسبة إلى زمان الإحياء دون زمان الحياة ، فإن زمان الإماتة غير مترسخ عنه ﴿ ثم يحييكم ﴾ بالنشور يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور ، وأيا ما كان فهو مترسخ من زمان الإماتة ، وإن كان لإثر زمان الموت المستمر ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ بعد الحشر لا إلى غيره فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر أو إليه تفشرون من قبوركم للحساب ، وهذه الأفعال وإن كان بعضها ماضيا وبعضها مستقبلا لا يتسنى مقارنة شئ منها لما هو حال منه فى الزمان ، لكن الحال فى الحقيقة هو العلم المتعلق بها كأنه قيل كيف تكفرون بالله وأنتم عالمون بهذه الأحوال المانعة

(١) فى ط : أى الحالة

منه ، ومآله التعجيب من وقوعه مع تحقق ما ينفيه ، وإنما نظم ما ينكرونه من الإحياء الأخير والرجع في سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة تنزيلاً لتمسكهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعة منزلة العلم بذلك بالفعل في إزاحة العلل والأعذار .

والحياة حقيقة في القوة الحساسة أو ما يقتضيها ، وبها سمي الحيوان حيواناً مجاز في القوة النامية لكونها من طلائعها وكذا فيما يخص الإنسان من العقل . والعلم والإيمان من حيث أنه كما لها وغايتها والموت بإزائها يطلق على ما يقابل كل مرتبة من تلك المراتب ؛ قال تعالى (قل الله يحييكم ثم يميتكم) وقال تعالى (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) وقال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) وعند وصفه تعالى بها يراد صحة انصافه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا ، أو معنى قائم بذاته تعالى مقتض لذلك ، وقرئ ترجعون بفتح الثاء والأول هو الأليق بالمقام .

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ تقرير للإنكار وتأكيده من الحثيثين المذكورين غير سبكه عن سبكه ما قبله مع اتحادهما في المقصود لإبائه لما بينهما من التفاوت ، فإن ما يتعلق بذواتهم من الإحياء والإماتة والحشر أدخل في الحث على الإيمان والكفر عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم ، وما يجري مجراها ، وفي جعل الضمير مبتدأ والموصول خبراً من الدلالة على الجلالة ما لا يخفى ، وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعا للمخاطبين وللتشويق إليه كما سلف ، أي خلق لأجلكم جميع ما في الأرض من الموجودات لتنتفعوا بها في أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة وأمور دينكم بالاستدلال بها على شئون الصانع تعالى شأنه ، والاستشهاد بكل واحد منها على ما يلائمه من لذات الآخرة وآلامها وما يعم جميع ما في الأرض لأنفسها إلا أن يراد بها جهة السفلى كما يراد بالسماء جهة العلو ، نعم يعم كل جزء من أجزائها ، فإنه من جملة ما فيها ضرورة وجود الجزء في الكل ؛ وجميعاً حال من الموصول الثاني مؤكدة لما فيه من العموم ، فإن كل فرد من

أفراد ما في الأرض بل كل جزء من أجزاء العالم له مدخل في استمراره على ما هو عليه من النظام اللائق الذى عليه يدور انتظام مصالح الناس .
أما من جهة المعاش فظاهر ، وأما من جهة الدين فلما أنه ليس في العالم شيء مما يتعلق به النظر وما لا يتعلق به إلا وهو دليل على القادر الحكيم جل جلاله كما مر في تفسير قوله تعالى (رب العالمين) وإن لم يستدل به أحد بالفعل .

(ثم استوى إلى السماء) أى قصد إليها بإرادته ومشئته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من إرادة خلق شيء آخر في تضاعيف خلقها أو غير ذلك ، مأخوذ من قولهم : استوى إليه كالسهم المرسل ، وتخصيصه بالذكر ههنا إما لعدم تحققه في خلق السفليات ، لما روى من تخلل خلق السموات بين خلق الأرض ودحوها . عن الحسن رضى الله عنه : خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان يلتزق بها ، ثم أصدد الدخان وخلق منه السموات ، وأمسك الفهر في موضعها ، وبسط منها الأرضين . وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) ولما لإظهار كمال العناية بإبداع العلويات ، وقيل : استوى : استولى وملك ، والأول هو الظاهر ، وكلمة ثم للإيدان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات لا للترأخي الزماني ، فإن تقدمه على خلق ما في الأرض المتأخر عن دحوها بما لا مزية فيه لقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) ولما روى عن الحسن ، والمراد بالسماء إما الأجرام العلوية فإن القصد إليها بالإرادة لا يستدعى سابقة الوجود ولما جهات العلو .

(فسواهن) أى أتمن وقومن وخلقهن ابتداء مصونة عن العوج والفسور لا أنه تعالى سواهن بعد أن لم يكن كذلك ولا يخفى ما في مقارنة التسوية والاستواء من حسن الموقع ، وفيه إشارة إلى ألا تغير فيهن بالنمو والذبول كما في السفليات ، والضمير على الوجه الأول للسماء لأنها^(١) في معنى الجنس ، وقيل هي جمع سماء أو سماوة ، وعلى الوجه الثاني مبهم يفسره قوله تعالى (سبع)

(١) في ط : فإنها

سموات ﴿ كما في قولهم : ربه رجلا ، وهو على الوجه الأول بدل من الضمير ، وتأخير ذكر هذا الصنع البديع عن ذكر خلق ما في الأرض مع كونه أقوى منه في الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نبه عليه لما أن المنافع المنوطة بما في الأرض أكثر ، وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر ، وإن كان في إبداع العلويات أيضا من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يحصى هذا ما قالوا ، وسيأتى في حم السجدة من يد تحقيق وتفصيل بإذن الله تعالى .

﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ اعترض تذييلي مقرر لما قبله من خلق السموات والأرض وما بينهما^(١) على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الفائقة والمصالح اللائقة ، فإن علمه عز وجل بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها بارزها وكامنها وما يليق بكل واحد منها يستدعى أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الراق ، وقرىء وهو بسكون الهاء تشبيها له بعصده .

﴿ وإذا قال ربك ﴾ بيان لأمر آخر من جنس الأمور المتقدمة المؤكدة للإنكار والاستبعاد فإن خلق آدم عليه السلام وما خصه به من الكرامات السنية المحكية من أجل النعم الداعية لذريته إلى الشكر والإيمان الناهية عن الكفر والعصيان وتقرير لمضمون ما قبله من قوله تعالى (خلق لکم ما فی الأرض جمیعاً) وتوضيح لسكيفية التصرف والانتفاع ، بما فيها وتلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبي صلى الله عليه وسلم خاصة للإيذان بأن لحوى الكلام ليس مما يهتدى لإليه بأدلة العقل كالأمور المشاهدة التي نبه عليها السكفرة بطريق الخطاب ، بل إنما طريقه الوحي الخاص به عليه السلام ، وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى السكال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من الإنباء عن تشریفه عليه السلام ما لا يخفى ، وإذا ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة أخرى مثلها ، كما أن إذا موضوع لزمان نسبة مستقبلة

(١) في ط : وما فيها .

يقع فيه أخرى مثلها ، ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل وانتصابه بمضمر صرح في قوله عز وجل (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) وقوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للبالغة في إيجاب ذكرها ، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ، ولأن الوقت مشتمل عليها ، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها ، كأنها مشاهدة عيانا ، وقيل : ليس انتصابه على المفعولية ، بل على تأويل اذكر الحادث فيه بحذف المظروف وإقامة الظرف مقامه .

وأياما كان فهو معطوف على مضمر آخر ينسحب عليه عليه الكلام كأنه قيل له عليه السلام غب ما أوحى إليه ما خوطب به الكفرة من الوحي الناطق بتفاصيل الأمور السابقة الزاجرة عن الكفر به تعالى : ذكرهم بذلك واذكر لهم هذه النعمة ليتنبهوا بذلك لبطلان ما هم عليه^(٢) وينتهوا عنه ، وأما ما قيل من أن المقدر هو اشكر النعمة في خلق السموات والارض أو تدبر ذلك فغير سديد ضرورة أن مقتضى الكلام^(٣) تذكير المخاطبين^(٤) بمواجب الشكر وتنبيههم على ما يقتضيه ، وأين ذاك من مقامه الجليل صلى الله عليه وسلم ، وقيل انتصابه بقوله تعالى قالوا ، ويأباه أنه يقتضى أن يكون هو المقصود بالذات دون سائر القصة ، وقيل بما سبق من قوله تعالى وبشر الذين آمنوا ، ولا يخفى بعده وقيل بمضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم إذ قال الخ لا ريب في أنه لا فائدة في تقييد بدء الخلق بذلك الوقت ، وقيل بخلقكم أو بأحياءكم مضمرا ، وفيه ما فيه : وقيل إذ زائدة ، ويعزى ذلك إلى أبي عبيد ومعر ، وقيل إنه بمعنى قد ، واللام في قوله عز قائلنا ﴿ للملائكة ﴾ للتبليغ وتقديم

(٢) في ط : فيه

(١) في ١١ : به

(٤) في ط : المخالين

(٣) في ط : المقام

الجار والمجرور في هذا الباب مطرد لما في المقول من الطول غالبا مع ما فيه من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر كما مر مرارا ، والملائكة جمع ملك باعتبار أصله الذي هو ملاك على أن الهمزة مزيدة كالشمال في جمع شمال ، والهاء لتأكيد تأنيث الجماعة ، واشتقاقه من ملك لما فيه من معنى الشدة والقوة ، وقيل : على أنه مقلوب من مالك ، من الألوكه وهي الرسالة أى موضع الرسالة أو مرسل على أنه مصدر بمعنى المفعول ، فإنهم وسائط بين الله تعالى وبين الناس فهم رسله عز وجل ، أو بمنزلة رسله عليهم السلام ، واختلفت العقلاء في حقيقة فهم بعد اتفاهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها .

فذهب أكثر المتكلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك عليهم السلام ، وذهب الحكماء إلى أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقية ، وأنها أكمل منها قوة وأكثر علما يجرى منها مجرى الشمس من الأضواء منقسمة إلى قسمين ، قسم شأنهم الاستعراق في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما نعمهم الله عز وجل بقوله (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وهم العليون المقربون ، وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض حسبما جرى عليه قلم القضاء والقدر وهم المدبرات أمرا ، فمنهم سماوية ومنهم أرضية ، وقالت طائفة من النصارى هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان ، ونقل في شرح كثيرتهم أنه عليه السلام قال : « أظن السماء وحق لها أن تثط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راکع ، وروى أن بنى آدم عشر الجن ، وهما عشر حيوانات البر ، والكل عشر الطيور ، والكل عشر حيوانات البحار ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا ، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ثم كل أولئك في مقابلة ملائكة الكرسي نزر قليل ، ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق واحد من سرادقات العرش التى عددها ستمائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السموات

والأرض وما فيهما وما بينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس ، وما منه من مقدار شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راکع أو قائم ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس .

ثم كل هؤلاء في مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة في البحر ، ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام لا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كفيات عباداتهم إلا بارئهم العليم الخبير على ما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

وروى أنه عليه السلام حين عرج به إلى السماء رأى ملائكة في موضع بمنزلة شرف يمشى بعضهم تجاه بعض ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام إلى أين يذهبون ؟ فقال جبريل : لا أدري إلا أنى أراهم منذ خلقت ولا أرى واحدا منهم قد رأيت قبل ذلك ، ثم سألا واحدا منهم منذ كم خلقت ؟ فقال : لا أدري غير أن الله عز وجل يخلق في كل أربعائة ألف سنة كوكبا ، وقد خلق منذ خلقتى أربعائة ألف كوكب^(١) فسبحانه من إله ما أعظم قدره وما أوسع ملكوته .

واختلف في الملائكة الذين قيل لهم ما قيل ، فقليل : هم ملائكة الأرض وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنهم المختارون مع إبليس حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجن ، حيث كانوا سكان الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء قتلهم إلا قليلا ، قد أخرجهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحار وقلل الجبال وسكنوا الأرض ، وخفف الله تعالى عنهم العبادة ، وأعطى إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة ، فكان يعبد

(١) كل تلك الأخبار لا يراد ظاهرها في العدد ؛ وإنما يراد منها بيان عظمة الخالق وعظمة الخالق سبحانه .

الله تعالى تارة في الأرض وتارة في السماء ، وأخرى في الجنة ، فأخذه العجب ، فكان من أمره ما كان ، وقال أ كثر الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم لمنهم^(١) كل كل الملائكة لعموم اللفظ وعدم التخصيص وقوله تعالى :

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ في حيز النصب على أنه مقول قال ، وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل ، ولذلك عملت عمله . وفيها ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على أنه فاعل ذلك لاحالة وهي من الجعل بمعنى التصيير المتعدى إلى مفعولين . ف قيل أولهما خليفة وثانيهما الظرف المتقدم على ما هو مقتضى الصناعة ، فإن مفعولى التصيير في الحقيقة اسم صار وخبره ، أولهما الأول ، وثانيهما الثانى ، وهما مبتدأ وخبر والأصل في الأرض خليفة ثم قيل صار في الأرض خليفة ثم مصير في الأرض خليفة فعناه بعد اللتيا والتي : إني جاعل خليفة من الخلائف أو خليفة بعينه كائننا في الأرض ، فإن خبر صار في الحقيقة هو السكون المقدر العامل في الظرف ، ولا ولا ريب في أن ذلك ليس مما يقتضيه المقام أصلا ، وإنما الذى يقتضيه هو الإخبار بجعل آدم (عليه السلام)^(٢) خليفة فيها كما يعرب عنه جواب الملائكة عليهم السلام ، فإذا قوله تعالى خليفة مفعول ثان ، والظرف متعلق بجاعل ، قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق إلى ما آخر ، أو بمحذوف وقع حالا ما بعده لكونه نكرة ، وأما المفعول الأول فمحذوف تعويلا على القرينة الدالة عليه كما في قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) حذف فيه المفعول الأول وهو ضمير الأموال لدلالة الحال عليه وكذا في قوله تعالى (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) حيث حذف فيه المفعول الأول لدلالة يبخلون عليه . أى لا يحسبن البخلاء

(١) في الأصل : في أنهم خطأ .

(٢) سقطت من ط .

بخلهم هو خير لهم ولا ريب في تحقق القرينة ههنا ، أما إن حمل على الحذف عند وقوع المحكى فهي واضحة لوقوعه في أثناء ذكره عليه السلام على ما سنفصله ، كأنه قيل : إني خالق بشرا من طين وجاعل في الأرض خليفة ، وإما إن حمل على أنه لم يحذف هناك بل قيل مثلا وجاعل إياه خليفة في الأرض . لكننه حذف عند الحكاية فالقرينة ما ذكر من جواب الملائكة عليهم السلام قال العلامة الزمخشري في تفسير قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين) : إن قلت : كيف صح أن يقول لهم بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به ؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إني خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم انتهى . فحيث جازالا كتمان عند الحكاية عن ذلك التفصيل بمجرد الاسم من غير قرينة تدل عليه فما ظنك بما نحن فيه ومعه قرينة ظاهرة ، ويحوز أن يكون من الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو خليفة ، وحال الظرف في التعلق والتقديم كما مر ، فحينئذ لا يكون ما سيأتى من كلام الملائكة مترتبا عليه بالذات بل بالواسطة ، فإنه روى أنه تعالى لما قال لهم : (إني جاعل في الأرض خليفة) قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال تعالى يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون . ويقتل بعضهم بعضا فعند ذلك قالوا ما قالوا والله تعالى أعلم .

والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه ، فعيل بمعنى الفاعل والتاء للمبالغة ، والمراد به إما آدم عليه السلام وبنوه ، وإنما اقتصر عليه استغناء بذكره عن ذكرهم كما يستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها كعصر وهاشم ومنه الخلافة في قریش وإما من يخلف أو خلف يخلف فيعمه عليه السلام وغيره من خلفاء ذريته ، والمراد بالخلافة إما الخلافة من جهته سبحانه في إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق لكن لا الحاجة به تعالى إلى ذلك بل لقصور استعداد المستخلف عليهم ، وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات فتختص بالخواص من بنييه ، وإما الخلافة عن كان في الأرض قبل ذلك فتعم حينئذ الجميع .

﴿ قالوا ﴾ استئناف وقع جوابا عما تنساق إليه الأذهان كأنه قيل : فإذا

قالت الملائكة حينئذ ، فقيل : قالوا ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ؟ وهو أيضاً من الجعل المتعدى إلى اثنين ، فقيل فيهما ما قيل في الأول ، والظاهر أن الأول كلمة من ، والثاني محذوف ثقة بما ذكر في الكلام السابق كما حذف الأول ثمة تعويلا على ما ذكر هنا قال قائلهم :

لا تخلنا على عزائك إنا طالما قد وشى بنا الأعداء

بحذف المفعول الثاني أى لا تخلنا جازعين على عزائك : والمعنى أتجعل فيها من يفسد فيها خليفة . والظرف الأول متعلق بتجعل وتقديره لما مر مرارا والثاني بيفسد وفائدته تأكيد الاستبعاد لما أن في استخلاف المفسد في محل لإفساده من البعد ما ليس في استخلافه في غيره ، هذا وقد جور كونه من الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو كلمة من ، وأنت خير بأن مدار تعجبهم ليس خلق من يفسد في الأرض ، كيف لا وإن ما يعقبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى أحقيتهم منه يقضى ببطلانه حتماً إذ لا صحة لدعوى الأحقية منه بالخلق وهم مخلوقون ، بل مداره أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها بإجراء أحكام الله تعالى وأوامره أو يستخلف مكان المطبوعين على الطاعة من من شأنه بنى نوعه الإفساد وسفك الدماء وهو عليه السلام وإن كان منزها عن ذلك إلا أن استخلافه مستتبع لاستخلاف ذريته التي لا تخلو عنه غالباً ، وإنما أظهروا تعجبهم استكشافاً عما خفى عليهم من الحكم التي بدت على تلك المفاصد وألغتها ، واستخباراً عما يزيح شبهتهم ويرشدكم إلى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التي جعلته أهلاً لذلك ، كسؤال المعلم عما ينقدح في ذهنه لا اعتراضاً على فعل الله سبحانه ولا شكاً في اشتماله على الحكمة والمصلحة إجمالاً ، ولا طعناً فيه عليه السلام ولا في ذريته على وجه الغيبة ، فإن منصبهم أجل من أن يظن بهم أمثال ذلك ، قال تعالى (بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وإنما عرفوا ما قالوا إما بإخبار من الله تعالى حسبما نقل من قبل ، أو بتلق من اللوح ، أو باستنباط عما ارتكز في عقولهم من اختصاص

الحكمة^(١) بهم ، أو بقياس لأحد الثقلين على الآخر .

﴿ ويسفك الدماء ﴾ السفك والسفح والسبك والسكب أنواع من الصب ، والأولان محتصان بالدم ، بل لا يستعمل أولهما إلا في الدم المحرم ، أى يقتل النفوس المحرمة بغير حق ، والتعبير عنه بسفك الدماء لما أنه أقبح أنواع القتل وأفظحه وقرىء يسفك بضم الفاء ، ويسفك ويسفك من أسفك وسفك ، وقرىء يسفك على البناء للمفعول وحذف الراجع إلى من موصولة أو موصوفة أى يسفك الدماء فيهم ،

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ جملة حالية مقررة للتعجب السابق ومؤكدة له على طريقة قول من يحذ في خدمة مولاه وهو يأمر بها غيره أستخدم العصاة وأنا مجتهد فيها ، كأنه قيل أستخدم من شأن ذريته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلاً ، والمقصود عرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ما هو متوقع منهم من الموانع لا العجب والتفاخر ، فكانهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التي رذيلتها الإفراتية الفساد في الأرض والقوة الغضبية التي رذيلتها الإفراتية سفك الدماء فقالوا ما قالوا وذهلوا عما إذا سخرتهما القوة العقلية ومرتبهما على الخير [فإنه] يحصل بذلك من علو الدرجة ما يقصر عن بلوغ رتبة القوة العقلية عند انفرادها في أفعالها كالإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات واستنباط الصناعات ، واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل وغير ذلك مما يبط به أمر الخلافة . والتسبيح تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقاداً وقولاً وعملًا عما لا يليق بجناحه سبحانه من سبوح في الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن ، ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وكذلك تقديسه تعالى من قدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ، ويقال قدسه أى طهره فإن مطهر الشيء مبعده عن الأقدار ، والباء في بحمدك متعلقة بمحذوف وقع حالاً من الضمير ، أى ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك

ملتبسين بحمدك على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التي من جملتها توفيقنا لهذه العبادة ، فالتسبيح لإظهار صفات الجلال والحمد لتذكير صفات الإناعام ، واللام في لك إما مزيدة والمعنى نقديك ، وإما صلة للفعل كما في سجدت لله وإما للبيان كما في سقيالك ، فتكون متعلقة بمحذوف ، أى نقديك تقديسا لك أى نصفك بما يليق بك من العلو والعزة ونزهك عما لا يليق بك ، وقيل المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجل ذلك ، كأنهم قابلو الفساد الذى أعظمه الإشرار بالتسبيح وسفك الدماء الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم بتطهير النفس عن الآثام لا تمدحا (١) بذلك ولا لإظهارا للمنة بل بيانا للواقع .

﴿ قال ﴾ استئناف كما سبق ﴿ لئى أعلم ما لا تعلمون ﴾ ليس المراد به بيان أنه تعالى يعلم ما لا يعلمون من الأشياء كأننا ما كان ، فإن ذلك بما لا شبهة لهم فيه حتى يفتقروا إلى التنبيه عليه لاسيما بطريق التوكيد ، بل بيان أن فيه عليه الصلاة والسلام معانى مستدعية لاستخلافه ، إذ هو الذى خفى عليهم وبنوا عليه ما بنوا من التعجب والاستبعاد ، فما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن تلك المعانى ، والمعنى : لئى أعلم ما لا تعلمونه من دواعى الخلافة فيه ، ولأنها لم يقتصر على بيان تحققها فيه عليه السلام بأن قيل مثلا إن فيه ما يقتضيه من غير تعرض لإحاطته تعالى وغفلتهم عنه تفخيا لشأنه وإيذا بنا بابتناء أمره تعالى على العلم الرصين والحكمة المتقنة وصدور قولهم عن الغفلة ، وقيل معناه لئى أعلم من المصالح فى استخلافه ما هو خفى عليكم ، وأن هذا إرشاد للملائكة إلى العلم بأن أفعاله تعالى كلها حسنة وحكمة وإن خفى عليهم وجه الحسن والحكمة ، وأنت خبير بأنه مشعر بكونهم غير عالمين بذلك من قبل ويكون تعجبهم مبنيا على ترددهم فى اشتغال هذا الفعل لحكمة ما ، وذلك بما لا يليق بشأنهم فإنهم عالمون بأن ذلك متضمن لحكمة ما ، ولكنهم مترددون فى أنها

(١) فى ١١ : لا قدحا

ماذا؟ هل هو أمر راجع إلى محض حكم الله عز وجل ، أو إلى فضيلة من جهة المستخلف؟ فيين سبحانه وتعالى لهم أولا على وجه الإجمال والإيهام أن فيه فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا إليها ، ثم أبرز لهم طرفا منها ليعاينوه جرة ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته وينزاح شبهتهم بالكلية .

(وعلم آدم الأسماء كلها) شروع في تفصيل ما جرى بعد الجواب الإجمالي تحقيقا لمضمونه وتفسيراً لإيهامه وهو عطف على قال ، والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مر من المقابلة المحكية إنما جرت بعد خلقه عليه السلام بمحض منه وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام ، بأن قيل لآثر نفخ الروح فيه : لئني جاعل لآياه خليفة فقيل ما قيل كما أشير إليه ، وإيراده عليه السلام باسمه العلمي لزيادة تعيين المراد بالخليفة ، ولأن ذكره بعنوان الخلافة لا يلائم مقام تهديد مبادئها ، وهو اسم أعجمي والأقرب أن وزنه فاعل كشاخ وعاذر وعابر وفالغ لا أفعل ، والتصدى لاشتقاقه من الأدمة أو الأدمة بالفتح بمعنى الأسوة ، أو من أديم الأرض بناء على ما روى عنه صلى الله عليه وسلم من : أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض مهلبها وحزنها فخلق منها آدم ، ولذلك اختلفت ألوان ذريته أو من الأدم والأدمة بمعنى الألفة تعسف كاشتقاق لإدريس من الدرس ، ويعقوب من العقب ، وإبليس من الإبلas ، والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشئ ودليلا يرفعه إلى الذهن من الألفاظ والصفات والأفعال ، واستعماله عرفا في اللفظ الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركبا مخبرا عنه أو خيرا أو رابطة بينهما ، واصطلاحا في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بالزمان والمراد ههنا إما الأول أو الثاني ، وهو مستلزم للأول ، إذ العلم بالألفاظ من حيث الدلالة على المعاني مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه ولا يحصل ذلك بمجرد إفاضة العلم ، بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته كما مر في تفسير

الهدى ، وهو السر في إثارة على الإعلام والإنباء ، فإنهما إنما يتوقفان على سماع الخبر الذي يشترك فيه البشر والملك ، وبه يظهر أحقيقته بالخلافة معهم عليهم السلام لما أن جبراتهم غير مستعدة للإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية خبراً فمعنى تعليمه تعالى إياه أن يخلق فيه إذ ذاك بموجب استعداده علماً ضرورياً تفصيلياً بأسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللاتقة بكل منها ، أو يلقي في روعه تفصيلاً أن هذا فرس ، وشأنه كيت وكيت ، وذلك بعير وحاله ذيت وذيت إلى غير ذلك من أحوال الموجودات ، فيتلقاها عليه السلام حسبما يقتضيه استعداده ويستدعيه قابليته المتفرعة على فطرته المنطوية على طبائع متباينة وقوى متخالفة وعناصر متغايرة .

قال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم: علمه أسماء جميع الأشياء حتى القصعة والقصيعة وحتى الجفنة والمحب وحتي^(١) منفعة كل شيء إلى جنسه . وقيل أسماء ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، وقيل : معنى قوله تعالى وعلم آدم الأسماء خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعداً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمنتخليات والموهومات ، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالها ، فيكون مأمراً من المقابلة قبل خلقه عليه السلام . وقيل التعليم على ظاهره ولما كان هناك جملاً مطوية عطف عليها المذكور أى فخلق ففسواه ونفخ فيه الروح وعلمه الخ^(٢) ثم عرضهم على الملائكة^(٣) الضمير للمسميات المدلول عليها بالأسماء كما في قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيباً) والتذكير لتغليب العقلاء على غيرهم وقرئ عرضهم وعرضها أى عرض مسمياتهن أو مسمياتها في الحديث : أنه تعالى عرضهم أمثال الذر ، ولعله عز وجل عرض عليهم من

(١) في ط : وأنحى .

أفراد كل نوع ما يصلح أن يكون أنموذجا يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها .

﴿ فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ تبكيتهما لهم وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة ، فإن التصرف والتدبير وإقامة المعدلة بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق مما لا يكاد يمكن والإنباء لإخبار فيه لإعلام ، ولذلك يجرى مجرى كل منهما والمراد ههنا ما خلا عنه ، وإيثاره على الإخبار للإيذان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرهما ، فإن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة من استخلفته كما ينبى عنه مقالكم ، والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الإخبار ، فإن أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماء ما فى الأرض ، وأما ما قيل من أن المعنى فى زعمكم أنى أستخلف فى الأرض مفسدين سفاكين للدماء فليس مما يقتضيه المقام ، وإن أول بأن يقال فى زعمكم أنى أستخلف من غالب أمره الإفساد وسفك الدماء من غير أن يكون له مزية من جهة أخرى ، إذ لا تعلق له بأمرهم بالإنباء . وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه .

﴿ قالوا ﴾ استئناف واقع موقع الجواب كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ ، هل خرجوا عن عهده ما كلفوه أولا ؟ فقيل : قالوا ﴿ سبحانك ﴾ قيل هو علم للتيسيح ولا يكاد يستعمل إلا مضافا وقد جاء غير مضاف على الشذوذ غير منصرف للتعريف والآلف والنون المزيدين كما فى قوله :

✽ سبحان من علقمة الفاخر ✽

وأما فى قوله :

✽ سبحانه ثم سبحانا نعود له ✽

فقل صرفه للضرورة ، وقيل إنه مصدر منكر كغفران ، لا اسم مصدر ، ومعناه على الأول نسبحك عما لا يليق بشأنك الأقدس من الأمور التي من جملتها خلو أفعالك من الحكم والمصالح وعنوا بذلك تسييحها ناشئاً عن كمال طمأنينة النفس والإيمان باشتغال استخلاف آدم عليه السلام على الحكم البالغة ، وعلى الثاني تنزهت عن ذلك ناشئاً عن ذاتك ، وأرادوا به أنهم قالوه عن إذعان لما علموا إجمالاً بأنه عليه السلام يكلف ما كلفوه ، وأنه يقدر على ما قد عجزوا عنه بما يتوقف عليه الخلافة ، وقوله عز وعلا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) اعتراف منهم بالعجز عما كلفوه ، إذ معناه لا علم لنا إلا ما علمتنا به حسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا ولا قدرة بنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادنا حتى لو كنا مستعدين لذلك لأفضته علينا ، وما في ما علمتنا موصولة حذف من صلتها عائدها أو مصدرية ، ولقد نفوا عنهم العلم بالأسماء على وجه المبالغة حتى^(١) لم يقتصروا على بيان عدمه بأن قالوا مثلاً لا علم لنا بها ، بل جعلوه من جملة ما لا يعلمونه ، وأشعروا بأن كونه من تلك الجملة غنى عن البيان (إنك أنت العليم) الذي لا يخفى عليه خافية ، وهذا إشارة إلى تحقيقهم لقوله تعالى : (إني أعلم ما لا تعلمون) (الحكيم) أي المحكم لمصنوعاته (الفاعل لها حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وهو خبر بعد خبر ، أو صفة للأول ، وأنت ضمير الفصل لا محل له من الإعراب ، أوله محل منه مشارك لما قبله كما قاله الفراء ، أو لما بعده كما قاله الكسائي ، وقيل تأكيد للكاف كما في قولك مررت بك أنت ، وقيل مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة خبر إن ، وتلك الجملة تعليل لما سبق من قصر علمهم بما علمهم الله تعالى وما يفهم من ذلك من علم آدم عليه السلام بما خفي عليهم ، فكأنهم قالوا أنت العالم بكل المعلومات التي من جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما في الأرض من أنواع المخلوقات التي عليها يدور

فلك خلافة الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ومن جملة تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالأحكام الواردة على ما في الأرض وبناء أمر الخلافة عليها .

﴿ قال ﴾ استئناف كما سبق^(١) ﴿ يا آدم أنبئهم ﴾ أى أعلمهم أوثر على أنبئنى كما وقع في أمر الملائكة مع حصول المراد معه أيضاً وهو ظهور فضل آدم عليهم ، عليهم السلام ، لإبانة لما بين الأمرين من التفاوت الجلى وإبذانا بأن علمه عليه السلام بها أمر واضح غير محتاج إلى ما يجرى مجرى الامتحان ، وأنه عليه السلام حقيق بأن يعلمها غيره وقرىء بقلب الهمزة ياء وبجذفها أيضاً والهاء مكسورة فيهما ﴿ بأسمائهم ﴾ التى عجزوا عن علمها واعترفوا بتقصيرهم عن بلوغ مرتبتها ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم ﴾ الفاء فصيحة عاطفة للجملة الشرطية على محذوف يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام ، للإيذان بتقرره وغناه عن الذكر وللإشعار بتحقيقه فى أسرع ما يكون كما فى قوله عز وجل (فلما رآه مستقراً عنده) بعد قوله سبحانه (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) وإظهار الأسماء فى موضع^(٢) الإضمار لإظهار كمال العناية بشأنها ، والإيذان بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الإجمال والمعنى فأنبأهم بأسمائهم مفصلة وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد ، فعلموا ذلك لما رأوا أنه عليه السلام لم يتلهم فى شئ من التفاصيل التى ذكرها مع مساعدة ما بين الأسماء والمسميات من المناسبات والمشكلات وغير ذلك من القرائن الموجبة لصدق مقالاته عليه السلام ، فلما أنبأهم بذلك .

﴿ قال ﴾ عز وجل تقريراً لما مر من الجواب الإجمالى واستحضاراً له

(١) فى ط : سلف

(٢) فى ط : موقع

﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ ولكن لا لتقرير نفسه كما في قوله تعالى (ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً) ونظائره بل لتقرير ما يفيد من تحقق دواعي الخلافة في آدم عليه السلام لظهور مصداقه ، وإيراد ما لا يعلمون بغنوان الغيب مضافاً إلى السموات والأرض للمبالغة في بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته ، مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم وعلم آدم عليه السلام من الأمور المتعلقة بأهل السموات وأهل الأرض ، وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون فيما سبق ما أشير إليه هناك كأنه قيل ألم أقل لكم إني أعلم فيه من دواعي الخلافة ما لا تعلمونه فيه هو هذا الذي عاينتموه ، وقوله تعالى : ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ عطف على جملة ألم أقل لكم لا على أعلم ، إذ هو غير داخل تحت القول ، وما في الموضعين موصولة حذف عاندها أي أعلم ما تبدونه وما تكتمونه ، وتغيير الأسلوب للإيذان باستمرار كتمهم ، قيل المراد بما يبدون قولهم أتجعل الخ وبما يكتمون استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم .

روى أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة وقالوا ليسكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه وقيل هو ما أسره إبليس في نفسه من الكبر وترك السجود ، فاستناد السكتان حينئذ إلى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد من بينهم ، قالوا : في الآية السكرامة دلالة على شرف الإنسان ومزية العلم وفضله على العبادة ، وأن ذلك هو المناط للخلافة ، وأن التعليم يصح إطلاقه على الله تعالى . وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترف به ، وأن اللغات توقيفية إذ الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو بعموم وتعليمها ظاهر في إلحاقها على المتعلم مبيناً له معانيها وذلك يستدعي سابقة وضع وما هو إلا من الله تعالى وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا لزم التكرار وأن علوم الملائكة وكالاتهم تقبل الزيادة والحكماء منعوا ذلك في الطبقة العليا منهم وحملوا على

ذلك قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه عليه السلام أعلم منهم وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها .

﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ عطف على الظرف الأول منصوب بما نصبه من المضمر : أو بناسب مستقل معطوف على ناصبه عطف القصة على القصة ، أى واذا كررنا قولنا لهم ، وقيل بفعل دل عليه الكلام ، أى أطاعوا وقت قولنا الخ ، وقد عرفت ما فى أمثاله ، وتخصص هذا القول بالذكر مع كون مقتضى الظاهر إirاده على منهاج ما قبله من الأقوال المحسكية المتصلة به للإيذان بأن ما فى حيزه نعمة جليلة مستقلة حقيقة بالذكر والتذكير على حيالها ، والالتفات إلى التسكيم لإظهار الجلالة وتربية المهابة مع ما فيه من تأكيد الاستقلال وكذا إظهار الملائكة فى موضع الإضمار ، والكلام فى اللام وتقديعها مع مجرورها على المفعول كما مر ، وقرئ بضم تاء الملائكة لإتباعا لضم الجيم فى قوله تعالى : (اسجدوا لآدم) كما قرئ بكسر الدال فى قوله تعالى : الحمد لله لإتباعا لكسر الكسر اللام وهى لغة ضعيفة ، والسجود فى اللغة الخضوع والنظام وفى الشرع وضع الجبهة على الأرض على قصد العبادة ، فقليل أمروا بالسجود له عليه والسلام على وجه التحية تعظيما له واعترافا بفضله وأداء الحق التعليم واعتذارا عما وقع منهم فى شأنه ، وقيل أمروا بالسجود له تعالى وإنما كان آدم قبله لسجودهم تفخيما لشأنه أو سببا لوجوبه ، فكأنه تعالى لما برأه أنموذجا للمبدعات كلها ونسخة منطوية على تعلق العالم الروحاني بالعالم الجسماني وامتزاجهما على نمط بديع أمرهم بالسجود له تعالى لما عاينوا من عظيم قدرته فاللام فيه كما فى قول حسان رضى الله عنه :

أليس أول من صلى لقبلكم وأعرف الناس بالقرآن والسنن

أو فى قوله تعالى : (أقم الصلاة لذكرك الشمس) والاول هو الأظهر ، وقوله عز وجل ﴿ فسجدوا ﴾ عطف على قلنا ، والفاء لإفادة مسارعهم إلى

الامتنال وعدم تلغثهم في ذلك ، روى عن وهب أن أول من سجد جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم سائر الملائكة عليهم السلام وقوله تعالى ﴿إلا إبليس﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه في فسجدوا ، ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنساً يتوالدون يقال لهم الجن كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو منهم ، أو لأن الجن أيضاً كانوا مأمورين بالسجود له لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم ، أو منقطع : وهو اسم أعجمي ولذلك لم ينصرف ومن جعله مشتقاً من الإبلاس وهو لباس قال إنه مشبه بالعجمة حيث لم يسم به أحد فكان كالاسم الأعجمي .

واعلم أن الذي تقتضيه هذه الآية السكرية والتي في سورة الأعراف من قوله تعالى (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) الآية ، والتي في سورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى : (وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) الآية ، أن سجود الملائكة إنما ترتب على الأمر التنجيزي الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه ألبته كما يلاحظ به حكاية امتثالهم بعبارة السجود دون الوقوع الذي به ورد الأمر التعليقي ، ولكن ما في سورة الحجر من قوله عز وجل (وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وما في سورة ص من قوله تعالى : (إذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين) إلى آخر الآية يستدعيان بظاهرهما ترتبه على ما فيهما من الأمر التعليقي من غير أن يتوسط بينهما شيء غير ما تفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه عليه السلام .

وقد روى عن وهب أنه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير وتأويل الآيات السابقة بحمل ما فيها من الأمر على حكاية الأمر التعليقي بعد تحقق

المعلق به إجمالاً ، فإنه حينئذ يكون في حكم التنجيز يأباه ما في سورة الأعراف من كلمة ثم المنادية بتأخر ورود الأمر عن التصوير المتأخر عن الخلق المتأخر عن الأمر التعليق والاعتذار بحمل التراخي على الرتبى أو التراخي في الإخبار أو بأن الأمر التعليق قبل تحقق المعلق به لما كان في عدم إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث بعد تحققه فكى على صورة التنجيز يؤدي بعد التلويح والتي إلى أن ما جرى بينه وبينهم عليهم السلام في شأن الخلافة وما قالوا فيه وما سمعوا إنما جرى بعد السجود المسبوق بمعرفة جلالة منزلته عليه السلام وخروج إبليس من بين باللعن المؤبد لعناده ، وبعد مشاهدتهم لذلك كله عياناً وهل هو إلا خرق لقضية العقل والنقل ، والالتجاء في التفصيص عنه إلى تأويل نفخ الروح بحمله على ما يعم إفاضة ما به حياة النفوس التي من جملتها تعليم الأسماء تعسف ينبي عن ضيق المجال .

فالذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظم^(١) الأنيق بعد التصفح في مستودعات الكتاب المسكون والتفحص عما فيه من السر الخزون أن سيحودهم له عليه السلام إنما ترتب على الأمر التنجيزى المتفرع على ظهور فضله عليه السلام المبني على المحاورة المسبوقة بالإخبار بخلافته المنتظم جميع ذلك في سلك ما يبط به الأمر التعليق من التسوية ونفخ الروح ، إذ ليس من قضيته وجوب السجود عقيب نفخ الروح فيه ، فإن الفاء الجزائية ليست بنص في وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيب وجود الشرط من غير تراخ للقطع بعدم وجوب السعى عقيب النداء ، لقوله تعالى : (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا) الآية وبعد وجوب إقامة الصلاة غب الاطمئنان لقوله تعالى : (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة) بل إنما الوجوب عند دخول الوقت . كيف لا والحكمة الداعية إلى ورود ما نحن فيه من الأمر التعليق لثردى أنير إنما هي حمل الملائكة عليهم السلام على التأمل في شأنه عليه السلام ليتدبروا في أحواله طراً ، ويحيطوا

(١) في الأصل : النظر

بما لديه خبراً ، ويستفهموا ما عسى يستنبههم عليهم في أمره عليه السلام لا بتثانته على حكم آية ، وأسرار خفية طويت عن علومهم ، ويقفوا على جليلة الحال قبل ورود الأمر التنجيزي وتحتم الامتثال ؛ وقد قالوا بحسب ذلك ما قالوا وعانوا ما عانوا ؛ وعدم نظم الأمر التنجيزي في سلك الأمور المذكورة في السورتين عند الحكاية لا يستلزم عدم انتظامه فيه عند وقوع المحكي كما أن عدم ذكر الأمر التعليقي عند حكاية الأمر التنجيزي في السورة السكريمة المذكورة لا يوجب عدم مسبوقيته به ، فإن حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام ليست بعزيزة في الكتاب العزيز ، وناهيك بما نقل في توجيه قوله تعالى : (بشر) مع عدم سبق معرفة الملائكة عليهم السلام بذلك وحيث صير إليه مع أنه لم يرد به نقل فما ظنك بما قد وقع التصريح به في مواضع عديدة فلعله قد ألقى إليهم ابتداء جميع ما يتوقف عليه الأمر التنجيزي إجمالاً بأن قيل مثلاً إني خالق بشر من كذا وكذا وجاعل إياه خليفة في الأرض ، فهناك ذكروا في حقه عليه السلام ما ذكروا ، فأيده الله عز وجل بتعليم الأسماء فشاهدوا منه ما شاهدوا ، فعند ذلك ورد الأمر التنجيزي اعتناء بشأن المسأور به وتعييننا لوقته ، وقد حكى بعض الأمور في بعض المواطن وبعضها في بعضها اكتفاء بما ذكر في كل موطن عما ترك في موطن آخر ، والذي يحسم مادة الاشتباه أن ما في سورة ص من قوله تعالى (إذ قال ربك للملائكة) الخ ، بدل من قوله تعالى (إذ يخضعون) فيما قبله من قوله تعالى (ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يخضعون) أي بكلامهم عند اختصامهم والمراد بالملا الأعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس حسبما أطبق عليه جمهور الأمة ، وباختصامهم ما جرى بينهم في شأن خلافة آدم عليه السلام من التقاوى الذي من جملة ما صدر عنه عليه السلام من الإنباء بالأسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور في تضاعيف ما ذكر فيه تفصيلاً من الأمر التعليقي ، وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة عليهم السلام وعناد إبليس وما تبعه من لعنه وإخراجه من

بين الملائكة ، وما جرى بعده من الأفعال والأقوال ، وإذ ليس تمام الاختصاص بعد سجود الملائكة ومكابرة إبليس المستتعبة لطرده من بينهم لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة استحالة الإنبياء بالأسماء حينئذ ، فهو إذن بعد نفخ الروح وقبل السجود حتما بأحد الطرفين والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر .

((أبى واستكبر)) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء وأنه لم يكن للتردد والتأمل^(١) والإباء الامتناع بالاختيار ، والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره ، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع ، أى امتنع عما أمر به واستكبر من أن يغظمه أو يتخذة وصلة في عبادة ربه وتقديم الإباء على الاستكبار مع كونه مسببا عنه لظهوره ووضوح أثره واقتصر في سورة ص على ذكر الاستكبار اكتفاء به ، وفي سورة الحجر على ذكر الإباء حيث قيل أبى أن يكون مع الساجدين ((وكان من الكافرين)) أى فى علم الله تعالى ، إذ كان أصله من كفره الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قوله تعالى (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فالجمله اعتراضية مقررة لما سبق من الإباء والاستكبار ، أو صار منهم باستقباح أمره تعالى لإياء بالسجود لآدم عليه السلام زعما منه أنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله (أنا خير منه) حين قيل له (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين) لا بترك الواجب وحده فالجمله معطوفة على ما قبلها ، وإيثار الواو على الفاء للدلالة على أن محض الإباء والاستكبار كفر لا أنهما سببان له كما تفيداه الفاء .

((وقلنا)) شروع فى حكاية ما جرى بينه تعالى وبين آدم عليه السلام بعد تمام ما جرى بينه تعالى وبين الملائكة وإبليس من الأقوال والأفعال ، وقد تركت حكاية توبيخ إبليس وجوابه ولعنه واستنظاره^(٢) ولا نظاره اجتزاء بما

(٢) فى ط : واستنظاره

(١) فى ط : وللتأمل

فصل في سائر السور الكريمة وهو عطف على قلنا للملائكة ولا يقدر في ذلك اختلاف وقتيهما ، فإن المراد بالزمان المدلول عليه بكلمة إذ زمان ممتد واسع للقوانين ، وقيل هو عطف على إذ قلنا بإضمار إذ ، وهذا تذكير لنعمة أخرى موجبة للشكر مانعة من الكفر وتصدير الكلام بالنداء في قوله تعالى ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ للتنبيه على الاهتمام بتلقي المأمور به ، وتخصيص أصل الخطاب به عليه السلام للإيدان بأصالته في مباشرة المأمور به ، واسكن من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار دون السكن الذي هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه واختلف في وقت خلق زوجه . فذكر السدي عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين : أن الله تعالى لما أخرج إبليس من الجنة وأسكنها آدم بقي فيها وحده وما كان معه من يستأنس به فألقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعا من جانبه الأيسر ووضع مكانه لحما وخلق حواء منه فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدة ، فسألها : ما أنت ؟ قالت : امرأة . قال : ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إلى . فقالت الملائكة تجربة لعلمه : من هذه ؟ قال : امرأة ، قالوا : لم سميت امرأة قال : لأنها من المرء أخذت ، فقالوا ما اسمها ؟ قال : حواء ، قالوا : لم سميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث الله تعالى جندا من الملائكة لحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما يحمل الملوك ولباسهما النور ، حتى أدخلوهما الجنة ، وهذا كما ترى يدل على خلقها قبل دخول الجنة والمراد بها دار الثواب ، لأنها المعهودة ، وقيل هي جنة بأرض فلسطين ، أو بين فارس وكرمان ، خلقها الله تعالى امتحانا لآدم عليه السلام وحمل الإهباط على النقل منها إلى أرض الهند كما في قوله تعالى (اهبطوا مصرا) لما أن خلقه عليه السلام كان في الأرض بلا خلاف ولم يذكر في هذه القصة رفعه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير ، لما أنه من أعظم النعم ، ولأنها لو كانت دار الخلد لما دخلها إبليس . وقيل إنها كانت في السماء السابعة ، بدليل اهبطوا ، ثم إن

الإيهاب الأول كان منها إلى السماء الدنيا ، والثاني منها إلى الأرض ، وقيل الكل ممكن ، والأدلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع .

﴿وكلا منها﴾ أى من ثمارها ، وإنما وجه الخطاب إليهما تعميماً للتشريف والترفيه ، ومبالغة في إزالة العلل والأعذار ، ولإيداننا بتساويهما في مباشرة المأمور به ، فإن حواء أسوة له عليه السلام في الأكل بخلاف السكني ، فإنها تابعة له فيه ﴿رغدا﴾ صفة للمصدر المؤكد أى أكلا واسعاً رافها ﴿حيث شئنا﴾ أى أى مكان أردتما منها ، وهذا كما ترى لإطلاق كلى حيث أيسح لهما الأكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات حتى لا يبقى لهما عذر في تناول ما منعاً منه بقوله تعالى ﴿ولا تقربا﴾ بفتح الراء من قربت الشيء بالكسر أقرب به بالفتح إذا التبست به وتعرضت له ، وقال الجوهري قرب بالضم يقرب قرباً إذا دنا ، وقربته بالكسر قرباً نادوت منه ﴿هذه الشجرة﴾ نصب على أنه بدل من اسم الإشارة ، أو نعت له بتأويلها بمشتق ، أى هذه الحاضرة من الشجرة أى لا تأكلا منها وإنما علق النهى بالقربان منها مبالغة في تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه والمراد بها الخنطة أو العنبية أو التينة وقيل هى شجرة من أكل منها أحدث ، والأولى عدم تعيينها من غير قاطع وقرىء هذى بالياء وبكسر شين الشجرة وتاء تقربا ، وقرىء الشيرة بكسر الشين وفتح الياء ﴿فتكونا من الظالمين﴾ مجزوم على أنه معطوف على تقربا أو منصوب على أنه جواب للنهى وأياما كان فالقرب أى الأكل منها سبب لكونهما من الظالمين أى الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية . أو نقصوا حظوظهم بمباشرة ما يحل بالكراهة . والنعم ، أو تعدوا حدود الله تعالى .

﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أى أصدر زلتهما أى زلتهما وحملهما على الزلة بسببها ، ونظيره عن هذه ما فى قوله تعالى (وما فعلته عن أمرى) أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما وأبعدهما عنها ، يقال زل عنى كذا إذا ذهب عنك ، ويعضده قراءة (أزلهما) وهما متقاربان فى المعنى . فإن الإزال أى الإزلاق يقتضى زوال

الزوال عن موضعه ألبته ، وإزاله قوله لها هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . وقوله مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، ومقاسمته لها إلى لسكان الناصحين ، وهذه الآيات مشعرة بأنه عليه السلام لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الأرض إلى حين البعث إليها .

واختلف في كيفية توصله إليهما بعد ما قيل له (أخرج منها فإنك رجيم) فقيل إنه إنما منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة عليهم السلام ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء ، وقيل قام عند الباب فتأداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة ، وقيل دخل في فم الحية فدخل معها ، وقيل أرسل بعض أتباعه فأزلهما والعلم عند الله سبحانه .

((فأخرجهما عما كانا فيه)) أى من الجنة إن كان ضمير عنها للشجرة ، والتعير عنها بذلك للإيدان بفخامتها وجلالتها وملاستهما له ، أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه أو من الكرامة والنعيم إن كان الضمير للجنة ((وقلنا اهبطوا)) الخطاب لآدم وحواء عليهما السلام بدليل قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعا) وجمع الضمير لأنهما أصل الجنس ، فكأنهما الجنس كلهم ، وقيل لها وللحية وإبليس على أنه أخرج منها ثانيا بعد ما كان يدخلها للوسوسة أو يدخلها مسارقة ، وأهبط من السماء وقرىء بضم الباء ((بعضكم لبعض عدو)) حال استغنى فيها عن الواو بالضمير أى متعادين ينبغي بعضكم على بعض بتضليله أو استئفاف لا محل له من الإعراب ، وإفراد العدو إما للنظر إلى لفظ البعض وإما لأن وزانه وزان المصدر كالقول ((ولكم فى الأرض)) التى هى محل الإهباط والظرف متعلق بما تعلق به الخبر أعنى لكم من الاستقرار ((مستقر)) أى استقرار أو موضع استقرار ((ومتاع)) أى تمتع بالعيش وانتفاع به ((إلى حين)) هو حين الموت على أن المغيا تمتع كل فرد من المخاطبين ، أو القيامة ، على أنه تمتع الجنس فى ضمن بعض الأفراد والجملة كما قبلها فى كونها

حالا أى مستحقين للاستقرار والتمتع أو استئنافا .

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ أى استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها ووفق لها وقرىء بنهض آدم ورفع كلمات دلالة على أنها استقبلته بلغته وهى قوله تعالى (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية . وقيل : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى لأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال يارب ألم تخلقنى بيدك؟ قال : بلى قال يارب ألم تنفخ فى من روحك؟ قال : بلى . قال : يارب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال : بلى . قال ألم تسكنى جنتك؟ قال : بلى . قال : يارب إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة؟ قال : نعم . والفاء للدلالة على أن التوبة حصلت عقيب الأمر بالهبوط قبل تحقق المأمور به ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليه عليه السلام للتشريف والإيذان بعليته لإلقاء الكلمات المدلول عليها^(١) بتلقيها ﴿ فتاب عليه ﴾ أى رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة والفاء للدلالة على ترتبه على تلقى الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التى هى عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود إليه واكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له فى الحكم ولذلك طوى ذكر النساء فى أكثر مواضع^(٢) الكتاب والسنة ﴿ لأنه هو التواب ﴾ أى الرجاء على عباده بالمغفرة أو الذى يكثّر لعانتهم على التوبة وأصل التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعاً عن المعصية ، وإذا وصف به البارى عز وجل أريد به الرجوع عن العقاب إلى المغفرة ﴿ الرحيم ﴾ المبالغ فى الرحمة وفى الجمع بين الوصفين وعد بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران والجملة تعليل لقوله تعالى فتاب عليه .

﴿ قلنا ﴾ استئنافاً مبنى على سؤال ينسحب عليه الكلام ، كأنه قيل : فإذا وقع بعد قبول توبته فقبل : قلنا ﴿ اهبطوا منها جميعاً ﴾ كرر الأمر بالهبوط إيذاناً بتحتم مقتضاه وتحقيقه لا محالة . ودفعاً لما عسى يقع فى أمنيته عليه

السلام في استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك ، ولإظهار النوع رافة به عليه السلام لما بين الأمرين من الفرق الغير ، كيف لا والأول مشوب بضرب سخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لا يخلدون فيها . والثاني مقرون بوعد إيتاء الهدى المؤدى إلى النجاة والنجاح ، وأما ما فيه من وعيد العقاب فليس بمقصود من التكليف قصدا أوليا ، بل إنما هو دائر على سوء اختيار المكلفين قيل وفيه تنبيه على أن الحازم يكفيه في الردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين ، فكيف بالمقترن بهما فتأمل ، وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، والثاني منها إلى الأرض ، وبإياه التعرض لاستقرارهم في الأرض في الأول ، ورجوع الضمير إلى الجنة في الثاني وجميعاً حال في اللفظ وتأكيده في المعنى ، كأنه قيل اهبطوا أنتم أجمعون ولذلك لا يستدعى الاجتماع على الهبوط في زمان واحد كما في قولك جاموا جميعاً ، بخلاف قولك جاءوا معاً .

﴿ فإما يأتينكم من هدى ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم من الأمر به وإما مركبة من أن الشرطية وما المزيادة المؤكدة لمعناها والفعل في محل الجزم بالشرط ، لأنه مبنى لاتصاله بنون التأكيد ، وقيل معرب مطلقا ، وقيل مبنى مطلقا ، والصحيح التفصيل . إن باشرته النون بنى وإلا أعرب ، نحو هل يقومان ، وتقديم الظرف على الفاعل لما مر غير مرة ، والمعنى أن يأتينكم منى هدى برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم ، وجواب الشرط قوله تعالى ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ كما في قولك إن جئتني فإن قدرت أحسنت إليك ، وإيراد كلمة الشك مع تحقق الإتيان لا محالة للإيدان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب ، بل يكفي في وجوبه إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والأنفسية ، والتمكين من النظر والاستدلال ، أو للجرى على سنن العظماء في إيراد عسى ولعل في مواقع القطع والجزم والمعنى أن من تبع هداى منكم فلا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك ؛ لا (١١) — أبو السعود — أول

أنه يعترفهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعترفهم نفس الخوف والحزن أصلا بل يستمرون على السرور والنشاط ، كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعي في إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما تقرر في موضعه أن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ، وإظهار الهدى مضافا إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيده وجوب اتباعه أو لأن المراد بالثاني ما هو أعم من الهدايات التشريعية وما ذكر من إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والآنفسية كما قيل ، وقرئ هدى على لغة هذيل ولا خوف بالفتح ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ عطف على من تبسع إلخ قسم له كأنه قيل ومن لم يتبعه ، وإنما أوثر عليه ما ذكر تفضيلا لحال الضلالة وإظهارا لكمال قبورها ، وإيراد الموصول بصيغة الجمع للإشعار بكثرة الكفرة ، والجمع بين الكفر والتكذيب للإيذان بتنوع الهدى إلى ما ذكر من النوعين ، وإيراد نون العظمة لتربية المهابة وإدخال الروعة وإضافة الآيات إليها لإظهار كمال قبس التكذيب بها ، أى والذين كفروا برسولنا المرسل إليهم وكذبوا بآياتنا المنزلة عليهم ، وقيل المعنى كفروا بالله وكذبوا بآياته التي أنزلها على الأنبياء عليهم السلام ، أو أظهرها بأيديهم من المعجزات ، وقيل كفروا بالآيات جنانا وكذبوا بها لسانا فيكون كلا الفعلين متوجها إلى الجار والمجرور والآية في الأصل العلامة الظاهرة قال النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

ويقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى وعلمه وقدرته ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل لأنها علامة لانفصال ما قبلها عما بعدها ، وقيل ، لأنها تجمع كلمات منه فيكون من قولهم خرج بنو فلان بآيتهم أى بجماعتهم قال :

خرجنا من البيت لا حى مثلنا بآيتنا نرجى النعاج المطافلا

واشتقاقها من أى لأنها تبين أيا من أى ، أو من أوى إليه أى رجع وأصلها
أوية أو أية ، فأبدلت عينها ألفا على غير قياس أو أوية أو أية كرمكة ،
فأعلت أو آية كقائلة ، فحذفت الهمزة تخفيفا ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصوف
باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وفيه إشعار بتمييزهم
بذلك الوصف تميزا مصححا للإشارة الحسية وما فيه من معنى البعد للإيدان
ببعد منزلتهم فيه وهو مبتدأ وقوله عز وجل : ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملازموها
وملازموها بحيث لا يفارقونها خبره ، والجملة خبر للموصول أو اسم الإشارة
بدل من الموصول ، أو عطف بيان له ، وأصحاب النار خبر له وقوله تعالى :
﴿ هم فيها خالدون ﴾ فى حيز النصب على الحالية لورود التصريح به فى
قوله تعالى : ﴿ أصحاب النار خالدون فيها ﴾ وقد جوز كونه حالا من النار لاشتراكه
على ضميرها والعامل معنى الإضافة أو اللام المقدرة أو فى محل الرفع على أنه
خبر آخر لأولئك على رأى من جوز وقوع الجملة خبرا ثانيا ، وفيها متعلق
بخالدون والخالود فى الأصل المكث الطويل وقد انعقد الإجماع على أن
المراد به الدوام .

عناصر كفر بنى إسرائيل

﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى طائفة خاصة من الكفرة
المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم لتذكيرهم بفضول النعم العائضة عليهم بعد
توجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره بتذكير كلهم بالنعمة العامة
لبنى آدم قاطبة بقوله تعالى (وإذ قال ربك) الخ (وإذ قلنا للملائكة) الخ لأن المعنى
كما أشير إليه بلغهم كلامى وإذ ذكر لهم إذ جعلنا أباهم خليفة فى الأرض
ومسجودا للملائكة عليهم السلام وشرفناه بتعليم الأسماء وقبلنا توبته ،
والابن من البناء لأنه مبنى أبيه ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه ، فيقال
أبو الحرب وبنت فسكر ، وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه
بالعبرية صفوة الله ، وقيل عبد الله ، وقرىء إسرائيل بحذف الياء ، وإسرائيل ،

بحذفهما وإسرائيل بقلب الهمزة ياء ، واسرائل بهمزة مفتوحة ، واسرائل بهمزة مكسورة بين الراء واللام ، وتخصيص هذه الطائفة بالذكر والتذكير لما أنهم أوفر الناس نعمة وأكثهم كفرا بها .

﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ بالتفكير فيها والقيام بشكرها ، وفيه إشعار بأنهم قد نسوها بالكليّة ، ولم يخطرورها بالبال لأنهم أهملوا شكرها فقط وإضافة النعمة إلى ضمير الجلالة لتشير فيها وإيجاب تخصيص شكرها به تعالى ، وتقييد النعمة بهم لما أن الإنسان مجبول على حب النعمة ، فإذا نظر إلى مافاض عليه من النعم حمله ذلك على الرضى والشكر ، قيل أريد بها ما أنعم به على آبائهم من النعم التي سيجيء تفصيلها وعليهم من فنون النعم التي أجلها إدراك عصر النبي عليه السلام ، وقرىء اذكروا من الآفعال ونعمتي بإسكان الياء وإسقاطها في الدرج وهو مذهب من لا يحرك الياء المكسورة ما قبلها ﴿ وأوفوا بعدي ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ أوف بعهدكم ﴾ بحسن الإثابة ، والعهد يضاف إلى كل واحد من يتولى طرفيه ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول ، فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ووعدهم بالثواب على حسناتهم ، وللوفاء بهما عرض عريض ، فأول مراتبه منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة ، ومن الله تعالى حقن الدماء والأموال ، وآخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث نفغل عن أنفسنا فضلا عن غيرنا ، ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم وأما ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما : أوفوا بعدي في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم أوف بعهدكم في رفع الأصار والأغلال . وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب ، أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعم المقيم ، فبالنظر إلى الوسائط ، وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول ، والمعنى أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة ، وتفصيل.

العهدين قوله تعالى : (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) إلى قوله (ولأدخلنكم جنات) الخ وقرىء أوف بالتشديد للمبالغة والتأكيد .

((وإياي فارهبون)) فيما تأتون وما تذرون خصوصا في نقض العهد ، وهو آكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد ، لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل لمن كنتم راهبين شيئا فارهبوني ، والرهبة خوف معه تحرز ، والآية متضمنة للوعيد والوعيد ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد ، وأن المؤمن ينبغي ألا يخاف إلا الله .

((وآمنوا بما أنزلت)) أفرد الإيمان بالقرآن بالأمر به لما أنه العمدة القصوى في شأن الوفاء بالعهود ((مصدقا لما معكم)) من التوراة ، والتعبير عنها بذلك للإيدان بعلمهم بتصديقه لها ، فإن المعية مشنة لتكرار المراجعة إليها والوقوف على ما في تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكونه مصدقا لها ومعنى تصديقه للتوراة أنه نازل حسبما نعت فيها أو من حيث أنه موافق لها في القصص ، المواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش : وأما ما يترامى من مخالفته لها في بعض جزئيات الأحكام المتفاوتة بحسب تفاوت الأعصار فليست بمخالفة في الحقيقة ، بل هي موافقة لها من حيث أن كلامها حق بالإضافة إلى عصره وزمانه ، متضمن للحكم التي عليها يدور ذلك التشريع ، وليس في التوراة دلالة على أبدية أحكامها المنسوخة حتى يخالفها ما ينسخها ، وإنما تدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها ، بل نقول هي ناطقة بنسخ تلك الأحكام ، فإن نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها ، فإذا مناهج المخالفة في الأحكام المنسوخة إنما هو اختلاف العصر حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ، ولذلك قال عليه السلام : « لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي »

وتقييد المنزل بكونه مصدقا لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر فإن
إيمانهم بما معهم مما يقتضى الإيمان بما يصدقه قطعا .

﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أى لا تسارعوا إلى الكفر به ، فإن
وظيفةكم أن تكونوا أول من آمن به لما أنكم تعرفون شأنه وحقيقته بطريق
التلقى مما معكم من الكتب الإلهية كما تعرفون أبناءكم ، وقد كنتم تستفتحون
به وتبشرون بزمانه كما سيحيى ، فلا تضعوا موضع ما يتوقع منكم ويجب
عليكم ما لا يتوهم صدوره عنكم من كونكم أول كافر به ، ووقوع أول
أول كافر به خبرا من ضمير الجمع بتأويل أول فريق أو فوج ، أو بتأويل
لا يكن كل واحد منكم أول كافر به ، كقولك كسانا حلة ، ونهيم
عن التقدم في الكفر به مع أن مشركى العرب أقدم منهم لما أن المراد به
التعريض لا الدلالة على ما نطق به الظاهر ، كقولك أما أنا فلست بجاهل ،
لأن المراد نهيم عن كونهم أول كافر به من أهل الكتاب ، أو من كفر بما
عنده ، فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركى
مكة ، وأول : أفعل لا فعل له ، وقيل أصله أوأل ، من وأل إليه إذا نجما
وخلص ، فأبدلت الهمزة واوا تخفيفا غير قياسى ، أو أوأول من آل فقلبت
همزته واوا وأدغمت .

﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ أى لا تأخذوا لأنفسكم بدلا منها ﴿ثمنا قليلا﴾
من الحظوظ الدنيوية ، فإنها وإن جلت قليلة مستزلة بالنسبة إلى مافات
عنهم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان ، قيل كانت لهم رياسة في قومهم
ورسوم وعطايا يخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخثاروها
على الإيمان ، وإنما عبر عن الشراء الذى هو العمدة في عقود المعاوضة والمقصود
فيها بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة فيها وقرنت الآيات التى حقها أن يتنافس
فيها المتنافسون بالباه التى تصحب الوسائل لإيدانها بتعكيسهم حيث جعلوا ما هو
المقصد الأصلى وسيلة ، والوسيلة مقصدا .

﴿وإياي فاتقون﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادئ لما في الآية الثانية فصلت بالرهبة التي هي من مقدمات التقوى ، أو لأن الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين ، وأما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذي هو المنتهى .

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ عطف على ما قبله واللبس الخلط ، وقد يلزمه الاشتباه من المختلطين والمعنى لا تخلطوا الحق بالمنزل بالباطل الذي تخترونه وتكتبونه حتى يشبه أحدهما بالآخر ، أو لا تجعلوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذي تكتبونه في تضاعيفه ، أو تذكرونه في تأويله ﴿وتكتموا الحق﴾ مجزوم داخل تحت حكم النهي كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال ، ونهوا عن الإضلال بالتلبس على من سمع الحق والإخفاء عن لم يسمع^(١) أو منصوب بإضمار أن على أن الواو للجمع ، أى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانها ، ويعضده أنه في مصحف ابن مسعود وتكتمون أى وأنتم تكتمون أى كاتمين ، وفيه إشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق وتكرير الحق إما لأن المراد بالآخر ليس عين الأول بل هو نعت النبي صلى الله عليه وسلم الذي كتموه وكتبوا مكانه غيره كما سيحى في قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) وإما لزيادة تقبيح المنهى عنه ، إذ في التصريح باسم الحق ما ليس في ضميره .

﴿وأنتم تعلمون﴾ أى حال كونكم عالمين بأنكم لا بسون كاتمون ، أو أنتم تعلمون أنه حق أو وأنتم من أهل العلم ، وليس ليراد الحال لتقييد النهي به كما في قوله تعالى (لا تقر بوا الصلاة وأنتم سكارى) بل لزيادة تقبيح حالهم ، إذ لجاهل عسى يعذر .

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أى صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما بمعزل من كونه صلاة وزكاة أمرهم الله تعالى بفروع الإسلام بعد الأمر

(١) في ط : يسمعه

بأصوله ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أى فى جماعتهم فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة ، وعبر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الأصبط بن قريع السعدى :

لا تحقرن الضعيف عليك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ تجويد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بعد توجيهه إلى الكل والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب والبر التوسع فى الخير من البر الذى هو الفضاء الواسع يتناول جميع أصناف الخيرات ، ولذلك قيل البر ثلاثة : بر فى عبادة الله تعالى ، وبر فى مراعاة الأقارب ، وبر فى معاملة الأجانب .

﴿وتنسون أنفسكم﴾ أى تتركونها من البر كالمُنسيات عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أحبار المدينة كانوا يأمرسون سرا من نصحوه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه طمعا فى الهدايا والصلوات التى كانت تصل إليهم من أتباعهم وقيل كانوا يأمرسون بالصدقة ولا يتصدقون ، وقال السدى : لأنهم كانوا يأمرسون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية ، وقال ابن جريج : كانوا يأمرسون الناس بالصلاة والزكاة وهم يتركونها ، ومدار الإنكار والتوبيخ هى الجملة المعطوفة دون ما عطفت هى عليه .

﴿وأتمّ تتلون الكتاب﴾ تبكيت لهم وتقريع كقوله تعالى ﴿وأتمّ تعملون﴾ أى والحال أنكم تتلون التوراة الناطقة بنعوته صلى الله عليه وسلم الأمرة بالإيمان به أو بالوعد بفعل الخير والوعيد على الفساد والعناد وترك البر ومخالفة القول العمل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى أتتلونه فلا تعقلون ما فيه ، أو قبح ما تصنعون حتى تردعوا عنه ، فالإنكار متوجه إلى عدم العقل ^(١) بعد تحقق ما يوجهه فالمبالغة من حيث الكيف أو ألا تتأملون فلا تعقلون ، فالإنكار متوجه إلى

كلا الأمرين والمبالغة حينئذ من حيث السكيم ، والعقل في الأصل المنع والإمساك ، ومنه العقل الذي يشد به وظيف البعير إلى ذراعه لحبسه عن الحراك سمي به النور الروحاني الذي به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية لأنه يحبسه عن تعاطي ما يقبض ويعقله على ما يحسن ، والآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره وإن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحق الخالي عن العقل ، والمراد بها كما أشير إليه حثه على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتقيم غيرها لا تمنع الفاسق عن الوعظ يروى أنه كان عالم من العلماء مؤثر الكلام قوى التصرف في القلوب ، وكان كثيراً ما يموت من أهل مجلسه واحد أو اثنان من شدة تأثير وعظه ، وكان في بلده عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحتز عليه وتمنعه من حضور مجلس الواعظ فخضره يوماً على حين غفلة منها فوقع من أمر الله تعالى ما وقع ثم إن العجوز لقيت الواعظ يوماً في الطريق فقالت :

لتهدي الأنام ولا تهدي ألا إن ذلك لا ينفع

فيا حبر الشحد حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

فلما سمعه الواعظ شهق شهقة نخر عن فرسه مضجياً عليه فحملوه إلى بيته ففتوا في إلى رحمة الله سبحانه .

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ متصل بما قبله كأنهم لما كلفوا ما فيه مشقة من ترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجس والفرج توكلوا على الله تعالى أو بالصوم الذي هو الصبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس والتوسل بالصلاة والاتجاه إليها فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه إلى الكعبة والعكوف على العبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم بالشهادة وكف النفس عن الأطيبين حتى تجابوا إلى تحصيل المسارب وجبر المصائب روى أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمر

فزع إلى الصلاة ويجوز أن يراد بها الدعاء ﴿ولأنها﴾ أى الاستعانة بهما أو الصلاة وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واشتغالها على ضروب من الصبر كما في قوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها ﴿الكبيرة﴾ لتقبله شاقة كبقوله تعالى كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴿إلا﴾ على الخاشعين ﴿الخشوع الإخبات ومنه الخشعة للرمة المنتظمة والخضوع اللين والانقياد ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب وإنما لم تنقل عليهم لأنهم يتوقعون ما أعد لهم بمقابلتها فتتوون عليهم ولأنهم يستغفرون في مناجاة ربهم فلا يدركون ما يجرى عليهم من المشاق والمتاعب ولذلك قال عليه السلام «وقرة عيني في الصلاة، والجملة حالية أو اعتراض تذييل» الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴿أى يتوقعون لقاءه تعالى ونيل ما عنده من المثوبات والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للإيدان بغيضان لإحسانه إليهم أو يتيقنون أنهم يحشرون إليه للجزاء فيعملون على حسب ذلك رغبة ورهبة وأما الذين لا يؤقنون بالجزاء ولا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب كانت عليهم مشقة خالصة فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين فالتعرض للعنوان المذكور للإشعار بعملية الربوبية والمالكية للحكم ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود رضى الله عنه يعلمون وكأن الظن لما شابه العلم في الرجحان أطلق عليه لتضمن معنى التوقع قال :

فأرسلته مستيقن الظن أنه مخالط ما بين الشراسيف جانف

وجعل خبر إن في الموضعين اسماً للدلالة على تحقق اللقاء والرجوع وتقررهما عندهم ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ كرر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به ﴿وأنى فضلتكم﴾ عطف على نعمتى عطف الخاص على العام لسكاه أى فضلت آباءكم ﴿على العالمين﴾ أى على عالمي زمانهم بما منحتهم من العلم والإيمان والعمل الصالح وجعلتهم أنبياء وملوكاً مقسطين وهم آباؤهم الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا ﴿واتقوا يوماً﴾ أى حساب يوم أو عذاب يوم ﴿لا تجزى نفس عن

نفس شيئاً ﴿ أى لا تقضى عنها شيئاً من الحقوق فانتصاب شيئاً على المفعولية أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية وقرىء لا تجزى : أى لا تغنى عنها فيتعين النصب على المصدرية وإيراده منكرًا مع تنكير النفس للمصميم والإقنات السكلى والجملة صفة يوما والعائد منها محذوف أى لا تجزى فيه ومن لم يجوز الحذف قال اتسع فيه فحذف الجار وأجرى المجرور مجرى المفعول به ثم حذف كما حذف في قول من قال :

فما أدرى أغيرهم تناء وطول العهد أم مال أصابوا

أى أصابوه ﴿ ولا تقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أى من النفس. الثانية العاصية أو من الأولى والشفاعة من الشفع كأن المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والعدل الفدية وقيل البدل وأصله التسوية سمي به الفدية لأنها تساوى المفدى وتجزى مجزاه ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أى يمتنعون من عذاب الله عز وجل والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنسكرة الواقعة في سياق النفي من النفوس الكثيرة والتذكير لكونها عبارة عن العباد والأناسى والنصرة ههنا أخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل فإنه إما أن يكون قهرا أولا والأول النصرة ، والثانى إما أن يكون مجانا أولا ، والأول الشفاعة والثانى إما أن يكون بأداء عين ما كان عليه وهو أن يجزى عنه أو بأداء غيره وهو أن يعطى عنه عدلا وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر والجواب أنها خاصة بالكفار للآيات الواردة في الشفاعة والأحاديث المروية فيها ويؤيده أن الخطاب معهم ولردم عما كانوا عليه من اعتقاد أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ﴿ ولذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ تذكير لتفاصيل ما أجمل في قوله تعالى (نعمتى التى أنعمت عليكم) من فنون النعماء وصنوف الآلاء أى واذكروا وقت تنجيتنا لما كم أى آباءكم فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم وقرىء أنجيتكم وأصل آل أهل لأن تصغيره أهيل وخص بالإضافة إلى أولى الأخطار كالأنبياء

عليهم السلام والملوك وفرعون لقب لمن ملك العالقة ككسرى ملك الفرس وقبصر ملك الروم وخاقان ملك الترك ولعته اشتق منه تفرعن الرجل إذا عتا وتمرد وكان فرعون موسى عليه السلام مصعب بن ريان وقيل ابنه وليدا من بقايا عاد وقيل إنه كان عطارا أصفها نيا ركبته الديون فأفلس فاضطر إلى الخروج فلحق بالشام فلم يتسن له المقام به فدخل مصر فرأى في ظاهره حملا من البطيخ بدرهم ، وفي نفسه بطيخة بدرهم فقال في نفسه إن تيسر لي أداء الدين فهذا طريقه فخرج إلى السواد فاشترى حملا بدرهم فتوجه به إلى السوق فكل من لقيه من المسكسين أخذ منه بطيخة فدخل المهر ومأمعه الا بطيخة فباعها بدرهم ومضى لوجهه ورأى أهل البلد متروكين سدى لا يتعاطى أحد سياستهم وكان قد وقع بهم وباء عظيم فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لأوليائه فقال أنا أمين المقابر فلا أدعكم تدفنونه حتى تعطوني خمسة دراهم فدفعوها إليه ومضى لآخر وآخر حتى جمع في مقدار ثلاثة أشهر مالا عظيما ولم يتعرض له قط إلى أن تعرض يوما لأولياء ميت فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم فأبوا ذلك فقالوا من نصبك هذا المنصب فذهبوا به إلى فرعون فقال من أنت ومن أقامك بهذا المقام قال لم يقمى أحد وإنما فعلت ما فعلت ليحضرني أحد إلى مجلسك فأنبهك على اختلال حال قومك وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار من المال فأحضره ودفعه إلى فرعون فقال ولني أمورك ترى أمينا كافيا فولاه إياها فسار بهم سيرة حسنة فانتظمت مصالح العسكر واستقامت أحوال الرعية ولبث فيهم أمدا طويلا وتراعى أمره في العدل والصلاح فلما مات فرعون أقاموه مقامه فكان من أمره ما كان وكان فرعون يوسف ريان وكان بينهما أكثر من أربعائة سنة ﴿يسومونكم﴾ أى يبيعونكم من سامه خسفا إذا أولاه ظلما وأصله الذهاب في طلب الشيء ﴿سوء العذاب﴾ أى أفضعه وأبجه بالنسبة إلى سائرته والسوء مصدر من سوء يسوء ونصبه على المفعولية ليسومونكم والجملة حال من الضمير في نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما

جميعا لاشتمالها على ضميريهما ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ بيان ليسومونكم. ولذلك ترك العاطف بينهما وقرىء يذبحون بالتخفيف وإنما فعلوا بهم ما فعلوا لما أن فرعون رأى في المنام أو أخبره الكهنة أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فلم يرد اجتهدهم من قضاء الله عز وجل شيئا قيل قتلوا بتلك الطريقة ألف مولود وتسعين ألفا وقد أعطى الله عز وجل نفس موسى عليه السلام من القوة على التصرف ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياء ولذلك كانت معجزاته ظاهرة باهرة ﴿وفي ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من التذنيح والاستحياء أو إلى الإنجاء منه وجمع الضمير للمخاطبين فعلى الأول معنى قوله تعالى ﴿بلاء﴾ محنة وبلية وكون استحياء نساءهم أى استبقائهن على الحياة محنة مع أنه عفو وترك للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال فى الأعمال الشاقة وعلى الثانى نعمة وأصل البلاء الاختبار ولكن لما كان ذلك فى حقه سبحانه محالا وكان ما يجرى مجرى الاختبار لعباده تارة بالمحنة وأخرى بالمنحة أطلق عليهما وقيل يجوز أن يشار بذلك إلى الجملة ويراد بالبلاء القدر المشترك الشامل لهما ﴿من ربكم﴾ من جهته تعالى بتسليطهم عليهم أو بيعث موسى عليه السلام وبتوقيفه لتخليصكم منهم أو بهما معا ﴿عظيم﴾ صفة لبلاء وتنكيرهما للتفخيم ، وفى الآية الكريمة تنبيه على أن ما يصيب العبد من السراء والضراء من قبيل الاختبار فعليه الشكر فى المسار والصبر على المضار ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ بيان لسبب التنجية وتصوير لكيفيتها إثر تكبيرها وبيان عظمها وهولها وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الإنجاء من الغرق أى واذكروا إذ فلقناه بسلوككم كقوله تعالى (تنبت بالدهن) أو بسبب إنجائكم وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك وقرىء بالتشديد للتكثير لأن المسالك كانت اثنى عشر بعدد الأسباط ﴿فأنجيناكم﴾ أى من الغرق بإخراجكم إلى الساحل كما يصرح^(١) به العدول إلى صيغة الأفعال بعد إيراد التخليص من فرعون بصيغة النفعيل وكذا قوله تعالى :

﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أريد فرعون وقومه وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم وقيل شخصه كما روى أن الحسن رضى الله عنه كان يقول اللهم صل على آل محمد أى شخصه واستغنى بذكره عن ذكر قومه ﴿وأنتم تنظرون﴾ ذلك أو غرقهم وإطياق البحر عليهم أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذلة أو جشهم التى قدفها البحر إلى الساحل أو ينظر بعضهم بعضا روى أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسرى بنى إسرائيل فخرج بهم فصيحهم فرعون وجنوده وصادفهم على شاطئ البحر فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر فضر به بها فظهر فيه اثنا عشر طريقا يابسا فسلسكوها فقالوا نخاف أن يغرق بعض أصحابنا فلا نعم ففتح الله تعالى فيها كوى فتراوا وتسامعوا حتى عبروا البحر فلما وصل إليه فرعون فرآه منفلقا اقتحمه هو وجنوده فغشيهم ما غشيهم واعلم أن هذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم الجبال ونعمة عظيمة لأوائل بنى إسرائيل موجبة عليهم شكرها كذلك اقتصاصها على ما هى عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الآبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالإذعان فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أو آخرهم بتذكيرها وروايتها فيا لها من عصابة ما أعصاها وطائفة ما أطغاها ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ لما عادوا إلى مصر بعد مهلك فرعون وعد الله موسى عليه السلام أن يعطيه التوراه ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة وقيل وعد عليه السلام بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة ثم زاد عشرأ من ذى الحجة وعبر عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثين وقيل على أصلها تنزيلا لقبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وأربعين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف المضاف أى بمقام أربعين ليلة وقرىء وعدنا ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ بتسويل السامرى لها ومعبودا وثم للتراخي الرتبى ،

﴿من بعده﴾ أى من بعد مشيه إلى الميقات على حذف مضاف ﴿وأنتم ظالمون﴾
ياشرككم ووضعكم للشئ في غير موضعه وهو حال من ضمير اتخذتم
أو اعتراض تذييلي أى وأنتم قوم عادىكم الظلم ﴿ثم عفوفا عنكم﴾ حين تبتم
والعفو نحو الجريمة من عفاه درسه وقد يحىء لازما قال :

عرفت المنزل الخالى عفا من بعد أحوال
عفاه كل هتاف كثير الويل هطال

وقوله تعالى : ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعد الاتخاذ الذى هو مثناه فى
القبح للإيذان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم ﴿لعلكم تشكرون﴾
لكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿وإذ آتينا موسى
الكتاب والفرقان﴾ أى التوراة الجامعة بين كونها كتابا وحجة تفرق بين
الحق والباطل وقيل أريد بالفرقان معجزاته الفارقة بين الحق والباطل فى
الدعوى أو بين الكفر والإيمان وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام
أو النصر الذى فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى يوم الفرقان يريد به يوم
بدر ﴿لعلكم تهتدون﴾ لى تهتدوا بالتدبر فيه والعمل بما يحويه ﴿وإذ قال
موسى لقومه﴾ بيان لكيفية وقوع العفو المذكور ﴿يا قوم لأنكم ظلمتم أنفسكم
بأخذكم العجل﴾ أى معبودا ﴿فتوبوا﴾ أى فاعزموا على التوبة ﴿إلى بارئكم﴾
أى إلى من خلقكم بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت وميز بعضكم من
بعض بصور وهياكل مختلفة وأصل التركيب الخلوص عن الغير إما بطريق
التفصى كما فى برىء ومن الغواية منهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم
الذى خلقهم بلطيف حكمته بريئا من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر
الذى هو مثل فى الغباوة وأن من لم يعرف حقوق منعمه حقيق بأن تسترد
هى منه ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ تماما لتوبتكم
بالبخع أو بقطع الشهوات وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضا وقيل أمر من
لم يعبد العجل بقتل من عبده . يروى أن الرجل كان يرى قريبه فلم يقدر على

المضى لأمر الله تعالى فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون بها فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشى حتى دعا موسى وهارون عليهما السلام فكشفت السحابة ونزلت التوبة وكانت القتلى سبعين الفا والفاء الأولى للتسبب والثانية للتعقيب ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من التوب والقتل ﴿خير لكم عند بارئكم﴾ لما أنه طهرة عن الشرك ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على محذوف على أنه خطاب منه سبحانه على نهج الالتفات من التكلم الذى يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه فإن مبنى الجمع على التكلم إلى الغيبة ليكون ذريعة إلى إسناد الفعل إلى ضمير بارئكم المستتبع للايذان بعملية عنوان البارئية والخلق والإحياء لقبول التوبة التى هى عبارة عن العفو عن القتل تقديره فعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم وإنما لم يقل فتاب عليهم على أن الضمير للقوم لما أن ذلك نعمة أريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم هذا وقد جوز أن يكون فتاب عليكم متعلقا بمحذوف على أنه من كلام موسى عليه السلام لقومه تقديره إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ولا يخفى أنه بمعزل من اللياقة بجلالة شأن التنزيل كيف لا وهو حينئذ حكاية لوعده موسى عليه السلام قومه بقبول التوبة منه تعالى لا لقبوله تعالى حتما وقد عرفت أن الآية الكريمة تفصيل لسكيفية القبول المحكى فيما قبل وأن المراد تذكير المخاطبين بملك النعمة .

﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ تعليل لما قبله أى الذى يكسر توفيق المذنبين للتوبة ويبالغ فى قبولها منهم وفى الإنعام عليهم ﴿وإذ قلتم يا موسى لنؤمن لك﴾ تذكير لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدر عنهم ما صدر من الجناية العظيمة التى هى اتخاذ العجل أى لنؤمن لأجل قولك ودعوتك أو لن نقر لك والمؤمن به إعطاء الله إياه التوراة أو تكليمه إياه أو أنه نبي أو أنه تعالى جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أى عيانا وهى فى الأصل مصدر قولك جهرت بالقراءة استعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف إلا أن الأول فى المسموعات والثانى فى المبصرات

ونصبها على المصدرية لأنها نوع من الرؤية أو حال من الفاعل أو المفعول. وقرىء بفتح الهاء على أنها مصدر كالغلبة أو جمع كالكتابة فيكون حالا من الفاعل لا غير والقائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل ، روى أنهم لما ندموا على ما فعلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين أمر الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رجلا ويحضر معهم الطور يظهر فيه تلك التوبة فلما خرجوا إلى الطور وقع عليه عمود من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه ، وكان كلما كلمه تعالى أوقع على جبهته نورا ساطعا لا يستطيع أحد من السبعين النظر إليه وسمعوا كلامه تعالى مع موسى عليه السلام افعل ولا تفعل فعند ذلك طمعوا في الرؤية فقالوا ما قالوا كما سيأتى في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وقيل عشرة آلاف من قومه ﴿ فأخذتم الصاعقة ﴾ لفرط العناد والنعنت وطلب المستحيل فإنهم ظنوا أنه سبحانه وتعالى بما يشبه الأجسام وتعلق به الرؤية تعلقها بها على طريق المقابلة في الجهات والأحياز ولا ريب في استحالة لما يمكن في شأنه تعالى الرؤية المنزهة عن الكيفيات بالسكينة وذلك للمؤمنين في الآخرة وللأفراد من الأنبياء الذين بلغوا في صفاء الجوهر إلى حيث تراهم كأنهم وهم في جلايب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس في بعض الأحوال في الدنيا قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وقيل صيحة وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخرروا صعقن ميتين يوما وليلة وعن وهب أنهم لم يموتوا بل لما رأوا تلك الهيئة الهائلة أخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم وتنقض ظهورهم وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعاه به فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجمت إليهم عقولهم ومشاعرهم ولم تكن صعقة موسى عليه السلام موتاً بل غشية لقوله تعالى فلما أفاق ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ أى ما أصابكم بنفسه أو بآثاره ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ بتلك الصاعقة قيد البعث به لما أنه قد (١٢ - أبو السعود - أول)

يكون من الإغماء وقد يكون من النوم كما في قوله تعالى (ثم بعثناهم لنعلم) الخ
 ﴿لعلكم تشكرون﴾ أى نعمة البعث أو ما كفرتموه بما رأيتم من بأس
 الله تعالى .

﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أى جعلناها بحيث تلقى عليكم ظلمها وذلك أنه تعالى
 سخر لهم السحاب يسير بسيرهم وهم فى التيه يظلمهم من الشمس وينزل بالليل
 عمود من نار يسرون فى ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ﴿وانزلنا عليكم
 المن والسلوى﴾ أى الترنجيم والسمانى وقيل كان ينزل عليهم المن مثل الشلج من
 الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبج الرجل
 منه ما يكفيه ﴿كلوا﴾ على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا ﴿من
 طيبات ما رزقناكم﴾ من مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن
 المن والسلوى ﴿وما ظلمونا﴾ كلام عدل بهم عن نهج الخطاب السابق للإيدان
 باقتضاء جنائيات المخاطبين للإعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق
 المباشرة معطوف على مضمير قد حذف للإيجاز والإشعار بأنه أمر محقق غنى عن
 التصريح به أى فظلموا بأن كفروا تلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ﴿ولكن
 كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بالكفران إذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول
 للدلالة على القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب تهكم بهم والجمع بين
 صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فى الظلم واستمرارهم على الكفر
 ﴿واذ قلنا﴾ تذكير لنعمة أخرى من جنابه تعالى وكفرة أخرى لأسلافهم أى
 واذكروا وقت قولنا لأبائكم إثر ما أنقذناهم من التيه ﴿ادخلوا هذه القرية﴾
 منصوبة على الظرفية عند سيديويه وعلى المفعولية عند الأخفش وهى بيت
 المقدس وقيل أريحا ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ أى واسعا هنيئاً ونصبه
 على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين وفيه دلالة على أن المأمور به
 الدخول على وجه الإقامة والسكنى فيؤول إلى ما فى سورة الأعراف من قوله
 تعالى اسكنوا هذه القرية ﴿وادخلوا الباب﴾ أى باب القرية على ما روى من
 أنهم دخلوا أريحاء فى زمن موسى عليه السلام كما سيجىء فى سورة المائدة أو

باب القبة التي كانوا يصلون إليها فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام ﴿سجدا﴾ أى متطامنين مخبتين أو ساجدين لله شكرا على إخراجهم من التيه ﴿وقولوا حطة﴾ أى مسئلتنا أو أمرك حطة وهى فعلة من الخط كالجلسة وقرىء بالنصب على الأصل بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة أو على أنها مفعول قولوا أى قولوا هذه الكلمة وقيل معناه أمرنا حطة أى أن نحط رحالنا في هذه القرية ونقيم بها ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ لما تفعلون من السجود والدعاء وقرىء بالياء والتاء على البناء للمفعول وأصل خطايا خطايء كخضايع فعند سيويه أبدلت الياء الزائدة همزة بين ألفين فأبدلت ياء وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ما ذكر ﴿وسنزيد المحسنين﴾ ثوابا جعل الامتثال توبة للمسىء وسببا لزيادة الثواب للمحسن وأخرج ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد لإيداننا بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله فكيف إذا فعله وأنه يفعله وأنه يفعله لا محالة ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ بما أمروا به من التوبة والاستغفار بأن أعرضوا عنه وأوردوا مكانه ﴿قولا﴾ آخر بما لا خير فيه روى أنهم قالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا ستمقاسا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله عز وجل ﴿غير الذى قيل لهم﴾ نعت لقولا وإنما صرح به مع استحاله تحقيق التبديل بلا مغايرة تحقيقا لمخالفتهم وتنصيحا على المغايرة من كل وجه ﴿فأنزلنا﴾ أى عقيب ذلك ﴿على الذين ظلموا﴾ بما ذكر من التبديل وإنما وضع الموصول موضع الضمير العائد إلى الموصول الأول للتعليل والمبالغة في الذم والتقرير والتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لخط الله تعالى ﴿رجزا من السماء﴾ أى عذابا مقدرا منها والتنوين للتحويل والتفخيم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ بسبب فسقهم المستمر حسبا يفيد الجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل وتعليل لإزال الرجز به بعد الإشعار بتعليله بظلمهم للإيدان بأن ذلك فسق وخروج عن الطاعة وغلو في الظلم وأن تعذيبهم بجميع ما ارتكبه من القبائح لا بعدم توبتهم فقط كما يشعر به ترتيبه على ذلك بالفاء والرجز في الأصل ما يعاف عنه وكذلك الرجز وقرىء بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون

روى أنه مات به في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً ﴿ وإذا استسقى موسى لقومه ﴾ تذكير لنعمة أخرى كفروها وكان ذلك في التيه حين استولى عليهم العطش الشديد وتغيير الترتيب لما أشير إليه مرارا من قصد إبراز كل من الأمور المعدودة في معرض أمر مستقل واجب التذكير والتذكر ولو روعي الترتيب الوقوعي لفرض أن الكل أمر واحد أمر بذكره واللام متعلقة بالفعل أى استسقى لأجل قومه ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾ روى أنه كان حجرا طوريا مكعبا حمله معه وكان ينبع من كل وجه منه ثلاث أعين تسيل كل عين في جدول إلى سبط وكانوا ستائة ألف وسعة المعسكر اثني عشر ميلا أو كان حجرا أهبطه الله تعالى مع آدم عليه السلام من الجنة ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه موسى عليه السلام مع العصا أو كان هو الحجر الذي فر بشوبه حين وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله تعالى به عما رموه به من الأدرة فأشار إليه جبريل عليه السلام أن يحمله أو كان حجرا من الحجارة وهو الأظهر في الحجة قيل لم يؤمر عليه السلام بضرب حجر بعينه ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها حمل حجرا في مخلاته وكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر ويضربه إذا ارتحل فيمبس فقالوا إن فقد موسى عصاه متناعاشا ، فأوحى الله تعالى إليه أن لا تفرح الحجر وكله يطعمك لعلمهم يعتبرون وقيل كان الحجر من رخام حجمه ذراع في ذراع والعصا عشرة أذرع على طوله عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان في الظلمة ﴿ فانفجرت ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار كأنه حصل عقيب الأمر بالضرب أى فضرب فانفجرت ﴿ منه اثنتا عشرة عينا ﴾ وأما تعلق الفاء بمحذوف أى فإن ضربت فقد انفجرت فغير حقيق بحاللة شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد وقرئ عشرة بكسر الشين وفتحها وهما أيضا لغتان ﴿ قد علم كل أناس ﴾ كل سبط ﴿ مشربهم ﴾ عنيهم الخاصة بهم ﴿ كلوا واشربوا ﴾ على إرادة القول ﴿ من رزق الله ﴾ هو ما رزقهم من المن والسوى والماء وقيل هو الماء وحده لأنه يؤكل ما ينبت به من الزروع والثمار ويأباه.

أن المأمور به أكل النعمة العتيدة لا ما سيطلبونه وإضافته إليه تعالى مع استناد السكك إليه خافاً وملكاً إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عادى وإنما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا إنا نحن الذين أنزلنا بالأمم بالكل والشرب لم يكن بطريق الخطأ بل بواسطة موسى عليه السلام ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ العثى أشد الفساد فقل لهم لا تتبادوا في الفساد حال كونكم ﴿مفسدين﴾ وقيل إنما قيد به لأن العثى في الأصل مطلق التعدى وإن غلب في الفساد وقد يكون في غير الفساد كما في مقابلة الظالم المعتدى بفعله وقد يكون فيه صلاح راجع كقتل الخضر عليه السلام للغلام وخرقه للسفينة ونظيره العيث خلا أنه غالب فيما يدرك حساً ﴿ولمذ قتلتم﴾ تذكير لجناية أخرى لأسلافهم وكفرانهم لنعمة نالته عن وجل وإخلاصهم إلى ما كانوا فيه من الدنائة والحساسة وإسناد القول المحكى إلى أخلاقهم وتوجيه التوبيخ إليهم لما بينهم من الاتحاد ﴿يا موسى إن نصبر على طعام واحد﴾ لعلمهم لم يريدوا بذلك جمع ما طلبوا مع ما كان لهم من النعمة ولا زوالها وحصول ما طلبوا مكانها إذ ياباه التعرض للوحدة بل أرادوا أن يكون هذا تارة وذاك أخرى . روى أنهم كانوا فلاحه فزعوا إلى عكرهم فأجمعوا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحيدتها النوعية وإطرادها . وتأقت أنفسهم إلى الشقاء ﴿فادع لنا ربك﴾ أى سله لأجلنا بدعائك إياه والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء والتعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادئ الإيجابية (يخرج لنا) أى يظهر لنا ويوجد والجزم لجواب الأمر ﴿مما تنبت الأرض﴾ إسناد مجازى بإقامه القابل مقام الفاعل ومن تبعيضية والتي في قوله تعالى ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ بيانية واقعة موقع الحال أى كأننا من بقلها الخ وقيل بدل بإعادة الجار والبقول ما تنبت الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التى تؤكل كالنعناع والكرفس والكرات وأشباهها والفوم الحنطة وقيل الثوم . وقرئ قثائها بضم القاف وهو لغة فيه ﴿قال﴾ أى الله تعالى أو موسى عليه السلام إنكاراً عليهم وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل فماذا يقال لهم فقل قال ﴿أستبدلون﴾ أى أتأخذون لأنفسكم ويختارون .

﴿الذى هو أدنى﴾ أى أقرب منزلة وأدون قدرا سهل المنال وهين الحصول لعدم كونه مرغوبا فيه وكونه تافها مرذولا قليل القيمة وأصل الدنو القرب. في المسكان فاستعير للخسفة كما استعير البعد للشرف والرفعة فقليل بعيد المحل. وبعيد الهمة وقرىء أدنا من الدناءة وقد حملت المشهورة على أن ألفها مبدلة من. الهزمة ﴿بالذى هو خير﴾ أى بمقابلة ما هو خير فإن الباء تصحب الذاهب الزائل دون الآتى الحاصل كما فى التبدل والتبديل فى مثل قوله عز وجل ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ وقوله (وبدلناهم بجنتين جنيتين ذواتى أكل خبط) وليس فيه ما يدل قطعاً على أنهم أرادوا زوال المن والسلوى بالمرة وحصول ما طلبوا مكانه لتحقيق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة ﴿اهبطوا مصرأ﴾ أمروا به بيانا لدناءة مطلبهم أو إسعافا لمراهم أى انحذروا إليه من التيه يقال هبط الوادى وقرىء بضم الباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيثين وقيل أريد به العلم وإنما صرف لسكون وسطه أو لتأويله بالبلد دون المدينة ويؤيده أنه فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه غير منون ، وقيل : وأصله مصر إيم فعرّب ﴿فإن لكم ما سألتكم﴾ تعليل للأمر بالهبط أى فإن لكم فيه ما سألتكم ولعل التعبير عن الأشياء المسئولة بما الاستهجان بذكرها كأنه قيل فإنه كثير فيه مبتذل يناله كل أحد بغير مشقة ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أى جعلنا محيطتين بهم لإحاطة القبة بمن ضربت عليه أو ألصقهما بهم وجعلهما ضربة لازب لا تنفس كان عنهم مجازاة لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الخائط بطريق الاستعارة بالكناية واليهود فى غالب الأمر أذلاء مساكين إما على الحقيقة ، وإما خوف أن تضاعف جزيتهم ﴿وباءوا﴾ أى رجعوا ، ﴿بغضب﴾ عظيم وقوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكدا لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى بغضب كائن من الله تعالى أو صاروا أحقاء به من قولهم باء فلان بفلان أى صار حقيقاً بأن يقتل بمقابله ومنه قول من قال بؤ بشسع نعل كليب وأصل البوء المساواة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم ﴿بأنهم﴾

بسبب أنهم ﴿كانوا يكفرون﴾ على الاستمرار ﴿بآيات الله﴾ الباهرة التي هي المعجزات الساطعة الظاهرة على يدى موسى عليه السلام مما عد ولم يعد (ويقتلون النبيين بغير الحق) كشعيا وذكريا ويحبي عليهم السلام وفائدة التقييد مع أن قتل الأنبياء يستحيل أن يكون بحق الإيدان بأن ذلك عندهم أيضا بغير الحق إذ لم يكن أحد معتقدا بحقية قتل أحد منهم عليهم السلام وإنما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى والغلو في العصيان والاعتداء كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أى جرهم العصيان والتمادى في العدوان إلى ما ذكر من الكفر وقتل الأنبياء عليهم السلام فإن صغار الذنوب إذا دووم عليها أدت إلى كبارها كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية إلى تحرى كبارها وقيل كررت الإشارة للدلالة على أن مالحقهم كما أنه بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل والياء بمعنى مع ويجوز الإشارة إلى المتعدد بالمفرد بتأويل ما ذكر أو تقدم كما في قول رؤية بن العجاج :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

أى كان ما ذكر والذي حسن ذلك في المضمرة والمبهمة أن تثنيتهما وجمعها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذى بمعنى الذين (إن الذين آمنوا) أى بالسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وإن عبر عنها بالإيمان لاتجديهم نفعا أصلا ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعاً ﴿والذين هادوا﴾ أى تهودوا من هاد إذا دخل في اليهودية ويهود إما عربى من هاد إذا تاب سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخصوا به لما كانت توبتهم توبة هائلة ولما معرب يهوذا كأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿والنصارى﴾ جمع نصران كندامى جمع ندمان يقال رجل نصران وأمرأة نصرانة والياء فى نصرانى للمبالغة كما فى أخرى سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح

عليه السلام أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران فسموا باسمها أو نسبوا إليها والياء للنسبة وقال الخليل واحد النصارى نصرى كمهرى ومهاري ((والصابئين)) هم قوم بين النصارى والمجوس وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام وقيل هم عبدة الملائكة وقيل عبدة الكواكب فهو إن كان عربيا فمن صبا إذا خرج من دين إلى آخر وقرىء بالياء إما للتخفيف ، وإما لأنه من صبا إذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان إلى ما هم فيه أو من الحق إلى الباطل ((من آمن بالله واليوم الآخر)) أى من أحدث من هذه الطوائف إيمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق ((وعمل)) عملا ((صالحا)) حسبما يقتضيه الإيمان بما ذكر ((فلهم)) بمقابلة ذلك ((أجرهم)) الموعود لهم ((عند ربهم)) أى مالمك أمرهم ومبلغهم إلى كما لهم اللائق فمن أما في محل الرفع على الابتداء خبره جملة فلهم أجرهم والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط كما في قوله تعالى : (إن الذين فتنوا المؤمنين . . الآية) وجمع الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما أن افراد ما في الصلة باعتبار لفظه والجملة كما هي خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف أى من آمن منهم الخ ، وأما في محل النصب على البدلية من اسم إن وما عطف عليه وخبرها فلهم أجرهم وعند متعلق بما تعلق به لهم من معنى الثبوت ، وفي إضافته إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد لطف بهم وإيدان بأن أجرهم متيقن الثبوت مأمون من الفوات .

((ولاخوف عليهم)) عطف على جملة أجرهم أى لاخوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ((ولا هم يحزنون)) حين يحزن المقصرون على تضيق العمر وتقويت الثواب والمراد بيان دوام انتفاهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما مر من أن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام هذا وقد قيل المراد بالذين آمنوا المتدينون بدين الإسلام المخلصون منهم والمنافقون فحينئذ لا بد من تفسير من آمن بمن اتصف منهم بالإيمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الإطلاق سواء

كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كإيمان المخلصين أو بطريق إحدائه وإنشائه كإيمان من عداكم من المنافقين ، وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين مزيد ترغيب الباقيين في الإيمان ببيان أن تأخيرهم في الانصاف به غير مغل بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين في استحقاق الأجور وما يتبعه من الأمن الدائم ، وأما ما قيل في تفسيره من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فما لاسبيل إليه أصلا لأن مقتضى المقام هو الترغيب في دين الإسلام ، وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه فلا ملازمة له بالمقام قطعاً بل ربما يغل بمقتضاه من حيث دلالة على حقيقته في زمانه في الجملة على أن المنافقين والصائبين لا يتسنى في حقهم ما ذكر ، أما المنافقون فإن كانوا من أهل الشرك فالأمر بين ، وإن كانوا من أهل الكتاب فمن مضى منهم قبل النسخ ليسوا بمنافقين ، وأما الصابئون فليس لهم دين يجوز رعايته في وقت من الأوقات ولوسلم أنه كان لهم دين سماوى ثم خرجوا عنه فمن مضى من أهل ذلك الدين قبل خروجهم منه فليسوا بمنافقين فكيف يمكن إرجاع الضمير الرابط بين اسم إن وخبرها إليهم أو إلى المنافقين وارتكاب إرجاعه إلى مجموع الطوائف من حيث هو مجموع لا إلى كل واحدة منها قصداً إلى درج الفريق المذكور فيه ضرورة أن من كان من أهل الكتاب عاملاً بمقتضى شرعه قبل نسخه من مجموع الطوائف بحكم اشتراكه على اليهود والنصارى وإن لم يكن من المنافقين والصائبين بما يجب تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله على أن المخلصين مع اندراجهم في حين اسم إن ليس لهم في حين خبرها عين ولا أثر فتأمل وكن على الحق المبين ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ تذكر لجنائية أخرى لأسلافهم أى واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على ما في التوراة ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ عطف على قوله أخذنا أو حال أى وقد رفعنا فوقكم الطور كأنه ظلة ، روى أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكليف الشاقة كبرت عليهم فأبوا قبولها فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلمه عليهم حتى قبلوا .

﴿خذوا﴾ على إرادة القول ﴿ما آتيناكم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجهد وعزيمة
﴿واذكروا ما فيه﴾ أى أحفظوه ولا تنسوه أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب
أو اعملوا به ﴿لعلكم تتقون﴾ لئلى تتقوا المعاصى أو لتنجوا من هلاك الدارين
أو رجاء منكم أن تتنظموا فى سلك المتقين أو طلبا لذلك وقد مر تحقيقه ﴿ثم
توليت﴾ أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ﴿من بعد ذلك﴾ من بعد أخذ ذلك
الميثاق المؤكد ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بتوفيقكم للتوبة أو بمحمد صلى
الله عليه وسلم حيث يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه ﴿لكنتم من الخاسرين﴾
أى المفتونين بالانهماك فى المعاصى والخبط فى مهاوى الضلال عند الفترة وقيل
لولا فضله تعالى عليكم بالإمهال وتأخير العذاب لكنتم من الهالكين وهو
الأنسب بما بعده وكلمة لولا إما بسيطة أو مركبة من لولا الامتناعية وحرف
النفى ومعناها امتناع الشيء لوجود غيره كما أن لولا امتناعه لامتناع غيره
والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتدأ خبره محذوف وجوبا لدلالة الحال عليه
وسد الجواب مسده والتقدير لولا فضل الله حاصل وعند الكوفيين فاعل فعل
محذوف أى لولا ثبت فضل الله تعالى عليكم ﴿ولقد علمتم﴾ أى عرفتم ﴿الذين
اعتدوا منكم فى السبت﴾ روى أنهم أمروا بأن يتمحضوا يوم السبت للعبادة
ويتجردوا لها ويتركوا الصيد فاعتدى فيه أناس منهم فى زمن داود عليه السلام
فاشتغلوا بالصيد وكانوا يسكنون قرية بساحل البحر يقال لها أيلة فإذا كان
يوم السبت لم يبق فى البحر حوت إلا برز وأخرج خرطومها فإذا مضى تفرقت
حفروا حياضا وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت
فيصطادونها يوم الأحد فالمعنى وبالله لقد علمتموهم حين فعلوا من قبيل جنائياتكم
ما فعلوا فلم نعلمهم ولم تؤخر عقوبتهم بل عجلناها ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾
أى جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار على أن خاسئين
نعت لقردة وقيل حال من اسم كونوا عند من يحيز عمل كان فى الظروف
والحال وقيل من الضمير المستكن فى قردة لأنه فى معنى مسوخين وقال مجاهد
ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى

كمثل الحمار يحمل أسفارا والمراد بالأمر بيان سرعة التكوين وأنهم صاروا كذلك كما أراده عز وجل وقرىء قردة بفتح القاف وكسر الراء وخاسين بغير همز ﴿فجعلناها﴾ أى المسخة والعقوبة ﴿نكالا﴾ عبرة تشكل المعتر بها أى تمنعه وتردعه ومنه النكل للقيد ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم في زبر الأولين واشتهرت قصصهم في الآخرين أو لمعاصريهم ومن بعدهم أو لما بحضورتها من القرى وما تباعد عنها أو لأهل تلك القرية وما حوالها أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها ﴿وموعظة للمتقين﴾ من قومهم أو لكل متق سمعها ﴿ولما قال موسى لقومه﴾ توبيخ آخر لاختلاف بنى إسرائيل بتذكير بعض جنائيات صدرت عن أسلافهم أى واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لأجدادكم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ وسببه أنه كان في بنى إسرائيل شيخ موسى فقتله بنو عمه طمعا في ميراثه فطرحوه على باب المدينة ثم جاءوا يطالبون بدينه فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحى فيخبرهم بقاتله ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا هل سارعوا إلى الامتثال أو لا ؟ فقيل قالوا ﴿أتخذنا هزوا﴾ بضم الزاء وقلب الهمزة واوا وقرىء بالهمزة مع الضم والسكون أى اتجعلنا مكان هزؤ أو أهل هزؤ أو مهزوءا بنا أو الهزؤ نفسه استبعادا لما قاله واستخفافا به ﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ لأن الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جل وسفه نفى عنه عليه السلام ما توهموه من قبله على أبلغ وجه وآكده بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراه بالاستعاذة منه استفظا له واستعظاما لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه عليه السلام بها ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل فماذا قالوا بعد ذلك فقيل توجهوا إلى الامتثال وقالوا ﴿ادع لنا﴾ أى لأجلنا ﴿ربك يبين لنا ما هى﴾ ما مبتدأ وهى خبره والجملة فى حين النصب يبين أى يبين لنا جواب هذا السؤال وقد سألوا عن حالها وصفتها لما قرع أسماعهم ما لم يهودوه من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فإن ما وإن شاعت فى طلب مفهوم

الاسم والحقيقة كما في ما الشارحة والحقيقية لـكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد؟ فيقال طيب أو عالم وقيل كان حقه أن يستفهم بأى لـكنهم لما رأوا ما أمروا به على حالة مغايرة لما عليه الجنس أخرجه عن الحقيقة فجعلوه جنسا على حياله ﴿قال﴾ أى موسى عليه بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان وأتاه الوحي ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يقول إنها﴾ أى البقرة المأمور بذبحها ﴿بقرة لا فارض ولا بكر﴾ أى لا مسنة ولا فتية يقال فرضت البقرة فروضا أى أسنت من الفرض بمعنى القطع كأنها قطعت سننها وبأغت آخوها وتركيب البكر للأولية ومنه البكرة والبالا كورة ﴿عوان﴾ أى نصف لاخل ولا ضرع قال :

طوال مثل أعناق الهوادي نواعم بين أبكار وعون

﴿بين ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بين لاختصاصه بالإضافة إلى المتعدد ﴿فافعلوا﴾ أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به ﴿ما تؤمرون﴾ أى ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به كما في قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فإن حذف الجار قد شاع في هذا الفعل حتى لحق بالأفعال المتعدية إلى مفعولين وهذا الأمر منه عليه السلام لحثهم على الامتثال وزجرهم عن المراجعة ومع ذلك لم يقتنعوا به وقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافي والأمر المكرر فقيل قالوا ﴿أدع لنا ربك يمين لنا ما لونها﴾ حتى يتبين لنا البقرة المأمور بها ﴿قال﴾ أى موسى عليه السلام بعد المناجاة إلى الله تعالى ومجىء البيان ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ إسناد البيان في كل مرة إلى الله عز وجل لإظهار كمال المساعدة في إجابة مسؤولهم بقولهم يمين لنا وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها ولذلك يؤكد به ويقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وأحمر قاني وفي إسناده إلى اللون مع كونه من أحوال الملون للملابسته به ما لا يخفى من فضل تأكيد كأنه قيل صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما في جد جده وعن الحسن

رضى الله عنه سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى (جمالة صفر) قيل ولعل التعبير عن السواد بالصفرة لما أنها من مقدماته وإما لأن سواد الإبل يعلوه صفرة ويأباه وصفها بقوله تعالى ﴿تسر الناظرين﴾ كما يأباه وصفها بفقوع اللون والسرور لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه من السر عن على رضى الله عنه من لبس نعلا صفراء قل همه ﴿قالوا﴾ استئضاف كمنظائره ﴿ادع لنا ربك يدين لنا ما هي﴾ زيادة استكشاف عن حالها كأنهم سألوا بيان حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ما عداها بما تشاركها في الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحة في أثناء البيان ولذلك علوه بقولهم ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ يعنون أن الأوصاف المحدودة يشترك فيها كثير من البقر ولا نهتدى إلى تشخيص ما هو المأمور بها ولذلك لم يقولوا إن البقر تشابهت إيدانا بأن النعوت المحدودة ليست بمشخصة للمأمور بها بل صادقة على سائر أفراد الجنس وقرىء إن الباقر وهو اسم لجماعة البقر والباقر والبواقر ويتشابه بالياء والتاء ويشابه بطرح التاء والإدغام على التذكير والتأنيث وتشابهت مخففا ومشددا وتشبه بمعنى تشبه وتشبه بالتذكير ومتشابهة ومتشابهة ومتشبهة وفيه دلالة على أنهم ميزوها عن بعض ما عداها في الجملة وإنما بقي اشتباه بشرف الزوال كما يفجى عنه قولهم ﴿ولنا إن شاء الله لمهتدون﴾ مؤكدا بوجوه من التوكيد أى لمهتدون بما سألنا من البيان إلى المأمور بذبحها وفي الحديث لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد :

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث﴾ أى لم تذلل للكراب وسقى الحرث ولا ذلول صفة لبقرة بمعنى غير ذلول ولا الثانية لتأكيد الأولى والفعالان صفتا ذلول كأنه قيل لا ذلول مثيرة وساقية وقرىء لا ذلول بالفتح أى حيث هو كقولك مررت برجل لا بخيل ولا جبان أى أى حيث هو وقرىء تسقى من أسقى ﴿مسلمة﴾ أى سلمها الله تعالى من العيوب أو أهلها من العمل أو أخلص لها لونها من سلم له كذا إذا أخلص له ويؤيده قوله تعالى : ﴿لا شية فيها﴾ أى لالون فيها يخالف لون جلدها حتى قرنها وظلها

وهى فى الأصل مصدر وشاه وشيا وشية إذا خلط بلونه لونا آخر ﴿ قالوا ﴾ عندما سمعوا هذه النعوت ﴿ الآن جئت بالحق ﴾ أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ماعداها ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا بخلاف المرتين الأوليين فإن ما جئت به فيهما لم يكن فى التعيين بهذه المرتبة ولعلمهم كانوا قبل ذلك قد رأوها ووجدوها جامعة لجميع مافصل من الأوصاف المشروحة فى المرات الثلاث من غير مشارك لها فيما عد فى المرة الأخيرة. ولأفنى أين عرفوا اختصاص النعوت الأخيرة بها دون غيرها وقرىء الآن بالمد على الاستفهام والآن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ﴿ فذبحوها ﴾ القاء فصيحة كما فى فأنفجرت أى ففصلوا البقرة فذبحوها ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ كاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر من الحصول والجملة حال من ضمير ذبحوا أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه أو اعتراض تذييل ومآله استئصال استعصامهم واستبطاء لهم وأنهم لفرض تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط استفهامهم فيها . قيل مضى من أول الأمر إلى الامتثال أربعون سنة وقيل وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها . روى أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال اللهم إني استودعتكها لابنى حتى يكبر وكان برأ بوالديه فتوفى الشيخ وشبت العجلة فكانت من أحسن البقر وأسمنها فساوموها بالتيقن وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً لما كانت وحيدة بالصفات المذكورة وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير . واعلم أنه لا خلاف فى أن مدلول ظاهر النظم الكريم بقرة مطلقة مهمة وأن الامتثال فى آخر الأمر إنما وقع بذبح بقرة معينة حتى لو ذبحوا غيرها ما خرجوا عن عهدة الأمر لكن اختلف فى أن المراد المأمور به لئلا يثير هل هى المعينة وقد أخرج البيان عن وقت الخطاب أو المهمة ثم لحقها التغير إلى المعينة بسبب تناقلهم فى الامتثال وتمايدهم فى التعمق والاستكشاف فذهب بعضهم إلى الأول تمسكا بأن الضمان فى الأجوبة أعنى أنها بقرة إلى آخره للمعينة قطعاً ومن قضيته أن يكون فى السؤال أيضا

كذلك ولا ريب في أن السؤال إنما هو عن البقرة المأمور بذبحها فتكون هي المعينة وهو مدفوع بأنهم لما تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ظنوها معينة خارجة عما عليه الجنس من الصفات والخواص فسألوا عنها فرجعت الضمائر إلى المعينة في زعمهم واعتقادهم فعينها الله تعالى تشديدا عليهم وإن لم يكن المراد من أول الأمر هي المعينة والحق أنها كانت في أول الأمر مبهمة بحيث لو ذبحوا أية بقرة كانت لحصل الامتثال بدلالة ظاهر النظم الكريم وتكرير الأمر قبل بيان اللون وما بعده من كونها مسلمة الخ وقد قال صلى الله عليه وسلم ولو اعترضوا أذن بقرة فذبحوها لكفتمهم، وروى مثله عن رئيس المفسرين عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ثم رجع الحكم الأول منسوخا بالثاني والثاني بالثالث تشديدا عليهم لكن لا على وجه ارتفاع حكم المطلق بالسكينة وانتقاله إلى المعين بل على طريقة تقييده وتخصيصه به شيئا فشيئا كيف لا ولو لم يكن كذلك لما عدت مراجعاتهم المحكية من قبيل الجنايات بل من قبيل العبادة فإن الامتثال بالأمر بدون الوقوف على المأمور به بما لا يكاد يتسنى فتكون سؤالاتهم من باب الاهتمام بالامتثال ﴿ وإذ قتلتم نفسا ﴾ منصوب بمضمر كما مرت نظائره والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناد القتل والتدارؤ إليهم لما مر من نسبة جنايات الأسلاف إلى الأخلاف توبيخا وتقريعا وتخصيصهما بالإسناد دون ما مر من جناياتهم لظهور قبح القتل وإسناده إلى الغير أى اذكروا وقت قتلكم نفسا محرمة ﴿ فادارأتم فيها ﴾ أى تخاصمتم فى شأنها إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر أو تدافعتم بأن طرح كل واحد قتلها إلى آخر وأصله تدارأتم فأدغمت التاء فى الدال واجتلبت لها همزة الوصل ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ أى مظهر لما تكتمونه لا محالة والجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار وإنما أعمل مخرج لأنه حكاية حال ماضية ﴿ فقلنا اضربوه ﴾ عطف على فادارأتم وما بينهما اعتراض والاتفات لتربية المهابة والضمير للنفس والتذكير باعتبار أنها عبارة عن الرجل

أو بتأويل الشخص أو القتل ﴿ببعضها﴾ أى ببعض البقرة أى بعض كان وقيل بأصغريها وقيل بلسانها وقيل بفخذها اليمنى وقيل بأذنها وقيل بعجزها وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف وهذا أول القصة كما ينبىء عنه الضمير الراجع إلى البقرة كأنه قيل ولما قتلتم أنفسا فاذا رأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها وإنما غير الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقرير فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على أمره وترك المسارعة إلى الامتثال به جنابة عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحياها ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ وإنما حكى الأمر بالذبح عن موسى عليه السلام مع أنه من الله عز وجل كالأمر بالضرب لما أن جنباياتهم كانت بمراجعةهم إليه عليه السلام والافتيات على رأيه ﴿كذلك يحى الله الموتى﴾ على إرادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فضر به فحيى وقلنا كذلك يحى الخ فحذفت الفاء الفصيحة فى فحيى مع ما عطف بها وما عطف هو لدلالة كذلك على ذلك فالخطاب فى كذلك حينئذ للحاضرين عند حياة القتل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند حياة القتل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ إلى تقدير القول بل تنتهى الحكاية عند قوله تعالى ببعضها مع ما ما قدر بعده فالجملة معترضة أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحى الله الموتى يوم القيامة ﴿ويرىكم آياته﴾ ودلائله الدالة على أنه تعالى على كل شىء قدير ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء والتعبير عنه بالجمع لاشتراكه على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت وإخباره بقاتله وما يلاسه من الأمور الخارقة للعادة ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى لعلكم تكمل عقولكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها أو تعلموا على قضية عقولكم ولعل الحكمة فى اشتراط ما اشترط فى الإحياء مع ظهور كمال قدرته على إحيائه ابتداء بلا واسطة أصلا اشتماله على التقرب إلى الله تعالى وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبية على بركة التوكل

على الله تعالى والشفقة على الأولاد ونفع بر الوالدين وأن من حق الطالب أن يقدم قربة ومن حق المتقرب أن يتحرى الأنفس ويغالى بضمنه كما يروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلاثمائة دينار وأن المؤثر هو الله تعالى وإنما الأسباب أمارات لا تأثير لها وأن من رام أن يعرف أعدى عدوه الساعى فى إمامته الموت الحقيقى فطريقه أن يذبح بقره نفسه التى هى قوته الشهوية حين زال عنها شره الصبا ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذلة فى طلب الدنيا مسلمة عن دنسها لاشية لها من قبائحها بحيث يتصل أثره إلى نفسه فيحيا بها حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والجدال ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ الخطاب لمعاصرى النبى صلى الله عليه وسلم والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما فى الحجر استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثير بالعضات والقوارع التى تميمع منها الجبال وتلين بها الصخور وإيراد الفعل المفيد لحدوث القساوة مع أن قلوبهم لم تزل قاسية لما أن المراد بيان بلوغهم إلى مرتبة مخصوصة من مراتب القساوة حادثة ولما لأن الاستمرار على شيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه أمر جديد وصنع حادث وثم لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها كقوله تعالى ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ .

﴿ من بعد ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إحياء القتل أو إلى جميع ما عدد من الآيات الموجبة للين القلوب وتوجيهها نحو الحق أى من بعد سماع ذلك وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلته وعلو طبقته وتوحيد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين ، إما بتأويل الفريق أو لأن المراد مجرد الخطاب لاتعيين المخاطب كما هو المشهور ، ﴿ فهى كالحجارة ﴾ فى القساوة ، ﴿ أو أشد ﴾ منها ، ﴿ قسوة ﴾ أى هى فى القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها أو أنها مثلها أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد فحذف وأقيم المضاف إليه مقامه ويعضده القراءة بالجر عطفا على الحجارة وإيراد الجملة اسمية مع كون ما سبق فعلية للدلالة على (١٣ - أبو السعود - أول)

استمرار قساوة قلوبهم ، والفاء إما للتعليل كما في قولك اعبد ربك فالعبادة حق له وإنما لم يقل أو أقسى منها لما في التصريح بالشدة من زيادة مبالغة ودلالة ظاهرة على اشتراك القسوتين في الشدة واشتمال المفضل على زيادة ، وأو للتخيير أو للترديد بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هي أقسى من الحجارة وترك ضمير المفضل عليه للأمن من الالتباس ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة في القساوة وعدم التأثير واستحالة صدور الخير منها يعني أن الحجارة ربما تتأثر حتى كان منها ما يتفجر منه المياه العظيمة ﴿ وإن منها لما يشقق ﴾ أى يتشقق ﴿ فيخرج منه الماء ﴾ أى العيون ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ أى يتردى من الأعلى إلى الأسفل بقضية ما أودعه الله عز وجل فيها من النقل الداعى إلى المركز وهو مجاز من الانقياد لأمره تعالى والمعنى إن الحجارة ليس منها فرد إلا وهو منقاد لأمره عز وعلا آت بما خلق له من غير استعصاء وقلوبهم ليست كذلك فتكون أشد منها قسوة لا محالة واللام فى لما لام الابتداء دخلت على اسم إن لتقدم الخبر وقرىء أن على أنها مخففة من الثقيلة واللام فارقة وقرىء يهبط بالضم ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ عن متعلقة بغافل ، وما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية ، وهو وعيد شديد على ما هو عليه من قساوة القلوب وما يترتب عليها من الأعمال السيئة وقرىء بالياء على الالتفات وقوله تعالى ﴿ أفنظلمعون ﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن اليهود لئلا تعدت سيئاتهم ونعت عليهم جنائياتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده كما فى قولك أنتضرب أباك لا لإنكار الوقوع كما فى قولك أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه نظام الكلام لكن لا على قصد توجيه الإنكار إلى المعطوفين معا كما فى أفلا تبصرون على تقدير المعطوف عليه منفي أى ألا تنظرون فلا تبصرون فالمشكر كلا الأمرين بل إلى ترتيب الثانى على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر الأول مثبتا أى أنتظرون فلا تبصرون فالمشكر ترتيب الثانى على الأول مع

وجوب أن يترتب عليه نقيضه أى أسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم
فتطمعون ومآل المعنى أبعد أن علمتم تفاصيل شؤونهم المؤيسة عنهم تطمعون
﴿ أن يؤمنوا ﴾ فانهم متماثلون في شدة الشكيمة والأخلاق الذميمة ، لايتأتى
من أخلافهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم وأن مصدرية حذف عنها الجار والأصل
نفي أن يؤمنوا وهى مع ما فى حيزها فى محل النصب أو الجر على الخلاف
المعروف واللام فى لكم لتضمين معنى الاستجابة كما فى قوله عز وجل (فآمن له
الوط) أى فى إيمانهم مستجيبين لكم أو للتعليل أى فى أن يحدثوا الإيمان لأجل
دعوتكم وصلة الإيمان محذوفة لظهور أن المراد به معناد الشرعى وستقف على
ما فيه من المزية بإذن الله تعالى ﴿ وقد كان فريق منهم ﴾ الفريق اسم جمع
لا واحد له من لفظه كالرهب والقوم والجار والمجرور فى محل الرفع أى فريق
كائن منهم وقوله تعالى ﴿ يسمعون كلام الله ﴾ خبر كان وقرىء كليم الله والجملة
حالية مؤكدة للانكار حاسمة لمادة الطمع مثل أحوالهم الشنيعة المحكية
فما سلف على منهاج قوله تعالى (وهم لكم عدو) بعد قوله تعالى (أفتتخذونه وذريته
أولياء من دونى) أى والحال أن طائفة منهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما
هم قوم من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون كلامه تعالى حين كلم
موسى عليه السلام بالطور وما أمر به ونهى عنه ﴿ ثم يحرفونه ﴾ عن مواضعه
إلا لقصور فهمهم عن الإحاطة بتفاصيله على ما ينبغى لاستيلاء الدهشة والمهابة
حسبما يقتضيه مقام الكبرياء بل ﴿ من بعد ما عقلوه ﴾ أى فهموه وضبطوه
يعقلوهم ، ولم تبق لهم فى مضمونه ولا فى كونه كلام رب العزة ريبة أصلا
فلما رجعوا إلى قومهم أداه الصادقون إليهم كما سمعوا وهؤلاء قالوا سمعنا الله
تعالى يقول فى آخر كلامه: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن
شئتم فلا تفعلوا فلا بأس فتم للتراخى زمانا أو رتبة قال الفطال سمعوا كلام الله
وعقلوا مراده تعالى منه فأولوه تأويلا فاسدا وقيل هم رؤساء أسلافهم الذين
تولوا تحريف التوراة بعد ما أحاطوا بما فيها علما وقيل هم الذين غيروا نعت
النبي صلى الله عليه وسلم فى عصره وبدلوا آية الرجم ويأباه الجمع بين صيغتي

الماضي والمستقبل الدال على وقوع السماع والتحريف فيما سلف إلا أن يحمل ذلك على تقدمه على زمان نزول الآية السكريمة لا على عهده عليه الصلاة والسلام. هذا والأول هو الأنسب بالسماع والكلام إذ التوراة وإن كانت كلام الله عز وعلا لسكنها باسم الكتاب أشهر وأثر التحريف فيه أظهر ، ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فيه أظهر . ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فإن وظيفتهم التلاوة دون السماع فكان الأنسب حينئذ أن يقال يتلون كتاب الله تعالى فالمنعنى أفطمعون في أن يؤمن هؤلاء بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحال أن أسلافهم الموافقين لهم في خلال السوء كافوا يسمعون كلام الله بلا واسطة ثم يحرفونه من بعد ما علموه يقينا ولا يستجيبون له هيئات ومن ههنا ظهر ما في إثبات لكم على بالله من الفخامة والجزالة وقوله عز وجل ﴿وهم يعلمون﴾ جملة حالية من فاعل يحرفونه مفيدة لكمال قباحة حالهم مؤذنة بأن تحريفهم ذلك لم يكن بناء على نسيان ما علموه أو على الخطأ في بعض مقدماته بل كان ذلك حال كونهم عالمين مستحضرين له أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومفترون ﴿وإذا لقوا﴾ جملة مستأنفة سبقت لإثر بيان ما صدر عن أشباههم لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة عن إيمانهم من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم أو معطوفة على ما سبق من الجملة الحالية والضمير لليهود لما استوقف على سره لالمنافقينهم خاصة كما قيل تحريا لاتحاد الفاعل في فعل الشرط والجزاء حقيقة ﴿الذين آمنوا﴾ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قالوا﴾ أى اللاقون لكن لا بطريق تصدى السكل للقول حقيقة بل بمباشرة منافقيهم وسكوت الباقيين كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وهذا أدخل في تقييح حال الساكنين أولا العائدين ثانيا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلاف أحوالهم وتناقض آرائهم من إسناد القول إلى المباشرين خاصة بتقدير المضاف أى قال منافقوهم ﴿آمنوا﴾ لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بأنهم وجدوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة وعلموا أنه النبي المبشر به وإنما لم يصرح به تعويلا على شهادة التوبين

الآتى ﴿وإذا خلا بعضهم﴾ أى بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أى إذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمين ﴿إلى بعض﴾ آخر منهم وهم منافقوهم بحيث لم يبق معهم غيرهم ، وهذا نص على اشتراك الساكتين فى لقاء المؤمنين كما أشير إليه آنفاً إذ الخلو إنما يكون بعد الاشتغال ، ولأن عتابهم معلق بمحض الخلو ولولا أنهم حاضرون عند المقابلة لوجب أن يجعل سماعهم لها من تمام الشرط ، ولأن فيه زيادة تشنيع لهم على ما أتوا من السكوت ثم العتاب ﴿قالو﴾ أى الساكتون موبخين لمنافقهم على ما صنعوا ﴿أنحدثونهم﴾ يعنون المؤمنين ﴿بما فتح الله عليكم﴾ ماموصولة والعائد محذوف أى بيده لكم خاصة فى التوراة من نعت النبى صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بالفتح للايدان بأنه سر مكنون وباب مغلق لا يقف عليه أحد وتجويز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم إرامة للتصاب فى دينهم كما ذهب إليه عصاة بما لا يليق بشأن التنزيل الجليل واللام فى قوله عز وجل ﴿ليحاجوكم به﴾ متعاقبة بالتحديث دون الفتح والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ ، فإن التحديث بذلك وإن كان منكراً فى نفسه ، لكن التحديث به لأجل هذا الغرض عما لا يكاد يصدر عن العاقل أى أنحدثونهم بذلك ليحتجوا عليكم به فيسكتوكم والمحدثون به وإن لم يجرموا حول ذلك الغرض لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعا له البتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهاراً لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم .

﴿عند ربكم﴾ أى فى حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله كذا أى فى كتابه وشرعه وقيل عند ربكم يوم القيامة ورد عليه بأن الإخفاء لا يدفعه إذ هم عالمون بأنهم محجوجون يومئذ حدثوا به أو لم يحدثوا والاعتذار بأن للإزام المؤمنين إياهم وتبكيهم بأن يقولوا لهم ألم تحدثونا بما فى كتابكم فى الدنيا من حقيقة ديننا وصدق نبينا أفحش فيجوز أن يكون المحذور عندهم هذا الإلزام بإرجاع الضمير فى به إلى التحديث دون المحدث به ولا ريب فى أنه مدفوع بالإخفاء لا تساعده الآية السكريمة الآتية كما ستقف عليه بإذن الله عز وجل ﴿أفلا تعقلون﴾ من تمام التوبيخ والعتاب والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه

الكلام أى ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش أو شيئاً من الأشياء. التى من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل ابتداء أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون. بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه فالمنكر حينئذ عدم التعقل. بعد الفعل هذا وأما ما قيل من أنه خطاب من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصل بقوله تعالى (أفتطمعون) والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم فى إيمانهم. فيأباه قوله تعالى ((أو لا يعلمون)) فإنه إلى آخره تجهيل لهم من جهته تعالى فيما حكى عنهم فيكون إيراد خطاب المؤمنين فى أثنائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه على أن فى تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف وفى تعميمه للنبي أيضاً، صلى الله عليه وسلم كما فى أفتطمعون من سوء الأدب ما لا يخفى والهمزة للإنكار والتوبيخ كما قبلها والواو للعطف على مقدر ينساق إليه الذهن والضمير للمؤمنين أى أيلومونهم على التحديث المذكور مخافة المحاجة ولا يعلمون ((أن الله يعلم ما يسرون)) أى يسرونه فيما بينهم من المؤمنين أو ما يضمنونه فى قلوبهم. فيثبت الحكم فى ذلك بالطريق الأولى ((وما يعلنون)) أى يظهرونه للمؤمنين أو لأصحابهم حسبما سبق فحينئذ يظهر الله تعالى للمؤمنين ما أرادوا إخفاءه بواسطة الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتحصل المحاجة ويقع التبكيت كما وقع فى آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم فأى فائدة فى اللوم والعتاب. ومن هنا تبين أن المحذور عندهم هو المحاجة بما فتح الله عليهم وهى حاصلة فى الدارين حدثوا به أم لا، لا بالتحديث به حتى يندفع بالإخفاء وقيل الضمير للمنافقين فقط أو لهم والمؤمنين أو لأبائهم المحرفين أى يفعلون ما يفعلون. ولا يعلمون أن الله يعلم جميع ما يسرون وما يعلنون ومن جملة أسرارهم الكفر وإظهارهم الإيمان وإخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره وكتبتم أمر الله وإظهار ما أظهره افتراء وإنما قدم الأسرار على الإعلان للإيدان بافتضايحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة فى بيان شمول علمه المحيط بجميع المعلومات كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما فى الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل.

شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة ونظيره قوله عز وعلا (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) حيث قدم فيه الإخفاء على الإبداء لما ذكر من السر على عكس ما وقع في قوله تعالى (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فإن الأصل في تعلق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذا ما من شيء يعلن إلا وهو مباديه قبل ذلك مضمرة في القلب يتعلق به الإسرار غالباً فتعلق عليه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية .

﴿ومنهم أميون﴾ وقرىء بتخفيف الياء ، جمع أمى ، وهو من لا يقدر على الكتابة والقراءة واختلف في نسبته ف قيل إلى الأم بمعنى أنه شبيه بها في الجهل بالكتابة والقراءة فإنهما ليستا من شؤون النساء بل من خلال الرجال بمعنى أنه على الحالة التي ولدته أمه في الخلو عن العلم والكتابة وقيل إلى الأمة بمعنى أنه باق على سذاجتها خال عن معرفة الأشياء كقولهم عاى أى على عادة العامة روى عن عكرمة والضحاك أن المراد بهم نصارى العرب وقيل هم قوم من أهل الكتاب رفع كتبهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين وعن علي رضي الله تعالى عنه هم المجوس والحق الذي لا يحمد عنه أنهم جهلة اليهود والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبائحهم إثر بيان شنائع الطوائف السالفة وقيل هي معطوفة على الجملة الحالية فإن مضمونها مناف لرجاء الخير منهم وإن لم يكن فيه ما يحسم مادة الطمع عن إيمانهم كما في مضمون الجملة الحالية وما بعدها فإن الجهل بالكتاب في منافة الإيمان ليس بمثابة تحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه كما وقع من الفرقين الآخرين ، أى ومنهم طائفة جهلة غير قادرين على الكتابة والتلاوة .

﴿لا يعلمون الكتاب﴾ أى لا يعرفون التوراة لبطالعوها و يتحققوا ما في تضاعيفها من دلائل النبوة فيؤمنوا وحمل الكتاب على الكتابة يأباه سباق الغظم الكريم وسياقه ﴿إلا أمانى﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف جمع أمنية أصلها أمنية أفعولة من

منى بمعنى قدر أو بمعنى تلا كتمنى فى قوله ۞ تمنى كتاب الله أول ليلة ۞ فأعلنت إعلال سيد وميت ومعناها على الأول ما يقدره الإنسان فى نفسه ويتمناه وعلى الثانى ما يتلوه وعلى التقديرين فالاستثناء منقطع إذ ليس ما يتمنى وما يتلى من جنس علم الكتاب أى لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أمانى حسب ما منهم أحبارهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وغير ذلك من أمانيتهم الفارغة المستندة إلى الكتاب على زعم رؤسائهم أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر فيه وأما حمل الأمانى على الأكاذيب المختلفة على الإطلاق من غير أن يكون لها ملائسة بالكتاب فلا يساعده النظم الكريم ﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين ولما بين حال هؤلاء فى تمسكهم بحبال الأمانى واتباع الظن عقب ببيان حال الذين أوقعوهم فى تلك الورطة وبكشف كيفية إضلالهم وتعيين مرجع السكل بالآخرة ف قيل على وجه الدعاء عليهم ﴿ فويل ﴾ هو وأمثاله من ويح وويس وويب وويه وويك وعول من المصادر المنصوبة بأفعال من غير لفظها لا يجوز إظهارها البتة فإن أضيف نصب نحو ويلك ويحك وإذا فصل عن الإضافة رفع نحو ويل له ومعنى الويل شدة الشر قاله الخليل وقال الأصمعى الويل التفجع والويل الترحم وقال سيبويه ويل لمن وقع فى الهلكة ويح زجر لمن أشرف على الهلاك وقيل الويل الحزن، وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو يدينه وبينها فرق وقيل ويل فى الدعاء عليه ويح وما بعده فى الترحم عليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما الويل العذاب الأليم وعن سفيان الثورى أنه صديد أهل جهنم وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» وقال سعيد بن المسيب إنه واد فى جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حره وقال ابن بريدة جبل قبيح ودم وقيل صهر يح فى جهنم وحكى الزهراوى أنه باب من أبواب جهنم وعلى

كل حال فهو مبتدأ خبره قوله عز وعلا ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ﴾ أى المحرف
أو ما كتبوه من التأويلات الزائغة ﴿بأيديهم﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز كقولك
كتبته يميني ﴿ثم يقولون هذا﴾ أى جميعاً على الأول وبخصوصه على الثانى
(من عند الله) روى أن أحبار اليهود خافوا ذهاب ما كتبهم وزوال رياستهم
حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا فى تعويق أسافل اليهود عن
الإيمان فعمدوا إلى صفة النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة وكانت هى فيها
حسن الوجه حسن الشعر أكل العينين ربعة فغيروها وكتبوا مكانها طوال
أزرق سبط الشعر فإذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه
مخالفاً لصفته عليه السلام فيكذبونه وشم للتراخي الرتبى فإن نسبة المحرف
والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحاً أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل
﴿ليشتروا به﴾ أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثمناً﴾ هو ما أخذوه من الرشا
بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل وإنما عبر عن المشتري الذى هو المقصود
بالذات فى عقد المعاوضة بالثنى الذى هو وسيلة فيه لإيداناً بتعكيسهم حيث
جعلوا المقصود بالذات وسيلة والوسيلة مقصوداً بالذات ﴿قليلاً﴾ لا يعاب به
فإن ذلك وإن جل فى نفسه فهو أقل قليلاً عندما استوجبوا به من العذاب
الخالد ﴿فويل لهم﴾ تكرير لما سبق للتأكيد وتصريح بتعليله بما قدمت أيديهم
بعد الإشعار به فيما سلف بإيراد بعضه فى حيز الصلاة وبعضه فى معرض الغرض
والفاء للإيدان بترتبه عليه ومن فى قوله عز وجل ﴿مما كتبت أيديهم﴾ تعليلية
متعلقة بويل أو بالاسنقرار فى الخبر وما موصولة اسمية والعائد محذوف أى
كتبته أو مصدرية والأول أدخل فى الزجر عن تعاطى المحرف والثانى فى الزجر
عن التحريف ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ الكلام فيه كالذى فيما قبله والتكرير
لما مر من التأكيد والتشديد والقصد إلى التعليل بكل من الجانبين وعدم التعرض
لقولهم هذا من عند الله لما أنه من مبادئ ترويج ما كتبت أيديهم فهو داخل
فى التعليل به ﴿وقالوا﴾ بيان لبعض آخر من جنائياتهم وفصله عما قبله مشعر
بكونه من الأكاذيب التى اختلقوها ولم يكتبوها فى الكتاب ﴿لن تمسنا النار﴾

في الآخرة ﴿إلا أياما معدودة﴾ قليلة محصورة عدد أيام عبادتهم العجل أربعين يوما مدة غيبة موسى عليه السلام عنهم وحكى الأصمعي عن بعض اليهود أن عدد أيام عبادتهم العجل سبعة وروى عن ابن عباس ومجاهد أن اليهود قالوا عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما واحدا وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود زعمت أن ما وجدوا في التوراة أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم وأنهم يقطعون في كل يوم مسيرة سنة فيكملونها ﴿قل﴾ تبكيتم لهم وتوبينها ﴿أتخذتم﴾ ياسقاط الهمزة المجتلبة لوقوعها في الدرج وبإظهار الذال وقرىء بإدغامها في التاء ﴿عند الله عهدا﴾ خبرا أو وعدا بما تزعمون فإن ما تدعون لا يكون إلا بناء على وعد قوى ولذلك عبر عنه بالعهد ﴿فلن يخلف الله عهده﴾ الفاء فصيغة معربة عن شرط محذوف كما في قول من قال :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القول فقد جئنا خراسانا

أى أن الأمر كذلك فلن يخلفه والجملة اعتراضية وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلّة الحكم فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية وإظهار العهد مضافا إلى ضميره عز وجل لما ذكر أو لأن المراد به جميع عهوده لعمومه بالإضافة فيدخل فيه العهد المعهود دخولا أوليا وفيه تجاف عن التصريح بتحقيق مضمون كلامهم وإن كان معلقا بما لم يكذب يشم رائحة الوجود قطعا أعنى اتخاذ العهد ﴿أم تقولون﴾ مفترين ﴿على الله ما لا تعلمون﴾ وقوعه وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه ما لا يعلمون وقوعه مع أن ما أسندوه إليه تعالى من قبيل ما يعلمون عدم وقوعه للمبالغة في التوبيخ والنكير فإن التوبيخ على الأدنى مستلزم للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأولى وقولهم المحكى وإن لم يكن تهريجا بالافتراء عليه سبحانه مستلزم له لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى وأم إما متصلة والاستفهام للتقرير المؤدى إلى التبكيت لتحقق العلم بالشق الأخير كأنه قيل أم لم تتخذوه بل تقولون عليه تعالى وإما منقطعة والاستفهام لإنكار الاتخاذ ونفيه ومعنى بل فيها الإضراب

والانتقال من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهد إلى ما تفيد همزتها من التوبيخ على القول على الله سبحانه كما في قوله عز وجل قل آله أذن لكم أم على الله تفترون ﴿بلى﴾ إلى آخره جواب عن قولهم المحكي وإبطال له من جهته تعالى وبيان الحقيقة الحال تفصيلا في ضمن تشريع كلى شامل لهم ولسائر الكفرة بعد إظهار كذبهم إجمالا وتفويض ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم لما أن الحاجة والإلزام من وظائفه عليه السلام مع ما فيه من الإشعار بأنه أمر هين لا يتوقف على التوقيف وبلى حرف إيجاب مختص بجواب النفي خبرا واستفهاما ﴿من كسب سيئة﴾ فاحشة من السيئات أى كبيرة من الكبائر كدأب هؤلاء الكفرة والكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على طريقة فبشرهم بعذاب أليم ﴿وأحاطت به﴾ من جميع جوانبه بحيث لم يبق له جانب من قلبه ولسانه وجوارحه إلا وقد اشتملت واستولت عليه ﴿خطيئته﴾ التى كسبها وصارت خاصة من خواصه كما تنبى عنه الإضافة إليه وهذا إنما يتحقق فى الكافر ولذلك فرها السلف بالكفر حسبما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم وابن جرير عن أبى وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع وقيل السيئة الكفر والخطيئة الكبيرة وقيل بالعكس وقيل الفرق بينهما أن الأولى قد تطلق على ما يقصد بالذات والثانية تغلب على ما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ وقرىء خطيئته وخطيئاته على القلب والادغام فيهما وخطيئاته وخطاياها وفى ذلك إيذان بكثرة فنون كفرهم ﴿فأولئك﴾ مبتدأ ﴿أصحاب النار﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ والفاء لتضمنه معنى الشرط وإيراد اسم الإشارة المنبى عن استحضار المشار إليه بما له من الأوصاف للإشعار بعليتها لصاحبية النار وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والخطايا وإنما أشير إليهم بعنوان الجمعية مراعاة لجانب المعنى فى كلمة من بعد مراعاة جانب اللفظ فى الضمائر الثلاثة لما أن ذلك هو المناسب لما أسند إليهم فى تينك الحاليتين فإن كسب السيئة وأحاطت خطيئتنا به فى حالة الانفراد وصاحبية النار فى حالة

الاجتماع أى أولئك الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات وإحاطة خطاياهم بهم أصحاب النار أى ملازموها فى الآخرة حسب ملازمتهم فى الدنيا لما يستوجبها من الأسباب التى جمعتها ما هم عليه من تكذيب آيات الله تعالى وتحريف كلامه والافتراء عليه وغير ذلك وإنما لم يخص الجواب بحالهم بأن يقال مثلاً بل لأنهم أصحاب النار الخ لما فى التعميم من التحويل وبيان حالهم بالبرهان والدليل مع ما مر من قصد الإشعار بالتعليل ﴿هم فيها خالدون﴾ دائماً أبداً فأنى لهم التنفص عنها بعد سبعة أيام أو أربعين كما زعموا فلا حجة فى الآية الكريمة على خلود صاحب الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر ولا حاجة إلى حمل الخلود على اللبث الطويل على أن فيه تهوين الخطب فى مقام التحويل ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ جرت السنة الإلهية على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة فى إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والتبشير مرة والإنذار أخرى (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل) شروع فى تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود مما يتنادى بعدم إيمان أخلافهم وكلمة إذ نصب بإضمار فعل خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ليؤدبهم التأمل فى أحوالهم إلى قطع الطمع عن إيمانهم أو اليهود الموجودون فى عهد النبوة توبيخاً لهم بسوء صنيع أسلافهم أى اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ على إرادة القول أى وقلنا أو قائلين لا تعبدون إلخ وهو إخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد وكما تقول تذهب إلى فلان وتقول كيت وكيت وهو أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المنهى حقه أن يسارع إلى الانتهاء عما نهى عنه فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهى ويؤيده قراءة لا تعبدوا وعطف قولوا عليه وقيل تقديره أن لا تعبدوا إلخ فحذف الناصب ورفع الفعل كما فى قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟

ويعضده قراءة ألا تعبدوا فيكون بدلا من الميثاق أو معمولا له بحذف الجار وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قيل وحلفناهم لا تعبدون إلا الله وقرىء بالياء لأنهم غيب ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ متعلق بمضمر أى وتحسنوا أو وأحسنوا ﴿وذى القربى واليتامى والمساكين﴾ عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم كندامى جمع نديم ، وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كان الفقر أسكنه من الحرار وأثخنه عن القلب ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ أى قولا حسنا سماه حسنا مبالغة وقرىء كذلك وحسنا بضمين ، وهى لغة أهل الحجاز وحسنى كبشرى والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد .

﴿وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة﴾ هما ما فرض عليهم فى شريعتهم ﴿ثم توليتهم﴾ أن جعل ناصب الظرف خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهذا التفات إلى خطاب بنى إسرائيل جميعاً بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجرىان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة فإن الخطابات السابقة للأسلاف محكية داخلية فى حين القول المقدر قبل لا تعبدون كأنهم استحضروا عند ذكر جناباتهم فنعت هى عليهم ، وإن جعل خطابا لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف كما أنه تعميم للتولى بتنزيل الأخلاف منزلة الأسلاف التشديد فى التوبيخ أى أعرضتم عن المضى على مقتضى الميثاق ورفضتموه ﴿إلا قليلا منكم﴾ وهم من الأسلاف من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن الأخلاف من أسلم كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿وأنتم معرضون﴾ جملة تذييلية أى وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق ، وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة والإقبال إلى جانب العرض ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ منصوب بفعل مضمر خوطب به اليهود قاطبة على ما ذكر من التغليب ونعى عليهم إخلالهم بمواجب الميثاق المأخوذ منهم فى حقوق العباد على طريقة النهى إثر بيان ما فعلوا بالميثاق المأخوذ منهم فى حقوق الله سبحانه وما يجرى مجراه على سبيل الأمر فإن المقصود الأسمى من النهى عن عبادة غير الله تعالى هو الأمر بتخصيص العبادة

به تعالى أى واذكروا وقت أخذنا ميثاقكم فى التوراة وقوله تعالى ﴿لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ كما قبله لإخبار فى معنى النهى غير السبك لما ذكر من نكته المبالغة والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى إسرائيل لبعض القتل والإجلاء والتعبير عن ذلك بسفك دماء أنفسهم وإخراجها من ديارهم بناء على جريان كل واحد منهم مجرى أنفسهم لما بينهم من الاتصال القوى نسباً ودينياً للمبالغة فى الحمل على مراعاة حقوق الميثاق بتصوير النهى عنه بصورة تذكرها كل نفس وتنفر عنها كل طبيعة فضمير أنفسهم للمخاطبين حتماً إذ به يتحقق تنزيل المخرجين منزلتهم كما أن ضمير دياركم للمخرجين قطعاً إذ المحذور إنما هو إخراجهم من ديارهم لا من ديار المخاطبين من حيث أنهم مخاطبون كما يفصح عنه ماسياً أى من قوله تعالى من ديارهم وإنما الخطاب ههنا باعتبار تنزيل ديارهم منزلة ديار المخاطبين بناء على تنزيل أنفسهم منزلتهم لتأكيد المبالغة وتشديد التشنيع ، وأما ضمير دماءكم فمحتمل للوجهين مفاد الأول كون المسفوك دماء ادعائية للمخاطبين حقيقة ومفاد الثانى كونه دماء حقيقية للمخاطبين ادعاء وهما متقاربان فى إفادة المبالغة فتدبر ، وأما ما قيل من أن المعنى لا تبashروا ما يؤدى إلى قتل أنفسكم قصاصاً ، أو ما يبيح سفك دماءكم وإخراجكم من دياركم ويصرفكم عن دياركم أو لا تفعلوا ما يريدكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل فى الحقيقة ولا تقتفروا ما تحرمون به عن الجنة التى هى داركم فإنه الجلاء الحقيقى فما لا يساعده سياق النظم الكريم بل هو نفس فيما قلناه كما ستقف عليه ﴿ثم أقررتم﴾ أى بالميثاق وما يوجب المحافظة عليه ، ﴿وأنتم تشهدون﴾ توكيد للإقرار كقولك أقر فلان شاهداً على نفسه ، وقيل وأنتم أيتها الحاضرون تشهدون اليوم على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ، ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ خطاب خاص بالحاضرين فيه توبيخ شديد واستبعاد قوى لما ارتكبوه بعد ما كان من الميثاق والإقرار به والشهادة عليه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره ومناطق الإفادة اختلاف الصفات المنزلة منزلة اختلاف الذات والمعنى أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون الناقضون المتناقضون حسبما تعرب عنه الجمل الآتية

فإن قوله عز وجل ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الخ بيان له وتفصيل لأحوالهم المنكرة المتدرجة تحت الإشارة ضمنا كأنهم قالوا كيف نحن فقل تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ أى الجارين مجرى أنفسكم كما أشير إليه وقرئ تَقْتُلُونَ بالتشديد للتكثير ﴿وتخرجون فريقا منكم﴾ الضمير ، إما للمخاطبين والمضاف محذوف أى من أنفسكم ، وإما للمقتولين والخطاب باعتبار أنهم جعلوا أنفسهم المخاطبين وإلا فلا يتحقق التكافؤ بين المقتولين والمخرجين في ذلك العنوان الذى عليه يدور فلك المبالغة في تأكيد الميثاق حسبما نص عليه ولا يظهر كمال قباحة جنائياتهم في نقضه ﴿من ديارهم﴾ الضمير للفريق وإيثار الغيبة مع جواز الخطاب أيضا بناء على اعتبار العنوان المذكور كما مر في الميثاق للاحتراز عن توهم كون المراد لإخراجهم من ديار المخاطبين من حيث هو ديارهم لا من حيث هو ديار المخرجين ، وقيل هؤلاء موصول والمثلتان في حيز الصلة والمجموع هو الخبر لا تتم ﴿تظاهرون عليهم﴾ بحذف إحدى التامين وقرئ بإثباتهما وبالإدغام وتظهرون بطرح إحدى التامين من تتظهرون ومعنى الكل تتعاونون وهى حال من فاعل تخرجون أو من مفعوله أو منهما جميعاً مبينة لكيفية الإخراج دافعة لتوهم اختصاص الحرمة بالإخراج بطريق الأصالة والاستقلال دون المظاهرة والمعاونة ﴿بالإثم﴾ متعلق بتظاهرون حال من فاعله أى ملتبسين بالإثم وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم وقيل هو ما ينفر عنه النفس ولا يطمئن إليه القلب ﴿والعدوان﴾ وهو التجاوز في الظلم ﴿وإن يأتوك أسارى﴾ جمع أسير وهو من يؤخذ قهراً فاعيل بمعنى مفعول من الأسر أى الشد أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجر حى وجريح ، وقد قرئ أسرى ومحل نصب على الحالية ﴿تفادوهم﴾ أى تخرجوهم من الأسر باعطاء الفداء وقرئ تفادوهم قال السدى إن الله تعالى أخذ على بنى إسرائيل في التوراة الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل فاشتروه وأعتقوه ، وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج حتى كان بينهما ما كان من العداوة والشئان فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه

فإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها ثم إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له ما لا يفدونه فغيرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون أمرنا أن نفيدهم وحرم علينا قتالهم ، ولكن نستحي أن نذل حلفاءنا فذمهم الله تعالى على المناقضة ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ ضمير الشأن وقع مبتدأ ومحرم فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبرا عن إخراجهم والجملة خبر لضمير الشأن وقيل محرم خبر لضمير الشأن وإخراجهم مرفوع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله وقيل الضمير بهم تفسيره إخراجهم أو راجع إلى ما يدل عليه تخرجون من المصدر ، وإخراجهم تأكيد أو بيان والجملة حال من الضمير في تخرجون أو من فريقاً أو منهما كما من بعد اعتبار القيد بالحال السابقة وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالإخراج مع كونه قرينا للقتل عند أخذ الميثاق لكونه مظنة للمساهلة في أمره بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل ، ولأن مساق الكلام لزمهم وتوبيخهم على جنائياتهم وتناقض أفعالهم معا وذلك مختص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتل بشيء من دية أو قصاص هو السر في تخصيص التظاهر به فيما سبق ، وأما تأخيره من الشرطية المعارضة مع أن حقه التقديم كما ذكره الواحدى فلأن نظم أفعالهم المتناقضة في سبط واحد من الذكر أدخل في إظهار بطلانها ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ أى التورة التي أخذ فيها الميثاق المذكور والهمزة للإنكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام أى أنفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب ، وهو المفادة ﴿وتكفرون ببعض﴾ وهو حرمة القتال والإخراج مع أن من قضية الإيمان ببعضه الإيمان بالباقي ليكون الكل من عند الله تعالى داخلا في الميثاق فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض مع إيمانهم بالبعض حسبما يفيد ترتيب النظم الكريم فإن التقديم يستدعى في المقام الخطابى أصالة المقدم وتقدمه بوجه من الوجوه حتما ولذا ليس ذلك ههنا باعتبار الإنكار والتوبيخ عليه وهو باعتبار الوقوع قطعاً لا لإيمانهم بالبعض مع كفرهم بالبعض كما هو المفهوم لوقيل أفتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ولا مجرد كفرهم

بالبعض ، ولما يمانهم بالبعض كما يفيد أنه يقال أفجتمعون بين الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض أو بالعكس .

﴿فأجزاء من يفعل ذلك﴾ ما نافية ومن إن جعلت موصولة فلا محل ليفعل من الإعراب وإن جعلت موصوفة فحله الجر على أنه صفتها وذلك إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعض أو إلى ما فعلوا من القتل والإجلاء مع مفاداة الأسارى ﴿منكم﴾ حال من فاعل يفعل ﴿(الآخرى)﴾ استثناء مفرغ وقع خبراً للمبتدأ والخزى الذل والهوان مع الفضيحة والتشكيك للتفخيم وهو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير إلى أذرعات وأريحاء من الشام وقيل الجزية ﴿(في الحياة الدنيا)﴾ في حيز الرفع على أنه صفة خزى أى خزى كائن في الحياة الدنيا أو في حيز النصب على أنه ظرف الخزى ولعل بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع أطباعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب وإظهار أنه لا أثر له أصلاً مع الكفر ببعض ﴿(ويوم القيامة يردون)﴾ وقرئ بالتاء أوثر صيغة الجمع نظراً إلى معنى من بعد ما أوثر الأفراد نظراً إلى لفظها لما أن الرد إنما يكون بالاجتماع ﴿(إلى أشد العذاب)﴾ لما أن معصيتهم أشد المعاصي وقيل أشد العذاب بالنسبة إلى ما لهم في الدنيا من الخزى والصغار وإنما غير سبك النظم الكريم حيث لم يقل مثلاً وأشد العذاب يوم القيامة للإيذان بكمال التنافي بين جزاءى النشاطين وتقديم يوم القيامة على ذكر ما يقع فيه لتحويل الخطب وتفضيل الحال من أول الأمر ، ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ من القبايح التي من جملتها هذا المنكر وقرئ بالياء على نهج يردون وهو تأكيد للوعيد ﴿(أولئك)﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة وهو مبتدأ خبره وقوله تعالى ﴿(الذين اشتروا﴾ أى آثروا ﴿(الحياة الدنيا)﴾ واستبدلوها ﴿(بالآخرة)﴾ وأعرضوا عنها مع تمسكهم من تمسكها فإن ما ذكر من الكفر ببعض أحكام الكتاب إنما كان لمراعاة جانب حوائجهم لما يعود إليهم منهم من بعض المنافع الدنيوية والدنيوية ﴿(فلا يخفف عنهم العذاب)﴾ دنيوياً كان أو آخروياً ﴿(ولا هم ينصرون)﴾

يدفعه عنهم شفاعة أو جبراً والجملة معطوفة على ما قبلها عطف الاسمية على الفعلية أو ينصرون مفسر لمحذوف قبل الضمير فيكون من عطف الفعلية على مثلها ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ شروع في بيان بعض آخر من جنائياتهم وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به والمراد بالكتاب التوراة، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن التوراة لما نزلت جملة واحدة أمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق ذلك فبعث الله بكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها فخففها الله تعالى لموسى بحملها ﴿وقفينا من بعده بالرسول﴾ يقال قفاه به إذا أتبعه إياه أى أرسلناهم على أثره كقوله تعالى ﴿ثم أرسلنا رسلنا نترى﴾ وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقييل وإلياس وإليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ المعجزات الواضحات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات أو الإنجيل وعيسى بالسريانية إيشوع ومعناه المبارك ومريم بمعنى الخادم وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال وبه فسر قول رؤبة :

قلت ليزير لم تصله مريمه ضليل أهواء الصبا تندمه

ووزنه مفعول إذ لم يثبت فاعيل ﴿وآيدناه﴾ وقرئ وآيدناه ﴿روح القدس﴾ بضم المداو وقرئ بسكونها أى بالروح المقدسة وهى روح عيسى عليه السلام كقولك حاتم الجود ورجل صدق وإنما وصفت بالقدس لكرامته أو لأنه عليه السلام لم تظمه الأضلاب ولا أرحام الطوامث وقيل بجبريل عليه السلام وقيل بالإنجيل كما قيل فى القرآن روحاً من أمرنا وقيل باسم الله الأعظم الذى يحيى الموتى بذكره وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها وأما عيسى عليه السلام فقد نسخ بشرعه كثير من أحكامها ولسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ببيان حقيقته وإظهار كمال قبح ما فعلوا به عليه السلام

﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ من أولئك الرسل ﴿بما لا تهوى أنفسكم﴾ من الحق الذي لا مجيد عنه أى لا تحبه من هوى كفرح إذا أحب والتعبير عنه بذلك للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لاشئ آخر وتوسيط الهمزة بين الفاء وما تملقت به من الأفعال السابقة لتويعهم على تعقيبهم ذلك أو للتعجب من شأنهم ويجوز كون الفاء للعطف على مقدر يناسب المقام أى ألم تطيعوهم فكلما جاءكم رسول منهم بما لا تهوى أنفسكم ﴿استكبرتم﴾ عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عند الله تعالى ﴿ففرقنا﴾ منهم ﴿كذبتم﴾ من غير أن تعرضوا لهم بشئ آخر من المضار والفناء للسببية أو للتعقيب ﴿وفرقنا﴾ آخر منهم ﴿تقتلون﴾ غير مكذبين بتكذيبهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر وإثارة صيغة الاستقبال فى القتل لاستحضار صورته الهائلة أو للإيماء إلى أنهم بعد على تلك النية حيث هموا بما لم ينالوه من جهته عليه السلام وسحروه وسمموا له الشاة حتى قال صلى الله عليه وسلم: وما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أو ان قطعت أبهرى، ﴿وقالوا﴾ بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة لشعارا بإبعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم وحكاية نظائرهما لكل من يفهم بطلانها وقبحاتها من أهل الحق والقائلون هم الموجودون فى عصر النبي عليه الصلاة والسلام ﴿قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف الذى لم يختن أى مغطاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وقيل هو تخفيف غلف جمع غلاف ويؤيده ما روى عن أبى عمرو من القراءة بضمهتين يعنون أن قلوبنا أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال السكبي يعنون أن قلوبنا لا يصل إليها حديث إلا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضا ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ رد لما قالوه وتكذيب لهم فى ذلك والمعنى على الأول بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأن خذلهم

وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض وإبطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم
 بالمرءة وكونهم بحيث لا ينفذهم الإلطاف أصلا بعد أن خلقهم على الفطرة.
 والتمسك من قبول الحق وعلى الثاني بل أبعدهم من رحمته فأنى لهم ادعاء العلم
 الذى هو أجل آثارها وعلى الثالث بل أبعدهم من رحمته فلذلك لا يقبلون الحق.
 المؤدى إليها ﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾ ما مزيعة للمبالغة أى فإيماننا قليلًا يؤمنون.
 وهو إيمانهم ببعض الكتاب وقيل فزمانا قليلًا يؤمنون وهو ما قالوا
 آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره وكلاهما ليس
 بإيمان حقيقة وقيل أريد بالقلة العدم والفناء لسببية اللعن لعدم الإيمان
 ﴿ولما جاءهم كتاب﴾ من القرآن وتذكيره للتفخيم ووصفه بقوله عز وجل.
 ﴿من عند الله﴾ أى كائن من عنده تعالى للتشريف ﴿مصدق لما معهم﴾ من
 التوراة عبر عنها بذلك لما أن المعية من موجبات الوقوف على ما فى تضاعفها.
 المؤدى إلى العلم بكونه مصدقا لهما وقرىء مصدقا على أنه حال من كتاب
 لتخصصه بالوصف ﴿وكانوا من قبل﴾ أى من قبل مجيئه ﴿يستفتحون على
 الذين كفروا﴾ أى وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون.
 اللهم انصرنا بالنبي المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نفعه فى التوراة ويقولون.
 لهم قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم قال
 ابن عباس وقتادة والسدى نزلت فى بنى قريظة والنضير كانوا يستفتحون على
 الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وقيل معنى
 يستفتحون يفتحون عليهم ويعرفونهم بأن نبيا يبعث منهم قد قرب أو انه والسين.
 للمبالغة كما فى استعجب أى يسألون من أنفسهم الفتح عليهم أو يسأل بعضهم
 بعضا أن يفتح عليهم وعلى التقديرين فالجملة حالية مفيدة لـ كمال مكابرتهم
 وعنادهم وقوله عز وعلا ﴿فلما جاءهم﴾ تكرر للأول لطول العهد بتوسط
 الجملة الحالية وقوله تعالى ﴿ما عرفوا﴾ عبارة عما سلف من الكتاب لأن
 معرفة من أنزل هو عليه معرفة له والاستفتاح به استفتاح به وإيراد الموصول
 دون الاكتفاء بالإضمار لبيان كمال مكابرتهم فإن معرفة ما جاءهم من مبادئ.

الإيمان به ودواعيه لالحالة والفناء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له وقوله تعالى: ﴿كفروا به﴾ جواب لما الأول كما هو رأى المبرد أو جوابهما معا كما قاله أبو البقاء وقيل جواب الأولى محذوف لدلالة المذكور عليه فيكون قوله تعالى وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية غطف القصة على القصة والمراد بما عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو المراد بما كانوا يستفتحون به فالمعنى ولما جاءهم كتاب مصدق لكتابهم كذبوه وكانوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليه ذلك الكتاب فلما جاءهم النبي الذي عرفوه كفروا به ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ اللام للعهد أى عليهم ووضع المظهر موضع المضمحل للإيدان بأن حلول اللعنة بسبب كفرهم كما أن الفاء للإيدان بترتبها عليه أو للجنس وهم داخلون في الحكم دخولا أوليا إذ الكلام فيهم وأيا ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى بل لعنهم الله بكفرهم ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ ما نكرة بمعنى شئ منصوبة مفسرة لفاعل بئس واشتروا صفته أو بئس شيئا باعوا به أنفسهم وقيل اشتروها به في زعمهم حيث يعتقدون أنهم بما فعلوا خلصوها من العقاب ويأباه أنه لا بد أن يكون المذموم ما كان حاصلًا لهم لا ما كان زائلا عنهم والخصوص بالذم قوله تعالى ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ أى الكتاب المصدق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته وتبديل الإنزال بالمجيء للإيدان بعلو شأنه الموجب للإيمان به ﴿بغيا﴾ حسدا وطلبًا لما ليس لهم وهو علة لأن يكفروا حتمًا دون اشتروا لما قيل من الفصل بما هو أجنبي بالنسبة إليه وإن لم يكن أجنبيًا بالنسبة إلى فعل الذم وفاعله ولأن البغى مما لا تعلق له بعنوان البيع قطعًا لاسيما وهو معلل بما سيأتى من تنزيل الله تعالى من فضله على من يشاؤه وإنما الذى يدينه وبينه علاقة هو كفرهم بما أنزل الله والمعنى بئس شيئا باعوا به أنفسهم كفرهم المعلل بالبغى الكائن لأجل ﴿أن ينزل الله من فضله﴾ الذى هو الحى ﴿على من يشاء﴾ أى يشاؤه وبصطفيه ﴿من عباده﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة ومآله تعاليل كفرهم بالمنزل عليه وإيثار

صيغة التفعيل ههنا للإيدان بتجدد بغيمهم حسب تجدد الإنزال وتكثيره حسب تكثيره ﴿فباؤا بغضب على غضب﴾ أى رجعوا ملتبسين بغضب كائن على غضب مستحقين له حسب ما اقترفوا من كفر على كفر فإنهم كفروا بنبي الحق وبغوا عليه وقيل كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى وقيل بعد قولهم عزير ابن الله وقولهم يد الله مغولة وغير ذلك من فنون كفرهم ﴿وللكافرين﴾ أى لهم والإظهار فى موقع الإضمار للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم ﴿عذاب مهين﴾ يراد به إهانتهم وإذلالهم لما أن كفروهم بما أنزل الله تعالى كان مبنيا على الحسد المبني على طمع المنزول عليهم وادعاء الفشل على الناس والاستهانة بمن أنزل عليه السلام ﴿وإذا قيل﴾ من جانب المؤمنين ﴿لهم﴾ أى لليهود وتقديم الجار والمجرور قد مر وجهه لاسيما فى لام التبليغ ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾ من الكتب الإلهية جميعا والمراد به الأمر بالإيمان بالقرآن لىكن سلك مسلك التعميم لإيداننا بتجتم الامثال من حيث مشاركتها لما آمنوا به فيما فى حين الصلاة وموافقتة له فى المضمون وتنبيهها على أن الإيمان بما عداه من غير إيمان به ليس بإيمان بما أنزل الله ﴿قالوا تؤمن﴾ أى نستمر على الإيمان ﴿بما أنزل علينا﴾ يعنون به التوراة وما نزل على أنبياء بنى إسرائيل لتقرير حكمها ويدسون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم ومرادهم بضمير المتكلم إما أنفسهم فعنى الإنزال عليهم تسليفهم بما فى المنزل من الأحكام وإما أنبياء بنى إسرائيل وهو الظاهر لاشتراكه على منية الإيدان بأن عدم إيمانهم بالفرقان لما مر من بغيمهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم ولأن مرادهم بالموصول وإن كان هو التوراة وما فى حكمها خاصة لىكن إيرادها بعنوان الإنزال عليهم مبنى على ادعاء أن ما عداها ليس كذلك على وجه التعريض كما أشير إليه فلو أريد بالإنزال عليهم ما ذكر من تسليفهم يلزم من مغايرة القرآن لما أنزل عليهم حسبما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿ويكفرون بما وراه﴾ عدم كونهم مكلفين بما فيه كما يلزم عدم كونه نازلا على واحد من بنى إسرائيل على الوجه الآخر

وتجريد الموصول عند الإضمار عما عرضوا به تعسف لا يخفى والوراء في الأصل مصدر جعل ظرفا ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو أمامه والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير مبتدأ أى قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المراد مجرد بيان أن أفراد إيمانهم بما أنزل عليهم بالذکر لنفى إيمانهم بما وراءه بل بيان أن ما يدعون من الإيمان ليس بإيمان بما أنزل عليهم حقيقة فإن قوله عن اسمه ﴿وهو الحق﴾ أى المعروف بالحقيقة بأن يخص به اسم الحق على الإطلاق حال من فاعل يكفرون وقوله تعالى ﴿مصدقا﴾ حال مؤكدة لمضمون الجملة صاحبها إما ضمير الحق وعاملها ما فيه من معنى الفعل قاله أبو البقاء ولما ضمير دل عليه الكلام وعاملها فعل مضمّر أى أحقه مصدقا ﴿لما معهم﴾ من التوراة والمعنى قالوا نؤمن بما أنزل علينا وهم يكفرون بالقرآن والحال أنه حق مصدق لما آمنوا به فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ومآله أنهم ادعوا الإيمان بالتوراة والحال أنهم يكفرون بما يلزم من الكفر به الكفر بها ﴿قل﴾ تبكيها لهم من جهة الله عز من قائل بيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم بعد بيان التناقض في أقوالهم ﴿فلم﴾ أصله لما حذف عنه الألف فرقا بين الاستفهامية والخبرية ﴿تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ الخطاب للحاضرين من اليهود والمساكين على طريق التغليب وحيث كانوا مشاركين في العقد والعمل كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضا على أخلافهم وصيغة الاستقبال للحكاية الحال الماضية وهو جواب شرط محذوف أى قل لهم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون فلائى شئ كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام وقرئ أنبياء الله مهموزا وقوله تعالى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تذكير للاعتراض لتأكيد الإلزام وتشديد التهديد أى إن كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم وقد حذف من كل واحدة من الشرطيتين ما حذف ثقة بما أثبت في الأخرى وقيل لا حذف فيه بل تقديم الجواب على الشرط وذلك لا يتأتى إلا على رأى الكوفيين وأبى زيد وقيل إن نافية أى ما كنتم مؤمنين وإلا لما قتلتموهم

﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ من تمام التبيكات والتوبيخ داخل تحت الأمر لا تكرير لما قص في تضاعيف تعداد النعم التي من جملتها العفو عن عبادة العجل واللام للقسم أى وبالله لقد جاءكم موسى همتبسا بالمعجزات الظاهرة التي هي العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وقلق البحر وقد عد منها التوراة وليس بواضح فإن المجيء بها بعد قصة العجل ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أى إلهها ﴿من بعده﴾ أى من بعد مجيئه بها وقيل من به ذهابه إلى الطور فتكون التوراة حيثئذ من جملة البينات وثم للتراخي في الرتبة والدلالة على نهاية قبيح ما صنعوا ﴿وأنتم ظالمون﴾ حال من ضمير اتخذتم بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته واضعين لها في غير موضعها أو بالإخلال بحقوق آيات الله تعالى أو اعتراض أى وأنتم قوم عادتكم الظلم ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيب لهم في ادعائهم الإيمان بما أنزل عليهم بتذكير جنائياتهم الناطقة بكذبهم أى واذكروا حين أخذنا ميثاقكم ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ قائلين ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ أى خذوا بما أمرتم به في التوراة واسمعوا ما فيها سمع طاعة وقبول ﴿قالوا﴾ استئناف مبني على سؤال سائل كأنه قيل فإذا قالوا فقبل قالوا ﴿سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك فإذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب المؤكد مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزة الباهرة بمثل هذه العظيمة الشنعاء وكفروا بما في تضاعيف التوبة فكيف يتصور من أخلاقهم الإيمان بما فيها .

﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للبالغة أى تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن ، وفي قلوبهم بيان لمكان الإشراب كما في قوله تعالى (إنما يأكلون في بطونهم نارا) والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير قد ﴿بكفرهم﴾ بسبب كفرهم السابق الموجب

لذلك قيل كانوا بجسمه أو حلولية ، ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن في قلوبهم ماسول لهم السامري ﴿قل﴾ توبينخا لحاضري اليهود إثر ماتين أحوال رؤسائهم الذين بهم يقتدون في كل ما يأتون وما يذرون ﴿بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدعون والمخصوص بالذم محذوف أى ما ذكر من قولهم سمعنا وعصينا وعبادتهم العجل ، وفي إسناده الأمر إلى الإيمان تهكم بهم وإضافة الإيمان إليهم للإيذان بأنه ليس بإيمان حقيقة كما ينبى عنه قوله تعالى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فإنه قدح في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة وإبطال لها وتقريره إن كنتم مؤمنين بها عاملين فيما ذكر من القول والعمل بما فيها فبئسما يأمركم به إيمانكم بها ولذا لا يسوغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فلمستم بمؤمنين بها قطعاً وجواب الشرط كما ترى محذوف لدلالة ماسبق عليه ﴿قل﴾ كرر الأمر مع قرب العهد بالأمر السابق لما أنه أمر بتبسيكيتهم وإظهار كذبهم في فن آخر من أباطيلهم لكنه لم يحك عنهم قبل الأمر بإبطاله بل اكتفى بالإشارة إليه في تضاعيف الكلام حيث قيل ﴿إن كانت لكم الدار الآخرة﴾ أى الجنة أو نعيم الدار الآخرة ﴿عند الله خالصة﴾ أى سالمة لكم خاصة بكم كما تدعون انه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ونصبها على الحالية من الدار وعند ظرف للاستقرار في الخبر أعنى لكم وقوله تعالى : ﴿من دون الناس﴾ في محل النصب بخالصة يقال نخلص لى كذا من كذا واللام للجنس أى الناس كافة أو للعهد أى المسلمين ﴿فتمنوا الموت﴾ فإن من أيقن بدخول الجنة اشتاق إلى التخلص إليها من دارة البوار وقرارة الأكدار لاسيما إذا كانت خالصة كما قال على كرم الله وجهه لا أبالي أسقطت على الموت أو سقط الموت على وقال عمار بن ياسر بصفين :

الآن ألقى الأحبه محمداً وحزبه

وقال حذيفة بن اليمان حين احتضر وقد كان يتمنى الموت قبل :

جاء حبيب على فاقة فلا أفلح اليوم من قد ندم

أى على التمنى وقوله تعالى : ﴿إن كنتم صادقين﴾ تكرير للكلام لتشديد

الإلزام وللتنبيه على أن ترتب الجواب ليس على تحقق الشرط في نفس الأمر فقط بل في اعتقادهم أيضا وأنهم قد ادعوا ذلك والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أي إن كنتم صادقين فتمنوه وقوله تعالى : ﴿ وإن يتمنونه أبدا ﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر سيق من جهته سبحانه لبيان ما يكون منهم من الإحجام عما دعوا إليه الدال على كذبهم في دعواهم ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبي عليه السلام والقرآن وتحريف التوراة ولما كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة صنائعه ومدار أكثر منافعه عبرها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ أي بهم وإيثار الإظهار على الإضمار لذنوبهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون في جميع الأمور التي من جملتها ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه أي عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي المفوضة إلى أفانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدي إلى ذلك فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد إذ لو وقع ذلك لنقل واشتهر وعن النبي صلى الله عليه وسلم لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه ، وما بقي يهودى على وجه الأرض ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس ﴾ من الوجدان العقلي ، وهو جار مجرى العلم خلا أنه مختص بما يقع بعد التجربة ونحوها ومفعولاه الضمير وأحرص والتنكير في قوله تعالى ﴿ على حيوة ﴾ للإيذان بأن مرادهم نوع خاص منها وهى الحياة المتطاولة وقرئ بالتعريف ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ عطف على ما قبله بحسب المعنى كأنه قيل أحرص من الناس ومن الذين أشركوا وأفرادهم بالذكر مع دخولهم في الناس للإيذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص للمبالغة في توبيخ اليهود فإن حرصهم وهم معتزون بالجزء لما كان أشد من حرص المشركين المنسكيرين له دل ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار ويجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقة بإنباء المعطوف عليه عنه أي وأحرص من الذين أشركوا فقله تعالى ﴿ يود أحدهم ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف ويجوز أن يكون في حيز الرفع صفة لمبتدأ محذوف خبره الظرف المتقدم على أن يكون المراد بالمشركين اليهود.

لقولهم عزير ابن الله أى ومنهم طائفة يود أحدهم أيهم كان أى كل واحد منهم ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ وهو حكاية لودادتهم كأنه قيل ليتنى أعمر وإنما أجرى على الغيبة لقوله تعالى يود كما تقول حلف بالله ليفعلن ومحل نصب على أنه مفعول يود لإجراء له مجرى القول لأنه فعل قلبي ﴿وما هو بمن حزنه من العذاب﴾ ما حجازية والضمير العائد على أحدهم اسمها وبمن حزنه خبرها والباء زائدة ﴿أن يعمر﴾ فاعل من حزنه أى وما أحدهم بمن يزن حزنه أى يبعده وينجيه من العذاب تعميره وقيل الضمير لما دل عليه يعمر من المصدر وأن يعمر بدل منه وقيل هو مهم ، وأن يعمر مفسره والجملة حال من أحدهم والعامل يود لا يعمر على أنها حال من ضميره لفساد المعنى أو اعتراض وأصل سنة سنة لقولهم سنوات وسنية وقيل سنة بكسبة لقولهم سائنته وسنيته وتسميت النخلة إذا أتت عليها السنون ﴿والله بصير بما يعملون﴾ البصير فى كلام العرب العالم بكنهه الشئ الخبير به ومنه قولهم فلان بصير بالفقه أى عليم بخفيات أعمالهم فهو مجازيهم بها لا محالة وقرئ بقاء الخطاب التفتاتا وفيه تشديد للوعيد ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ نزل فى عبد الله بن سوريا من أحبار فذك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن نزل عليه بالوحى فقال عليه السلام جبريل عليه السلام فقال هو عدونا لو كان غيره لأمنا بك وفى بعض الروايات ورسولنا ميكائيل فلو كان هو الذى يأتيك لأمنا بك ، وقد عادانا مرارا وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب به بخت نصر فبعثنا من يقتله فأتاه ببايل غلاما مسكيناً فدفع عنه جبريل عليه السلام . وقال إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه ولا فباى حق تقتلونه وقيل أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا ، وروى أنه كان لعمر ورضى الله عنه أرض بأعلى المدينة ، وكان يمر على مدارس اليهود فسكان يجلسون إليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك ولنا لنطمع فيك فقال والله ما أجيشكم لحكم ، ولا أسألكم لشك فى ديني وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن

جبريل عليه السلام فقالوا ذاك هو عدونا يطالع محمداً على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل يحيى بالخصب والسلام فقال لهم : وما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل أقرب منزلة هو عن يمينه وميكائيل عن يساره وهما متعاديان فقال عمر رضى الله عنه إن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولا أقم أكفر من الخير ، ومن كان عدوا لأحدهما فهو عدو للآخر ومن كان عدوا لهم كان عدوا لله سبحانه ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، لقد وافقك ربك يا عمر فقال عمر رضى الله عنه ، لقد رأيتنى فى دينى بعد ذلك أصلب من الحجر وقرىء جبرئيل كسلسيل وجبرئيل كجحمرش وجبريل وجبرئيل وجبرائيل كجراويل وجبرائيل كجبراعل ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة ، وقيل معناه عبد الله (فإنه نزل) تعليل لجواب الشرط قائم مقامه والبارز الأول لجبريل عليه السلام والثانى للقرآن أضمر من غير ذكر إيداناً بفخامة شأنه واستغنائه عن الذكر لكمال شهرته ونباهته لاسيما عند ذكر شئ من صفاته (على قلبك) زيادة تقرير للتنزيل ببيان محل الوحي فإنه القائل الأول له ومدار الفهم والحفظ وإيثار الخطاب على التكلم المبني على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما فى قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) لما فى النقل بالعبرة من زيادة تقرير لمضمون المقالة (ياذن الله) بأمره وتيسيره مستعار من تسهيل الحجاب وفيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيله وصدق عزمته عليه السلام وهو حال من فاعل نزله وقوله تعالى : (مصداقاً لما بين يديه) أى من الكتب الإلهية التى معظمها التوراة حال من مفعوله وكذا قوله تعالى (وهدى وبشرى للمؤمنين) والعامل فى السكك نزله والمعنى من عادى جبريل من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته بل يجب عليه محبته فإنه نزله عليك كتاباً مصداقاً لكتبهم أو فالسبب فى عداوته تنزيل الكتاب مصداقاً لكتبهم موافق له وهم له كارهون ولذلك حرقوا كتبهم وجحدوا موافقته له لأن الاعتراف بها يوجب الإيمان به وذلك يستدعى

انتكاس أحوالهم وزوال رياستهم وقيل إن الجواب فقد خلع ربقة الإنصاف أو فقد كفر بما معه من الكتاب أو فليمت غيظا أو فهو عدوى ، وأنا عدوله ﴿من كان عدوا لله﴾ أريد بعداوته تعالى مخالفة أمره عنادا والخروج عن طاعته مكابرة أو عداوة خواصه ومقربيه لكن صدر الكلام بذكره الجليل تفخيما لشأنهم وإيذانا بأن عداوتهم عداوته عز وعلا كما في قوله عز وجل (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ثم صرح بالمرام فقبل ﴿وملائكته ورسوله وجبريل وميكال﴾ وإنما أفردا بالذكر مع أنهما أول من يشملهما عنوان الملكية والرسالة لإظهار فضلهما كأنهما عليهما السلام من جنس آخر أشرف بما ذكر تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الجنس وللتنبية على أن عداوة أحدهما عداوة للآخر حسما لمادة اعتقادهم الباطل في حقهما حيث زعموا أنهما متعاديان وللإشارة إلى أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستتباع العداوة من جهة الله سبحانه ، وأن من عادى أحدهم فكأنما عادى الجميع وقوله تعالى ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ أى لهم جواب الشرط والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب وإيثار الاسمية للدلالة على التحقق والثبات ووضع الكافرين موضع المضمحل للإيذان بأن عداوة المذكورين كفر ، وأن ذلك بين لا يحتاج إلى الإخبار به ، وأن مدار عداوته تعالى لهم وسخطه المستوجب لأشد العقوبة والعذاب هو كفرهم المذكور وقرى ميكائيل وميكائيل كميكائيل وميكائيل كميكائيل وميكائيل ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ واضحات الدلالة على معانيها ، وعلى كونها من عند الله تعالى ، ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أى المتمردون في الكفر الخارجون عن حدوده فإن من ليس على تلك الصفة من الكفرة لا يجترأ على الكفر بمثل هاتيك البينات قال الحسن إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فتنبعك لها فنزلت واللام للعهد أى الفاسقون المعهودون وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم

الخارجون عن دينهم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ﴿أوكلما عاهدوا عهداً﴾ الهمة لانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكفروا بها وهى فى غاية الوضوح وكلما عاهدوا عهداً ، ومن جملة ذلك ما أشير إليه فى قوله تعالى ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ من قولهم للمشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وقرىء بسكون الواو على أن تقدير النظم الكريم ، وما يكفر بها إلا الذين فسقوا أو نقضوا عهودهم مراراً كثيرة وقرىء عاهدوا وعهدوا وقوله تعالى عهداً ، إما مصدر مؤكد لعاهدوا من غير لفظه أو مفعول له على أنه بمعنى أعطوا العهد ﴿نبذ فريق منهم﴾ أى رموا بالزمام ورفضوه وقرىء نقضه وإسناد النبذ إلى فريق منهم لأن منهم من لم ينبذه ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ أى بالتوراة وهذا دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون ، وأن من لم ينبذ جهاراً فهم يؤمنون بها سرا ﴿ولما جاءهم رسول﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم والتسكير للتفخيم ﴿من عند الله﴾ متعلق بجاء أو محذوف وقع صفة لرسول لإفادة مزيد تعظيمه بئاً كيد ما أفاده التسكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة من حيث أنه صلى الله عليه وسلم قرر صحتها وحقق حقيقة نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بما أنزل عليه أو من حيث أنه عليه السلام جاء على وفق مانعت فيها ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب﴾ أى التوراة ، وهم اليهود الذين كانوا فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم بمن كانوا يستفتحون به قبل ذلك لا الذين كانوا فى عهد سليمان عليه السلام كما قيل لأن النبذ عند مجيء النبي صلى الله عليه وسلم لا يتصور منهم وأفرد هذا النبذ بالذكر مع اندراجة تحت قوله عز وجل أو كلما عاهدوا عهداً نبذ فريق منهم لأنه تمهيد لذكر اتباعهم لما تتلو الشياطين وإيثارهم له عليه والمراد بإيتائهم ، إما إيتاء علمها بالدراسة والحفظ ، والوقوف على ما فيها فالوصول عبارة عن علمائهم ولم مجرد إزالتها عليهم فهو عبارة عن السكل ، وعلى التقديرين فوضعه موضعه للضمير للإيدان بكمال التنافى بين ما أثبت لهم فى حين الصلة وبين ما صدر عنهم

سورة البقرة

٢٢٣

من النبذ ﴿كتاب الله﴾ أى الذى أوتوه قال السدى لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة والفرقان فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحرها روت ، وماروت فلم يوافق القرآن فها قوله تعالى ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله بالبحر﴾ الخ ، وإنما عبر عنها بكتاب الله تشريفا لها وتعظيما لحقها عليهم وتهويلا لما اجترأوا عليه من الكفر بها وقيل كتاب الله القرآن نبذوه بعد ما لمهم تلقيه بالقبول لاسيما بعد ما كانوا يستفتون به من قبل فإن ذلك قبول له ونمسك به فيكون الكفر به عند مجيئه نبذاً له كأنه قيل كتاب الله الذى جاء به فإن عصى الرسول معرب عن عصى الكتاب ﴿وراء ظهورهم﴾ مثل تركهم وإعراضهم عنه بالسكينة مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ جملة سالية أى نبذوه وراء ظهورهم مشبهين بمن لا يعلمه فإن أريد بهم أحبارهم فالمعنى كأنهم لا يعلمونه على وجه الإيقان ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام فيه ليدان بأن علمهم به رصين لسكنهم يتجاهلون أو كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله أو لا يعلمونه أصلاً كما إذا أريد بهم السكل ، وفى هذين الوجهين زيادة مبالغة فى إعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة هذا وإن أريد بها نبذوه من كتاب الله القرآن فالمراد بالمعلم المنفى فى قوله تعالى ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ هو المعلم بأنه كتاب الله ففيه ما فى الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون فى ذلك وإنما يكفرون به مكابرة وعناداً قيل إن جيل اليهود أربع فرق ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب وهم الأقلون المشار إليهم بقوله عز وجل ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ وفرقة جاهرُوا بنبذالعهود وتعدى الحدود تمرداً وفسوقاً وهم المعنيون بقوله تعالى ﴿نبذهم فريق منهم﴾ وفرقة لم يجاهرُوا بنبذها لجهلهم بها وهم الأكثرون وفرقة تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها خفية وهم المتجاهلون ﴿واتبعوا ما تملوا الشياطين﴾ عطف على جواب لما أى نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة التى كانت تقرأها الشياطين وهم المتمردون من الجن وتتلو حكاية حال ماضية والمراد بالإتباع التوغل والتمحض فيه والإقبال عليه

بالسكينة وإلا فأصل الاتباع كان حاصلا قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتسنى عطفه على جواب لما ولذلك قيل هو معطوف على الجملة ، وقيل على على أشربوا ﴿ على ملك سليمان ﴾ أى فى عهد ملكه قيل كانت الشياطين يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أ كاذب يلفقونها ويلقونها إلى السكينة وهم يدونونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك فى عهد سليمان عليه السلام حتى قيل إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون هذا علم سليمان وماتم له ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الإنس والجن والطير والريح التى تجرى بأمره وقيل إن سليمان عليه السلام كان قد دفن كثيرآ من العلوم التى خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه فلما مضت على ذلك مدة توصل إليها قوم من المنافقين فكتبوا فى خلال ذلك أشياء من فنون السحر تناسب تلك الأشياء المدفونة من بعض الوجوه ثم بعد موته وإطلاع الناس على تلك الكتب أو همومهم أنه من عمل سليمان عليه السلام وأنه ما بلغ هذا المبلغ إلا بسبب هذه الأشياء .

﴿ وما كفر سليمان ﴾ تنزيهه لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيب لمن افترى عليه بأنه كان يعتقده ويعمل به والتعرض لكونه للبهالة فى فى إظهار نزاهته عليه السلام وكذب باهتيه بذلك ﴿ ولكن الشياطين ﴾ وقرىء بتخفيف لكن ورفع الشياطين والواو عاطفة للجملة الاستدراكية على ما قبلها وكون المخففة عند الجمهور للعطف إنما هو عند عدم الواو وكون ما بعدها مفردا ﴿ كفروا ﴾ باستعمال السحر وتدوينه ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ إغواء وإضلالا والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير كفروا أو من الشياطين فإن ما فى لكن من رائحة الفعل كاف فى العمل فى الحال أو فى محل الرفع على خبر ثان للسكن أو بدل من الخبر الأول وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار التعليم وتجده أو جملة مستأنفة هذا على تقدير كون الضمير للشياطين وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل اتبعوا فهى إما حال منه وإما استئنافية فحسب واعلم أن السحر أنواع منها سحر السكندانيين الذين كانوا فى قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم ومنها

تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام لإبطال مقاتلتهم وهم ثلاث فرق ففرقة منهم يزعمون أن الأفلاك والنجوم واجبة الوجود لذواتها وهم الصابئة وفرقة يقولون بإلهية الأفلاك ويتخذون لكل واحد منها هيكلًا ويشغلون بخدمتها وهم عبادة الأوثان وفرقة أثبتوا للأفلاك وللكواكب فاعلا مختارًا لسكنهم قالوا إنه أعطاها قوة عالية نافذة في هذا العالم وفوض تدبيره إليها ومنها سحر أصحاب الأرواح والنفوس القوية فإنهم يزعمون أن الإنسان تبلغ روحه بالتصفية في القوة والتأثير إلى حيث يقدر على الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وتغيير البنية والشكل ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجن ومنها التخيلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة ولا خلاف بين الأمة في أن من اعتقد الأول فقد كفر وكذا من اعتقد الثاني وهو سحر أصحاب الأرواح والنفوس القوية وأما من اعتقد أن الإنسان يبلغ بالتصفية وقراءة العزائم والرق إلى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب ذلك على سبيل جربان العادة بعض الخوارق فالمعزلة اتفقوا على أنه كافر لأنه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الأنبياء والرسول بخلاف غيرهم ولعل التحقيق أن ذلك الإنسان إن كان خيرا متشربا في كل ما يأتي ويذر وكان من يستعين به من الأرواح الحيرة وكانت عزائمه ورقاه غير مخالفة لأحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيما ظهر في يده من الخوارق ضرر شرعي لأحد فليس ذلك من قبيل السحر وإن كان شريرا غير متمسك بالشريعة الشريفة فظاهر أن من يستعين به من الأرواح الخبيثة الشريرة لاحتالة ضرورة امتناع تحقق التضام والتعاون بينهما من غير اشتراك في الحبث والشرارة فيكون كافرا قطعاً ، وأما الشعوذة وما يجري مجراها من إظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار فإطلاق السحر عليها بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة لأنه في الأصل عبارة

عن كل ما لطف مأخذه وخفى سببه أو من الصرف عن الجهة المعتادة لما أنه في أصل اللغة الصرف على ما حكاه الأزهري عن الفراء ويونس ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ عطف على السحر أى ويعلمونهم ما أنزل عليهما والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه أو على ما تملو وما بينهما اعتراض أى واتبعوا ما أنزل الخ وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس كما ابتلى قوم طالوت بالنهر أو تمييزا بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس أو لأن السحرة كثرت في ذلك الزمان واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين وإظهار أمرهم على الناس وأما ما يحكى من أن الملائكة عليهم السلام لما رأوا ما يصعد من ذنوب بنى آدم عيروهم ، وقالوا لله سبحانه هؤلاء الذين اخترتهم لخلافة الأرض يعصونك فيها فقال عز وجل لوركت فيكم فركبت فيهم لعصيتموني قالوا سبحانه ما ينبغي لنا أن نعصيك قال تعالى فاخترنا من خياركم ملكين فاخترنا هاروت وماروت وكانا من أصلحهم وأعبدهم فأهبطا إلى الأرض بعد ماركب فيهما ماركب في البشر من الشهوة وغيرها من القوة ليقضيا بين الناس نهارا ويعرجا إلى السماء مساء وقدنهما عن الإشرار والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا يقضيان بينهما نهارا فإذا أمسيا ذكرنا اسم الله الأعظم فصعدا إلى السماء فاختصمت لهما ذات يوم امرأة من أجمل النساء تسمى زهرة وكانت من لحم وقيل كانت من أهل فارس ملكة في بلدها وكانت خصوصتها مع زوجها فلما رأياها افتتن بها فراوداها عن نفسها فأبت فألحها عليها فقالت لا إلا أن تقضيا لى على خصمى ، ففعلا ، ثم سألاها ما سألا ، فقالت : لا إلا أن تقتلاه ففعلا ، ثم سألاها ما سألا فقالت لا إلا أن تشربا الخمر وتسجدا للهنم ففعلا كلا من ذلك بعد اللتيا والتي ثم سألاها ما سألا فقالت لا إلا أن تعلماني ما تصعدان به إلى السماء فعلمها الاسم الأعظم فدعت به وصعدت إلى السماء فسنحها سبحانه كوكبا فهما بالعروج حسب عادتهما فلم تعطعهما أجنحتهما

فعلما ما حل بهما ، وكان في عهد إدريس عليه السلام فالتجأ إليه ليشفع لهما
فجعل يخبرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الأول
لأنقطاعه عما قليل فهما معذبان ييا بل قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان
يضر بان بسياط الحديد إلى قيام الساعة فيما لا تعويل عليه لما أن مداره رواية
اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل ولعله من مقولة الأمثال
والرموز التي قصد بها إرشاد اللبيب الأريب بالترغيب والترهيب وقيل هما
رجلان سميّا ملكين لصلاحهما وبعضه قراءة الملكين بالكسر ﴿ ييا بل ﴾
الباء بمعنى في وهي متعلقة بأنزل أو بمحذوف وقع حالا من الملكين أو من
الضمير في أنزل وهي بابل العراق ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه بابل أرض
الكوفة وقيل جبل دماوند ومنع الصرف العجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية
﴿ هاروت وماروت ﴾ عطف ببيان للملكين علمان لهما ومنع صرفهما للعجمة
والعلمية ، ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا ، وأما من قرأ
الملكين بكسر اللام أو قال كانا رجلين صالحين فقال هما أسمان لهما وقيل هما
اسما قبيلتين من الجن هما المراد من الملكين بالكسر وقرئ بالرفع على هما
هاروت ، وماروت ﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ من مزيدة في المفعول به لإفادة
تأكيد الاستغراق الذي يفيدة أحد لا لإفادة نفس الاستغراق كما في قولك
ما جاءني من رجل وقرئ يعلمان من الإعلام ﴿ حتى يقول لا إنما نحن فتنة ﴾
الفتنة الاختبار والامتحان وإفرادها مع تعددهما لكونها مصدرا وحماها عليهما
مواظاة للمبالغة كأنهما نفس الفتنة والقصر لبيان أنه ليس لهما فيها يتعاطيانه شأن
سواها لينصرف الناس عن تعلمه أى ، وما يعلمان ما أنزل عليهما من السحر
أحدا من صالبيه حتى ينصحا قبل التعليم ويقولوا له إنما نحن فتنة وابتلاء من
الله عز وجل فن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيقته كفر ومن توفى عن العمل به
أو اتخذ ذريعة للاتقاء عن الاعتزاز بمثله بقى على الإيمان ﴿ فلا تسكروا ﴾
باعتقاد حقيقته وجواز العمل به والظاهر أن غاية النفي ليست هذه المقالة فقط
بل من جملتها التزام المخاطب بموجب النهى لكن لم يذكر لظهوره وكون

السلام في بيان اعتناء المملوكين بشأن النصيح والإرشاد والجملة في محل النصب على الحالية من ضمير يعملون لامعطوفة عليه كما قيل أى ولكن الشياطين كفروا يعملون الناس السحر ، وما أنزل على المملوكين ويحملونهم على العمل به لغواء وإضلالا ، والحال أنهما ما يعملان أحداً حتى ينهياه عن العمل به والكفر بسببه. وأما ما قيل من أن ما في قوله تعالى (وما أنزل الخ) نافية والجملة معطوفة على قوله تعالى (وما كفر سليمان) جىء بها لتكذيب اليهود في القصة أى لم ينزل على المملوكين لإباحة السحر ، وأن هاروت وماروت بدل من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خصتا بالذكر لأصالتها وكون باقي الشياطين أتباعا لهما وأن المعنى ما يعملان أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر فتكون مثلنا فيأباه أن مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس بما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهى عن الكفر مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلام فإن الإبدال في حكم تنحية المبدل منه ﴿ فيتعلمون منهما ﴾ عطف على الجملة المنفية فإنها في قوة المثبتة كأنه قيل يعملانهم بعد قولهما إنما نحن الخ والضمير لأحد حملا على المعنى كما في قوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) ﴿ ما يفرقون به ﴾ أى بسببه وباستعماله ﴿ بين المرء ﴾ وقرئ بضم الميم وكسرها مع الهمزة وتشديد الراء بلا همزة ﴿ وزوجه ﴾ بأن يحدث الله تعالى بينهما التباغض والفرك والنشوز عند ما فعلوا ما فعلوا من السحر على حسب جرى العادة الإلهية من خلق المسببات عقيب حصول الأسباب العادية ابتلاء لا أن السحر هو المؤثر في ذلك وقيل فيتعلمون منهما ما يعملون به فيراه الناس ويعتقدون أنه حق فيكفرون فتبين أزواجهم ﴿ وما هم بصارين به ﴾ أى بما تعلموه واستعملوه من السحر ﴿ من أحد ﴾ أى أحداً ومن زائدة كما ذكر في قوله تعالى وما يعملان من أحد والمعهود وأن كان زيادتهما في معمول فعل منفى إلا أنه حملت الإسمية في ذلك على الفعلية كأنه قيل وما يضررون به من أحد ﴿ إلا بإذن الله ﴾ لأنه وغيره من الأسباب بمعزل من التأثير بالذات وإنما هو بأمره تعالى فقد يحدث عند استعمالهم السحر فعلا من أفعاله ابتلاء ، وقد لا يحدثه والاستثناء ممنوع.

والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير ضارين أو من مفعوله وإن كان
نكرة لاعتمادها على النفي أو الضمير المجرور في به أى وما يضررون به أحداً
إلا مقرونا بإذن الله تعالى وقرىء بضارى على الإضافة يحمل الجار جزءاً من
المجرور وفصل ما بين المضافين بالظرف ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ﴾ لأنهم
يقصدون به العمل أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿ ولا ينفعهم ﴾ صرح
بذلك لإيداعنا بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر بل هو شر بحت
وضرر محض لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار بأ كاذب من يدعى
النبوة مثلاً من السحرة أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع في الجملة
وفيه أن الاجتناب عما لا يؤمن غوائله خير كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تهجر
إلى الغواية وإن قال من قال :

عرفت الشر للشر لكن لتوقية

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

﴿ ولقد علموا ﴾ أى اليهود الذين حكميت جنباياتهم ﴿ لمن اشتراه ﴾
أى استبدل ما تعلم الشياطين بكتاب الله عز وجل واللام الأولى جواب قسم
محذوف والثانية لأم ابتداء علق به علموا عن العمل ومن موصولة في حيز الرفع
بالإبتداء واشتراه صلتها وقوله تعالى ﴿ ماله في الآخرة من خلاق ﴾ أى من
نصيب جملة من مبتدأ وخبر ومن مريدة في المبتدأ وفي الآخرة متعلق بمحذوف
وقع حالاً منه ولو أخر عنه لكان صفة له والتقدير ماله خلافاً في الآخرة
وهذه الجملة في محل الرفع على أنها خبر للوصول والجملة في حيز النصب
سادة مسد مفعولى علموا إن جعل متعدياً إلى اثنين أو مفعوله الواحد إن جعل
متعدياً إلى واحد ، الجملة ولقد علموا الخ مقسم عليها دون جملة لمن اشتراه الخ
هذا ما عليه الجمهور وهو مذهب سيدييه وقال الفراء وتبعه أبو البقاء إن
اللام الأخيرة موصولة للفهم ومن شرطية من فوعة بالإبتداء واشتراه خبرها ،
وماله في الآخرة من خلاق جواب القسم وجواب الشرط محذوف اكتفاء
عنه بجواب القسم لأنه إذا اجتمع الشرط والقسم يحذف سابقهما غالباً لحيلتد

يكون الجملتان مقسما عليهما ﴿ ولبس ما شروا به أنفسهم ﴾ أى باعوها واللام جواب قسم محذوف والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبسها باعوا به أنفسهم السحر أو الكفر وفيه إيدان بأنهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عرضوا أنفسهم للهلكة وباعوها بما لا يزيدهم إلا تبارا وتجويز كون الشراء بمعنى الاشتراء ما لا سبيل إليه لأن المشتري متعين وهو ما تتلو الشياطين ولأن متعلق الذم هو المأخوذ لا المنبوذ كما أشير إليه في تفسير قوله سبحانه لبسها اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى يعملون بعلمهم جعلوا غير عالمين لعدم عملهم بموجب علمهم أو لو كانوا يتفكرون فيه أو يعلمون قبحه على اليقين أو حقيقة ما يتبعه من العذاب عليه على أن المثبت لهم أولا على التوكيد القسمى العقل الغريزى أو العلم الإجمالى بقبح الفعل أو ترتب العقاب من غير تحقيق وجواب لو محذوف أى لما فعلوا ما فعلوا ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ أى بالرسول الموماً إليه فى قوله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله) الخ أو بما أنزل إليه من الآيات المذكورة فى قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) أو بالتوراة التى أريدت بقوله تعالى (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) فإن الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفر بها ﴿ واتقوا ﴾ المعاصى المحسكية عنهم ﴿ لثوبة من عند الله خير ﴾ جواب لو وأصله لاثبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم فحذف الفعل وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها وحذف المفضل عليه لإجلالا للمفضل من أن ينسب إليه وتنكير المثوبة للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة تشريفية لمثوبة أى لشيء ما من المثوبة كائنة من عنده تعالى خير وقيل جواب لو محذوف أى لاثبوا ، وما بعده جملة مستأنفة فإن وقوع الجملة الابتدائية جوابا للو غير معهود فى كلام العرب وقيل لو للتمنى ومعناه أنهم من فظاعة الحال بحيث يتمنى العارف لإيمانهم واتقاهم تلهفا عليهم وقرىء لمثوبة وإنما سمى الجزاء ثوابا ومثوبة لأن المحسن يثوب إليه ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أن ثواب الله خير نسبوا إلى الجهل لعدم

العمل بموجب العلم ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمؤمنين فيه إرشاد لهم إلى الخير وإشارة إلى بعض آخر من جنائيات اليهود ﴿لاتقولوا راعنا﴾ المراعاة المبالغية في الرعى وهي حفظ الغير وتدير أمورهم وتدارك مصالحهم وكان المسلمون إذا ألقى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من العلم يقولون راعنا يارسول الله أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه وكانت لليهود كلمة عبرانية أو سريانية يتسابقون بها فيما بينهم وهي راعينا قيل معناها اسمع لاسمعت فلما سمعوا بقول المؤمنين ذلك افترضوه واتخذوه ذريعة إلى مقصدهم فجعلوا يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم يعنون به تلك المسبة أو نسبته صلى الله عليه وسلم إلى الرعن وهو الحق والهوج روى أن سعد بن عبادة رضى الله عنه سمعها منهم فقال يا أعداء الله عليكم لعنة الله عليكم لعنة الله والذي نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأحتزن عنقه قالوا أو لستم تقولونها فنزلت الآية ونهى فيها المؤمنون عن ذلك قطعاً لالسننة اليهود عن التدليس وأمروا بما فى معناها ولا يقبل التلبس فقيل ﴿وقولوا انظرونا﴾ أى انظر إلينا بالحذف والإيصال أو انتظرنا على أنه من نظره إذا انتظره وقرىء أنظرونا من النظر ، أى أمهلنا حتى نحفظ وقرىء راعونا على صيغة الجمع للتوقير وراعنا على صيغة الفاعل أى قولاً ذارع كدارع ولا بن لأنه لما أشبه قولهم راعينا وكان سبباً للسب بالرعن اتصف به ﴿واسمعوا﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يلقي إليكم من من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لاتحتاجوا إلى الاستعانة وطلب المراعاة أو واسمعوا ما كلفتموه من النهى والأمر بمجد واعتناء حتى لاترجعوا إلى ما نهيتهم عنه أو واسمعوا سماع طاعة وقبول ولايسكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وللكافرين﴾ أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفرياتهم وجعلوه سبباً للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له ما قالوا ﴿عذاب أليم﴾ لما اجتروا عليه من العظيمة وهو تذييل لما سبق فيه وعيد شديد لهم ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه .

﴿ ما يود الذين كفروا ﴾ الود حب الشيء مع تمنييه ولذلك يستعمل في كل منهما ونفيه كناية عن الكراهة ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بعلية ما في حيز الصلة لعدم ودهم ولعل تعلقه بما قبله من حيث أن القول المنهى عنه كثير ما كان يقع عند تنزيل الوحي المعبر عنه في هذه الآية بالخير فكأنه أشير إلى أن سبب تحريفهم له إلى ما حكى عنهم لوقوعه في أثناء حصول ما يكرهونه من تنزيل الخير وقيل كان فريق من اليهود يظهرن للؤمنين محبة ويزعمون أنهم يودون لهم الخير فنزلت تكذيباً لهم في ذلك ومن في قوله تعالى ﴿ من أهل الكتاب ولا المشركين ﴾ للتبيين كما في قوله عز وعلا (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ولا مزيدة لما ستعرفه ﴿ أن ينزل عليكم ﴾ في حيز النصب على أنه مفعول يود وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعين الفاعل والتصریح الآتي في قوله تعالى ﴿ من خير ﴾ هو القائم مقام فاعله ومن مزيدة للاستغراق والنفي وإن لم يباشره ظاهراً لكنه منسحب عليه معنى والخير الوحي وحمله على ما يعمه وغيره من العلم والنصرة كما قيل يآباه وصفه فيما سيأتي بالاختصاص وتقديم الظرف عليه مع أن حقه التأخر عنه لإظهار كمال العناية به لأنه المدار لعدم ودهم ومن في قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ ابتدائية والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بعليته لتنزيل الخير والإضافة إلى ضمير المخاطبين لتتبرير فهم وليست كراهتهم لتنزيله على المخاطبين من حيث تعبدهم بما فيه وتعرضهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحيثية من جملة من نزل عليهم الخير بل من حيث وقوع ذلك التنزيل على النبي صلى الله عليه وسلم وصيغة الجمع للإيذان بأن مدار كراهتهم ليس معنى خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم بل وصف مشترك بين الكل هو الخلو عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين والمعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم ويكرهونكم فيحسدونكم أن ينزل عليكم شيء من الوحي أما اليهود فبناء على أنهم أهل الكتاب وأبناء الأنبياء الناشئون في مهبط الوحي وأنتم أميون وأما المشركون فإدلالاً بما كان لهم من الجاه والمال زعماً منهم أن رياسة الرسالة كسائر الرياسات الدنيوية منوطة

بالأسباب الظاهرة ولذلك قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ولما كانت اليهود بهذا الداء أشهر لاسيما في أثناء ذكر ابتلائهم به لم يلزم من نفى ودادتهم لما ذكر نفى ودادة المشركين له فزيدت كلمة لا لتأكيد النفي ﴿والله يختص برحمته﴾ جملة ابتدائية سبقت لتقرير ما سبق من تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وإرغام الكافرين له والمراد برحمته الوحي كما في قوله سبحانه (أهم يقسمون رحمة ربك) عبر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين بالخير وباعتبار إضافته إليه تعالى بالرحمة قال على رضى الله عنه بنبوته خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم فالفعل متعدد وصيغة الافتعال الإنشاء عن الاصطفاء وإيثاره على التنزيل المناسب للسياق الموافق لقوله تعالى (أن ينزل الله من فضله على من يشاء) لزيادة تشریفه صلى الله عليه وسلم وإقناطهم بما علقوا به أطماعهم الفارغة والباء داخلة على المقصور أى يؤتى رحمته ﴿من يشاء﴾ من عباده ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتى الفائض عليه بحسب إرادته عز وعلا تفضلا لاتعداه إلى غيره وقيل الفعل لازم ومن فاعله والضمير العائد إلى من محذوف على التقديرين وقوله تعالى ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ تذييل لما سبق مقرر لمضمونه وفيه إيدان بأن إيتاء النبوة من فضله العظيم كقوله تعالى (إن فضله كان عليك كبيرا) وأن حرمان من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله بل لمشيشته الجارية على سنن الحكمة البالغة وتصدير الجملتين بالاسم الجليل للإيدان بفخامة مضمونها وكون كل منهما مستقلة بشأنها فإن الإضمار فى الثانية منبئ عن توقفها على الأولى ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سر النسخ الذى هو فرد من أفراد تنزيل الوحي وإبطال مقالة الطاعنين فيه أثر تحقيق حقيقة الوحي ورد كلام الكافرين له رأساً قيل نزلت حين قال المشركون أو اليهود ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينههم عنه ويأمر بخلافه والنسخ فى اللغة الإزالة والنقل يقال نسخت الریح الأثر أى أزالته ونسخت الكتاب أى نقلته ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعاً وإنساؤها لإذهابها من القلوب وماشرطية جازمة لنسخ منتصبة

به على المفعولية وقرىء فنسخ من أنسخ أى نأمرك أو جبريل بنسخها أو ننجدها منسوخة ونسأها من النسء أى نؤخرها ونسها بالتشديد وتنسها وتنسها على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيًا للفاعل وللمفعول وقرىء ما فنسخ من آية أو فنسكها وقرىء ما فنسك من آية أو فنسخها والمعنى أن كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معاً إلى بدل أو إلى غير بدل ﴿نأت بخير منها﴾ أى نوع آخر هو خير للعباد وبحسب الحال فى النفع والثواب من الزاهية وقرىء بقلب الهمزة ألفاً ﴿أو مثلها﴾ أى فيما ذكر من النفع والثواب وهذا الحكم غير مختص بنسخ الآية التامة فما فوقها بل جار فى ما دونها أيضاً وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب والنص كما ترى دال على جواز النسخ كيف لا وتنزيل الآيات التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية إنما هو بحسب ما يقتضيه من الحكم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الأحوال ويتبدل حسب تبدل الأشخاص والأبصار كأحوال المعاش فرب حكم تقتضيه الحكمة فى حال تقتضى فى حال أخرى نقيضه فلو لم يحزن النسخ لاختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام ﴿ألم تعلم﴾ الهمزة للتقرير كما فى قوله سبحانه (أليس الله بكاف عبده) وقوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ ساد مسد. مفعولى تعلم عند الجمهور ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الإتيان بما هو خير من المنسوخ وبما هو مثله لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء علم قدرته على ذلك قطعاً والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لثبوت المهابة والإشعار بمناط الحكم فإن شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية وكذا الحال فى قوله عز سلطانه ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ فإن عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتها والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ والجملة خبر لأن وإيثاره على أن يقال إن لله ملك الله السموات

والأرض للقصد إلى تقوى الحكم بتكرار الإسناد وهو إما تكرير للتقرير وإعادة للاستشهاد على ما ذكر وإنما لم يعطف أن مع ما في حيزها على ما سبق من مثلها وما لزيادة التأكيد وإشعارا باستقلال العلم بكل منهما وكفايته في الوقوف على ما هو المقصود وإما تقرير مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الأشياء أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة النامة على التصرف السكلى فيهما إيجاداً وإعداماً وأمرآ ونهياً حسبما تقتضيه مشيئته لا معارض لأمره ولا معقب لحكمه فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شيء من الأشياء وقوله تعالى ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لأن داخلته معها تحت تعلق العلم المقرر وفيه إشارة إلى تناول الخطابين السابقين للآمة أيضاً وإنما إفراده عليه السلام بهما لما أن علومهم مستندة إلى علمه عليه السلام ووضع الاسم الجليل موضع الضمير الراجع إلى اسم أن لثبوتية المهابة والإيدان بمقارنة الولاية والنصرة للقوة والعزة والمراد به الاستشهاد بما تعلق به من العلم على إرادته تعالى بما ذكر من الإتيان بما هو خير من المنسوخ أو بمثله فإن مجرد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعى حصوله البتة وإنما الذى يستدعيه كونه تعالى مع ذلك ولياً ونصيراً لهم فمن علم أنه تعالى وليه ونصيره على الاستقلال يعلم قطعاً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيعرض أمره إليه تعالى ولا يخطر بباله ريبية في أمر النسخ وغيره أصلاً والفرق بين الولى والنصير أن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبياً من المنصور وما إما تميمية لا عمل لها ولكم خبر مقدم ومن ولى مبتدأ مؤخر زيدت فيه كلمة من للاستخراق وإما حجازية ولكم خبرها المنصوب عند من يحيز تقديمه واسمها من ولى ومن مزيدة لما ذكر ومن دون الله في حيز النصيب على الحالية من اسمها لأنه في الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالاً ومعناه سوى الله والمعنى أن قضية العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة هو الجزم والإيقان بأنه تعالى لا يفعل بهم في أمر من أمور دينهم أو دنياهم إلا ما هو خير لهم والعمل بموجبه من الثقة به والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه من غير إصغاء إلى

أقاول الكفرة وتشكيكاتهم التي من جملتها ما قالوا في أمر النسخ وقوله تعالى ﴿أم تريدون﴾ تجريد للخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم وتخصيص له بالمؤمنين وأم منقطعة ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من حملهم على العمل بموجب عليهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم في ذلك وأمارات التأثر من أقاويل الكفرة إلى التحذير من ذلك ومعنى الهمزة إنكار وقوع الإرادة منهم واستبعاده لما أن قضية الإيمان وإزعة عنها وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها للبالغة في إنكاره واستبعاده ببيان أنه بما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلاً عن صدور نفسه والمعنى بل أتريدون ﴿أن تسألوا﴾ وأتم مؤمنون ﴿رسولكم﴾ وهو في تلك الرتبة من غلو الشأن واقترحوا عليه ما تشتهون غير واثقين في أموركم بفضل الله تعالى حسبها يوجه قضية عليكم بشؤنه سبحانه قيل لعلمهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيان تفاصيل الحكم الداعية إلى النسخ وقيل سأله عليه السلام قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كانت للبشركين وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها الماء كول والمشروب وقوله تعالى ﴿كما سئل موسى﴾ مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر مؤكد محذوف وما مصدرية أى سؤالاً مشبهاً بسؤال موسى عليه السلام حيث قيل له اجعل لنا إلهاً وأرنا الله جهرة وغير ذلك ومقتضى الظاهر أن يقال كما سألوا موسى لأن المشبه هو المصدر من المبني للفاعل أعنى سؤالية المخاطبين لا من المبني للفعول أعنى مسئولية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يشبه بمسؤولية موسى عليه السلام فلعله أريد التشبيه فيهما معاً ولكنه أوجز النظم فذكر في جانب المشبه السائلية وفي جانب المشبه به المسئولية واكتفى بما ذكر في كل موضع عما ترك في الموضع الآخر كما ذكر في قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقد جوز أن تكون ما موصولة على أن العائد محذوف أى كالسؤال الذى سئله موسى عليه السلام وقوله تعالى ﴿من قبل﴾ متعلق بسئل جىء به للتأكيد وقرئ سئل بالياء وكسر السين وبتسهيل الهمزة بين بين ﴿ومن يتبدل الكفر﴾ أى يختره ويأخذه

لنفسه ﴿بالإيمان﴾ بمقابلته بدلا منه وقرىء ومن يبدل من أبدل وكان مقتضى الظاهر أن يقال ومن يفعل ذلك أى السؤال المذكور أو إرادته وحاصله ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة بحسب المصالح التى من جملتها الآيات الناسخة التى هى خير محض وحق بحث واقترح غيرها ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أى عدل وجار من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصِّل إلى معالم الحق والهدى وتاه فى تيه الهوى وتردى فى مهاوى الردى وإنما أُوثر على ذلك ما عليه النظم الكبريم للتصريح من أول الأمر بأنه كفر وارتداد وأن كونه كذلك أمر واضح غنى عن الإخبار به بأن يقال ومن يفعل ذلك يكفر حقيق بأن يعد من المسلمات ويجعل مقدما للشرطية روما للبالغة فى الزجر والإفراط فى الردع وسواء السبيل من باب إضافة الوصف إلى الموصوف لقصد المبالغة فى بيان قوة الاتصاف كأنه نفس السواء على منهاج حصول الصورة فى الصورة الحاصلة وقيل الخطاب لليهود حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتابا من السماء وقيل للمشركين حين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا إلخ فإضافة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم على القولين باعتبار أنهم من أمة الدعوة ومعنى تبدل الكفر بالإيمان وهم بمعزل من الإيمان ترك صرف قدرتهم إليه مع تمكنهم من ذلك وإيثارهم للكفر عليه ﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ هم رهط من أحبار اليهود . روى أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فإنى عاهدت أن لا أكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ما عشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبا وقال حذيفة أما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام ديننا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبله وبالمؤمنين إخوانا ثم أتيارسل الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال أصبنا خيرا وأفلحنا فنزلت ﴿لو يردونكم﴾ حكاية لودادتهم ولو فى معنى التمنى وصيغة الغيبة كما فى قوله حلف ليفعلن وقيل

هى بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها وبما بعدها مصدر يقع
منعولا لودوا التقدير وذوا ردكم وقيل هى على حقيقتها وجوابها محذوف تقديره
لو يردونكم كمنارا اسروا بذلك و﴿من بعد إيمانكم﴾ متعلق ببردونكم وقوله
تعالى ﴿كنفارا﴾ منقول ثان له على تضمين الرد معنى التصيير أى يصيرونكم
كنفارا كما فى قوله :

رمى الحدثنان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

وقيل هو حال من منعوله والأول أدخل لما فيه من الدلالة صريحا على كون
الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه ضرورة
كون المخاطبين مؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع
توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة ما أراده وغاية بعده من الوقوع إما
لزيادة قبحة الصارف للعاقل عن مباشرته وإما للمانعة الإيمان له كأنه قيل من بعد
إيمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى .

﴿حسدا﴾ علة لود أو حال أريد به نعت الجمع أى حاسدين لكم والحسد
الأسف على من له خير بخيره ﴿من عند أنفسهم﴾ متعلق بورد أى ودوا ذلك من
أجل تشبههم وحظوظ أنفسهم لا من قبل التدبير والميل مع الحق ولو على
زعمهم أو بحسدا أى حسدا منبعثا من أصل نفوسهم بالغأ أقصى مراقبه ﴿من
بعد ما تبين لهم الحق﴾ بالمعجزات الساطعة وبما عاينوا فى التوراه من الدلائل
وعلموا أنكم متمسكون به وهم منهمكون فى الباطل ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ العفو
ترك المؤاخذه والعقوبة والصفح ترك التثريب والتأنيب ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾
الذى هو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم أو
الإذن فى القتال وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف ولا
يقدر فى ذلك ضرب الغاية لأنها لا تعلم إلا شرعا ولا يخرج الوارد بذلك من
أن يكون ناسخا كأنه قيل فاعفوا واصفحوا إلى ورود الناسخ ﴿لأن الله على كل

شيء قدير ﴿ فينتقم منهم إذا حان حينه وأن أوانه فهو تعليل لما دل عليه ما قبله
 ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ عطف على فاعلوا أمروا بالصبر والمداراة
 والرجاء إلى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير ﴾
 كصلاة أو صدقة أو غير ذلك أي شيء من الخيرات تقدموه لمصلحة أنفسكم
 ﴿ تجددوه عند الله ﴾ أي تجددوا ثوابه وقرىء تقدموا من أقدم ﴿ إن الله بما تعملون
 بصير ﴾ فلا يضيع عنده عمل فهو وعد للمؤمنين وقرىء بالياء فهو وعيد للكافرين
 ﴿ وقالوا ﴾ عطف على ود والضمير لأهل الكتابين جميعاً ﴿ لن يدخل الجنة إلا
 من كان هوداً أو نصارى ﴾ أي قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً
 وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فلف بين القولين ثقة أن
 السامع يرد كلا منهما إلى قائله ونحوه وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا
 وليس مرادهم بأولئك من أقام اليهودية والنصرانية قبل النسخ والتحريف على
 وجهيهما بل أنفسهم على ما هم عليه لأنهم إنما يقولونه لإضلال المؤمنين وردهم
 إلى الكفر والهود جمع هاند كعوز جمع عائد وبزل جمع بازل والإفراد في كان
 باعتبار لفظ من والجمع في خبره باعتبار معناه وقرىء إلا من كان يهودياً أو
 نصرانياً ﴿ تلك أمانيتهم ﴾ الأمانى جمع أمنية وهي ما يتمنى كالأعجوبة والأضحوكة
 والجملة معترضة مبينة لبطلان ما قالوا وتلك إشارة إليه والجمع باعتبار صدوره
 عن الجميع وقيل فيه حذف مضاف أي أمثال تلك الأمانية أمانيتهم وقيل تلك
 إشارة إليه وإلى ما قبله من أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردهم
 كفاراً ويرده قوله تعالى ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ فإنهما ليسا
 بما يطلب له البرهان ولا بما يحتمل الصدق والكذب قيل هاتوا أصله آتوا فلبت
 الهمزة هاء أي أحضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين
 في دعواكم . هذا ما يقتضيه المقام بحسب النظر الجليل والذي يستدعيه إعجاز
 التنزيل أن يحمل الأمل التبكيقي على طلب البرهان على أصل الدخول الذي
 يتضمنه دعوى الاختصاص به فإن قوله تعالى ﴿ بلى ﴾ إلخ لإثبات من جهته تعالى
 لما نفوه مستلزم لنفي ما أنبتوه وإذ ليس الثابت به مجرد دخول غيرهم بالدخول

كما ستعرفه بإذن الله تعالى ظهر أن المنفى أصل دخولهم ومن ضرورته أن يكون هو الذى كلفوا إقامة البرهان عليه لا اختصاصهم به ليتحدد مورد الإثبات والنفى وإنما عدل عن إبطال صريح ما ادعوه وسلك هذا المسلك إبانة لغاية حرمانهم بما علقوا به أطماعهم وإظهاراً لسكالم عجزهم عن إثبات مدعاهم لأن حرمانهم من الاختصاص بالدخول وعجزهم عن إقامة البرهان عليه لا يقتضيان حرمانهم من أصل الدخول وعجزهم عن إثباته وأما نفس الدخول فحيث ثبت حرمانهم منه وعجزهم عن إثباته فهم من الاختصاص به أبعد وعن إثباته أعجز وإنما الفائز به من انتظمه قوله سبحانه :

﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ أى أخلص نفسه له تعالى لا يشرك به شيئاً عبر عنها بالوجه أشرف الأعضاء وجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع الذى هو من أخص خصائص الإخلاص أو بوجهه وقصده بحيث لا يلوى عزيمته إلى شئ غيره ﴿ وهو محسن ﴾ حال من ضمير أسلم أى والحال أنه محسن فى جميع أعماله التى من جملتها الإسلام المذكور وحقيقة الإحسان الإتيان بالعمل على الوجه اللائق وهو حسنه الوصفى التابع لحسنه الذاتى وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿ فله أجره ﴾ الذى وعدله على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة أو عما يدخل هو فيه دخولا أوليا وأياما كان فتصويره بصورة الأجر للإيدان بقوة ارتباطه بالعمل واستحالة نيله بدونه وقوله تعالى : ﴿ عند ربه ﴾ حال من أجره والعامل فيه معنى الاستقرار فى الظرف والعندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافاً إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به وتقرير مضمون الجملة أى فله أجره عند مالكه ومدير أموره ومبلغه إلى كماله والجملة جواب من إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة والفاء لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله تعالى بلى وحده ويجوز أن يكون من فاعلا لفعل مقدر أى بلى يدخلها من أسلم وقوله تعالى فله أجره معطوف على ذلك المقدر وأياما كان فتعليق ثبوت الأجر بما ذكر

من الإسلام والإحسان المختصين بأهل الإيمان قاض بأن أولئك المدعين من دخول الجنة بمعزل ومن الاختصاص به بألف منزل ﴿ولا خوف عليهم﴾ في الذارين من حقوق مكروه ﴿ولا هم يحزنون﴾ من فوات مطلوب أى لا يعترتهم ما يوجب ذلك لا أنه يعترتهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الأفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه إثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم . نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا فارتفعت أصواتهم فقالوا لهم لستم على شيء أى أمر يعتد به من الدين أو على شيء مأمته أصلا مبالغه في ذلك كما قالوا أقل من لاشيء وكفروا بعبسى والإنجيل ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ على الوجه المذكور وكفروا بموسى والتوراة لا أنهم قالوا ذلك بناء للأمر على منسوخية التوراة ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ والواو للحال واللام للجنس أى قالوا ما قالوا والحال أن كل فريق منهم من أهل العلم والكتاب أى كان حق كل منهم أن يعترف بحقيقة دين صاحبه حسبما يتعلق به كتابه فإن كتب الله تعالى متصادقة كذلك أى مثل ذلك الذى سمعت به والكاف فى محل النصب اما على أنها نعت للمصدر محذوف قدم على عامله لإفادة القصر أى قولاً مثل ذلك القول بعينه لا قولاً مغايراً له ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ من عبدة الأصنام والمعتلة ونحوهم من الجهلة أى قالوا لأهل كل دين ليسوا على شيء وإما على أنها حال من المصدر المضممر المعروف الدال عليه قال أى قال القول الذين لا يعلمون حال كونه مثل ذلك القول الذى سمعت به ﴿مثل قولهم﴾ إما بدل من محل السكاف وإما مفعول للفعل المنفى قبله أى مثل ذلك القول قال الجاهلون بمثل مقالة اليهود والنصارى وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم فى سلك من لا يعلم أصلاً ﴿فأنه يحكم بينهم﴾ أى بين اليهود والنصارى فإن مساق النظم لبيان حالهم وإنما تعرض لمقالة غيرهم (١٦ - أراء السور - أول)

لإظهار كمال بطلان مقالهم ولأن الحاجة الموحجة إلى حكم إنما وقعت بينهم
﴿يوم القيامة﴾ متعلق بيحكم وكذا ما قبله وما بعده ولا ضير فيه لاختلاف
المعنى ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب
وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار والظرف الأخير متعلق بـ «يختلفون»
قدم عليه للمحافظة على رؤس الآي لا بكانوا ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد
الله﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن
لم يكن سبب التركيب متعرضا لإنكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشي
والاستعمال المطرد فإذا قيل من أكرم من فلان أولا أفضل من فلان فالمراد به
حتمًا أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا الحكم عام لكل
من فعل ذلك في أى مسجد كان وإن كان سبب النزول فعل طائفة معينة في
مسجد مخصوص . روى أن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى
ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وأن الروم غزوا أهلهم فخرّبوه وأحرقوا التوراة
وقتلوا وسبوا وقد نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن طيطيوس الرومى
ملك النصارى وأصحابه غزوا بنى إسرائيل وقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم
وأحرقوا التوراة وخرّبوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير
ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون في عهد عمر رضى الله عنه وإنما أوقع
المنع على المساجد وإن كان الممنوع هو الناس لما أن فعلهم من طرح
الأذى والتخريب ونحوهما متعلق بالمسجد لا بالناس منع كونه على حاله وتعلق
الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها مبطلّة لدعوى النصارى اختصاصهم
بدخول الجنة وقيل هو منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل
المسجد الحرام عام الحديدية فتعلقها بما تقدمها من جهة أن المشركين من جملة
الجاهلين القائلين لكل من عداهم ليسوا على شيء .

﴿أن يذكر فيها اسمه﴾ ثانى مفعولى منع كقوله تعالى (وما منع الناس
أن يؤمنوا) ، وقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها
الآولون) ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجار مع أن وأن يكون ذلك مفعولا

له أى كراهة أن يذكر فيها اسمه ﴿ وسعى في خرابها ﴾ بالهدم أو التعطيل
 .بإنقطاع الذكر ﴿ أولئك ﴾ المانعون الظالمون الساعون في خرابها ﴿ ما كان
 لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ أى ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية
 وخضوع فضلا عن الاجترار على تخريبها أو تعطيلها أو ما كان الحق أن
 يدخلوها إلا على حال التهييب وارتعاد الفرائص من جهة المؤمنين أن يطشوا
 بهم فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم في علم الله تعالى
 وقضائه بالآخرة إلا ذلك فيكون وعدا للمؤمنين بالنصرة واستخلاص
 ما استولوا عليه منهم وقد أنجز الوعد والله الحمد . روى أنه لا يدخل بيت
 بيت المقدس أحد من النصارى إلا متسكرا مسارقة وقيل معناه النهى عن
 تمكينهم من الدخول في المسجد واختلاف الأئمة في ذلك فجوزه أبو حنيفة
 مطلقا ومنعه مالك مطلقا وفرق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره ﴿ لهم ﴾
 أى لأولئك المذكورين ﴿ في الدنيا خزى ﴾ أى خزى فظيع لا يوصف
 بالقتل والسبى والإذلال بضرب الجزية عليهم ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾
 وهو عذاب النار لما أن سببه أيضاً وهو ما حكى من ظلمهم كذلك في العظام
 وتقديم الظرف في الموضوعين للتشويق إلى ما يذكر بعده من الخزى والعذاب
 لما مر من أن تأخير ما حقه التقديم موجب لتوجه النفس إليه فيتمكن فيها
 عند وروده فضل تمكن كما في قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) (وأنزل لك
 من الأنعام ثمانية أزواج) إلى غير ذلك ﴿ والله المشرق والمغرب ﴾ أى له كل
 الأرض التى هى عبارة عن ناحيتى المشرق والمغرب لا يختص به من حيث
 الملك والتصرف ومن حيث المحلية لعبادته مكان منها دون مكان فإن منعم
 من إقامة العبادة في المسجد الأقصى أو المسجد الحرام ﴿ فأينما تولوا ﴾ أى
 فى أى مكان فعلتم تولية وجوهكم شطر القبلة ﴿ فثم وجه الله ﴾ ثم اسم إشارة
 لله كان البعيد خاصة مبنى على الفتح ولا يتصرف سوى الجر بمن وهو خبر
 مقدم ووجه الله مبتدأ والجملة فى محل الجزم على أنها جواب الشرط أى
 هناك جهته التى أمر بها فإن إمكان التولية غير محتص بمسجد دون مسجد

أو مكان دون آخر أو فتم ذاته بمعنى الحضور العلى أى فهو عالم بما يفعل فيه
ومثيب لكم على ذلك وقرىء بفتح التاء واللام أى فأينما توجهوا القبلة
﴿إن الله واسع﴾ بإحاطته بالأشياء أو برحمته يريد التوسعة على عياده.
﴿عليم﴾ بمصالحهم وأعمالهم فى الأما كن كلها والجملة تعليل لمضمون.
الشرطية وعن ابن عمر رضى الله عنهما نزلت فى صلاة المسافرين على الراحة.
أينما توجهوا وقيل فى قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما
أصبحوا تبينوا خطأهم وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه.
التدارك وقيل هى توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للعبود عن أن يكون فى جهة.
﴿وقالوا اتخذ الله ولدا﴾ حكاية لطرف آخر من مقالاتهم الباطلة المحكية
فيما سلف معطوفة على ما قبلها من قوله تعالى وقالت الخ لا على صلة من لما
بينهما من الجمل الكثيرة الأجنبية والضمير لليهود والنصارى ومن شارحكهم.
فيما قالوا من الذين لا يعلمون وقرىء بغير واو على الاستئناف نزلت حين.
قالت اليهود عزيز ابن الله والنصارى المسيح ابن الله ومشركو العرب.
الملائكة بنات الله والاتخاذ إما بمعنى الصنع والعمل فلا يتعدى إلا إلى واحد
ولما بمعنى التصيير والمفعول الأول محذوف أى صير بعض مخلوقاته ولداً
﴿سبحانه﴾ تنزيه وتبرئة له تعالى عما قالوا وسبحان علم للتسبيح كعثمان.
الرجل وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى.
أنزه تنزيها لا تقا به وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح.
الذى هو الذهاب والإبعاد فى الأرض ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة.
العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة.
الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى وقيل
هو مصدر كغفران بمعنى التنزه أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به ففيه مبالغة من.
حيث إسناد البراءة إلى الذات المقدسة وإن كان التنزيه اعتقاد نزاهته تعالى.
عما لا يليق به لا لإثباتها له تعالى ﴿بل له ما فى السموات والأرض﴾ رد.
لما زعموا وتبنيه على بطلانه وكلمة بل للإضراب عما تقتضيه مقالاتهم الباطلة.

من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات ومن سرعة فناءه المحوجة إلى اتخاذ ما يقوم مقامه فإن مجرد الإمكان والفناء لا يوجب ذلك . ألا يرى أن الأجرام الفلكية مع إمكانها وفنائها بالآخرة مستغنية بدوامها وطول بقائها عما يجري مجرى الولد من الحيوان أى ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿ كل ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أى كل ما فيهما كأننا ما كان من أولى العلم وغيرهم ﴿ له قانتون ﴾ منقادون لا يستعصى شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيدته ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشيء ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد وإنما جرى بما المختصة بغير أولى العلم تحقيرا لشأنهم وإيذاًنا بكمال بعدهم عما نسبوا إلى بعض منهم وصيغة جمع العقلاء في قانتون للتغليب أو كل من جعلوه لله تعالى ولدا له قانتون أى مطيعون عابدون له معترفون بربوبيته تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فإن البديع كما يطلق على المبتدع يطلق على المبتدع نص عليه أساطين أهل اللغة وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه كما ذكر في القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع في قوله « أمن ربحانة الداعي السميع » وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها للتخفيف بعد نصبه على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته من بدع إذا كان على شكل فائق وحسن رائق وهو حجة أخرى لإبطال مقاتلتهم الشنعا تقريرها أن الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه والله سبحانه مبدع الأشياء كلها على الإطلاق منزّه عن الانفعال فلا يكون والدا ورفعته على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هو بديع الخ وقرئ بالنصب على المدح وبأجر على أنه بدل من الضمير في له على رأى من يجوز الإبدال من الضمير المجرور كما في قوله « على جوده ضن بالماء حاتم » ﴿ ولذا قضى أمرا ﴾ أى أراد شيئاً كقوله إنما أمره إذا أراد شيئاً وأصل القضاء الأحكام أطلق على الإرادة الإلهية المتعلقة بوجود الشيء لإيجائها وإزالتها البتة

وقيل الأمر ومنه قوله تعالى (وقضى ربك) الخ ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ كلاهما من الـكون التام أى أحدث وليس المراد به حقيقة الأمر والامتنال وإنما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات بحسب تعلق مشيئته تعالى وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى الباب من طاعة المسأور المطيع للأمر القوى المطاع وفيه تقرير لمعنى الإبداع وتلويح لحجة أخرى لإبطال ما زعموه بأن اتخاذ الولد شأن من يفتقر فى تحصيل مراده إلى مبادئ يستدعى ترتيبها مرور زمان وتبدل أطوار وفعله تعالى متعال عن ذلك ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ حكاية لنوع آخر من قبائحهم وهو قد حهم فى أمر النبوة بعد حكاية قدحهم فى شأن التوحيد بنسبة الولد إليه سبحانه وتعالى واختلف فى هؤلاء القائلين فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود وقال مجاهد هم النصارى ووصفهم بعدم العلم لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغي أو لعدم علمهم بمرجب عملهم أو لأن ما يحكى عنهم لا يصدر عن له شائبة علم أصلا وقال قتادة وأكثر أهل التفسير هم مشركو العرب لقوله تعالى (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴿لولا يكلمنا الله﴾ أى هلا يكلمنا بلا واسطة أمرا ونهيا كما يكلم الملائكة أو هلا يكلمنا تنصيحا على نبوتك ﴿أو تأتينا آية﴾ حجة تدل على صدقك بلغوا من العتو والاستكبار إلى حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والمالك ومن العناد والمكابرة إلى حيث لم يعدوا ما آتاهم من البينات الباهرة التى تخز لها صم الجبال من قبيل الآيات قاتلهم الله أى يؤفكون ﴿كذلك﴾ مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد ﴿قال الذين من قبلهم﴾ من الأمم الماضية ﴿مثل قولهم﴾ هذا الباطل الشنيع فقالوا أرنا الله جهرة وقالوا لن نصبر على طعام واحد الآية وقالوا هل يستطيع ربك الخ وقالوا اجعل لنا إله الخ ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أى قلوب هؤلاء وأولئك فى العمى والعناد وإلا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة ﴿قد بينا الآيات﴾ أى نزلناها بينة بأن جعلناها كذلك فى أنفسها كما فى قولهم سبحانه من صغر

البعوض وكبر الفيل لا أنا بينما بعد أن لم تكن بينة ﴿لقوم يوقنون﴾ أى يطلبون اليقين ويوقنون بالحقائق لا يعتریهم شبهة ولا ريبة وهذا رد لطلبهم الآية وفى تعريف الآيات وجمعها وإيراد النبين المفصيح عن كمال التوضيح مكان الإتيان الذى طلبوه ما لا يخفى من الجزالة والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين وإنما لم يتعرض لرد قولهم لولا يكلمنا الله إيدانا بأنه من ظهور البطلان بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب ﴿لما أرسلناك بالحق﴾ أى ملتبسا بالقرآن كما فى قوله تعالى (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) أو بالصدق كما فى قوله تعالى (أحق هو) وقوله تعالى: ﴿بشيرا ونذيرا﴾ حال من المفعول باعتبار تقييده بالحال الأولى أى أرسلناك ملتبسا بالقرآن حال كونك بشيرا لمن آمن بما أنزل عليك وعمل به ونذيرا لمن كفر به أو أرسلناك صادقا حال كونك بشيرا لمن صدقك بالثواب ونذيرا لمن كذبك بالعذاب ليختاروا لأنفسهم ما أحبوا لا فاسر لهم على الإيمان فلا عليك إن أصروا وكابروا ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعدما بلغت ما أرسلت به وقرىء لن تسأل وقرىء لا تسأل على صيغة النهى إيدانا بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلا لها كأنها لغاية فظاعتها لا يقدر المخبر على إجرائها على لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمع خبرها وحمله على نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعده النظم الكريم والجحيم المتأجج من النار وفى التعبير عنهم بصاحبة الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وإيدان بأنهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الإيمان قطعا .

وقوله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ بيان لكمال شدة شكامة هاتين الطائفتين خاصة إثر بيان ما يعمهما والمشركون من الإصرار على ما هم عليه إلى الموت وإيراد لا النافية بين المعطوفين لتأكيد النفي لما مر من أن تصلب اليهود فى أمثال هذه العظام أشد من النصارى

والإشعار بأن رضى كل منهما مباين لرضى الأخرى أى لن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم ولا النصرارى ولو تركتهم حتى تتبع ملتهم فأوجز النظم ثقة بظهور المراد وفيه من المبالغة فى إقناطه صلى الله عليه وسلم من إسلامهم ما لا غاية وراءه فإنهم حيث لم يرضوا عنه عليه السلام ولو خلاهم يفعلون ما يفعلون بل أملوا منه صلى الله عليه وسلم ما لا يكاد يدخل تحت الإمكان من اتباعه عليه السلام لملتهم فكيف يتوهم اتباعهم لملته عليه السلام وهذه حالتهم فى أنفسهم ومقالتهم فيما بينهم ، ولما أنهم أظهروها للنبي صلى الله عليه وسلم وشافهوه بذلك وقالوا لن نرضى عنك وإن بالغت فى طلب رضانا حتى تتبع ملتنا كما قيل فلا يساعده النظم الكريم بل فيه ما يدل على خلافه فإن قوله عز وجل ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ صريح فى أن ما وقع هذا جوابا عنه ليس عين تلك العبارة بل ما يستلزم مضمونها أو يلزمه من الدعوة إلى اليهودية والنصرانية وأداء أن الاهتداء فيهما كقوله عز وجل حكاية عنهم كونوا هودا أو نصارى تهتدوا أى قل ردا عليهم إن هدى الله الذى هو الإسلام هو الهدى بالحق والذى يحق ويصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وما تدعون إليه ليس بهدى بل هو هوى كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ وإن اتبعت أهواءهم ﴾ أى آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم وهى التى عبر عنها فيما قبل بملتهم إذ هى التى ينتمون إليها ، وأما ما شرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو المعنى الحقيقى للملة فقد غيروها تغييرا ﴿ بعد الذى جاءك من العلم ﴾ أى الوحي أو الدين المعلوم صحته ﴿ مالك من الله ﴾ من جهته العزيزة ﴿ من ولى ﴾ بلى أمرك عموما ﴿ ولا نصير ﴾ يدفع عنك عقابه وحيث لم يستلزم نفي الولى نفي النصير وسط لا بين المعطوفين لتأكيد النفي وهذا من باب التهيج والإلهاب وإلا فأتى يتوهم إمكان اتباعه عليه السلام لملتهم وهو جواب للقسم الذى وطأه اللام واكتفى به عن جواب الشرط ﴿ الذين آتيناكم الكتاب ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿ يتلونه

حق تلاوته ﴿ بمراعاة لفظه عن التحريف وبالتدبر في معانيه والعمل بما فيه وهو حال مقدرة والخبر ما بعده أو خبر وما بعده مقرر له ﴾ أولئك ﴿ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه ، وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعد منزلتهم في الفضل ﴾ يؤمنون به ﴾ أى بكتابهم دون المحرفين فإنهم بمعزل من الإيمان به فإنه لا يجمع الكفر ببعض منه ﴾ ومن يكفر به ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴾ فأولئك هم الخاسرون ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ ومن جملتها التوراة وذكر النعمة إنما يكون بشكرها وشكرها الإيمان بجميع ما فيها ومن جملته نعت النبى صلى الله عليه وسلم ومن ضرورة الإيمان بها الإيمان به عليه الصلاة والسلام ﴾ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ أفردت هذه النعمة بالذكر مع كونها مندرجة تحت النعمة السالفة لئلا نفتها فيما بين فنون النعم ﴾ وانقوا ﴾ لمن لم تؤمنوا ﴾ يوما لا تجزى ﴾ فى ذلك اليوم ﴾ نفس ﴾ من النفوس ﴾ عن نفس ﴾ أخرى ﴾ شيئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الجزاء ﴾ ولا يقبل منها عدل ﴾ أى فدية ﴾ ولا تنفعها شناعة ولا هم ينصرون ﴾ وتخصيصهم بتكرير التذكير وإعادة التحذير للبالغة فى النصيح والإيدان بأن ذلك فذلك القضية والمقصود من القصة لما أن نعم الله عز وجل عليهم أعظم وكفرهم بها أشد وأقبح ﴾ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ شروع فى تحقيق أن هدى الله هو ما عليه النبى صلى الله عليه وسلم من التوحيد والإسلام الذى هو ملة إبراهيم عليه السلام ، وأن ما عليه أهل الكتابين أهواء زائغة وأن ما يدعونه من أنهم على ملة إبراهيم عليه والصلاة والسلام فرية بلا مزية ببيان ما صدر عن إبراهيم وأبنائه الأنبياء عليهم السلام من الأقاويل والأفاعيل الناطقة بحقية التوحيد والإسلام وبطلان الشرك وبصحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وبكونه ذلك النبى الذى استدعاه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بقولهما (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية فإذا منصوب على المفعولية بمضمرة مقدر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ليتذكروا بما

وقع فيه من الأمور العارضة إلى التوحيد الوازنة عن الشرك فيقبلوا الحق ويتركوا ما هم فيه من الباطل وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات قد مر وجهه في أثناء تفسير قوله عز وجل (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) وقيل على الظرفية بمضمهر مؤخر أى وإذا ابتلاه كان كيت وكيت وقيل بما سيحىء من قوله تعالى : قال الخ ، والأول هو اللائق بجزالة التنزيل ولا يبعد أن ينتصب بمضمهر معطوف على اذكروا خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيها يحكى عن ينتمون إلى ملة إبراهيم وأبنائه عليهم السلام من الأفعال والأقوال ليتمتدوا بهم ويسيروا سيرتهم والإبتلاء فى الأصل الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا فعله أو تركه وذلك إنما يتصور حقيقة بمن لا وقوف له عواقب الأمور ، وأما من العليم الخبير فلا يكون إلا مجازا من تمكنه للعبد من اختيار أحد الأمرين قبل أن يرتب عليه شيأ هو من مباديه العادية كمن يختبر عبده ليتعرف حاله من السكياسة فيأمره بما يليق بحاله من مصالحه وإبراهيم اسم أعجمى قال السهيلي كثيرا ما يقع الاتفاق أو التقارب بين السرياني والعربي ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم ولذلك جعل هو وزوجته سارة كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة على ما روى البخارى فى حديث الرقيا أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس وهو مفعول مقدم لإضافة فاعله إلى ضميره والتعرض لعنوان الربوبية تشريف له عليه السلام وإيدان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه أو أمر ونواهى تظهر بحسن قيامه بحقوقها قدرته على الخروج عن عهدة الإمامة العظمى وتحمل أعباء الرسالة وهذه المقالة وتذكيرها الناس لإرشادهم إلى طريق إتقان الأمور ببنائها على التجربة وللإيدان بأن بعثة النبى صلى الله عليه وسلم أيضا مبنية على تلك القاعدة الرصينة واقعة بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوّة العامة . كيف لا وهى التى أجيب بها دعوة إبراهيم عليه السلام .

كما سيأتى واختلف فى الكلمات فقال مجاهد هى المذكورة بعدها ورد بأنه يأباه الفاء فى فاتمهن ثم الاستئناف وقال طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما هى عشر خصال كانت فرضا فى شرعه وهن ستة فى شرعنا خمس فى الرأس المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك وخمس فى البدن الختان وحلق العانة وتنف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء .

وفى الخبر أن إبراهيم عليه السلام أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الأظفار وقال عكرمة عن ابن عباس لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الإسلام عشر منها فى سورة براءة: التائبون لمخ وعشر فى الأحزاب: إن المسلمين والمسلمات لمخ وعشر فى المؤمنون: وسأل سائل إلى قوله عز وجل والذين هم على صلاتهم يحافظون . وقيل ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياء بالشمس والقمر والنجوم والاختتان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة فوفى بالكل وقيل هن محاجته قومة والصلاة والزكاة والصوم والضيافة والصبر عليها وقيل هى المناسك كالطواف والسعى والرمى والإحرام والتعريف وغيرهن وقيل هى قوله عليه السلام (الذى خلقتنى فهو يهدين) الآيات ثم قيل إنما وقع هذا الابتلاء قبل النبوة وهو الظاهر وقيل بعدها لأنه يقتضى سابقة الوحي وأجيب بأن مطلق الوحي لا يستلزم البعثة إلى الخلق وقرئ برفع إبراهيم ونصب ربه أى دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إلهين أولا ﴿فاتمهن﴾ أى قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التادية من غير تفريط وتوان كما فى قوله تعالى (وإبراهيم الذى وفى) وعلى القراءة الأخيرة فأعطاه الله تعالى ما سأله من غير نقص ويعضده ما روى عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه بقوله (رب اجعلنى) الآيات وقوله عز وجل ﴿قال﴾ على تقدير انتصاب إذ بمضمر جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الكلام فإن الابتلاء تمهيد لأمر معظم وظهور فضيلة المبلى من دواعى الإحسان إليه فبعد حكايتها تترقب النفس إلى ما وقع بعدهما كأنه قيل فإذا كان بعد ذلك فقيل قال ﴿إني جاعلك للناس إماما﴾ أو بيان لقوله تعالى

وابتلى على رأى من يجعل الكلمات عبارة عما ذكر أثره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده وغير ذلك وعلى تقدير انتصاب إذ يقال فالجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة والواو فى المعنى داخلة على قال أى وقال إذا ابتلى إلخ والجعل بمعنى التصيير أحد مفعوليه الضمير والثانى لإماما واسم الفاعل بمعنى المضارع وأؤكد منه لدلالته على أنه جاعل له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه وللناس متعلق بجاعلك أى لأجل الناس أو بمحذوف وقع حالا من إماما إذ لو تأخر عنه لكان صفة له والإمام اسم لمن يؤتم به وكل نبى إمام لأئمة وإمامته عليه السلام عامة مؤبدة إذ لم يبعث بعده نبى إلا كان من ذريته مأمورا باتباع ملته .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم عليه السلام عنده ؟ فقيل : قال ﴿ ومن ذريتى ﴾ عطف على السكاف ومن تبعضية متعلقة بجاعل أى وجاعل بعض ذريتى كما تقول وزيدا لمن يقول سأكرمك أو بمحذوف أى واجعل فريقا من ذريتى إماما وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة إمامة الكل وإن كانوا على الحق وقيل التقدير وماذا يكون من ذريتى والذرية نسل الرجل فعولة من ذروت أو ذريت والأصل ذروة أو ذروية فاجتمع فى الأولى واوان زائدة وأصلية فقلبت الأصلية ياء فصارت كالثانية فاجتمعت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت ذرية أو فعيلة منهما والأصل فى الأولى ذروية فقلبت الواو ياء لما سبق من اجتماعهما وسبق إحداهما بالسكون فصارت ذرية كالثانية فأدغمت الياء فى مثلها فصارت ذرية أو فعيلة من الذر بمعنى الخلق والأصل ذريثة فأنفقت الهمزة بإبدالها ياء كهمزة خطيئة ثم أدغمت الياء الزائدة فى المبدلة أو فعيلة من الذر بمعنى التفريق والأصل ذرية قلبت الراء الأخيرة ياء لتوالى الأمثال كما فى تسرى وتقضى وتظنى فأدغمت الياء فى الياء كما مر أو فعولة منه والأصل ذروية فقلبت الراء الأخيرة ياء لجاء الإدغام وقرىء بكسر الدال وهى لغة فيها وقرأ أبو جعفر المدنى بالفتح وهى أيضا لغة فيها ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال

يفساق إليه الذهن كما سبق ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ ليس هذاردا لدعوته عليه السلام بل إجابة خفية لها وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنيل عهد الإمامة حسبها وقع في استدعائه عليه الصلاة السلام من غير تعيين لهم بوصف يميز لهم عن جميع من عداهم فإن التنصيص على حرمان الظالمين منه بمعزل من ذلك التمييز إذ ليس معناه أنه ينال كل من ليس بظالم منهم ضرورة استحالة ذلك كما أشير إليه ولعل لإثارة هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمبادئ الإمامة من ذريته إجمالا أو تفصيلا وإرسال الباقيين لئلا ينتظم المقتدون بالآئمة من الأمة في سلك المحرومين وفي تفصيل كل فرقة من الإطناب مالا يخفى مع ما في هذه الطريقة من تحييب الكفرة الذين كانوا يتمنون النبوة وقطع أطعامهم الفارغة من نيلها . إنما أوتر النيل على الجعل إيماء إلى أن إمامة الأنبياء عليهم السلام من ذريته عليه السلام كاسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ليست بجعل مستقل بل هي حاصلة في ضمن إمامة إبراهيم عليه السلام تنال كلا منهم في وقت قدره الله عز وجل وقرىء الظالمون على أن عهدى مفعول قدم على الفاعل اهتماما ورعاية للقواصل وفيه دليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر على الإطلاق وعدم صلاحية الظالم للإمامة . قوله تعالى ﴿ وإذ جعلنا البيت ﴾ أى الكعبة المعظمة غلب عليها غلبة النجم على الثريا معطوف على إذا ابتلى على أن العامل فيه هو العامل فيه أو مضمير مستقل معطوف على المضمير الأول والجعل إما بمعنى النصير فقولوه عز وجل ﴿ مثابة ﴾ أى مرجعا يثوب إليه الزوار بعدما تعوقوا عنه أو أمثالهم أو موضع ثواب يثابون بحجة واعتباره مفعوله الثانى وإما بمعنى الإبداع فهو حال من مفعوله واللام في قوله تعالى ﴿ للناس ﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لمثابة أى مثابة كائنة للناس أو بجعلنا أى جعلناه لأجل الناس وقرىء مثابات باعتبار تعدد التائبين . ﴿ وأما ﴾ أى آمنا كما في قوله تعالى (حرما آمنا) على إيقاع المصدر موقع اسم.

الفاعل للبالغة أو على تقدير المضاف أى ذا أمن أو على الإسناد المجازى أى آمنا بحججه من عذاب الآخرة من حيث أن الحج يجب ما قبله أو من دخله من التعرض له بالعقوبة وإن كان جانبا حتى يخرج على ما هو رأى أبى حنيفة ويجوز أن يعتبر الأمن بالقياس إلى كل شيء كائنا ما كان ويدخل فيه أمن الناس دخولا أوليا وقد اعتيد فيه أمن الصيد حتى أن الكلب كان يهيم بالصيد خارج الحرم فيفر منه وهو يتبعه فإذا دخل الصيد الحرم لم يتبعه الكلب ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ على إرادة قول هو عطف على جعلنا أو حال من فاعله أى وقلنا أو قائلين لهم اتخذوا لمخ وقيل هو بنفسه معطوف على الأمر الذى يتضمنه قوله عز وجل مثابة للناس كأنه قيل توبوا إليه واتخذوا لمخ وقيل على المضمر العامل فى إذ وقيل هى جملة مستأنفة والخطاب على الوجوه الأخيرة له عليه السلام ولأتمته والأول هو الالئق بجزالة النظم الكريم والأمر صريحا كان أو مفهوما من الحكاية للاستحباب ومن تبعيضية والمقام اسم مكان وهو الحجر الذى عليه أثر قدمه عليه السلام والموضع الذى كان عليه حين قام ودعا الناس إلى الحج أو حين رفع قواعد البيت وهو موضعه اليوم والمراد بالمصلى إما موضع الصلاة أو موضع الدعاء روى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال « هذا مقام إبراهيم » فقال عمر رضى الله عنه أفلا تتخذونه مصلى فقال « لم أؤمر بذلك » فلم تغب الشمس حتى نزلت وقيل المراد به الأمر بركعتى الطواف لما روى جابر رضى الله عنه أنه عليه السلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وللشافعى فى وجوبهما قولان وقيل مقام إبراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج عرفة والمزدلفة والجار واتخذها مصلى أن يدعى فيها ويتقرب إلى الله عز وجل وقرئ واتخذوا على صيغة الماضى عطفا على جعلنا أى واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذى وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته غنمه قبلة يصلون إليها ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴾ أى أمرناهما أمرا مؤكدا ﴿ أن طهرا بيتى ﴾ بأن طهراه على أن مصدرية حذف عنها الجار حذفاً مطرداً لجواز كون صلتهما أمرا

ونها كما في قوله عز وجل (وأن أقم وجهك للدين حنيفاً) لأن مدار جواز كونها فعلاً إنما هو دلالاته على المصدر وهي متحققة فيهما ووجوب كونها خبرية في صلة الموصول الاسمي إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجل وهي لا يوصف بها إلا إذا كانت خبرية وأما الموصول الحر في فليس كذلك ولما كان الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهي صلة حسب وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال أو أى طهره على أن دأن، مفسرة لتضمن العهد معنى القول وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف وتوجيه الأمر بالتطهير ههنا إليهما عليهما السلام لا ينافي ما في سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم عليه السلام فإن ذلك واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وكان إسماعيل عليه السلام حينئذ بمزل من مثابة الخطاب وظاهر أن هذا بعد بلوغه مبلغ الأمر والنهي وتام البناء كما يفى عنه إيراده لإثارة حكاية جعله مثابة للناس إلخ والمراد تطهيره من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض وغير ذلك مما لا يليق به ((للطائمين)) حوله ((والعاكفين)) المجاورين المقيمين عنده أو المعتكفين أو القائمين ((والركع السجود)) جمع راكم وساجد أى للطائمين والمصلين لأن القيام والركوع والسجود من هيئات المصلى أى لتقارب الأخيرين ذاتاً وزماناً ترك العاطف بين موصوفيهما أو إخلاصه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم وفيه إيماء إلى أن ملابسة غيرهم به وإن كانت مع مقارنة أمر مباح من قبيل تلويثه وتدنيسه ((وإذ قال إبراهيم)) عطف على ما قبله من قوله وإذ جعلنا إلخ إما بالذات أو بعامله المضمّر كما مر ((رب اجعل هذا بلداً آمناً)) ذا أمن كعيشة راضية أو آمناً أهله كليلة نائم أى اجعل هذا الوادى من البلاد الآمنة وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن إسماعيل وهاجر هناك وعاد متوجهاً إلى الشام تبعته هاجر فجعلت تقول لى من تكلفنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جواباً حتى قالت آله أمرك بهذا

فقال نعم قالت إذن لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال (ربنا إني أسكنت) الآية وتعريف البلد مع جعله صفة لهذا في سورة إبراهيم إن حمل على تعدد السؤال لما أنه عليه السلام سأل أولا كلا الأمرين البلدية والأمن فاستجيب له في أحدهما وتأخر الآخر إلى وقته المقدر له لما تقتضيه الحكمة الباهرة ثم كرر السؤال حسبما هو المعتاد في الدعاء والابتهاال أو كان المسئول أولا البلدية ومجرد الأمن المصحح للسكنى كما في سائر البلاد وقد أوجب إليه ذلك وثانيا الأمن المعهود أو كان هو المسئول أولا أيضا وقد أوجب إليه سكن السؤال الثانى لاستدامته والاقتصار على سؤاله مع جعل البلد صفة لهذا لأنه المقصد الأصلى أو لأن المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسئول كلا الأمرين وقد حكى ذلك ههنا واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال جعل أفئدة الناس تهوى إليه كما سيأتى تفصيله هناك بإذن الله عز وجل ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ من أنواعها بأن تجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجي إليه من الأقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى أنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف للدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ بدل من أهله بدل البعض خصهم بالدعاء وإظهاراً لشرف الإيمان وإبانة لخطره واهتماماً بشأن أهله ومراعاة لحسن الأدب وفيه ترغيب لقومه فى الإيمان وزجر عن الكفر كما أن فى حكايته ترغيباً وترهيباً لقريش وغيرهم من الكتاب ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كما هو مراراً وقوله تعالى ﴿ومن كفر﴾ عطوف على مفعول فعل محذوف تقديره أرزق من آمن ومن كفر وقوله تعالى ﴿فأمتعته﴾ معطوف على ذلك القول أو فى محل رفع بالابتداء وقوله تعالى فأمتعته خبره أى فأنا أمتعته وإنما دخلته الفاء تشبيهاً له بالشرط والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتع المطلق لكنه يصلح سبباً لتقايله

وكونه موصولا بعذاب النار وقيل هو عطف على من آمن عطف تلقين كأنه
 قيل قل وارزق من كفر فإنه أيضا مجاب كأنه عليه السلام قاس الرزق على
 الإمامة فنبهه تعالى على أنه رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الإمامة
 الخاصة بالخواص وقرىء فأمته من أمتع وقرىء فتمتعه ﴿قليلًا﴾ تمتعًا قليلًا
 أو زمانًا قليلًا ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار﴾ أى ألزه إليه لئلا المضطر لكفره
 وتضييعه ما تمتعه به من النعم وقرىء ثم نضطره على وفق قراءة فتمتعه وقرىء
 فأمته قليلًا ثم أضطره بلفظ الأمر فيهما على أنهما من دعاء إبراهيم عليه السلام
 وفى قال ضميره وإنما فصله عما قبله لكونه دعاء على الكفرة وتغيير سبكه
 للإيدان بأن الكفر سبب لا مضطراهم إلى عذاب النار وأما رزق من آمن فإنما
 هو على طريقة التفضل والإحسان وقرىء بكسر الهمزة على لغة من يكسر حرف
 المضارعة وأطره يادغام الضاد فى الطاء وهى لغة مرذولة فإن حروف (ضم شفر)
 يدغم فيها ما يحاورها بلا عكس ﴿وبئس المصير﴾ المخصوص بالذم مخذوف أى
 بئس المصير النار أو عذابها ﴿وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ عطف على
 ما قبله من قوله عز وعلا وإذا قال إبراهيم على أحد الطريقين المذكورين فى
 وإذا جعلنا وصيغة الاستقبال الحكاكية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة
 المنبثقة عن المعجزة الباهرة والقواعد جمع قاعدة وهى الأساس صفة غالبية من
 القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من مقابل القيام ومنه قعدك الله ورفع البناء
 عليها لأنه ينقلها من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع والمرتفع حقيقة وإن
 كان هو الذى بنى عليها لكنهما لما صارا شيئًا واحدًا فكأنهما نمت وارتفعت
 وقيل المراد بها ساقات البناء فإن كل ساق قاعدة لما يبنى عليها ويرفعها بناء بعضها
 على بعض وقيل المراد برفعها رفع مكانة البيت وإظهار شرفه ودعاء الناس إلى
 حجه وفى إيهامها أولاً ثم تبينها من تفخيم شأنها ما لا يخفى وقيل المعنى وإذا يرفع
 إبراهيم ما قعد من البيت واستوطأ يعنى يجعل هيئة القاعدة المستوطأة مرتفعة
 عالية بالبناء روى أن الله عز وجل أنزل البيت يا قوته من يواقيت الجنة له
 بابان من زمرد شرقى وغربى وقال لآدم أهبط لك ما يطاف به كما يطاف به
 (١٧) — أبو السعود — أول

كما يطاف حول عرشى فتوجه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشيا وتلقته الملائكة فقالوا برحمتك يا آدم لقد حببنا هذا البيت قبلك بالفي عام وحج آدم عليه السلام أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجله فكان على ذلك إلى أن رقه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور وكان موضعه خاليا إلى زمن إبراهيم عليه السلام فأمره سبحانه ببناؤه وعرفه جبريل عليه السلام بمكانه وقيل بعث الله السكينة لتدله عليه فتبعها إبراهيم عليه السلام حتى أتى مكة المعظمة وقيل بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت وسار إبراهيم في ظلها إلى أن وافت مكة المعظمة فوقفت على موضع البيت فنودى أن ابن علي ظلها ولا تزدولا تنقص وقيل بناه من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودي وأمسسه من حراء وجاء جبريل عليه السلام بالحجر الأسود من السماء وقيل تمخض أبو قبيس فانشق عنه وقد خبيء فيه في أيام الطوفان وكان ياقوته بيضاء من يواقيت الجنة فلما لمستة الخيض في الجاهلية اسود وقال القاسي في مشير الغرام في تاريخ البلد الحرام والذي يتحصل من جملة ما قيل في عدد بناء الكعبة أنها بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة عليهم السلام ذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات والأزرقى في تاريخه وذكر أنه كان قبل خلق آدم عليه السلام ومنها بناء آدم عليه السلام ذكره البيهقي في دلائل النبوة وروى فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعث الله عز وجل جبريل إلى آدم عليهما السلام فقال له ولحواء ابنيما لي بيتا نخط جبريل وجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى إذا أصاب الماء نودى من تحته حسبك آدم فلما بنياه أوحى إليه أن يطوف به فقبل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وهكذا ذكره الأزرقى في تاريخه وعبد الرزاق في مصنفه ومنها بناء بني آدم عندما رفعت الخيمة التي عزى الله تعالى بها آدم عليه السلام وكانت ضربت في موضع البيت فبنى بنوه مكانها بيتا من الطين والحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم ومن بعدهم إلى أن مسه الغرق في عهد نوح عليه السلام ذكره الأزرقى بسنده إلى وهب بن منبه ومنها بناء الخليل عليه السلام وهو منصوص عليه في القرآن مشهور في

ما بين قاص ودان ومنها بناء العماقة ومنها بناء جرهم ذكرهما الأزرقي بسنده إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه ومنها بناء قهى بن كلاب ذكره الزبير بن يكار في كتاب النسب ومنها بناء قريش وهو مشهور ومنها بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ومنها بناء الحجاج بن يوسف وما كان ذلك بناء لكلها بل الجدار من جدارنها وقال الحافظ السهيلي لمن بناءها لم يكن في الدهر إلا خمس مرات الأولى حين بناها شيث عليه السلام انتهى والله سبحانه أعلم ﴿واسمعي﴾ عطف على إبراهيم ولعل تأخيرها عن المفعول للإيدان بأن الأصل في الرفع هو إبراهيم واسمعي تسع له قيل لأنه كان يناوله الحجارة وهو يبنيها وقيل كأنه يبنيها من طرفيه ﴿ربنا تقبل منا﴾ على إرادة القول أى يقولان وقد قرئ به على أنه حال منهما عليهما السلام وقيل على أنه هو العامل في إذ والجملة معطوفة على ما قبلها والتقدير ويقولان ربنا تقبل منا إذ يرفعان أى وقت رفعهما وقيل واسمعي مبتدأ خبره قول محذوف وهو العامل في ربنا تقبل منا فيكون إبراهيم هو الرفع واسمعي هو الداعى والجملة في محل النصب على الحالية أى وإذ يرفع إبراهيم القواعد والحال أن اسمعي يقول ربنا تقبل منا والتعرض لوصف الربوبية المنبثقة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلة الإجابة وترك مفعول تقبل مع ذكره في قوله تعالى ربنا وتقبل دعاء ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التى من جملتها ما هما بصدده من الثناء كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية الحالية ﴿إني أنى السميع﴾ لجميع المسروعات التى من جملتها دعاؤنا ﴿العليم﴾ بكل المعلومات التى من زميرتها نيائنا فى جميع أعمالنا والجملة تعليل لاستدعاء التقبل لا من حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائهما علما بنيائهما مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نيائهما وإخلاصهما فى أعمالهما مستدع بموجب الوعد تفضلا وتأكيد الجملة لغرض كمال قوة يقينهما بمضمونها وقصر نعتي السمع والعلم عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية واعلم أن الظاهر أن أول ما جرى من الأمور المحكية هو الابتلاء وما يتبعه ثم دعاء

البلدية والأمن وما يتعلق به ثم رفع قواعد البيت وما يتلوه ثم جعله مشابة للناس والأمر بتطهيره ولعل تغيير الترتيب الوقوعي في الحسكائية لنظم الشئون الصادرة عن جنابه تعالى في سلك مستقل ونظم الأمور الواقعة من جهة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من الأفعال والأقوال في سلك آخر وأما قوله تعالى ومن كفر لا تخ فإنا وقع في تضاعيف الأحوال المتعلقة بإبراهيم لاقتضاء المقام واستيجاب ما سبق من الكلام ذلك بحيث لم يكن بد منه أصلاً كما أن وقوع قوله عليه السلام ومن ذريقتي في خلال كلامه سبحانه لذلك ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ مخلصين لك أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد وأياما كان فالمطلوب الزيادة والثبات على ما كانا عليه من الإخلاص والإذعان وقرىء مسلمين على صيغة الجمع بإدخال هاجر معهما في الدعاء أو لأن التثنية من مراتب الجمع.

﴿ومن ذريقتنا أمة مسلمة لك﴾ أى واجعل بعض ذريقتنا وإنما خصهم بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولأنهم إذا صلحوا صلح الأتباع وإنما خصابه بعضهم لما علمنا أن منهم ظلمة وأن الحكمة الإلهية لا تقتضى اتفاق السلك على الإخلاص والإقبال السلكى على الله عز وجل فإن ذلك مما يخل بأمر المعاش ولذلك قبل لولا الحقى لحربت الدنيا وقيل أراد بالامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد جوز أن يكون من مبينة قدمت على المبين وفصل بها بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى (ومن الأرض مثلهن) والأصل وأمة مسلمة لك من ذريقتنا ﴿وأرنا﴾ من الرؤية بمعنى الإبصار أو بمعنى التعريف أى بصرنا أو عرفنا ﴿مناسكتنا﴾ أى متعبداتنا في الحج أو مذابحنا والفسك في الأصل غاية العبادة وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة وقرىء أرنا قياساً على فخذ في فخذ وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها وقرىء بالاختلاس ﴿وتب علينا﴾ استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة في التوبة والإيمان أو توبة لهما عما فرط

منهما سهوا ولعلمهما قلاء هضما لأنفسهما وإرشادا لذريتهما ﴿لأنك أنت التواب الرحيم﴾ وهو تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للإجابة قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته ﴿ربنا وابعث فيهم﴾ أى فى الأمة المسلبة ﴿رسولا منهم﴾ أى من أنفسهم فإن البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ولم يبعث من ذريتهما غير النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذى أجيب به دعوتهما عليهما السلام روى أنه قيل له قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان قال عليه السلام : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورويا أمى، وتخصيص إبراهيم عليه السلام بالاستجابة له أنه الأصل فى الدعاء واسماعيل تبع له عليه السلام ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ يقرأ ويبلغهم ما يوحى إليه من البينات ﴿ويعلمهم﴾ بحسب قوتهم النظرية ﴿الكتاب﴾ أى القرآن ﴿والحكمة﴾ وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة ﴿ويزكهم﴾ بحسب قوتهم العملية أى يطهرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصى ﴿لأنك أنت العزيز﴾ الذى لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿الحكيم﴾ الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء وإجابة المسئول فإن وصف الحكمة مقتضى لإفاضة ما تقتضيه الحكمة من الأمور التى من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لإمتناع وجود المانع بالمرّة ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون فى العقلاء من يرغب عن ملته التى هى الحق الصريح والدين الصحيح أى لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء ﴿إلا من سفه نفسه﴾ أى أذلها واستمهنها واستخف بها وقيل خسر نفسه وقيل أو بقى أو أهلك أو جهل نفسه قال المبرد وتغلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم ويشهد له ما ورد فى الخبر أن تسفه الحق وتغمص الناس وقيل معناه ضل من قبل نفسه وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه ونحو قوله :

ونأخذ بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

وقوله :

وما قومي بشعبة بن سعد ولا بفرارة الشعر الرقابا

ذلك لأنه إذا رغب عما لا يرغب عنه أحد من العقلاء فقد بالغ في إذلال نفسه وذلتها وإهانتها حيث خالف بها كل نفس عاقلة روى أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما قد علمنا أن الله تعالى قال في التوراة إنني باعث من ولد اسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر فنزلت ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾ أي اخترناه بالنبوة والحكمة من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشيء كما أن أصل الاختيار اتخاذ خيره واللام والجواب قسم محذوف الواو اعتراضية والجملة مقررلة لمضمون ما قبلها أي وبالله لقد اصطفيناه وقوله تعالى ﴿ ولأنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي من المشهور لهم بالشبات على الاستقامة والخير والصلاح معطوف عليها داخل في حيز القسم مؤكدا لمضمونها مقررلة لما تقرره ولا حاجة إلى جملة اعتراض آخر أو حالا مقدرة فإن من كان صفوة للعباد في الدنيا مشهودا له بالصلاح في الآخرة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عن ملته إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمل وإيثار الإسمية لما أن انتظامه في زمرة صالحى أهل الآخرة أمر مستمر في الدارين لا أنه يحدث في الآخرة والتأكيد باللام لما أن الأمور الأخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها إلى التأكيد أشد من الأمور التي تشاهد آثارها وكلمة في متعلقة بالصالحين على أن اللام للتعريف وليست بموصولة حتى يلزم تقديم بعض الصلة عليها على أنه قد يغتفر في الظرف ما لا يغتفر في غيره كما في قوله :

ربيبته حتى إذا تمعددا كان جزائي بالعصا أن أجلدا

أو بمحذوف من لفظه أي وأنه لصالح في الآخرة لمن الصالحين أو من

غير لفظه أى أعنى فى الآخرة نحو لك بعد رعبا وقيل هى متعلقة باصطفياه على أن فى النظم الكريم تقدما وتأخيرا تقديره ولقد اصطفياه فى الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين ﴿إذ قال له﴾ ظرف لاصطفياه لما أن المتوسط ليس بأجنى بل هو مقرر له لأن اصطفاه فى الدنيا إنما هو بالنبوة وما يتعلق بصلاح الآخرة أو تعليل له أو منصوب باذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتقف على أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم وأنه مانال مانال إلا بالمبادرة إلى الإذعان والانقياد لما أمر به وإخلاص سره على أحسن ما يكون حين قال له ﴿ربه أسلم﴾ أى لربك ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ وليس الأمر على حقيقته بل هو تمثيل والمعنى أخطر بيانه دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام من الكوكب والقمر والشمس وقيل أسلم أى أذعن وأطع وقيل اثبت على ما أنت عليه من الإسلام والإخلاص أو استقم وفوض أمورك إلى الله تعالى فالأمر على حقيقته والالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليه عليه السلام لإظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته وإضافة الرب فى جوابه عليه الصلاة والسلام إلى العالمين للإيدان بكمال قوة إسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره إثر بيان كماله فى نفسه وفيه تأكيد لجوب الرغبة فى ملته عليه السلام والتوصية التقدم إلى الغير بما فيه خير وصلاح للمسلمين من فعل أو قول وأصلها الوصلة يقال وصاه إذا وصله وفصاه إذا فصله كان الموصى يصل فعله بفعل الوصى والضمير فى بها لليلة أو قوله أسلمت لرب العالمين بتأويل الكلمة كما عبر بها عن قوله تعالى (إناى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) فى قوله عز وجل (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) وقرىء أوصى والأول أبلغ ﴿ويعقوب﴾ عطف على إبراهيم أى وصى بها هو أيضا بنيه وقرىء بالنصب عطفًا على بنيه ﴿يابنى﴾ على إضمار القول عند البصريين ومتعلق بوصى عند الكوفيين لأنه فى معنى القول كما فى قوله :

رجلان من ضبة أخبرانا أنا رأينا رجلا عريانا

فهو عند الأولين بتقدير القول وعند الآخرين متعلق بالإخبار الذى هو فى معنى القول وقرىء أن يابنى وبنو إبراهيم عليه السلام كانوا أربعة لإسماعيل وإسحاق ومدين ومدان وقيل ثمانية وقيل أربعة وعشرين وكان بنو يعقوب اثنتى عشر روبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويشسوخور وزبولون وزوانا وتفتونا وكوذا وأوشير وبنيامين ويوسف عليه السلام ﴿لأن الله اصطفى لكم الدين﴾ دين الإسلام الذى هو صفوة الأديان ولادين غيره عنده تعالى : ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ظاهره النهى عن الموت على خلاف حال الإسلام والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت أى فاقبثوا عليه ولا تفارقوه أبدا كقولك لاتصل إلا وأنت خاشع وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لاخير فيه وأن حقه أن لا يحل بهم وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وأنت شهيد روى أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى باليهودية يوم مات فنزلت ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت﴾ أم منقطعة مقدرة بيل والهمزة والخطاب لأهل الكتاب الراغبين عن ملة إبراهيم وشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر وإذ ظرف لشهداء والمراد بحضور الموت حضور أسبابه وتقديم يعقوب عليه السلام للاهتمام به إذ المراد بيان كيفية وصيته لبنيه بعد ما بين ذلك إجمالا ومعنى بل الإضراب والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام إلى توبيخهم على افتراءهم على يعقوب عليه السلام باليهودية حسبا حكى عنهم وأما تعميم الافتراء ههنا لسائر الأنبياء عليهم السلام كما قيل فيأباه تخصيص يعقوب بالذكر وما سيأتى من قوله عز وجل (أم تقولون إن إبراهيم الخ ومعنى الهمزة إنكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام وتبكيتهم وقوله تعالى ﴿إذ قال﴾ بدل من إذ حضر أى ما كنتم حاضرين عند احتضاره عليه السلام. وقوله ﴿لبنيه ما تعبدون من

بعدى) أى شىء تعبدونه بعد موتى فن أن لكم أن تدعوا عليه عليه السلام ما تدعون رجما بالغيب وعند هذا تم التوبيخ والإنكار والتبكي ثم بين أن الأمر قد جرب حينئذ على خلاف ما زعموا وأنه عليه السلام أراد بسؤاله ذلك تقرير بنيه على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما إذ به يتم وصيته بقوله فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وما يسأل به عن كل شىء ما لم يعرف فإذا عرف خص العقلاء بمن إذا سئل عن شىء بعينه وإن سئل عن وصفه قيل ما زيد أفقيه أم طيب فقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقرب عليه السلام كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿نعبد الهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ حسبما كان مراد أبيهم بالسؤال أى نعبد الإله المتفق على وجوده وإلهيته ووجوب عبادته وعد إسماعيل من آبائه تغليا للأب والجد لقوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه وقوله عليه السلام فى العباس هذا بقية آبائى وقرىء أليك على أنه جمع بالواو والنون كما فى قوله :

فلما تبين أصواتنا بكين وفديننا بالأيضا

وقد سقطت النون بالإضافة أو مفرد لإبراهيم عطف بيان له وإسماعيل وإسحاق معطوفان على أليك ﴿لها واحدا﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالى (بالناسية ناصية كاذبة) وفائدته التصريح بالتوحيد ودفع التوهم الناشئ من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور أو نصب على الاختصاص ﴿ونحن له مسلمون﴾ حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما معا ويحتمل أن يكون اعتراضا محققا لمضمون ما سبق ﴿تلك أمة﴾ مبتدأ وخبر والإشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين والأمة هى الجماعة التى تؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها ﴿قد خلت﴾ صفة للخبر أى مضت بالموت وانفردت عن عداها وأصله صارت إلى الخلاء وهى الأرض التى لا أنيس بها ﴿لها ما كسبت﴾ جملة مستأنفة لاحتل لها من الإعراب أو صفة أخرى لأمة أو حال

من الضمير في خلت وما موصولة أو موصوفة والعائد إليها محذوف أى لها ما كسبته من الأعمال الصالحة المحكية لا تتخطاها إلى غيرها فإن تقديم المسند يوجب قصر المسند إليه عليه كما هو المشهور ﴿ولكم ما كسبتم﴾ عطف على نظيرتها على الوجه الأول ، وجملة مبتدأة على الوجهين الآخرين إذ لا رابط فيها ولا بد منه في الصفة ولا مقارنة في الزمان ولا بد منها في الحال أى لكم ما كسبتموه لا ما كسبه غيركم فإن تقديم المسند قد يقصد به قصره على المسند إليه كما قيل في قوله تعالى (لكم دينكم ولي دين) أى ولي ديني لا دينكم وحمل الجملة الأولى على هذا القصر على معنى أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا كما قيل مما لا يساعده المقام إذ لا يتوهم متوهم انتفاعهم بكسب هؤلاء حتى يحتاج إلى بيان امتناعه وإنما الذى يتوهم انتفاع هؤلاء بكسبهم فبين امتناعه بأن أعمالهم الصالحة مخصوصة بهم لا تتخطاهم إلى غيرهم وليس هؤلاء إلا ما كسبوا فلا ينفعهم انتسابهم إليهم وإنما ينفعهم اتباعهم لهم في الأعمال كما قال عليه السلام يا بنى هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وفأتوني بأنسابكم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ إن أجرى السؤال على ظاهره فالجملة مقرر للمضمون ما مر من الجملتين تقريراً ظاهراً وأن أريد به سببه أعنى الجزاء فهو تسميم لما سبق جار مجرى النتيجة له وأياما كان فالمراد تخيب المخاطبين وقطع أطعمهم الفارغة عن الانتفاع بحسنات الأمة الحالية وإنما أطلق العمل لإثبات الحكم بالطريق البرهاني في ضمن قاعدة كلية هذا وقد جعل السؤال عبارة عن المؤاخذة والموصول عن السيئات فقليل أى لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم ولا ريب في أنه مما لا يليق بشأن التنزيل كيف لا وهم منزهون من كسب السيئات فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم حتى يتصدى لبيان انتفاعهم ﴿وقالوا﴾ شروع في بيان فن آخر من فنون كفرهم وهو إضلالهم لغيرهم إثر بيان ضلالهم في أنفسهم والضمير لأهل الكتابين على طريقة الالتفات المؤذن باستيجاب حالهم لإبعادهم من مقام المخاطبة والإعراض عنهم وتعميد جنائياتهم عند غيرهم أى قالوا للمؤمنين ﴿كونوا هوداً أو نصارى﴾ ليس هذا القول مقولاً لسلهم أو لآى طائفة كانت من الطائفتين بل هو موزع عليهما

على وجه خاص يقتضيه حالهما اقتضاء مغنيا عن التصریح به أى قالت اليهود كونوا هودا والنصارى كونوا نصارى ففعل بالنظم الكريم ما فعل بقوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) اعتمادا على ظهور المراد ((تهتدوا)) جواب الأمر أن تكونوا كذلك تهتدوا ((قل)) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أى قل لهم على سبيل الرد عليهم وبيان ما هو الحق لديهم وإرشادهم إليه ((بل ملة إبراهيم)) أى لا نكون كما تقولون بل نكون أهل ملته عليه السلام وقيل بل نتبع ملته عليه السلام وقد جوز أن يكون المعنى بل اتبعوا أئمتهم ملته عليه السلام أو كونوا أهل ملته وقرئ بالرفع أى بل ملتنا أو أمرنا ملته أو نحن ملته ((حنيفا)) أى مائلا عن الباطل إلى الحق وهو حال من المضاف إليه كما في رأيت وجه هند قائمة أو المضاف كما في قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا) الخ ((وما كان من المشركين)) تعريض بهم وإيذان ببطالان دعواهم اتباعه عليه السلام مع إشارا كهم بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله .

((قولوا)) خطاب للمؤمنين بعد خطابه عليه السلام برد مقالهم الشنعاء على الإجمال وإرشاد لهم إلى طريق التوحيد والإيمان على ضرب من التفصيل أى قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقا وإرشادا ضمينا لهم إليه ((آمنا بالله وما أنزل إلينا)) يعنى القرآن قدم على سائر الكتب الإلهية مع تأخره عنها نزولا لاختصاصه بنا وكونه سببا للإيمان بها ((وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط)) جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام أو أبناؤه الإثنا عشر وذرائعهم فإنهم حفدة إبراهيم وإسحق ((وما أوتى موسى وعيسى)) من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الباهرة بأيديهما حسبما فصل في التنزيل الجليل وإيراد الإتياء لما أشير إليه من التعميم وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ((وما أوتى النبيون)) أى جملة المذكورين وغيرهم ((من ربهم)) من الآيات البينات والمعجزات الباهرات

﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض وإنما اعتبر عدم التفريق بينهم مع أن الكلام فيما أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق بين ما أوتوه وهمزة أحدا إما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما في مثل المال بين الناس ومنه ما في قوله صلى الله عليه وسلم ما أحلت الغنائم لأحد سود الروس غيركم، حيث وصف بالجمع ، وإما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه في حيز النفي وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وبين غيره كما في قول النابغة :

فما كان بين الخير لو جاء سالما أبو حجر إلا ليسان قلائل

أى بين الخير وبينى وفيه من الدلالة صريحا عليه تحقيق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ما ليس فى أن يقال لا نفرق بينهم والجملة حال من الضمير فى آمننا وقوله عز وجل ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى مخلصون له ومدعنون حال أخرى منه أو عطف على آمننا ﴿ فإن آمنوا ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن ما تقدم من إيمان المخاطبين على الوجه المحرر مظنة لإيمان أهل الكتابين لما أنه مشتمل على ما هو مقبول عندهم ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصل على أن المثل مقحم كما فى قوله تعالى (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) أى عليه ويعضده قراءة ابن مسعود بما آمنتم به وقراءة أبى بالذى آمنتم به ويجوز أن تكون الباء للاستعانة على أن المؤمن به محذوف لظهوره بمروره آنفا أو على أن الفعل مجرى مجرى اللازم أى فإن آمنوا بما مر مفصلا أو فإن فعلوا الإيمان بشهادة مثل شهادتكم ، وأن تكون الأولى زائدة والثانية صلة لآمنتم وما مصدرية أى فإن آمنوا إيماننا مثل إيمانكم بما ذكر مفصلا وأن تكون لللباسة أى فإن آمنوا ملتبسين بمثل ما آمنتم ملتبسين به أو فإن آمنوا إيماننا ملتبسا به من الإذعان

والإخلاص وعدم التفريق بين الأنبياء عليهم السلام فإن ما وجد فيهم وصدر عنهم من الشهادة والإذعان وغير ذلك مثل ما للمؤمنين لآعينه بخلاف المؤمن به فإنه لا يتصور فيه التعدد ﴿فقد اهتدوا﴾ إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق ، وأما ما قيل من أن المعنى فإن تحروا الإيمان بطريق يهدى إلى الحق مثل طريقكم فقد اهتدوا فإن وحدة المقصد لا تنأى تعدد الطريق الحق وإرشادهم إليه بعينه لا يلائم تجويز أن يكون له طريق آخر وراه ﴿وإن تولوا﴾ أى أعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلوا بشيء من ذلك كأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما هو دينهم وديديهم ﴿فإنما هم في شقاق﴾ المشاقة والشقاق من الشق كالمخالفة والخلاف من الخلاف والمعاداة والعداء أى التجانب فإن أحد المخالفين يعرض عن الآخر صورة أو معنى ويوليّه خلفه ويأخذ في شق غير شقه وعدوة غير عدوته والتئوين للتفتيح أى هم مستوون في خلاف عظيم بعيد من الحق وهذا لدفع ما يتوهم من احتمال الوفاق بسبب إيمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون والجملة إما جواب الشرط كما هى على أن المراد مشاققتهم الحادثة بعد توليهم عن الإيمان كجواب الشرطية الأولى وإنما أوثرت الجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم واستقرارهم في ذلك ، وإما بتأويل فاعلوا أنما هم في شقاق . هذا هو الذى يستدعيه نغمة شأن التنزيل الجليل ، وقد قيل قوله تعالى (فإن آمنوا الخ) من باب التعجيز والتبسكيت على منهاج قوله تعالى (فأتوا بسورة مثله) ، والمعنى فإن حصلوا دينا آخر مثل دينكم مماثلا له في الصحة والساد فقد اهتدوا وإذ لا إمكان له فلا إمكان لاهتدائهم ولا ريب في أنه مما لا يليق بحمل النظم الكريم عليه . ولما دل تنكير الشقاق على امتناع الوفاق وأن ذلك مما يؤدي إلى الجدل والقتال لاحاله عقب ذلك بتسليّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفريح المؤمنين بوعده النصر والغلبة ضمان التأييد والإعزاز ، وعبر بالسين الدالة على تحقق الوقوع البتة فقول ﴿فسيكفيكم الله﴾ أى سيكفيكم شقاقهم فإن الكفاية لاتعلق بالأعيان بل بالأفعال وقد أنجز عز وعلا وعده الكريم بقتل بنى

النضير وتلوين الخطب بتجريده للنبي صلى الله عليه وسلم مع أن ذلك كفاية منه سبحانه للكل لما أنه الأصل والعمدة في ذلك والإيذان بأن القيام بأمر الحرب وتحمل المؤن والمشاق ومقاساة الشدائد في مناهضة الأعداء من وظائف الرؤساء فنعلمته تعالى في الكفاية والنصر في حقه عليه السلام أتم وأكمل (وهو السميع العليم) تذييل لما سبق من الوعد وتأكيده والمعنى أنه تعالى يسمع ما تدعوه به ويعلم ما في نيتك من إظهار الدين فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك أو وعيد للكفرة أى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم مما لا خير فيه وهو معاقبهم عليه ولا يخفى ما فيه من تأكيد الوعد السابق فإن وعيد الكفرة وعد للمؤمنين (صبغة الله) الصبغة من الصبغ كالجلسة من الجلوس وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ عبر بها عن الإيمان بما ذكر على الوجه الذى فصل لكونه تطهيرا للمؤمنين من أضرار الكفر وحلية تزينهم بآثاره الجميلة ومتداخلا في قلوبهم كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك وقيل للمشكاة التقديرية فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويزعمون أنه تطهير لهم وبه يحق نصرانيتهم وإضافتها إلى الله عز وجل مع استناده فيما سلف إلى ضمير المتكلمين للتشريف والإيذان بأنها عطية منه سبحانه لا يستقل العبد بتحصيلها فهى إذن مصدر مؤكد لقوله تعالى (آمنّا) داخل معه في حيز قولوا منتصب عنه انتصاب وعد الله عما تقدمه لكونه بمثابة فعله كأنه قيل صبغنا الله صبغة وقيل هى منصوبة بفعل الإغراء أى الزموا صبغة الله وإنما وسط بينهما الشرطيتان وما بعدهما اعتناء ببيان أنه الإيمان الحق وبه الاهتداء ومسارعة إلى تسليته عليه الصلاة والسلام (ومن أحسن من الله) مبتدأ وخبر الاستفهام للإنكار والنفي وقوله تعالى (صبغة) نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن صبغته أحسن من صبغته تعالى فالتفضيل جار بين الصبغتين لا بين فاعليهما أى الأصبغة أحسن من صبغته تعالى على معنى أنها أحسن من كل صبغة على ما أشير إليه في قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع الخ) وحيث كان مدار التفضيل على

تعميم الحسن الحقيقي والفرضي المبني على زعم الكفرة لم يلزم منه أن يكون في صبغة غيره تعالى حسن في الجملة والجملة اعتراضية مقررة لما في صبغة الله من معنى التبجح والابتهاج ﴿ونحن له﴾ أى لله الذى أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿عابدون﴾ شكرها ولسائر نعمه وتقديم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على آمنا داخل معه تحت الأمر وإيثار الاسمى للإشعار بدوام العبادة أو على فعل الإغراء بتقدير القول أى ألزموا صبغة الله وقولوا نحن له عابدون فقوله تعالى (ومن أحسن من الله) صبغة حينئذ يجرى مجرى التعليل للإغراء ﴿قل أتجادوننا﴾ تجريد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم عقب الكلام الداخل تحت الأمر الوارد بالخطاب العام لما أن المأمور به من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وقرئ بإدغام النون والهمزة للإنكار والتوبيخ أى أتجادلوننا ﴿في الله﴾ أى في دينه وتدعون أن دينه الحق هو اليهودية والنصرانية وتبنون دخول الجنة والاهتداء عليهما وتقولون تارة لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وتارة كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴿وهو ربنا وربكم﴾ جملة حالية وكذلك ما عليها أى أتجادلوننا والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلاً لأنه تعالى ربنا أى مالك أمرنا وأمركم ﴿ولنا أعمالنا﴾ الحسنة الموافقة لأمره ﴿ولكم أعمالكم﴾ السيئة المخالفة لحكمه ﴿ونحن له مخلصون﴾ في تلك الأعمال لا نبتغي بها إلا وجهه فأنى لكم المحاجة حقيقة ما أنتم عليه والطمع في دخول الجنة بسببه ودعوة الناس إليه وكلمة أم في قوله تعالى ﴿أم تقولون﴾ إما معادلة للهمزة في قوله تعالى (أتجادوننا) داخلة في حيز الأمر على معنى أى الأمرين تأتون إقامة الحجة وتنوير البرهان على حقيقة ما أنتم عليه والحال ما ذكر أم التشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء وتقولون ﴿إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾ فنحن بهم مقتدون والمراد إنكار كلا الأمرين والتوبيخ عليهما ، ولما منقطعة مقدرة بيل والهمزة دالة على الإضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء عليهم

السلام وقرىء أم يقولون على صيغة الغيبة فهي منقطعة لا غير غير داخلية تحت
الأمرواردة من جهته تعالى توييخا لهم وإنكاراً عليهم لامن جهته عليه السلام
على نهج الالتفات كما قيل . هذا ، وأما ما قيل من أن المعنى أتحتاجوننا في شأن
الله واصطفائه نبيا من العرب دونكم لما روى أن أهل الكتاب قالوا الأنبياء
كلهم منا فلو كنيت نبيا لكانت منا فنزلت ومعنى قوله تعالى (وهو ربنا وربكم
ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أنه لا اختصاص له تعالى بقوم دون قوم يصيب
برحمته من يشاء من عباده فلا يبعد أن يكرمنا كما أكرمكم بأعمالكم كأنه ألزمهم
على كل مذهب يلتحلونه لإخاما وتبكيما فإن كرامة النبوة ، إما تفضل من الله
تعالى على من يشاء فالكل فيه سواء ، وإما إفاضة حق على المستحقين لها
بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص فكما أن لكم أعمالا ربما يعتبرها
الله تعالى في إعطائها فلنا أيضا أعمال ونحن له مخلصون أى لا أنتم فمع عدم ملامته
لسياق النظم الكريم وسما على تقدير كون كلمة أم معادلة للهمزة غير صحيح
في نفسه لما أن المراد بالأعمال من الطرفين ما أشير إليه من الأعمال الصالحة
والسيئة ولا ريب في أن أمر الصلاح والسوء يدور على موافقة الدين المبني على
البعثة ومخالفته فكيف يتصور اعتبار تلك الأعمال في استحقاق النبوة
واستعدادها المتقدم على البعثة بمراتب ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ إعادة الأمر
ليست لمجرد تأكيد التوبيخ وتشديد الإنكار عليهم بل للإيدان بأن ما بعدهم
ليس متصلا بما قبله بل بينهما كلام المخاطبين مترتب على ما سبق مستتبع لما أنه
الحق قد أضرب عنه الذكر صفحا لظهوره وهو تصريحهم بما وبخوا عليه من
الافتراء على الأنبياء عليهم السلام كما في قوله عز وجل قال (ومن يقنط من رحمة
ربه إلا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون) وقوله عز قائلا (قال أسجد لمن
خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذي كرمت على) فإن تكرير قال في الموضعين
وتوسطه بين قولي قائل واحد للإيدان بأن بينهما كلاما لصاحبه متعلقا بالأول
والثاني بالتبعية والاستتباع كما حرر في محله أى كذبهم في ذلك ونكثهم قائلا
إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون وقد نفى عن إبراهيم عليه السلام كلا الأمرين حيث

قال ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا واحتج عليه بقوله تعالى (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) وهؤلاء المعطوفون عليه السلام أتباعه في الدين وفاقا فكيف تقولون ما تقولون سبحان الله عما تصفون ﴿ ومن أظلم ﴾ إنكار لأن يكون أحد أظلم ﴿ من كتم شهادة ﴾ ثابتة ﴿ عنده ﴾ كائنة ﴿ من الله ﴾ وهي شهادته تعالى له عليه السلام بالحنيفية والبراءة من اليهودية والنصرانية حسبها تلى آنفاً فعنده صفة لشهادة وكذا من الله جىء بهما لتعليل الإنكار وتأكيده فإن ثبوت الشهادة عنده وكونها من جانب الله عز وجل من أقوى الدواعى إلى إقامتها وأشد الزواجر عن كتمانها وتقديم الأول مع أنه متأخر في الوجود لمراعاة طريقة الترقى من الأدنى إلى الأعلى والمعنى أنه لا أحد أظلم من أهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادة وأثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء وتعليق الأظلمية بمطلق الكتمان للإيمان إلى أن مرتبة من يردّها ويشهد بخلافها في الظلم خارجة عن دائرة البيان أو لا أحد أظلم منا لو كتمناها فالمراد بكتمانها عدم إقامتها في مقام المحاجة وفيه تعريض بغاية أظلمية أهل الكتاب على نحو ما أشير إليه وفي إطلاق الشهادة مع أن المراد بها ما ذكر من الشهادة المعينة تعريض بكتمانهم شهادة الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل ﴿ وما الله بعافل عما تعملون ﴾ من فنون السيئات فيدخل فيها كتمانهم لشهادته سبحانه وافترائهم على الأنبياء عليهم السلام دخولا أوليا أى هو محيط بجميع ما تأتون وما تذكرون فيعاقبكم بذلك أشد عقاب وقرىء عما يعملون على صيغة الغيبة فالضمير إما لمن كتم باعتبار المعنى ، وإما لأهل الكتاب وقوله تعالى (ومن أظلم إلى آخر الآية) مسوق من جهة تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدهم بالوعيد ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ تذكير للمبالغة في الزجر عما هم عليه من الافتخار بالآباء والاتكال على أعمالهم وقيل الخطاب السابق لهم وهذا لنا تحذير عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالآمة الأولى الأنبياء عليهم السلام والثانية أسلاف اليهود ﴿ سيقول السفهاء ﴾ أى الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض (١٨ - أبو السعود - أول)

عن التدبر والنظر من قوْلهم ثوب سفیه إذا كان خفيف النسيج وقيل السفیه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم وقيل الظلوم الجهول والمراد بالسفهاء هم اليهود على ما روى عن ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم قالوه إنكاراً للنسخ وكرهية للتحويل حيث كانوا يأمنون بموافقته عليه الصلاة والسلام لهم في القبلة الأولى وبطلان النانية إذ ليس كلهم من اليهود وقيل هم المشركون ولم يقولوه كراهية للتحويل إلى مكة بل طعنا في الدين فإنهم كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائهم ثم رجع إليها وليرجعن إلى دينهم أيضاً وقيل هم القادحون في التحويل منهم جميعاً فيكون قوله تعالى ﴿من الناس﴾ أى الكفرة لبيان أن ذلك القول المحكى لم يصدر عن كل فرد فرد من تلك الطوائف الثلاث بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض في فنون الفساد وهو الأظهر إذ لو أريد بهم حائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونهم من الناس مزيد فائدة وتخصيص سفهائهم بالذکر لا يقتضى تسليم الباقي للتحويل وارتضاءهم لياه بل عدم التفوه بالقدح مطلقاً أو بالعبارة المحكية .

﴿ما ولاهم﴾ أى أى شيء صرفهم والاستفهام للإنكار والنفي ﴿عن قبلتهم﴾ القبلة فعلة من المقابلة كالوجهة وهى الحالة التى يقابل الشيء غيره عليها كالجلسة للحالة التى يقع عليها الجلوس يقال لا قبلة له ولا دبرة إذا لم يمتد لجهة أمره غلبت على الجهة التى يستقبلها الإنسان فى الصلاة والمراد بها ههنا بيت المقدس وإضافتها إلى ضمير المسلمين ووصفها بقوله تعالى ﴿التي كانوا عليها﴾ أى ثابتين مستمرين على التوجه إليها ومراعاتها واعتقاد حقيقتها لتأكيد الإنكار فإن الاختصاص بالشيء والاستمرار عليه باعتقاد حقيقته مما ينافى الانصراف عنه فإن أريد بالقائلين اليهود فمدار الإنكار كراهتهم للتحويل عنها وزعمهم أنه خطأ وإن أريد بهم المشركون فمداره مجرد القصد إلى الطعن في الدين والقدح في أحكامه وإظهار أن كلا من التوجه إليها والانصراف عنها واقع بغير داع إليه لا لكرهاتهم الانصراف عنها أو التوجه إلى مكة وتعليق الإنكار بما يوليهم عنها لا بما يوجههم إلى غيرها مع تلازمهما في

الوجود لما أن ترك الدين القديم أبعد عند العقول وإنكار سببه أدخل
لا للإيدان بأن المنكرين هم اليهود بناء على أن المنكر عندهم هو التحويل
عن خصوصية بيت المقدس الذي هو القبلة الحقة عندهم لا التوجه إلى
خصوصية قبلة أخرى أو هم المشركون بناء على أن المنكر عندهم ترك القبلة
القديمة على وجه الطعن والقدح لا التوجه إلى الكعبة لأنه الحق عندهم فإنه
بمعزل عن ذلك كيف لا والمتفقون من أحد الفريقين لا محالة والإخبار بذلك
قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما أخبر لتوطين النفوس
وإعداد ما ييسرهم فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد والجواب
العتيد لشغب الخصم الألد أرد وقوله عز وجل ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾
استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا أقول عند ذلك فقيل قل الخ أى
لله تعالى ناحيتنا الأرض أى الجهات كلها ملكا وملكاً وتصرفا فلا اختصاص
لناحية منها لذاتها بكونها قبلة دون ما عداها بل إنما هو بأمر الله سبحانه
ومشيئته ﴿ يهدى من يشاء ﴾ أن يهديه مشيئة تابعة للحكم الخفية التى لا يعلمها
إلا هو ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى سعادة الدين وقد هداها إلى ذلك
حيث أمرنا بالتوجه إلى بيت المقدس تارة وإلى الكعبة أخرى حسبما تقتضيه
مشيئته المقارنة لحكم أبية ومصالح خفية ﴿ وكذلك جعلناكم ﴾ توجيه للخطاب
إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول صلى الله عليه وسلم لتأييد ما فى
مضمون الكلام من التشریف وذلك إشارة إلى مصدر جعلناكم لا إلى جعل
آخر مفهوم مما سبق كما قيل وتوحيد الكاف مع القصد إلى المؤمنين لما أن
المراد مجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين وما فيه من
معنى البعد للإيدان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل وكال تميزه
به وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم
الإشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف
وأصل التقدير جعلناكم أمة وسطا جعلنا كائننا مثل ذلك الجعل فقدم على الفعل
لإفادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنسبة المذكورة فصار نفس المصدر

المؤكد لا نعتاً له أى ذلك الجعل البديع جعلناكم ﴿أمة وسطا﴾ لا جعلنا
آخر أدنى منه والوسط فى الأصل اسم لما يستوى نسبة الجوانب إليه كمركز
الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لكن لا لأن الأطراف يتسارع
إليها الخلل والإعواز والأوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول
ابن أوس الطائى :

كانت هى الوسط المحمى فاكشفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فإن تلك العلاقة بمعزل من الاعتبار فى هذا المقام إذ لا ملازمة بينها وبين
أهليه الشهادة التى جعلت غاية للجعل المذكور لكون تلك الخصال أوساطاً
للخصال الذميمة المكتشفة بها من طرفى الإفراط والتفريط كالعفة التى
طرفاها الفجور والخمود وكالشجاعة التى طرفاها التهور والجبن وكالحكمة التى
طرفاها الجريرة والبلادة وكالعدالة التى هى كيفية متشابهة حاصلة من اجتماع
تلك الأوساط المحفوظة بأطرافها ثم أطلق على المتصف بها مبالغة كأنه
نفسها وسوى فيه بين المفرد والجمع والمذكر والمؤنث زعاية لجانب الأصل
كدأب سائر الأسماء التى يوصف بها وقد روعيت ههنا نكتة رائقة هى أن
الجعل المشار إليه عبارة عما تقدم ذكره من هدايته تعالى إلى الحق الذى عبر
عنه بالصراط المستقيم الذى هو الطريق السوى الواقع فى وسط الطرق الجائرة
عن القصد إلى الجانبين فإننا إذا فرضنا خطوطاً كثيرة واصلت بين نقطتين
متقابلتين فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع فى وسط تلك الخطوط المنحنية
ومن ضرورة كونه وسطاً بين الطرق الجائرة كون الأمة المهديّة إليه أمة
وسطاً بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة أى متصفة بالخصال الحميدة
خياراً وعدواً لا مزيين بالعلم والعمل ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ بأن
الله عز وجل قد أوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا وذكروا فهل
من مدكر وهى غاية للجعل المذكور مترتبة عليه فإن العدالة كما أشير إليه حيث
كانت هى الكيفية المتشابهة المتألّفة من العفة التى هى فضيلة القوة الشهوية

البهيمة والشجاعة التي هي فضيلة القوة الغضبية السبعية والحكمة التي هي فضيلة القوة العقلية الملكية المشار إلى رتبها بقوله عز وعلا (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا) كان المنصف بها واقفا على الحقائق المودعة في الكتاب المبين المنطوي على أحكام الدين وأحوال الأمم أجمعين حاويا بالشرائط الشهادة عليهم . روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء عليهم السلام فيطالهم الله تعالى بالبينة وهو أعلم إقامة للحجة على المنكرين وزيادة لحزيمهم بأن كذبهم من بعدهم من الأمم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فيقول الأمم من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك يا خبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى عند ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدلتها وذلك قوله عز قاثلا ﴿ ويكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ وكلمة الاستعلاء لما في الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن وقيل لتكُونُوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يقبل فيه الشهادة إلا من العدول الأخيار وتقديم الظرف للدلالة على اختصاص شهادته عليه السلام بهم ﴿ وما جعلنا القبلَةَ التي كنْتَ عليها ﴾ جرد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم رمزا إلى أن مضمون الكلام من الأسرار الحقيقة بأن تخص معرفته بها عليه السلام وليس الموصول صفة للقبلة بل هو مفعول ثانٍ للجعل وما قيل من أن الجعل تحويل الشيء من حالة إلى أخرى فالملتبس بالحالة الثانية هو المفعول الثاني كما في قولك جعلت الطين خزفا فينبغي أن يكون المفعول الأول هو الموصول والثاني هو القبلة فهو كلام صناعى ينساق إليه الذهن بحسب النظر الجليل ولكن التأمل اللائق يهْدِي إلى العكس فإن المقصود إفادته أنه ليس جعل الجهة قبلة لا غير كما يفيد ما ذكر بل هو جعل القبلة المحققة الوجود هذه الجهة دون غيرها والمراد بالموصول هي الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إليها أولا ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلى الصخرة تالفا لليهود أو هي الصخرة لما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن قبلته عليه السلام بمكة كانت بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه

وعلى هذه الرواية لا يمكن أن يراد بالقبلة الأولى الكعبة وأما الصخرة فيتأتى إرادتها على الروایتين والمعنى على الأول وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل هذا الوقت وهي الصخرة ﴿إلا لنعلم﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعلنا ذلك الشيء من الأشياء إلا لنمتحن الناس أى نعاملهم. معاملة من يمتحنهم ونعلم حينئذ ﴿من يتبع الرسول﴾ فى التوجه إلى ما أمر به من الدين أو القبلة والالتفات إلى القبلة مع إirاده عليه السلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلّة الاتباع ﴿من ينقلب على عقبيه﴾ يرتد عن دين الإسلام أو لا يتوجه إلى القبلة الجديدة أو لنعلم الآن من يتبع الرسول من لا يتبعه وما كان لعارض يزول بزواله وعلى الأول ما ردّدناك إلى ما كنت عليه إلا لنعلم الثابت على الإسلام والنّا كص على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه والمراد بالعلم ما يدور عليه فلك الجزء من العلم الحالى أى ليتعلّق بعلمنا به موجوداً بالفعل وقيل المراد علم الرسول عليه السلام والمؤمنين وإسناده إليه سبحانه لما أنعم على خواصه وليتميز الثابت عن المتزلزل كقوله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب) فوضع العلم موضع التمييز الذى هو مسبب عنه ويشهد له قراءة ليعلم على بناء المجهول من صيغة الغيبة والعلم إما بمعنى المعرفة أو متعلّق بما فى دمن، من معنى الاستفهام أو مفعوله الثانى من ينقلب الخ أى لنعلم من يتبع الرسول متميزاً من ينقلب على عقبيه ﴿ولأن كانت لكبيرة﴾ أى شاقة ثقيلة ولأن هى المخففة من الثقلية دخلت على ناسخ المبتدأ والخبر واللام هى الفارقة بينها وبين النافية كما فى قوله تعالى (إن كان وعد ربنا لمفعولاً) وزعم الكوفيون أنها نافية واللام بمعنى إلا أى ما كانت إلا كبيرة والضمير الذى هو اسم كان راجع إلى ما دل عليه قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) من الجعلة أو التولية أو التحويلة أو الردة أو القبلة وقرئ لكبيرة بالرفع على أن كان مزيدة كما فى قوله :

• وإخوان لنا كانوا كرام • وأصله وإن هى لكبيرة

كقوله إن زيد لمنطلق ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ أى إلى سر الأحكام الشرعية المبنية على الحكم والمصالح إجمالاً وتفصيلاً وهم المهديون إلى الصراط

المستقيم الثابتون على الإيمان واتباع الرسول عليه السلام : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أى ماصح وما استقام له أن يضيع ثباتكم على الإيمان بل شكر صانِعكم وأعد لكم الثواب العظيم وقيل إيمانكم بالقبلة المنسوخة وصلاتكم إليها لما روى أنه عليه السلام لما توجه إلى الكعبة قالوا كيف حال إخواننا الذين مضوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فنزلت واللام فى ليضيع إما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدر أى ما كان الله مريداً أو متصديداً لأن يضيع الخ فى توجيه النفى إلى إرادة الفعل تأكيد ومبالغة ليس فى توجيهه إلى نفسه وإما زيادة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله تعالى : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ تحقيق وتقرير للحكم وتعليل له فإن اتصافه عز وجل بهما يقتضى لا عمالة أن لا يضيع أجورهم ولا يدع ما فيه صلاحهم والباء متعلقة برؤوف وتقديمه على رحيم مع كونه أبلغ منه لما مر فى وجه تقديم الرحمن على الرحيم وقيل الرحمة أكثر من الرأفة فى السكينة والرأفة أقوى منها فى الكيفية لأنها عبارة عن إيصال النعم الصافية من الآلام والرحمة إيصال النعمة مطلقاً وقد يكون مع الآلم كقطع العضو المتأكل وقرىء رؤوف بغير مد كندس ﴿ قد نرى قلبك وجهك فى السماء ﴾ أى تردده وتصرف نظرك فى جهتها تطلعا للوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقع فى روعة ويتوقع من ربه عز وجل أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم وأدى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولخالفه اليهود فكان يراعى نزول جبريل بالوحى بالتحويل ﴿ فلنولينك قبلة ﴾ الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وهى فى الحقيقة داخلية على قسم محذوف يدل عليه اللام أى فوالله لنولينك أى لنعطيسنكها ولنمكنك من استقبالها من قولك وليته كذا أى صيرته والياً له أو لنجعلك تلى جهتها أو لنحولنك على أن نصب قبلة بحذف الجار أى إلى قبلة وقيل هو متعد إلى مفعولين ﴿ ترضاها ﴾

تحبها وتشتاق إليها لمقاصد دينية وافقت مشيئته تعالى وحكمته ﴿فول وجهك﴾
 الغاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم وتخصيص التولية بالوجه لما
 أنه مدار التوجه ومعياره وقيل المراد به كل البدن أى فاصرفه ﴿شطر المسجد
 الحرام﴾ أى نحوه وهو نصب على الظرفية من نولى أو على نزع الخافض
 أو على أنه مفعول ثان له وقيل الشطر فى الأصل اسم لما انفصل من الشيء
 ودار شطور إذا كانت منفصلة عن الدور ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصل
 كالقطر والحرام المحرم أى محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوا
 له وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة إيدان بكفاية مراعاة الجهة لأن مراعاة
 العين من البعيد حرجا عظيما بخلاف القريب . روى عن البراء بن عازب
 أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ف صلى نحو بيت المقدس ستة عشر
 شهرا ثم وجه إلى الكعبة وقيل كان ذلك فى رجب بعد زوال الشمس قبل
 قتال بدر بشهرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى
 بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول
 الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى المسجد مسجداً القبليتين ﴿وحيثما
 كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب
 تعظيما لجنايته وإيدانا ياسعاف مرامه ثم عمم الخطاب للمؤمنين مع التعرض
 لاختلاف أما كنتم تأكيذا للحكم وتصريحا بعمومه لكافة العباد من كل
 حاضر وباد وحثا للأمة على المتابعة وحيثما شرطية وكنتم فى محل الجزاء بها
 وقوله تعالى فولوا جوابها وتكون هى منصوبة على الظرفية بكنتم نحو
 قوله تعالى (أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾ من
 فريق اليهود والنصارى ﴿ليعلمون أنه﴾ أى التحويل أو التوجه المفهوم من
 التولية ﴿الحق﴾ لا غير لعلمهم بأن عادته سبحانه وتعالى جارية على تخصيص
 كل شريعة بقبلة ومعاينتهم لما هو مسطور فى كتبهم من أنه عليه الصلاة والسلام
 يصلى إلى القبليتين كما يشعر بذلك التعبير عنهم بالاسم الموصل بإيتاء الكتاب
 وأن مع اسمها وخبرها ساد مسد مفعولى يعلمون أو مسد مفعوله الواحد على

أن العلم بمعنى المعرفة وقوله تعالى : ﴿ من ربهم ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الحق أى كائننا من ربهم أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائن من ربهم ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وعد ووعد للفرقة والخطاب للسكل تغاييا وقرىء على صيغة الغيبة فهو وعيد لأهل الكتاب .

﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب ﴾ وضع الموصول موضع المضمر للإيدان بكمال سوء حالهم من العناد مع تحقيق ما يرغمهم منه من الكتاب الناطق بحقية ما كابروا فى قبوله ﴿ بكل آية ﴾ أى حجة قطعية دالة على حقية التحويل واللام موطئة للقسم وقوله تعالى ﴿ ما تبعوا قبلتك ﴾ جواب للقسم المضمر ساد مسد جواب الشرط والمعنى أنهم ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة وإنما خالفوك مكابرة وعنادا وتجريد الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه للأمة لما أن الحاجة والإتيان بالآية من الوظائف الخاصة به عليه السلام وقوله تعالى : ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ جملة معطوفة على الجملة الشرطية لا على جوابها مسوقة لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذى نتظره تغريرا له عليه الصلاة والسلام وطمعا فى رجوعه وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره وإفراد قبلتهم مع تعددها باعتبار اتحادها فى البطلان ومخالفة الحق ولئلا يتوهم أن مدار النفي هو التعدد وقرىء بتابع قبلتهم على الإضافة ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس ولا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك لتصلب كل فريق فيما هو فيه .

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ الزائغة المتخالفة ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ يبطلانها وحقية ما أنت عليه وهذه الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهيج والإلهاب للشبات على الحق أى ولئن اتبعت أهواءهم فرضا ﴿ إنك إذأ لمن الظالمين ﴾ وفيه لطف للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى

فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه مراتب من الانتظام في سلك الراسخين في الظلم فما ظن من ليس كذلك وإذن حرف جواب وجزاء توسطت بين اسم إن وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة إذ كان حقها أن تتقدم أو تتأخر فلم تتقدم لئلا يتوهم أنها لتقرير النسبة التي بين الشرط وجوابه المحذوف لأن المذكور جواب القسم ولم تتأخر لرعاية الفواصل ولقد بولغ في التأكيد من وجوه تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتضائه وتحذيرا عن متابعة الهوى واستعظاما لصدور الذنب من الأنبياء عليهم السلام .

﴿الذين آتيناكم الكتاب﴾ أى علماءهم إذا هم العمدة في إيتائه ووضع الموصول موضع المضممر مع قرب العهد للإشعار بعلية ما في حين الصلة للحكم والضمير المنصوب في قوله تعالى ﴿يعرفونه﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له عليه السلام من حيث ذاته ونسبه الزاهر بل من حيث كونه مسطورا في الكتاب منعوتا فيه بالنعوت التي من جملتها أنه عليه السلام يصلى إلى القبلتين كأنه قيل الذين آتيناكم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وهذا يظهر جزالة النظم الكريم وقيل هو إضمار قبل الذكر للإشعار بفخامة شأنه عليه الصلاة والسلام أنه علم معلوم بغير إعلام فتأمل وقيل الضمير للعلم أو سببه الذى هو الوحى أو القرآن أو التحويل ويؤيد الأول قوله عز وجل ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أى يعرفونه عليه الصلاة والسلام بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم ولا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناءهم وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لكونهم أعرف عندهم منهم بسبب كونهم أحب إليهم عن عمر رضى الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنا أعلم به منى بابنى قال ولم قال لأنى لست أشك فيه أنه نبي فأما ولدى فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه رضى الله عنهما ﴿ولأن فريقا منهم ليسكتمون الحق وهم يعلمون﴾ هم الذين كبروا وعاندوا الحق والباقيون هم الذين آمنوا منهم فإنهم يظهرون الحق ولا يكتمونه وأما

الجهلة منهم فليست لهم معرفة بالكتاب ولا بما في تضاعيفه فإهم بصدد الإظهار ولا بصدد السكتهم وإنما كفرهم على وجه التقليد ﴿الحق﴾ بالرفع على أنه مبتدأ وقوله تعالى ﴿من ربك﴾ خبره واللام للعهد والإشارة إلى ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى الحق الذي يكتُمونه أو للجنس والمعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه لا غيره كالذي عليه أهل الكتاب أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق وقوله تعالى من ربك إما حال أو خبر بعد خبر وقرىء بالنصب على أنه بدل من الأول أو مفعول ليعلمون وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أى الشاكين في كتابهم الحق عالمين به وقيل في أنه من ربك وليس المراد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك لأنه غير متوقع منه عليه الصلاة والسلام وليس بقصد واختيار بل إما تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ ﴿ولكل﴾ أى ولكل أمة من الأمم على أن التنوين عوض من المضاف إليه ﴿وجهة﴾ أى قبلة وقد قرىء كذلك أو لكل قوم من المسلمين جانب من جوانب الكعبة ﴿هو موليا﴾ أحد المفعولين محذوف أى موليا وجهه أو الله موليا لياه وقرىء ولكل وجهة بالإضافة والمعنى ولكل وجهة الله موليا أهلها واللام مزيدة للتأكيد وجبر ضعف العامل وقرىء موليا أى مولى تلك الجهة قد وليها ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أى تسابقوا إليها بنزع الجار كما في قوله :

ثنائى عليكم آل حرب ومن يمل سواكم فإنى مهتد غير مائل

وهو أبلغ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق والمراد بالخيرات جميع أنواعها من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين أو الفاضلات من الجهات وهى المساماة للكعبة ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ أى فى أى موضع تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو

متفرقا يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من موافق أو يخالف مجتمع الأجزاء أو متفرقا يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من الجهات المختلفة المتقابلة يجعل صلواتكم كأنها صلاة إلى جهة واحدة ﴿لأن الله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على الإمامة والإحياء والجمع فهو تعليل للحكم السابق ﴿ومن حيث خرجت﴾ تأكيد لحكم التحويل وتصريح بعدم تفاوت الأمر في حالتي السفر والحضر ومن متعلقة بقوله تعالى ﴿فول﴾ أو بمحذوف عطف هو عليه أى من أى مكان خرجت إليه للسفر فول ﴿وجهك﴾ عند صلاتك ﴿شطر المسجد الحرام﴾ أو أفعل ما أمرت به من أى مكان خرجت إليه فول إلخ ﴿ولأنه﴾ أى هذا الأمر ﴿لالحق من ربك﴾ أى الثابت الموافق للحكمة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو وعد للمؤمنين وقرىء يعملون على صيغة الغيبة فهو وعيد للكافرين ﴿ومن حيث خرجت﴾ إليه فى أسفاركم ومغازيكم من المنازل القريبة والبعيدة ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ السلام فيه كما مر آنفا ﴿وحيثما كنتم﴾ من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين حسبما يعرب عنه لما يشار كنتم على خرجتم فإن الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين فى الآفاق من الحاضرين والمسافرين فلو قيل وحيثما خرجتم لما تناول الخطاب المقيمين فى الأماكن المختلفة من حيث إقامتهم فيها ﴿فولوا وجوهكم﴾ من محالكم ﴿شطره﴾ والتكرير لما أن القبلة لها شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فبالحرى أن يؤكد أمرها مرة بعد أخرى مع أنه قد ذكر فى كل مرة حكمة مستقلة ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ متعلق بقوله تعالى ﴿فولوا﴾ وقيل بمحذوف يدل عليه السلام كما أنه قيل فعلنا ذلك لئلا إلخ والمعنى أن التولية عن الصخرة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة من أوصافه أنه يحول إلى الكعبة واحتجاج المشركين بأنه يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته

﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ وهم أهل مكة أى لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم الذين يقولون ما تحول إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحبا لبلده أو بداله فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم وتسمية هذه الكلمة الشنعاء حجة مع أنها أخش الأباطيل من قبيل ما في قوله تعالى حججهم داحضة حيث كانوا يسوقونها مساق الحجة وقيل الحجة بمعنى مطلق الاحتجاج وقيل الاستثناء للمبالغة في نفي الحجة رأسا كالذى في قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

ضرورة أن لا حجة للظالم وقرىء ألا الذين بحرف التنبيه على استئناف ﴿فلا تخشوهم﴾ فإن مطاعهم لا تضركم شيئا ﴿واخشوني﴾ فلا تخافوا أمرى ﴿ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تتدرون﴾ علة مخذوف يدل عليه النظم الكريم أى أمرتكم بما مر لإتمامي للنعمة عليكم لما أنه نعمة جليلة وإرادتى لما أنه صراط مستقيم مؤد إلى سعادة الدارين كما أشير إليه في قوله عز وجل (يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وفي التعبير عن الإرادة بكلمة لعل الموضوع للترجى على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية لا يخفى أو عطف على علة مقدره أى واخشوني لأحفظكم عنهم وأتمم الخ أو على قوله تعالى لئلا يكون الخ وتوسط قوله تعالى فلا تخشوهم الخ بينهما للسارعة إلى التسلية والتثبيت وفي الخبر تمام النعمة دخول الجنة وعن على رضى الله عنه تمام النعمة الموت على الإسلام ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ متصل بما قبله والظرف الأول متعلق بالفعل قدم على مفعوله الصريح لما في صفاته من الطول والظرف الثانى متعلق بمضمر وقع صفة لرسولا مبينة لتام النعمة أى ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى الآخرة إتماما كائناتنا كما تسمى لها بإرسال رسول كائن منكم فإن إرسال الرسول لا سيما المجانس لهم نعمة لا يكافئها نعمة قط وقيل متصل بما بعده أى كما ذكرتم بالإرسال فاذكرونى الخ وإيثار صيغة المتكلم مع الغير بعد التوجيه فيما قبله اقتتان وجريان على سنن الكبرياء ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾

صفة ثانية لرسول كاشفة لسكال النعمة ﴿ويزكيكم﴾ عطف على يتلو أى يحملكم على ما تصيرون به أذكاء ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ صفة أخرى مترتبة في الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيدان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى (وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر نظيره فى قصة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب والحكمة رمز إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الأحاديث الشريفة من الشرائع وقوله عز وجل ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ صريح فى ذلك فإن الموصول مع كونه عبارة عن الكتاب والحكمة قطعا قد عطف تعليمه على تعليمها وما ذلك إلا لتفصيل فنون النعم فى مقام يقتضيه كما فى قوله تعالى (ونجيناهم من عذاب غليظ) عقيب قوله تعالى (نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا) والمراد بعدم علمهم أنه ليس من شأنهم أن يعلموه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم لانهصار الطريق فى الوحي ﴿فاذكرونى﴾ التناء للدلالة على ترتب الأمر على ما قبله من موجباته أى فاذكرونى بالطاعة ﴿أذكركم﴾ بالثواب وهو تحريض على الذكر مع الإشعار بما يوجبه ﴿واشكروا لى﴾ ما أنعمت به عليكم من النعم ﴿ولا تكفرون﴾ بجحدها وعصيان ما أمرتكم به ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وصفهم بالإيمان إثر تعداد ما يوجبه ويقتضيه تنشيطا لهم وحثا على مراعاة ما يعقبه من الأمر ﴿استعينوا﴾ فى كل ما تأتون وما تذكرون ﴿بالصبر﴾ على الأمور الشاقة على النفس التى من جملتها معاداة الكفرة ومقابلتهم المؤدية إلى مقاتلتهم ﴿والصلوة﴾ التى هى أم العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين ﴿إن الله مع الصابرين﴾ تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة لما أنه المحتاج إلى التعليل وأما الصلاة

حيث كانت عند المؤمنين أجل المطالب كما ينبي عنه قوله عليه الصلاة والسلام
 وجعلت قرعة عيني في الصلاة . لم يفتقر الأمر بالاستعانة بها إلى التعليل ومعنى المعية
 الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة وإجابة الدعوة ودخول مع علي الصابرين لما
 أنهم المباشرون للصبر حقيقة فهم متبوعون من تلك الحيثية ﴿ ولا تقولوا ﴾
 عطف على استعينوا الخ مسوق لبيان أن لا غاية للمأثور به وإنما الشهادة التي
 ربما يؤدي إليها الصبر حياة أبدية ﴿ لمن يقتل في سبيل الله أموات ﴾ أى هم
 أموات ﴿ بل أحياء ﴾ أى بل هم أحياء ﴿ ولكن لا تشعرون ﴾ بحياتهم وفيه رمز
 - إلى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وإنما هي أمر
 روحاني لا يدرك بالعقل بل بالوحى وعن الحسن رحمه الله أن الشهداء أحياء
 عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح كما تعرض
 النار على آل فرعون غدوا وعشيا فيصل إليهم الألم والوجع قلت رأيت في
 المنام سنة تسع وثلاثين وتسمائة أنى أزور قبور شهداء بأحد رضى الله تعالى
 عنهم أجمعين وأنا أتلو هذه الآية وما في سورة آل عمران وأرددهما متفكرا
 فى أمرهم وفى نفسى أن حياتهم روحانية لا جسمانية فيدنا أنا على ذلك إذ رأيت
 شابا منهم قاعدا فى قبره تام الجسد كامل الخلقة فى أحسن ما يكون من الهيئة
 والمنظر ليس عليه شئ من اللباس قد بدا منه ما فوق السرة والباقي فى القبر خلا
 أنى أعلم يقينا أن ذلك أيضا كما ظهر وإنما لا يظهر لكونه عورة فنظرت إلى
 وجهه فرأيت أنه ينظر إلى متبسا كأنه يذهى على أن الأمر بخلاف رأى فسبحان
 من علت كلمته وجلت حكمته وقيل الآية نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة
 عشر وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغيرة لما يحس به من
 البدن تبقى بعد الموت دركة وعليه جمهور الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى
 عليهم أجمعين وبه نطقت والسنن وعلى هذا فتخصيص الشهداء بذلك لما يستدعيه
 مقام التحريض على مباشرة مبادئ الشهادة واختصاصهم بمزيد القرب من الله
 عز وعلا ﴿ ولنبؤنكم ﴾ لنصيبكم إصابة من يختبر أحوالكم أنصبرون على
 البلاء وتستسلمون للقضاء ﴿ بشئ من الخوف والجوع ﴾ أى بقليل من ذلك

فإن ما وقام عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة وكذا ما يصيب به معانديهم وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبا أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة ﴿ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ عطف على شيء وقيل على الخوف وعن الشافعي رحمه الله الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ونقص من الأموال الزكاة والصدقات ومن الأنفس الأمراض ومن الثمرات موت الأولاد وعن النبي صلى الله عليه وسلم إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للهلاكه أقبضتم روح عبدى فيقولون نعم فيقول عز وجل أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدى فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله عز وعلا ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لسكل من يتأتى منه البشارة والمصيبة ما يصيب الإنسان من مكروه لقوله عليه السلام كل شيء يؤذى المؤمن فهو له مصيبة وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب بأن يتصور ما خلق له وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله تعالى عليه ويرى أن ما أبقي عليه أضعاف ما استرد معه فيهن ذلك على نفسه ويستسلم والمبشر به محذوف دل عليه ما بعده ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت ومعنى البعد فيه للإيذان بعلو رتبهم ﴿عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ الصلاة من الله سبحانه المغفرة والرافة وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها والجمع بينها وبين الرحمة للمبالغة كما فى قوله تعالى (رافة ورحمة) (رؤف رحيم) والتنوين فيهما للتفخيم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لإظهار مزيد العناية بهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة عليهم فنون الرافاة الفائضة من مالك أمورهم ومبلغهم إلى كمالهم اللاتفة بهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتة وأحسن عقابه وجعل له خلفا صالحا يرضاه ﴿وأولئك﴾ إشارة إليهم إما بالاعتبار السابق والتكرير لإظهار كمال العناية بهم وإما باعتبار

حياتهم لما ذكر من الصلوات والرحمة المترتب على الاعتبار الأول فعلى الأول المراد بالاهتداء في قوله عز وجل ﴿ وهم المهتدون ﴾ هو الاهتداء للحق والصواب مطلقا لا الاهتداء لما ذكر من الاسترجاع والاستسلام خاصة لما أنه متقدم عليهما فلا بد لتأخيرهما عما هو نتيجة لهما من داع يوجبه وليس بظاهر والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله كأنه قيل وأولئك هم المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى وعلى الثاني هو الاهتداء والفوز بالمطالب والمعنى أولئك هم الفائزون بمباغيتهم الدنيوية والدنيوية فإن من نال رافة الله تعالى ورحمته لم يفته مطلب ﴿ إن الصفا والمروة ﴾ علمان لجبلين بمكة المعظمة كالصمان والمقطم ﴿ من شعائر الله ﴾ من أعلام مناسكه جمع شعيرة وهى العلامة ﴿ فن حج البيت أو اعتمر ﴾ الحج فى اللغة القصد والاعتمر الزيارة غالبا فى الشريعة على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين كالبيت والنجم فى الأعيان وحيث أظهر البيت وجب تجريده عن التعلق به ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ أى فى أن يطوف بهما أصله يتطوف قلبت التاء طاء فأدغمت الطاء فى الطاء وفى إيراد صيغة التفعّل ليدان بأن من حق الطائف أن يتكلف فى الطواف ويبذل فيه جهده وهذا الطواف واجب عندنا والشافعى وعن مالك رحمهما الله أنه ركن وإيراده بعدم الجناح المشعر بالتخيير لما أنه كان فى عهد الجاهلية على الصفا صم يقال له إساف وعلى المروة آخر اسمه نائلة وكانوا إذا سعوا بينهما مسحوا بهما فلما جاء الإسلام وكسر الأصنام تخرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت وقيل هو تطوع ويعضده قراءة ابن مسعود فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ﴿ ومن تطوع خيرا ﴾ أى فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف وخيرا حينئذ نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أى تطوعا خيرا أو على حذف الجار وإيصال الفعل إليه أو على تضمين معنى فعل وقرىء يطوع وأصله يتطوع مثل يطوف وقرىء ومن يتطوع بخير ﴿ فإن الله شاكر ﴾ أى مجاز على الطاعة عبر عن ذلك بالشكر مبالغة فى الإحسان

إلى العباد ﴿عليم﴾ مبالغ في العلم بالأشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئاً وهو علة لجواب الشرط قائم مقامه كأنه قيل ومن تطوع خيراً جازاه الله وأثابه فإن الله شاكر عليم ﴿إن الذين يكتبون﴾ قيل نزلت في أحبار اليهود الذين كتبوا ما في التوراة من نعوت النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الأحكام وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي والربيع والأصم أنها نزلت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى وقيل نزلت في كل من كتب شيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكل والأقرب هو الأول فإن عموم الحكم لا يأبى خصوص السبب والكتب والكتبان ترك إظهار الشيء قصداً مع مساس الحاجة إليه وتحقق الداعي إلى إظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفائه وقد يكون بإزالته ووضع شيء آخر في موضعه وهو الذي فعله هؤلاء .

﴿ما أنزلنا من البينات﴾ من الآيات الواضحة الدالة على أمر محمد صلى الله عليه وآله ﴿والهدى﴾ أى والآيات الهادية إلى كنهه أمره ووجوب اتباعه والإيمان به عبر عنها بالمصدر مبالغة ولم يجمع مراعاة للأصل وهى المرادة بالبينات أيضاً والعطف لتغاير العنوان كما في قوله عز وجل (هدى للناس وبيّنات) لمخ وقيل المراد بالهدى الأدلة العقلية ويأباه الإنزال والكتب ﴿من بعد ما بيناه للناس﴾ متعلق بـ يكتبون والمراد بالناس الكل لا الكتّامون فقط واللام متعلقة بـ بيناه وكذا الظرف في قوله تعالى ﴿في الكتاب﴾ فإن تعلق جارين بفعل واحد عند اختلاف المعنى مما لا ريب في جوازه أو الأخير متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى كائنا في الكتاب وتبيينها لهم تلخيصه وإيضاحه بحيث يتلقاه كل أحد منهم من غير أن يكون له فيه شبهة وهذا عنوان مغاير لكونه بينا في نفسه وهدى مؤكداً لقبـ الكتب أو تفهيمه لهم بواسطة موسى عليه السلام والأول أنسب بقوله تعالى في الكتاب والمراد بكتبه إزالته ووضع غيره في موضعه فإنهم يحوا نعته عليه الصلاة والسلام وكتبوا مكانه ما يخالفه كما ذكرناه في تفسير قوله عز وعلا (فويل للذين يتكبرون الكتاب) لمخ ﴿أولئك﴾ إشارة إليهم باعتبار

سورة البقرة

٢٩١

ما وصفوا به للإشعار بعليته لما حاق بهم وما فيه من معنى البعد للإيدان يترامى أمرهم وبعد منزلتهم في الفساد ﴿يلعنهم الله﴾ أى يطردهم ويعدمهم من رحمته والالتفات إلى الغيبة بإظهار اسم الذات الجامع للصفات لترتبة المهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن مبدأ صدور اللعن عنه سبحانه صفة الجلال المخيرة لما هو مبدأ الإنزال والتبيين من وصف الجمال والرحمة ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ أى الذين يتأتى منهم اللعن أى الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمنى الثقلين والمراد بيان دوام اللعن واستمراره وعليه يدور الاستثناء المتصل فى قوله تعالى :

﴿إلا الذين تابوا﴾ أى عن السكتان ﴿وأصلحوا﴾ أى ما أفسدوا بأن أزالوا الكلام المحرف وكتبوا مكانه ما كانوا أزالوه عند التحريف ﴿وبينوا﴾ للناس معانيه فإنه غير لصلاح المذكور أو بينوا لهم ما وقع منهم أولاً وآخراً فإنه أدخل فى إرشاد الناس إلى الحق وصرفهم عن طريق الضلال الذى كانوا أو قعوه فيه أو بينوا توبتهم ليمحو به سمة ما كانوا فيه ويقضى بهم أضرابهم وحيث كانت هذه التوبة المقرونة بالإصلاح والتبيين مستلزمة للتوبة عن الكفر مبنية عليها لم يصرح بالإيمان وقوله تعالى ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة للإشعار بعليته للحكم والفاء لتأكيد ذلك ﴿أتوب عليهم﴾ أى بالقبول وإفاضة المغفرة ، والرحمة وقوله تعالى ﴿وأنا للتواب الرحيم﴾ أى المبالغ فى قبول التوب ونشر الرحمة اعتراض تذييل محقق لمضمون ما قبله والالتفات إلى التسكيم للافتنان فى النظم الكريم مع ما فيه من التلويع والرمز إلى ما مر من اختلاف المبدأ فى فعلية تعالى السابق واللاحق ﴿إن الذين كفروا﴾ جملة مستأنفة سبقت لتحقيق بقاء اللعن فيما وراء الاستثناء وتأكيد دوامه واستمراره على غير التائبين حسبما يفيد الكلام والاقتصار على ذكر الكفر فى الصلة من غير تعرض لعدم التوبة والإصلاح والتبيين مبنى على ما أشير إليه فسكاً أن وجود تلك الأمور الثلاثة مستلزم للإيمان الموجب لعدم الكفر كذلك وجود الكفر مستلزم لعدمها جميعاً أى أن الذين استمروا

على الكفر المستتبع للكتمان وعدم التوبة ﴿وماتوا وهم كفار﴾ لا يرفعون
عن حالتهم الأولى ﴿أولئك﴾ الكلام فيه كما فيما قبله ﴿عليهم﴾ أى مستقر
عليهم ﴿لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ بمن يعتد بلعنهم وهذا بيان لدوامها
الثبوتى بعد بيان دوامها التجددى وقيل الأول لعنتهم أحياء وهذا لعنتهم أمواتا
وقرىء والملائكة والناس أجمعون عطفا على محل اسم الله لأنه فاعل فى المعنى
كقولك أعجبني ضرب زيد وعمر وتريد من أن ضرب زيد وعمر وكأنه قيل
أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة الخ وقيل هو فاعل لفعل مقدر أى ويلعنهم
الملائكة ﴿خالدين فيها﴾ أى فى اللعنة أو فى النار على أنها أضمرت من غير
ذكر تفخيما لشأنها وتهويلا لأمرها ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ إما مستأنف
لبیان كثرة عذابهم من حيث الكيف لإثر بيان كثرة من حيث الحكم أو حال
من الضمير فى خالدين على وجه التداخل أو من الضمير فى عليهم على طريقة
الترادف ﴿ولاهم ينظرون﴾ عطف على ما قبله جارفيه وإيثار الجملة الاسمية لإفادة
دوام النفي واستمراره أى لا يعملون ولا يؤجلون أو لا ينتظرون ليعتذروا أو لا
ينظر إليهم نظر رحمة ﴿ولاهم﴾ خطاب عام لكافة الناس أى المستحق منكم
للعقوبة ﴿إله واحد﴾ أى فرد فى الإلهية لاصحة للتسمية غيره إلهها أصلا ﴿لا إله
إلا هو﴾ خبر ثان للمبتدأ أو صفة أخرى للخبر أو اعتراض وأياً ما كان فهو
مقرر للوحدانية ومزيج لما عسى أن يتوهم أن فى الوجود إلهان لكن لا يستحق
العبادة ﴿الرحمن الرحيم﴾ خبران آخران للمبتدأ أو لمبتدأ محذوف وهو
تقرير للتوحيد فإنه تعالى حيث كان موليا لجميع النعم أصولها وفروعها جليلها
ودقيقها وكان ماسواها كائناً ما كان مفتقرا إليه فى وجوده وما يتفرع عليه من
كالاته تحققت وحدانيته بلا ريب وانحصر استحقاق العبادة فيه تعالى قطعاً
قيل كان للمشركين حول الكعبة المكربة ثلثمائة وستون صنماً فلما سمعوا هذه
الآية تعجبوا وقالوا إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت
﴿إن فى خلق السموات والأرض﴾ أى فى إبداعهما على ما هما عليه مع ما فيها
من تعجيب العبر وبدائع صنائع يعجز عن فهمها عقول البشر وجمع السموات

لما هو المشهور من أنها طبقات متخالفة الحقائق دون الأرض ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أى اعتقابهما وكون كل منهما خلفاً للآخر كقوله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه) أو اختلاف كل منهما فى أنفسهما ازديادا وانتقاصا على ما قدره الله تعالى ﴿والفلك التى تجرى فى البحر﴾ عطف على ما قبله وتأنيثه إما بتأويل السفينة أو بأنه جمع فإن ضمة الجمع مغايرة لضمة الواحد فى التقدير إذ الأولى كما فى حجر والثانية كما فى قفل وقرىء بضم اللام ﴿بما ينفع الناس﴾ أى ملتبسة بالذى ينفعهم بما يحمل فيها من أنواع المنافع أو بنفعهم ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ عطف على الفلك وتأخيرها عن ذكرها مع كونه أعم منها نفعا لما فيه من مزيد تفصيل وقيل المقصود الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب لأن منشأهما البحر فى غالب الأمر ومن الأولى ابتدائية والثانية بيمانة أو تبعيضية وأياما كان فتأخيرها لما مر مرارا من التشويق والمراد بالسماء الفلك أو السحاب أو جهة العلو ﴿فأحيى به الأرض﴾ بأنواع النبات والأزهار وما عليها من الأشجار ﴿بعد موتها﴾ باستيلاء اليوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها كما يوزن به لإيراد الموت فى مقابلة الإحياء ﴿وبث فيها﴾ أى فرق ونشر ﴿من كل دابة﴾ من العقلاء وغيرهم والجملة معطوفة على أنزل داخلية تحت حكم الصلة وقوله تعالى فأحيى الخ متصل بالمعطوف عليه بحيث كانا فى حكم شيء واحد كأنه قيل وما أنزل فى الأرض من ماء وبث فيها الخ أو على أحياء بحذف الجار والمجرور العائد إلى الموصول وإن لم تتحقق الشرائط المعهودة كما فى قوله :

وإن لسانى شهدة يشتمى بها ولكن على من صبه الله علقم

أى علقم عليه وقوله :

لعل الذى أوصدتنى أن يردنى إلى الأرض إن لم يقدر الخير قادره
على معنى فأحيى بالماء الأرض وبث فيها من كل دابة فإنهم ينمون

بالخشب ويعيشون بالحيا ﴿ وتصريف الرياح ﴾ عطف على ما أنزل أى
تقليبها من مقاب إلى آخر أو من حال إلى أخرى وقرىء على الأفراد
﴿ والسحاب ﴾ عطف على تصريف أو الرياح وهو اسم جنس واحده
سحابة سمي بذلك لانسحابه فى الجو ﴿ المسخر بين السماء والأرض ﴾ صفة
للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما فى قوله تعالى سحابا
ثقالا وتسخيره تقليبه فى الجو بواسطة الرياح حسبما تقتضيه مشيئة الله تعالى
ولعل تأخير تصريف الرياح وتسخير السحاب فى الذكر عن جريان الفلك
ولإنزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجى لما مر فى قصة البقرة من الإشعار
باستقلال كل من الأمور المعدودة فى كونها آية ولو روعى الترتيب الخارجى
لربما توهم كون المجموع المترتب بعضه على بعض آية واحدة ﴿ لايات ﴾ اسم
لأن دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتذكير للتفخيم كما وكيفا أى آيات عظيمة
كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية
لاختصاص الألوهية به سبحانه ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أى يتفكرون فيها
وينظرون إليها بعيون العقول وفيه تعريض بجمل المشركين الذين اقترحوا على
النبي صلى الله عليه وسلم آية تصدقه فى قوله تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ وتسجيل
عليهم بسخافة العقول وإلا فن تأمل فى تلك الآيات وجد كلا منها ناطقة
بوجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته السكمانية الموجبة لتخصيص العبادة به
تعالى واستغنى بها عن سائرهما فإن كل واحد من الأمور المعدودة قد وجد على
وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام
مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده فضلا عن وجوده على نمط معين
مستتبعا لحكم مستقل فإذن لا بد له حتما من موجد قادر حكيم يوجده حسبما
تقتضيه حكمته وتستدعيه مشيئته متعال عن معارضة الغير إذ لو كان معه آخر
يقدر على ما يقدر عليه لزم إما اجتماع المؤثرين على أثر واحد أو التنازع
المؤدى إلى فساد العالم ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله ﴾ بيان لسكمال
ركاكة آراء المشركين لإثر تقرير وحدانيته سبحانه وتحرير الآيات الباهرة

الملجئة للعقلاء إلى الاعتراف بها الفائضة باستحالة أن يشاركه شيء من الموجودات في صفة من صفات الكمال فضلا عن المشاركة في صفات الألوهية والكلام في إعرابه كما فصل في قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) الخ ومن دون الله متعلق يتخذ أى من الناس من يتخذ من دون ذلك الإله الواحد الذى ذكرت شئونه الجليلة وإثثار الاسم الجليل لتعيينه تعالى بالذات غب تعيينه بالصفات ﴿أندادا﴾ أى أمثالا وهم رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون لاسيما فى الأوامر والنواهي كما يفصح عنه ما سيأتى من وصفهم بالتبرى من المتبعين وقيل هى الأصنام وإرجاع ضمير العقلاء إليها فى قوله عز وعل ﴿يحبونهم﴾ مبنى على آرائهم الباطلة فى شأنها وصفهم بما لا يوصف به إلا العقلاء والمحبة ميل القلب من الحب استعير لجة القلب ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها ورسخ فيها والفعل منها حب على حدمد لكن الاستعمال المستفيض على أحب حبا ومحبة فهو محب وذاك محبوب ومحب قليل وحاب أقل منه ومحبة العبد لله سبحانه إرادة طاعته فى أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مرضيه فعنى يحبونهم يطيعونهم ويعظمونهم والجملة فى حيز النصب إما صفة لأندادا أو حالا من فاعل يتخذ وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن إفراده باعتبار لفظها ﴿حُب الله﴾ مصدر تشبيهى أو نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق ومن قضية كونه مبنيا للفاعل كونه أيضا كذلك والظاهر اتحاد فاعلها فإنهم كانوا يقرون به تعالى أيضا ويتقربون إليه فالمعنى حبا كائنا كجهم لله تعالى أى يسوون بينه تعالى وبينهم فى الطاعة والتعظيم وقيل فاعل الحب المذكورهم المؤمنون فالمعنى حبا كائنا كحُب المؤمنين له تعالى فلا بد من اعتبار المشابهة بينهما فى أصل الحب لا فى وصفه كما أوكيفا لما سيأتى من التفاوت البين وقيل هو مصدر من المبني للمفعول أى كما يحب الله تعالى ويعظم وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس وأنت خير بأنه لا مشابهة بين محبتهم لأندادهم وبين محبته تعالى فالمصير حينئذ ما أسلفناه فى تفسير قوله عز قاتلا (كما سئل موسى من قبل)

وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف وإبانة كمال قببح ما ارتكبوه .

﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ جملة مبتدأة جرىء بها توطئة لما يعقبها من بيان رخاوة حبهم وكونه حسرة عليهم والمفضل عليه محذوف أى المؤمنون أشد حبا له تعالى منهم لأنادهم ومآله أن حب أولئك له تعالى أشد من حب هؤلاء لأنادهم فيه من الدلالة على كون الحب مصدرا من المبنى للفاعل ما لا يخفى وإنما لم يجعل المفضل عليه حبهم لله تعالى لما أن المقصود بيان انقطاعه وانقلابه بنعنا وذلك إنما يتصور في حبهم لأنادهم لكونه منوطا بمبان فاسدة ومباد موهومة يزول بزوالها ، قيل ولذلك كانوا يعبدون عنها عند الشدائد إلى الله سبحانه وكانوا يعبدون صنما أياما فإذا وجدوا آخر رفضوه إليه وقد أكلت باهلة إلهها عام المجاعة وكان من حمس وأنت خير بأن مدار ذلك اعتبار اختلال حبهم لها في الدنيا وليس الكلام فيه بل في انقطاعه في الآخرة عند ظهور حقيقة الحال ومعاينة الأحوال كما سيأتى بل اعتباره مخلا بما يقتضيه مقام المبالغة في بيان كمال قببح ما ارتكبوه وغاية عظم ما اقترفوه وإيثار الإظهار في موضع الإضمار لتفخيم الحب والإشعار بعلته ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ أى باتخاذ الأناد ووضعها موضع المعبود ﴿إذ يرون العذاب﴾ المعد لهم يوم القيامة أى لو علموا إذا عاينوه وإنما أوتر صيغة المستقبل لجريانها مجرى الماضى في الدلالة على التحقيق في أخبار علام الغيوب ﴿أن القوة لله جميعا﴾ ساد مسد مفعولى يرى ﴿وأن الله شديد العذاب﴾ عطف عليه وفائدته المبالغة في تهويل الخطب وتفطيع الأمر فإن اخنصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه وجواب لو محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان إما لعدم الإحاطة بكنهه وإما لصيق العبارة عنه وإما لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبر أو المستمع من الضجر والتفجع عليه أى لو علموا لاذرأوا العذاب قد حل بهم ولم ينقذهم منه أحد من أنادهم أن القوة لله جميعا ولا دخل لأحد في شيء أصلا لوقوعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد

يوصف وقرىء. ولو ترى بالتاء الفوقانية على أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب فالجواب حينئذ لرأيت أمراً لا يوصف من الهول والفظاعة وقرىء إذ يرون على البناء للمفعول وأن الله شديد العذاب على الاستئناف وإضمار القول ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا﴾ بدل من إذ يرون أى إذ تبرأ الرؤساء ﴿من الذين اتبعوا﴾ من الاتباع بأن اعترفوا بظلال ما كانوا يدعونه في الدنيا ويدعونهم إليه من فنون الكفر والضلال واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن كقول إبليس: إني كفرت بما أشركتموني من قيل وقرىء بالعكس أى تبرأ الاتباع من الرؤساء والواو في قوله عز وجل ﴿ورأوا العذاب﴾ حالية وقد مضى وقيل عاطفة على تبرأ والضمير في رأوا للموصوفين جميعاً ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ والوصل التي كانت بينهم من التبعية والمتبوعة والاتفاق على الملة الزائغة والأغراض الداعية إلى ذلك وأصل السبب الحبل الذي يرتقى به الشجر ونحوه والجملة معطوفة على تبرأ وتوسيط الحال بينهما للتنبيه على علة التبري وقد جوز عطفها على الجملة الحالية ﴿وقال الذين اتبعوا﴾ حين عاينوا تبرؤ الرؤساء منهم وندموا على ما فعلوا من اتباعهم لهم في الدنيا ﴿لو أن لنا كرة﴾ أى ليت لنا رجعة إلى الدنيا ﴿فتتبرأ منهم﴾ هناك ﴿كما تبرؤا منا﴾ اليوم ﴿كذلك﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده لا إلى شيء آخر مفهوم مما سبق وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته مع كمال تميزه عما عداه وانتظامه في سلك الأمور المشاهدة والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحله النصب على المصدرية أى ذلك الإراء الفظيع ﴿يربهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ أى ندامات شديدة فإن الحسرة شدة الندم والسكند وهي تألم القلب وانحساره عما يؤلمه واشتقاقه من قولهم بعير حسير أى منقطع القوة وهي ثالث مفاعيل يرى إن كان من رؤية القلب وإلا فهي حال والمعنى أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ كلام مستأنف البيان حالهم بعد دخولهم النار والأصل وما يخرجون والعدول إلى الاسم

لإفادة دوام نفي الخروج والضمير للدلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم كما في قوله :

هم يفرشون اللبد كل طمره وأجرد سباق ييذ المغالبا
﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض﴾ أى بعض ما فيها من أصناف
المأكولات التى من جملتها ما حرمتوه افتراء على الله من الحرث والأنعام قال
ابن عباس رضى الله عنهما نزلت في قوم من ثقيف وبني عامر بن صعصعة
وخزاعة وبني مدلج حرموا على أنفسهم ما حرموا من الحرث والبحائر
والسوانب والوصائل والحام وقوله تعالى ﴿حلالا﴾ حال من الموصول أى
كلوه حال كونه حلالا أو مفعول لـكلوا على أن من ابتدائية وقد جوز كونه
صفة لمصدر مؤكداً أى أكل حلالا ويؤيد الأولين قوله تعالى ﴿طيبا﴾ فإنه
صفة له ووصف الأكل به غير معتاد وقيل نزلت في قوم من المؤمنين حرموا
على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ويرده قوله عز وجل ﴿ولا تتبعوا خطوات
الشیطان﴾ أى لا تقتدوا بها في اتباع الهوى فإنه صريح في أن الخطاب للكفرة.
كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تهيداً ليس من باب اتباع خطوات الشيطان.
فضلا عن كونه تقولا وافتراء على الله تعالى وإنما الذى نزل فهم ما في سورة
المائدة من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم).
الآية وقرىء خطوات بسكون الطاء وهما لغتان في جمع خطوة وهى ما بين
قدمي الخاطي وقرىء بضميتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو
وبفتحتين على أنها جمع خطوة وهى المرة من الخطو ﴿لأنه لكم عدو مبين﴾
تعليل للنهى أى ظاهر العداوة عند ذوى البصيرة وإن كان يظهر الولاية لمن
يغويه ولذلك سمى ولياً في قوله تعالى (أولياؤهم الطاغوت) ﴿لأنما يأمركم بالسوء
والفحشاء﴾ استئناف لبيان كيفية عداوته وتفصيل لفنون شره وإفساده
واختصار معاملته معهم في ذلك والسوء في الأصل مصدر ساءه يسوؤه سوءاً
ومساءة إذا أحزنه يطلق على جميع المعاصي سواء كانت من أعمال الجوارح أو
أفعال القلوب لاشارك كلها في أنها تسوء صاحبها والفحشاء أقبح أنواعها

وأعظمها مساواة ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عطف على الفحشاء أى وبأن تفتروا على الله بأنه حرم هذا وذلك ، ومعنى ما لا تعلمون أن الله تعالى أمر به وتعليق أمره بتقوهم على الله تعالى ما لا يعلمون وقوعه منه تعالى لا بتقوهم عليه ما يعلمون عدم وقوعه منه تعالى مع أن حالهم ذلك للمبالغة في الزجر فإن التحذير من الأول مع كونه في القبح والشناعة دون الثاني تحذير عن الثاني على أبلغ وجه وأكده والإيذان بأن العاقل يجب عليه ألا يقول على الله تعالى ما لا يعلم وقوعه منه تعالى مع الاحتمال فضلا عن أن يقول عليه ما يعلم عدم وقوعه منه تعالى ، قالوا وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأسا وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظنه فستند إلى مدرك شرعى فوجوبه قطعى والظن في طريقه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ التفات إلى الغيبة تسجيلا بكال ضلالهم وإيذانا بإيجاب تعداد ما ذكر من جنائياتهم لصرف العذاب عنهم وتوجيهه إلى العقلاء وتفصيل مساوى أحوالهم لهم على نهج المبالغة أى إذا قيل لهم على وجه النصيحة والإرشاد اتبعوا كتاب الله الذى أنزله ﴿قَالُوا﴾ لا نتبعه ﴿بَلْ نَتَّبِعْ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى وجدناهم عليه إما على أن الظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من آباءنا وألفينا متعديا واحد وإما على أنه مفعول ثان له مقدم على الأول نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى من الحجج الظاهرة والبيئات الباهرة فجنحوا للتقليد والموصول إما عبارة عما سبق من اتخاذ الأنداد وتحريم الطيبات ونحو ذلك وإما باق على عمومته وما ذكر داخل فيه دخولا أوليا وقيل نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خيرا منا وأعلم فعلى هذا يعم ما أنزل الله تعالى التوراة لأنها أيضا تدعو إلى الإسلام وقوله عز وجل ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ استئناف مسوق من جهته تعالى ردا لمقالتهم الحمقاء وإظهارا لبطلان آرائهم والهمزة لإنكار الواقع واستقبحه والتعجب منه لا لإنكار الوقوع كالتى في قوله تعالى (أولو كنا كارهين) وكلمة لو في أمثال هذا المقام ليست لبيان

انتفاء الشيء في الزمان الماضي لا انتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه بل هي لبيان تحقق ما يفيد الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدّها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفائه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافي القوي فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال وهذا المعنى ظاهر في الخبر الموجب والمنفي والأمر والنهي كما في قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا وبخيل لا يعطى ولو كان غنيا وقولك أحسن إليه ولو أساء إليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء ناشىء من ورود الإنكار عليه لكن الأصل في الكل واحد إلا أن كلمة لو في الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو بما يتعلق به وأن ما في حيز لو باق على ما هو عليه من الاستبعاد غالبا بخلاف ما نحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال مدلوله لا مدلول المذكور من حيث هو مدلوله وأن الجملة حال بما يتعلق به لا بما يتعلق بالمذكور من حيث هو متعلق به وأن المقصود الأصلي لإنكار مدلوله باعتبار مقارنته للحالة المذكورة وإما تقدير المقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما في حيز لو لا يقصد استبعاده في نفسه بل يقصد الإشعار بأنه أمر محقق إلا أنه أخرج مخرج الاستبعاد معاملة مع المخاطبين على معتقدهم لئلا يلبسوا من التصريح بنسبه آبائهم إلى كمال الجهالة والضلالة جلد النمر فركبوا متن العناد ومبالغة في الإنكار من جهة اتباعهم لأبائهم حيث كان منكرا مستقبحا عند احتمال كون آبائهم كما ذكر احتمالا بعيدا فلأن يكون منكرا عند تحقق ذلك

أولى والتقدير أيتبعون ذلك لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا كذلك فالجملة في حيز النصب على الحالية من آباؤهم على طريقة قوله تعالى (أن أتبع ملة إبراهيم حنيفاً) كأنه قيل أيتبعون دين آباؤهم حال كونهم غافلين وجاهلين ضالين إنكاراً لما أفاده كلامهم من الاتباع على أى حالة كانت من الحالتين غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية تنبيهاً على أنها هى الواقعة في نفس الأمر وتعوئلاً على اقتضاها للحالة الأولى اقتضاء بينا فإن اتباعهم الذى تعلق به الإنكار حيث تحقق مع كون آباؤهم جاهلين ضالين فلأن يتحقق مع كونهم عاقلين ومهتدين أولى إن قلت الإنكار المستفاد من الاستفهام الإنكارى بمنزلة النفى ولا ريب في أن الأولوية في صورة النفى معتبرة بالنسبة إلى النفى ألا يرى أن الأولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الإعطاء لا نفسه فكان ينبغى أن يكون الأولى بالتحقق فيما نحن فيه عند الحالة المسكوت عنها وهى حالة كون آباؤهم عاقلين ومهتدين لإنكار الاتباع لا نفسه إذ هو الذى يدل عليه أيتبعون إلخ فلم اختلفت الحال بينهما قلت لما أن مناط الأولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك في مثال النفى عدم الإعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأم فيما نحن فيه فهو نفس الاتباع المستفاد من الفعل المقدر إذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم بل تتبع إلخ وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لإنكار ما يفيد واستقباح ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما في صورة النفى وكذا الحال فيما إذا كانت الهمة لإنكار الوقوع ونفيه مع كونه بمنزلة صريح النفى كما سيأتى تحقيقه في قوله تعالى (أرلوكنا كارهين) وقيل الواو حالية ولكن التحقيق أن المعنى يدور على معنى العطف في سائر اللغات أيضاً ومثل الذين كفروا جملة ابتدائية واردة لتقرير ما قبلها بطريق التصوير وفيها مضاف قد حذف لدلالة مثل عليه ووضع الموصول موضع الراجع إلى ما ترجع إليه الضمائر السابقة لندمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلته ما أثبت لهم من الحكم والتقدير مثل ذلك القائل وحاله الحقيقة لغرابتها بأن تسمى مثلاً وتسير في

الآفاق فيما ذكر من دعوته إياهم إلى اتباع الحق وعدم رفعهم إليه رأساً لانهما كهم في التقليد وإخلاصهم إلى ما هم عليه من الضلال وعدم فهمهم من جهة الداعى إلى الدعاء من غير أن يلقوا أذهانهم إلى ما يلقى عليهم ﴿ كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ من البهائم فإنها لا تسمع إلا صوت الراعى وهتفه بها من غير فهم لكلامه أصلاً وقيل إنما حذف المضاف من الموصول الثانى لدلالة كلمة ما عليه فإنها عبارة غنة مشعرة مع ما فى حيز الصلة بما هو مدار التمثيل أى مثل الذين كفروا فيما ذكر من إنهما كهم فيما هم فيه وعدم التدبر فيما ألنى إليهم من الآيات كمثل بهائم الذى ينعق بها وهى لا تسمع منه إلا جرس النغمة ودوى الصوت وقيل المراد تمثيلهم فى دعائهم الأصنام بالناعق فى نعقه وهو تصويته على البهائم وهذا غنى عن الإضمار لكن لا يساعده قوله إلا دعاء ونداء فإن الأصنام بمعزل من ذلك وقد عرفت أن حسن التمثيل فيما تشابه أفراد الطرفين ﴿ صم بكم عمى ﴾ بالرفع على الذم أم صم الخ ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ شيئاً لأن طريق التعقل هو التدبر فى مبادئ الأمور المعقولة والتأمل فى ترتيبها وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله ومشاهدة حججه الواضحة والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم فإذا كانوا صما بكما عميا فقد انسدت عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكلية ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى مستلذاته ﴿ واشكروا لله ﴾ الذى رزقكموها والالتفات لتربية المهابة ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر له وعن النبي صلى الله عليه وسلم: يقول الله عز وجل لى والانس والجن فى نهار عظيم أنخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى ، ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ أى أكلها والانتفاع بها وهى التى ماتت على غير ذكاة والسمك والجراد خارجان عنها بالعرف أو باستثناء الشرع خروج الطحال من الدم ﴿ والدم ولحم الخنزير ﴾ إنما خص لحمه مع أن سائر أجزائه أيضاً فى حكمه لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه بمنزلة التابع له ﴿ وما أهل به لغير الله ﴾ أى رفع به الصوت عند ذبحه للصنم والإهلال أصله رؤية الهلال لكن لما جرت العادة برفع الصوت بالتكبير

عندها سمي ذلك إهلالاً ثم قيل لرفع الصوت وإن كان لغيره ﴿فمن اضطر غير باغ﴾ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿ولا عاد﴾ سد الرmq والجوعة وقيل غير باغ على الوالى ولا عاد بقطع الطريق وعلى هذا لا يباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحمد رحمهما الله ﴿فلا إثم عليه﴾ فى تناوله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ بالرخصة إن قيل كلمة إنما تفيد قصر الحكم على ما ذكرتم من حرام لم يذكر قلنا المراد قصر الحرمة على ما ذكر بما استحلوه لا مطلقاً أو قصر حرمة على حالة الاختيار كأنه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطروا إليها .

﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ المشتمل على فنون الأحكام التى من جملتها أحكام المحللات والمحرمات حسبما ذكر آنفاً وقال ابن عباس الله عنهما نزلت فى رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ويشترون به﴾ أى يأخذون بدله ﴿ثمنًا قليلاً﴾ عوضاً حقيراً وقدر سر التعمير عن ذلك بالثمن الذى هو وسيلة فى عقود المعاوضة وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الوصفين الشنيعين المميزين لهم عن عداهم أكمل تمييز الجاعلين إياهم بيمين كآتهم حضار مشاهدون على ما هم عليه وما فيه من معنى البعد للإيدان بغاية بعد منزلتهم فى الشر والفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾ والجملة خبر لأن أو اسم الإشارة مبتدأ ثان أو بدل من الأول والخبر ما يأكلون الخ ومعنى أكلهم النار أنهم يأكلون فى الحال ما يستتبع النار ويستلزمها فكأنه عين النار وأكله أكلها كقوله :

أكلت دماً إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النثر

أو يأكلون فى المسأل يوم القيامة عين النار عقوبة على أكلهم الرشا فى الدنيا وفى بطونهم متعلق بياكلون وفائدته تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقر

المأكول وقيل معناه ملء بطونهم كما في قولهم أكل في بطنه وأكل في بعض بطنه ومنه كلوا في بعض بطنكم تعفوا فلا بد من الالتجاء إلى تعليقه بمحذوف وقع حالاً مقدرة من النار مع تقديمه على حرف الاستثناء والافتعال عليه يياً كلون يؤدي إلى قصر ما يأكلونه إلى الشبع على النار والمقصود قصر ما يأكلونه مطلقاً عليها ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ عبارة عن غضبه العظيم عليهم وتعريض بحرمانهم ما أتيح للؤمنين من فنون الكرامات السنية والزلفى ﴿ولا يزكهم﴾ لا يثنى عليهم ﴿ولهم﴾ مع ما ذكر ﴿عذاب أليم﴾ مؤلم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى ما أشير إليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصة لا مع ما يتلو من أحوالهم الفظيعة إذ لا دخل لها في الحكم الذي يراد إثباته ههنا فإن المقصود تصوير ما بأسره من المعاملة بصورة قبيحة تنفر منها الطباع ولا يتماطأها عاقل أصلاً ببيان حقيقة ما نبذوه وإظهار كنه ما أخذوه وإبداء فظاعة تبعاته وهو مبتدأ خبره الموصول أى أولئك المشترون بكتاب الله عز وجل ثمنا قليلاً ليسوا بمشتريين للثمن وإن قل بل هم ﴿الذين اشتروا﴾ بالنسبة إلى الدنيا ﴿الضلالة﴾ التى ليست بما يمكن أن يشتري قطعاً ﴿بالهدى﴾ الذى ليس من قبيل ما يبذل بمقابلة شيء وإن جل ﴿والعذاب﴾ أى اشتروا بالنظر إلى الآخرة العذاب الذى لا يتوهم كونه مما يشتري ﴿بالمغفرة﴾ التى يتنافس فيها المتنافسون ﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجيب من حالهم الهائلة التى هى ملاستهم بما يوجب النار إيجاباً قطعياً كأنه عينها وما عند سيئوية نكرة تامة مفيدة لمعنى التعجيب مرفوعة بالابتداء وتخصيصها كتخصيص شرفى دشر أهرذا ناب، خبرها ما بعدها أى شيء ما عظيم جعلهم صابرين على النار وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها أى شيء أصبرهم على النار وقيل هى موصولة وقيل موصوفة بما بعدها والخبر محذوف أى الذى أصبرهم على النار أو شيء أصبرهم على النار أمر فظيع ﴿ذلك﴾ العذاب ﴿بأن الله نزل الكتاب﴾ أى جنس الكتاب ﴿بالحق﴾ أى ملتبساً به فلا جرم أن يكون من يرفضه بالتكذيب والسكران ويركب متن الجهل والغواية مبتلى بمثل هذا من أفانين العذاب ﴿وأن

الذين اختلفوا في الكتاب ﴿ أى فى جنس الكتاب الإلهى بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها أو اختلفوا فى التوراة بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض كآلايات المغيرة المشتملة على أمر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ونعوته الكريمة فمعنى الاختلاف التخليف عن الطريق الحق أو الاختلاف فى تأويلها أو فى القرآن بأن قال بعضهم أنه سحر وبعضهم أنه شعر وبعضهم أساطير الأولين كما حكى عن المفسرين ﴿ لى شقاق بعيد ﴾ عن الحق والصواب مستوجب لأشد العذاب ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ البر اسم جامع لمراضى الخصال والخطاب لأهل الكتابين فإنهم كانوا أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت إلى الكعبة وكان كل فريق يدعى خيرية التوجه إلى قبلته من القطرين المذكورين وتقديم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية إما لرعاية ما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب وإما لأن توجه اليهود إلى المغرب ليس لكونه مغرباً بل لكون بيت المقدس من المدينة المنورة واقعا فى جانب فقيل لهم ليس البر ما ذكرتم من التوجه إلى تينك الجهتين على أن البر خبر ليس مقدما على اسمها كما فى قوله :

سلى إن جهلت الناس عنى وعنهم فليس سواء عالم وجهول
وقوله :

أليس عظيما أن تلم ملبئة وليس علينا فى الخطوب مقول

ولما أخرج ذلك لما أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرف أحق بالاسمية ولأن فى الاسم طولاً فلو روعى الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم الكريم وقرئ برفع البر على أنه اسمها وهو أقوى بحسب المعنى لأن كل فريق يدعى أن البر هذا فيجب أن يكون الرد موافقا لدعواهم وما ذلك إلا بكون (٢٠ - أبو السمود - أول)

البر اسما كما يفصح عنه جملة مخبرا عنه في الاستدراك بقوله عز وجل :
﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ وهو تحقيق للحق بعد بيان الباطل وتفصيل
لخصال البر بما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها أى ولكن
البر المأمور الذى يحق أن يهتم بشأنه ويجد في تحصيله بر من آمن بالله وسخده
إيمانا بريئا من شائبة الإشراف لا كإيمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم
عزير ابن الله وقولهم المسيح ابن الله ﴿واليوم الآخر﴾ أى على ما هو عليه
لا كما يزعمون من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات وأن آباءهم الأنبياء
يشفعون لهم ففيه تعريض بأن إيمان أهل الكتابين حيث لم يكن كما ذكر
من الوجه الصحيح لم يكن إيمانا وفي تعليق البر بهما من أول الأمر عقيب نفيه
عن التوجه إلى المشرق والمغرب من الجزالة ما لا يخفى كأنه قيل ولكن البر
هو التوجه إلى المبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب في الحقيقة ﴿والملائكة﴾
أى وآمن بهم وبأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى وبين أنبيائه بالقاء
الوحي وإنزال الكتب ﴿والكتاب﴾ أى بحسب الكتاب الذى من أفراد
الفرقان الذى نبذوه وراء ظهورهم وفيه تعريض بكتبهم نعوت النبي صلى الله
عليه وسلم واشترائهم بما أنزل الله تعالى ثمنا قليلا ﴿والنبيين﴾ جميعا من غير
تفرقة بين أحد منهم كما فعل أهل الكتابين ووجه توسيط الكتاب بين حملة
الوحي وبين النبيين واضح وسيأتى في قوله تعالى (كل آمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله) ﴿وأتى المال على حبه﴾ حال من الضمير فى آتى والضمير
المحذور راجع للمال أى آتاه كائننا على حب المال كما فى قوله صلى الله عليه
وسلم حين سئل : أى الصدقة أفضل ؟ د أن تؤتية وأنت صحيح صحيح ، وقول
ابن مسعود رضى الله عنه أن تؤتية وأنت صحيح صحيح تأمل العيش وتحشى
الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا ، وقيل
الضمير لله تعالى أى آتاه كائننا على محبته تعالى لا على قصد الشر والفساد ففيه
نوع تعريض لباذلى الرشا وأخذها لتغيير التوراة وقيل للمصدر أى كائننا على
حب الإيتاء ﴿ذوى القربى﴾ مفعول أول لآتى قدم عليه مفعوله الثانى أعنى

المال للاهتمام به أو لأن في الثاني مع ما عطف عليه طولا لوروعى الترتيب
لفات تجاوب الأطراف في الكلام وهو الذى اقتضى تقديم الحال أيضاً وقيل
هو المفعول الثانى ((واليتامى)) أى المحايوج منهم على ما يدل عليه الحال وتقديم
ذوى القربى عليهم لما أن إيتاءهم صدقة وصلة ((والمساكين)) جمع مسكين
وهو الدائم السكون لما أن الخلة أسكنته بحيث لا حراك به أو دائم السكون
إلى الناس ((وابن السبيل)) أى المسافر سمي به لملازمته إياه كما سمي القاطع
ابن الطريق وقيل الضيف ((والسائلين)) الذين ألجأهم الحاجة والضرورة إلى
السؤال قال عليه الصلاة والسلام: أعطوا السائل ولو جاء على فرس ((وفى
الرقاب)) أى وضعه فى فك الرقاب بمعاونة المكاتبين حتى يفسكوا رقابهم وقيل
فى فك الأسارى وقيل فى ابتياع الرقاب ولعناقها وأياً ما كان فالعدول عن
ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية كالذين من قبلهم لما للإيدان بعدم قرار
ملكهم فيما أتوا كما فى الوجهين الأولين أو بعدم ثبوته رأساً كما فى الوجه الأخير
ولما للإشعار برسوخهم فى الاستحقاق والحاجة لما أن فى للظرفية المنبئة عن
محلّيتهم لما يؤتى ((وأقام الصلاة)) أى المفروضة منها ((وآتى الزكاة)) أى
المفروضة على أن المراد بما مر من إيتاء المال التنفل بالصدقات قدم على
الفريضة مبالغة فى الحث عليه أو المراد بهما المفروضة والأول لبيان المصارف
والثانى لبيان وجوب الأداء ((والموفون بعهدهم)) عطف على من آمن فإنه فى
قوة أن يقال ومن أوفوا بعهدهم وإيثار ضيغة الفاعل للدلالة على وجوب
استمرار الوفاء والمراد بالعهد ما لا يحرم حلالاً ولا يحلل حراماً من العهود
الجارية فيما بين الناس ، وقوله تعالى ((إذا عاهدوا)) للإيدان بعدم كونه من
ضروريات الدين ((والصابرين)) نصب على الاختصاص غير سبكه عما قبله
تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته وهو فى الحقيقة معطوف على ما قبله . قال
أبو على إذا ذكرت صفات للمدح أو الذم فخولف فى بعضها الإعراب فقد
خولف للافتتان ويسمى ذلك قطعاً لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب
فى استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه كما مر فى صدر السورة وقد قرئ

الصابرون كما قرىء والموفين ﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أى فى الفقر والشدة ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ أى المرض والزمانة ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى وقت مجاهدة العدو فى مواطن الحرب وزيادة الحين للإشعار بوقوعه أحيانا وسرعة انقضائه ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بالنعوت الجميلة المعدودة وما فيه من معنى البعد لما مر مرار من التنبيه عن علو طبقتهم وسمو رتبتهن ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى فى الدين واتباع الحق وتحرى البر حيث لم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الإشارة لزيادة تنويه شأنهم وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم والآية الكريمة كما ترى حاوية لجميع الكمالات البشرية برمتها تصريحاً أو تلويحاً لما إنهم مع تكثر فنونها وتشعب شجونها منحصرة فى خلال ثلاث صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة مع العباد وتهذيب النفس وقد أشير إلى الأولى بالإيمان بما فصل وإلى الثانية بإيتاء المال وإلى الثالثة بإقامة الصلاة الخ ولذلك وصف الحائزون لها بالصدق نظراً إلى إيمانهم واعتقادهم وبالتقوى اعتباراً بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شروع فى بيان بعض الأحكام الشرعية على وجه التلافى لما فرط من المخلمين بما ذكر من أصول الدين وقواعده التى عليها بنى أساس المعاش والمعاد ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أى فرض وألزم عند مطالبة صاحب الحق فلا يقدح فيه قدرة الولي على العفو فإن الوجوب إنما اعتبر بالنسبة إلى الأحكام أو القاتلين ﴿الْقصاص فى القتل﴾ أى بسبب قتلهم كما فى قوله صلى الله عليه وسلم إن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها أى بسبب ربطها لهاها ﴿الحر بالحر والعبد بالأنثى بالأنثى﴾ كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا يقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت

فأمرهم أن يتباؤوا وليس فيها دلالة على عدم قتل الحر بالعبد عند الشافعي أيضا لأن اعتبار المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر وجه سوى اختصاص الحكم بالمنطوق وقد رأيت الوجه ههنا وإنما يتمسك في ذلك هو ومالك رحمهما الله بما روى على رضى الله عنه أن رجلا قتل عبده فجلده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفاه سنة ولم يقده وبما روى عنه رضى الله عنه أنه قال من السنة أن لا يقتل مسلم بذى عهد ولا حر بعبد وبأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير تكدير وبالقياس على الأطراف وعندنا يقتل الحر بالعبد لقوله تعالى (أن النفس بالنفس) فإن شريعة من قبلنا إذا قصت علينا من غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب على أنها شريعة لنا ولأن القصاص يعتمد المساواة في العصمة وهي بالدين أو بالدار وهما سيان فيهما وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القصاص ((فمن عفى له من أخيه شيء)) أى شيء من العفو لأن عفا لازم وفائدته الإشعار بأن بعض العفو بمنزلة كله في إسقاط القصاص وهو الواقع أيضا في العادة إذ كثيرا ما يقع العفو من بعض الأولياء فهو شيء من العفو وقيل معنى عفى ترك وشيء مفعول به وهو ضعيف إذ لم يثبت عفا بمعنى تركه بل أعفاه وحمل العفو على المحو كما في قول من قال :

* ديار عفاها جور كل معاند *

وقوله : عفاها كل هتان كثير الوهل هطال

فيكون المعنى فمن محى له من أخيه شيء صرف للعبارة المتداولة في الكتاب والسنة عن معناها المشهور المعهود إلى ما ليس بمعهود فيهما وفي استعمال الناس فإنهم لا يستعملون العفو في باب الجنائيات إلا فيما ذكر من قبل وعفا يعدى بعن إلى الجاني والذنب قال تعالى (عفا الله عنك) وقال (عفا الله عنها) فإذا تعدى إلى الذنب قيل عفوت لفلان عما جنى كأنه قيل فمن عفى له عن حنأيته من جهة أخيه يعنى ولي الدم وإيراده بعنوان الأخوة الثابتة بينهما بحكم كونهما من بني آدم عليه السلام لتحريك سلسلة الرقة والعطف عليه ((فاتباع بالمعروف)) فالأمر اتباع أو فليكن اتباع والمراد وصية الباقي بالمساحة ومطالبتها بالدية

بالمعروف من غير تعسف وقوله عز وجل ﴿وأداء لـ إليه بإحسان﴾ حث للمعفو عنه على أن يؤديها بإحسان من غير مما طلة ولا بخس ﴿ذلك﴾ أى ما ذكر من الحكم ﴿تخفيف من ربكم ورحمة﴾ لما فيه من التسهيل والنفع وقيل كتب على اليهود القصاص وحده وحرم عليهم العفو والدية وعلى النصارى العفو على الإطلاق وحرم عليهم القصاص والدية وخبرت هذه الأمة بين الثلاث تيسيراً عليهم وتنزيلاً للحكم على حسب المنازل ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ بأن قتل غير القاتل بعد ورود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية ﴿فله﴾ باعتدائه ﴿عذاب أليم﴾ أما في الدنيا فبالاقتصاص لما قتله بغير حق وأما في الآخرة فبالنار ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لاتنال غايته حيث جعل الشيء محلاً لضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على أن في هذا الجنس نوعاً من الحياة عظيماً لا يبلغه الوصف وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فينسب لحياة نفسين ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثانى تخصيص وقيل المراد بالحياة هى الآخروية فإن القاتل إذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤخذ به فى الآخرة والظرفان إما خبران لحياة أو أحدهما خبر والآخر صلة له أو حال من المستكن فيه وقرىء فى القصص أى فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو فى القرآن حياة أو فى القرآن حياة للقلوب ﴿يا أولى الألباب﴾ أى ذوى العقول الخالصة عن شوب الأوهام خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الإيمان تنشيطاً لهم إلى التأمل فى حكمة القصاص ﴿لعلكم تتقون﴾ أى تتقون أنفسكم من المساهلة فى أمره والإهمال فى المحافظة عليه والحكم به والإذعان له أو فى القصاص فتكفوا عن القتل المؤدى إليه ﴿كتب عليكم﴾ بيان للحكم آخر من الأحكام المذكورة ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ أى حضر أسبابه وظهر أماراته أو دنا نفسه من الحضور وتقديم المفعول لإفادة كمال تمسك الفاعل عند النفس وقت وروده عليها ﴿إن ترك خير﴾ أن مالا وقيل مالا كثيراً له

روى عن علي رضي الله عنه أن مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى (إن ترك خيراً) وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أراد أن يوصي وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى: (إن ترك خيراً) وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت ما أرى فيه فضلاً وأراد آخر أن يوصي فسأله كم مالك فقال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت إنما قال الله تعالى إن ترك خيراً وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك ((الوصية للوالدين والأقربين)) مرفوع بكتب آخر عما بينهما لما مر مراراً وإيثار تذكير الفعل مع جواز تأنيته أيضاً للفصل أو على تأويل أن يوصي أو الإيصاء ولذلك ذكر الضمير في قوله تعالى (فمن بدله بعد ما سمعه) وإذا ظرف محض والعامل فيه كتب لكن لا من حيث صدور الكتب عنه تعالى بل من حيث تعلقه بهم تعلقاً فعلياً مستتبعا لوجوب الأداء كما ينبغي عنه البناء للمفعول وكلمة الإيجاب ولا مساغ لجعل العامل هو الوصية لتقدمه عليها وقيل هو مبتدأ خبره للوالدين والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كما في قوله من يفعل الحسنات الله يشكرها ورد بأنه إن صح فن ضرورة الشعر ومعنى كتب فرض وكان هذا الحكم في بدء الإسلام ثم نسخ عند نزول آية الموارث بقوله عليه السلام أن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ألا لا وصية لوارث فإنه وإن كان من أخبار الأحاد لكن حيث تلقته الأمة بالقبول انتظم في سلك المتواتر في صلاحيته للنسخ عند الخفية على أن التحقيق أن النسخ حقيقة هي آية الموارث وإنما الحديث مبين لجهة نسخها ببيان أنه تعالى كان قد كتب عليكم أن تؤدوا إلى الوالدين والأقربين حقوقهم بحسب استحقاقهم من غير تعيين لمراتب استحقاقهم ولا تعيين لمقادير أنصبتهم بل فوض ذلك إلى آرائكم حيث قال ((المعروف)) أي بالعدل فالآن قد رفع ذلك الحكم عنكم لتبيين طبقات استحقاق كل واحد منهم وتعيين مقادير حقوقهم بالذات وأعطى كل ذي حق منهم حقه الذي يستحقه بحكم القرابة من غير نقص ولا زيادة ولم

يدع ثمة شيئاً فيه مدخل لرأيكم أصلاً حسبما تعرب عنه الجملة المنفية بلا النافية للجنس وتصديرها بكلمة التنبيه إذا تحققت هذا ظهر لك أن ما قيل من أن آية المواريث لا تعارضه بل تحققه وتؤكد من حيث أنها تدل على تقديم الوصية مطلقاً والحديث من الأحاد وتلقى الأمة إياه بالقبول لا يلحقه بالمتواتر ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله عز وجل من توريث الوالدين والأقربين بقوله تعالى (يوصيكم الله) أو بإيصال المحتضر لهم بتوفير ما أوصى به الله تعالى عليهم بمعزل من التحقيق وكذا ما قيل من أن الوصية للوارث كانت واجبة بهذه الآية من غير تعيين لأنصبتهم فلما نزلت آية الموارث بيانا للأنصباء بلفظ الإيصال فهم منها بتنبيه النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد منه هذه الوصية التي كانت واجبة كأنه قيل إن الله تعالى أوصى بنفسه تلك الوصية ولم يفوضها إليكم فقام الميراث مقام الوصية فكان هذا معنى النسخ لا أن فيها دلالة على رفع ذلك الحكم فإن مدلول آية الوصية حيث كان تفويضاً للأمر إلى آراء المكلفين على الإطلاق وتسنى الخروج عن عهدة التكليف بأداء ما أدى إليه آراؤهم بالمعروف فتكون آية الموارث الناطقة بمراتب الاستحقاق وتفصيل مقادير الحقوق القاطعة بامتناع الزيادة والنقص بقوله تعالى فريضة من الله ناسخة لها رافعة لحكمها بما لا يشقبه على أحد وقوله تعالى ﴿حقاً على المتقين﴾ مصدر مؤكد أى حق ذلك حقاً ﴿فمن بدله﴾ أى غيره من الأوصياء والشهود ﴿بعد ما سمعه﴾ أى بعدما وصل إليه وتحقق لديه ﴿فإنما لإثم﴾ أى لإثم الإيصال المغير أو لإثم التبديل ﴿على الذين يبدلونه﴾ لأنهم غانوا وخالفوا حكم الشرع ووضع الموصول في موضع الضمير الراجع إلى من لتأكيد الإيذان بعلية ما في حيز الصلة الأولى وإثارة الجمع للإشعار بتعدد المبدلين أنواعاً أو كثرتهم أفراداً والإيذان بشمول الإثم لجميع الأفراد ﴿إن الله سميع عليم﴾ وعيد شديد للمبدلين ﴿فمن خاف من موص﴾ أى توقع وعلم من قولهم أخاف أن يرسل السماء وقرىء من موص ﴿جنفا﴾ أى ميلاً بالخطأ في الوصية ﴿أو إثمًا﴾ أى تعمداً للجنف ﴿فأصلح بينهم﴾ أى بين الموصى لهم بإجرائهم على منهاج الشريعة

الشريفة ﴿فلا إثم عليه﴾ أى فى هذا التبديل لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وعد للمصلح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ بيان لحكم آخر من الأحكام الشرعية وتسكير النداء لإظهار مزيد الاعتناء والصيام والصوم فى اللغة الإمساك عما تنازع إليه النفس ومنه قوله تعالى (إنى فذرت للرحمن صوما فلن أكلم) الآية ، وقيل هو الإمساك عن الشيء مطلقاً ومنه صامت الريح إذا أمسكت عن الهبوب والفرس إذا أمسكت عن العدو قال: خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تملك اللجما وفى الشريعة هو الإمساك نهائياً عن المفطرات المعهودة التى هى معظم ما تشتهيه الأنفس ﴿كما كتب﴾ فى حيز النصب على أنه نعت للمصدر المؤكد أى كتاباً كأننا كما كتب أو على أنه حال من المصدر المعرفة أى كتب عليكم الصيام المكتب مشبهاً بما كتب فما على الوجهين مصدرية أو على أنه نعت لمصدر من لفظ الصيام أى صوما بمائلا للصوم المكتوب على من قبلكم فما موصولة أو على أنه حال من الصيام أى حال كونه بمائلا لما كتب ﴿على الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأمم من لدن آدم عليه السلام وفيه تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطبيب لأنفس المخاطبين به فإن الشاق إذا عم سهل عمله والمراد بالمماثلة إما المماثلة فى أصل الوجوب ، وإما فى الوقت والمقدار كما روى أن صوم رمضان كان مكتوباً على اليهود والنصارى أما اليهود فقد تركته وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فرعون وكذبوا فى ذلك فإنه كان يوم عاشورا ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان حتى صادفوا حراً شديداً فاجتمعت آراء علمائهم على تعيين فصل واحد بين الصيف والشتاء فجعلوه فى الربيع وزادوا عليه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم مرض ملكهم أو وقع فيهم موت فزادوا عشرة أيام فصار خمسين ﴿لعلكم تتقون﴾ أى المعاصى فإن الصوم يكسر الشهوة الداعية إليها كما قال عليه الصلاة والسلام فعلية بالصوم فإنه له وجاء ، أو تنقون الإخلال بأدائه لأصاليه أو تصلون بذلك إلى رتبة التقوى .

﴿أياما معدودات﴾ مؤقتات بعدد معلوم أو قلائل فإن القليل من امال يعد عدا والكثير يمال هيلا والمراد بها إما رمضان أو ما وجب في بدء الإسلام ثم نسخ به من صوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر وانتصابه ليس بالصيام كما قيل لوقوع الفصل بينهما بأجنبي بل بمضمر دل هو عليه أعنى صوموا إما على الظرفية أو المفعولية اتساعا وقيل بقوله تعالى كتب على أحد الوجهن وفيه أن الأيام ليست محلا له بل للكتابة فلا تتحقق الظرفية ولا المفعولية المتفرعة عليها اتساعا ﴿فن كان منكم مريضا﴾ أى مرضا يضره الصوم أو يعسر معه ﴿أو على سفر﴾ مستمرين عليه وفيه تلويح ورمز إلى أن من سافر في أثناء اليوم لم يفطر ﴿فعدة﴾ أى فعلية صوم عدة أيام المرض والسفر ﴿من أيام آخر﴾ إن أظن فحذف الشرط والمضاف ثقة بالظهور وقرىء بالنصب أى فليصم عدة وهذا على سبيل الرخصة وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضى الله عنه ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أى وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فدية﴾ أى إعطاء فدية وهى ﴿طعام مسكين﴾ وهو نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق ومد عند أهل الحجاز وكان ذلك في بدء الإسلام لما أنه قد فرض عليهم الصوم وما كانوا متعددين له فاشتد عليهم فرخص لهم في الإفطار والفدية وقرىء يطوقونه أى يكلفونه أو يقلدونه ويتطوقونه ويتطوقونه بإدغام التاء في الطاء ويطيقونه بمعنى يتطيقونه وأصلهما يطيقونه ويتطوقونه من فيعل وتفيعل من الطوق فأدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء كقولهم تدبر المسكان وما بهاديار وفيه وجهان أحدهما نحو معنى يطيقونه والثانى يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الإفطار والفدية وهو حينئذ غير منسوخ ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه أو يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم ﴿فن تطوع خيرا﴾ فزاد في الفدية ﴿فهو﴾ أى التطوع أو الخير الذى تطوعه ﴿خير له وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وتحملوا على أنفسكم وتجهدوا طاقتكم أو المرخصون في الإفطار من المرضى والمسافرين ﴿خير لكم﴾ من

الفدية أو من تطوع الخير أو منهما أو من التأخير إلى أيام آخر والالتفات إلى الخطاب للهنز والتنشيط ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أى ما فى صومكم مع تحقق المبيع للإفطار من الفضيلة والجواب محذوف ثقة بظهوره أى اخترتموه أو سارعتم إليه وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير من ذلك ﴿شهر رمضان﴾ مبتدأ سيأتى خبره أو خبر لمبتدأ محذوف أى ذلك شهر رمضان أو بدل من الصيام على حذف المضاف أى صيام شهر رمضان وقرىء بالنصب على إضمار صوموا أو على أنه مفعول تصوموا أو بدل من أياما معدودات ورمضان مصدر رمض أى احترق من الرمضاء فأضيف إليه الشهر وجعل علما ومنع الصرف للتعريف والالف والنون كما قيل ابن دأية للغراب فقوله عليه السلام من صام رمضان الحديث وارد على حذف المضاف للأمن من الالتباس وإنما سمي بذلك إما لارتماضهم فيه من الجوع والعطش أو لارتماض الذنوب بالصيام فيه أو لوقوعه فى أيام رمض الحر عند نقل أسماء الشهور عن اللغة القديمة ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ خبر للمبتدأ على الوجه الأول وصفة لشهر رمضان على الوجوه الباقية ومعنى إنزاله فيه أنه ابتدئ إنزاله فيه وكان ذلك ليلة القدر أو أنزل فيه جملة إلى السماء الدنيا ثم نزل منجها إلى الأرض حسبما تقضيه المشيئة الربانية أو أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله عز وجل كتب عليكم وعن النبي صلى الله عليه وسلم نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين منه والإنجيل لثلاث عشرة منه والقرآن لأربع وعشرين ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ حالان من القرآن أى أنزل حال كونه هداية للناس بما فيه من الإعجاز وغيره وآيات واضحة مرشدة إلى الحق فارقة بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام ﴿فن شهد منكم الشهر﴾ أى حضر فيه ولم يكن مسافرا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان والفاء للتفريع والترتيب أو لتضمن المبتدأ معنى الشرط أو زائدة على تقدير كون شهر رمضان مبتدأ والموصول صفة له وهذه الجملة خبر له وقيل هى جزائية كانه قيل لما كتب عليكم الصيام فى ذلك الشهر فمن حضر فيه

﴿ فليصمه ﴾ أى فليصم فيه بحذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور اتساعاً وقيل من شهد منكم هلال الشهر فليصمه على أنه مفعول به كقولك شهدت الجمعة أى صلاتها فيكون ما بعده مخصصاً له كأنه قيل ﴿ ومن كان مريضاً ﴾ وإن كان مقيماً حاضراً فيه ﴿ أو على سفر ﴾ وإن كان صحيحاً ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ أى فعلية صيام أيام أخر لأن المريض والمسافر بمن شهد الشهر ولعل التكرير لذلك أو لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه ﴿ يريد الله ﴾ بهذا الترخيص ﴿ بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ لغاية هى رأفته وسعة رحمته ﴿ ولتكمّلوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ تعليل لفعل محذوف يدل عليه ما سبق أى وهذه الأمور شرع ما من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص لهم بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى إباحة الفطر فقوله تعالى لتكمّلوا عدة الأمر بمراعاة العدة ولتكبروا علة ما علمه من كيفية القضاء ولعلكم تشكرون علة الترخيص واليسير وتعديّة فعل التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم ويجوز أن تكون معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم أو لتعلموا ما تعملون ولتكمّلوا إلخ ويجوز عطفها على اليسر أى يريد بكم لتكمّلوا إلخ كقوله تعالى (يريدون ليطفئوا) إلخ والمعنى بالتكبير تعظيمه تعالى بالحمد والثناء عليه وقيل تكبير يوم العيد وقيل التكبير عند الإهلال وما تحتمل المصدريّة والموصولة أى على هدايته إياكم أو على الذى هداكم إليه وقرىء ولتكمّلوا بالتشديد ﴿ وإذا سألك عبادى عني ﴾ فى تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى من تشريفة ورفع محله ﴿ فإني قريب ﴾ أى فقل لهم إني قريب وهو تمثيل لسكّال عليه بأفعال العباد وأقوالهم وإطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه ، روى أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقرّب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ تقرير للقرب وتحقيق له ووعد للداعى بالإجابة ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم ﴿ وليؤمنوا بى ﴾ أمر بالثبات على ما هم عليه ﴿ لعلهم يرشدون ﴾

راجين لإصابة الرشد أى الحق وقرىء بفتح الشين وكسرهما ولما أمرهم الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الكريمة الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه ثم شرع في بيان أحكام الصيام فقال ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ روى أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الأخيرة أو يرقدوا ثم إن عمر رضى الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر إليه فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت هـ. وليلة الصيام الليلة التي يصبح منها صائماً والرفث كناية عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكتم عنه وعدى بالي لتضمنه معنى الإفشاء والإنهاء وإيثاره ههنا لاستقباح ما ارتكبه ولذلك سمي خيانة وقرىء الرفث وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مراراً من التشويق فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكن وقت وروده فضل تمكن ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ استئناف مبين لسبب الإحلال وهو صعوبة الصبر عنهن مع شدة المخالطة وكثرة الملابس بهن وجعل كل من الرجل والمرأة لباساً للآخر لاعتناقهما واشتغال كل منهما على الآخر بالليل قال :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباساً

أو لأن كلا منهما يستتر حال صاحبه ويمتنعه من الفجور ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب والاختيان أبلغ من الخيانة كالأكتساب من الكسب ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على علم أى تاب عليكم لما تبتم بما اقترفتهوه ﴿وعفا عنكم﴾ أى محأ أثره عنكم ﴿فالأن﴾ لما نسخ التحريم ﴿باشروهن﴾ المباشرة لإزاق البشرة بالبشرة كفى بها عن الجماع الذى يستلزمها وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أى واطلبوا ما قدره الله لكم وقرره في اللوح من الولد وفيه أن المباشر ينبغي أن

يكون غرضه الولد فإنه الحكمة في خلق الشهوة وتشريع النكاح لا قضاء الشهوة وقيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأثى والتقدير وابتغوا المحل الذى كتب لكم ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ شبه أول ما يبدوا من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غلس الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله تعالى من الفجر عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل ويجوز أن يكون من للتبعيض فإن ما يبدو بعض الفجر وما روى من أنها نزلت ولم ينزل من الفجر فعمد رجال إلى خيطين أبيض وأسود وطفقوا يأكلون ويشربون حتى يتبيناهم فنزلت فلعل ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائزا واكتفى أولا بآشئارهما فى ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفى تجويز المباشرة إلى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم من أصبح جنباً ﴿ثم أتوا الصيام إلى الليل﴾ بيان لآخر وقته ﴿ولا تبشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ أى معتكفون فيها والمراد بالمباشرة الجماع وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيبأشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون فى المسجد غير مختص ببعض دون بعض وأن الوطء فيه حرام ومفسد له لأن النهى فى العبادات يوجب الفساد ﴿تلك حدود الله﴾ أى الأحكام المذكورة وحدود وضعها الله تعالى لعباده ﴿فلا تقر بها﴾ فضلاً عن تجاوزها نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل مبالغة فى النهى عن تخطيها كما قال صلى الله عليه وسلم إن لكل ملك حمى وحى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ويجوز أن يراد بحدود الله تعالى محارمه ومناهيه ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التبيين البليغ ﴿يبين الله آياته﴾ الدالة على الأحكام التى شرعها ﴿لناس لعلمهم يتقون﴾ مخالفة أوامره ونواهيه ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ نهى عن أكل بعضهم أموال بعض على خلاف حكم الله تعالى بعد النهى عن أكل أموال أنفسهم فى نهار رمضان أى لا يأكل بعضهم أموال بعض بالوجه الذى لم يبيحه

الله تعالى وبين نصب على الظرفية أو الحالية من أموالكم ﴿وتدلوا بها إلى الأحكام﴾ عطف على المنهى عنه أو نصب بإضمار أن والإدلاء الإلقاء أى ولا تلقوا حكومتها إلى الأحكام ﴿لنأكلوا﴾ بالتحاكم إليهم ﴿فريقا من أموال الناس بالإثم﴾ بما يوجب إثما كشهادة الزور واليمين الفاجرة أو ملتبسين بالإثم ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم مبطلون فإن ارتكاب المعاصى مع العلم بها أقبح . روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرئ القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بيعة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم به فقرأ عليه الصلاة والسلام (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) الآية فارتدع عن اليمين فسلم الأرض إلى عبدان فنزلت . وروى أنه اختصم إليه خصمان فقال عليه السلام إنما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون إلى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه فن قضيت له بشئ من حق أخيه وإنما أقضى له قطعة من نار ، فبكيا فقال كل واحد منهما حتى لصاحبي فقال اذهبا فتأخيا ثم ليحل كل واحد منكما صاحبه ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ سأله معاذ بن جبل وعلبة بن غنم فقالا ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا ﴿قل هى مواقيت للناس والحج﴾ كانوا قد سأله عليه الصلاة والسلام عن الحكمة فى اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة فى ذلك أن تكون معالم للناس فى عبادتهم لا سيما الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء وكذا فى معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه والمواقيت جمع ميقات من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهىها والزمان مدة مقسومة إلى الماضى والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لأمر ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وإنما يدخلون ويخرجون من نقب أو فرجة وراءها ويعدون ذلك براً فبين لهم أنه ليس ببر فليل ﴿ولكن البر من اتقى﴾ أى بر من اتقى المحارم والشهوات ووجه اتصاله بما قبله أنهم

سألوا عن الأمرين أو أنه لما ذكر أنها مواقيت للحج ذكر عقيبه ما هو من أفعالهم في الحج استطرادا أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيه ولا يتعلق بعلم النبوة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوث لبيان الشرائع لالبيان حقائق الأشياء وتركوا السؤال عما يعنيه ويختص بعلم الرسالة عقب بذكره جواب ما سألوا عنه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو أريد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال وكونه من قبيل دخول البيت من ورائه والمعنى وليس البر بأن تعكسوا في مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترأ على مثله ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ إذ ليس في العدول بر أو باشرؤا الأمور من وجوهها ﴿واتقوا الله﴾ في تغيير أحكامه أو في جميع أموركم أمر بذلك صريحا بعد بيان أن البر بر من اتقى إظهارا لزيادة الاعتناء بشأن التقوى وتمهيدا لقوله تعالى ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى لى تظفروا بالبر والهدى ﴿وقاتلوا فى سبيل الله﴾ أى جاهدوا لإعزاز دينه وإعلاء كلمته وتقديم الظرف على المفعول الصريح لإبراز كمال العناية بشأن المقدم ﴿الذين يقاتلونكم﴾ قيل كان ذلك قبل ما أمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء أو الكفرة جميعا فإن الكل بصدد قتال المسلمين ويؤيد الأول ما روى أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيدخلوا له مكة شرفها الله تعالى ثلاثة أيام فرجع لعمره القضاء بخاف المسلمون أن لا يفوا لهم وأن يقاتلوه في الحرم والشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت ويعضده إيراده في أثناء بيان أحكام الحج ﴿ولا تعتدوا﴾ بابتداء القتال أو بقتال المعاهد والمفاجأة به من غير دعوة أو بالمثلة وقتل من نهيتم عن قتله من النساء والصبيان ومن يجرى مجراهم ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أى لا يريد بهم الخير وهو تعليل للنهى ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أى حيث وجدتموهم من حل أو حرم وأصل الثقف الخدق فى إدراك الشيء علما أو عملا وفيه معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال :

فإما تثنفونى فاقتلونى فمن أثقف فليس إلى خلود

﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أى من مكة وقد فعل بهم ذلك يوم الفتح بمن لم يسلم من كفارها ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ أى المحنة التى يفتتن بها الإنسان كالإخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وبقاء ألم النفس بها وقيل شركهم فى الحرم وصدىء لى عنه أشد من قتلىكم إياهم فيه ﴿ ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام ﴾ أى لا تقتلواهم بالقتل هناك ولا تهتكوا حرمة المسجد الحرام ﴿ حتى يقتلواكم فيه فإن قاتلوكم ﴾ ثمة ﴿ فاقتلواهم ﴾ فيه ولا تبالوا بقتلهم ثمة لأنهم الذين هتكوا حرمة فاستحقوا أشد العذاب وفى العدول عن صيغة المفاعلة التى بها ورد النهى والشرط عدة بالنصر والغلبة وقرىء ولا تقتلواهم حتى يقتلواكم فإن قاتلوكم فاقتلواهم والمعنى حتى يقتلوا بعضكم كقتلهم قتلنا بنو أسد ﴿ كذلك جزاء الكافرين ﴾ يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم ﴿ فإن انتهوا عن القتال والكفر بعد ما رأوا قتالكم ﴾ فإن الله غفور رحيم ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ وقالواهم حتى لا تكون فتنة ﴿ أى شرك ﴾ ويكون الدين لله ﴿ خالصا ليس للشيطان فيه نصيب ﴾ ﴿ فإن انتهوا ﴾ بعد مقاتلتكم عن الشرك ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ أى فلا تعتدوا عليهم إذ لا يحسن الظلم إلا لمن ظلم فوضع العلة موضع الحكم وتسمية الجزاء بالعدوان للمشاكل كما فى قوله عز وجل ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾ أو لأنكم إن تعرضتم للمعتدين صرتم ظالمين وتنعكس الحال عليكم والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء .

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة فقبل لهم عند خروجهم لعمره القضاء فى ذى القعدة أيضاً وكرهتهم القتال فيه هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام وتهتك بهتكم فلا تبالوا به ﴿ والحرمات قصاص ﴾ أى كل حرمة وهى ما يجب المحافظة عليه يجرى فيها القصاص فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فاقتلواهم إن قاتلوكم كما قال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾

بمثل ما اعتدى عليكم) وهى فذلكم مقررة لما قبلها ﴿واتقوا الله﴾ فى شأن الانتصار واحذروا أن تعتدوا إلى ما لم يرخص لكم ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ فيجرسهم ويصلح شؤونهم بالنصر والتمكين ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ﴾ أمر بالجهاد بالمال بعد الأمر به بالأنفس أى ولا تمسكوا كل الإمساك : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه فإن ذلك مما يقوى العدو ويسلطة عليكم ويؤيده ما روى عن أنى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدى إلى الهلاك المؤبد ولذلك سمي البخل هلاكا وهو فى الأصل انتهاء الشيء فى الفساد والإلقاء طرح الشيء وتعديته إلى لئضمته معنى الانتهاء والباء مزيدة والمراد بالأيدي الأنفس والتهلكة مصدر كالتنصهرة والتسيرة وهى والهلك واحد أى لا توقعوا أنفسكم فى الهلاك وقيل معناه لا تجعلوها آخذة بأيديكم ولا تلقوا بأيديكم أنفسكم إليها فحذف المفعول ﴿وأحسنوا﴾ أى أعمالكم وأخلاقكم أو تفضلوا على الفقراء ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ أى يريد بهم الخير وقوله تعالى : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ بيان لوجوب إتمام أفعالهما عند التصدى لأدائهما وإرشاد للناس إلى تدارك ما عسى يعتريهم من العوارض المخلة بذلك من الإحصار ونحوه من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما من الوجوب وعدمه كما فى قوله تعالى (ثم أتموا الصيام إلى الليل) فإنه بيان لوجوب مد الصيام إلى الليل من غير تعرض لوجوب أصله وإنما هو بقوله تعالى (كتب عليكم الصيام) الآية كما أن وجوب الحج بقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) الآية فإن الأمر بإتمام فعل من الأفعال ليس أمرا بأصله ولا مستلزما له أصلا فليس فيه دليل على وجوب العمرة قطعا وادعاء أن الأمر بإتمامها أمر بإنشائها تامين كاملين حسبما تقتضيه قراءة وأقيموا الحج والعمرة وأن الأمر للوجوب ما لم يدل على خلافه دليل مما لا سداد له ضرورة أن ليس البيان مقصورا على أفعال الحج المفروض حتى يتصور ذلك بل الحق أن تلك

القراءة أيضا محمولة على المشهورة ناطقة بوجوب إقامة أفعالهما كما ينبغي من غير تعرض لحالهما في أنفسهما فالمعنى أكملوا أركانهما وشرائطهما وسائر أفعالهما المعروفة شرعا لوجه الله تعالى من غير إخلال منكم بشيء منها هذا وقد قيل لإتمامهما أن تحرم بهما من ديرة أهلك روى ذلك عن علي وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم وقيل أن تفرد لكل واحد منها سفرا كما قال محمد حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل وقيل هو جعل نفقتهما حلالا وقيل أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من الأغراض الدنيوية وأياما كان فلا تعرض في الآية الكريمة لوجوب العمرة أصلا وأما ما روى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن العمرة لقريضة الحج وقول عمر رضى الله عنه هديت لسنة نبيك حين قال له رجل وجدت الحج والعمرة مكتوبين على فأهللت بهما وفي رواية فأهللت بهما جميعا فبمعزل من إفادة الوجوب مع كونه معارضا بما روى عن جابر أنه قال يارسول الله العمرة واجبة مثل الحج قال لا ولكن أن تعتمر خير لك وبقوله عليه السلام الحج جهاد والعمرة تطوع فتدبر ﴿فإن أحصرتم﴾ أى منعتم من الحج يقال حصره إذا حبسه ومنعه من المضى لوجهه مثل صدده واصدده والمراد منع العدو عند مالك والشافعى رضى الله عنهما لقوله تعالى ﴿فإذا أمتتم﴾ ولزوله في الحديبية ولقول ابن عباس لا حصر إلا حصر العدو وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبى حنيفة رضى الله عنه لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أى فعليكم أو فالواجب ما استيسر أو فاهدوا ما استيسر والمعنى أن المحرم إذا أحصر وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدى مما تيسر عليه من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكل كثير وعندنا يبعث به إلى الحرم ويجعل للمبعوث بيده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى ﴿ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ أى لا تحلقوا حتى تعلموا أن الهدى المبعوث إلى الحرم يبلغ مكانه الذى يجب أن ينحر فيه وحمل الأولون بلوغ الهدى محله على

ذبحه فيه حلا كان أو حرما ومرجعهم في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل قلنا كان محصره عليه الصلاة والسلام طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة وهو من الحرم وعن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه في الحرم وقال الواقدي الحديبية هي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة والحل بالكسر يطلق على المسكان والزمان والهدى جمع هدية كجدي وجدي وقرىء من الهدى جمع هدية كعطى ومطية ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ مرضا نحوجا إلى الحل ﴿أو به أذى من رأسه﴾ كجراحة أو قل ﴿ففدية﴾ أى فعلية فدية إن حلق ﴿من صيام أو صدقة أو نسك﴾ بيان لجنس الفدية وأما قدرها فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة لعلى آذاك هوامك قال نعم يا رسول الله قال لحلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة والفرق ثلاثة أصع ﴿فإذا أمتم﴾ أى الإحصار أو كنتم في حال أمن أو سعة ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ أى فمن انتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج في أشهره وقيل من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أى فعلية دم استيسر عليه بسبب التمتع وهو دم جبران يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه عند الشافعى وعندنا هو كالأضحية ﴿فمن لم يجد﴾ أى الهدى ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾ أى فى أشهره بين الإحرامين ، وقال الشافعى فى أيام الاشتغال بأعماله بعد الإحرام وقبل التحلل والأحب أن يصوم سابع ذى الحجة وثامنه وناسعه فلا يصح يوم النحر وأيام التشريق ﴿وسبعة إذا رجعت﴾ أى نفرتم وفرغتم من أعماله وفى أحد قولى الشافعى إذا رجعتكم إلى أهليكم وقرىء وسبعة بالنصب عطفا على محل ثلاثة أيام ﴿تلك عشرة﴾ فذلك الحساب وفائدتها ألا يتوهم أن الواو بمعنى أو كما فى قولك جالس الحسن وابن سيرين ، وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا فإن أكثر العرب لا يعرف الحساب وأن المراد بالسبعة هو العدد المخصوص دون الكثرة كما يراد بذلك أيضا

﴿ كاملة ﴾ صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة في المحافظة على العدد أو مبينة لكمال العشرة فإنها أول عدد كامل لإذبه ينهى الأحاد ويتم مراتبها أو مقيدة تفيد كمال بدليتها من الهدى ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التمتع عندنا وإلى الحكم المذكور عند الشافعي ﴿ لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عند الشافعي ومن كان مسكنه وراء الميقات عندنا وأهل الحل عند طاوس وغير أهل مكة عند مالك ﴿ واتقوا الله ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه لاسيما في الحج ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن لم يتقه كي يصدكم العلم به عن العصيان وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لترئية المهابة وإدخال الروعة .

﴿ الحج ﴾ أى وقته ﴿ أشهر معلومات ﴾ معروفة بين الناس هى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة عندنا وتسعة بليدة النحر عند الشافعي وكله عند مالك ومدار الخلاف أن المراد بوقته وقت إحرامه أو وقت أعماله ومناسكه أو ما لا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقا فإن ما كرهه العمرة فى بقية ذى الحجة وأبو حنيفة وإن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه وإنما سمي شهرين وبعض شهر أشهر إقامة للبعض مقام الكل أو إطلاقا للجمع على ما فوق الواحد وصيغة جمع المذكر فى غير العقلاء تجيء بالالف والتاء ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ أى أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن أو بالتلبية أو بسوق الهدى ﴿ فلا رقت ولا فسوق ﴾ أى لاجماع أو فلا فحش من الكلام ولا خروج من حدود الشرع بارتكاب المحظورات وقيل بالسباب والتنايد بالألقاب ﴿ ولا جدال ﴾ أى لامراء مع الخدم والرفقة ﴿ فى الحج ﴾ أى فى أيامه والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه والإشعار بعلّة الحكم فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها إلى الله عز وجل من موجبات ترك الأمور المذكورة وإيثار النفي للمبالغة فى النهى والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يكون فإن ما كان منكرا مستقبجا فى نفسه فى تضاعيف الحج أقبح كلبس الحرير فى الصلاة والنظريب بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض

العبادة وقرىء الأولان بالرفع على معنى لا يكونن رفث ولا فسوق والثالث بالفتح على معنى الإخبار بانتقاء الخلاف في الحج وذلك أن قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام فارفع الخلاف بأن أمروا بأن يقفوا أيضاً بعرفات ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ فيجزى به خير جزاء وهو حث على فعل الخير لإثر النهي عن الشر ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ أى تزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد وقيل نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فأمرُوا أن يتزودوا ويتقوا الإبرام في السؤال والثقل على الناس ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ فإن قضية اللب استشعار خشية الله عز وجل وتقواه حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بذلك هو الله تعالى فيتبرؤا من كل شيء سواه وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص بهذا الخطاب أولو الألباب ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا﴾ أى فى أن تبتغوا أى تطلبوا ﴿فضلا من ربكم﴾ عطاء ورزقا منه أى الربح بالتجارة وقيل كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يقيمونها أيام مواسم الحج وكانت معايشهم منها فلما جاء الإسلام تأثروا منه فنزلت ﴿فإذا أفضتكم من عرفات﴾ أى دفعتم منها بكثرة من أفضت الماء إذا صببته بكثرة وأصله أفضتكم أنفسكم لحذف المفعول حذفه من دفعت من البصرة وعرفات جمع سمى به كالأذرعات وإنما نون وكسر وفيه علمية وتأنيث لما أن تنوين الجمع تنوين المبالغة لاتنوين التمكن ولذلك يجمع مع اللام وذهب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف وهما ليس كذلك أولان التأنيث إما بالتاء المذكورة وهى ليست بتاء التأنيث وإنما هى مع الألف التى قبلها علامة جمع المؤنث أو بناء مقدرة كما فى سعاد ولا سبيل إليه لأن المذكورة تأبى تقديرها لما أنها كالبدل منها لاختصاصها بالمؤنث كماء بنت وإنما سمى الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصره عرفه أولان جبريل عليه السلام كان يدور به فى المشاعر فلما رآه قال عرفت أولان آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا أولان الناس يتعارفون فيه وهى من الأسماء المرتجلة

إلا من يجعلها جمع عارف قليل وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى ﴿ثم أفيضوا﴾ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الحج عرفة ، فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج أو مقدمة المذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب والأمر به غير مطلق ﴿فاذكروا الله﴾ بالتلبية والتلهيل والدعاء وقيل بصلاة العشائين ﴿عند المشعر الحرام﴾ هو جبل يقف عليه الإمام ويسمى قرح وقيل ما بين ما زى عرفة ووادي محسر ويؤيد الأول ما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر يعنى بالمزدلفة بغسل ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا فيه وكبر وهلل ولم يزل واقفا حتى أسفر وإنما سمي مشعرا لأنه معلم العبادة ووصف بالحرام لحرمة ومعنى عند المشعر الحرام ما يليه ويقرب منه فإنه أفضل وإلا فالمزدلفة كلها موقف الإوادي محسر ﴿واذكروه كما هداكم﴾ أى كما علمكم أو اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها وما مصدرية أو كافة ﴿وإن كنتم من قبله﴾ من قبل ما ذكر من هدايته إياكم ﴿لن الضالين﴾ غير العاملين بالإيمان والطاعة وأن المخففة واللام هى الفارقة وقيل هى نافية واللام بمعنى إلا كما فى قوله عز وعلا ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أى من عرفة لامن المزدلفة والخطاب لقريش لما كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعا عليهم فأمرُوا بأن يساووهم وثم لتفاوت ما بين الإفاضة كما فى قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلا إلى كريم وقيل من مزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام وقرىء الناس بكسر السين أى الناسى على أن يراد به آدم عليه السلام من قوله تعالى فسئى والمعنى أن الإفاضة من عرفه شرع قديم فلا تغيروه ﴿واستغفروا الله﴾ من جاهليتهم فى تخيير المناسك ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه فهو تعليل للاستغفار أو للأمر به ﴿فاذا قضيت مناسككم﴾ عباداتكم المتعلقة بالحج وفرغتم منها ﴿فاذكروا الله كذا كركم آباءكم﴾ أى فأكثروا ذكره تعالى وبالغوا فى ذلك كما تفعلون بذكر آباءكم ومفاخرهم وأيامهم وكانت العرب إذا قضا

مناسكهم وقفوا بيني وبين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم ﴿أو أشد ذكرا﴾ ، إما مجرور معطوف على الذكر بجمله ذا كرا على المجاز والمعنى فاذكروا الله ذكرا كأننا مثل ذكركم آباءكم أو كذكركم أشد منه وأبلغ أو على ما أضيف إليه بمعنى أو كذكركم قوم أشد منكم ذكرا أو منصوب بالعطف على آباءكم وذكرا من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكور من آبائكم أو بمضمحل دل عليه المعنى تقديره أو كونوا أشد ذكرا لله منكم لا بانكم ﴿فمن الناس﴾ تفصيل للذاكرين إلى من يطلب بذكر الله الدنيا وإلى من يطلب به خير الدارين والمراد به الحث على الإكثار والانتظام في سلك الآخرين ﴿من يقول﴾ أى في ذكره (ربنا آتينا في الدنيا) أى اجعل لآبائنا ومنحتنا في الدنيا خاصة ﴿وماله في الآخرة من خلاق﴾ أى من حظ ونصيب لاقتصارهم على الدنيا فهو بيان لحاله في الآخرة أو من طلب خلاق فهو بيان لحاله في الدنيا وتأكيده أقصر دعائه على المطالب الدنيوية ﴿ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة﴾ هى الصحة والكفاف والتوفيق للخير ﴿وفى الآخرة حسنة﴾ هى الثواب والرحمة ﴿وقنا عذاب النار﴾ بالعفو والمغفرة وروى عن على رضى الله عنه أن الحسنه فى الدنيا المرأة الصالحة ، وفى الآخرة الحور وعذاب النار امرأه السوء وعن الحسن أن الحسنه فى الدنيا العلم والعبادة ، وفى الآخرة الجنة وقنا عذاب النار معناه حفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الإشارة إلى علو درجاتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وقيل ليهما معا فالتنوين فى قوله تعالى ﴿لهم نصيب مما كسبوا﴾ على الأول للتفخيم وعلى الثانى للتنويع أى لكل نوع منهم نصيب من جنس ما كسبوا أو من أجله كقوله تعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا) أو مما دعوا به نعطيهم منه ما قدرناه وتسمية الدعاء كسبا لما أنه من الأعمال ﴿والله سريع الحساب﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم فى مقدار لحظة فاحذروا من الإخلال بطاعة من هذا شأن قدرته أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا

إلى الطاغوت اكتساب الحسنات ﴿واذكروا الله﴾ أى كبروه فى أعقاب الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها ﴿فى أيام معدودات﴾ هى أيام التشريق ﴿فمن تعجل﴾ أى استعجل فى النفر أو النفر فإن الفعل والاستفعال يجيئان لازمين ومتعدين يقال تعجل فى الأمر واستعجل فيه وتعجله واستعجله والاول أوفق للتأخر كما فى قوله :

قد يدرك المتأخر بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل

﴿فى يومين﴾ أى فى تمام يومين بعد يوم النحر وهو القر ويوم الرأس واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار ﴿فلا إثم عليه﴾ بتعجله ﴿ومن تأخر﴾ فى النفر حتى رى فى اليوم الثالث قبل الزوال أو بعده وعند الشافعى بعده فقط ﴿فلا إثم عليه﴾ بما صنع من التأخر والمراد التخيير بين التعجل والتأخر ولا يقدح فيه أفضلية الثانى وإنما ورد بنى الإثم تهريحا بالرد على أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فمن مؤثم للمتعجل ومؤثم للتأخر ﴿لمن اتقى﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى الذى ذكر من التخيير ونفى الإثم عن المتعجل والمتأخر أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنفعة به أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهمله منهما ﴿واتقوا الله﴾ فى جماع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات ليعبأ بكم وتلتظموا فى سلك المغتصمين بالأحكام المذكورة والرخص أو احذروا الإخلال بما ذكر من الأحكام وهو الأنسب بقوله عز وجل ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ أى للجزاء على أعمالكم بعد الإحياء والبعث وأصل الحشر الجمع والضم المتفرق وهو تأكيد للأمر بالتقوى وموجب للاقتبال به فإن من علم بالحشر والحاسبة والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعى إلى ملازمة التقوى ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إليه عليه الصلاة والسلام وهو كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس فى شأن التقوى إلى حزبين وتعيين مآل كل منهما ومن موصولة أو موصوفة وإعرابه كما بينا فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) أى ومنهم من يروك كلامه ويعظم موقعه فى نفسك لما تشاهد فيه من ملاءمة الفحوى

ولطف الأداء والتعجب حيرة تعرض للإنسان بسبب عدم الشعور بسبب ما يتعجب منه ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ متعلق بقوله أى ما يقوله فى حق الحياة الدنيا ومعناها فإنها الذى يريد بما يدعيه من الإيمان ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه إشارة إلى أن له قولاً آخر ليس بهذه الصفة أو يعجبك أى يعجبك قوله فى الدنيا بحلاوته وفصاحته لا فى الآخرة لما أنه يظهر هناك كذبه وقبحه وقيل لما يرهقه من الحبسة واللكنة وأنت خبير بأنه لا مبالغة حينئذ فى سوء حاله فإن مآله بيان حسن كلامه فى الدنيا وقبحه فى الآخرة وقيل معنى فى الحياة الدنيا أى لا يصدر منه فيها إلا القول الحسن ﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه ﴾ أى بحسب ادعائه حيث يقول الله يعلم أن ما فى قلبى موافق لما فى لسانى وهو عطف على يعجبك وقرىء ويشهد الله فالمراد بما فى قلبه ما فيه حقيقة ويؤيده قراءة ابن عباس رضى الله عنهما (والله يشهد على ما فى قلبه) على أن كلمة على لكون المشهود به مضرأ له فالجمله اعتراضية وقرىء ويستشهد الله ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ أى شديد العداوة والخصومة للمسلمين على أن الخصام مصدر وإضافة ألد إليه بمعنى فى كقولهم ثبت العذر أو أشد الخصوم لهم خصومة على أنه جمع خصم كصعب وصعاب قيل نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الإسلام والمحبة وقيل فى المنافقين والجملة حال من الضمير المجرور فى قوله أو من المستكن فى يشهد وعطف على ما قبلها على القراءة تين المتوسطتين ﴿ وإذا تولى ﴾ أى من مجلسك وقيل إذا صار واليا ﴿ سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف حيث يبتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم أو كما يفعله ولاية السوء بالقتل والإتلاف أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل وقرىء ويهلك الحرث والنسل على إسناد الهلاك إليهما عطفاً على سعى وقرىء بفتح اللام وهى لغة وقرىء على البناء للفعول من الإهلاك ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أى لا يرتضيه بل يبغضه ويغضب على من يتعاطاه وهو اعتراض تذيلى .

﴿وإذا قيل له﴾ على نهج العظة والنصيحة ﴿اتق الله﴾ وترك ما تبشره من الفساد أو النفاق واحذر سوء مغبته ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ أى حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذى نبى عنه لجأوا وعنادا من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه أو ألزمته إياه ﴿حسبه جهنم﴾ مبتدأ وخبر أى كافيه جهنم وقيل جهنم فاعل لحسبه ساد مسد خبره وهو مصدر بمعنى الفاعل وقوى لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها وقيل حسب اسم فعل ماض أى كفته جهنم ﴿وابشس المهاد﴾ جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعينه والمهاد الفراش وقيل ما يوطأ للجنب والجملة اعتراض ﴿ومن الناس من يشرى نفسه﴾ مبتدأ وخبر كما مر أى يبيعها ببذلها فى الجهاد ومشاق الطاعات وتعريضها للمهلك فى الحروب أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن ترتب عليه القتل ﴿ابتغاء مرضات الله﴾ أى طالبا لرضاه وهذا كمال التقوى وإيمانه قسيما للأول من حيث أن ذلك يأنف من الأمر بالتقوى وهذا يأمر بذلك وإن أدى إلى الهلاك وقيل نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال إني شيخ كبير لا أنفعكم إن كنتم معكم ولا أضركم إن كنتم عليكم فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالى فقبلوا منه ماله فأتى المدينة فيشترى حينئذ بمعنى يشتري لجرىان الحال على صورة الشراء ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ ولذلك يكلفهم التقوى ويعرضهم للثواب والجملة اعتراض تذييل ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم﴾ أى الاستسلام والطاعة وقيل الإسلام وقرىء بفتح السين وهو لغة فيه وبفتح اللام أيضا وقوله تعالى ﴿كافة﴾ حال من الضمير فى ادخلوا أو من السلم أو منهما معا فى قوله :

خرجت بها تمشى تجر وراءنا على أثرنا ذيل مرط مرجل

وهى فى الأصل اسم الجماعة تكلف مخالفتها ثم استعملت فى معنى جميعا وتأوها ليست للتأنيث حتى يحتاج إلى جعل السلم مؤنثا مثل الحرب كما فى قوله عز وجل (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) وفى قوله :

السلم تأخذ منها ما رضىت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وإنما هي للنقل كما في عامة وخاصة وقاطبة والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه
 جملة ظاهرا وباطنا والخطاب للمنافقين أو ادخلوا في الإسلام بكليته ولا
 تخلطوا به غيره والخطاب لمؤمنى أهل الكتاب فإنهم كانوا يراعون بعض أحكام
 دينهم القديم بعد إسلامهم أو في شرائع الله تعالى كلها بالإيمان بالأنبياء عليهم
 السلام والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب كلهم ووصفهم بالإيمان لما على
 طريقة التغليب ولما بالنظر إلى إيمانهم القديم أو في شعب الإسلام وأحكامه
 كلها فلا يخلوا بشيء منها والخطاب للمسلمين وإنما خوطب أهل الكتاب بعنوان
 الإيمان مع أنه لا يصح الإيمان إلا بما كفوه الآن لئذا أن ما يدعونه لا يتم
 بدونه ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ بالتفرق والتفريق أو بمخالفة ما أمرتم
 به ﴿لأنه لكم عدو مبين﴾ ظاهر العداوة أو مظهر لها وهو تعليل للنهي أو الانتهاء
 ﴿فإن زلتم﴾ أى عن الدخول في السلم وقرىء بكسر اللام وهى لغة فيه ﴿من
 بعد ما جاءكم﴾ الآيات ﴿البيّنات﴾ والحجج القطعية الدالة على حقيقة الموجبة
 للدخول فيه ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ غالب على أمره لا يعجزه الاتقام منكم
 ﴿حكيم﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين المستعصين على أمره
 ﴿هل ينظرون﴾ استفهام إنكارى فى معنى النفى أى ما ينتظرون بما يفعلون
 من العناد والمخالفة فى الامتثال بما أمروا به والانتهاى عما نهوا عنه ﴿إلا أن
 يأتيهم الله﴾ أى أمره وبأسه أو يأتيهم الله بأمره وبأسه فحذف الماتى به لدلالة
 الحال عليه والالتفات إلى الغيبة للإيدان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض
 عنهم وحكاية جنائهم لمن عداهم من أهل الإنصاف على طريق المباشرة وإيراد
 الانتظار للإشعار بأنهم لانهما بهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون
 لها مترقبون لوقوعها ﴿فى ظلل﴾ جمع ظلة كقيل جمع قلة وهى ما أظلك وقرىء
 بالجر عطفا على ظلل أو الغمام ﴿وقضى الأمر﴾ أى تم أمر إهلاكهم وفرغ منه
 وهو عطف على يأتيهم داخل فى حيز الانتظار وإنما عدل إلى صيغة الماضى
 دلالة على تحققه فكأنه قد كان أو جملة مستأنفة جىء بها لإنباء عن وقوع
 مضمونها وقرىء وقضاء الأمر عطفا على الملائكة ﴿والى الله﴾ لا إلى غيره

﴿ ترجع الأمور ﴾ بالتأنيث على البناء للمفعول من الرجوع وقرىء بالتذكير وعلى البناء للفاعل بالتأنيث من الرجوع .

﴿ مثل بني إسرائيل ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل الخطاب والمراد بالسؤال تبكيتهم وتقريعهم بذلك وتقرير المجيء اليينات ﴿ كم آتيناهم من آية بينة ﴾ معجزة ظاهرة على أيدي الأنبياء عليهم السلام وآية ناطقة بحقية الإسلام المأمور بالدخول فيه وكم خبرية أو استفهامية مقرررة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر وآية يميزها ﴿ ومن يبدل نعمة الله ﴾ التي هي آياته الباهرة فإنها سبب للهدى الذى هو أجل النعم وتبديلها جعلها سببا للضلالة وازدياد الرجس أو تحريفها وتأويلها الزائغ ﴿ من بعد ما جاءته ﴾ ووصلت إليه وتمكن من معرفتها والتصريح بذلك مع أن التبديل لا يتصور قبل المجيء للإشعار بأنهم قد بدلوها بعد ما وقفوا على على تفاصيلها كما فى قوله عز وجل ﴿ ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل وإنما حذف للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح به لظهوره ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ تعليل للجواب كأنه قيل ومن يبدل نعمة الله يعاقبه أشد عقوبة فإنه شديد العقاب وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها والزيين من حيث الخلق والإيجاد مستند إليه سبحانه كما يعرب عنه القراءة على البناء للفاعل إذا ما من شيء إلا وهو خالقه وكل من الشيطان والقوى الحيوانية وما فى الدنيا من الأمور البهية والأشياء الشبيهة مزين بالعرض ﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ عطف على زين وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على استمرار السخرية منهم وهم فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب رضى الله عنهم كانوا يستذلونهم ويستهزئون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبي ومن ابتدائية فكأنهم جعلوا السخرية مبدأة منهم .

﴿ والذين اتقوا ﴾ هم الذين آمنوا بعينهم وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيذان

بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها مخلة بتبتلهم إلى جناب القدس شاعلة عنه ﴿فوقهم يوم القيامة﴾ لأنهم في أعلى عليين وهم في أسفل سافلين أو لأنهم في أوج السكرامة وهم في حضيض الذل والمهانة أو لأنهم يتطاولون عليهم في الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا والجملة مدطوفة على ما قبلها وإشار الاسمية للدلالة على دوام مضمونها ﴿والله يرزق من يشاء﴾ أى في الدارين ﴿بغير حساب﴾ بغير تقدير فيوسع في الدنيا استدراجا تارة وإبتلاء أخرى ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ متفقين على كلمة الحق ودين الإسلام وكان ذلك بين آدم وإدريس أو نوح عليهم السلام أو بعد الطوفان ﴿فبعث الله النبيين﴾ أى فاختلفوا فبعث الخ وهو قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وقد حذف تعويلا على ما يذكر عقيبہ ﴿مبشرين ومنذرين﴾ عن كعب الذى علمته من عدد الانبياء عليهم السلام مائة وأربعة وعشرون ألفا والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر والمذكور في القرآن ثمانية وعشرون وقيل كان الناس أمة واحدة متفقة على الكفر والضلال في فترة إدريس أو نوح فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم والاول هو الأنسب بالنظم الكريم ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ أى جنس الكتاب أو مع كل واحد منهم ممن له كتاب كتابه الخاص به لا مع كل واحد منهم على الإطلاق إذ لم يكن لبعضهم كتاب وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وعموم النبيين لا ينال في خصوص الضمير العائد إليه بمعونة المقام ﴿بالحق﴾ حال من الكتاب أى ملتبسا بالحق أو متعلق بأنزل كقوله عز وجل ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ ﴿ليحكم﴾ أى الكتاب أو الله سبحانه وتعالى أول كل واحد من النبيين ﴿بين الناس﴾ أى المذكورين والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التعيين ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ أى في الحق الذى اختلفوا فيه أو فيما التبس عليهم ،

﴿وما اختلف فيه﴾ أى في الحق أو في الكتاب المنزل ملتبسا به والواو حالية ﴿لأ الذين أتوه﴾ أى الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف وإزاحة الشقاق والتعبير عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمر على كمال تمسكهم

من الوقوف على ما في تضاعيفه من الحق فإن الإنزال لا يفيد تلك الفائدة أى عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه ﴿ من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أى رسخت في عقولهم ومن متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أى فاختلفوا وما اختلف فيه إلخ وقيل بالمملوظ بناء على عدم منع إلا عنه كما في قولك ما قام إلا زيد يوم الجمعة ﴿ بغيا بينهم ﴾ متعلق بما تعلقت به من أى اختلفوا بغيا وتهاكأ على الدنيا ﴿ فهدى الله الذين آمنوا ﴾ بالكتاب ﴿ لما اختلفوا فيه ﴾ أى للحق الذى اختلف فيه من اختلف ﴿ من الحق ﴾ بيان لما وفي إلهامه أو لا وتفسيره ثانيا ما لا يخفى من التفخيم ﴿ بإذنه ﴾ بأمره أو بتيسيره ولطفه ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى الحق وهو اعتراض مقرر لمضمون ما سبق .

﴿ أم حسبتم ﴾ خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حنا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفرة وتحمل المشاق من جهتهم لئلا يبين اختلاف الأمم على الأنبياء عليهم السلام وقد بين فيه مآل اختلافهم وما لقي الأنبياء ومن معهم من قلوبهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرهم النصر وأم منقطة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿ أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين أى والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التى هى مثل فى الفظاعة والشدّة وهو متوقع ومنظر ﴿ مستهم ﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الذهن كأنه قيل وكيف كان منهم فقليل مستهم ﴿ البأساء ﴾ أى الشدة من الخوف والفاقة ﴿ والضراء ﴾ أى الآلام والأمراض (وزلزلوا) أى أزعجوا إزعاجا شديدا بما دهمهم من الأهوال والأفزع ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ﴾ أى انتهى أمرهم من الشدة إلا حيث اضطهرهم الضجر إلى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بشؤون الله تعالى وأوثقهم بنصره والمؤمنون المقتدون بآثاره المستضيئون بأنواره ﴿ متى ﴾ أى متى يأتى ﴿ نصر الله ﴾ طلبنا وتمنيا له

واستطالة لمدة الشدة والعناء وقرىء حتى يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية كيف لا والرسول مع علو كعبهم في الثبات والاصطبار حيث عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضحج علم أن الأمر بلغ إلى غاية لامطمح وراءها ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ على تقدير القول أى فقل لهم حينئذ ذلك إسعافا لمرامهم والمراد بالقرب القرب الزمانى وفى إثارة الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها^(١) ما لا يخفى واختيار حكاية الوعد بالنصر لما أنها فى حكم إنشاء الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتصار على حكايتها دون حكاية نفس النصر مع تحققه للإيدان بعدم الحاجة إلى ذلك لاستحالة الخلف ويجوز أن يكون هذا واردا من جهته تعالى عند الحكاية على نهج الاعتراض لا واردا عند وقوع المحسكى وفيه رمز إلى أن الوصول إلى جناب القدس لا يتسنى إلا برفض اللذات ومكابدة المشاق كما ينبىء عنه قوله عليه السلام حفت الجنة بالمسكاره وحفت النار بالشهوات .

﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ أى من أصناف أموالهم ﴿قل ما أنفقتم من خير﴾ إما شرطية وإما موصولة حذف العائد إليها أى ما أنفقتموه من خير أى من خير كان ففيه تجوز الإنفاق من جميع أنواع الأموال وبيان لما فى السؤال إلا أنه جعل من جملة ما فى حيز الشرط أو الصلة وأبرز فى معرض بيان المصرف حيث قيل ﴿فلوالدين والأقربين﴾ للإيدان بأن الأهم بيان المصارف المحدودة لأن الاعتداد بالإنفاق بحسب وقوعه فى موقعه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء أنه جاء عمرو بن الجوح وهو شيخ هم له مال عظيم فقال يا رسول الله ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت ﴿واليتامى﴾ أى المحتاجين منهم ﴿والمساكين وابن السبيل﴾ ولم يتعرض للسائلين والرقاب إما اكتفاء بما ذكر

في المراقع الآخر وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير ﴾ فإنه شامل لكل خير واقع في أى مصرف كان ﴿ فإن الله به عليم ﴾ فيؤتى ثوابه وليس في الآية ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به كما نقل عن السدى ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ببناء الفعل للمفعول ورفع القتال أى قتال الكفرة وقرىء ببنائه للفاعل وهو الله عز وجل ونصب القتال وقرىء وكتب عليكم القتل أى قتل الكفرة والواو في قوله تعالى ﴿ وهو كره لكم ﴾ حالية أى والحال أنه مكروه لكم طبعاً على أن الكره مصدر وحذف به المفعول مبالغة أو بمعنى المفعول كالخبز بمعنى الخبز وقرىء بالفتح على أنه بمعنى المضموم كالضعف والضعف أو على أنه بمعنى الإكراه مجازاً كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ وهو جميع ما كلفوه من الأمور الشاقة التى من جملتها القتال فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه والجملة اعتراضية دالة على أن في القتال خيراً لهم ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ وهو جميع ما نهوا عنه من الأمور المستلذة وهو معطوف على ما قبله لاحتل لهما من الإعراب ﴿ والله يعلم ﴾ ما هو خير لكم فلذلك أمركم به ^(١) ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ أى لا تعلمونه ولذلك تكرهونه أو والله يعلم ما هو خير وشر لكم وأنتم لا تعلمونهما فلا تتبعوا في ذلك رأيكم وامثلوا بأمره تعالى .

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش على سرية في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليتصدوا عيراً لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة الطائف وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونونه من جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف ويبدع فيه الناس إلى معاشهم فوقف رسول

(١) في ط : يأمركم .

الله صلى الله عليه وسلم العير وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسارى وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة ، والمعنى يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام على أن قوله عز وجل ﴿ قتال فيه ﴾ بدل اشتغال من الشهر وتنكيره لما أن سؤالهم كان عن مطلق القتال الواقع فى الشهر الحرام لا عن القتال المعبود ولذلك لم يقل يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام وقرئ عن قتال فيه ﴿ قل ﴾ فى جوابهم ﴿ قتال فيه كبير ﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بقل وإنما جاز وقوع قتال مبتدأ مع كونه نكرة لتخصصه إما بالوصف إن تعلق الظرف بمحذوف وقع صفة له أى قتال كائن فيه وإما بالعمل إن تعلق به وإنما أوتر التنكير احترازاً عن توهم التعمين وإيذاناً بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أى قتال كان عن عطاء أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام خلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وما نسخت وأكثر الأقاويل أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ﴿ وصد عن سبيل الله ﴾ مبتدأ قد تخصص بالعمل فيما بعده أى ومنع عن الإسلام الموصل للعبد إلى الله تعالى ﴿ وكفر به ﴾ عطف على صد عامل فيما بعده مثله أى وكفر بالله تعالى وحيث كان الصد عن سبيل الله فرداً من أفراد الكفر به تعالى لم يقدح العطف المذكور فى حسن عطف قوله تعالى ﴿ والمسجد الحرام ﴾ على سبيل الله لأنه ليس بأجنبي محض وقيل هو أيضاً معطوف على صد بتقدير المضاف أى وصد المسجد الحرام ﴿ وإخراج أهله ﴾ وهو النبی صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿ منه ﴾ أى من المسجد الحرام وهو عطف على وكفر به .

﴿ أكبر عند الله ﴾ خبر للأشياء المعدودة أى كبائر السائلين أكبر عند الله مما عتوا بالسؤال عنه وهو ما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن وأفعال يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ والفتنة ﴾ أى ما ارتكبه من

الإخراج والشرك وصد الناس عن الإسلام ابتداء وبقاء ﴿أكبر من القتل﴾
أى أفضح من قتل الحضرمى .

﴿ولا يزلون يقاؤنكم﴾ بيان لاستحكام عداوتهم وإصرارهم على الفتنة
فى الدين ﴿حتى يردوكم عن دينكم﴾ الحق إلى دينهم الباطل وإضافة الدين لآلهم
لتذكير تأكد ما بينهما من العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق ﴿لأن استطاعوا﴾
الإشارة إلى تصلبهم فى الدين وثبات قدمهم فيه كأنه قيل وأنى لهم ذلك ﴿ومن
يرتدد منكم عن دينه﴾ تحذير من الارتداد أى ومن يفعل ذلك بإضلالهم
وإغوائهم ﴿فيعت وهو كافر﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام وفيه ترغيب فى
الرجوع إلى الإسلام بعد الارتداد ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار
اتصافه بما فى حين الصلة من الارتداد والموت عليه وما فيه من معنى البعد
للإشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد والجمع للنظر إلى المعنى أى أولئك المصرون
على الارتداد إلى حين الموت ﴿حبطت أعمالهم﴾ الحسنة التى كانوا عملوها فى
حالة الإسلام حبوطا لا تلافى له قطعا ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ بحيث لم يبق لها
حكم من الأحكام الدنيوية والآخروية ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر سابقا
ولا حقا من القبايح ﴿أصحاب النار﴾ أى ملابسوها وملامزوها ﴿هم فيها خالدون﴾
كدأب سائر الكفرة ﴿لأن الذين آمنوا﴾ نزلت فى أصحاب السرية لما ظن بهم
أنهم إن سلموا من الإثم فلا أجر لهم ﴿والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله﴾
كرر الموصول مع أن المراد بهما واحد لتفخيم شأن الهجرة والجهاد فساكنهما
مستقلان فى تحقيق الرجاء ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة
﴿يرجون﴾ بما لهم من مبادئ الفوز ﴿رحمة الله﴾ أى ثوابه أثبت لهم الرجاء
دون الفوز بالمرجو للإيدان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر وإنما
هو على طريق التفضل منه سبحانه لا لأن فى فوزهم اشتباها ﴿والله غفور﴾
مبالغ فى مغفرة ما فرط من عباده خطأ ﴿رحيم﴾ يحزل لهم الأجر والثواب
والجمل اعتراض بحقق لمضمون ما قبلها .

﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ تواردت فى شأن الخمر أربع آيات نزلت

بمكة (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) فظفك.
المسلمون يشربونها ثم إن عمر ومعاذا ونفر من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.
أجمعين قالوا أفتنا يا رسول الله في الخمر فإنها مذهب للعقل فنزلت هذه الآية
فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا
فسكروا فأما أحدهم فقرا (قل يا أيها الكافرون أعبدا ما تعبدون) فنزلت (لا تقربوا
الصلاة وأنتم سكارى) الآية فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبي.
وقاص في نفر فلما سكروا تفاخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء
للأنصار فضر به أنصاري بلحى بعير فشججه شجوة موضحة فشكا إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت (إنما الخمر والميسر) إلى
قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) فقال عمر رضى الله عنه انتهينا يارب وعن علي رضى
الله عنه لو وقعت قطرة منها في بحر فبليت في مكانها منارة لم أؤذن عليها ولو
وقعت في بحر ثم جف فبليت فيه السكلا لم أرعه وعن ابن عمر رضى الله عنهما.
لو أدخلت أصبعي فيها لم تتبعني وهذا هو الإيمان والتقى حقا رضوان الله تعالى.
عليهم أجمعين . والخمر مصدر خمره أى ستره سمي به من عصير العنب على ما غلى
واشتد وقذف بالزبد لتغطيتها العقل والتمييز كأنها نفس الستر كما سميت سكرا
لأنها تسكرهما أى تحجزهما والميسر مصدر ميمى من يسر كالموعد والمرجع
يقال يسره إذا قرته واشتاقه إما من اليسر لأنه أخذ المال بيسر من غير كد.
ولا^(١) تعب وإما من اليسار لأنه سلب له وصفته أنه كانت لهم عشرة قدام هي
الأزلام والأقلام : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعل
والمنسح والسفيح والوغد كل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويحزونها.
عشرة أجزاء وقيل ثمانية وعشرين إلا الثلاثة وهي المنسح والسفيح والوغد.
للفذ سهم وللتوأم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحلس أربعة وللنافس خمسة والمسبل
سته وللعل سبعة يجعلونها في الرابة وهي خريطة ويضعونها على يدي عدل.

(١) سقطت من ط .

ثم يحلجها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا فنخرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب المعين لها ومن خرج له من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه وكانوا يديعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لا يدخل فيه ويسمونهم البرم وفي حكمه جميع أنواع القهار من النرد والشطرنج وغيرهما وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لما كنتم وهاتين اللعبتين المشؤمتين» فإنهما مياسر المعجم وعن علي كرم الله وجهه أن النرد والشطرنج من الميسر وعن ابن سيرين كل شيء فيه خطر فهو من الميسر . والمعنى يسألونك عن حكمهما وعمما في تعاطيهما .

﴿ قل فيهما لإثم كبير ﴾ أى فى تعاطيهما ذلك لما أن الأول مسببة للعقوب التي هي قطب الدين والدنيا مع كون كل منهما متلفة للأموال (ومنافع للناس) من كسب الطرب واللذة ومصاحبة الفتيان وتشجيع الجبان وتقوية الطبيعة وقرىء لإثم كثير بالمثلثة وفي تقديم بيان لإثمه ووصفه بالسكبر وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الأول ما لا يخفى على ما نطق به قوله تعالى ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ أى المقاسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه وقرىء أقرب من نفعهما .

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون ﴾ عطف على يسألونك عن الخمر إلخ عطف القصة على القصة أى أى شيء ينفقونه قيل هو عمرو بن الجوح أيضا سأل أولا من أى جنس ينفق من أجناس الأموال فلما بين جواز الإنفاق من جميع الأجناس سأل ثانيا من أى أصنافها تنفق أمن خيارها أم من غيرها أو سأل عن مقدار ما ينفقه منه فقيل ﴿ قل العفو ﴾ بالنصب أى ينفقون العفو أو أنفقوا العفو وقرىء بالرفع على أن ما استفهامية وذا موصولة صلتها ينفقون أى الذى ينفقونه العفو قال الواحدى أصل العفو فى اللغة الزيادة وقال القفال العفو ماسل وتيسر عما فضل من الكفاية وهو قول قتادة وعطاء والسدى وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يكسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل

وروى أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ببليضة من ذهب أصابها في بعض المغنم فقال خذها مني صدقة فأعرض عنه فكرر ذلك مرارا حتى قال عليه السلام مغضبا هاتها فأخذها فحذفها عليه حذفاً لو أصابته لشجته ثم قال : « يا أتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس إنما الصدقة عن ظهر غنى »

﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه في الفضل مع كمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الأمور.

المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة وإفراد حرفه الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق أو لعدم القصد إلى تعيين المخاطب كما مر وحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى مثل ذلك البيان.

الواضح الذى هو عبارة عما مضى في أجوبة الأسئلة المارة ﴿ يبين أى لكم الآيات ﴾ الدالة على الأحكام الشرعية المذكورة لا يأتا أدنى منه وقد مر تمام تحقيقه في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وتبين الآيات تنزيلها ظاهرة^(١) الفجوى واضحة المدلول لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مشتبهة ملتبسة وصيغة الاستقبال لا شحضار الصورة ﴿ لعلمكم تتفكرون ﴾ لى تتفكروا فهاوتقفوا على مقاصدها: وتعملوا بما فى تضاعفها وقوله تعالى ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ متعلق إما بيبين أى يبين لكم فيما يتعلق بالدنيا والآخرة الآيات وإما بمحذوف وقع حالا من الآيات أى يبينها لكم كأنه فيهما أى مبينة لأحوالكم المتعلقة بهما وإنما قدم عليه التعليل بمزيد الاعتناء بشأن التفكير وإما بقوله تعالى تتفكرون أى تتفكرون فى الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة فى الأحكام الواردة فى أجوبة الأسئلة المارة فتختارون منها ما يصلح لكم فيهما وتجتنبون عن غيره وهذا التخصيص هو المناسب لمقام تعداد الأحكام الجزئية ويجوز التعميم لجميع الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة بذلك حيثئذ إشارة إلى ما مر من البيانات كلا أو بعضا لا إلى مصدر

(١) فى ط : مبينة.

ما بعده فإنه حينئذ فعل مستقل ليس بعبارة عن تلك البيانات والمراد بالآيات غير ما ذكر والمعنى مثل ذلك البيان الوارد في الأجوبة المذكورة يبين الله لكم الآيات والدلائل لعلكم تتفكرون في أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة وتأخذون بما يصلح لكم وينفعكم فيهما وتذرون ما يضركم حسبما تقتضيه تلك الآيات المبينة .

﴿ ويسألوك عن اليتامى ﴾ عطف على ما قبله من نظيره روى أنه لما نزلت إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً الآية تحامى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أمواهم فشق عليهم ذلك فذكروه للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ قل إصلاح لهم خير ﴾ أى التعرض لأحوالهم وأمواهم على طريق الإصلاح خير من بجانبهم اتقاء .

﴿ وإن تخالطوهم ﴾ وتعاشروهم على وجه ينفعهم ﴿ فإخوانكم ﴾ أى فهم إخوانكم أى فى الدين الذى هو أقوى من العلاقة النسبية ومن حقوق الأخوة ومواجبها المخالطة بالإصلاح والنفع وقد حمل المخالطة على المصاهرة ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ العلم بمعنى المعرفة المتعدية إلى واحد ومن لتضمينته معنى التمييز أى يعلم من يفسد فى أمورهم عند المخالطة أو من يقصد بمخالطته الخيانة والإفساد يميزه من يصلح فيها أو يقصد الإصلاح فيجازى كلا منهما بعمله ففيه وعد ووعد خلا أن فى تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ أى لو شاء أن يعنتكم أو يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهو المشقة لفعل ولم يجوز لكم مداخلتهم ﴿ إن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعز عليه أمر من الأمور التى من جملتها إعانتكم فهو تعامل لمضمون الشرطية وقوله عز وجل ﴿ حكيم ﴾ أى فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية إلى بناء التكليف على أساس الطاقة دليل على ما تفيد كلمة « لو » من انتفاء مقدمها .

﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ أى لا تتزوجوهن وقرىء بضم التاء من الإنكاح
أى لا تزوجوهن من المسلمين ﴿حتى يؤمن﴾ والمراد بهن إما ما يعم الكتابيات
أيضا حسبما يقتضيه عموم التعليلين الآتين لقوله تعالى (وقالت اليهود عزيز ابن الله
وقالت النصارى المسيح ابن الله) إلى قوله (سبحانه عما يشركون) فالآية منسوخة
بقوله تعالى ﴿والحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وأما غير الكتابيات
فهى ثابتة وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبى مرثد
الغزوى إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين وكان يهوى امرأة فى الجاهلية
اسمها عناق فأتته فقالت ألا تخلو فقال ويحك إن الإسلام حال بيننا فقالت
هل لك أن تتزوج بى قال نعم ولكن أرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فاستأمره فاستأمره فنزلت ﴿ولأمة مؤمنة﴾ تعليل للنهى عن مواصلة
وترغيب فى مواصلة المؤمنات صدر بلام الابتداء الشديدة بلام القسم فى إفادة
التأكيد مبالغة فى الحمل على الانزجار وأصل أمة أمو حذفت لامها على غير قياس
وعوض منه تاء التأنيث ودليل كون لامها واو رجوعها فى الجمع قال الكلأبى
أما الإمام فلا يدعونى ولدا إذا تداعى بنو الأموات بالعار
وظهورها فى المصدر يقال هى أمة بينة الأموة وأقرت له بالأموة وقد
وقعت مبتدأ لما فيها من لام الابتداء والوصف أى ولأمة مؤمنة مع ما بها
من خساسة الرق وقلة الخطر ﴿خير﴾ بحسب الدين والدنيا ﴿من مشركة﴾
أى امرأة مشركة مع ما لها من شرف الحرية ورفع الشأن ﴿ولو أعجبتكم﴾
قد مر أن كلمة لو فى أمثال هذه المواضع ليست لبيان انتفاء الشيء فى الماضى
لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذفت ثقة بدلالة ما قبلها عليه مع
انصباب المعنى على تقديره بل هى لبيان تحقيق ما يفيد الكلام السابق من الحكم
على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها
منه وأشدّها منافاة له ليظهر بثبوته معه ثبوته مع ما عداه من الأحوال بطريق
الأولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافى القرى فلأن يتحقق مع غيره أولى
ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة

للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على وجه الإجمال كأنه قيل لو لم تعجبكم ولو أعجبكم والجملة في حين النصب على الحالية من مشركة إذ المسأل ولأمة مؤمنة خير من امرأة مشركة حال عدم إعجابها إياكم بجمالها ومالها ونسبها وغير^(١) ذلك من مبادئ الإعجاب وموجبات الرغبة فيها أى على كل حال وقد اقتصر على ذكر ما هو أشد منافاة للخيرية تنبها على أنها حيث تحققت معه فلا ن تتحقق مع غيره أولى وقيل الواو الحالية وليس بواضح وقيل اعتراضية وليس بسديد والحق أنها عاطفة مستتعبة لما ذكر من الاعتبار اللطيف . نعم يجوز أن تكون الجملة الأولى مع عاطف عليها مستأنفة مقررمة لمضمون ما قبلها فتدبر .

﴿ ولا تشكوا المشركين ﴾ من الإنكاح والمراد بهم الكفار على الإطلاق لما مر أى لا تزوجوا منهم المؤمنات سواء كن حرائر أو إماء ﴿ حتى يؤمنوا ﴾ . ويتركوا ما هم فيه من الكفر ﴿ ولعبد مؤمن ﴾ مع ما به من ذل المملوكية ﴿ خير مشرك ﴾ مع ماله من عز المالكية ﴿ ولو أعجبكم ﴾ بما فيه من دواعي الرغبة فيه الراجعة إلى ذاته وصفاته ﴿ أولئك ﴾ استئناف مقرر لمضمون التعليلين السابقين أى أولئك المذكورون من المشركات والمشركين ﴿ يدعون ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿ إلى النار ﴾ أى إلى ما يؤدى إليها من الكفر والفسوق فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم ﴿ والله يدعو ﴾ بواسطة عباده المؤمنين من يقارنهم ﴿ إلى الجنة والمغفرة ﴾ أى إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين إليهما وتقديم الجنة على المغفرة مع أن حق التخليئة أن تقدم على التخليئة لرعاية مقابلة النار ابتداء ﴿ بإذنه ﴾ متعلق بدعوة أى يدعو ملتبسا بتوفيقه الذى من جلته إرشاد المؤمنين لمقاربتهم إلى الخير ونصيحتهم إياى فهم أحقاء بالمواصلة ﴿ ويبين آياته ﴾ المشتملة على الأحكام الفائقة والحكم الراقية للناس لعلمهم يتذكرون ﴿ أى لى يتذكروا ويعملوا بما فيها فيفوز بما دعوا إليه من الجنة والغفران . هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون ولا

بما فيها فيفوز بما دعوا إليه من الجنة والغفران. هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون وهم المؤمنون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. تشریفاً لهم وأنت خير بأن الضمير في المعطوف على الخبر أعنى قوله تعالى. وبين الله تعالى فيلزم التفكيك وقيل معناه وأى يدعو بأحكامه المذكورة إلى الجنة والمغفرة فإنها موصلة لمن عمل بها إليهما وهذا وإن كان مستديماً لاتحاد مرجع الضميرين السكانيين في الجملتين المتعاطفتين الواقعتين خبراً للمبتدأ لسنن يفوت حينئذ حسن المقابلة بينه وبين قوله تعالى (أولئك يدعون إلى النار) ولعل الطريق الأسلم ما أوضحناه أولاً ولم يراد التذكر ههنا للإشعار بأنه واضح لا يحتاج إلى التفكر كما في الأحكام السابقة .

﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ عطف على ما تقدم من مثله ولعل حكاية هذه .
 الأسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكل عند السؤال عن الخمر وحكاية ما عداها بغير عطف لوقوع كل من ذلك في وقت على حدة والمحيض مصدر من حاض المرأة كالجمء والمبيت . روى أن أهل الجاهلية كانوا لا يسألون المحيض ولا يؤاكلونهم كدأب اليهود والمجوس واستمر الناس على ذلك إلى أن سأل عن ذلك أبو الدرداء في نفر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فنزلت ﴿ قل هو أذى ﴾ أى شيء يستقذر منه ويؤذى من يقربه نفرة منه وكراهة له ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ أى فاجتنبوا مجامعتن في حالة المحيض . قبل أخذ المسلمون بظاهر الاعتزال فأخرجوهن من بيوتهم فقال ناس من الأعراب يا رسول الله البرد شديد والشياب قليلة فإن آثرناهن هلك سائر أهل البيت وإن استأثرنا بهاهلكت المحيض فقال صلى الله عليه وسلم « إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتن إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم » وقيل إن النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالمحيض واليهود كانوا يفرطون في الاعتزال فأمر المسلمون بالاقتصاد بين الأمرين ﴿ ولا تقر بهن حتى يطهرن ﴾ تأكيد لحكم الاعتزال وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن لا عدم القرب منهن وبيان لغايته وهو انقطاع الدم عند أبى حنيفة رحمه الله فإن كان ذلك

في أكثر المدة حل القربان كما انقطع وإلا فلا بد من الاغتسال أو من مضى وقت صلاة وعند الشافعي رحمه الله أن يغتسلن بعد الانقطاع كما تفصح عنه القراءة بالتشديد وينبئ عنه قوله عز وجل ﴿ فإذا تطهرن ﴾ فإن التطهر هو الاغتسال ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ من المأتى الذي حلله لكم وهو القبل ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ مما عسى يبدر ^(١) منهم من ارتكب بعض ما نهوا عنه ومن سائر الذنوب ﴿ ويحب المتطهرين ﴾ المنتزهين عن الفواحش والأقذار وفي ذكر التوبة لشعار بمساس الحاجة إليها بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهر .

﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ أى مواضع حرث لكم شبهن بها لما بين ما يلقى في أرحامهن وبين البذور من المشابهة من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه ﴿ فأتوا حرثكم ﴾ لما عبر عنهم بالحرث عبر عن مجامعتهم بالإتيان وهو بيان لقوله تعالى ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ ﴿ أنى شئتم ﴾ من أى جهة شئتم . روى أن اليهود كانوا يزعمون أن من أتى امرأته في قبلها من دبرها يأتى ولده . أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ أى ما يدخر لكم من الثواب وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند المباشرة ﴿ واتقوا الله ﴾ بالاجتناب عن معاصيه التى من جملة ما عد من الأمور ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ فتعرضوا لتحصيل ما تفتنحون به حينئذ واجتنبوا اقتراف ما تفتضحون به ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين تلقوا ما خوطبوا به من الأوامر والنواهي بحسب القبول والامثال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم أو بكل ما يبشر به من الأمور التى تسر بها القلوب وتقر بها العيون وفيه مع ما فى تلوين الخطاب وجعل المبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم من المبالغة فى تشريف المؤمنين ما لا يخفى ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ قيل نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف أن لا يكلم ختنته بشر بن النعمان ولا يصلح بغيته وبين أخته وقيل فى الصديق رضى الله عنه حين

حلف أن لا ينفق على مسطح لخوضه في حديث الإفك والعرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والفرقة تطلق على ما يعرض دون الشيء فيصير حاجزا عنه كما يقال فلان عرضة للخير وعلى المعرض للأمر كما في قوله :

« فلا تجعلوني عرضة للوائم »

فالمعنى على الوجه الأول لا تجعلوا الله مانعا من الأمور^(١) الحسنة التي تحلفون على تركها وعبر عنها بالإيمان لما يستأبها كما في قوله عليه السلام لعبد الله بن سمره : إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك ، وقوله تعالى : ﴿ أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ عطف بيان لأيمانكم أو بدل منها لما عرفت أنها عبارة عن الأمور المحلوف عليها واللام في لأيمانكم متعلقة بالفعل أو بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض أى لا تجعلوا الله لبركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس عرضة أى برزخا حاجزا بأن تحلفوا به تعالى على تركها أو لا تجعلوه تعالى عرضة أى شيئا يعترض الأمور المذكورة ويحجزها بما ذكر من الحلف به تعالى على تركها وقد جوز أن تكون اللام للتعليل ويتعلق أن تبروا الخ بالفعل أو بعرضة فيسكون الإيمان بمعناها وأنت خير بأنه يؤدى إلى الفصل بين العامل ومعموله بأجنبي وعلى الوجه الثانى لا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم تبتذلونه بكثرة الحلف به ولذلك ذم من نزلت فيه ولا تطع كل حلاف مهين بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها وأن تبروا حينئذ علة للنهى أى إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا لأن الحلاف مجترى على الله سبحانه غير معظم له فلا يكون برا متقيا ثقة بين الناس فيسكون بمعزل من التوسط فى إصلاح ذات البين ﴿ والله سميع ﴾ يسمع أيمانكم ﴿ عليم ﴾ يعلم نياتكم لحافظوا على ما كلفتموه .

﴿ لا يؤاخذكم الله بالغور فى أيمانكم ﴾ الغور ماسقطن من الكلام عن درجة الاعتبار والمراد به فى الإيمان ما لا عقد معه ولا قصد كما ينبى عنه قوله تعالى

(١) فى ط : للأمر .

(ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) وهو المعنى بقوله عز وجل ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ وقد اختلف فيه فعندنا هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه فإنه لا قصد فيه إلى الكذب وعند الشافعي رحمه الله هو قول العرب لا والله وبلى والله بما يؤكدون به كلامهم من غير إخطار الحلف بالبال فالمعنى على الأول لا يؤاخذكم الله أى لا يعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم ظاناً أنه صادق فيه ولكن يعاقبكم بما اقترفته قلوبكم من إثم القصد إلى الكذب فى اليمين وذلك فى الغموس وعلى الثانى لا يلزمكم الكفارة بما لا قصد معه إلى اليمين ولكن يلزمكموها بما نوت قلوبكم وقصدت به اليمين ولم يكن كسب اللسان فقط ﴿والله غفور﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو مع كونه ناشئاً من عدم التثبت وقلة المبالاة ﴿حليم﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة والجملة اعتراض مقرر لمضمون قوله تعالى لا يؤاخذكم الخ وفيه إيدان بأن المراد بالمؤاخذة المعاقبة لا إيجاب الكفارة إذ هى التى يتعلق بها المغفرة والحلم دونه .

﴿الذين يؤلون من نسائهم﴾ الإيلاء الحلف وحقه أن يستعمل بعلى واستعماله بمن لتضمينه معنى البعد أى للذين يحلفون متباعدين من نسائهم ويحتمل أن يراد لهم من نسائهم ﴿تربص أربعة أشهر﴾ كقولك لى منك كذا وقرىء آلوا من نسائهم وقرىء يقسمون من نسائهم والإيلاء من المرأة أن يقول والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعداً على التقييد بالأشهر أو لا أقربك على الإطلاق ولا يكون فيما دون ذلك وحكمه أنه إن فاء إليها فى المدة بالوطء إن أمكن أو بالقول إن عجز عنه صح النوى وحنث القادر ولزمته كفارة اليمين ولا كفارة على العاجز وإن مضت الأشهر^(١) الأربعة بانتهت بتطليقة والتربص الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف أنساعاً أى لهم أن ينتظروا فى هذه المدة من غير مطالبة بئى أو طلاق ﴿فإن فاءوا﴾ أى رجعوا عن

(١) سقطت من ط .

النبيين بالحنث والفاء للتفصيل كما إذا قلت أنا نزيلكم هذا الشهر فإن حمدتكم أئمت عندكم إلى آخره ولإلا لم ألبث إلا ريثما أنحول ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ يغفر للمولى بفيئته التي هي كتوبته إثر حنثه عند تكفيره أو ما قصد بالإيلاء من ضرار المرأة .

﴿وإن عزموا الطلاق﴾ وأجمعوا عليه ﴿فإن الله سميع﴾ بما جرى منهم من الطلاق وما يتعلق به من الدممة والمقاوله التي لا تخلو عنها الحال عادة ﴿عليم﴾ بنياتهم وفيه من الوعيد على الإصرار وترك الفيئة ما لا يخفى ﴿والمطلقات﴾ أي ذوات الأقراء من الحرائر المدخول بهن لما قد بين أن لاعدة على غير المدخول بها وأن عدة من لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل بالأشهر ووضع الحمل وأن عدة الأمة قرآن أو شهران ﴿يتربصن﴾ خبر في معنى الأمر مفيد للتأكيد بإشعاره بأن المأمور به مما يجب أن يتلق بالمسارعة إلى الإتيان به فكأنهم امتثلن بالأمر بالتربص فتخبر به موجودا متحققا وبناءؤه على المبتدأ مفيد لزيادة تأكيد ﴿بأنفسهن﴾ الباء للتعدية أي يقمعنها ويحملنها على ما لا تشتهيه بل يشق عليها من التربص وفيه مزيد حث لمن على ذلك لما فيه من الإنباء عن الاتصاف بما يستنكفن منه من كون نفوسهن طوامع إلى الرجال فيحملن ذلك على الإقدام على الإتيان بما أمر به ﴿ثلاثة قروء﴾ نصب على الظرفية أو المفعولية بتقدير مضاف أي يتربصن مدة ثلاثة قروء أو يتربصن مضي ثلاثة قروء وهو جمع قرء والمراد به الحيض بدليل قوله صلى الله عليه وسلم دعى الصلاة أيام أقرائك، وقوله عليه السلام طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان، وقوله تعالى (واللاتي يئنسن من المحيض من نساءكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر) ولأن المقصود الأصلي من العدة استبراء الرحم ووداره الحيض دون الطهر ويقال أقرأت المرأة إذا حاضت وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) معناه مستقبلات لعدتهن وهي الحيض الثلاث وإيراد جمع الكثرة في مقام جمع القله بطريق الإتساع فإن إيراد كل من الجمعين مكان الآخر شائع ذائع وقرئ ثلاثة قروء بغير همز ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله

في أرحامهن) من الحيض والولد استعجالا للعدة^(١) وإبطالا لحق الرجعة وفيه دليل على قبول قولهن في ذلك نفيا وإثباتا (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله دلالة واضحة أى فلا يجترئن على ذلك فإن قضية الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر الذى يقع فيه الجزاء والعقوبة منافية له قطعاً (وبعولتهن) البعولة جمع بعول وهو فى الأصل السيد المالك والنساء لتأنيث الجمع كما فى الحزونة والسهولة أو مصدر بتقدير مضاف أى أهل بعولتهن أى أزواجهن الذين طلقوهن طلاقاً رجعياً كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة والضمير لبعض أفراد المطلقات (أحق بردهن) إلى ملكهم بالرجعة إليهن (فى ذلك) أى فى زمان التربص وصيغة التفضيل لإفادة أن الرجل إذا أراد الرجعة والمرأة تأبأها وجب إثبات قوله على قولها لأن لها أيضاً حقاً فى الرجعة (إن أرادوا) أى الأزواج بالرجعة (إصلاحاً) لما بينهم وبينهن وإحساناً إليهن ولم يريدوا مضارتهن وليس المراد به شرطية قصد الإصلاح بصحة الرجعة بل هو الحث عليه والزجر عن قصد الضرر (ولهن) عليهم من الحقوق (مثل الذى) لهم (عليهن بالمعروف) من الحقوق التى يجب مراعاتها ويتحتم المحافظة عليها (وللرجال عليهن درجة) أى زيادة فى الحق لأن حقوقهم فى أنفسهن وحقوقهن فى المهر والكفاف وترك الضرر ونحوها أو مزية فى الفضل لما أنهم قوامون عليهن حراس لهن ولما فى أيديهن يشاركونهن فى^(٢) الغرض من الزواج ويستبدون بفضيلة الرعاية والإنفاق (والله عزيز) يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه (حكيم) تنطوى شرائعه على الحكم والمصالح.

(الطلاق) هو بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم والمراد به الرجعى لما أن السابق الأقرب حكمه، ولما روى أنه عليه السلام سئل عن الثالثة فقال عليه السلام أو تسريح بإحسان وهو مبتدأ بتقدير مضاف خبره ما بعده أى عدد الطلاق الذى يستحق الزوج فيه الرد والرجعة حسبما بين آنفاً (مرتان)

(١) فى ط : فى العدة .

(٢) فى ط : فيها هو .

أى اثنان وإيثار ما ورد به النظم الكريم عليه للإيدان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة لادفعة واحدة وإن كان حكم الرد ثابتا حينئذ أيضا ﴿فإمساك﴾ أى فالحكم بعدهما إمساك لمن بالرجعة ﴿بمعروف﴾ أى بحسن عشرة ولطف معاملة ﴿أو تسريح بإحسان﴾ بالطلقة الثالثة كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أو بعدم الرجعة إلى أن تنقضى العدة فتبين وقيل المراد به الطلاق الشرعى وبالمرتين مطلق التكرير لا التثنية بعينها كما فى قوله تعالى (ثم ارجع البصر كرتين) أى كرة بعد كرة والمعنى أن التطلق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع بين الطلقتين أو الثلاث فإن ذلك بدعة عندنا فبقوله تعالى فإمساك الخ حكم مبتدا وتخيير مستأنف والفاء فيه للترتيب على التعليم كبأنه قيل إذا علمتم كيفية التطلق فأمركم أحد الأمرين ﴿ولا يحل لکم أن تأخذوا﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿مما آتیتموهن﴾ أى من الصدقات وتخصيصها بالذكر وإن شاركها فى الحكم سائر أموالهن إما لرعاية العادة أو للتنبیه على أنه إذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما آتوهن بمقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن لا يحل أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى ﴿شيئاً﴾ أى نزرا يسيراً فضلاً عن الكثير وتقديم الظرف عليه لما مر مرارا والخطاب مع الحكام وإسناد الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الأمرون بهما عند المرافعة وقيل مع الأزواج وما بعده مع الحكام وذلك مما يشوش النظم الكريم على القراءة المشهورة ﴿إلا أن يخافا﴾ أى الزوجان وقرىء يظنوا وهو مؤيد لتفسير الخوف بالظن ﴿أن لا يقيما حدود الله﴾ أى أن لا يراعى ما واجب أحكام الزوجية وقرىء يخافا على البناء للفعول وإبدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتمال وقرىء تخافا وتقيما بناء الخطاب ﴿فإن خفتم﴾ أيها الحكام ﴿أن لا يقيما﴾ أى الزوجان ﴿فيما افترضت به﴾ لاعلى الزوج فى أخذ ما افترضت به ولا عليها فى إعطائه إياه ، روى أن جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسى ورأسه شيء والله ما أعيب عليه فى دين ولا خلق ، ولكن أكره الكفر

بعد الإسلام ما أطبقه بغضا لاني رفعت جانب الخباء فرأيتة أقبل في عدة فإذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فنزلت فاختلفت منه بحديقة كان أصدقها إياها .

﴿فإن طلقها﴾ أى بعد الطلقتين السابقتين ﴿فلا تحل﴾ هى ﴿للمن بعد﴾ أى من بعد هذا الطلاق ﴿حتى تنكح زوجا غيره﴾ فإن النكاح أيضا يسند إلى كل منهما وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد والجمهور على اشتراط الإصابة لما روى أن امرأة رفاة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن رفاة طلقني فبت طلاق وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإن مامعه مثل هذبة الثوب فقال صلى الله عليه وسلم تريد أن ترجعي إلى رفاة قالت نعم قال صلى الله عليه وسلم لا إلا أن تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك وبمثله تجوز الزيادة على الكتاب وقيل النكاح بمعنى الوطء والعقد مستفاد من لفظ الزوج^(١) والحكمة من هذا التشريع الردع عن المسارعة إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل مكروه عندنا، ويروى عدم الكراهة فيما لم يكن الشرط مصححا به وفاسد عند الأكثرين لقوله صلى الله عليه وسلم لعن الله المحلل والمحلل له ﴿فإن طلقها﴾ أى الزوج الثانى ﴿فلا جناح عليهما﴾ أى على الزوج الأول والمرأة ﴿أن يتراجعا﴾ أن يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ التى أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق ولا وجه لتفسير الظن بالعلم لما أن العواقب غير معلومة ولأن أن الناصبة للتوقع المنافى للعلم ولذلك لا يكاد يقال علمت أن يقوم زيد .

﴿وتلك﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة إلى هنا ﴿حدود الله﴾ أى أحكامه المعينة المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿يبينها﴾ بهذا البيان اللائق أو سيبينها فيما سيأتى بناء على أن بعضها يلحقه زيادة كشف وبيان بالكتاب

(١) فى ١١ : الزواج .

والسنة والجملة خبر ثان عند من يجوز كونه جملة كما في قوله تعالى (فإذا هي حية تسعى) أو حال من حدود الله والعامل معنى الإشارة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى يفهمون وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما أنهم المنتفعون بالبيان أو لأن ما سيلحق بعض النصوص من البيان لا يقف عليه إلا الراستخون في العلم ﴿ وإذا طلقت النساء فبلغن أجلهن ﴾ أى آخر عدتهن فإن الأجل كما ينطلق على المدة ينطلق على منتهائها والبلوغ هو الوصول إلى الشيء وقد يقال للدنو منه اتساعا وهو المراد هنا لقوله عز وجل ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ إذ لا إمكان للإمساك بعد تحقق بلوغ الأجل أى فراجعوهن بغير ضرار أو خلوهن حتى ينقضى أجلهن بإحسان من غير تطويل وهذا كما ترى إعادة للحكم في بعض صورته اعتناء بشأنه ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا ﴾ تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف وتوضيح لمعناه وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه أى لا تراجعوهن لإرادة الإضرار بهن ، كان يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء الأجل يراجعها لالرغبة فيها بل ليطول عليها العدة فنهى عنه بعد ما أمر بضده لما ذكر وضرارا نصب على العلية أو الحالية أى لا تمسكوهن للمضارة أو مضارين واللام في قوله ﴿ لتعتدوا ﴾ متعلقة بضرارا أى لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أى ما ذكر من الإمساك المؤدى إلى الظلم وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلته في الشر والفساد ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ في ضمن ظلمه لمن بتعريضها للعقاب ﴿ ولا تتخذوا آيات الله ﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة أو جميع آياته وهى داخلة فيها دخولا أوليا ﴿ هزوا ﴾ أى مهزوا بها بأن تعرضوا عنها وتهاونوا في المحافظة على ما في تضاعيفها من الأحكام والحدود من قولهم لمن لم يجد في الأمر : أنت هازى ، كأنه نهى عن الهزؤ بها وأريد ما يستلزمه من الأمر بضده أى جدوا في الأخذ بها والعمل بما فيها وارعوها حق رعايتها وإلا فقد أخذتموها هزؤا ولعبا ويجوز أن يراد به النهى عن الإمساك ضرارا فإن الرجعة بلا رغبة فيها عمل بموجب آيات الله تعالى بحسب

الظاهر دون الحقيقة وهو معنى الهزؤ وقيل كان الرجل ينكح ويطلق ويعتق ثم يقول إنما كنت ألعب فنزلت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث جدهن جد وهن لمن جد النكاح والطلاق والعتاق، ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ حيث هداكم إلى ما فيه سعادosكم الدينية والدنيوية أى قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من نعمة الله أى كائنة عليكم أو صفة لها على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائنة عليكم ويجوز أن يتعلق بنفسها إن أريد بها الإناعم لأنها اسم مصدر كنبات من أنبت ولا يقدح فى عمله تاء التأنيث لأنه معبنى عليها كما فى قوله :

فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا كالموارد

﴿وما أنزل عليكم﴾ عطف على نعمة الله وما موصولة حذف عائدها من الصلة ومن فى قوله عز وجل ﴿من الكتاب والحكمة﴾ بيانية أى من القرآن والسنة أو القرآن الجامع للعنوانين على أن العطف لتغاير الوصفين كما فى قوله
* إلى الملك القرم وابن الهمام *

وفى إيهامه أولاً ثم بيانه من التفتيح ما لا يخفى وفى إفراذه بالذكر مع كونه أقول ما دخل فى النعمة المأمور بذكرها لإبانه بخطره ومبالغة فى البعث على مراعاة ما ذكر قبله من الأحكام ﴿يعظكم به﴾ أى بما أنزل حال من فاعل أنزل أو من مفعوله أو منهما معا ﴿واتقوا الله﴾ فى شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة ﴿واعلموا أن الله بكل شىء عليم﴾ فلا يخفى عليه شىء مما تأتون وما تذكرون فىؤاخذكم بأفانين العقاب .

﴿ولإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن﴾ بيان لحكم ما كانوا يفعلونه عند بلوغ الأجل حقيقة بعد بيان حكم ما كانوا يفعلونه عند المشاركة إليه والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها ولم يخرج والمراد المنع والخطاب إما للأولياء لما روى أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته جملاً أن ترجع إلى زوجها الأول بالنكاح وقيل نزلت فى

جابر بن عبد الله حين عضل ابنة عم له وإسناد التطليق إليهم لتسببهم فيه كما ينهى عنه تصديهم للعضل ولعل التعرض لبلوغ الأجل مع جواز الزوج بالزوج الأول قبله أيضا لوقوع العضل المذكور حينئذ وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها وإلا لما احتيج إلى نهى الأولياء عن العضل لما أن النهى لدفع الضرر عنهن فإنهن وإن قدرن على تزويج أنفسهن لكنهن يحتزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة ، وإما للأزواج حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم ولا يدعونهن يتزوجن ظلما وقسرا لحمة الجاهلية ، وإما للناس كافة فإن إسناد ما فعله واحد منهم إلى الجميع شائع مستفيض والمعنى إذا وجد فيكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الأولياء أو من جهة الأزواج أو من غيرهم وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الغائلة ﴿ أن ينكحن ﴾ أى من أن ينكحن فحمله النصب عند سيديويه والفراء والجر عند الخليل على الخلاف المشهور وقيل هو بدل اشتغال من الضمير المنصوب في تعضلوهم وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ﴿ أزواجهن ﴾ إن أريد بهن المطلقون فالزوجة إما باعتبار ما كان وإما باعتبار ما يكون وإلا فباعتبار الأخير ﴿ إذ تراضوا ﴾ ظرف للتعضلو وصيغة التذكير باعتبار تغليب الخطاب على النساء والتقيد به لأنه المعتاد لا لتجوز المنع قبل تمام التراضى وقيل ظرف لأن ينكحن وقوله تعالى ﴿ بينهم ﴾ ظرف للتراضى مفيد لرسوخه واستحكامه ﴿ بالمعروف ﴾ الجميل عند الشرع المستحسن عند الناس والباء إما متعلقة بمحذوف حال من فاعل تراضوا أو نعت^(١) لمصدر محذوف أى تراضيا كائنا بالمعروف ، وإما بتراضوا بما يحسن في الدين والمروءة وفيه إشعار بأن المنع من الزوج بغير كفؤ أو بما دون مهر المثل ليس من باب العضل .

(١) في ط : وقع حالا أو نعتا .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما فصل من الأحكام وما فيه من البعد لتعظيم المشار إليه والخطاب لجميع المكلفين كما فيما بعده والتوحيد إما باعتبار كل واحد منهم ، وإما بتأويل القبيل والفريق ، وإما لأن الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين أو للرسول صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لا يكاد يعرفه كل واحد ﴿ يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ فيسارع إلى الامتثال بأوامره ونواهيه لإجلاله وخوفا من عقابه ، وقوله تعالى منكم إما متعلق بكان عند من يجوز عملها في الظروف وشبهها ، وإما بمحذوف وقع حالا من فاعل يؤمن أى كائننا منكم ﴿ ذلكم ﴾ أن الاتعاظ به والعمل بمقتضاه ﴿ أذكى لكم ﴾ أى أنمى وأنفع ﴿ وأطهر ﴾ من أدناس الآثام وأوضار الذنوب ﴿ والله يعلم ﴾ ما فيه من الزكاء والطهر ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك أو والله يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع التي من جعلتها ما بينه ههنا وأنتم لا تعلمونها فدعوا رأيكم وامثلوا أمره تعالى ونهيه في كل ما تأتون وما تذكرون .

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ شروع في بيان الأحكام المتعلقة بأولادهن خصوصا واشتراكا وهو أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيق مضمونه ومعناه الذنب أو الوجوب إن خص بمادة عدم قبول الصبي لدى الغير أو فقدان الظاهر أو عجز الوالد عن الاستئجار والتعبير عنهن بالعنوان المذكور لهن عطفهن نحو أولادهن والحكم عام للبطلقات وغيرهن وقيل خاص بهن إذ الكلام فيهن ﴿ حولين كاملين ﴾ التأكيد بصفة السكال لبيان أن التقدير تحقيق لا تقريبي مبنى على المسامحة المعتادة ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ بيان لمن يتوجه إليه الحكم أى ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة وفيه دلالة على جواز النقص وقيل اللام متعلقة بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة والأم ترضع له كما يقال أرضعت فلانة لفلان ولده ﴿ وعلى المولود له ﴾ أى الوالد فإن الولد يولد له وينسب إليه وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضى لوجوب الإرضاع ومؤنة المرضعة عليه ﴿ رزقهن وكسوتهن ﴾ أجرة لهن واختلف في

استهجار الأم وهو غير جائز عندنا مادامت في النكاح أو العدة جائز عند الشافعي. رحمه الله ﴿ بالمعروف ﴾ حسبما يراه الحاكم وينبغي به وسعه ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾ تعليل لإيجاب المأون بالمعروف أو تفسير للمعروف وهو نص على أنه تعالى لا يكلف العبد مالا يطيقه وذلك لا ينافي إمكانه .

﴿ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ﴾ تفصيل لما قبله وتقرير له. أي لا يكلف كل واحد منهما الآخر مالا يطيقه ولا يضاره بسبب ولده وقرىء لا تضار بالرفع بدلا من لا تكلف وأصله على القراءتين لا تضار بالكسر على البناء للمفعول وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضار والباء من صلته. أي لا يضر الوالدان بالولد فيفطر في تعهده ويقصر فيها ينبغي له وقرىء لا تضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضاره يضره وإضافة الولد إلى كل منهما لاستعطافهما إليه وللتنبية على أنه جدير بأن ينفقا على استصلاحه ولا ينبغي أن يضرأ به أو يتضارا بسببه .

﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ عطف على قوله تعالى (وعلى المولود له رزقهن) الخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض والمراد به وارث الصبي بمن كان ذارحم محرم منه وقيل عصباته وقال الشافعي رحمه الله هو وارث الأب وهو الصبي أي تمان المرضعة من ماله عند موت الأب ولا نزاع فيه وإنما الكلام فيها إذا لم يكن للصبي مال وقيل الباقي من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام واجعله الوارث منا وذلك إشارة إلى ما وجب على الأب من الرزق والكسوة ﴿ فإن أراد ﴾ أي الوالدان ﴿ فصلا ﴾ أي فطاما عن الرضاع قبل تمام الحولين والتسكير للإيدان بأنه فصل غير معتاد ﴿ عن تراض ﴾ متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أي صادرا عن تراض ﴿ منهما ﴾ أي من الوالدين لا من أحدهما فقط. لاحتمال إقدامه على ما يضر بالولد بأن تمل المرأة الإرضاع ويبخل الأب. بإعطاء الأجرة ﴿ وتشاور ﴾ في شأن الولد وتفحص عن أحواله وإجماع منهما على استحقاقه للقطام والتشاور من المشورة وهي استخراج الرأي من شرت. العسل إذا استخرجته وتسكيرهما للتفخيم ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ في ذلك لما أن تراضيهما إنما يكون بعد استقرار رأيهما أو اجتهداهما على أن صلاح الولد

في الفطام وقبلما يتفقا على الخطأ ﴿ وإن أردتم ﴾ بيان لحكم عدم انفاقهما على الفطام والالتماس إلى خطاب الآباء لجذبهم إلى الامتنال بما أمروا به ﴿ أن تسترضعوا أولادكم ﴾ بحذف المفعول الأول استغناء عنه أى أن تسترضعوا المراضع لأولادكم يقال أرضعت المرأة الصبي واسترضعتها إياه وقيل إنما يتعدى إلى الثانى بحرف الجر يقال استرضعت المرأة للصبي أى أن تسترضعوا المراضع لأولادكم لحذف حرف الجر أيضاً كما فى قوله تعالى (وإذا كالوهم) أى كالواهم ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أى فى الاسترضاع وفيه دلالة على أن اللب أن يسترضع للولد ويمنع الأم من الإرضاع ﴿ إذا سلمتم ﴾ أى إلى المراضع ﴿ ما آتيتن ﴾ أى ما أردتم إيتاءه كما فى قوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) وقرئ ما آتيتن من أتى إليه إحسانا إذا فعله وقرئ ما آتيتن أى من جهة الله عز وجل كما فى قوله تعالى (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وفيه مزيد بعث لهم إلى التسليم ﴿ بالمعروف ﴾ متعلق بسلمتم أى بالوجه المتعارف المستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف للدلالة المذكور عليه وليس التسليم بشرط للصحة والجواز بل هو نذب إلى ما هو الأليق والأولى فإن المراضع إذا أعطين ما قدر لهن ناجز آيدا بيد كان ذلك أدخل فى استصلاح شئون الأطفال ﴿ واتقوا الله ﴾ فى شأن مراعاة الأحكام المذكورة ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم بذلك وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى .

﴿ والذين ﴾ على حذف المضاف أى وأزواج الذين ﴿ يتوفون منكم ﴾ أى تفيض أرواحهم بالموت فإن التوفى هو القبض يقال توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى أخذته وقبضته والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين ﴿ ويذرون أزواجاً تربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ أو على حذف العائد إلى المبتدأ فى الخبر أى يتربصن بعدهم كما فى قولهم: السمن منوان بدرهم أى منوان منه وقرئ يتوفون بفتح الياء أى يستوفون آجالهم وتأنيث العشر

باعتبار الليالي لأنها غرر الشهور والأيام ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير في مثله أصلاً حتى أنهم يقولون صمت عشراً ومن البين في ذلك قوله تعالى (إن لبئثم إلا عشراً) ثم (إن لبئثم إلا يوماً) ولعل الحكمة في هذا التقدير أن الجنين إذا كان ذكراً يتحرك غالباً لثلاثة أشهر وإن كان أنثى يتحرك لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيد عليه الأيام^(١) العشر استظهاراً لإذرباً تضعف الحركة فلا يحس بها وعموم اللفظ يقتضى تساوى المسئلة والكتابية والحرية والأمة في هذا الحكم ولكن القياس يقتضى التنصيف في الأمة وقوله عز وجل وأولات الأحمال خسن الحامل منه وعن علي وابن عباس رضى الله عنهم أنها تعتد بأبعد الأجلين احتياطاً ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أى انقضت عدتهن ﴿ فلا جناح عليهن ﴾ أيها الحكم والمسلمون جميعاً ﴿ فيما فعلن في أنفسهن ﴾ من التزين والتعرض للخطاب وسائر ما حرم على المعتدة ﴿ بالمعروف ﴾ بالوجه الذى لا ينكره الشرع وفيه إشارة إلى أنهم لو فعلن ما ينكره الشرع فعليهم أن يكفوهن عن ذلك وإلا فعليهم الجناح ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به .

﴿ ولا جناح عليكم ﴾ خطاب للكل ﴿ فيما عرضتم به ﴾ التعريض والتلويح لإبهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً كقول السائل جئتكم لأسلم عليكم وأصله إمالة الكلام عن نهجه إلى عرض منه أى جانب والكنائية هى الدلالة على الشئ بذكر لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وكثير الرماد للمضياف ﴿ من خطبة النساء ﴾ الخطبة بالسكسر كالقعدة والجلسة ما يفعله الخاطب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل فقليل هى مأخوذة من الخطب أى الشأن الذى له خطر لما أنها شأن من الشئون ونوع من الخطوب وقيل من الخطاب لأنها نوع مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة والمراد بالنساء المعتدات للوفاة والتعريض لخطبتهن أن يقول

(١) سقطت من ط .

لها إنك جميلة أو صالحة أو نافعة ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك مما يؤهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح ﴿أو أكنتم في أنفسكم﴾ أي أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن إظهار الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ لهن على قلة التثبت ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ استدراك مخوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحاً بل اكنتموا بما رخص لكم من التعريض والتعبير عن النكاح بالسر لأن مسبته الذي هو الوطء مما يسره وإيثاره على اسمه للإيذان بأنه مما ينبغي أن يسره ويكنتم وحمله على الوطء ربما يؤهم الرخصة في المحظور الذي هو التصريح بالنكاح وقيل انتصاب سرا على الظرفية أي لا تواعدوهن في السر على أن المراد بذلك المواعدة بما يستهجن وفيه ما فيه ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ استثناء مفرغ مما يدل عليه النهي أي لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكورة شرعاً وهي ما يكون بطريق التعريض والتلويح أو إلا مواعدة بقول معروف أو لا تواعدوهن بشيء من الأشياء إلا بأن تقولوا قولاً معروفاً وقيل هو استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لأدائه إلى جعل التعريض موعوداً وليس كذلك ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ من عزم الأمر إذا قصده قصداً جازماً وحقيقته القطع بدليل قوله عليه السلام لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل وروى لمن لم يبيت الصيام والنهي عنه للمبالغة في النهي عن مباشرة عقد النكاح أي لا تعزموا عقدة النكاح ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أي (تبلغ) ^(١) العدة المكتوبة بالمفروضة آخرها وقيل معناه لا تقطعوا (على أنفسكم) ^(٢) عقدة النكاح أي لا تبرموها ولا تلزموها ولا تقدموا عليها فيكون نهيها عن نفس الفعل لا عن قصده .

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ من ذوات الصدور التي من جملتها العزم على ما نهيت عنه ﴿فاحذروه﴾ بالاجتناب عن العزم ابتداء أو إقلاعا عنه بعد تحققه ﴿واعلموا أن الله غفور﴾ يغفر لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى ﴿حليم﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلوا بتأخيرها على أن ما نهيت عنه من العزم ليس مما يستتبع المؤاخظة وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإدخال الروعة ﴿لا جناح عليكم﴾ أي لا تبعث من مهر وهو الأظهر وقيل من وزر إذ لا بدعة في الطلاق قبل المسيس وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر النهي عن الطلاق فظان أن فيه جناحا فنفي ذلك ﴿إن طالقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ أي ما لم تجمعهن وقرىءن تماسوهن بضم التاء في جميع المواقع أي مدة عدم مساسكم إياهن على أن ما مصدرية ظرفية بتقدير المضاف ونقل أبو البقاء أنها شرطية بمعنى إن فيكون من باب اعتراض الشرط على الشرط فيكون الثاني قيما للأول كما في قولك إن تأتني إن تحسن إلى أكرمك أي إن تأتني محسنا إلى والمعنى إن طلقتموهن غير ماسين لهن وهذا المعنى أقعد من الأول لما أن ما الظرفية إنما يحسن موقعها فيما إذا كان المظروف أمرا ممتدا منطبقا على ما أضيف إليها من المدة أو الزمان كما في قوله تعالى (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) وقوله تعالى (وكنتم عليهم شهيدا ما دمت فيهم) ولا يخفى أن التطليق ليس كذلك وتعليق الظرف بنفي الجناح ربما يوهم إمكان المسيس بعد الطلاق فالوجه أن يقدر الحال مكان الزمان والمدة ﴿أو تفرضوا لهن فريضة﴾ أي إلا أن تفرضوا لهن أو حتى تفرضوا لهن عند العقد مهرا على أن فريضة فعيلة بمعنى مفعول والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية وانتصابه على المفعولية ويجوز أن يكون مصدرا صيغة وإعرابا والمعنى أنه لا تبعث على المطلق بمطالبة المهر أصلا إذا كان الطلاق قبل المسيس على كل حال إلا في حال تسمية المهر فإن عليه حينئذ نصف المسمى وفي حال عدم تسميته عليه المتعة لا نصف مهر المثل

وأما إذا كان بعد المسيس^(١) فعليه في صورة التسمية تمام المسعى وفي صورة عدمها تمام مهر المثل وقيل كلمة أو عاطفة لمدخولها على ما قبلها من الفعل المجزوم على معنى ما لم يكن منكم مسيس ولا فرض مهر .

﴿ ومتعوهن ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فطلقوهن . ومتعوهن والحكمة في إيجاب المتعة جبر لإحاش الطلاق وهى درع وملحفة وخمار على حسب الحال كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ أى ما يليق بحال كل منهما وقرىء بسكون الدال وهى جملة مستأنفة لاجل لها من الإعراب مبينة لمقدار المتعة بالنظر إلى حال المطلق إيسارا وإقتارا أو حال من فاعل متعوهن بحذف الرابط أى على الموسع منكم الخ أو على جعل الألف واللام عوضا من المضاف إليه عند من يجوز على موسعكم الخ وهذا إذا لم يكن مهر مثلها أقل من ذلك فإن كان أقل فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ولا ينقص عن خمسة دراهم ﴿ متاعا ﴾ أى تمتيعا ﴿ بالمعروف ﴾ أى بالوجه الذى تستحسنه الشريعة والمروءة ﴿ حقا ﴾ صفة لمتاعا أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا ﴿ على المحسنين ﴾ أى الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال أو إلى المطلقات بالتتميع بالمعروف وإنما سموا محسنين اعتبارا للبخاشة وترغيبا وتحريضا .

﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن ﴾ قبل ذلك ﴿ فريضة ﴾ أى وإن طلقتموهن من قبل المسيس حال كونكم مسمين لهن فيما سبق أى عند النكاح مهرا على أن الجملة حال من فاعل طلقتموهن ويجوز أن تكون حالا من مفعوله لتحقيق الرابط بالنسبة إليهما ونفس الفرض من المبني للفاعل أو للمفعول وإن لم يقارن حالة التطليق لكن انصاف المطلق بالفارضية فيما سبق بما لا ريب فى مقارنته لها وكذا الحال فى انصاف المطلقة بكونها مفروضا لها فيما سبق .

﴿ فنصف ما فرضتم ﴾ أى فلهن نصف ما سميت لهن من المهر أو فالواجب

عليكم ذلك وهذا صريح في أن المنفي الصورة السابقة إنما هو تبعة المهر وقرىء بالنصب أى فادوا نصف ما فرضتم ولعل تأخير حكم التسمية مع أنها الأصل في العقد والأكثر في الوقوع لما أن الآية الكريمة نزلت في أنصاري تزوج امرأة من بني حنيفة وكانت مفوضة فطلقها قبل الدخول بها فتخاصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام عند العلم بالأحوال لا شيء له متعها بقلنسوتك ﴿لأن يعفون﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى فلهن نصف المفروض معيناً في كل حال إلا حال عفوهن فإنه يسقط ذلك حينئذ بعد وجوبه وظاهر الصيغة في نفسها يحتمل التذكير والتأنيث وإنما الفرق في الاعتبار والتحقيق فإن الواو في الأولى ضمير والنون علامة الرفع وفي الثانية لام الفعل والنون ضمير والفعل مبنى ولذلك لم يؤثر فيه أن تأثيره فيما عطف على محله من قوله تعالى ﴿أو يعفو﴾ بالنصب وقرىء بسكون الواو ﴿الذي بيده عقدة النكاح﴾ أى يترك الزوج المالك لعقده وحله ما يعود إليه من نصف المهر الذي ساقه إليها كاملاً على ما هو المعتاد تسكرماً فإن ترك حقه عليها عفواً^(٢) بلا شبهة أو سمي ذلك عفواً في صورة عدم السوق مشاكلة أو تغليباً لحال السوق على حال عدمه فرجع الاستثناء حينئذ إلى منع الزيادة في المستثنى منه كما أنه في الصورة الأولى إلى منع النقصان فيه أى فلهن هذا القدر بلا زيادة ولا نقصان في جميع الأحوال إلا في حال عفوهن فإنه حينئذ لا يكون لهن القدر المذكور بل ينتفى ذلك أو ينحط أو في حال عفو الزوج فإنه حينئذ يكون لهن الزيادة على ذلك القدر هذا على التفسير الأول وأما على التفسير الثاني فلا بد من المصير إلى جعل الاستثناء منقطعاً لأن في صورة عفو الزوج لا يتصور الوجوب عليه هذا عندنا وفي القول القديم للشافعي رحمه الله أن المراد عفو الولي الذي بيده عقدة نكاح الصغيرة وهو ظاهر المأخذ خلا أن الأول أنسب بقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا﴾

(١) في ط : كما يلوح عند إظهار الألف عند . (٢) في ط : عفو .

﴿أقرب للتقوى﴾ إلى آخره فإن إسقاط حق الصغيرة ليس في شيء من التقوى وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول وأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو وقرىء بالياء ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ أى لا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض كالشيء المنسى وقرىء بكسر الواو والخطاب في الفعلين للرجال والنساء جميعاً بطريق التغليب ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم من التفضل والإحسان .

﴿حافظوا على الصلوات﴾ أى داوموا على أدائها لأوقاتها من غير إخلال بشيء منها كما تنبى عنه صيغة المفاعلة المفيدة للبالغة ولعل الأمر بها في تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد قبل الإتمام للإيذان بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابة عليها من غير اشتغال بشأنهم وبشأن أنفسهم أيضاً كما يفصح عنه الأمر بها في حالة الخوف ولذلك أمر بها في خلال بيان ما يتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابهة الأخذ بعضها بحجزة بعض ﴿والصلوة الوسطى﴾ أى المتوسطة بينها أو الفضلى منها وهى صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملائكة الله تعالى بيوتهم نارا وقال عليه السلام إنها الصلاة التى شغل عنها سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وفضلها لكثرة اشتغال الناس فى وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار حينئذ وقيل هى صلاة الظهر لأنها فى وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصليها بالهاجرة فكانت أفضلها لقوله عليه السلام أفضل العبادات أحزها وقيل هى صلاة الفجر لأنها بين صلاتى الليل والنهار والواقعة فى الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة كصلاة العصر وقيل هى صلاة المغرب لأنها متوسطة من حيث العدد ومن حيث الوقوع بين صلاتى النهار والليل وتر النهار ولا تنقص فى السفر وقيل هى صلاة العشاء لأنها بين الجريتين الواقعتين فى طرفى الليل وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه السلام كان يقرأ والصلاة الوسطى وصلاة العصر فتكون حينئذ إحدى الأربع قد خصت بالذكر مع العصر

لانفرادها بالفضل وقرىء وعلى الصلاة الوسطى وقرىء بالنصب على المدح ، وقرىء الوسطى ﴿وقوموا لله﴾ أى فى الصلاة ﴿قانتين﴾ ذا كرين له تعالى فى القيام لأن القنوت هو الذكر فيه وقيل هو كمال الطاعة وإتمامها بغير إخلال بشيء من أركانها وقيل خاشعين ، وقال ابن المسيب المراد به القنوت فى الصبح .

﴿فإن خفتم﴾ أى من عدو أو غيره ﴿فرجالاً﴾ جمع راجل كقيام وقائم أو رجل بمعنى راجل وقرىء بضم الراء مع التخفيف وبضمها مع التشديد أيضاً وقرىء فرجلاً أى راجلاً ﴿أو ركباناً﴾ جمع راكب أى فصلوا راجلين أو راكبين حسبما يقتضيه الحال ولا تخلوا بها ما أمكن الوقوف فى الجملة وقد جوز الشافعى رحمه الله أداءها حال المسابقة أيضاً ﴿فإذا أمنتم﴾ بزوال الخوف ﴿فاذكروا لله﴾ أى فصلوا صلاة الأمن وعبر عنها بالذكر لأنه معظم أركانها ﴿كما علمكم﴾ متعلق بمحذوف وقع وصفا لمصدر محذوف أى ذكرنا كما علمكم أى كتعليمه إياكم ﴿مالم تكونوا تعلمون﴾ من كيفية الصلاة والمراد بالتشبيه أن تكون الصلاة المؤداة موافقة لما عليه الله تعالى وإيرادها بذلك العنوان لتذكير النعمة أو اشكروا الله تعالى شكراً يوازى تعليمه إياكم مالم تكونوا تعلمونه من الشرائع والأحكام التى من جملتها كيفية إقامة الصلاة حالتى الخوف والأمن . هذا وفى إيراد الشرطية الأولى بكلمة إن المفيدة لمشكوكية وقوع الخوف وندرته وتصدير الشرطية الثانية بكلمة إذا المنتمية عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز فى جواب الأولى والإطناب فى جواب الثانية المبنيين على تنزيل مقام وقوع المسأور به فيهما منزلة مقام وقوع الأمر تنزيلاً مستدعياً لإجراء مقتضى المقام الأول فى كل منهما مجرى مقتضى المقام الثانى من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولى الأبصار ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ عود إلى بيان بقية الأحكام المفصلة فيما سلف لإثر بيان أحكام توسطت^(١) بينهما لما أشير إليه من الحكمة الداعية إلى

فى ط : وسطت .

ذلك ﴿وصية لأزواجهم﴾ أى يوصون أوليوصوا أو كتب الله عليهم وصية ويؤيد هذا قراءة من قرأ كتب عليكم الوصية لأزواجكم وقرىء بالرفع على تقدير مضاف فى المبتدأ أو الخبر أى حكم الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم أو كتب عليهم وصية أو عليهم وصية وقرىء متاع لأزواجهم بدل وصية ﴿متاعاً إلى الحول﴾ منصوب بيوصون لأن أضمرته وإلا فبالوصية أو بمتاع على القراءة الأخيرة ﴿غير إخراج﴾ بدل منه أو مصدر مؤكد كما فى قولك هذا القول غير ما تقول أو حال من أزواجهم أى غير مخرجات والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يمتنع بعدهم حولاً بالنفقة والسكنى وكان ذلك أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله تعالى (أربعة أشهر وعشراً) فإنه وإن كان متقدماً فى التلاوة فهو (١) متأخر فى النزول وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن وكذلك السكنى عندنا وعند الشافعى هى باقية ﴿فإن خرجن﴾ عن منزل الأزواج باختيارهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الأئمة ﴿فما فعلن فى أنفسهن من معروف﴾ لا ينسكه الشرع كالتزين والتطييب وترك الحداد والتعرض للخطاب وفيه دلالة على أن المحظور إخراجها عند إرادة القرار وملازمة مسكن الزوج والحداد من غير أن يجب عليها ذلك وأنها كانت مخيرة بين الملازمة مع أخذ النفقة وبين الخروج مع تركها ﴿والله عزيز﴾ غالب على أمره يعاقب من خالفه ﴿حكيم﴾ يراعى فى أحكامه مصالح عباده ﴿وللمطلقات﴾ سواء كن مدخولاً بهن أولاً ﴿متاع﴾ أى مطلق المتعة الشاملة الواجبة والمستحبة وأوجبها سعيد بن جبير وأبو العالية والزهرى للكل وقيل المراد بالمناع نفقة العدة وقيل اللام للعد والمعاد غير المدخول بهن والتكرير للتأكيد ﴿بالمعروف﴾ شرعاً وعادة ﴿حقاً على المتقين﴾ أى مما ينبغى ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك البيان الواضح ﴿يبين الله لكم آياته﴾

(١) سقطت من ط .

الدالة على أحكامه التي شرعها لعباده ﴿لعلكم تعقلون﴾ لكي تفهموا ما فيها وتعملوا بموجبها ﴿ألم تر﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الأخبار من شأنهم البديع فإن سماعهم لها بمنزلة الرؤية النظرية أو العلمية أو لكل أحد من له حظ من الخطاب إيدانا بأن قصتهم من الشهرة والشيوع بحيث يحق لكل أحد أن يحمل على الإقرار برويتهم وسماع قصتهم ويعجب بها وإن لم يكن ممن رآهم أو سمع بقصتهم فإن هذا الكلام قد جرى مجرى المثل في مقام لما أنه شبه حال غير الرائي لشيء عجيب بحال الرائي له بناء على ادعاء ظهور أمره وجلاته بحيث استوى في إدراكه الشاهد والغائب ثم أجرى الكلام معه كما يجري مع الرائي قصداً إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب وتعدية الرؤية إلى في قوله تعالى ﴿إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ على تقدير كونها بمعنى الأنصار باعتبار معنى النظر على تقدير كونها إدراكاً قلبياً لتضمين معنى الوصول والإلتقاء على معنى ألم ينته علمك إليهم ﴿وهم ألوف﴾ أى ألوف كثيرة قيل عشرة آلاف وقيل ثلاثون وقيل سبعون ألفاً والجملة حال من فاعل خرجوا ^(۱) وقوله عز وجل ﴿حذر الموت﴾ مفعول له . روى أن أهل دراورد ^(۲) قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا منها هاربين فأماهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا ألا منمر من حكم الله عز سلطانه وقضاؤه وقيل مر عليهم حز قيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقيه وأصابه تعجبا مما رأى من أمرهم فأوحى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله فنادى فإذا هم قيام يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت وقيل هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذرا من الموت فأماهم الله تعالى ثمانية أيام ثم أحياهم . وقوله عز وجل :

﴿فقال لهم الله موتوا﴾ إما عبارة عن تعلق إرادته تعالى بموتهم دفعة ،

(۱) في ط . من ضمير خرجوا .

(۲) في ط . داوردان .

ولما تمثيل لإماتته تعالى إياهم ميتة نفس واحدة في أقرب وقت وأدناه وأسرع زمان وأوحاه بأمر مطاع لما أمر مطيع كما في قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ، ﴿ ثم أحياهم ﴾ عطف لما على مقدر يستدعيه المقام أى فأتوا ثم أحياهم وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته ولما على قال لما أنه عبارة عن الإماتة وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لأسباب الشهادة وأن الموت حيث لم يكن منه بد ولم ينفع منه المنع فأولى أن يكون في سبيل الله تعالى ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ عظيم ﴿ على الناس ﴾ قاطبة أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيموزوا بالسعادة العظمى ، وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هدام إلى مسلك الاعتبار والاستبصار ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أى لا يشكرون فضله كما ينبغي ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار وإظهار الناس في مقام الإضمار لمزيد التشجيع ﴿ وقاتلوا في سبيل الله ﴾ عطف على مقدر يعينه ما قبله كأنه قيل فاشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا في سبيله لما علمتم أن الفرار لا ينجى من الحماة وأن المقدر لا مرد له فإن كان قدحان الأجل فموت في سبيل الله عز وجل وإلا فنصر عزيز وثواب ﴿ واعلموا أن الله سميع ﴾ يسمع مقالة السابقين والمتخلفين ﴿ عليم ﴾ بما يضمرونه في أنفسهم وهو من وراء الجزاء خيراً أو شراً فسارعوا إلى الامتثال واحذروا المخالفة والمساهلة .

﴿ من ذا الذى يقرض الله ﴾ من استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا خبره والموصول صفة له أو بدل منه وإقراض الله تعالى مثل لتقديم العمل العاجل طلباً للثواب الآجل والمراد ههنا إما الجهاد الذى هو عبارة عن بذل النفس والمال في سبيل الله عز وجل ابتغاء لرضائه وإما مطلق العمل الصالح المنتظم له انتظاماً أو اياً ﴿ قرضاً حسناً ﴾ أى إقراضاً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضاً حلالاً طيباً ﴿ فيضاعفه له ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام

جعلنا على المعنى فإنه في معنى أيقرضه وقرىء بالرفع أى يضاعف أجره وجزاه
 جعل ذلك مضاعفة له بناء على ما بينهما من المناسبة بالسببية والمسببية ظاهرا
 وصيغة المفاعلة للبالغة وقرىء فيضعفه بالرفع بالنصب ((أضعافا)) جمع ضعف
 ونصبه على أنه حال من الضمير المنصوب أو مفعول بأن يضمن المضاعفة معنى
 التصيير أو مصدر مؤكد على أن الضعف اسم للبصدر والجمع للتثنية ((كثيرة))
 لا يعلم قدرها إلا الله تعالى وقيل الواحد بسبعائة ((والله يقبض ويبسط)) أى
 يقتدر على بعض ويوسع على بعض أو يقتدر تارة ويوسع أخرى حسبها تقتضيه
 مشيئته المبنية على الحسك والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كي لا يبدل
 أحوالكم ولعل تأخير البسط عن القبض في الذكر للإيماء إلى أنه يعقبه في
 الوجود تساوية للفقراء وقرىء يبسط بالصاد لمجاورة الطاء ((وليه ترجعون))
 فيجازيكم على ما قدمتم من الأعمال خيرا وشرا .

((ألم تر)) تقرير وتعجيب كما سبق قطع عنه للإيدان باستقلاله في التعجب
 مع أن له مزيد ارتباط بما وسط بينهما من الأمر بالقتال ((إلى الملائ من بنى
 إسرائيل)) الملائ من القوم وجوهم وأشرافيهم وهو اسم للجماعة لا واحد له من
 لفظه كالرط والقوم سموا بذلك لما أنهم يملأون العيون مهابة والمجالس
 بهاء أو لأنهم ملبثون بما يتغنى منهم ومن تبعيضية ومن في قوله تعالى ((من بعد
 موسى)) ابتدائية وعاملها مقدر وقع حالا من الملائ أى كائنين بعض بنى إسرائيل
 من بعد وفاة موسى ولا ضمير في اتحاد الحرفين لفظا عند اختلافهما معنى ((إذ
 قالوا)) منصوب بمضمرة يستدعيه المقام أى ألم تر إلى قصة الملائ أو حديثهم
 حين قالوا ((لنبي لهم)) هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليهما
 السلام وقيل شعون بن صعبة بن علقمة من ولد لاوى بن يعقوب عليهما
 السلام وقيل أشمويل بن بال بن علقمة وهو بالعبرانية اسمعيل . قال مقاتل هو
 من نسل هرون عليه السلام وقال مجاهد أشمويل بن هلقايا ((ابعث لنا ملكا
 نقاتل في سبيل الله)) أى أنهض للقتال معنا أميرا نصدر في تدبير أمر الحرب
 عن رأيه وقرىء نقاتل بالرفع على أنه حال مقدرة أى ابعثه لنا مقدرين القتال

أو استئناف مبنى على السؤال وقرىء يقال بالياء مجزوما ومرفوعا على الجواب
 للآمر والوصف للمسكا ﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه
 الذهن كأنه قيل فماذا قال لهم النبي حينئذ ف قيل قال ﴿ هل عسيتم إن كتب
 عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ فصل بين عسى وخبره بالشرط للاعتناء به أى
 هل قاربتم ألا تقاتلوا كما أتوقعه منكم والمراد تقرير أن المتوقع كائن وإنما لم
 يذكر في معرض الشرط ما التمسوه بأن قيل هل عسيتم إن بعثت لكم ملكا الخ
 مع أنه أظهر تعلقا بكلامهم بل ذكر كتابة القتال عليهم للمبالغة في بيان تخلفهم
 عنه فإنهم إذا لم يقاتلوا عند فرضية القتال عليهم بإيجاب الله تعالى فثلاثا يقاتلوا
 عند عدم فرضيته أولى ولأن إيراد ما ذكره ربما يؤهم أن سبب تخلفهم عن
 القتال هو المبعوث لأنفس القتال وقرىء عسيتم بكسر السين وهى ضعيفة
 ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما سبق ﴿ وما لنا ألا نقاتل ﴾ أى أى سبب لنا فى ألا نقاتل
 ﴿ فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ أى والحال أنه قد عرض
 لنا ما يوجب القتال إيجابا قويا من الإخراج عن الديار والأوطان والاعتراب
 من الأهل والأولاد وإفراد الأبناء بالذكر لمزيد تقوية أسباب القتال وذلك
 أن جالوت رأس العمالة وملكهم وهو سحبار من أولاد عمليق بن عاد كان هو
 ومن معه من العمالة يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وظهروا
 على بنى إسرائيل وأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء ملوكهم
 أربعائة وأربعين نفسا وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ﴿ فلما كتب
 عليهم القتال ﴾ بعد سؤال النبي عليه السلام ذلك وبعث الملك ﴿ تولوا ﴾ أى
 أعرضوا وتخلفوا لكن لا فى ابتداء الأمر بل بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكته
 كما سيحىء تفصيله وإنما ذكر ههنا ما آل إليه^(١) أمرهم إجمالا لإظهار لما بين
 قولهم وفعلهم من التنافى والتباين ﴿ إلا قليلا منهم ﴾ وهم الذين اكتفوا بالفرقة
 من النهر وجاوزوه وهم ثلثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾

وعيد لهم على ظلمهم بالتولى عن القتال وترك الجهاد وتنافى أقوالهم وأفعالهم والجملة اعتراض تذييلي ﴿وقال لهم نبيهم﴾ شروع في تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال إثر الإشارة الإجمالية إلى مصير حالهم أى قال لهم بعد ما أوحى إليه ما أوحى ﴿إن الله قد بعث لکم طالوت ملكا﴾ طالوت علم عبرى كداود وجعله فعلوتا من الطول يأباه منع صرفه وملك حال منه روى أنه عليه السلام لما دعا ربه أن يجعل لهم ملكا أتى بعضا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر ﴿أنى يكون له الملك علينا﴾ أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك ﴿ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ الواو الأولى حالية والثانية عاطفة جامعة للجملتين في الحكم أى كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق منه ولعدم ما يتوقف عليه الملك من المال وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام والمملكة بسبط يهوذا ومنه داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين قيل كان راعيا وقيل دباغا وقيل سقاء .

﴿قال إن الله اصطفاه عليكم﴾ لما استبعدوا تملكه بسقوط نسبه وبفقره رد عليهم ذلك أولا بأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم وثانيا بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر وذلك قوله عز وجل ﴿وزاده بسطة في العلم﴾ أى العلم المتعلق بالملك أو به وبالديانات أيضا وقيل قد أوحى إليه ونبي ﴿والجسم﴾ قيل بطول القامة فإنه كان أطول من غيره برأسه ومنكبیه حتى أن الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه وقيل بالجمال وقيل بالقوة ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ لما أنه مالك الملك والمملوكوت فعال لما يريد . فله أن يؤتیه من يشاء من عباده ﴿والله واسع﴾

يوسع على الفقير ويغنيه ﴿عليم﴾ بمن يليق بالملك بمن لا يليق به وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة .

﴿وقال لهم نبينهم﴾ توسطه فيما بين قوله المحكمين عنه عليه السلام للإشعار بعدم اتصال أحدهما بالآخر وتخلل كلام من جهة المخاطبين متفرع على السابق مستتبع للاحق كأنهم طلبوا منه عليه السلام آية تدل على أنه تعالى أصطفى طالوت وملسكه عليهم. روى أنهم قالوا ما آية ملسكه فقال ﴿إن آية ملسكه أن يأنيكم التابوت﴾ أي الصندوق وهو فعلوت من التوب الذي هو الرجوع لما أنه لا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وتأوه مزيدة أخير التأنيت كملسكوت ورهبوت والمشهور أن يوقف على تأئه من غير أن تقلب هاء ومنهم من يقلبها إياها والمراد به صندوق التوراة وكان قد رفعه الله عز وجل بعد وفاة موسى عليه السلام سخطا على بني إسرائيل لما عصوا واعتدوا فلما طلب القوم من نبينهم آية تدل على ملك طالوت قال لهم إن آية ملسكه أن يأتنيكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف والقوم ينظرون إليه حتى نزل عند طالوت وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال أرباب الأخبار إن الله تعالى أنزل على آدم تابوتا فيه تماثيل الأنبياء عليهم السلام من أولاده وكان من عود الشمشاد نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين فكان عند آدم عليه السلام إلى أن توفي فتوارثه أولاده واحد بعد واحد إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام ثم بقي في أيدي بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان عليه الصلاة والسلام يضع فيه التوراة وكان إذا قاتل قدمه فكانت تسكن إليه نفوس بني إسرائيل وكان عنده إلى أن توفي ثم تداولته أيدي بني إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا في شيء تحاكموا إليه فيكلمهم ويحكم بينهم وكانوا إذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوهم وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر ثم يقاتلون العدو فإذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا النصر فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العاقلة فغلبهم على

التابوت وسلبوه وجعلوه في موضع البول والغائط فلما أراد الله تعالى أن يملك طالوت سلط عليهم البلاء حتى أن كل من بال عنده ابتلى بالبواسير وهلك من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت فأخرجوه وجعلوه على ثورين فأقبل الثوران يسيران وقد وكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما حتى أتوا منزل طالوت فلما سألوا نبيهم البيئنة على ملك طالوت قال لهم النبي إن آية ملكة أنكم تجدون التابوت في داره فلما وجدوه عنده أيقنوا بملكه .

﴿ فيه سكينه من ربكم ﴾ أى فى إتيانه سكون لكم وطمانينة كأنه من ربكم أو فى التابوت ما تسكنون إليه وهو التوراة المودعة فيه بناء على ما مر من أن موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فتسكن إليه نفوس بنى إسرائيل وقيل السكينه صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كراس الهر وذنبه وجناحان فتئن فيزحف^(١) التابوت نحو العدو وهم يمشون معه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر وعن على رضى الله عنه كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة ﴿ وبقية ما ترك آل موسى وآل هرون ﴾ هى رضا الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما والآل مقحم لنفخيم شأنهما أو أنبياء بنى إسرائيل ﴿ تحمله الملائكة ﴾ حال من التابوت أى إن آية ملكة إتيانه حال كونه محمولا للملائكة وقد مر كيفية ذلك ولعل حمل الملائكة على الرواية الأخيرة عبارة عن سوقهم للثورين الحاملين له : ﴿ إن فى ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلام النبي عليه السلام لقومه أو إلى نقل القصة وحكايتها فهو ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به قبل تمام القصة لإظهاراً لسكال العناية به ، وإفراد حرف

(١) فى ط : فيزف .

الخطاب مع تعدد المخاطبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيره كما سلف ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ عظمية ﴿لَكُمْ﴾ دالة على ملك طالوت أو على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بهذه التفاصيل على ما هي عليه من غير سماع من البشر ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى مصدقين بتكليمه أو بشيء من الآيات وإن شرطية والجواب محذوف ثقة بما قبله وقيل هي بمعنى إذ .

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أى انفصل بهم عن بيت المقدس والأصل فصل نفسه ولما اتحد فاعله ومنفعوله شاع استعماله محذوف المفعول حتى نزل منزلة القاصر كأن فصل وقيل فصل فصولاً وقد جوز كونه أصلاً برأسه ممتازاً من المتعدى بمصدره كوقوف وقوفاً ووقفه قفلاً وكصد صدوداً وصدده صدأً ورجع رجوعاً ورجعه رجعا والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من طالوت أى ملتبساً بهم ومصاحباً لهم روى أنه قال لقومه لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشغول بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم ين عليها ولا أبتغى إلا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع إليه من اختارهم ثمانون ألفاً وكان الوقت قيظاً وسلكوا مفازة فسألوا أن يجرى الله تعالى لهم نهراً فبعد ما ظهر له ما تعلقت به مشيئته تعالى من جهة النبى عليه السلام أو بطريق الوحى عند من يقول بنبوته ﴿قَالَ إِنْ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ فَنهر﴾ بفتح الهاء وقرىء بسكونها ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾ أى ابتدأ شربه من النهر بأن كرع لأنه الشرب منه حقيقة ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أى من جملتى وأشياعى المؤمنين وقيل ليس بمتصل بى ومتحد معنى من قولهم فلان منى كأنه بعضه لكمال اختلاطهما ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أى لم يذقه من طعم الشيء إذا ذاقه ما كولا كان أو مشروباً أو غيرهما قال :

وإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعمن نقاخاً ولا برداً
أى نوماً ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ استثناء من قوله تعالى :
(فمن شرب منه) فليس منى وإنما أخر عن الجملة الثانية لإبراز كمال العناية بها ومعناه
الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون السكرع والغرفة ما يغرف وقرىء

بفتح الغين على أنها مصدر والباء متعلقة باغترف أو بمحذوف وقع صفة لغرفة أى غرفة كأنه بيده . يروى أن الغرفة كانت تسكنى الرجل لشربه وإداوته^(١) ودوابه وأما الذين شربوا منه فقد اسودت شفاههم وغلبهم العطش ﴿ فشربوا منه ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أى فابتلوا به فشربوا منه ﴿ إلا قليلا منهم ﴾ وهم المشار إليهم فيما سلف بالاستثناء من التولى وقرىء إلا قليل منهم ميلا إلى جانب المعنى وضربا عن عدوة اللفظ جانبا فإن قوله تعالى فشربوا منه فى قوة أن يقال فلم يطيعوه فحق أن يرد المستثنى مرفوعا كما فى قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو محلف
فإن قوله لم يدع فى حكم لم يبق ﴿ فلما جاوزه ﴾ أى النهر ﴿ هو ﴾ أى
طالوت ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ عطف على الضمير المتصل المؤكد بالمنفصل
والظرف متعلق بجاوز لا بآمنوا وقيل الواو حالية والظرف متعلق بمحذوف
وقع خبرا من الموصول كأنه قيل فلما جاوزه والحال أن الذين آمنوا كانوا
معه وهم أولئك القليل وفيه إشارة إلى أن من عداهم بمعزل من الإيمان
﴿ قالوا ﴾ أى بعض من معه من المؤمنين لبعض ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت
وجنوده ﴾ أى بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن أن يكون لنا غلبة عليهم لما
شاهدوا من الكثرة والشدة ، قيل كانوا مائة ألف مقاتل شاكى السلاح
﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال مخاطبهم فقيل قال
﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ﴾ قيل أى الخالص منهم الذين يوقنون بلقاء^(٢)
الله تعالى بالبعث ويتوقعون ثوابه وإفراهم بذلك الوصف لا ينافى لإيمان
الباقين فإن درجات المؤمنين فى التيقن والتوقع متفاوتة أو الذين يعلمون أنهم
يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى وقيل الموصول عبارة عن المؤمنين

(١) فى ط : وإداوته . والإداوة إناء ماء الوضوء .

(٢) فى ط يلقون لقاء

كافة والضمير في قالوا للمخذلين عنهم كأنهم قالوه اعتذارا عن التخلف والنهر بينهما .

﴿ كم من فئة ﴾ أى فرقة وجماعة من الناس من فأوت رأسه إذا شققها أو من فاه إليه إذا رجع فوزنها على الأول فعة وعلى الثانى فلة ﴿ قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ خبرية كانت أو استفهامية مفيدة للتكثير وهى فى حيز الرفع يالابتداء خبرها غلبت أى كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة ﴿ بإذن الله ﴾ أى بحكمه وتيسيره فإن دوران كافة الأمور على مشيئته تعالى فلا يذل من نصره وإن قل عدده ولا يعز من خذله وإن كثرت أسبابه وعدده وقد روعى فى الجواب نكتة بدیعة حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة حسبما وقع فى كلام أصحابهم مبالغة فى رد مقالتهم وتسكين قلوبهم وهذا كما ترى جواب ناشئ من كمال ثقتهم بنصر الله تعالى وتوفيقه ولادخل فى ذلك لظن لقاء الله تعالى بالبعث لاسيما بالاستشهاد فإن العلم به ربما يورث اليأس من الغلبة ولا لتوقع ثوابه تعالى ولا ريب فى أن ما ذكر فى حيز الصلة ينبغى أن يكون مداراً للحكم الوارد على الموصول فلا أقل من أن يكون وصفا ملائماً له فلعل المراد بلقاءه تعالى لقاء نصره وتأيدده عبر عنه بذلك مبالغة كما عبر عن مقارنة نصره تعالى لمعيته^(١) سبحانه حيث قيل ﴿ والله مع الصابرين ﴾ فإن المراد به معية نصره وتوفيقه حتيا وحملها على المعية بالإثابة كما فعل يأباه أنهم إنما قالوه تميميا لجوابهم وتأيداً له بطريق الاعتراض التذييل تشجيعة لأصحابهم وتثبيتاً لهم على الصبر المؤدى إلى الغلبة ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالإثابة قطعاً وكذا الحال إذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جرى به تقريراً لكلامهم والمعنى قال الذين يظنون أو يعلمون من جهة النبى أو من جهة التابوت والسكينة أنهم ملاقوا نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غلبت

(١) فى ط : بمقارنته .

فئة كثيرة بإذن الله تعالى فنحن أيضا نغلب جالوت وجنوده وإيراد خبر أن اسما مع أن اللقاء مستقبل للدلالة على تقررته وتحققه .

﴿ ولما برزوا ﴾ أى ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا إلى براز من الأرض في موطن الحرب ﴿ لجالوت وجنوده ﴾ وشاهدوا ما هم عليه من العدد والعدد وأيقنوا أنهم غير مطيقين لهم عادة ﴿ قالوا ﴾ أى جميعا عند تقوى القلوب الفريق الأول منهم بقول الفريق الثانى متضرعين إلى الله تعالى مستعينين به ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا ﴾ على مقاساة شدائد الحرب واقتحام موارده الصعبة الضيقة وفى التوسل بوصف الربوبية المنبى^(١) عن التبليغ إلى السكال وإثارة الإفراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفتيم من الجزالة لا يخفى ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ فى مداحض القتال ومزال النزال وبيات القدم عبارة عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة لا مجرد التقرر فى حين واحد ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ بقهرهم وهزمهم ووضع الكافرين فى موضع الضمير العائد إلى جالوت وجنوده للإشعار بعلة النصر عليهم ولقد راعوا فى الدعاء ترتيبا بديعا حيث قدموا سؤال إفراغ الصبر الذى هو ملاك الأمر ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه ثم سؤال النصر الذى هو الغاية القصوى ﴿ فزموهم ﴾ أى كسروهم بلا مكث ﴿ بإذن الله ﴾ بنصره وتأييده إجابة لدعائهم وإيثار هذه الطريقة على طريقة قوله عز وجل ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ الخ للمحافظة على مضمون قولهم غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ كان لإيشى أبو داود فى عسكر طالوت معه ستة من بنيه وكان داود عليه السلام سابعهم وكان صغيرا يرعى الغنم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أنه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء ، وقد مر فى طريقة بثلاثة أحجار قال له كل منها احملها فإنك بنا تقتل جالوت فحملها فى مخلاته وقيل لما أبطأ على أبيه خبر إخوته فى المصاف أرسل داود

إليهم ليأتيه بخبرهم فأتاهم وهم في القراع وقد برز جالوت بنفسه إلى البراز ولا يكاد يبارزه أحد وكان ظله ميلا فقال داود لإخوته أما فيكم من يخرج إلى هذا الأقف فزجروه فتنحى^(١) ناحية أخرى ليس فيها إخوته وقد مر به طالوت وهو يحرض الناس على القتال فقال له داود ما تصنعون بمن يقتل هذا الأقف قال طالوت أنكحه ابنتي وأعطيه شطر مملكتي فبرز له داود فرماه بما معه من الأحجار بالمقلاع فأصابه في صدره فنفذت الأحجار منه وقتلت بعده ناسا كثيرين^(٢) وقيل إنما كلمته الأحجار عند بروزه لجالوت في المعركة فأنجز له طالوت ما وعده وقيل إنه حسده وأخرجه من مملكته ثم ندم على ما صنعه فذهب يطلبه إلى أن قتل وملك داود عليه السلام وأعطى النبوة وذلك قوله تعالى ﴿وآتاه الله الملك﴾ أي ملك بني إسرائيل في مشارق الأرض المقدسة ومغاربها ﴿والحكمة﴾ أي النبوة ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوة قبله إلا له بل كان الملك في سبط والنبوة في سبط آخر وما اجتمعوا قبله على ملك قط ﴿وعليه بما يشاء﴾ أي بما يشاء الله تعالى تعليمه إياه لا بما يشاء داود عليه السلام كما قيل لأن معظم ما عليه تعالى إياه بما لا يكاد يخطر ببال أحد ولا يقع في أمنية بشر ليتمكن من طلبه ومشيشته كالسرد بالانته الحديد ومنطق الطير والدواب ونحو ذلك من الأمور الخفية .

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم﴾ الذين يباشرون الشر والفساد ﴿ببعض﴾ آخر منهم بردهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل كما في القصة المحكية أو غيره وقرىء دفاع الله على أن صيغة المخالفة للمبالغة ﴿لفسدت الأرض﴾ وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض ويصلحها وقيل لولا أن الله ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بغيثهم وقتلهم المسلمين أو لو يدفعهم بالمسلمين لعلم الكفر ونزلت السخطة فاستوصل أهل الأرض قاطبة ﴿ولكن الله ذو فضل﴾

(١) في ط : فنحنا ناحية

(٢) في ط : كثيرا .

عظيم لا يقادر قدره ﴿على العالمين﴾ كافة وهذا إشارة إلى قياس استثنائي مؤلف من وضع نقيض المقدم منتج لنقيض النالى خلا أنه قد وضع موضعه ما يستتبعه ويستوجبه أعنى كونه تعالى ذا فضل على العالمين إيدانا بأنه تعالى متفضل فى ذلك الدفع من غير أن يجب عليه ذلك وأن فضله تعالى غير منحصر فيه بل هو فرد من أفراد فضله العظيم كأنه قيل ولكنه تعالى يرفع فساد بعضهم ببعض فلا تفسد الأرض وتلتظم به مصالح العالم وتنصلح أحوال الأمم ﴿تلك﴾ إشارة إلى ما سلف من حديث الألوف وخير طالوت على التفصيل المرقوم وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو شأن المشار إليه ﴿آيات الله﴾ المنزلة من عنده تعالى والجملة مستأنفة وقوله تعالى : ﴿تتلوها عليكم﴾ أى بواسطة جبريل عليه السلام إما حال من الآيات والعامل معنى الإشارة وإما جملة مستقلة لا محل لها من الإعراب ﴿بالحق﴾ فى حيز النصب على أنه حال من مفعول تتلوها أى ملتبسة باليقين الذى لا يرتاب فيه أحد من أهل الكتاب وأرباب التواريخ لما يجدونها موافقة لما فى كتبهم أو من فاعله أى تتلوها عليكم ملتبسين بالحق والصواب أو من الضمير المجرور أى ملتبسا بالحق والصدق ﴿ولأنك لمن المرسلين﴾ أى من جملة الذين أرسلوا إلى الأمم لتبليغ رسالاتنا وإجراء أوامرنا وأحكامنا عليهم فإن هذه المعاملة لا تجرى بيننا وبين غيرهم فهى شهادة منه سبحانه برسالته عليه الصلاة والسلام إثر بيان ما يستوجبها والتأكيد من مقتضيات مقام الجاحدين بها .

﴿تلك الرسل﴾ استئناف فيه رمز إلى أنه عليه الصلاة والسلام من أفاضل الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام إثر بيان كونه من جملتهم والإشارة إلى الجماعة الذين من جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم فاللام فى المسأل للاستغراق وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو طبقهم وبعد منزلتهم وقيل إلى الذين ذكرت قصصهم فى السورة وقيل إلى الذين ثبت علمه صلى الله عليه وسلم بهم ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ فى مراتب الكمال بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمآثر جليلة خلا عنها غيره ﴿منهم من كلم الله﴾

تفصيل للتفصيل المذكور إجمالاً أى فضله بأن كلمة تعالى بغير سفير وهو موسى عليه الصلاة والسلام حيث كلمة تعالى ليلة الخيرة وفى الطور وقرىء كلم الله بالنصب وقرىء كالم الله من المكاملة فإنه كلم الله تعالى كما أنه تعالى كلمه ويؤيده كلم الله بمعنى مكالمه وإيراد الاسم الجليل بطريق الإلتفات لتربية المهابة والرمز إلى ما بين التكليم والرفع وبين ما سبق من مطلق التفضيل وما ألحق من إتياء البينات والتأييد بروح القدس من التفاوت ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ أى ومنهم من رفعه على غيره من الرسل المتفاوتين فى معارج الفضل بدرجات قاصية ومراتب نائية وتغيير الأسلوب لتربية ما بينهم من اختلاف الحال فى درجات الشرف والظاهر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبى عنه الإخبار بكونه عليه الصلاة والسلام منهم فإن ذلك فى قوة بعضهم فإنه قد خص بالدعوة العامة والحجج الباهرة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور والفضائل العلمية والعملية الفائقة للحصر والإبهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلم الفرد الغنى عن التعيين وقيل إنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث خصه تعالى بكرامة الخلقة وقيل لإدريس عليه السلام حيث رفعه مكاناً علياً وقيل أو لو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

﴿ وآتيناه عيسى ابن مريم البينات ﴾ الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكف والأبرص والإخبار بالمغيبات أو الإنجيل ﴿ وأيدناه ﴾ أى قويناه ﴿ بروح القدس ﴾ بضم الدال وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة كقولك رجل صدق وهى روح عيسى وإنما وصفت بالقدس للكرامة أو لأنه عليه السلام لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بحبريل وقيل بالإنجيل كما مر وإفراده عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهل البكتابين فى شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط والآية ناطقة بأن الأنبياء عليهم السلام متفاوتة الأقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض ولكن بقطاع ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ﴾ أى جاءوا من بعد الرسل من الأمم

المختلفة أى لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على كلمة الحق ففعلوا المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء على القاعدة المعروفة وقيل تقديره ولو شاء هدى الناس جميعاً ما اقتتل الخ وليس بذلك ﴿ من بعد ما جاءتهم ﴾ من جهة أولئك الرسل ﴿ البيئات ﴾ المعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة على حقيقة الحق الموجبة لاتباعهم الزاجرة عن الإعراض عن سننهم المؤدى إلى الاقتتال فمن متعلقة باقتل ﴿ ولكن اختلفوا ﴾ استدراك من الشرطية أشير به إلى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض مقدمها منتج لنقيض تاليها إلا أنه قد وضع فيه الاختلاف موضع نقيض المقدم المترتب عليه للإيدان بأن الاقتتال ناشئ من قبلهم لا من جهته تعالى ابتداء كأنه قيل ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافا فاحشاً ﴿ فمنهم من آمن ﴾ بما جاءت به أولئك الرسل من البيئات وعملوا به ﴿ ومنهم من كفر ﴾ بذلك كفراً لا ارعواء له عنه فاقتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم ﴿ ولو شاء الله ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضاً من الاختلاف والشقاق المستقبين للاقتتال بحسب العادة ﴿ ما اقتتلوا ﴾ وما نبض منهم عرق التطاول والتعاضد لما أن السكل تحت ملكوته تعالى فالتكرير ليس للتأكيـد كما ظن بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجباً (١) لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم كما يفهم ذلك من وضعه فى الاستدراك موضعه بل هو سبحانه مختار فى ذلك حتى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا كما يفصح عنه الاستدراك بقوله عز وجل ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ أى من الأمور الوجودية والعدمية التى من جملتها عدم مشيئته عدم اقتتالهم فإن الترك أيضاً من جملة الأفعال أى يفعل ما يريد حسبما يريد من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانع وفيه دليل بين على أن الحوادث تابعة لمشيئته سبحانه خيراً كان أو شراً إيماناً كان أو كفراً ﴿ يا أيها

الذين آمنوا أنفقوا ﴿ في سبيل الله ﴾ ﴿ مما رزقناكم ﴾ أى شيئاً مما رزقناكموه على أن ما موصولة حذف عائدها والتعرض لوصوله منه تعالى للبحث على الإنفاق كما فى قوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ والمراد به الإنفاق الواجب بدلالة ما بعده من الوعيد ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ كلمة من متعلقة بما تعلقت به أختها ولا ضمير فيه لاختلاف معنيهما فإن الأولى تبعية وهذه لا ابتداء الغاية أى أنفقوا بعض ما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا تقدرُونَ على تلافى ما فرطتم فيه إذ لا تبايع فيه حتى تتبايعوا ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب ولا خلة حتى يسامحكم به أخلاؤكم أو يعينوكم عليه ولا شفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولا حتى تتوسلوا بشفعاء يشفعون لكم فى حط ما فى ذمتكم وإنما رفعت الثلاثة مع قصد التعميم لأنها فى التقدير جواب هل فيه بيع أو خلة أو شفاعة وقرئ بفتح السكل ﴿ والكافرون ﴾ أى والتاركون للزكاة وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما فى قوله تعالى (ومن كفر) مكان ومن لم يحج وللإيدان بأن ترك الزكاة من صفات الكفار قال تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) ﴿ هم الظالمون ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب ووضعوا المسال فى غير موضعه وصرفه إلى غير وجهه ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ مبتدأ وخبر أى هو المستحق للمعبودية لا غير وفى إضمار خبر لأمثل فى الوجود أو يصح أن يوجد خلاف للنحلة معروف ﴿ الحى ﴾ الباقي الذى لا سبيل عليه للموت والفناء وهو إما خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من لا إله إلا هو أو بدل من الله أو صفة له ويعضده القراءة بالنصب على المدح لاختصاصه بالنعمة ﴿ القيوم ﴾ فيقول من قام بالأمر إذا حفظه أى دائم القيام بتدبير الخلق وحفظه وقيل هو القائم بذاته المقيم لغيره ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ السنة ما يتقدم النوم من الفتور قال عدى بن الرقاع العاملى :

وسنان أقصده النعاس فرانقت فى عينه سنة ولبس بنائم

والنوم حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات
الابخرة المتصاعدة بحيث تقف المشاعر الظاهرة عن الإحساس رأسا والمراد
بيان انتفاء اعتراء شيء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى لا لأنهما
قاصران بالنسبة إلى القوة الإلهية فإنه بمعزل من مقام التنزيه فلا سبيل إلى حمل
النظم الكريم على طريقة المبالغة والترقي بناء على أن القادر على دفع السنة قد
لا يقدر على دفع النوم القوي كما في قولك فلان يقظ لا تغلبه سنة ولا نوم وإنما
تأخير النوم للمحافظة على ترتيب الوجود الخارجى وتوسيط كلمة لا للتنصيص
على شمول النفي لسكل منهما كما في قوله عز وجل (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة)
الآية وأما التعبير عن عدم الاعتراء والعروض بعدم الأخذ فلإعارة الواقع إذ
عروض السنة والنوم لمعروضهما إنما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء وقيل
هو من باب التكميل والجملة تأكيده لما قبلها من كونه تعالى حيا قيوما فإن من
يعتريه أحدهما يكون موقوف الحياة قاصرا في الحفظ والتدبير وقيل استئناف
مؤكد لما سبق وقيل حال مؤكدة من الضمير المستكن في القيوم ﴿له ما في السموات
وما في الأرض﴾ تقرير لقيوميته تعالى واحتجاج به على تفردده في الألوهية
والمراد بما فيهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة
عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم .

﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ بيان لكبرياء شأنه وأنه لا يدانيه
أحد ليقدر على تغيير ما يريده شفاعته وضراعة فضلا عن أن يدافعه عنادا أو
مناصبة ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أى ما قبلهم وما بعدهم أو بالعكس
لأنك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضى أو أمور الدنيا أو أمور الآخرة أو
بالعكس أو ما يحسونه ، وما يعقلونه أو ما يدركونه وما لا يدركونه والضمير
لما في السموات والأرض بتغليب ما فيهما من العقلاء على غيرهم أو لما دل
عليه من ذا الذى من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ولا يحيطون
بشيء من علمه﴾ أى من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ أن يعلموه وعطفه على
ما قبله لما أنهما جميعاً دليل على تفردده تعالى بالعلم الذاتى التام الدال على

وحدانيته ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ الكرسي ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد وكأنه منسوب إلى الكرسي الذي هو الملبد وليس نمة كرسي ولا قاعد ولا قعود وإنما هو تمثيل لعظمة شأنه عز وجل وسعة سلطانه وإحاطة علمه بالأشياء قاطبة على طريقة قوله عز قائلًا (وما قدرُوا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقيل كرسيه مجاز عن علمه أخذًا من كرسي العالم وقيل عن ملكه أخذًا من كرسي الملك فإن الكرسي كلما كان أعظم تكون عظمة القاعد أكثر وأوفر فعبّر عن شمول علمه أو بسطة ملكه وسلطانه بسعة كرسيه وإحاطته بالأقطار العلوية والسفلية وقيل هو جسم بين يدي العرش محيط بالسموات السبع لقوله صلى الله عليه وسلم ما السموات السبع والأرضون السبع مع الكرسي إلا كحلقة في فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة ولعله ألقاك الثامن وعن الحسن البصري أنه العرش .

﴿ولا يؤوده﴾ أى لا ينقله ولا يشق عليه ﴿حفظهما﴾ أى حفظ السموات والأرض وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لما أن حفظهما مستتبع لحفظه ﴿وهو العلى﴾ المتعالى بذاته عن الأشباه والأنداد ﴿العظيم﴾ الذى يستحق بالنسبة إليه كل ما سواه ولما ترى من انطواء هذه الآية الكريمة على أمهات المسائل الإلهية المتعلقة بالذات العلية والصفات الجليلة فإنها ناطقة بأنه تعالى موجود متفرد بالإلهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجود لغيره لما أن القيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره منزّه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لامناسبة بينه وبين الأشباح ولا يعتريه ما يعتري النفوس والأرواح مالك الملك والمملكوت ومبدع الأصول والفروع ذو البطش الشديد لا يشفع عنده إلا من أذن له فيه العالم وحده بجميع الأشياء جليها وخفيها كليها وجزئها واسع الملك والقدرة لكل ما من شأنه أن يملك ويقدر عليه لا يشق عليه شاق ولا يشغله شأن عن شأن متعال عما تناله الأرواح عظيم (٢٥ - أبو السمود - أول)

لا تحديق به الأفهام تفردت بفضائل رائقة وخواص فائقة خلعت عنها أخواتها
قال صلى الله عليه وسلم إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي من قرأها بعث
الله تعالى ملكا يكتب من حسناته ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة ،
وقال عليه الصلاة والسلام ما قرئت هذه الآية في دار إلا هجرتها الشياطين
ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة ، وقال ديا على علمها
ولذلك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها ، وقال عليه السلام د من
قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت
ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله
تعالى على نفسه وجاره وجاره والآيات حوله ، وقال عايه الصلاة والسلام
«سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولائقر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم ضميمب
وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد القرآن
سورة البقرة وسيد البقرة آية الكرسي» وتخصيص سيادته صلى الله عليه وسلم
للعرب بالذكر في أثناء تعداد السیادات الخاصة لا يدل على نفى ما دلت عليه
الأخبار المستفيضة وانعقد عليه الإجماع من سيادته عليه السلام لجميع
أفراد البشر .

﴿ لا إكراه في الدين ﴾ جملة مستأنفة جىء بها لإثبات تفرد سبجانه
وتعالى بالشئون الجليلة الموجبة للإيمان به وحده إيدانا بأن من حق العاقل
ألا يحتاج إلى التكليف والإلزام بل يختار الدين الحق من غير تردد وتلهثم
وقيل هو خبر في معنى النهى أى لا تكبرهوا في الدين فقل منسوخ بقوله تعالى
(جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقيل خاص بأهل الكتاب حيث
حصنوا أنفسهم بأداء الجزية وروى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف
ابنان قد تنصروا قبل مبعثه عليه السلام ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال
والله لا أدعكما حتى تسلميا فأبيا فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فنزلت غلاهما ﴿ قد تبين الرشد من الغي ﴾ استئناف تعليمى صدر بكلمة
التحقيق لزيادة تقرير مضمونه كما في قوله عز وجل (قد بلغت من لدنى عذرا)

أى إذ قد تبين بما ذكر من نعوته تعالى التى يمتنع توهم اشتراك غيره فى شىء منها الإيمان الذى هو الرشد الموصل إلى السعادة الأبدية من الكفر الذى هو الغى المؤدى إلى الشقاوة السرمدية ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ هو بناء مبالغة من الطغيان كالمسكوت والجبروت قلب مكان عينه ولامه فقليل هو فى الأصل مصدر وإليه ذهب الفارسى وقيل اسم جنس مفرد مذكر وإنما الجمع والتأنيث لإرادة الآلهة وهو رأى سيديويه وقيل هو جمع وهو مذهب المبرد وقيل يستوى فيه المفرد والجمع والتذكير والتأنيث أى فمن يعمل لإثر ما تميز الحق من الباطل بموجب الحجج الواضحة والآيات البينة ويكفر بالشيطان أو بالأصنام أو بكل ما عبد من دون الله تعالى أو صد عن عبادته سبحانه تعالى لما تبين له كونه بمعزل من استحقاق العبادة ﴿ويؤمن بالله﴾ وحده لما شاهد من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الألوهية به عز وجل الموجبة للإيمان والتوحيد وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان به تعالى لتوقفه عليه فإن التخليّة متقدمة على التحلية ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أى بالغ فى التمسك بها كأنه وهو ملتبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه ﴿لا انفصام لها﴾ الفهم الكسر بغير صوت كما أن القسم هو الكسر بصوت^(١) ونفى الأول يدل على انتفاء الثانى بالأولوية والجملة إما استئناف مقرر لما قبلها من وثاقة العروة ولما حال من العروة والعامل استمسك أو من الضمير المستتر فى الوثقى ولها فى حيز الخبر أى كائن لها والكلام تمثيل مبنى على تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق الذى لا يحتمل النقيض أصلاً لثبوته بالبراهين النيرة القطعية بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك بالحبل المحكم المأمون انقطاعه فلا استعارة فى المفردات ويجوز أن تكون العروة الوثقى مستعارة للاعتقاد الحق الذى هو الإيمان والتوحيد لا للنظر الصحيح المؤدى إليه كما قيل فإنه غير مذكور فى حيز الشرط والاستمسك بها مستعاراً

(١) فى ط : بغير إبانته بإبانة

لما ذكر من الملازمة أو ترشيحا للاستعارة الأولى ﴿ والله سميع ﴾ بالأقوال
﴿ عليم ﴾ بالعزائم والعقائد والجملة اعترض تذييلي حامل على الإيمان رادع
عن الكفر والتناق بما فيه من الوعد والوعيد .

﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ أى معينهم أو متولى أمورهم والمراد بهم الذين
ثبت فى علمه تعالى إيمانهم فى الجملة مآلا أو حالا ﴿ يخرجهم ﴾ تفسير للولاية
أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة أو حال من الضمير فى ولي ﴿ من
الظلمات ﴾ التى هى أعم من ظلمات الكفر والمعاصى وظلمات الشبه بل بما فى
بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس إلى مراتبها
القوية الجلية بل عما فى جميع مراتبها بالنظر إلى مرتبة العيان كما ستعرفه ﴿ إلى
النور ﴾ الذى يعم نور الإيمان ونور الإيقان بمراتبه ونور العيان أى يخرج
بهديته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التى وقع فيها إلى ما يقابلها من النور
وإفراد النور لتوحيد الحق كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال ﴿ والذين
كفروا ﴾ أى الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم ﴿ أولياؤهم الطاغوت ﴾ أى
الشياطين وسائر المضنين عن طريق الحق فالموصول مبتدأ وأولياؤهم مبتدأ ثان.
والطاغوت خبره والجملة خبر للآول والجملة الحاصلة معطوفة على ما قبلها ولعل
تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطاغوت فى مقابلة الاسم الجليل ولقصد
المبالغة بتكرير الإسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى
من جهة التعبير أيضا ﴿ يخرجونهم ﴾ بالوساوس وغيرها من طرق الإضلال
والإغواء ﴿ من النور ﴾ الفطرى الذى جبل عليه الناس كافة أو من نور
البيئات التى يشاهدونها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم بتنزيل تمكينهم من
الاستضاءة بها منزلة نفسها ﴿ إلى الظلمات ﴾ ظلمات الكفر والانهماك فى الغل.
وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الإسلام والجملة نفسير لولاية الطاغوت أو خبر
ثان كما مر وإسناد الإخراج من حيث السببية إلى الطاغوت لا يقدح فى استناده
من حيث الخلق إلى قدرته سبحانه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار
اتصافه بما فى حيز الصلة وما يتبعه من القبائح ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملايسوها
وملازموها بسبب ما لهم من الجرائم ﴿ هم فيها خالدون ﴾ ما كئون أبدا .

﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ استشهاد على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى (ألم تر أنهم في كل واديهيمون) كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها وإنما بدى بهذا الرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجتزاؤه على الحاجة في الله عز وجل وما أتى بها في أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقة ولأن فيما بعده تعدداً وتفصيلاً يورث تقديمه انتشار النظم على أنه قد أشير في تضاعيفه إلى هداية الله تعالى أيضاً بواسطة إبراهيم عليه السلام فإن يحكى عنه من الدعوة إلى الحق وإدحاض حجة الكافر من آثار ولايته تعالى وهمزة الاستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفى أى ألم تنظر أو ألم ينته عليك إلى هذا الطاغوت المارد كيف تصدى لإضلال الناس وإخراجهم من النور إلى الظلمات أى قد تحققت الرؤية وتقررت بناء على أن أمره من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد بمن له حظ من الخطاب فظهر أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشریف له ولإيدان بتأييده في الحاجة ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ أى لأن آتاه إياه حيث أبطره ذلك وحمله على الحاجة أو حاجه لأجله وضعا للحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر كما يقال عاديتنى لأن أحسنت إليك أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إيتاء الله الملك للكافر .

﴿ إذ قال إبراهيم ﴾ ظرف لحاج أو بدل من آتاه على الوجه الأخير ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾ بفتح ياء ربى وقرئ بحذفها . روى أنه عليه الصلاة والسلام لما كسر الأصنام سجنه ثم أخرجه فقال من ربك الذى تدعو إليه قال ربى الذى يحيى ويميت أى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل كيف حاجه فى هذه المقالة القوية الحققة فقيل قال ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ روى أنه دعا برجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر فقال ذلك ﴿ قال إبراهيم ﴾ استئناف كما سلف كأنه قيل فماذا قال

إبراهيم لمن في هذه المرتبة من الحماقة وبماذا أخمه ف قيل قال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
 بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ﴾ حسبما تقتضيه مشيئته ﴿ فَأَتَى بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ لأن
 كنت قادرا على مثل مقدوراته تعالى فلم^(١) يلتفت عليه السلام إلى إبطال
 مقالة اللعين إذانا بأن بطلانها من الجلاء والظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد
 وأن التصدي لإبطالها من قبيل السعى في تحصيل الحاصل وأتى بمثال لا يجد
 اللعين فيه مجالا للتمويه والتلبيس ﴿ فَهَبْتَ الذِّى كَفَرَ ﴾ أى صار مبهوتا
 وقرىء على بناء الفاعل على أن الموصول مفعوله أى فغلب إبراهيم الكافر
 وأسكته وإيراد الكفر في حيز الصلة للإشعار بعلامة الحكم والتنصيص على
 على كون المحاجة كفرا ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ تذييل مقرر لمضمون
 ما قبله أى لا يهدى الذين ظلموا أنفسهم بتعرضها للعذاب الخلد بسبب إعراضهم
 عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلال أو إلى سبيل النجاة أو إلى طريق
 الجنة يوم القيامة .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ استشهاد على ما ذكر من ولايته تعالى
 للؤمنين وتقرير له معطوف على الموصول السابق وإيثار أو الفارقة على الواو
 الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الأمر والكاف
 إما اسمية كما اختاره قوم جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها
 فيما ذكر كما في قولك الفعل المناضى مثل نصر إما زائدة كما ارتضاه آخرون
 والمعنى أو لم تر إلى مثل الذى أو الى الذى مر على قرية كيف هداه الله تعالى
 وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود أى قد رأيت ذلك
 وشاهدته فإذا لا ريب فى أن الله ولى الذين آمنوا الخ . هذا وإما جعل الهمزة
 لمجرد التعجيب على أن يكون المعنى فى الأول ألم تنظر إلى الذى حاج الخ
 أى انظر إليه وتعجب من أمره وفى الثانى أو رأيت مثل الذى مر الخ إذانا
 بأن حاله وما جرى عليه فى الغرابة بحيث لا يرى له مثل كما استقر عليه

رأى الجمهور فغير خليق بجزالة التنزيل ونخامة شأنه الجليل فتدبر والمآر هو
 عزير بن شرخيا قاله قتادة والريبع وعكرمة وناجية بن كعب وسليمان
 ابن يزيد والضحاك والسدى رضى الله عنهم وقيل هو أرميا بن حلقيا من سبط
 هرون عليه السلام قاله وهب وعبيد الله بن عمير وقيل أرميا هو الخضر بعينه
 قال مجاهد كان المآر رجلا كافرا بالبعث وهو بعيد والقرية بيت المقدس قاله
 وهب وعكرمة والريبع ، وقيل هي دير هرقل على شط دجلة وقال السكبي
 هي دير سابار آباد وقال السدى هي دير سلما باد والاول هو الأظهر والأشهر
 روى أن بنى إسرائيل لما بالغوا في تعاطى الشر والفساد وجاوزوا في العتو
 والطغيان كل حد معتاد سلط الله تعالى عليهم بخت نصر البابلي فسار إليهم في
 ستمائة ألف راية حتى وطئ الشام وخرب بيت المقدس وجعل بنى إسرائيل
 أثلاثا ثلث منهم قتلهم وثلث منهم أسكنهم بالشام^(١) وثلث منهم سباهم وكانوا
 مائة ألف غلام يافع وغير يافع فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب
 كل مالك منهم أربعة غلبة وكان عزير من جعلتهم فلما نجاه الله تعالى منهم بعد
 حين مر بمহারه بيت المقدس فرآه على أفطع مرأى وأوحش منظر وذلك
 قوله عز وجل ﴿ وهى خاوية على عروشها ﴾ أى ساقطة على سقوفها بأن
 سقطت العروش ثم الحيطان من خوى البيت إذا سقط أو من خوت الأرض
 أى تهدمت والجملة حال من ضمير مر أو من قرية عند من يجوز الحال من النكرة
 مطلقا ﴿ قال ﴾ أى تلمفا عليها وتشوقا إلى عمارتها مع استشعار اليأس عنها
 ﴿ أنى يحى هذه الله ﴾ وهى على ما يرى من الحالة العجيبة المبينة للحياة وتقديمها
 على الفاعل للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشئ من جهتها لا من جهة
 الفاعل وأنى نصب على الظرفية إن كانت بمعنى متى وعلى الحالية من هذه إن
 كانت بمعنى كيف والعامل يحى وأياما كان فالمراد استبعاد عمارتها بالبناء
 والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا أيدي سبا ومن غيرهم وإنما عبر عنها

(١) في ط: أفرهم بالشام

بالإحياء الذى هو علم فى البعد عن الوقوع عادة تهويلا للخطب وتأكيذا للاستبعاد كما أنه لأجله عبر عن خرابها بالموت حيث قيل ﴿ بعد موتها ﴾ وحيث كان هذا التعبير معربا عن استبعاد الإحياء بعد الموت على أبلغ وجه وآكده أراه الله عز وجل أثر ذى أثر أبعد الأمرين فى نفسه ثم فى غيره ثم أراه ما استبعده صريحا مبالغة فى إزاحة ما عسى يختلج فى خلدته وأما حمل إحيائها على إحياء أهلها فيأباه التعرض لحال القرية دون حالهم والاقتصار على ذكر موتهم دون كونهم ترابا وعظاما مع كونه أدخل فى الاستبعاد لشدة مباينته للحياة وغاية بعده عن قبولها على أنه لم تتعلق إرادته تعالى بإحيائهم كما تعلقت بعارتها ومعاينة المار لها كما ستحيط به خبرا .

﴿ فأماته الله ﴾ وألبثه على الموت ﴿ مائة عام ﴾ روى أنه لما دخل القرية ربط حماره فطاف بها ولم يربها أحدا فقال ما قال وكانت أشجارها قد أثمرت فتناول من التين والعنب وشرب من عصيره ونام فأماته الله تعالى فى منامه وهو شاب وأمات حماره وبقية تينيه وعنبه وعصيره عنده ثم أعمى الله تعالى عنه عيون المخلوقات فلم يره أحد فلما مضى من موته سبعون سنة وجهه الله عز وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس يقال له يوشك إلى بيت المقدس ليعمره ومعه ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل فجعلوا يعمرونه وأهلك الله تعالى بخت نصر ببعوضة دخلت دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى إسرائيل وردمهم إلى بيت المقدس وتراجع إليه من تفرق منهم فى الأكشاف فعمروه ثلاثين سنة وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه فلما تمت المائة من موت عزير إحياء الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ ثم بعثه ﴾ وإشاره على إحياء للدلالة على سرعته وسهولة تأتية على البارئ تعالى كأنه بعثه من النوم وللإيدان بأنه أعاده كهينته يوم موته عاقلا فاعما مستعدا للنظر والاستدلال ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فإذا قال له بعثه فقل قال : ﴿ كم لبثت ﴾ ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة ربما يتوهم أنه هين فى الجملة بل بعد مدة طويلة وينجسم به

مادة استبعاده المرة ويطلع في تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرًا طويلا من غير تغيير ما وكم نصب على الظرفية مبرزها محذوف أى كم وقتا لبثت والقاتل هو الله تعالى أو ملك مأمور بذلك من قبله تعالى قيل نودى من السماء ياعزيزكم لبثت بعد الموت ؟

﴿ قال لبثت يوما أو بعض يوم ﴾ قاله بناء على التقريب والتخمين أو استقصاراً لمدة لبثه وأما ما يقال من أنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوما فالتفت إليها فرأى منها بقية فقال أو بعض يوم على وجه الإضراب فبمعزل عن التحقيق إذ لا وجه للجزم بتمام اليوم ولو بناء على حسابان الغروب لتحقيق النقصان من أوله ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ بل لبثت مائة عام ﴾ عطف على مقدر أى ما لبثت ذلك القدر بل هذا المقدار ﴿ فانظر ﴾ لتعاین أمرا آخر من دلائل قدرتنا ﴿ إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ أى لم يتغير في هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد ، روى أنه وجد تبنه وعشبه كما جنى وعصيره كما عصر والجملة المنفية حال بغير واو كقوله تعالى (لم يمسه) إما من الطعام والشراب وإفراد الضمير لجر يانها مجرى الواحد كالغذاء وإما من الأخير ا كنفاء بدلالة حاله على حال الأول ويؤيده قراءة من قرأ وهذا شرابك لم يتسن والهاء أصلية أو هاء سكوت واشتقاقه من السنه لما أن لامها هاء أو واو وقيل أصله لم يتسن من الحما المسنون فقلبت نونه حرف علة كما في تقضى البازى وقد جوز أن يكون معنى لم يتسنه لم يمر عليه السنون التى مرت لاحقيقة بل تشبيها أى هو على حاله كأنه لم يلبث مائة عام وقرىء لم يسنه بادغام التاء فى السين .

﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ كيف نخرت عظامه وتفرقت وتقطعت أوصاله وتمزقت ليتبين لك ما ذكر من لبثك^(١) المديد وتطمئن به نفسك وقوله

(١) فى ط : من اللبث

عز وجل ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق أى فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتعائن ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل ولنجعلك آية للناس الموجودين في هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية ويأخذوا منك ما طوى عنهم منذ أحقاب من علم التوراة كما سيأتى أو متعلق بفعل مقدر بعده أى ولنجعلك آية لهم على الوجه المذكور فعلنا ما فعلنا فهو على التقديرين دليل على ما ذكر من اللبث المديد ولذلك فرق بينه وبين الأمر بالنظر إلى حماره وتكرير الأمر في قوله تعالى : ﴿ وانظر إلى العظام ﴾ مع أن المراد عظام الحمار أيضا لما أن المسأور به أولا هو النظر إليها من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد وثانيا هو النظر إليها من حيث تعجزها الحياة ومبائها أى وانظر إلى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء في غيرك بعد ما شاهدت نفسه في نفسك ﴿ كيف ننشرها ﴾ بالزأى المعجزة أى ترفع بعضها إلى بعض وزردها إلى أماكنها من الجسد فنركبها تركيبا لا نقابها وقال السكسائي نليناها ونعظمها ولعل من فسر به بنحيها أراد بالإحياء هذا المعنى وكذا من قرأ ننشرها بالراء من أنشر الله تعالى الموتى أى أحيائها لا معناه الحقيقي لقوله تعالى

﴿ ثم نكسوها لحما ﴾ أى نستترها به كما يستر الجسد باللباس وأما من قرأ ننشرها بفتح النون وضم الشين فليعلمه أراد به ضد الطى كما قال الفراء فالمعنى كيف نبسطها والجملة إما حال من العظام أى وانظر إليها مركبة مكسوة لحما أو بدل اشتمال أى وانظر إلى العظام كيفية إنشازها وبسط اللحم عليها ولعل عدم التعرض لكيفية نفخ الروح لما أنها بما لا تقتضى الحكمة بيانه ، روى أنه نودى أيتها العظام البالية أن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع كل جزء من أجزائها التى ذهب بها الطير والسباع وطار بها الرياح من كل سهل وجبل فانضم بعضها إلى بعض والتصق كل عضو بما يليق به الضلع والذراع بمحملها والرأس بموضعها ثم الأعصاب والعروق ثم انبسط عليه اللحم ثم

الجلد ثم خرجت منه الشعور ثم نفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق .

﴿ فلما تبين له ﴾ أى ما دل عليه الأمر بالنظر إليه من كيفية الإحياء بمباديه والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الأمر المذكور وإنما حذف الإبدان بظهور تحققه واستغنائه عن الذكر وللإشعار بسرعة وقوعه كما فى قوله عز وجل ﴿ فلما رآه مستقرا عنده ﴾ بعد قوله ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ كأنه قيل فأنشزها الله تعالى وكساها لحماً فنظر إليها فتبين له كيفية فلما تبين له ذلك أى اتضح اتضاحاً تاماً ﴿ قال أعلم أن الله على كل شيء ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما شاهده فى نفسه وفى غيره من تعاجيب الآثار ﴿ قدير ﴾ لا يستعصى عليه أمر من الأمور وإيثار صيغة المضارع للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظراً إلى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل بل إنما تبدل بالعيان وصفه وفيه إشعار بأنه إنما قال ما قال بناء على الاستبعاد العادى واستعظام الأمر وقد قيل فاعل تبين مضمرة يفسره مفعول أعلم أى فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير قال أعلم أن الله على كل شيء قدير فتدبر وقرىء تبين له على صيغة المجهول وقرىء قال اعلم على صيغة الأمر ، روى أنه ركب حماره وأتى محلته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها عزير يا هذه هذا منزل عزير قالت نعم وأين ذكرى عزير وقد (١) فقدناه منذ كذا وكذا فبكى شديداً قال فإنى عزير قالت سبحان الله أنى يكون ذلك قال قد أمانى الله مائة عام ثم بعثنى قالت إن عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة فادع الله لى يرد على بهصرى حتى أراك فدعا ربه ومسح بيده عينيه فصحتا فأخذ بيدها فقال لها قومى بإذن الله فقامت صحيحة كأنها نشطت من عقال فنظرت إليه فقالت أشهد أنك عزير فانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل

وهم في أنديتهم وكان بها ابن لعزير قد بلغ مائة وثمانى عشرة سنة وبنو بنيه
 شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت انظروا فإنى بدعائه
 رجعت إلى هذه الحالة فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ابنه كان لأبى شامة
 سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فإذا هو كذلك وقد كان قتل بخت نصر
 ببيت المقدس من قراء التوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم
 نسخة من التوراة ولا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير
 أن يخرم منها حرفاً فقال رجل من أولاد المسييين ممن ورد بيت المقدس بعد
 مهلك بخت نصر حدثني أبى عن جدى أنه دفن التوراة يوم سبينا فى خابية
 فى كرم فإن أريتمونى كرم جدى أخرجتها لكم فذهبوا إلى كرم جده ففتشوا
 فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير من ظهر القلب فما اختلفا فى حرف
 واحد فعند ذلك قالوا هو ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين وإخراجه لهم
 من الظلمات إلى النور وإنما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بأن يقال
 أو كالأذى قال رب الخ لجرىان ذكره عليه السلام فى أثناء المحاجة ولأنه
 لا دخل لنفسه عليه السلام فى أصل الدليل كدأب عزير عليه السلام فإن
 ماجرى عليه من إحيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى
 وهدايته والظرف منتصب بمضمرة صرح بمثله فى نحو قوله تعالى (واذكروا
 إذ جعلكم خلفاء) أى واذكر وقت قوله عليه السلام وما وقع حينئذ من
 تعاجيب صنع الله تعالى لتقف على ما مر من ولايته تعالى وهدايته وتوجيه
 الأمر بالذكر فى أمثال هذه المواقع إلى الوقت دون ما وقع فيه من الوقائع
 مع أنها المقصودة بالتذكير لما ذكر غير مرة من المبالغة فى إيجاب ذكرها
 لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن
 الوقت مشتمل عليها مفصلة فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها بحيث

لا يشذ عنها شيء مما ذكر عند الحكاية أو لم يذكر كأنها مشاهدة عياناً ﴿رب﴾ كلمة استعطاف قدمت بين يدي الدعاء مبالغة في استدعاء الإجابة ﴿أرني﴾ من الرؤية البصرية المتعدية إلى واحد وبدخول همزة النقل طلبت منعولاً آخر هو الجملة الاستفهامية المعلقة لها فإنها تعلق كما يعلق النظر البصري أى اجعلنى مبصراً ﴿كيف تحيى الموتى﴾ بأن يحييها وأنا أنظر إليها وكيف فى محل نصب على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الأخفش والعامل فيها تحيى أى فى أى حال أو على أى حال تحيى قال القرطبي الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حال شيء متقرر الوجود عند السائل والمسئول فالاستفهام ههنا عن هيئة الإحياء المتقرر عند السائل أى بصرى كيفية إحيائك للموتى وإنما سأله عليه السلام ليتأكد لإيقانه بالعيان ويزداد قلبه اطمئناناً على اطمئنانه وأما ما قيل من أن نمرود لما قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم عليه السلام إن إحياء الله تعالى برد الأرواح إلى الأجساد فقال نمرود هل عاينته فلم يقدر على أن يقول نعم فانتقل إلى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ذلك فيأباه تعليل السؤال بالاطمئنان .

﴿قال﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿أولم تؤمن﴾ عطف على مقدر أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى إرادته قاله عز وعلا وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبت الناس إيماناً وأفواهم يقيناً ليجيب بما أجاب به فيكون ذلك لطفاً للسامعين ﴿قال بلى﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على الإحياء على أى كيفية شئت ﴿ولسكن﴾ سألت ما سألت ﴿ليطمئن قلبي﴾ بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة .

﴿قال نفذ﴾ الفاء لجواب شرط محذوف أى إن أردت ذلك نفذ ﴿أربعة من الطير﴾ قيل هو اسم لجمع طائر كركب وسفر وقيل جمع له كذاجر وتجر وقيل هو مصدر سمي به الجذس وقيل هو تخفيف طير بمعنى طائر كهين فى هين ومن متعلقة بنفذ أو بمحذوف وقع صفة لأربعة أى أربعة كأنه من

الطير قيل هي طاوس وديك وغراب وحمامة وقيل نسر بدل الأخير وتخصيص الطير بذلك لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتى ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك ﴿فصرهن﴾ من صاره يصوره أى أماله وقرىء بكسر الصاد من صاره يصيره أى أملهن واضممهن وقرىء فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من صره يصره وإذا جمعه وقرىء فصرهن من التصرية بمعنى الجمع أى اجمعهن ﴿إليك﴾ لتأملها وتعرف شياتها منفصلة حتى تعلم بعد الإحياء أن جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلاً ، روى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزائها ويخطط ريشها ودماءها ولحومها ويمسك رؤسها ثم أمر بأن يجعل أجزائها على الجبال وذلك قوله تعالى ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ أى جزئاً وفرق أجزأهن على ما بحضرتك من الجبال قيل كانت أربعة أجبل وقيل سبعة فجعل على كل جبل ربعاً أو سبعة من كل طائر وقرىء جزواً بضمهين وجزا بالتشديد بطرح همزته تخفيفاً ثم تشديده عند الوقف ثم لاجراء الوصل بجري الوقف .

﴿ثم ادعن يا نينك﴾ فى حين الجزم على أنه جواب الأمر ولكنه بنى لاتصاله بنون جمع المؤنث ﴿سعيًا﴾ أى ساعيات مسرعات أو ذوات سعى طيراناً أو مشياً وإنما اقتصر على حكاية أوامره عز وجل من غير تعرض لامثاله عليه السلام ولا لمسا ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى كما روى أنه عليه السلام نادى فقال تعالىن يا ذن الله فجعل كل جزء منهن يطير إلى صاحبه حتى صارت جثثاً ثم أقبلن إلى رؤسهن فانضمت كل جثة إلى رأسها فعادت كل واحدة منهن إلى ما كانت عليه من الهيئة للإيدان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلاً وناهيك بالقصة دليلاً على فضل الخليل ويمين الضراعة فى الدعاء وحسن الأدب فى السؤال حيث أراه الله تعالى ما سأل فى الحال على أيسر ما يكون منى الوجوه وأرى عزيراً ما أراد بعدما أماته مائة عام

﴿ واعلم أن الله عزيز ﴾ غالب على أمره لا يعجزه شيء عما يريد ﴿ حكيم ﴾ ذو حكمة بالغة في أفعاله فليس بناء أنعاله على الأسباب العادية لعجزه عن إيجادها بطريق آخر خارق للعادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح .

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ أى في وجوه الخير من الواجب والنفل ﴿ كمثل حبة ﴾ لا بد من تقدير مضاف في أحد الجانبين أى مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿ أنبتت سبع سنابل ﴾ أى خرجت ساقا تشعب منها سبع شعب لسكل واحدة منها سنبل ﴿ في كل سنبل مائة حبة ﴾ كما يشاهد ذلك في الذرة والدخن في الأراضي المغلة بل أكثر من ذلك وإسناد الإنبات إلى الحبة مجازى كإسناده إلى الأرض والربيع وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدي الناظر ﴿ والله يضاعف ﴾ تلك المضاعفة أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يضاعف له بفضلته على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ولذلك تفاوتت مراتب الأعمال في مقادير الثواب ﴿ والله واسع ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿ عليم ﴾ بنية المنفق ومقدار إنفاقه وكيفية تحصيل ما أنفق ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ جملة مبتدأة جىء بها لبيان كيفية الإنفاق الذى بين فضله بالتمثيل المذكور ﴿ ثم لا يتبعون ما أنفقوا ﴾ أى ما أنفقوه أو إنفاقهم ﴿ منا ولا أذى ﴾ المن أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك حقا والأذى أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه وإنما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة لا للدلالة على شمول النفي لإتباع كل واحد منهما وثم لإظهار علو رتبة المعطوف ، قيل نزلت في عثمان رضى الله عنه حين جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه حين أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقة ولم يكدر يخطر ببالها شيء من المن أو الأذى ﴿ لهم أجرهم ﴾ أى حسبما وعد لهم في ضمن التمثيل وهو جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا عن الموصول وفي تكرير الإسناد وتقييد الأجر بقوله ﴿ عند ربهم ﴾ من التأكيد والتشريف

مالا يخفى وتخليه الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان بأن ترتب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك إتباع المن والأذى أمر بين لا يحتاج إلى التمهيد بالاسببية وأما إيهام أنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا فيأباه مقام الترغيب في الفعل والحث عليه ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ في الدارين من حقوق مكروه من المكروه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ لفوات مطلوب من المطالب قل أو جل أى لا يعترهم ما يوجب له أنه يعترهم ذلك لسكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعترهم خوف وحزن أصلاً بل يستمرون على النشاط والسرور ، كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته واستقصارا للجد والسعى في إقامة حقوق العبودية من خواص الخاصة والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا عالما أن النفس وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام .

﴿ قول معروف ﴾ أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يرد به السائل من غير إعطاء شيء ﴿ ومغفرة ﴾ أى ستر لما وقع من السائل من الإلحاف في المسئلة وغيره مما يثقل على المسئول وصفح عنه وإنما صح الابتداء بالنسبة في الأول لاختصاصها بالوصف وفي الثاني بالعطف أو بالصفة المقدرة أى ومغفرة كائنة من المسئول ﴿ خير ﴾ أى للسائل ﴿ من صدقة يتبعها أذى ﴾ لكونها مشوبة بضرر ما يتبعها وخلوص الأولين من الضرر والجملة مستأنفة مقررة لاعتبار ترك إتباع المن والأذى وتفسير المغفرة بنيل مغفرة من الله تعالى بسبب الرد الجميل أو بعفو السائل بناء على اعتبار الخيرية بالنسبة إلى المسئول يؤدي إلى أن يكون في الصدقة الموصوفة بالنسبة إليه خير في الجملة مع بطلانها بالمرة ﴿ والله غنى ﴾ لا يحوج الفقراء إلى تحمل مؤنة المن والأذى ويرزقهم من جهة أخرى ﴿ حلیم ﴾ لا يعاجل

أصحاب المن والأذى بالعقوبة لا أنهم لا يستحقونها بسببهما والجملة تذييل لما قبلها مشتمل على الوعد والوعيد مقرر لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعا ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أقبل عليهم بالخطاب لاثربيان ما بطريق الغيبة مبالغة في إيجاب العمل بموجب النهى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ أى لا تبطلوا أجرها بواحد منهما ﴿ كالذى ﴾ فى محل النصب إما على أنه نعت لمصدر محذوف أى لا تبطلوها لإبطال الذى ﴿ ينفق ماله رياء الناس ﴾ وإما على أنه حال من فاعل لا تبطلوها مشابهين الذى ينفق أى الذى يبطل إنفاقه بالرياء وقيل من ضمير المصدر المقدر على ما هو رأى سيئويه وانتصاب رياء إما على أنه علة لينفق أى لأجل رئاتهم أو على أنه حال من فاعله أى ينفق ماله مرانيا والمراد به المنافق لقوله تعالى ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا .

﴿ فثله ﴾ الفاء لربط ما بعدها بما قبلها أى فثل المرأتى فى الإنفاق وحالته العجيبة ﴿ كمثل صفوان ﴾ أى حجر أملس ﴿ عليه تراب ﴾ أى شىء يسير منه ﴿ فأصابه وابل ﴾ أى مطر عظيم القطر ﴿ فتركه صلدا ﴾ أملس ليس عليه شىء من الغبار أصلا ﴿ لا يقدرّون على شىء مما كسبوا ﴾ لا يفتفعون بما فعلوا رياء ، ولا يجدون له ثوابا قطعا كقوله تعالى (فجعلناه هباء منثورا) والجملة استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل لا يقدرّون إلخ ومن ضرورة كون مثلهم كما ذكر كون مثل من يشبههم وهم أصحاب المن والأذى كذلك والضميران الأخيران للموصول باعتبار المعنى كما فى قوله عز وجل (وخضتم كالذى خاضوا) لما أن المراد به الجنس أو الجمع أو الفريق كما أن الضمائر الأربعة السابقة له باعتبار اللفظ ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ إلى الخير والرشاد والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى من خصائص الكفار ولا بد للؤمنين أن يحتنبوها ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ﴾

أى لطلب رضاه ﴿ وتثبينا من أنفسهم ﴾ أى ولثبنت بعض أنفسهم على الإيمان فمن تبعيضية كما فى قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه فإن المال شقيق الروح فمن ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فقد ثبتها كلها أو تصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم فمن ابتدائية كما فى قوله تعالى (حسدا من عند أنفسهم) ويحتمل أن يكون المعنى وتثبينا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصه فيه ويعضده قراءة من قرأ وتبيننا من أنفسهم وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال الذى هو رأس كل خطيئة .

﴿ كمثلجنة بربرة ﴾ الربوة بالحركات الثلاث وقد قرئ^(١) بها المسكان المرتفع أى مثل نفقتهم فى الزكاه كمثل بستان كائن بمكان مرتفع فأمون من أن يظلمه البرد للطاقة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له فإن أشجار الربا تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا وأما الأراضى المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة هوائها بركوند الرياح وقرئ كمثل حبة ﴿ أصابها وابل ﴾ مطر عظيم القطر ﴿ فأتأكلها ﴾ ثمرتها وقرئ بسكون الكاف تخفيفا ﴿ ضعفين ﴾ أى مثلى ما كانت تثمر فى سائر الأوقات بسبب ما أصابها من الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثال ونصبه على الحال من أكلها أى مضاعفا ﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ أى فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها ولطاقة هوائها وقيل فيصيبها طل وهو المطر الصغير القطر وقيل فالذى يصيبها طل والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لاتضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار ما يقارنها من الأحوال ويجوز أن يعتبر التمثيل بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير والبسير فسكا أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها فكذلك نفقتهم

(١) فى ط : قرئت .

جملت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى زاكية زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عند الله ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ لا يخفى عليه شيء منه وهو ترغيب في الإخلاص مع تحذير من الرياء ونحوه .

﴿ أيود أحدكم ﴾ الودحب الشيء مع تمنيه ولذلك يستعمل استعمالها والهمزة لإنكار الوقوع كما في قوله أأضرب أبى لا لإنكار الواقع كما في قولك أأضرب أباك على أن مناط الإنكار ليس جميع ما تعلق به الود بل إنما هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق ﴿ أن تكون له جنة ﴾ وقرىء جنات ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ أى كائنة منهما على أن يكون الأصل والركن فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقي من المستنبعات لأعلى ألا يكون فيها غيرهما كما ستمعرفه والجنة تطلق على الأشجار الملتفة المستكاثفة قال زهير .

كان عيني في غربى مفتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

وعلى الأرض المشتعلة عليها والأول هو الأنسب بقوله عز وجل ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ إذ على الثاني لا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وكذلك لا بد من جعل إسناد الاحتراق إليها فيما سيأتى مجازيا والجملة في محل الرفع على أنها صفة جنة كما أن قوله تعالى (من نخيل وأعناب) كذلك أوفى محل النصب على أنها حال منها لأنها موصوفة ﴿ له فيها من كل الثمرات ﴾ الظرف الأول خبر والثانى حال والثالث مبتدأ أى صفة للمبتدأ قائمة مقامه أى له رزق من كل الثمرات كما في قوله تعالى (ومامننا إلا له مقام معلوم) أى ومامننا أحد إلا له الخ وليس المراد بالثمرات العموم بل إنما هو التكثير كما في قوله تعالى (وأوتيت من كل شيء) ﴿ وأصابه الكبر ﴾ أى كبر السن الذى هو مظنة شدة الحاجة إلى منافعها كمال العجز عن تدارك أسباب المعاش والواو حالية أى وقد أصابه الكبر ﴿ وله ذرية ضعفاء ﴾ حال من الضمير فى أصابه أى أصابه الكبر والحال أن له ذرية صفارا لا يقدرون على الكسب وترتيب مبادئ المعاش وقرىء ضعاف ﴿ فأصابها إعصار ﴾ أى ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم

تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود ﴿ فيه نار ﴾ شديدة ﴿ فاحترقت ﴾ عطف على فأصابها وهذا كما ترى تمثيل لحال من يعمل أعمال البر والحسنات ويضم إليها ما يحبها من القوادح ثم يمجدها يوم القيامة عند كمال حاجته إلى ثوابها هباء منثورا بها في التحسر والتأسف عليها. ﴿ كذلك ﴾ توحيد الكاف مع كون المخاطب جمعاً قد مر وجهه مراراً أى. مثل ذلك البيان الواضح الجارى في الظهور مجرى الأمور المحسوسة ﴿ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ كي تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العبر وتعملوا بموجبها .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ بيان لحال ما ينفق منه إثر بيان أصل الإنفاق وكيفيته أى أنفقوا من خلال ما كسبتم وجيادته. لقوله تعالى (ان تناولوا البر حتى تنفقوا عما تحبون) ﴿ وما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ أى من طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن لخذف لدلالة ما قبله عليه ﴿ ولا تيمموا ﴾ بفتح التاء أصله ولا تقيموا وقرىء بهضمها. وقرىء ولا تأموا والكل بمعنى القصد أى لا تقصدوا ﴿ الخبيث ﴾ أى الردى. الخسيس وهو كالطيب من الصفات الغالبة التى لا تذكر موصوفاتها ﴿ منه تنفقون ﴾ الجار متعلق بتنفقون والضمير للخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل تيمموا أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه أو من الخبيث أى محتصا به الإنفاق وأياً ما كان فالتخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من إنفاق الخبيث خاصة لا لتسوية إنفاقه مع الطيب عن ابن عباس. رضى الله عنهما أنهم كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من الخبيث والضمير للمال المدلول عليه بحسب المقام أو للموصولين على طريقة قوله :

* كأنه فى الجلد توليع البهق *

أو للثاني وتخصيصه بذلك لما أن التفاوت فيه أكثر وتنفقون حال من. الفاعل المذكور أى ولا تقصدوا الخبيث كأننا من المال أو مما كسبتم .

وما أخرجنا لكم منفقين إياه وقوله تعالى ﴿ولستم بأخذيهِ﴾ حال على كل حال من واو تنفقون أى والحال أنكم لا تأخذونه فى معاملاتكم فى وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ أى إلا وقت إغماضكم فيه وهو عبارة عن المساحطة بطريق السكينة أو الاستعارة يقال أغمض بصره إذا غضه وقرىء على البناء للمفعول على معنى إلا أن تحملوا على الإغماض وتدخلوا فيه أو توجدوا مغمضين وقرىء وتغمضوا وتغمضوا بضم الميم وكسرها وقيل تم الكلام عند قوله تعالى (ولا تميموا الخبيث) ثم استؤنف فقيل على طريقة التوبيخ والتقريع منه تنفقون والحال أنكم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم فيه ومآله الاستفهام الإنكارى فكأنه قيل أمنه تنفقون الخ ﴿واعلموا أن الله غنى﴾ عن إنفاقكم وإنما يأمركم به لمنفعتكم وفى الأمر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث ولإيدان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى فإن إعطاء مثله إنما يكون عادة عند اعتقاد المعطى أن الآخذ محتاج إلى ما يعطيه بل مضطر إليه ﴿حميد﴾ مستحق للحمد على نعمه العظام وقيل حامد بقبول الجيد والإثابة عليه .

﴿الشیطان يعدكم الفقر﴾ الوعد هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر مترتباً على شيء من زمان أو غيره يستعمل فى الشر استعماله فى الخير قال تعالى : (النار وعدّها الله الذين كفروا) أى يعدكم فى الإنفاق الفقر ويقول إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا وإنما عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يصف بحىء الفقر إلى جهته للإيدان بمبالغته فى الإخبار بتحقيق بحیئه كأنه نزل فى تقرير الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب إرادته أو لوقوعه فى مقابلة وعده تعالى على طريقة المشاكلة وقرىء بضم الفاء والسكون وبضميتين وبفتحتين ﴿ويا أمرکم بالفحشاء﴾ أى بالخصلة الفشحاء أى ويغربكم على البخل ومنه الصدقات إغراء الأمر للأمور على فعل المأمور به والعرب تسمى البخیل فاحشاً قال طرفة باين العبد :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيمة مال الفاحش المتشدد
وقيل بالمعاصي والسيئات ((والله يعدكم)) أى فى الإنفاق ((مغفرة))
لذنوبكم والجار فى قوله تعالى ((منه)) متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة.
مؤكددة لفخامتها التى أفادها تنكيرها أى مغفرة أى مغفرة كائنة منه عن
وجل ((وفضلا)) صفته محذوفة لدلالة المذكور عليها كما فى قوله تعالى (فانقلبوا
بنعمة من الله وفضل) ونظائره أى وفضلا كائنا منه تعالى أى خلفا مما أنفقتم
زائدا عليه فى الدنيا وفيه تكذيب للشيطان وقيل ثوبا فى الآخرة ((والله
واسع)) قدرة وفضلا فيحقق ما وعدكم به من المغفرة وإخلاف ما تنفقونه.
((عليم)) مبالغ فى العلم فيعلم إنفاقكم فلا يكاد يضيع أجركم أو يعلم ما سيكون
من المغفرة والفضل فلا احتمال للخلف فى الوعد والجملة تذييل مقرر لمضمون
ما قبله .

((يؤتى الحكمة)) قال مجاهد الحكمة هى القرآن والعلم والفقه روى
عن ابن نجيم أنها الإصابة فى القول والعمل وعن إبراهيم النخعى أنها معرفة
معانى الأشياء وفهمها وقيل هى معرفة حقائق الأشياء وقيل هى الإقدام على
الأفعال الحسنة الصائبة وعن مقاتل أنها تفسر فى القرآن بأربعة أوجه فتارة
بمواظب القرآن وأخرى بما فيه من عجائب الأسرار ومرة بالعلم والفهم
وأخرى بالنبوة ولعل الأنسب بالمقام ما ينتظم الأحكام المبينة فى تضاعيف
الآيات الكريمة من أحد الوجهين الأولين ومعنى إيتائها تبينها والتوفيق للعلم
والعمل بها أى يبينها ويوفق للعلم والعمل بها ((من يشاء)) من عباده أن يؤتيها
إياه بموجب سعة فضله وإحاطة عليه كما آتاكم ما بينه فى ضمن الآى من
الحكم البالغة التى يدور عليها فلك منافعكم فاعتنموها وسارعوا إلى العمل بها
والموصول مفعول أول ليؤتى قدم عليه الثانى للعناية به والجملة مستأنفة مقررة
لمضمون ما قبلها ((ومن يؤتى الحكمة)) على بناء المفعول وقرىء على البناء
للفاعل أى ومن يؤته الله الحكمة والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار الاعتناء
بشأنها وللإشعار بعلّة الحكم ((فقد أوتى خيرا كثيرا)) أى أى خير كثير

فإنه قد خير له خير الدارين ﴿وما يذكرك﴾ أى وما يتعظ بما أوتى من الحكمة أو وما يتفكر فيها ﴿إلا أولوا الألباب﴾ أى العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى مشايعة الهوى وفيه من الترغيب في المحافظة على الأحكام الواردة في شأن الإنفاق ما لا يخفى والجملة إما حال أو اعتراض تذييلي .

﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ بيان لحكم كل شئ شامل لجميع أفراد النفقات وما في حكمها لئلا يبين حكم ما كان منها في سبيل الله وما إما شرطية أو موصولة حذف عاندها من الصلة أى وما أنفقتموه من نفقة أى نفقة كانت في حق أو باطل في سر أو علانية قليلة أو كثيرة ﴿أو نذرتهم﴾ النذر عقد الضمير على شئ والتزامه وفعله كضرب ونصر ﴿من نذر﴾ أى نذر كان في طاعة أو معصية بشرط أو بغير شرط متعلق بالمال أو بالأفعال كالصيام والصلاة ونحوهما ﴿فإن الله يعلمه﴾ الفاء على الأول داخلة على الجواب وعلى الثاني منيدة في الخبر وتوحيد الضمير مع تعدد متعلق العلم لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بكلمة أو كما في قولك زيد أو عمرو أكرمه ولا يقال أكرمتها ولهذا صرنا^(١) إلى التأويل في قوله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) بل يعاد الضمير تارة إلى المقدم رعاية للأولية كما في قوله عز وعلا (ولإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) وأخرى إلى المؤخر رعاية للقرب كما في هذه الآية الكريمة وفي قوله تعالى (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً) وحمل النظم على تأويلهما بالذكور ونظائره أو على حذف الأول ثقة بدلالة الثاني عليه كما في قوله تعالى (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) وقوله :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأى مختلف

ونحوهما مما عطف فيه بالواو الجامعة تعسف مستغنى عنه نعم يجوز إرجاع الضمير إلى ما على تقدير كونها موصولة وتصدير الجملة بأن لتأكيد مضمونها

إفادة لتحقيق الجزاء أى فإنه تعالى يجازيكم عليه ألبتة إن خيراً فخير وإن شراً فشر فهو ترغيب وترهيب ووعد ووعيد ﴿وما للظالمين﴾ بالإففاق والنذر فى المعاصى أو بمنع الصدقات وعدم الوفاء بالنذر أو بإففاق الحديث أو بالرياء والمن والأذى وغير ذلك مما ينتظمه معنى الظلم الذى هو عبارة عن وضع الشيء فى غير موضعه الذى يحق أن يوضع فيه ﴿من أنصار﴾ أى أعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه لأشفاعة ولا مدافعة وإيراد صيغة الجمع لمقابلة الظالمين أى وما لظالم من الظالمين من نصير من الأنصار والجملة استئناف مقرر لما فيما قبله من الوعيد مفيد لفظاعة حال من يفعل ما يفعل من الظالمين لتحقيق الأعداء ورعاية الخللان .

﴿إن تبدوا الصدقات فنعماً هي﴾ نوع تفصيل لبعض ما أجمل فى الشرطية وبيان له ولذلك ترك العطف بينهما أى أن تظهروا الصدقات فنعم شيئاً لإبدائها بعد أن لم يكن رياء وسمعة وقرىء بفتح النون وكسر العين على الأصل وقرىء بكسر النون وسكون العين وقرىء بكسر النون وإخفاء حركة العين وهذا فى الصدقات المفروضة وأما فى صدقة التطوع فالإخفاء أفضل وهى التى أريدت بقوله تعالى ﴿وإن تخفوها﴾ أى تعطوها خفية ﴿وتؤتوها الفقراء﴾ ولعل التصريح بإيتائها الفقراء مع أنه واجب فى الإبداء أيضاً لما أن الإخفاء مظنة الالتباس والاشتباه فإن الغنى ربما يدعى الفقر ويقدم على قبول الصدقة سرا ولا يفعل ذلك عند الناس ﴿فهو خير لكم﴾ أى فالإخفاء خير لكم من الإبداء وهذا فى التطوع ومن لم يعرف بالمسأل وأما فى الواجب فالأمر بالعكس لدفع التهمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ أى والله يكفر أو الإخفاء ومن تبعيضية أى شيئاً من سيئاتكم كما سترتموها وقيل مزيدة على رأى الأخفش وقرىء بالتاء مرفوعاً ومجزوماً على أن الفعل للصدقات وقرىء بالنون مرفوعاً عطفاً على محل ما بعد الفاء أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى

ونحن نكفر أو على أنها جملة مبتدأة من فعل وفاعل وقرىء مجزوما عطفاً على محل الفاء وما بعده لأنه جواب الشرط ﴿ والله بما تعملون ﴾ من الإسرار والإعلان ﴿ خبير ﴾ فهو ترغيب في الإسرار .

﴿ ليس عليك هدام ﴾ أى لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى فعل (١) ما أمروا به من المحاسن والانتفاء عما نهوا عنه من القبائح المعدودة وإنما الواجب عليك الإرشاد إلى الخير والحث عليه والنهي عن الشر والردع عنه بما أوحى إليك من الآيات والذكر الحكيم ﴿ ولكن الله يهدي ﴾ هداية هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتماً ﴿ من يشاء ﴾ هدايته إلى ذلك بمن يتذكر بما ذكر ويتبع الحق ويختار الخير والجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمسكفين مبالغة في حملهم على الامتثال فإن الإخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبي صلى الله عليه وسلم مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق به ما بعده من الشرطية وقيل لما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التصديق على المشركين كي تحملهم الحاجة على الدخول في الإسلام فنزلت أى ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم في الإسلام فلا التفات حينئذ في الكلام وضمير الغيبة للمعهودين من فقراء المشركين بل فيه تلوين فقط وقوله تعالى :

﴿ وما تنفقوا من خير ﴾ على الأول التفات من الغيبة إلى خطاب المسكفين لزيادة هزم نحو الامتثال وعلى الثانى تلوين للخطاب بتوجيهه إليهم وصرفه عن النبي صلى الله عليه وسلم وما شرطية جازمة لتنفقوا متتصبة به على المفعولية ومن تبعية متعلقة بمحذوف وقع صفة لاسم الشرط مبينة ومخصصة له أى أى شئ تنفقوا كائن من مال ﴿ فلا أنفسكم ﴾ أى فهو لأنفسكم لا ينتفع

(١) فى ط : إلى الإبتان بما أمروا به

به غيركم فلا تمنوا على من أعطيتموه ولا تؤذوه ولا تنفقوا من الخبيث أو فتنفعه
الدينى لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه ممن لا ينتفع به من حيث الدين
من فقراء المشركين ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ استثناء من أعم العلل
أو أعم الأحوال أى ليست نفقتكم لشيء من الأشياء إلا لا ابتغاء وجه الله
أو ليست فى حال من الأحوال إلا حال ابتغاء وجه الله فما بالكم تمنون بها
وتنفقون الخبيث الذى لا يوجه مثله إلى الله تعالى وقيل هو نفى فى معنى النهى
﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم ﴾ أى أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة حسبما
فصل فيما قبل فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن إنفاقه على أحسن الوجوه
وأجملها فهو تأكيد وبيان للشرطية السابقة أو يوف إليكم ما يخلفه وهو من
نتائج دعائه عليه السلام بقوله اللهم اجعل للمنفق خلفاً وللممسك تلفاً^(١) وقيل
حجت أسماء بنت أبى بكر فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبى أن يعطيها
وعن سعيد بن جبير أنهم كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين
وروى أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود ورضاع كانوا ينفقون
عليهم قبل الإسلام فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم فنزلت وهذا فى غير الواجب
وأما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكافر وإن كان ذمياً ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾
لا تنقصون شيئاً مما وعدتم من الثواب المضاعف أو من الخلف .

﴿ للفقراء ﴾ متعلق بمحذوف ينساق إليه الكلام كما فى قوله عز وجل
(فى تسع آيات إلى فرعون) أى اعمدوا للفقراء أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء
أو صدقاتكم للفقراء ﴿ الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ بالغزو والجهاد
﴿ لا يستطيعون ﴾ لاشتغالهم به ﴿ ضرباً فى الأرض ﴾ أى ذهاباً فيها للكسب
والنجارة وقيل هم أهل الصفة كانوا رضى الله عنهم نحواً من أربعمائة من فقراء
المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقافهم بالعلم والجهاد وكانوا
يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يحسبهم الجاهل ﴾
بجاهلهم ﴿ أغنياء ﴾ أى من أجل تعففهم عن المسئلة ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾

(١) المشهور : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً .

أى تعرف فقرهم واضطرارهم بما تعاین منهم من الضعف ورثائة الحال والخطاب للرسول عليه السلام أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب مبالغة فى بیان وضوح فقرهم ﴿ لا يسألون الناس إلخافا ﴾ أى إلخاها وهو أن يلازم السائل المستول حتى يعطيه من قولهم لحفى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده والمعنى لا يسألونهم شيئاً وإن سألوا الحاجة اضطرتهم إليه لم يلحوا وقيل هو نفي لسكلا الأمرين جميعا على طريقة قوله :

• على لاحب لا يهتدى لمناره •

أى لا منار ولا اهتداء ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو ترغيب فى التصديق لاسيما على هؤلاء .
﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ﴾ أى يعمون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة وقيل نزلت فى شأن الصديق رضى الله عنه حيث تصدق بأربعين ألف دينار عشر آلاف منه بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرا وعشرة علانية وقيل فى على رضى الله عنه حين لم يكن عنده إلا أربعة دراهم فتصدق بكل واحد منها على وجه من الوجوه المذكورة ولعل تقديم الليل والنهار والسرا على العلانية للإيذان بمنزلة الإخفاء على الإظهار وقيل فى رباط الخيل والإنفاق عليها ﴿ فلمهم أجرهم عند ربهم ﴾ خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وقيل للعطف والخبر محذوف أى ومنهم الذين ألح ولذلك جوز الوقف على علانية ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ الذين يا كلون الربوا ﴾ أى يأخذونه والتعبير عنه بالأكل لما أنه معظم ما قصد به ولشيوعه فى المعلومات مع ما فيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادة فى المقدار أو فى الأجل حسبما فصل فى كتب الفقه وإنما كتب بالواو كالصلوة على لغة من يفخهم فى أمثالها وزيدت الألف تشبيها بواو الجمع ﴿ لا يقومون ﴾ أى من قبورهم إذا بعثوا ﴿ إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان ﴾ أى إلا قياما كقيام المصروع وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يتخبط

الإنسان فيصرع والخبط والضرب بغير استواء كخبط العشواء ((من المس))
 أى الجنون وهذا أيضا من زعماتهم أن الجنى يمسّه فيختلط عقله فلذلك يقال
 جن الرجل وهو متعلق بما قبله من الفعل المنفى أى لا يقومون من المس الذى
 بهم بسبب أكلهم الربا أو يقوم أو يبتخطه فيكون نهوضهم وسقوطهم
 كالمصروعين لاختلال عقولهم بل لأن الله تعالى أربى فى بطونهم ما أكلوا
 من الربا فأنقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون تلك سيأهم يعرفون بها
 عند أهل الموقف ((ذلك)) إشارة إلى ما ذكر من حالهم وما فى اسم الإشارة
 من معنى البعد للإيدان بفضاعة المشار إليه ((بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربوا))
 أى ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لإفصائهما إلى
 الربح فاستحلوه استحلالة وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ما قيمته
 درهم بدرهمين بل جعلوا الربا أصلا فى الحل وقاسوا به البيع مع وضوح
 الفرق بينهما فإن أحد الدرهمين فى الأول ضائع حتما وفى الثانى منجبر بمساس
 الحاجة إلى السلعة أو بتوقع رواجها .

((وأحل الله البيع وحرم الربوا)) إنكار من جهة الله تعالى لتسويتهم
 وإبطال للقياس لوقوعه فى مقابلة النص مع ما أشير إليه من عدم الاشتراك
 فى المناط والجملة ابتدائية لاحتلالها من الإعراب ((فمن جاءه موعظة)) أى
 فمن بلغه وعظ وزجر كالنهي عن الربا وقرىء جاءته ((من ربه)) متعلق
 بجاءه أو بمحذوف وقع صفة لموعظة والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة
 للإشعار بكون مجيء الموعظة للتربية ((فأنهى)) عطف على جاءه أى فاتعظ
 بلا تراخ وتبع النهى ((فله ما سلف)) أى ما تقدم أخذه قبل التحريم
 ولا يسترد منه وما مرتفع بالظرف إن جعلت من موصولة بالابتداء إن
 جعلت شرطية على رأى سيديوه لعدم اعتماد الظرف على ما قبله ((وأمره
 إلى الله)) يحاويه على انتهائه إن كان عن قبول الموعظة وصدق الشية وقيل
 يحكم فى شأنه ولا اعتراض لكم عليه ((ومن عاد)) أى إلى تحليل الربا
 ((فأولئك)) إشارة إلى من عاد والجمع باعتبار المعنى كما أن الأفراد فى عاد

اعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم في الشر والفساد ﴿ أصحاب النار ﴾ أى ملازموها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ ما كاثون فيها أبداً والجملة مقررة لما قبلها .

﴿ يمحى الله الربوا ﴾ أى يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ﴿ ويربى الصدقات ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيها ويزيد المال الذى أخرجت منه الصدقة . روى عنه صلى الله عليه وسلم أن الله يقبل الصدقة ويربها كما روى أحدكم مهره^(١) وعنه عليه الصلاة والسلام ما نقص مال من صدقة^(٢) قط ﴿ والله لا يحب ﴾ أى لا يرضى لأن الحب مختص بالتوايين ﴿ كل كفار ﴾ مصر على تحليل المحرمات ﴿ أثيم ﴾ منهمك فى ارتكابه ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم به ﴿ وعملوا الصالحات وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة ﴾ تخصيصهما بالذكر مع اندراجهما فى الصالحات لإنافتتهما على سائر الأعمال الصالحة على طريقة ذكر جبريل وميكال عقيب الملائكة عليهم السلام ﴿ لهم أجرهم ﴾ جملة من مبتدأ وخبر واقعة خبراً لأن أى لهم أجرهم الموعود لهم وقوله تعالى ﴿ عند ربهم ﴾ حال من أجرهم وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد لطف وتشريف لهم ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ من مكروه آت ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ من محبوب فات .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أى قوا أنفسكم عقابه ﴿ وذروا ما بقى من الربوا ﴾ أى واتركوا بقايا ما شرطتم منه على الناس تركاً كلياً ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ على الحقيقة فإن ذلك مستلزم لامتناع ما أمرتم به البتة وهو شرط حذف جوابه ثقة بما قبله أى إن كنتم مؤمنين فاتقوا وذروا الخ ، روى أنه كان لثقيف مال على بعض قریش فطالبوهم عند المحل بالمال والربا فنزلت ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ أى ما أمرتم به من الاتقاء وترك البقيا إما مع إنكار

(١) للروى : كما ربي أحدكم فلو . وهو المهر .

(٢) فى ط : ما نقصت زكاة من مال .

حرمته وإما مع الاعتراف بها ﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ أى فاعلموا بها من أذن بالشئ إذا علم به أما على الأول فكحرب المرتدين وأما على الثانى فكحرب البغاة ، وقرىء فأذنوا أى فاعلموا غيركم قيل هو من الأذان وهو الاستماع فإنه من طرق العلم وقرىء فأيقنوا وهو مؤيد لقراءة العامة وتنكير حرب للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة لفخامتها أى بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره كائن من عند الله ورسوله روى أنه لما نزلت قالت ثقيف لا يد لنا بحرب الله ورسوله ﴿وإن تبتم﴾ من الارتباء مع الإيمان بحرماتها بعدما سمعتموه من الوعيد ﴿فلكم رؤس أموالكم﴾ تأخذونها كمالا ﴿لا تظلمون﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة والجملة إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو حال من الضمير فى لكم والعامل ما تضمنه الجار من الاستقرار ﴿ولا تظلمون﴾ عطف على ما قبله أى لا تظلمون أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ومن ضرورة تعليق هذا الحكم بتوبتهم عدم ثبوته عند عدمها إن كان مع إنكار الحرمة فهم مرتدون ومالههم المكسوب فى حال الردة فى المسلمین عند أى حنیفة رضى الله عنه وكذا سائر أموالهم عند الشافعى وعندنا هو لورثتهم ولاشئ لهم على كل حال وإن كان مع الاعتراف بها فإن كان لهم شوكة فهم على شرف القتل لم تسلم لهم رؤسهم فكيف برؤس أموالهم وإلا فكذلك عند ابن عباس رضى الله عنهما فإنه يقول من عامل الربا يستتاب وإلا ضرب عنقه وأما عند غيره فهم محبوسون إلى أن تظهر توبتهم لا يمكنون من التصرفات أصلا فما لم يتوبوا لم يسلم لهم شئ من أموالهم بل إنما يسلم بموتهم لورثتهم .

﴿وإن كان ذو عسرة﴾ أى إن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة على أن كان تامة وقرىء ذا عسرة على أنها نافية ﴿فمنظرة﴾ أى فالحكم نظرة أو فعليكم نظرة أو فلتكن نظرة وهى الإنظار والإمهال وقرىء فناظره أى منتظره أو فصاحب نظره على طريق النسب وقرىء فناظره أمرا من المفاعلة

أى فسامحه بالنظرة ﴿ إلى ميسرة ﴾ أى إلى يسار وقرىء بضم السين وهما لغتان
 كمشرقة ومشرقة وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كما فى قوله :
 وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا . ﴿ وأن تصدقوا ﴾ بحذف أحد التامين
 وقرىء بتشديد الصاد أى وأن تتصدقوا على معسرى غرمائكم بالإبراء
 ﴿ خير لـكم ﴾ أى أكثر ثوابا من الإنظار أو خير بما تأخذونه لمضاعفة
 ثوابه ودوامه فهو نذير إلى أن يتصدقوا برؤوس أموالهم كلا أو بعضا على
 غرماهم المعسرين كقوله تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وقيل المراد بالتصدق
 الإنظار لقوله عليه السلام لا يحمل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم
 صدقة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ جوابه محذوف أى إن كنتم تعلمون أنه خير لـكم
 عملتموه ﴿ واتقوا يوما ﴾ هو يوم القيامة وتنكيره للتفخيم والتهويل وتعليق
 الإلتقاء به للمبالغة فى التحذير عما فيه من الشدائد والأحوال ﴿ ترجعون فيه ﴾
 على البناء للمفعول من الرجوع وقرىء على البناء للفاعل من الرجوع والأول
 أدخل فى التهويل وقرىء بالياء على طريق الالتفات وقرىء تردون وكذا
 تصيرون ﴿ إلى الله ﴾ لحاسبة أعمالكم ﴿ ثم توفى كل نفس ﴾ من النفوس
 والتمميم للمبالغة فى تهويل اليوم أى تعطى كاملاً^(١) ﴿ ما كسبت ﴾ أى جزاء
 ما عملت من خير أو شر ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ حال من كل نفس تفيد إن
 كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين فى ذلك لما أنه من قبل أنفسهم وجمع
 الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء كما أن الأفراد أوفق بحال الكسب عن ابن
 عباس رضى الله عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضمها فى
 رأس المسانين والثمانين من البقرة وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها
 أحداً وعشرين يوماً وقيل أحداً وثمانين وقيل سبعة أيام وقيل ثلاث
 ساعات .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ﴾ شروع فى بيان حال المداينة

(١) فى ط . كلاً .

الواقعة في تضاعيف المعاوضات الجارية فيما بينهم ببيع السلع بالنقود بعد بيان حال الربا أى إذا دأب بعضكم بعضا وعامله نسيئة معطيا أو أخذا وفائدة ذكر الدين دفع توهم كون التداين بمعنى المجازاة أو التنبيه على تنوعه إلى الحال والمؤجل وأنه الباعث على الكتابة وتعيين المرجع للضمير المنصوب المتصل بالامر ﴿ إلى أجل ﴾ متعلق بتدانيتم أو بمحذوف وقع صفة للدين ﴿ مسمى ﴾ بالأيام أو الأشهر ونظائرهما مما يفيد العلم ويرفع الجهالة لا بالحصاد والدياس ونحوهما مما لا يرفعها ﴿ فاكتبوه ﴾ أى الدين بأجله لأنه أوثق وأرفع للنزاع والجمهور على استحبابه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح في السلف ﴿ وليكتب بينكم كاتب ﴾ بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين لمن يتولاها إثر الأمر بها إجمالا وحذف المفعول لما لتعيينه أول القصد إلى إيقاع نفس الفعل أى ليفعل الكتابة وقوله تعالى بينكم للإيدان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتدائنين ويكتب كلامهما ولا يكتفى بكلام أحدهما وقوله تعالى ﴿ بالعدل ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة الكاتب أى كاتب كائن بالعدل أى وليسكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين لا يزيد ولا ينقص وهو أمر للمتدائنين باختيار كاتب فقيه دين حتى يحصى كتابه موثوقا به معدلا بالشرع ويجوز أن يكون حالا منه أى ملتبسا بالعدل وقيل متعلق بالفعل أى وليكتب بالحق ﴿ ولا يأب كاتب ﴾ أى ولا يمتنع أحد من الكتاب ﴿ أن يكتب ﴾ كتاب الدين ﴿ كما علمه الله ﴾ على طريقة ما علمه من كتبه الوثائق أو كما بينه بقوله تعالى بالعدل أولا ياب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة كقوله تعالى (وأحسن كما أحسن الله إليك) ﴿ فليكتب ﴾ تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن إبانها تأكيذا لها ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر على أن يكون النهى عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة .

﴿ وليلال الذى عليه الحق ﴾ الإملال هو الإملاء أى وليمكن المملى من عليه الحق لأنه المشهود عليه فلا بد أن يكون هو المقر ﴿ وليتق الله ربه ﴾

جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة في التحذير أى وليتق المملى
دون الكاتب كما قيل لقوله تعالى ﴿ ولا يبخس منه ﴾ أى من الحق الذى
يملكه على الكاتب ﴿ شيئاً ﴾ فإنه الذى يتوقع منه البخس خاصة ، وأما الكاتب
فيتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص فلو أريد نهيه لنهى عن كليهما وقد فعل
ذلك حيث أمر بالعدل وإنما شدد في تكليف المملى حيث جمع فيه بين الأمر
بالاتقاء والنهى عن البخس لما فيه من الدواعى إلى المنهى عنه فإن الإنسان
مجبور على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف ما في ذمته بما أمكن ﴿ فإن كان
الذى عليه الحق ﴾ صرح بذلك في موضع الإضرار لزيادة الكشف والبيان
لأن الأمر والنهى لغيره ﴿ سفيها ﴾ ناقص العقل مبذرا مجاز ﴿ أو ضعيفاً ﴾
صعباً أو شيخاً مختلاً ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾ أى غير مستطيع للإملاء
بنفسه لحرس أو عى أو جهل أو غير ذلك من العوارض ﴿ فليملل وليه ﴾ أى
الذى يلي أمره ويقوم مقامه من قيم أو وكيل أو مترجم ﴿ بالعدل ﴾ أى من
غير نقص ولا زيادة لم يكلف بعين ما كلف به من عليه الحق لأنه يتوقع منه
الزيادة كما يتوقع منه البخس ﴿ واستشهدوا شهيدين ﴾ أى اطلبوهما ليتمحلا
الشهادة على ما جرى بينكم من المداينة وتسميتهما شهيدين لتزيل المشارف
منزلة السكان ﴿ من رجالكم ﴾ متعلق باستشهدوا ، ومن ابتداءية أو
بمحذوف وقع صفة لشهيدين ومن تبعيضية أى شهيدين كائنين من رجال
المسلمين الأحرار إذ الكلام في معاملاتهم فإن خطابات الشرع لا تنتظم العبيد
بطريق العبارة كما بين في موضعه ، وأما إذا كانت المداينة بين الكفرة أو كان
من عليه الحق كافراً فيجوز استشهاد الكافر عندنا .

﴿ فإن لم يكونا ﴾ أى الشهيدين جميعاً على طريقة نفى الشمول لاشمول
النفي ﴿ رجلين ﴾ إما لإعوازهما أو لسبب آخر من الأسباب ﴿ فرجل
وامرأتان ﴾ أى فليشهد رجل وامرأتان يكفون وهذا فيما عدا الحدود
والقصاص عندنا ، وفي الأموال خاصة عند الشافعى ﴿ من ترضون ﴾ متعلق

بمحذوف وقع صفة لرجل وأمرأتان أى كائنون مرضيين عندكم وتخصيصهم بالوصف المذكور مع تحقق اعتباره فى كل شهيد لقلة اتصاف النساء به وقيل نعت لشهيدين أى كائنين ممن ترضون ورد بأنه يلزم الفصل بينهما بالأجنبي وقيل بدل من رجالكم بتكرير العامل ورد بما ذكر من الفصل وقيل متعلق بقوله تعالى فاستشهدوا فيلزم الفصل بين اشتراط المرأتين وبين تعليله وقوله عز وجل ﴿من الشهداء﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول أى ممن ترضونهم كائنين من بعض الشهداء لعلمكم بعد التهم وثقتكم بهم وإدراج النساء فى الشهداء بطريق التغليب ﴿إن تضل إحداهما فتذكر إحداها الأخرى﴾ تعليل لاعتبار العدد فى النساء والعلة فى الحقيقة هى التذكير ولكن الضلال لما كان سببا له منزلته كما فى قولك أعددت السلاح أن يحمى عدو فأدفعه كأنه قيل لأجل أن تذكر إحداها الأخرى إن ضلت عن الشهادة بأن نسيتها ولعل لإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل إحداها فتذكرها الأخرى لتأكيد الإبهام والمبالغة فى الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال بإحداها بعينها والتذكير بالأخرى وقرئ فتذكر من الإذكار وقرئ فتذكر وقرئ أن تضل على الشرط فتذكر بالرفع كقوله تعالى (ومن عاد فينتقم الله منه) ﴿ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا﴾ لأداء الشهادة أو لتحملها وتسميتهم شهداء قبل التحمل لما مر من تنزيل المشارف منزلة الواقع وما مزيدة . عن قتادة أنه كان الرجل يطوف فى الحواء العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد فنزلات .

﴿ولا تسأموا﴾ أى لا تملوا من كثرة مدايناتكم ﴿أن تكشبهوه﴾ أى الدين أو الحق أو الكتاب وقيل كنى به عن الكسل الذى هو صفة المنافق كما ورد فى قوله تعالى (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول المؤمن كسلت ﴿صغيراً أو كبيراً﴾ حال من الضمير أى حال كونه صغيراً أو كبيراً أى قليلاً أو كثيراً أو مجملاً أو مفصلاً ﴿إلى

﴿أجله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الهاء في تكتبوه أى مستقرا في الزمة إلى وقت حلوله ﴿ذلكم﴾ الذى أقر به المديون لإشارة إلى ما أمر به من التكتب والخطاب للمؤمنين ﴿أقسط﴾ أى أعدل ﴿عند الله﴾ أى فى حكمه تعالى ﴿وأقوم للشهادة﴾ أى أثبت لها وأعون على إقامتها وهما مبنيان من أقسط وأقام فإنه قياسى عند سيبويه أو من قاسط بمعنى ذى قسط وقويم وإنما صححت الواو فى أقوم كما صححت فى التعجب لمجوده ﴿وأدنى ألا ترتابوا﴾ وأقرب إلى انتفاء ريبتكم فى جنس الدين وقدره وأجله وشهوده ونحو ذلك ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾ استثناء منقطع من الأمر بالكتابة أى لكن وقت كون تداينكم أو تجارة حاضرة بحضور البدلين تديرونها بينكم بتعاطيها يدا بيد ﴿فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها﴾ أى فلا بأس بآلات تكتبوها لبعده عن التنازع والنسيان وقرىء برفع تجارة على أنها اسم كان وحاضرة صفتها وتديرونها خيرها أو على أنها تامة .

﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾ هذا التباع أو مطلقا لأنه أحوط والأوامر الواردة فى الآية الكريمة للندب عند الجمهور وقيل للوجوب ثم اختلف فى أحكامها ونسخها ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ نهى عن المضارة بمحتمل للبناءين كما ينهى عنه قراءة من قرأ ولا يضار بالسكر والفتح وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتغيير والتحريف فى الكتابة والشهادة أو نهى الطالب عن الضرر بهما بأن يعجزهما عن مهمهما أو يكلفهما الخروج عما حدلها أو لا يعطى السكاتب جعله وقرىء بالرفع على أنه نفي فى معنى النهى ﴿وإن تفعلوا﴾ ما نهيتهم عنه من الضرر ﴿فإنه﴾ أى فعلمكم ذلك ﴿فسوق بكم﴾ أى خروج عن الطاعة ملتبس بكم ﴿واتقوا الله﴾ فى مخالفة أوامره ونواهيه التى من جملتها نهيه عن المضارة ﴿ويعلمكم الله﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿والله بكل شئ عليم﴾ فلا يكاد يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لإدخال الروعة وتربية المهابة وللتنبية على استقلال كل منها بمعنى على

حياله فإن الأولى حث على التقوى والثانية وعد بالإععام والثالثة تعظيم لشأنه تعالى ﴿ وإن كنتم على سفر ﴾ أى مسافرين أو متوجهين إليه ﴿ ولم تجدوا كتابا ﴾ فى المدينة وقرىء كئابا وكتبا وكتابا ﴿ فرهان مقبوضة ﴾ أى فالذى يستوثق به أو فعليكم أو فليؤخذ أو فالمشروع رهان مقبوضة وليس هذا التعاقب لاشتراط السفر فى شرعية الارتهان كما حسبه مجاهد والضحاك لأنه صلى الله عليه وسلم رهن درعه فى المدينة من يهودى بعشرين صاعا من شعير أخذه لأهله بل لإقامة التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتابة^(١) فى السفر الذى هو مظنة إغوازا وإلما لم يتعرض لحال الشاهد لما أنه فى حكم الكاتب توثقا وإعوازا والجمهور على وجوب القبض فى تمام الرهن غير مالك وقرىء فرهن كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون وقرىء بسكون الهاء تخفيفا ﴿ فإن أمن بعضهم بعضا ﴾ أى بعض الدائنين بعض المدينين لحسن ظننه به واستغنى بأمانته عن الارتهان وقرىء فإن أومن بعضهم أى آمنه الناس ووصفوه بالأمانة قيل فيكون انتصاب بعضا حينئذ على نزع الحاقض أى على متاع بعض ﴿ فليؤد الذى أؤتمن ﴾ وهو المديون وإلما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقا للإعلام وحله على الأداء ﴿ أمانته ﴾ أى دينه وإلما سى أمانة لانتبانه عليه بترك الارتهان به وقرىء إبتمن بقلب الهمزة ياء وقرىء بإدغام الياء فى التاء وهو خطأ لأن المنقلبة من الهمزة لاندغم لأنها فى حكمها ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فى رعاية حقوق الأمانة وفى الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالا يخفى .

﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ أيها الشهود أو المديونون أى شهادتكم على أنفسكم عند المعاملة ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ آثم خبر إن وقلبه مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل يآثم قلبه أو مرتفع بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبر إن وإسناد الإثم إلى القلب لأن الكتمان مما افترقه ونظيره نسبة الزنا إلى

(١) فى ط : بالسكتبة .

العين والأذن أو للبالغة لأنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال كأنه قيل
 تمكن الإثم في نفسه وملك أشرف مكان فيه وفاق سائر ذنوبه . عن ابن عباس
 رضى الله عنهما إن أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى (فقد حرم الله
 عليه الجنة) وشهادة الزور وكتمان الشهادة وقرئ قلبه بالنصب كما في سغه نفسه
 وقرئ أثم قلبه أى جعله آثماً ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ فيجازيكم به إن خيراً
 نخير وإن شراً فشر ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ من الأمور الداخلة
 في حقيقتيها والخارجة عنهما المتمكنة فيهما من أولى العلم وغيرهم أى كلها له
 تعالى خلقا وملكا وتصرفا لا شركة لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه ﴿ وإن
 تبدوا ما في أنفسكم ﴾ من السوء والعزم عليه بأن تظهروه للناس بالقول أو
 بالفعل أو بهما ^(١) ﴿ أو تخفوه ﴾ بأن تسكنموه منهم ولا تظهروه بأحد الوجهين
 ولا يندرج فيه ما لا يخلو عنه البشر من الوسوس وأحاديث النفس التي لا عقد
 ولا عزيمة فيها إذ التكليف بحسب الوسع ﴿ يحاسبكم به الله ﴾ يوم القيامة وهو
 حجة على منكرى الحساب من المعتزلة والروافض وتقديم الجار والمجرور على
 الفاعل للاعتناء به وأما تقديم الإبداء على الإخفاء على عكس ما في
 قوله عز وجل (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) فلما أن
 المعلق بما في أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصل فيها الأعمال البادية ، وأما العلم
 فتعلقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية كيف لا وعليه سبحانه بمعلوماته متعال عن
 أن يكون بطريق حصول الصور بل وجود كل شيء في نفسه في أى طور كان
 علم بالنسبة إليه تعالى وفي هذا لا يختلف الحال بين الأشياء الباردة والساكنة
 خلا أن مرتبة الإخفاء متقدمة على مرتبة الإبداء إذ ما من شيء يبدى إلا وهو
 أو مباديه قبل ذلك مضمّر في النفس فتعلق عليه تعالى بحالاته الأولى متقدم على
 تعلقه بحالاته الثانية وقد مر في تفسير قوله تعالى (أولا يعلمون أن الله يعلم
 ما يسرون وما يعلنون) .

﴿ فيغفر ﴾ بالرفع على الاستئناف أى فهو يغفر بفضلہ ﴿ لمن يشاء ﴾ أى يغفر له ﴿ ويعذب ﴾ بعذبه ﴿ من يشاء ﴾ أى يعذبه حسبما تقتضيه مشيئته المبينة على الحكم والمصالح وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه وقرىء بحزم الفعلين عطفا على جواب الشرط وقرىء بالجزم من غير فاء على أنهما بدل من الجواب بدل البعض أو الاشتغال ونظيره الجزم على البدلية من الشرط في قوله :

متى تأتينا تلسم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا
ولإدغام الراء في اللام لحن ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله فإن كمال قدرته تعالى على جميع الأشياء موجب لقدرته سبحانه على ما ذكر من المحاسبة وما فرع عليه من المغفرة والتعذيب ﴿ آمن الرسول ﴾ لما ذكر في فاتحة السورة الكريمة أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب العظيم الشأن هدى للمتصفين بما فصل هناك من الصفات الفاضلة التي من جملتها الإيمان به وبما أنزل قبله من الكتب الإلهية وأنهم حائزون لأثرته الهدى والفلاح من غير تعيين لهم بخصوصهم ولا تصريح بتحقيق اتصافهم بها إذ ليس فيما يذكر في حيز الصلة حكم بالفعل وعقب ذلك ببيان حال من كفر به من المجاهرين والمنافقين ثم شرح في تضاعيفها من فنون الشرائع والأحكام والمواعظ والحكم وأخبار الأمم السالفة^(١) وغير ذلك ما تقتضيه الحكمة شرحه عين في خاتمتها المتصفون بها وحكم باتصافهم بها على طريق الشهادة لهم من جهته عز وجل بكمال الإيمان وحسن الطاعة وذكر صلى الله عليه وسلم بطريق الغيبة مع ذكره هناك بطريق الخطاب لما أن حق الشهادة الباقية على مر الدهور ألا يخاطب بها المشهود له ولم يتعرض ههنا لبيان فوزهم بمطالبتهم التي من جملتها ما حكى عنهم من الدعوات الآتية لإيداننا بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به لاسيما بعد ما نص عليه فيما سلف وإيراده عليه السلام

(١) في ط : سوائف الأمم .

بمعنوان الرسالة المذبذبة عن كونه عليه السلام صاحب كتاب مجيد وشرع جديد تمهيد لما يعقبه من قوله تعالى ﴿بما أنزل إليه﴾ ومزيد توضيح لاندراجة في الرسل المؤمن بهم عليهم السلام والمراد بما أنزل إليه ﴿من ربه﴾ لإيماننا تفصيليا متعلقا بجميع ما فيه من الشرائع والأحكام والقصص والمواعظ وأحوال الرسل والكتب وغير ذلك من حيث أنه منزل منه تعالى ، وأما الإيمان بحقيقة أحكامه وصدق أخباره ونحو ذلك فن فروع الإيمان به من الحيثية المذكورة وفي هذا الإجمال إجلال لمحله عليه الصلاة والسلام وإشعار بأن تعلق إيمانه بتفاصيل ما أنزل إليه وإحاطته بجميع ما انطوى عليه من الظهور بحيث لا حاجة إلى ذكره أصلا وكذا في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه للسلام تشريف له وتنبيه على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له عليه السلام .

﴿والمؤمنون﴾ أى الفريق المعروفون بهذا الاسم فاللام عهدية لاموصولة لإفضائها إلى خلو الكلام عن الجدوى وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿كل﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿آمن﴾ خبره والجملة خبر للابتدأ الأول والرابط بينهما الضمير الذى ناب مناب التنوين وتوحيد الضمير فى آمن مع رجوعه إلى كل المؤمنين لما أن المراد ببيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى (وكل أتوه داخرين) وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله لتأكيد الإشعار بما بين إيمانه على السلام المبني على المشاهدة والعيان وبين إيمانهم الناشئ عن الحجة والبرهان من التفاوت البين والاختلاف الجلى كأنهما متخالفان من كل وجه حتى فى هيئة التركيب الدال عليهما وما فيه من تكرير الإسناد لما فى الحكم بإيمان كل واحد منهم على الوجه الآتى من نوع خفاء محوج إلى التقوية والتأكيد أى كل واحد منهم آمن ﴿بالله﴾ وحده من غير شريك له فى الألوهية والمعبودية ﴿وملائكته﴾ أى من حيث أنهم عباد مكرمون له تعالى من شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل بإنزال الكتب وإلقاء الوحي فإن مدار الإيمان بهم ليس من خصوصيات ذواتهم فى

أنفسهم بل هو من إضافتهم إليه تعالى من الحيثية المذكورة كما يلوح به الترتيب في النظم .

(وكتبه ورسله) أى من حيث مجيئهما من عنده تعالى لإرشاد الخلق إلى ما شرع لهم من الدين بالأوامر والنواهي لكن لا على الإطلاق بل على أن كل واحد من تلك الكتب منزل منه تعالى إلى رسول معين أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام حسبما فصل في قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم) الآية ولا على أن مناط الإيمان خصوصية ذلك الكتاب أو ذلك الرسول بل على أن الإيمان بالكل مندرج في الإيمان بالكتاب المنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومستند إليه لما تلى من الآية الكريمة ولا على أن أحكام الكتب السالفة وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقي منها معتبر بالإضافة إليها بل على أن أحكام كل واحد منها كانت حقة ثابتة إلى ورود كتاب آخر ناسخ له وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب المصون عن النسخ إلى يوم القيامة وإنما لم يذكر ههنا الإيمان باليوم الآخر كما ذكر في قوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين) لاندراجهم في الإيمان بكتبه وقرآء وكتابه على أن المراد به القرآن أو جنس الكتب كما في قوله تعالى (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب) .

والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع في أفراد الجنس والجمع في جموعه ولذلك قيل الكتاب أكثر من الكتب وهذا نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى (بما أنزل إليه من ربه) اقتصر عليه لإيداننا بكفايته في الإيمان الإجمالي المتحقق في كل فرد من أفراد المؤمنين من غير نفي لزيادة ضرورة اختلاف طبقاتهم وتفاوت إيمانهم بالأمور المذكورة في مراتب التفصيل متفاوتا فاحشا فإن الإجمال في الحكاية لا يوجب الإجمال في المحكي كيف لا وقد أجمل في حكاية

إيمانه عليه السلام بما أنزل إليه من ربه مع بداهة كونه متعلقا بتفاصيل ما فيه من الجلائل والدقائق ثم إن الأمور المذكورة حيث كانت من الأمور الغيبية التي لا يوقف عليها إلا من جهة العلم الخبير كان الإيمان بها مصداقا لما ذكر في صدر السورة الكريمة من الإيمان بكتبه تعالى بإشارة إلى ما في قوله تعالى (يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) هذا هو اللائق بشأن التنزيل والحقيق بمقداره الجليل وقد جوز أن يكون قوله تعالى والمؤمنون معطوفا على الرسول فيوقف عليه والضمير الذي عوض عنه التثنيون راجع إلى المعطوفين معا كأنه قيل آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل إليه من ربه ثم فصل وقيل كل واحد من الرسل^(١) والمؤمنين آمن بالله الخ خلا أنه قدم المؤمن به على المعطوف اعتناء بشأنه وإيدانا بأصالته عليه السلام في الإيمان به ولا يخفى أنه مع خلوه عما في الوجه الأول من كمال وإجلال شأنه عليه السلام وتفخيم إيمانه محل بحزالة النظم الكريم لأنه إن حمل كل من الإيمانين على ما يليق بشأنه عليه الصلاة والسلام من حيث الذات ومن حيث التعلق بالتفاصيل استحال إسنادهما إلى غيره عليه الصلاة والسلام وضاع التكرير وإن حملا على ما يليق بشأن آحاد الأمة كان ذلك خطأ لرتبته العلية عليه السلام وأما حملهما على ما يليق بكل واحد من نسبا إليه من الآحاد ذاتا وتعلقا بأن يحملا بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على الإيمان العياني المتعلق بجميع التفصيل وبالنسبة إلى آحاد الأمة على الإيمان المكتسب من جهته عليه السلام اللائق بمحالمهم في الإجمال والتفصيل فاعتساف بين ينبغي تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله ، وقوله تعالى :

﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ في حيز النصب بقول مقدر على صيغة الجمع رعاية لجانب المعنى منصوب على أنه حال من ضمير آمن أو مرفوع على

(١) في ط : الرسول .

أنه خبر آخر لكل أى يقولون لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض منهم ونكفر
بآخرين بل نؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم قيدوا به إيمانهم تحقيقاً للحق
وتحظئة لأهل الكتابين حيث أجمعوا على الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم
واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام أيضاً على أن مقصودهم الأصلي
إبراز إيمانهم بما كفروا به من رسالته عليه السلام لإظهار موافقتهم لهم فيما
آمنوا به وهذا كما ترى صريح في أن القائلين آحاد المؤمنين خاصة إذ لا يمكن
أن يسند إليه السلام أن يقول لا أفرق بين أحد من رسله وهو يريد به
إظهار إيمانه برسالة نفسه وتصديقه في دعواها وعدم التعرض لنفى التفريق
بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وإنما لم يعكس مع تحقق التلازم من الطرفين
لما أن الأصل في تنزيق المفرقين هو الرسل وكفرهم بالكتب متفرع على
كفرهم بهم وقرىء بالياء على إسناد الفعل إلى كل وقرىء لا يفرقون حملاً على
المعنى كما في قوله تعالى (وكل أتوه داخرين) فالجمله نفسها حال من الضمير المذكور
وقيل خبر ثان لكل كما قيل في القول المقدر فلا بد من اعتبار السكينة بعد النفى
دون العكس إذ المراد شمول النفى لا نفى الشمول والكلام في همزة أحد
وفي دخول بين عليه قد مر تفصيله عند قوله تعالى (لا نفرق بين أحد منهم) وفيه
من الدلالة صريحاً على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه
كأننا من كان ما ليس في أن يقال لا نفرق بين رسله وإيثار إظهار الرسل
على الإضمار الواقع مثله في قوله تعالى (وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق
بين أحد منهم) إما للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة في الحكم أو للإشعار
بعدم التفريق أو للإيماء إلى عنوانه لأن الاعتبار عدم التفريق من حيث
الرسالة دون سائر الحيثيات الخاصة ﴿وقالوا﴾ عطف على آمن وصيغة الجمع
باعتبار جانب المعنى وهو حكاية لامتناعهم بالأوامر لإثبات إيمانهم ﴿سمعنا﴾
أى فهمنا ما جاءنا من الحق وتيقنا بصحته ﴿وأطعنا﴾ ما فيه من الأوامر
والنواهي وقيل سمعنا أجبتنا دعوتك وأطعنا أمرك ﴿غفرانك ربنا﴾ أى
اغفر لنا غفرانك أو نسألك غفرانك ذنوبنا المتقدمة أو ما لا يخلو عنه البشر

من التقصير في مراعاة حقوقك وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الإجابة والقبول والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للبالغ في التضرع والجوار .

﴿ وإليك المصير ﴾ أى الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة إلى المغفرة لما أن الرجوع للحساب والجزاء وقوله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ جملة مستقلة جىء بها لإثر حكاية تلقيهم لتكليفه تعالى بحسن الطاعة إظهاراً لما له تعالى عليهم في ضمن التكليف من محاسن آثار الفضل والرحمة ابتداء لا بعد السؤال كما سيجىء ، هذا وقد روى أنه لما نزل قوله تعالى (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنوه ثم بركوا على الركب فقالوا أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصوم والحج والجهاد وقد أنزل إليك هذه الآية ولا نطبقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فقرأها القوم فأنزل الله عز وجل (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه إلى قوله تعالى غفرانك ربنا وإليك المصير) فسئوهم الغفران المعلق بمشيئته عز وعلا في قوله (فيغفر لمن يشاء) ثم أنزل الله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) تهوينا للخطب عليهم بيان أن المراد بما فى أنفسهم ما عزموا عليه من السوء خاصة لا ما يعم الخواطر التي لا يستطيع الاحتراز عنها والتكليف والإزام ما فيه كلفة ومشقة والوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه أى سنته تعالى أنه لا يكلف نفسا من النفوس إلا ما يتسع فيه طوعها ويتيسر عليها دون مدى الطاقة والمجهود فضلا منه تعالى ورحمة لهذه الأمة كقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقرىء وسعها بالفتح وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال لا على امتناعه وقوله تعالى :

﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ للترغيب في المحافظة على مواجب التكليف والتعذير عن الإخلال بها ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة وأنها تعود إليها لا إلى غيرها ويستتبع الإخلال به مضرة تحقيقها لا بغيرها فإن اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته أي لها ثواب ما كسبت من الخير الذي كلفت فعله لا لغيرها استقلالاً أو اشتراكاً ضرورة شمول كلمة مالكل جزء من أجزاء مكسوبها وعليها لا على غيرها بأحد الطريقين المذكورين عقاب ما اكتسبت من الشر الذي كلفت تركه وإيراد الاكتساب في جانب الشر لما فيه من احتمال ناشئ من اعتناء النفس بتحصيل الشروسعيا في طلبه ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ شروع في حكاية بقية دعواتهم لإثبات سر التكليف أي لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان أو الخطأ من تفریط وقلة مبالاة ونحوهما بما يدخل تحت التكليف أو بأنفسهما من حيث ترتبهما على ما ذكر أو مطلقاً إذ لا امتناع في المؤاخذة بهما عقلاً فإن المعاصي كالسموم فكما أن تناولها ولو سهواً أو خطأ مؤد إلى الهلاك فتعاطى المعاصي أيضاً لا يبعد أن يفضى إلى العقاب وإن لم يكن عن عزيمة ووعدته تعالى بعدمه لا يوجب استحالة وقوعه فإن ذلك من آثار فضله ورحمته كما ينبى عنه الرفع في قوله عليه السلام «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» وقد روى أن اليهود كانوا إذا نسوا شيئاً عجلت لهم العقوبة فدعاهم بعد العلم بتحقيق الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة في ذلك كما في قوله تعالى (ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك) ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ عطف على ما قبله وتوسيط النداء بينهما لإبراز مزيد الضراعة والإصرار العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه أي يحبس مكانه والمراد به التكليف الشاق وقيل الإصرار الذنب الذي لا توبة له فالمعنى اعصمنا من اقترافه وقرىء آصاراً وقرىء ولا تحمل بالتشديد للبالغة ﴿كما حملته على الذين من قبلنا﴾ في حين النصب على أنه صفة لمصدر محذوف

أى حملا مثل حملك إياه على من قبلنا أو على أنه صفة لإصرأ أى إصرأ مثل الإصر الذى حملته على من قبلنا وهو ما كلفه بنو إسرائيل من بئح النفس فى التوبة وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة فى يوم وليلة وصرف ربع المال للزكاة وغير ذلك من التشديدات فإنهم كانوا إذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالا لهم قال الله تعالى (فبظلم من الدين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقد عصم الله عز وجل بفضله ورحمته هذه الأمة عن أمثال ذلك وأنزل فى شأنهم (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وقال عليه السلام « بعثت بالحنيفية السهلة السمحة » وعن العقوبات التى عوقب بها الأولون من المسخ والخسف وغير ذلك قال عليه السلام « رفع عن أمتى الخسف والمسوخ والغرق » .

((ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به)) عطف على ما قبله واستعفاء عن العقوبات التى لا تطاق بعد الاستعفاء عما يؤدى إليه التفريط فيه من التكاليف الشاقة التى لا يكاد من كلفها يخلو عن التفريط فيها كأنه قيل لا تكلفنا تلك التكاليف ولا تعاقبنا بتفريطنا فى المحافظة عليها فيكون التعبير عن إنزال العقوبات بالتحميل باعتبار ما يؤدى إليها وقيل هو تكرير للأول وتصوير للإصر بصورة ما لا يستطاع مبالغة وقيل هو استعفاء عن التكاليف بما لا تقى به الطاقة البشرية حقيقة فيكون دليلا على جوازه عقلا وإلا لما سئل التخلّص عنه والتشديد ههنا لتعديّة الفعل إلى مفعول ثان ((واعف عنا)) أى آثار ذنوبنا ((واغفر لنا)) واستر عيوبنا ولا تفضحننا على رؤس الأشهاد ((وارحمنا)) وتعطف بنا وتفضل علينا وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما أن التخلية سابقة على التحلية ((أنت مولانا)) سيدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولى أمورنا ((فانصرنا على القوم الكافرين)) فإن من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء والمراد به عامة

الكفرة وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله تعالى حسبما أمر في تضاعيف السورة السكرية غاية مطالبهم ، روى أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة قد فعلت ، وعنه عليه السلام « أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي عام من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأته عن قيام الليل ، وعنه عليه السلام من قرأ آيتين من سورة البقرة كفتاه وهو حجة على من استكره أن يقول سورة البقرة وقال ينبغي أن يقال السورة التي يذكر فيها البقرة كما قال عليه السلام « السورة التي يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال عليه السلام السحرة ، » .

سورة آل عمران ، مدنية ، مائتا آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ألم الله لا إله إلا هو ﴾ قد سلف أن ما لا تكون من هذه الفوائج مفردة كصاد وقاف ونون ولا موازنة لمفرد كحاميم وطاسين وياسين الموازنة لقابيل وهابيل وكطاسين ميم الموازنة لدارا مجرد حسبما ذكره سيديويه في الكتاب فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد وإن لزمها التقاء الساكنين لما أنه مغتفر في باب الوقف قطعاً فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما فعله أبو بكر رضي الله عنه رواية عن عاصم وأما ما فيها من الفتح على القراءة المشهورة فإنما هي حركة همزة الجلالة ألقيت على الميم لتدل على ثبوتها إذ ليس إسقاطها للدرج بل للتخفيف فهي بقاء حركتها في حكم الثابت المبتدأ به والميم يكون الحركة لغيرها في حكم الوقف على السكون دون الحركة كما توهم واعترض

بأنه غير معهود في الكلام وقيل هي حركة لالتقاء السواكن التي هي الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط همزتها وأنت خبير بأن سقوطها مبنى على وقوعها في الدرج وقد عرفت أن سكون الميم وقف موجب لانقطاعها عما بعدها مستدع لثبات الهمزة على حالها لا كما في الحروف والأسماء المبنيّة على السكون فإن حقها الاتصال بما بعدها ووضعا واستعمالا فتسقط بها همزة الوصل وتحرك أعجازها لالتقاء الساكنين ثم إن جعلت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها من الإعراب كسائر الفواتح وإن جعلت اسما للسورة فحملها إما الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، وإما النصب على إضمار فعل يليق بالمقام كاذكر أو أقرأ أو نحوهما وأما الرفع بالابتداء أو النصب بتقدير فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه فلا مسأغ لشيء منها لما أن ما بعدها غير صالح للخبرية ولا للإقسام عليه فإن الاسم الجميل مبتدأ وما بعده خبره والجملة مستأنفة أي هو المستحق للعبودية لا غير وقوله عز وجل .

((الحى القيوم)) خبر آخر له أو لمبتدأ محذوف أي هو الحى القيوم لا غيره وقيل هو صفة للمبتدأ أو بدل منه أو من الخبر الأول أو هو الخبر وما قبله اعتراض بين المبتدأ والخبر مقرر لما يفيد الاسم الجميل أو حال منه وأيا ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق العبودية به سبحانه وتعالى لما مر من أن معنى الحى الباقي الذى لا سبيل عليه للبوت والفناء ومعنى القيوم الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ومن ضرورة اختصاص ذينك الوصفين به تعالى اختصاص استحقاق العبودية به تعالى لاستحالة تحققه بدونهما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الأعظم في ثلاث سور في سورة البقرة (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وفي آل عمران (ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وفي طه (وعنت الوجوه للحى القيوم) وروى أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الأعظم قال الحى القيوم ويروى أن عيسى عليه السلام كان إذا أراد إحياء الموتى يدعو يا حى يا قيوم ويقال إن آصف بن برخيا حين أراد أن يأتي بعرش بلقيس دعا بذلك وقرأ الحى القيوم وهذا رد على من زعم أن

عيسى عليه السلام كان ربا فإنه روى أن وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ستين راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرفهم ثلاثة منهم أكابر إليهم يؤول أمرهم أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبد المسيح وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيد واسمه الأيهم وثالثهم حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم أبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرفوه ومولوه وأكرموه لما شاهدوا من عليه واجتهاده في دينهم وبنوا له كنائس فلما خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه فبينما بغلة أبي حارثة تسير إذ عثرت فقال كرز تعسا للأبعد يريد به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبو حارثة بل تعست أمك فقال كرز ولم يا أخي قال إنه والله النبي الذي كنا ننتظره فقال له كرز فما يمنعك عنه وأنت تعلم هذا؟ قال لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمننا به لأخذوا منا كلها، فوقع ذلك في قلب كرز وأضرمه إلى أن أسلم فكان يحدث بذلك فأتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر عليهم ثياب الحبرات جيب وأردية فاخرة يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مارأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلوا في المسجد فقال عليه السلام دعوهم فصلوا إلى المشرق ثم تكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تارة عيسى هو الله لأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير وتارة أخرى هو ابن الله إذ لم يكن له أب يعلم وتارة أخرى إنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى فعلنا وقلنا ولو كان واحدا لقال فعلت وقلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا قالوا أسلمنا قبلك قال عليه السلام كذبتكم يمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله تعالى ولدا قالوا إن لم يكن ولدا لله فمن أبوه فقال عليه السلام أستم

تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه فقالوا بلى قال أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء قالوا بلى قال عليه السلام أستم تعلمون أن ربنا قيوم على كل شيء يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال عليه السلام فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً قالوا لا فقال عليه السلام أستم تعلمون أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء قالوا بلى قال عليه السلام فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم قالوا بلى قال عليه السلام أستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وأن ربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث قالوا بلى قال عليه السلام أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى قال عليه السلام فكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا^{٢٨} وأبوا إلا جحوداً فنزل الله عز وجل من أول السورة إلى نيف وثمانين آية تقريراً لما احتج به عليه السلام عليهم وأجاب به عن شبههم وتحققاً للحق الذي فيه يمترون .

﴿ نزل عليك الكتاب ﴾ أى القرآن عبر عنه باسم الجنس إيداناً بكمال تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كالات الجنس كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عاده كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل وصيغة التفعيل للدلالة على التفضيل وتقديم الظرف على المفعول لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والجملة إما مستأنفة أو خبر آخر عن الاسم الجليل أو هى الخبر وقوله تعالى لا إله إلا هو اعتراض أو حال وقوله عز وجل الحى القيوم صفة أو بدل كما مر وقرئ نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب فالظاهر حينئذ أن تكون مستأنفة وقيل يجوز كونها خبراً بحذف العائد أى نزل الكتاب من عنده ﴿ بالحق ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أى نزله محققاً في تنزيله على ما هو عليه أو ملتبساً بالعدل في أحكامه أو بالصدق في أخباره التى من جملتها خبر التوحيد وما يليه وفى وعده

(٢٨ — أبو السعد — أول)

ووعيده أو بما يحقق أنه من عند الله تعالى من الحجج البينة ﴿ مصدقا ﴾ حال من الكتاب بالاتفاق على تقدير كون قوله تعالى بالحق حالا من فاعل نزل وأما على تقدير حالته من الكتاب فهو عند من يجوز تعدد الحال بلا عطف ولا بدلية حال منه بعد حال وأما عند من يمنعه فقد قيل إنه حال من محل الحال الأولى على البدلية وقيل من المستكن في الجار والمجرور لأنه حينئذ يتحمل ضمير القيامة مقام عامله المتحمل له فيكون حالا متداخلة وعلى كل حال فهي حال مؤكدة وفائدة تقييد التنزيل بها حث أهل الكتابين على الإيمان بالمنزل وتنبيههم على وجوبه فإن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه حتما ﴿ لما بين يديه ﴾ مفعول لمصدقا واللام دعامة لتقوية العمل نحو فعال لما يريد أى مصدقا لما قبله من الكتب السالفة وفيه إيماء إلى حضورها وكمال ظهور أمرها بين الناس وتصديقه إياها في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وتنزيه الله عز وجل عما لا يليق بشأنه الجليل والأمر بالعدل والإحسان وكذا في أنباء الأنبياء والأمم الخالية وكذا في نزوله على النعت المذكور فيها وكذا في الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار ظاهر لا ريب فيه وأما في الشرائع المختلفة باختلافهما فن حيث أن أحكام كل واحد منها واردة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة إلى خصوصيات الأمم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم .

﴿ وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله تأكيد لما قبله وتمهيدا لما بعده إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعة ونباهة ويزداد في القلوب قبولا ومهابة ويتفاحش حال من كفر بهما في الشناعة واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام أى أنزلها جملة على موسى وعيسى عليهما السلام وإنما لم يذكر لأن الكلام في الكتابين لا فيمن أنزلا عليه وهما اسمان أعجميان الأول عبري والثاني سرياني ويعضده القراءة بفتح همزة الإنجيل فإن لإفعل ليس من أبنية العرب والتصدي لاشتقاقهما من الوري والنجل تعسف ﴿ من قبل ﴾ متعلق بأنزل أى أنزلها من قبل تنزيل

الكتاب والتصريح به مع ظهور الأمر للبالغ في البيان ﴿ هدى للناس ﴾ في حين النصب على أنه علة للإنزال أى أنزلها لهداية الناس أو على أنه حال منهما أى أنزلها حال كونها هدى لهن والإفراد لما أنه مصدر جعلاً لنفس الهدى مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذوى هدى ثم إن أريد هدايتهما بجميع ما فيهما من حيث هو جميع فالمراد بالناس الأمم الماضية من حين نزولها إلى زمان نسخهما وإن أريد هدايتهما على الإطلاق وهو الأنسب بالمقام فالناس على عمومهما أن هدايتهما بما عدا الشرائع المنسوخة من الأمور التي يصدقهما القرآن فيها ومن جعلها البشارة بنزوله وبمبعث النبي صلى الله عليه وسلم تعم الناس قاطبة .

﴿ وأزل الفرقان ﴾ الفرقان في الأصل مصدر كالغفران أطلق على الفاعل مبالغة والمراد به ههنا إما جنس الكتب الإلهية عبر عنها بوصف شامل لما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم لإثر تخصيص بعض مشاهيرها بالذكر كما في قوله عز وجل (فأنبتنا فيها حبا وعنبا إلى قوله تعالى وفاكهة) ولما نفس الكتب المذكورة أعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيها سبق على طريقة العطف بتكرير لفظ الإنزال تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة للتغاير الذاتي كما في قوله سبحانه ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وأما الزبور فإنه مشتمل على المواعظ الفارقة بين الحق والباطل الداعية إلى الخير والرشاد الزاجرة عن الشر والفساد وتقديم الإنجيل عليه مع تأخره عنه نزولا لقوة مناسبته للتوراة في الاشتغال على الأحكام والشرائع وشيوع اقتراحهما في الذكر وأما القرآن نفسه فذكر^(١) بنعت مادح له بعد ما ذكر باسم الجنس تعظيما لشأنه ورفعاً لمكانته وقد بين أولاً تنزيله التدريجي إلى الأرض وثانياً إنزاله الدفعي إلى السماء الدنيا أو أريد بالإنزال القدر المشترك العارى عن قيد التدريج وعدمه وأما المعجزات المقرونة بإنزال

(١) في ط : ذكر

الكتب المذكورة الفارقة بين الحق والمبطل ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾
 وضع موضع الضمير العائد إلى ما فصل من الكتب المنزلة أو منها ومن المعجزات.
 الآيات مضافة إلى الإسم الجليل تعييناً لحقيقة كفرهم وتهويلاً لأمرهم وتأكيدهم
 لاستحقاقهم العذاب الشديد وإيداناً بأن ذلك الاستحقاق لا يشترط فيه الكفر
 بالكل بل يكفي فيه الكفر ببعض منها والمراد بالموصول إما أهل الكتابين.
 وهو الأنسب بمقام المحاجة معهم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولاً
 أولياً أي إن الذين كفروا بما ذكر من آيات الله الناطقة بالحق لاسيما بتوحيده.
 تعالى وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل كلا أو بعضاً مع ما بها من النعوت.
 الموجبة للإيمان بها بأن كذبوا بالقرآن أصالة وبسائر الكتب الإلهية تبعاً لما
 أن تكذيب ما يصدقه حتماً وأصالة أيضاً بأن كذبوا بآياتها الناطقة بالتوحيد
 والتنزيه وآياتها المبشرة بنزول القرآن ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها.
 ﴿لهم﴾ بسبب كفرهم بها ﴿عذاب﴾ مرتفع إما على الفاعلية من الجار
 والمجرور أو على الابتداء والجملة خبر إن والتنوين للنفخيم أي أي عذاب
 ﴿شديد﴾ لا يقادر قدره وهو وعيد جيء به لإثر تقرير أمر التوحيد الذاتي
 والوصفي والإشارة إلى ما ينطق بذلك من الكتب الإلهية حملاً على القبول
 والإذعان وزجراً عن الكفر والعصيان .

﴿والله عزيز﴾ لا يغالب يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ذو انتقام﴾
 عظيم خارج عن أفراد جنسه وهو افتعال من النقمة وهي السطوة والتسلط
 يقال انتقم منه إذا عاقبه بجنائته والجملة اعتراض تذييل مقرر للوعيد ومؤكده.
 ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ استئناف كلام سيق
 لبيان سعة علمه تعالى وإحاطته بجميع ما في العالم من الأشياء التي من جملتها.
 ما صدر عنهم من الكفر والفسوق سرّاً وجهراً لإثر بيان كمال قدرته وعزته.
 تربية لما قبله من الوعيد وتنبيهها على أن الوقوف على بعض المغيبات كما كان
 في عيسى عليه السلام بمعزل من بلوغ رتبة الصفات الإلهية وإنما عبر عن علمه
 عز وجل بما ذكر بعدم خفائه عليه كما في قوله سبحانه وما يخفى على الله من

شئ في الأرض ولا في السماء لئذانا بأن عليه تعالى بمعلوماته وإن كانت في أقصى الغايات الخفية ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارنه شائبة خفاء بوجه من الوجوه كما في علوم المخلوقين بل هو في غاية الوضوح والجلال والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وكلمة في متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء مؤكدة لعمومه المستفاد من وقوعه في سياق النفي أي لا يخفى عليه شيء ما كائن في الأرض ولا في السماء أعم من أن يكون ذلك بطريق الاستقرار فيهما أو الجزئية منهما وقيل متعلقة بيخفى وإنما عبر بهما عن كل العالم لأنهما قطراه وتقديم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفي بينهما للدلالة على الترقى من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد من المستدعين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا وقوله عز وجل .

﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ جملة مستأنفة ناطقة ببعض أحكام قيوميته تعالى وجريان أحوال الخلق في أطوار الوجود حسب مشيئته المبنية على الحكمة^(١) البالغة مقررلة لسكال عليه مع زيادة بيان لتعلقه بالأشياء قبل دخولها تحت الوجود ضرورة وجوب علمه تعالى بالصور المختلفة المترتبة على التصوير المترتب على المشيئة قبل تحققها بمراتب وكلمة في متعلقة بـ يصوركم أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المفعول أي يصوركم وأتم في الأرحام مضغ وكيف معمول ليشاء والجملة في محل النصب على الحالية إما من فاعل يصوركم أي يصوركم كائننا على مشيئته تعالى أي مريدا أو من مفعوله أي يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها في قبول الأحوال المتغيرة من كونكم نطفة ثم علقا ثم مضغا غير مخلقة ثم مخلقة. وفي الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات وفيه من الدلالة على بطلان زعم من زعم ربوبية عيسى عليه السلام وهو من جملة

أبناء النواصيت المتقلبين في هذه الأطوار على مشيئة الباري عز وجل وكما
 ركاة عقولهم مالا يخفى وقرىء تصوركم على صيغة الماضي من الفعل أى
 أى صوركم لنفسه وعبادته ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إذ لا يتصف بشيء مما ذكر
 من الشئون العظيمة الخاصة بالألوهية أحد ليتوهم ألوهيته ﴿ العزيز الحكيم ﴾
 المتناهى في القدرة والحكمة لذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع .
 ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾ شروع في إبطال شبههم الناشئة عما
 نطق به القرآن في نعت عيسى عليه السلام بطريق الاستئناف إثر بيان اختصاص
 الربوبية ومناطها به سبحانه وتعالى تارة بعد أخرى وكون كل من عداه مقهوراً
 تحت ملكوته تابعا لمشيئته . قيل إن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله
 عليه وسلم ألسنت تزعم يا محمد أن عيسى كلمة الله وروحه ^(١) قال عليه السلام
 بلى قالوا فحسبنا ذلك فنعى عليهم ذيعهم وفتنتهم وبين أن الكتاب مؤسس على
 أصول رصينة وفروع مبنية عليها ناطقة بالحق قاضية ببطالان ما هم عليه من
 الضلال والمراد بالإنزال القدر المشترك المجرد عن الدلالة على قيد التدريج
 وعدمه ولام الكتاب للعهد وتقديم الظرف عليه لما أشير إليه فيما قبل من
 الاعتناء بشأن بشارته عليه السلام بتشريف الإنزال عليه ومن التشويق إلى
 ما أنزل فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لاسيما بعد الإشعار برفعة شأنه
 أو بمنزلة تبق مترتبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن وليتصل به
 تقسيمه إلى قسميه ﴿ منه آيات ﴾ الظرف خبر وآيات مبتدأ أو بالعكس
 بتأويل مر تحقيقه في قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الآية والأول أوفق
 بقواعد الصناعة والثاني أدخل في جزالة المعنى إذ المقصود الأصلي انقسام
 الكتاب إلى القسمين المعهودين لا كونهما من الكتاب فتذكر الجملة مستأنفة
 في حيز النصب على الحالية من الكتاب أى هو الذى أنزل الكتاب كأننا على
 هذه الحال منقسمين إلى محكم ومتشابه أو الظرف هو الحال وحده وآيات مرتفع

(١) في ط : وروح منه .

به على الفاعلية ﴿محكمات﴾ صفة آيات أى قطعية الدلالة على المعنى المراد بحكمة العبارة محفوظة من الاحتمال والاشتباه ﴿هن أم الكتاب﴾ أى أصل فيه وعمدة يرد إليها غيرها فالمراد بالكتاب كله والإضافة بمعنى فى كما فى واحد العشرة لا بمعنى اللام فإن ذلك يؤدى إلى كون الكتاب عبارة عما عدا المحكمات والجملة إما صفة لما قبلها أو مستأنفة وإنما أفرد الأم مع تعدد الآيات لما أن المراد بيان أصلية كل واحدة منها أو بيان أن الكل بمنزلة آية واحدة كما فى قوله تعالى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) وقيل اكتفى بالمفرد عن الجمع كما فى قول الشاعر :

بهاجيف الحسرى فأما عظامها فيبيض وأما جلدها فصليب

أى وأما جلودها ﴿وأخر﴾ نعت المحذوف معطوف على آيات أى وآيات أخر وهى جمع أخرى وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر أو عن آخر من ﴿متشابهات﴾ صفة لآخر وفى الحقيقة صفة للمحذوف أى محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضها عن^(١) بعض فى استحقاق الإرادة بها ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق والتأمل الأنيق فالتشابه فى الحقيقة وصف لتلك المعانى وصف به الآيات على طريقة وصف الدال بوصف المدلول وقيل لما كان من شأن الأمور المتشابهة أن يعجز العقل عن التمييز بينها سعى كل مالا يهتدى إليه العقل متشابهة وإن لم يكن ذلك بسبب التشابه كما أن المشكل فى الأصل ما دخل فى أشكاله وأمثاله ولم يعلم بعينه ثم أطلق على كل غامض وإن لم يكن غموضه من تلك الجهة وإنما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبرها وتحصيل العلوم التى نيط بها استنباط ما أريد بها من الأحكام الحقة فينالوا بها وبإتباع القرائح فى استخراج مقاصدها الرائقة ومعانيها اللائقة المدارج العالية ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان إلى المعارج القاصية وأما قوله عز وجل

(١) فى ط : من بعض

(الكتاب أحكمت آياته) فمعناه أنها حفظت من اعتراء الخلل أو من النسخ أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على حقيقتها أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها وقوله تعالى كتابا متشابها مثاني معناه متشابه الأجزاء أى يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة النظم وحقية المدلول .

﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ ﴾ أى ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة . قال الراغب الزبيج الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين وفى جعل قلوبهم مقرا للزيغ مبالغة فى عدوهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ معرضين عن المحكمات أى يتعلقون بظواهر المتشابهة من الكتاب أو بتأويل باطل لا تحريا للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى بل ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أى طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبس ومناقضة المحكم بالمتشابهة كما نقل عن الوفد ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أى وطلب أن يؤولوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائفة والحال أنهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله عز وجل ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ﴾ فإنه حال من ضمير فيتبعون باعتبار العلة الأخيرة أى يتبعون المتشابهة لابتغاء تأويله والحال أنه مخصوص به تعالى وبمن وفقه له من عباده الراسخين فى العلم أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا فى مزال الأقدام وفى تعليل الاتباع بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقية ليدان بأنهم ليسوا من التأويل فى شيء وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لأنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه ومن وقف على إلا الله فسر المتشابهة بما استأثر الله عز وعلا بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية أو بما دل القاطع على عدم إرادة ظاهره ولم يدل على ما هو المراد به .

﴿ يقولون آمنا به ﴾ أى بالمتشابهة وعدم التعرض لإيمانهم بالمحكم . لظهوره أو بالكتاب والجملة على الأول استئناف موضح لحال الراسخين أو حال منه وعلى الثانى خبر لقوله تعالى والراسخون وقوله تعالى ﴿ كل من عند ربنا ﴾

من تمام المقول مقرر لما قبله ومؤكّد له أى كل واحد منه ومن المحكم أو كل واحد من مثله ومحكمه منزل من عنده تعالى لا مخالفة بينهما أو آمنا به وبحقيقته على مراده تعالى ﴿ وما يذكر ﴾ حق التذكر ﴿ إلا أولو الألباب ﴾ أى العقول الخاصة عن الركون إلى الأهواء الزائغة وهو تذييل سيق من جهته تعالى مدحا للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى ما به استعدوا للاهتمام إلى تأويله من مجرد العقل عن غواشى الحس وتعلق الآلة الكريمة بما قبلها من حيث أنها جواب عما تشبّث به النصارى من نحو قوله تعالى (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) على وجه الإجمال وسيجىء الجواب المفصل بقوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾ من تمام مقالة الراسخين أى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه قال صلى الله عليه وسلم « قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه، وقيل معناه لا تبلنا ببلايا تزيع على الظرف ولذا فى محل الجرياضاته إليه خارج من الظرفية أى بعد وقت هدايتك إيانا وقيل لأنه بمعنى أن ﴿ وهب لنا من لدنك ﴾ كلا الجارين متعلق بهب وتقديم الأول لما مر مرارا ويجوز تعلق الثانى بمحذوف هو حال من المفعول أى كائنة من لدنك ومن لا ابتداء الغاية المجازية ولدن فى الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات نحو من لدن زيد وليس مرادفة لعند إذ قد تكون فضلة وكذا لدى وبعضهم يخصها بظرف المسكان وتضاف إلى صريح الزمان كما فى قوله :

تلتفض الرعدة فى ظهري من لدن الظهر إلى العصور

ولا تقطع عن الإضافة بحال وأكثر ما تضاف إلى المفردات وقد تضاف إلى أن وصلتها كما فى قوله :

ولم تقطع أصلا من لدن أن وليتنا قرابة ذى رحم ولا حق مسلم
أى من لدن ولايتك إيانا وقد تضاف إلى الجملة الاسمية كما فى قوله :

• تذكر نعماء لدن أنت^(١) يافع •

وإلى الجملة الفعلية أيضاً كما في قوله :

لزمنا لدن سالتمونا وفاقكم فلا يك منكم للخلاف جنوح
وقلما تخلو عن من كما في البيتين الأخيرين ﴿رحمة﴾ واسعة تزلفنا
إليك ونفوز بها عندك أو توفيقاً للثبات على الحق وتأخير المفعول الصريح
عن الجارين لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه
التقديم إذا أخرجت بقى النفس مترتبة لوروده لا سيما عند الإشعار بكونه من
المنافع باللام فإذا أوردته يتمكن عندها فضل تمكن ﴿لأنك أنت الوهاب﴾
تعليل للسؤال أو لإعطاء المسئول وأنت إما مبتدأ أو فصل أو تأكيد لاسم
إن وإطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب وفيه دلالة على أن الهدى والضلال
من قبله تعالى وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب
عليه شيء . . .

﴿ربنا لأنك جامع الناس ليوماً﴾ أى لحساب يوم أو لجزاء يوم حذف
المضاف وأقيم مقامه المضاف إليه تهويلاً له وتفظيها لما يقع فيه ﴿لأريب فيه﴾
أى فى وقوعه ووقوع ما فيه من الحشر والحساب والجزاء ومقصودهم بهذا
عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة وأنها المقصد الأسنى عندهم والتأكيد لإظهار
ما هم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة ﴿لأن الله لا يخلف
الميعاد﴾ تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب والتأكيد لما مر
وإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشئ
من ذكر اليوم المهيّب الهائل بخلاف ما فى آخر السورة الكريمة فإنه مقام
طلب الإنعام كما سيأتى وللإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف
وقد جوز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين
والميعاد مصدر كالميعات واستدل به الوعيدية وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط

(١) فى ط : أنت : خطأ .

بعدم العفو بدلائل مفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقاً ﴿ إن الذين كفروا ﴾ إثر ما بين الدين الحق والتوحيد وذكر أحوال الكتب الناطقة به وشرح شأن القرآن العظيم وكيفية إيمان العلماء الراسخين به شرع في بيان حال من كفر به والمراد بالموصول جنس الكفرة الشامل لجميع الأصناف وقيل وفد نجران أو اليهود من قريظة والنضير أو مشركو العرب ﴿ لن تغنى عنهم ﴾ أى لن تنفعهم وقرىء بالتذكير ويسكون الياء جداً في استتقال الحركة على حروف اللين ﴿ أمواهم ﴾ التى يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضار ﴿ ولا أولادهم ﴾ الذين بهم يتناصرون في الأمور المهمة وعليهم يعولون في الخطوب المملة وتأخير الأولاد عن الأموال مع توسيط حرف النفي بينهما إما لعرفة الأولاد في كشف الكروب أو لأن الأموال أول عدة يفرع إليها عند نزول الخطوب ﴿ من الله ﴾ من عذابه تعالى ﴿ شيئاً ﴾ أى شيئاً من الإغناء وقيل كلمة من بمعنى البدل والمعنى بدل رحمة الله أو بدل طاعته كما في قوله تعالى (إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) أى بدل الحق ومنه قوله ولا ينفع ذا الجند منك الجند أى لا ينفعه جده بذلك أى بدل رحمتك كما في قوله تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقر بكم عندنا زلفى) وأنت خير بأن احتمال سد أمواهم وأولادهم مسد رحمة الله تعالى أو طاعته بما لا يخطر ببال أحد حتى يتصدى لنفيه والأول هو الأليق بتفطيس حال الكفرة وتهويل أمرهم والأنسب بما بعده من قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم وقود النار ﴾ ومن قوله تعالى (فأخذهم الله) أى أولئك المنتصفون بالكفر حطب النار وحصبها الذى تسعر به فإن أريد بيان حالهم عند التسعير فيأشار الجملة الاسمية للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وإلا فهو للإيذان بأن حقيقة حالهم ذلك وأن أحوالهم الظاهرة بمنزلة العدم فهم حال كونهم في الدنيا وقود النار بأعيانهم وفيه من الدلالة على كمال ملاستهم بالنار ما لا يخفى وهم يحتمل الإبتداء وأن يكون ضمير فصل والجملة إما مستأنفة مقررة لعدم الإغناء أو معطوفة على خبر إن وأياً ما كان ففيها تعيين للعذاب الذى بين أن أمواهم وأولادهم لا تغنى عنهم منه شيئاً وقرىء وقود النار بضم الواو وهو مصدر أى أهل وقودها

﴿ كذاب آل فرعون ﴾ الدأب مصدر دأب فى العمل إذا كدح فيه وتعب غلب استعماله فى معنى الشأن والحال والعادة ومحل السكاف الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقد جوز النصب بـن تغنى أو بالوقود أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن أولئك أو توقدهم النار كما توقدهم وأن تغنى بأن المذكور فى تفسير الدأب إنما هو التكذيب والأخذ من غير تعرض لعدم الإغناء لاسيما على تقدير كون من بمعنى البذل كما هو رأى المجوز ولا لإيقاد النار فيحمل على التعليل وهو خلاف الظاهر على أنه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بالأجنبي على تقدير النصب بأن تغنى وهو قوله تعالى (وأولئك هم وقود النار) إلا أن يجعل استئنافا معطوفا على خبر إن فالوجه هو الرفع على الخبرية أى دأب هؤلاء فى الكفر وعدم النجاة من أخذ الله تعالى وعذابه كذاب آل فرعون ﴿ والذين من قبلهم ﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة فالموصول فى محل الجر عطفا على ما قبله وقوله تعالى ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريق الاستئناف المبني على السؤال كأنه قيل كيف كان دأبهم فقيل كذبوا بآياتنا وقوله تعالى :

﴿ فأخذهم الله ﴾ تفسير لدأبهم الذى فعل بهم أى فأخذهم الله وعاقبهم ولم يحدوا من بأس الله تعالى بحيصا فدأب هؤلاء الكفرة أيضاً كذابهم وقيل كذبوا الخ حال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمار قد أى دأب هؤلاء كذاب أولئك وقد كذبوا الخ ، وأما كونه خبرا عن الموصول كما قيل فما يذهب برواق النظم الكريم والالتفات إلى التكلم أولا للجرى على سنن الكبرياء وإلى الغيبة ثانيا بإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة ﴿ بذنوبهم ﴾ إن أريد بها تكذيبهم بالآيات فالباء السببية جىء بها تأكيداً لما تفيدته الفاء من سببية ما قبلها لما بعدها وإن أريد بها سائر ذنوبهم فالباء للعلازمة جىء بها للدلالة على أن لهم ذنوبا أخرى أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها كما فى قوله تعالى (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) والذنب فى الأصل التلو والتابع وسى الجريمة ذنبا لأنها تتلو أى يتبع عقابها فاعلمها ﴿ والله شديد

العقاب ﴿ تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ وتكملة له ﴾ قل للذين كفروا ﴿ المراد بهم اليهود لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبي الأعمى الذى بشرنا به موسى وفى التوراة نعمته وهموا باتباعه فقال بعضهم لا تعجلوا حتى تنظر إلى وقعة له أخرى فلما كان يوم أحد شكوا وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه وانطلق كعب بن الأشرف فى ستين راكبا إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصاب قريشا بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش فقالوا لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصابت منهم فرصة أن قاتلتنا لعلمت أننا نحن الناس فنزلت أى قل لهم :

﴿ ستغلبون ﴾ البتة عن قريب فى الدنيا وقد صدق الله عز وجل وعده بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة ؛ وأما ما روى عن مقاتل من أنها نزلت قبل بدر وأن الموصول عبارة عن مشركى مكة ولذلك قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم وبئس المهاد فيؤدى إلى انقطاع الآية السكرية عما بعدها لنزوله بعد وقعة بدر ﴿ وتحشرون ﴾ أى فى الآخرة ﴿ إلى جهنم ﴾ وقرئ الفعلان بالياء على أنه عليه السلام أمر بأن يحسب لهم ما أخبر الله تعالى به من وعيدهم بعبادته كأنه قيل أد إليهم هذا القول ﴿ وبئس المهاد ﴾ إما من تمام ما يقال لهم أو استئناف لتحويل جهنم وتفضيع حال أهلها والمخصوص بالذم محذوف أى وبئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم ﴿ قد كان لكم ﴾ جواب قسم محذوف وهو من تمام القول المسأور به جىء به لتقرير مضمون ما قبله وتحقيقه والخطاب لليهود أيضا والظروف خبر كان على أنها ناقصة وتوسطه بينها وبين اسمها ترك التأنيث كما فى قوله :

إن اسراً غره منكنا واحدة بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور
على أن التأنيث ههنا غير حقيقى أو هو متعلق بكان على أنها تامة وإنما قدم
على فاعلها لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما آخر أى والله قد
كان لكم أنهما المغترون بعددكم وعددكم ﴿آية﴾ عظيمة دالة على صدق
ما أقول لكم إنكم إنكم ستغلبون ﴿فى فتنين﴾ أى فرقتين أو جماعتين فإن المغلوبة
منهما كانت مدلة بكثرتها معجبة بعزتها وقد لقيها ما لقيها فسيصيبكم ما يصيبكم
ومحل الظرف الرفع على أنه صفة لآية وقيل النصب على خبرية كان والظرف
الأول متعلق بمحذوف من آية ﴿التقنا﴾ فى حيز الجر على أنه صفة فتنين أى
تلاقنا بالقتال يوم بدر ﴿فئة﴾ بالرفع خبر مبتدأ محذوف أى أحدهما فئة
كما فى قوله :

إذا مت كان الناس حزين شامت وآخر مثن بالذى كنت أصنع
أى أحدهما شامت والآخر مثن وقوله :

حتى إذا ما استقل النجم فى غلس وغودر البقل ملوى ومحسود
والجملعة مع ما عطف عليها مستأنفة لتقرير ما فى الفتنين من الآية وقوله
تعالى : ﴿تقاتل فى سبيل الله﴾ فى محل الرفع على أنه صفة فئة كأنه قيل فئة
مؤمنة ولكن ذكر مكانه من أحكام الإيمان ما يليق بالمقام مدحاً لهم واعتداداً
بقتالهم وإيذاناً بأنه المدار فى تحقق الآية وهى رؤية القليل كثيراً وقرئ يقاتل
على تأويل الفئة بالقوم أو الفريق ﴿كافرة﴾ خبر المبتدأ المحذوف وإنما لم
توصف هذه الفئة بما يقابل صفة الفئة الأولى إسقاطاً لقتالهم عن درجة
الاعتبار وإيذاناً بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهزيمة وقيل كل
من المتعاطفين بدل من الضمير فى التقنا وما بعدهما صفة فلا بد من ضمير محذوف
عائد إلى المبدل منه مسوغ لوصف البدل بالجملة العارية عن ضميره أى فئة منهما
تقاتل الخ وفئة أخرى كافرة^(١) ويجوز أن يكون كل منهما مبتدأ وما بعدهما

(١) كررت هذه العبارة فى ط بعد قوله وما بعدهما خبراً .

خبراً ، وقيل كل منهما مبتدأ محذوف الخبر أى منهما فئة تقاثل الخ وقرئ
فئة بالجر على البدلية من فئتين بدل بعض من كل وقد مر أنه لابد من ضمير
عائد إلى المبدل منه ويسمى بدلاً تفصيلاً كما في قول كثير عزة :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رعى فيها الزمان فشلت

وقرئ فئة الخ بالنصب على المدح أو على الحالية من ضمير التقتا كأنه قيل
التقتا مؤمنة وكافرة فيكون فئة وأخرى توطئة لما هو الحال حقيقة إذ
المقصود بالذكر وصفاً هما كما في قولك جاءنى زيد رجلاً صالحاً .

﴿ يرونهم ﴾ أى يرى الفئة الأخيرة الفئة الأولى وإيثار صيغة الجمع
للدلالة على شمول الرؤية لكل واحد واحد من آحاد الفئة والجملة في محل
الرفع على أنها صفة للفئة الأخيرة أو مستأنفة مبينة لكيفية الآية ﴿ مثلهم ﴾ أى
مثلى عدد الرائي ألفين إذا كانوا قريباً من ألف . كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً
رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وفيهم أبوسفيان وأبو جهل وكان فيهم من الخيل
والإبل مائة فرس وسبعمائة بعير ومن أصناف الأسلحة عدد لا يحصى ، عن
محمد بن أبى الفرات عن سعد بن أوس أنه قال أسر المشركون رجلاً من المسلمين
فسألوه كم كنتم قال ثلثمائة وبضعة عشر قالوا ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا
أو مثلى عدد المرئيين أى ستمائة ونيفاً وعشرين حيث كانوا ثلثمائة وثلثائة عشر
رجلاً سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار
رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وكان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه
وسلم والمهاجرين على بن أبى طالب رضى الله عنه وصاحب راية الأنصار
سعد بن عباد الخزرجى وكان فى العسكر تسعون بعيراً وفرسان أحدهما
للبقداد بن عمرو والآخر لمرثد بن أبى مرثد وست أدرع وثمانية سيوف
وجميع من استشهد يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين
وثمانية من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أراهم الله عز وجل كذلك
مع قتلهم ليها بؤهم ويحببوا عن قتالهم مددا لهم منه سبحانه كما أمدهم بالمالكة

عليهم السلام وكان ذلك عند التقاء الفئتين بعد أن قللهم في أعينهم عند ترائيهم
ليجتروا عليهم ولا يهربوا من أول الأمر حين ينجيهم الحرب وقيل يرى الفئة
الأولى الفئة الأخيرة مثلى أنفسهم مع كونهم ثلاثة أمثالهم ليثبتوا ويطمئنوا
بالنصر الموعود في قوله تعالى (فإن يكون منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) والأول
هو الأولى لأن رؤية المثليين غير متعينة من جانب المؤمنين بل قد وقعت رؤية
المثل بل أقل منه أيضا فإنه روى أن ابن مسعود رضى الله عنه قال قد نظرنا إلى
المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فرأيناهم يزيدون علينا رجلا
واحدا ثم قللهم الله تعالى أيضا في أعينهم حتى رأوهم عددا يسيرا أقل من
أنفسهم .

قال ابن مسعود رضى الله عنه لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل
إلى جتبي تراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا
فلو أريد رؤية المؤمنين المشركين أقل من عددهم في نفس الأمر كما في سورة
الأنفال لكانت رؤيتهم إياهم أقل من أنفسهم أحق بالذكر في كونهم آية من
رؤيتهم مثليهم على أن لإبارة آثار قدرة الله تعالى وحكمته للكفرة بإراءتهم
القليل كثيرا والضعيف قويا وإلقاء الرعب في قلوبهم بسبب ذلك أدخل في
كونها آية لهم وحجة عليهم وأقرب إلى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة
مخالطتهم الكفرة المشاهدين للحال وكذا تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه
بالمنفعل فجعل أقرب المذكورين السابقين فاعلا وأبعدهما مفعولا سواء جعل
الجملة صفة، أو مستأنفة أولى من العكس هذا ما تقضيه جزالة التنزيل على قراءة
الجمهور ولا ينبغي جعل الخطاب لمشركي مكة كما قيل أما إن جعل الوعيد عبارة
عن هزيمة بدر كما صرحوا به فظاهر لا خفاء فيه وأما إن جعل عبارة عن هزيمة
أخرى فلأن الفئة التي شاهدت تلك الآية الهائلة هم المخاطبون حينئذ والتعبير
عنهم بفئة مبهمه تارة وموصوفة أخرى ثم إسناد المشاهدة إليها مع كون إسنادها
إلى المخاطبين أوقع في إلزام الحجة وأدخل في التبسكيت بما لا داعي إليه
وبهذا يتبين سر جعل الخطاب الثانى للمؤمنين ، وأما قراءة ترونها بقاء

الخطاب فظاهرها وإن اقتضى توجيه الخطاب الثاني إلى المشركين لكنه ليس بنص في ذلك لأنه وإن اندفع به المحذور الأخير فالأول باق بحاله فلعل رؤية المشركين نزلت منزلة رؤية اليهود لما بينهم من الاتحاد في الكفر والاتفاق في الكلمة لا سيما بعدما وقع بينهم بواسطة كعب بن الأشرف من العهد والميثاق فأسندت الرؤية إليهم مبالغة في البيان وتحقيقاً لعروض مثل تلك الحالة لهم فتدبر وقيل المراد جميع الكفرة ولا ريب في صحته وسداده وقرئ يرونهم وترونهم على البناء للمفعول من الإراماة أى يريهم أو يريكم الله تعالى كذلك ﴿ رأى العين ﴾ مصدر مؤكد ليرونهم إن كانت الرؤية بصرية أو مصدر تشبيهى إن كانت قلبية أى رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مجرى رؤية العين ﴿ والله يؤيد أى يقوى ﴾ بنصره من يشاء ﴿ أرى يؤيده من غير توسيط الأسباب العادية كما أيد الفئة المقاتلة في سبيله بما ذكر من النصر وهو تمام القول المأمور به ﴾ (إن في ذلك) إشارة إلى ما ذكر من رؤية القليل كثيراً المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكي السلاح وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه في الفضل ﴿ لعبرة ﴾ العبرة فعلة من العبور كالركبة من الركوب والجلوسة من الجلوس والمراد بها الاتعاظ فإنه نوع من العبور أى لعبرة عظيمة كائنة ﴿ لأولى الأبصار ﴾ لذوى العقول والبصائر وقيل لمن أبصرهم وهو إما من تمام الكلام الداخل تحت القول مقرر لما قبله بطريق التذييل وإما وارد من جهته تعالى تصديقا لمقالاته عليه الصلاة والسلام .

﴿ زين للناس ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها وتزويد للناس فيها وتوجيه لرغباتهم^(١) إلى ما عنده تعالى إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس ﴿ حب الشهوات ﴾ الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات

(١) في ط : رغباتهم

أو إنيذانا بأنهما كهم في حبها بحيث أحبوا شهواتها كما في قوله تعالى (إني أحببت حب الخير) أو استرذالا لها فإن الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزین هو الباری سبحانه وتعالى إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعي والحكمة في ذلك ابتلاؤهم ، قال تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم) الآية فإنها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تغايطها على نهج الشريعة الشريفة ووسيلة إلى بقاء النوع وإيثار صيغته المبني للفعول للجري على سنن الكبرياء وقرىء على البناء للفاعل وقيل المزین هو الشيطان لما أن مساق الآية الكريمة على ذمها وفرق الجبائي بين المباحات فأسند تزيينها إليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها إلى الشيطان ﴿ من النساء والبنين ﴾ في محل النصب على أنه حال من الشهوات وهي مفسرة لها في المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لمرآتهم في معنى الشهوة فإنهن حبات الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن ﴿ والقناطر المقنطرة ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة ألف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل سبعون ألفا وقيل أربعون ألف مثقال وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة رطل وقيل ألف ومائتا مثقال وقيل ألف دينار وقيل مائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم وقيل : دية النفس واختلف في أن وزنه فعال أو فاعل ، ولفظ المقنطرة مأخوذ منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة ، وقيل : المقنطرة المحكمة المحصنة ، وقيل : الكثيرة المنضدة بعضها على بعض أو المدفونة المضمرة المنقوشة .

﴿ من الذهب والفضة ﴾ بيان للقناطر أو حال ﴿ والخيل ﴾ عطف على القناطر قيل هي جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والواحد فرس وقيل واحده خائل وهو مشتق من الخيلاء ﴿ المسومة ﴾ أي المعلمة من السمّة^(١) وهي العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها إذا أرسلها وسيبها

للرعى أو المطهمة الزامة الخلق ﴿والأنعام﴾ أى الإبل والبقر والغنم
 ﴿والحرث﴾ أى الزرع مصدر بمعنى المفعول .
 ﴿ذلك﴾ أى ما ذكر من الأشياء المعهودة ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أى
 ما يتمتع به فى الحياة الدنيا أياما قلائل فتفتى سريعا ﴿والله عنده حسن المآب﴾
 حسن المرجع وفيه دلالة على أن ليس فيما عدد عاقبة حميدة وفى تكرير
 الإسناد يجعل الجلالة مبتدأ وإسناد الجملة الظرفية إليه زيادة تأكيد وتفخيم
 ومزيد اعتناء بالترغيب فيما عند الله عز وجل من النعيم المقيم والتزهد فى
 ملأ الدنيا وطياتها الفانية .

﴿قل أو نبئكم بخير من ذلكم﴾ لئلا ما بين شأن مزخرفات الدنيا وذكر
 ما عنده تعالى من حسن المآب إجمالا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتفصيل
 ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب والخطاب للجميع والهمزة للتقرير أى
 أخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزينة لكم وإبهام الخبر
 لتفخيم شأنه والتشويق إليه وقوله تعالى ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات﴾
 استئناف مبين لذلك المهم على أن جنات مبتدأ والجار والمجرور خبر أو على
 أن جنات مرتفع به على الفاعلية عند من لا يشترط فى ذلك اعتماد الجار على
 ما فصل فى محله والمراد بالتقوى هو التبتل إلى الله تعالى والإعراض عما سواه
 على ما تنبى عنه النعوت الآتية وتعليق حصول الجنات وما بعدها من فنون
 الخيرات به للترغيب فى تحصيله والثبات عليه وعند نصب على الحالية من جنات
 أو متعلق بما تعلق به الجار والمجرور^(١) من معنى الاستقرار مفيد لكمال
 علو رتبة الجنات وسمو طبقتها والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى
 ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم وقيل اللام متعلقة بخير وكذا الظرف
 وجنات خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبنية لخير ويؤيده قراءة جنات بالجر على
 البدلية من خير ولا يخفى أن تعليق الإخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربما

(١) سقط : من ط

يَوْمَ أَنْ هُنَاكَ خَيْرٌ آخِرٌ لِآخَرِينَ ﴿تَجْرَى﴾ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ وَالْجَرِّ صَفْةُ
الْجَنَاتِ عَلَى حَسَبِ الْقِرَاءَتَيْنِ ﴿مَنْ تَحْتَهَا الْإِنهَارُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِتَجْرَى فَإِنْ أُرِيدَ
بِالْجَنَاتِ نَفْسُ الْأَشْجَارِ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ فِجْرِيَانَهَا مِنْ تَحْتِهَا ظَاهِرٌ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا
بِمَجْمُوعِ الْأَرْضِ وَالْأَشْجَارِ فَهُوَ بِإِعْتِبَارِ جِزْئِهَا الظَّاهِرِ كَمَا مَرَّ تَفْصِيلُهُ مَرَارًا
﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ مِنَ الْمُسْتَكْنِ فِي الَّذِينَ وَالْعَامِلِ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى
الِاسْتِقْرَارِ ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ عَطْفٌ عَلَى جَنَاتِ أَى مَبْرَأَةٌ مِمَّا يَسْتَقْدَرُ مِنَ
النِّسَاءِ مِنَ الْأَحْوَالِ الْبَدْنِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ التَّنْوِينُ لِلتَّفْخِيمِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى
﴿مَنْ اللَّهُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ وَقَعَ صَفْةٌ لَهُ مُؤَكَّدَةٌ لِمَا أَفَادَهُ التَّنْوِينُ مِنْ
الْفَخَامَةِ أَى رِضْوَانٌ وَأَى رِضْوَانٌ لَا يَقَادِرُ قَدْرُهُ كَائِنْ مِنْ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ
وَقَرِءَ بِضَمِّ الرَّاءِ ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ وَأَعْمَالُهُمْ فَيُثِيبُ وَيُعَاقِبُ حَسَبَ مَا
يَلِيقُ بِهَا أَوْ بِصِيرٍ بِأَحْوَالِ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَلِذَلِكَ أَعَدَّ لَهُمْ مَا ذَكَرَ وَفِيهِ لِإِشْعَارِ
بِأَنَّهُمُ الْمُسْتَحَقُّونَ بِالتَّسْمِيَةِ بِاسْمِ الْعَبْدِ .

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا﴾ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ
مَحْذُوفٌ كَأَنَّهُ قِيلَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمُتَّقُونَ الْفَائِزُونَ بِهَذِهِ الْكِرَامَاتِ السَّنِيَّةِ فَقِيلَ
هُمْ الَّذِينَ الْخُ أَوْ النَّصَبُ عَلَى الْمَدْحِ أَوْ الْجَرِّ عَلَى أَنَّهُ تَابِعٌ لِلْمُتَّقِينَ نَعْمًا أَوْ بَدَلًا
أَوْ لِلْعِبَادِ كَذَلِكَ وَالْأَوَّلَى أَظْهَرَ وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ) حِينَئِذٍ مُعْتَرِضَةٌ
وَتَأْكِيدُ الْجُمْلَةَ لِإِظْهَارِ أَنَّ إِيمَانَهُمْ نَاشِئٌ مِنْ وَفُورِ الرِّغْبَةِ وَكُلِّ النَّشَاطِ وَفِي
تَرْتِيبِ الدَّعَاءِ بِقَوْلِهِمْ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ عَلَى مَجْرَدِ الْإِيمَانِ
دَلَالَةٌ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ الْمَغْفِرَةِ وَالْوَقَايَةِ مِنَ النَّارِ ﴿الصَّابِرِينَ﴾ هُوَ
عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ الْمَوْصُولِ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ بِإِضْمَارِ أَعْنَى
وَأَمَّا عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِ فِي مَحَلِّ النَّصَبِ أَوْ الْجَرِّ فَهُوَ نَعْتٌ لَهُ وَالْمُرَادُ بِالصَّبْرِ هُوَ
الصَّبْرُ عَلَى مُشَاقِّ الطَّاعَاتِ وَعَلَى الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبِأْسِ ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾
فِي أَقْوَالِهِمْ وَنِيَاتِهِمْ وَعِزِّ أَعْمَالِهِمْ ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الْمَدَامِينَ عَلَى الطَّاعَاتِ الْمَوْظُوفِينَ عَلَى
الْعِبَادَاتِ ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾

قال مجاهد وقتادة والسكبي هم المصلون^(١) بالأسحار وعن زيد بن أسلم هم الذين يصلون الصبح في جماعة وقال الحسن مدوا الصلاة إلى السحر ثم استغفروا وقال نافع كان ابن عمر رضى الله عنه يحكي الليلة ثم يقول^(٢) يا نافع أسحرنا ؟ فأقول لا فيعاود الصلاة فإذا قلت نعم قعد يستغفر الله ويدعو حتى يصبح وعن الحسن كانوا يصلون في أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار وتخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة إذ العبادة حينئذ أسبق والنفوس أصفى والروح أجمع لا سيما للمتجهدين وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكألهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها ﴿ شهد الله أنه ﴾ بفتح الهمزة أى بأنه أو على أنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى بين وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية فى الآفاق والأنفس وإنزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك عبر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة إيذاناً بقوة فى إثبات المطلوب وإشعاراً بإنكار المنكر وقرىء إنه بكسر الهمزة إما بإجراء شهد مجرى قال وإما بجعل الجملة اعتراضاً وإيقاع الفعل على قوله تعالى إن الدين الخ على قراءة أن بفتح الهمزة كما سيأتى وقرىء شهداء لله بالنصب على أنه حال من المذكورين أو على المدح وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ومآله الرفع على المدح أى هم شهداء لله وهو إما جمع شهيد كظرفاء فى جمع ظريف أو جمع شاهد كشعراء فى جمع شاعر .

﴿ والملائكة ﴾ عطف على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنى مجازى شامل للإقرار والإيمان بطريق عموم المجاز أى أقروا بذلك ﴿ وأولوا العلم ﴾ أى آمنوا به واحتجوا عليه بما ذكر من الأدلة التكوينية والتشريعة قيل المراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل المهاجرون والأنصار وقيل علماء مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل جميع علماء المؤمنين والذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة وارتفاعهما على القراءتين

(١) فى ط : أى المصلين

(٢) فى ط : قال .

الآخرتين قيل بالعطف على الضمير في شهداء لوقوع الفصل بينهما وأنت خبير بأن ذلك على قراءة النصب على الحالية يؤدي إلى تقييد حال المذكرين بشهادة الملائكة وأولى العلم وليس فيه كثير فائدة فالوجه حينئذ كون ارتفاعهما بالابتداء والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه أي والملائكة وأولو العلم شهداء ولك أن تحمل القراءتين على المدح نصبا ورفعا فحينئذ يحسن العطف على المستتر على كل حال وقوله تعالى ﴿فأما بالقسط﴾ أي مقيما للعدل في جميع أمورهم بيان لسكماله تعالى في أفعاله إثر بيان كماله في ذاته وانتصابه على الحالية من الله كما في قوله تعالى (وهو الحق مصدقا) وإنما جاز إفراده مع عدم جواز جاء زيد وعمرو راكبا لعدم اللبس كقوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) ولعل تأخيرهم عن المعطوفين للدلالة على علو رتبتهما وقرب منزلتهما والمسايرة إلى إقامة شهود التوحيد اعتناء بشأنه ورفعا لمحله والسر في تقديمه على المعطوفين مع ما فيه من الإيذان بأصالته تعالى في الشهادة به كما مر في قوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) أو من هو وهو الأوجه والعامل فيها معنى الجملة أي تفرد أو أحقه لأنها حال مؤكدة أو على المدح وقبل على أنه صفة للمنفى أي لا إله قائما الخ والفصل بينهما من قبيل توسعاتهم وهو مندرج في المشهود به إذا جعل صفة أو حالا من الضمير أو نصبا على المدح منه وقرىء القاتم بالقسط على البدلية من هو فيلزم الفصل بينهما كما في الصفة أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقرىء قيا بالقسط .

﴿لا إله إلا هو﴾ تكرير للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليجرى عليه قوله تعالى : ﴿العزیز الحكيم﴾ فيعلم أنه المنعوت بهما ووجه الترتيب إذن ^(١) تقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته تعالى ورفعهما على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد أو الخبرية لمبتدأ مضر وقد روى في فضلها أنه عليه السلام قال «يجاء بصاحبها يوم القيامة

(١) سقط من ط .

فيقول الله عز وجل إن لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة، وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وروى عن سعيد بن جبير أنه كان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فلما نزلت هذه الآية الكريمة خروا سجدا وقيل نزلت في نصارى نجران وقال السكبي قدم على النبي صلى الله عليه وسلم حبران من أحبار الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا عليه عليه السلام عرفاه بصفته فقالا له عليه السلام أنت محمد قال صلى الله عليه وسلم نعم قالوا وأنت أحمد قال عليه السلام أنا محمد وأحمد قالوا فإنا نسألك عن شيء فإن أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال عليه السلام سلا فقال أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة فأسلم الرجلان ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أى لا دين مرضيا لله تعالى سوى الإسلام الذي هو التوحيد والتدرع بالشرعية الشريفة وعن قتادة أنه شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى وقرئ إن الدين عند الله الإسلام وقرئ أن الدين الخ على أنه بدل الكل إن فسر الإسلام بالإيمان أو بما يتضمنه وبدل الاشتغال إن فسر بالشرعية أو على أن شهد واقع عليه تقدير قراءة إنه بالسكسر كما أشير إليه ﴿وما يختلف الذين أوتوا الكتاب﴾ نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته والتعبير عنهم بالموصول وجعل إيتاء الكتاب صلة لزيادة تقييد حالهم فإن الاختلاف ممن أوتى^(١) ما يزيله ويقطع شأفته في غاية القبح والسماجة وقوله تعالى: ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أى وما اختلفوا في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذي لا يحيد عنه أو بعد أن علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالحجج النيرة

والآيات الباهرة وفيه من الدلالة على تراعى حالهم في الضلالة ما لا يزيد عليه فإن الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة بما لا يصدر عن العاقل وقوله تعالى : ﴿بغياً بينهم﴾ أى حسداً كائما بينهم وطلباً للرياسة لا لشبهة وخفاء فى الأمر تشنيع لإثر تشنيع .

﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ أى بآياته الناطقة بما ذكر من أن الدين عند الله تعالى هو الإسلام ولم يعمل بمقتضاها أو بأية آية كانت من آياته تعالى فإنه على أن يدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ قائم مقام جواب الشرط علة له أى ومن يكفر بآياته فإنه يجازيه ويعاقبه عن قريب فإنه سريع الحساب أى يأتى حسابه عن قريب أو يتم ذلك بسرعة وإظهار الجلالة لترية المهابة وإدخال الروعة وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفركم بعد إتياء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبغى دلالة على كمال شدة عقابهم ﴿فإن حاجوك﴾ أى فى كون الدين عند الله الإسلام أو جادلوك فيه بعد ما أقمت عليهم الحجج ﴿فقل أسلمت وجهى﴾ أى أخلصت نفسى وقلبى وجملى وإنما عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر وجمع معظم ما تقع به العبادة من السجود والقراءة وبه يحصل التوجه إلى كل شىء ﴿لله﴾ لا أشرك به فيها غيره وهو الدين القويم الذى قامت عليه الحجج ودعت إليه الآيات والرسل عليهم السلام ﴿ومن اتبعن﴾ عطف على المتصل فى أسلمت وحسن ذلك لمكان الفصل الجارى مجرى التأكيد بالمنفصل أى وأسلم من اتبعنى أو مفعول معه ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ أى من اليهود والنصارى وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفى المتعاطفين ﴿والأمة﴾ أى الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب ﴿أسلمتم﴾ متبعين لى كما فعل المؤمنون فإنه قد أتاكم من البينات ما يوجبها ويقضيه لا محالة فهل أسلمتم وعملتم بمقتضاها^(١) أو أنتم على كفركم بعد كما يقول من لخص لصاحبه

(١) فى ط : بقضيتها .

المسألة ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكاً إلا سلكه فهل فهمتها على
على منهاج قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) لئلا تفصيل الصوارف عن تعاطي الخمر
والميسر وفيه من استقصارهم وتعبيرهم بالمعاصرة وقلة الإنصاف وتوبيخهم
بالبلادة وكلة القرينة ما لا يخفى .

((فإن أسلموا)) أى كما أسلمتم وإنما لم يصرح به كما فى قوله تعالى (فإن
آمنوا بمثل ما آمنتم به) حسماً لباب إطلاق اسم الإسلام على شىء آخر بالسكينة
((فقد اهتدوا)) أى فازوا بالخط الأوفر ونجوا عن مهاوى الضلال
((وإن تولوا)) أى أعرضوا عن الاتباع وقبول الإسلام ((فإنما عليك
البلغ)) قائم مقام الجواب أى لم يضروك شيئاً إذ ما عليك إلا البلاغ وقد
فعلت على أبلغ وجه ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه
الآية على أهل الكتاب قالوا أسلمنا فقال عليه السلام لليهود أتشهدون أن
عيسى كلمة الله وعبدته ورسوله فقالوا معاذ الله قال عليه الصلاة والسلام للنصارى
أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبداً وذلك
قوله عز وجل وإن تولوا ((والله بصير بالعباد)) عالم بجميع أحوالهم وهو
تذليل فيه وعد ووعد .

((إن الذين يكفرون بآيات الله)) أى آية كانت فيدخل فيهم الكافرون
بالآيات الناطقة بحقية الإسلام على الوجه الذى مر تفصيله دخولا أولياً
((ويقتلون النبيين بغير حق)) هم أهل الكتاب قتل أولوهم الأنبياء عليهم
السلام وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا وكانوا قاتلهم الله تعالى حاميين
حول قتل النبي صلى الله عليه وسلم لولا أن عصم الله تعالى ساحته المنفعة وقد
أشير إليه بصيغة الاستقبال وقرىء بالتشديد للتكثير والتقييد بغير حق
للإيدان بأنه كان عندهم أيضاً بغير حق ((ويقتلون الذين يأمرون بالقسط
من الناس)) أى بالعدل ولعل تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين من
التفاوت أو باختلافهما فى الوقت ، عن أبى عبيدة بن الجراح قلت يا رسول الله
أبى الناس أشد عذاباً يوم القيامة قال رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر معروف

ونهى عن منكر ثم قرأها ثم قال يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة واثنى عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمرُوا قتلهم بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار وقرىء ويقاتلون الذين ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ خبر إن والفاء تتضمن اسمها معنى الشرط فإنها بالنسخ لا تغير معنى الابتداء بل تزيده تأكيدا وكذا الحال في النسخ بأن المفتوحة كما في قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه) وكذا النسخ لكن كما في قوله :

فوالله ما فارقتمكم عن ملالة ولكن ما يقضى فسوف يكون

ولأنما يتغير معنى الابتداء في النسخ بليت ولعل وقد ذهب سيبويه والأخفش إلى منع دخول الفاء عند النسخ مطلقا فالخبر عندهما قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ كما في قولك الشيطان فاحذر عدو مبين وعلى الأول هو استئناف واسم الإشارة مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على تراعى أمرهم في الضلال وبعد منزلتهم في فظاعة الحال والموصول بما في حيز صلته خبره أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة أو المبتلون بأسوأ الحال الذين بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر في الدارين بل بقى لهم اللعنة والخزى في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه في إحدى الدارين وصيغة الجميع لرعاية ما وقع في مقابلته لا لنفى تعدد الأنصار من كل واحد منهم كما في قوله تعالى (وما للظالمين من أنصار) .

﴿ ألم تر ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لـكل من يتأتى منه الرؤية من حال أهل للكتاب وسوء صنيعهم وتقرير لما سبق من أن اختلافهم في الإسلام إنما كان بعد ما جاءهم العلم بحقيقته أى ألم تنظر ﴿ إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ أى التوراة على أن اللام للعهد وحمله على جنس الكتب الإلهية تطويل للمسافة إذ تمام التقريب حينئذ يكون التوراة من جملتها لأن مدار التشنيع والتعجيب إنما هو إعراضهم عن المحاكمة إلى مادعوا

إليه وهم لم يدعوا إلا إلى التوراة والمراد بما أوتوه منها ما بين لهم فيها من العلوم والأحكام التي من جملتها ما علموه من نعوت النبي صلى الله عليه وسلم وحقية الإسلام والتعبير عنه بالنصيب للإشعار بكمال اختصاصه بهم وكونه حقا من حقوقهم التي يجب مراعاتها والعمل بموجبها وما فيه من التنكير للتفخيم وحمله على التحقير لا يساعده مقام المبالغة في تقييح حالهم ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ الذي أوتوا نصيبا منه وهو التوراة والإظهار في مقام الإضمار لإيجاب الإجابة وإضافته إلى الاسم الجليل لتشريفه وتأكيده وجوب المراجعة إليه والجملة استئناف مبين لمحل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم فقيل يدعون إلى كتاب الله تعالى وقيل حال من الموصول ﴿ليحكم بينهم﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم إلى الإيمان فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت قال عليه الصلاة والسلام على ملة إبراهيم قالوا إن إبراهيم كان يهوديا فقال صلى الله عليه وسلم لهما إن بيننا وبينكم التوراة فهللوا إليها فأبيا وقيل نزلت في الرجم وقد اختلفوا فيه وقيل كتاب الله القرآن فإنهم قد علموا أنه كتاب الله ولم يشكوا فيه وقرىء ليحكم على بناء المجهول فيكون الاختلاف بينهم بأن أسلم بعضهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخرون ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ﴿وهم معرضون﴾ إما حال من فريق لتخصصه بالصفة أي يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم أو اعتراض أي وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق والإصرار على الباطل ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما مر التولى والإعراض وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿بأنهم﴾ أي حاصل بسبب أنهم ﴿قالوا لن تمسنا النار﴾ باقتراف الذنوب وركوب المعاصي ﴿إلا أياما معدودات﴾ وهي مقدار عبادتهم العجل ورسخ اعتقادهم على ذلك وهونوا على أنفسهم الخطوب ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ من قولهم ذلك وما أشبهه من قولهم إن آباءنا الأنبياء يشفعون لنا أو إن الله تعالى وعد يعقوب عليه السلام ألا يعذب أولاده إلا تحلة

القسم ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح ﴿ فكيف ﴾ رد لقولهم المذكور ولبطال لما عراهم باستعظام ماسيدهمهم وتهويل ما سيحقيق بهم من الأهوال أى فكيف يكون حالهم ﴿ إذا جمعناهم ليوم ﴾ أى لجزاء يوم ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى فى وقوعه ووقوع ما فيه ، روى أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفر راية اليهود فيفضحهم الله عز وجل على رؤس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ أى جزاء ما كسبت من غير نقص أصلاً كما يزعمون وإنما وضع المكسوب موضع جزائه للإيدان بكمال الاتصال والتلازم بينهما كأنهما شيء واحد وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد فى النار لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون فى النار ولا قبل دخولها فإذا هى بعد الخلاص منها ﴿ وهم ﴾ أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿ لا يظلمون ﴾ بزيادة عذاب أو بنقص ثواب بل يصيب كلا منهم مقدار ما كسبه ﴿ قل اللهم ﴾ الميم عوض عن حرف النداء ولذلك لا يجتمعان وهذا من خصائص الاسم الجليل كدخوله عليه مع حرف التعريف وقطع همزته ودخول تاء القسم عليه وقيل أصله يا الله أمنا بخير أى اقصدنا به نخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته ﴿ مالك الملك ﴾ أى ملك جنس الملك على الإطلاق ملكاً حقيقياً بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة وتعذيباً وإثابة من غير مشارك ولا مانع وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية ﴿ تؤتى الملك ﴾ بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها به تعالى حقيقة وكون ملك غيره بطريق المجاز كما ينبى عنه إتيان الإتياء الذى هو مجزب الإعطاء على التملك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة ﴿ من تشاء ﴾ أى إتياءه إياه ﴿ وتوزع الملك ﴾ عن تشاء أى نزع منه فالملك الأول حقيقى عام وملوكيته حقيقية والآخرا مجازيان خاصان ونسبتهما إلى صاحبهما مجازية وقيل الملك الأول عام والآخرا بعضان منه فتأمل وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى آخرين

﴿وتعز من تشاء﴾ أن تعزه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق.
 ﴿وتذل من تشاء﴾ أن تذه في إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير
 ولا مدافعة ﴿بيدك الخير﴾ تعريف الخير للتعميم وتقديم الخير للتخصيص أى
 بقدرتك الخير كله لا بقدره أحد غيرك تنصرف فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه
 مشيئتك وتخصيص الخير بالذكر لما أنه مقضى بالذات وأما الشر فمقتضى
 بالعرض إذ ما من شر جزئى إلا وهو متضمن للخير كلى أو لأن في حصول
 السر دخلا لصاحبه في الجملة لأنه من أجزبة أعماله وأما الخير ففضل محض
 أو لرعاية الأدب أو لأن الكلام فيه فإنه روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم
 لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين
 ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها
 المعاول فوجهوا سبلان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء عليه
 السلام وأخذ منه المعول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين
 لا يقيها لكان مصباحا في جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال
 أضاءات لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب السكلاب ثم ضرب النائية فقال
 أضاءات لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءات لى
 قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة على كلها فأبشروا فقال المنافقون
 ألا تعجبون يمينكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة
 ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون
 أن تبرزوا فنزلت ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ تعليل لما سبق وتحقيق له.
 ﴿تولج الليل في النهار﴾ أى تدخله فيه بتعقيبه إياه أو بنقص الأول وزيادة
 الثاني ﴿وتولج النهار في الليل﴾ على أحد الوجهين ﴿وتخرج الحى من
 الميت﴾ أى تنشئ الحيوانات من موادها أو من النطفة وقيل تخرج المؤمن
 من الكافر ﴿وتخرج الميت من الحى﴾ أى تخرج النطفة من الحيوان وقيل
 تخرج الكافر من المؤمن ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ قال أبو العباس
 المقرئ ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه بمعنى التعب قال تعالى

(وترزق من تشاء بغير حساب) وبمعنى العدد قال تعالى (لأنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وبمعنى المطالبة قال تعالى (فامنن أو أمسك بغير حساب) والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل نرزق أو من مفعوله وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هاتيك الأفاعيل العظام المحيرة للعقول والأفهام فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتية العرب ويعزهم أهون من كل هين عن علي رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين من آل عمران (شهد الله أنه لا إله إلا هو) إلى قوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) و(قل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب) معلمات ما بينهما وبين الله تعالى حجاب قلن يارب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك قال الله تعالى إني حلفت أنه لا يقرؤكن أحد دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مشواه على ما كان منه وأسكنته في حظيرة القدس ونظرت إليه بعيني كل يوم سبعين مرة وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة وأعزته من كل عدو وحاسد ونصرته عليهم وفي بعض الكتب أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إلى أعظفهم عليكم وهو معنى قوله عليه السلام كما تكونوا يول عليكم ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ﴾ نهوا عن موالاتهم لقراية أو صداقة جاهلية ونحوهما من أسباب المصادقة والمعاشرة كما في قوله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقوله تعالى (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) حتى لا يكون حبههم ولا بغضهم إلى الله أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية ﴿ من دون المؤمنين ﴾ في موضع الحال أي متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالاً أو اشتراكاً وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالمؤالاة وأن في موالاتهم مندوحة عن مؤالاة الكفرة ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي اتخذهم أولياء والتعبير عنه بالفعل للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره ﴿ فليس من الله ﴾ أي من ولايته تعالى ﴿ في شيء ﴾ يصح أن يطلق عليه اسم الولاية فإن مؤالاة المتعادين مما لا يكاد يدخل تحت الوقوع قال :

تود عدوى ثم تزعم أننى صديقك ليس النوك عنك بعازب
والجملة اعتراضية . قوله تعالى ﴿إلا أن تتقوا﴾ على صيغة الخطاب بطريق
الالتفات استثناء مفرغ من أعم الأحوال والعامل فعل النهى معتبرا فيه الخطاب
كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء ظاهرا أو باطنا فى حال من الأحوال إلا حال
إتقائكم ﴿منهم﴾ أى من جهتهم ﴿تقاة﴾ أى اتقاء أو شيئا يجب اتقاؤه على
أن المصدر واقع موقع المفعول فإنه يجوز إظهار الموالاة حينئذ مع اطمئنان
النفس بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار ما فى
الضمير كما قال عيسى عليه السلام كن وسطا وامش جانبا وأصل تقاة وقية ثم
أبدلت الواو تاء كتخمة وتممة وقلبت الياء ألفا وقرىء تقية ﴿ويحذركم الله
نفسه﴾ أى ذاته المقدسة فإن جواز إطلاق لفظ النفس مرادا به الذات عليه
سبحانه بلا مشاكلة مما لا كلام فيه عند المتقدمين وقد صرح بعض محققى
المتأخرين بعدم الجواز وإن أريد به الذات إلا مشاكلة وفيه من التهديد ما
لا يخفى عظمه وذكر النفس للإيذان بأن له عقابا هائلا لا يؤبه دونه بما يحذر من
الكفرة ﴿وإلى الله المصير﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومحقق لوقوعه حتما
﴿قل إن تخفوا ما فى صدوركم﴾ من الضمائر التى من جملتها ولاية الكفرة
﴿أو تبدوه﴾ فيما بينكم ﴿يعلمه الله﴾ فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه
وتقديم الإخفاء على الإبداء قد مر سره فى تفسير قوله تعالى (وإن تبدوا ما فى
أنفسكم أو تخفوه) وقوله تعالى (يعلم ما يسرون وما يعلنون) ﴿ويعلم ما فى السموات
وما فى الأرض﴾ كلام مستأنف غير معطوف على جواب الشرط وهو من
باب إيراد العام بعد الخاص تأكيد له وتقريراً ﴿والله على كل شئ قدير﴾
فيقدر على عقوبتكم بما لا مزيد عليه إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه وإظهار الاسم
الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وهو تذييل لما قبله
مبين لقوله تعالى (ويحذركم الله نفسه) بأن ذاته المقدسة المتميزة عن سائر النوات
المتصفة بما لا يتصف به شئ منها من العلم الذاتى المتعلق بجميع المعلومات متصفة
بالقدرة الذاتية الشاملة لجميع المقدورات بحيث لا يخرج من ملكوته شئ قط

﴿يوم تجد كل نفس﴾ أى من النفوس المسكفة ﴿ما عملت من خير محضرا﴾ عندها بأمر الله تعالى وفيه من التحويل ما ليس فى حاضرنا ﴿وما عملت من سوء﴾ عطف على ما عملت والإحضر معتبر فيه أيضا إلا أنه خص بالذكر فى الخير للإشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية ﴿تود﴾ عامل فى الظرف والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر أو أجزيها محضرة ﴿لو أن بينها وبينه﴾ أى بين ذلك اليوم ﴿أمدا بعيدا﴾ لشدة هوله وفى إسناد الود إلى كل نفس سواء كان لها عمل سئ أو لا بل كانت متمحضة فى الخير من الدلالة على كمال فطاعة ذلك اليوم وهول مطالعته ما لا يخفى ، اللهم إنا نعوذ بك من ذلك ويجوز أن يكون انتصاب يوم على المفعولية بإضمار اذكروا وتودا ما حال من كل نفس أو استئناف مبنى على السؤال أى اذكروا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير وشر محضرا وادة أن بينها وبينه أمدا بعيدا أو كان سائلا قال حين أمروا بذكر ذلك اليوم فاذا يكون إذ ذاك فقليل تود لو أن بينها الخ أو تجد مقصور على ما عملت من خير وتود خبر ما عملت من سوء ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود وقرئ ودت فحينئذ يجوز كونها شرطية لكن الحمل على الخبر أو وقع معنى لأنها حكاية حال ماضية وأوفق للقراءة المشهورة ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ تكرر لما سبق وإعادة له لكن لا للتأكيد فقط بل لإفادة ما يفيد قوله عز وجل ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ورحمته الواسعة أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه وأن تحذيره ليس مبنيًا على تناسى صفة الرأفة بل هو متحقق مع تحققها أيضا كما فى قوله تعالى (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) فالجمله على الأول اعتراض وعلى الثانى حال وتكرير الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾ المحبة ميل النفس إلى الشئ لكمال أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه والعبد إذا علم أن السكال الحقيقى ليس إلا الله عز وجل وأن كل ما يراه كما لا من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه

إلا الله وفي الله وذلك مقتضى إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في عبادته والحرص على مطاوعته ﴿يحببكم الله﴾ أى يرض عنكم ﴿وبغفر لكم ذنوبكم﴾ أى يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويوئسكم في جوار قدسه عبر عنه بالمحبة بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿والله غفور رحيم﴾ أى لمن يتحجب إليه بطاعته ويتقرب إليه باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام فهو تذييل مقرر لما قبله مع زيادة وعد الرحمة ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للإشعار باستتباع وصف الألوهية للغفرة والرحمة ، روى أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل نزلت في وفد نجران لما قالوا إنا نعبد المسيح حبالة الله تعالى وقيل في أقوام زعموا على عهده عليه الصلاة والسلام أنهم يحبون الله تعالى فأمروا أن يحلوا لقولهم مصداقا من العمل وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام وقد علقوا عليهم بيض النعام وجعلوا في آذانها الشنوف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش لقد خالفتم ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فقالت قريش إنما نعبدها حبا لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى فقال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام قل إن كنتم تحبون الله تعالى وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه فاتبعوني أى اتبعوا شريعتى وسننى يحببكم الله فأنا رسول الله إليكم وحبته عليكم ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ أى في جميع الأوامر والنواهي فيدخل في ذلك الطاعة في اتباعه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الإطاعة والإشعار بعلتها فإن الإطاعة المأمور بها لإطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث أنه رسول الله لامن حيث ذاته ولا ريب في أن عنوان الرسالة، من موجبات الإطاعة ودواعيها ﴿فإن تولوا﴾ لما من تمام مقول القول فهي صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التامين أى تتولوا ولما كلام

متفرع عليه مسوق من جهته تعالى فهي صيغة الماضي الغائب وفي ترك ذكر احتمال الطاعة كما في قوله تعالى فإن أسلموا تلويح إلى أنه غير محتمل منهم ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ نفي المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم أي لا يرضى عنهم ولا يثنى عليهم وإيثار الإظهار على الإضمار لتعميم الحكم لكل الكفرة والإشعار بعلته فإن سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم والإيذان بأن التولي عن الطاعة كفر وبأن محبته عز وجل خاصة بالمؤمنين .

﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ لما بين الله تعالى أن الدين المرضي عنده هو الإسلام والتوحيد وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو للبغي والحسد وأن الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته شرع في تحقيق رسالته وكونه من أهل بيت النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالة أقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة وأتبعه ذكر مبدأ أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه وكيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام تحقيقاً للحق وإبطالاً لما عليه أهل الكتابين في شأنهما من الإفراط والتفريط ثم بين بطلان محاجتهم في إبراهيم عليه الصلاة والسلام وادعائهم الانتماء إلى ملته ونزه ساحته العلمية عما هم عليه من اليهودية والنصرانية ثم نص على أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام دعاة إلى عبادة الله عز وجل وحده وطاعته منزهون عن احتمال الدعوة إلى عبادة أنفسهم أو غيرهم من الملائكة والنبين وأن أمهم قاطبة مأمورون بالإيمان بمن جاءهم من رسول مصدق لما معهم تحقيقاً لوجوب الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه المصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ووجوب الطاعة له حسبما سيأتي تفصيله وتخصيص آدم عليه الصلاة والسلام بالذكر لأنه أبو البشر ومنشأ النبوة وكذا حال نوح عليه السلام فإنه آدم الثاني وأما ذكر آل إبراهيم فلترغيب المعترفين باصطفائهم في الإيمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زمرة مع مامر من التنبيه على كونه عليه الصلاة والسلام عريقاً في النبوة من زمرة المصطفين

الآخيار وأما ذكر آل عمران مع اندراجهم في آل إبراهيم فلاظهار مزيد
الاعتناء بتحقيق أمر عيسى عليه الصلاة والسلام لسكال رسوخ الخلاف في
شأنه فإن نسبة الاصطفاء إلى الأب الأقرب أدل على تحققة في الآل وهو
الداعي إلى إضافة الآل إلى إبراهيم دون نوح وآدم عليهم الصلاة والسلام
والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء مثل به اختياره تعالى لإياهم
النفوس القدسية وما يليق بها من المملكات الروحانية والسكالات الجسمانية
المستتبعة للرسالة في نفس المصطفى كما في كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام أو
فيمن يلاسه وينشأ منه كما في مريم وقيل اصطفى آدم عليه الصلاة والسلام بأن
خلقه بيده في أحسن تقويم وتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة إياه وإسكان
الجنة واصطفى نوحا عليه الصلاة والسلام بكونه أول من نسخ الشرائع إذ لم
يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراما وباطالة عمره وجعل ذريته هم الباقين
واستجابة دعوته في حق الكفرة والمؤمنين وحمله على متن الماء والمراد بآل
إبراهيم لإسماعيل وإسحق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبي صلى الله
عليه وسلم ، وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام ففهوم من اصطفائهم
بطريق الأولوية وعدم التصريح به للإيدان بالغنى عنه لسكال شهرة أمره في
الخلقة وكونه إمام الأنبياء وقدوة للرسل عليهم الصلاة والسلام وكون اصطفاء
آله بدعوته بقوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية ولذلك قال عليه الصلاة
والسلام أناد عوة أبي إبراهيم وبآل عمران عيسى وأمه مريم ابنة عمران بن
ماثان بن أبي بور بن رب بابل بن ساليان بن يوشيان بن أمون بن منشا بن
حزقيا بن أحز- بن يوثم بن عزياهو بن يهوشافاط بن أسا بن رحبعم بن
سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ابن يشا بن عوفيد ابن بو عز بن سلون
بن نحشون بن عمينوذ بن رم بن حصرون بن باص بن يهوذا بن يعقوب
عليه الصلاة والسلام وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى
عليه الصلاة والسلام حينئذ بالاندراج في آل إبراهيم عليه السلام والأول هو
الأظهر بدليل تعقيبه بقصة مريم واصطفاء موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام

بالانتظام في سلك آل إبراهيم عليه السلام انتظاما ظاهرا والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أى اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه .
 ﴿ ذرية ﴾ نصب على البدلية من الآلين أو على الحالية منهما وقد مر بيان اشتقاقها في قوله تعالى (ومن ذريتي) ، وقوله تعالى ﴿ بعضها من بعض ﴾ في محل النصب على أنه صفة لذرية أى اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض في النسب كما ينبغي عنه التمرض لسكونه ذرية وقيل بعضها من بعض في الدين فالاستمالة على الوجه الأول تقريرية وعلى الثانى برهانية ﴿ والله سميع ﴾ لأقوال العباد ﴿ عليم ﴾ بأعمالهم البادية والخافية فيصطفى من بينهم لخدمته من تظهر استقامته قولاً وفعلاً على نهج قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها .

﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ في حيز النصب على المفعولية بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران وبيان كيفية أى اذكر لهم وقت قولها الخ وقد مر مرارا وجه توجيه التذكير إلى الأوقات مع أن المقصود تذكير ما وقع فيها من الحوادث وقيل هو منصوب على الظرفية لما قبله أى سميع لقولها المحكى عليم بضميرها المنوى وقيل هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كأنه قيل واصطفى آل عمران إذ قالت الخ فكان من عطف الجمل على الجمل دون عطف المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل في ذلك الوقت وامرأة عمران هى حنة بنت فاقوذا جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام فظن أن المراد زوجته وليس بذلك فإن قضية كفالة زكريا عليه الصلاة والسلام قاضية بأنها زوجة عمران بن ماثان لأنه عليه الصلاة والسلام كان معاصرا له وقد تزوج إيشاع أخت حنة أم يحيى عليه الصلاة والسلام وأما قوله عليه الصلاة والسلام في شأن يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام هما ابنا خالة فقيل تأويله أن الأخت كثيرا ما تطلق على بنت الأخت وبهذا الاعتبار جعلهما عليهما الصلاة والسلام ابني خالة وقيل كانت

سورة آل عمران

٤٦٩

إشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب على أن عمران نكح أولا
أم حنة فولدت له إشاع ثم نكح حنة بناء على نكاح الربائب في شريعتهم
فولدت مريم فكانت إشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم لأنها أخت
حنة من الأم روى أنها كانت عجوزا عاقرا فبينما هي ذات يوم في ظل شجرة
إذ رأت طائرا يطعم فرجه فحنت إلى الولد وتمنّته وقالت اللهم إن لك على نذرا
إن رزقتني ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وكان هذا النذر
مشروعا عندهم في الغلمان ثم هلك عمران وهي حامل وحينئذ فقولها ﴿ رب إني
نذرت لك ما في بطني ﴾ لا بد من حملة على التكرير لتأكيد نذرها وإخراجها
عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن
إفاضة مافيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة
ولذلك قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله بما يناسبه من أسمائه
وصفاته وتأكد الجملة لإبراز وفور الرغبة في مضمونها وتقديم الجار والمجرور
لكمال الاعتناء به وإنما عبر عن الولد بما لإبهام أمره وقصوره عن درجه العقلاء
﴿ محررا ﴾ أي معتقا لخدمة بيت المقدس لا يشغله شأن عنه أو مخلصا للعبادة ونصبه
على الحالية من الموصول والعامل فيه نذرت وقيل من ضميره في الصلة والعامل
معنى الاستقرار فإنها في قوة ما استقر في بطني ولا يخفى أن المراد تقييد فعلها
بالتحرير ليحصل به التقرب إليه تعالى لا تقييد مالا دخل لها فيه من الاستقرار
في بطنها ﴿ فتقبل مني ﴾ أي ما نذرتة والتقبل أخذ الشيء على وجه الرضا وهذا
في الحقيقة استدعاء للولد إذ لا يتصور القبول بدون تحقيق المقبول بل للولد
الذكر لعدم قبول الأنثى ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لجميع المسموعات التي من جملتها
تضرعي ودعائي ﴿ العليم ﴾ بكل المعلومات التي من زمرتها ما في ضميري لا غير
وهو لتعليل لاستدعاء القبول لامن حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائها علما بما
في ضميرها مصحح للتقبل في الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نيتها
وإخلاصها مستدع لذلك تفضلا وإحسانا وتأكد الجملة لعرض قوة يقينها
بمضمونها وقصر صفتي السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى

وانقطاع جبل رجائها عما عداه بالسكينة مبالغة في الضراعة والابتهال ﴿ فلما وضعتها ﴾ أى ما فى بطنها وتأنيث الضمير العائد إليه لما أن المقام يستدعى ظهور أنوثته واعتباره فى حين الشرط إذ عليه يترتب جواب لما أعنى قوله تعالى ﴿ قالت رب إني وضعتها أنثى ﴾ لاعلى وضع ولما كأنه قيل فلما وضعت بنتاً قالت الخ قيل تأنيثه لأن ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله تعالى أولأنه مؤول بالمرءة من الحمل أو النفس أو النسمة وأنت خير بأن اعتبار شئ مما ذكر فى حين الشرط لا يكون مداراً لترتب الجواب عليه وقوله تعالى أنثى حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه وتأنيثه للمسارة إلى عرض مادهمها من خيبة الرجاء أو لما مر من التأويل بالحيلة أو النسمة فالحال حينئذ مبينة وإنما قالتها تخزناً وتحسراً على خيبة رجائها وعكس تقديرها لما كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرتة محرراً للسدانة والتأكيد للرد على اعتقادها الباطل ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها وتفخيم لشأنه وتجهيل لها بقدره أى والله أعلم بالشئ الذى وضعته وما علق به من عظام الأمور وجعله وابنه آية للعالمين وهى غافلة عن ذلك والجملة اعتراضية وقرىء وضعت على خطاب الله تعالى لها أى إنك لاتعلمين قدر هذا الموهوب وما أودع الله فيه من علو الشأن وسمو المقدار وقرىء وضعت على صيغة التكلم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لإظهاراً لغاية الإجلال فيكون ذلك منها اعتذاراً إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرتة من السدانة أو تسلية لنفسها على معنى لعل الله تعالى فيه سرا وحكمة ولعل هذه الأنثى خير من الذكر فوجه الالتفات حينئذ ظاهر وقوله تعالى ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ اعتراض آخر مبين لما فى الأول من تعظيم الموضوع ورفع منزلته واللام فى الذكر والأنثى للعهد أى ليس الذكر الذى كانت تطلبه وتتهخيل كاله ليكون كواحد من السدنة كالأنثى التى وهبت لها فإن دائرة علمها وأمنيتها لاتتكد تحيط بما فيها من جلائل الأمور . هذا على القراءتين الأوليين وأما على التفسير الأخير للقراءة الأخيرة فعنناه وليس الذكر كهنه الأنثى فى الفضيلة بل أدنى منها وأما على التفسير الأول لها فعنناه تأكيد

الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأُنثى في الفضيلة والمزية وصلاحية خدمة المتعبدات فإنهن بمعزل من ذلك فاللام للجنس وقوله تعالى ﴿وإني سميتها مريم﴾ عطف على إني وضعها أثى وعرضا من عرضها على علام الغيوب التقرب إليه تعالى واستدعاء العصمة لها فإن مريم في لغتهم بمعنى العابدة قال القرطبي معناه خادم الرب وإظهار أنها غير راجعة عن نيتها وإن كان ما وضعته أثى وأنها وإن لم تكن خليفة بسدانة بيت المقدس فالتكن من العابدات فيه ﴿وإني أعيذها بك﴾ عطف على إني سميتها وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أى أجبرها بحفظك وقرىء بفتح ياء المتكلم في المواضع التى بعدها همزه مضمومه إلا فى موضعين بعمدى أوف آتوني أفرغ ﴿وذريتها﴾ عطف على الضمير وتقديم الجار والمجرور عليه لإبراز كمال العناية به ﴿من الشيطان الرجيم﴾ أى المطرود وأصل الرجيم الرمى بالحجارة . عن النبي صلى الله عليه وسلم ما من مولود يولد إلا والشيطان يسمه حين يولد فيستل صارخا من مسه إلا مريم وأنها ومعناه أن الشيطان يطمع فى إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وأنها فإن الله تعالى عهمهما ببركة هذه الاستعاذة ﴿فتقبلها﴾ أى أخذ مريم ورضى بها فى النذر مكان الذكر ﴿ربها﴾ ما لكها ومبلغها إلى كمالها اللائق بها وفيه من تشريفها ما لا يخفى ﴿بقبول حسن﴾ قيل الباء زائدة والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد أى تقبها قبولاً حسناً وإنما عدل عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فإن صيغة التفعّل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتركيب وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وإن كان المراد بها فى حقه تعالى ما يترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته وقيل القبول ما يقبل به الشيء كالسقوط والدود لما يسقط به ويلد وهو اختصاصه تعالى لها بما ياقمها مقام الذكر فى النذر ولم تقبل قبلها أثى أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة . روى أن حنة حين ولدتها لفتها فى خرقة وحملتها إلى بيت المقدس ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى السكبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها

كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فإن بنى مائنان كانت رؤس بنى إسرائيل
وملوكمهم وقيل لأنهم وجدوا أمرها وأمر عيسى عليه الصلاة والسلام في الكتب
الإلهية فقال زكريا عليه الصلاة والسلام أنا أحق بها لأن عندى خالتها فأبوا
إلا القرعة وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أفلامهم فطفأ قلم
زكريا ورسبت أفلامهم فتكفلها وقيل هو مصدر وفيه مضاف مقدر أى فتقبلها
بندى قبول أى بأمر ذى قبول حسن وقيل تقبل بمعنى استقبل كتقصى بمعنى
استقصى وتعجل بمعنى استعجل أى استقبلها فى أول أمرها حين ولدت
بقبول حسن ﴿ وأنبأها ﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها فى جميع أحوالها
﴿ نباتا حسنا ﴾ مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد وقيل بل لفعل
مضمر موافق له تقدره فنبتت نباتا حسنا ﴿ وكفلها زكريا ﴾ أى جعله عليه
الصلاة والسلام كافلا لها وضامنا لمصالحها قائما بتدبير أمورها لاعلى طريقة
الوحى بل على ما ذكر من التفصيل فإن رغبته عليه الصلاة والسلام فى كفالتها
وظفو قلبه ورسوب أفلامهم وغير ذلك من الأمور الجارية بينهم كلها من آثار
قدرته تعالى وقرىء أ كفلها وقرىء زكريا بالنصب والمد وقرىء بتخفيف
الفاء وكسرهما ورفع زكريا بمدودا وقرىء وتقبلها ربها وأنبأها وكفلها على
صيغة الأمر فى الكل ونصب ربها على الدعاء أى فاقبلها ياربها وربها تربية
حسنة واجعل زكريا كافلا لها فهو تعيين لجهة التربية . قيل بنى عليه الصلاة
والسلام لها محرابا فى المسجد أى غرفة يصعد إليها بسلم وقيل المحراب أشرف
المجالس ومقدمها كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس وقيل كانت
مساجدهم تسمى المحاريب . روى أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده وإذا
خرج غلق عليها سبعة أبواب ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ تقديم
الظرف على الفاعل لإظهار كمال العناية بأمرها ونصب المحراب على التوسع وكلمة
كلما ظرف على أن ما مصدرية والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها
الوقت والعائد محذوف والعامل فيها جوابها أى كل زمان دخوله عليها أو كل
وقت دخل عليها فيه ﴿ وجد عندها رزقا ﴾ أى نوعا منه غير معتاد إذ كان

ينزل ذلك من الجنة وكان يجد عندها في الصيف فاكهة الشتاء وفي الشتاء فاكهة الصيف ولم ترضع ثديا قط ﴿ قال ﴾ استثناف مبنى على السؤال كأنه قيل فإذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام عند مشاهدته هذه الآية فقليل قال ﴿ يا مريم أنى لك هذا ﴾ أى من أين جاء لك هذا الذى لا يشبه أرزاق الدنيا والآبواب مغلقة دونك وهو دليل على جواز الكرامة للأولياء ومن أنكرها جعل هذا إرهابا وتأسيسا لرسالة عيسى عليه الصلاة والسلام وأما جعله معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام فيأباه اشتباه الأمر عليه عليه الصلاة والسلام وإنما خاطبها عليه الصلاة والسلام بذلك مع كونها بمعزل من رتبة الخطاب لما علم بمشاهدته أنها مؤيدة من عند الله تعالى بالعلم والقدرة ﴿ قالت ﴾ استثناف كما قبله كأنه قيل فإذا صنعت مريم وهى صغيرة لا قدرة لها على فهم السؤال ورد الجواب فقليل قالت ﴿ هو من عند الله ﴾ فلا تعجب ولا تستبعد ﴿ إن الله يرزق من يشاء ﴾ أن يرزقه (بغير حساب) أى بغير تقدير لسكثرتة أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى وهو تعليل لكونه من عند الله إما من تمام كلامها فيكون في محل النصب وإما من كلامه عز وجل فهو مستأنف روى أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها أهدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها فقال هلمى يا بنية فكشف عن الطبق فإذا هو بمملوء خبزاً ولحماً فقال لها أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة بنى إسرائيل ثم جمع عليها والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين فأكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها ﴿ هنالك ﴾ كلام مستأنف وقصة مستقلة سيقى في تضاعيف حكاية مريم لما بينهما من قوة الارتباط وشدة الاشتباك مع ما فى إيرادها من تقرير ما سيقى له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين وهنا ظرف مكان واللام للدلالة على البعد والسكاف للخطاب أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت إذ يستعار هنا وثمة وحيث للزمان ﴿ دعا

زكريا ربه ﴿ لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد حنة في النجابة والكرامة على الله تعالى وإن كانت عاقرا عجوزا فقد كانت حنة كذلك وقيل لما رأى الفؤاد في غير إبانها تنبه لجواز ولادة العجوز العاقر من الشيخ الفاني فأقبل بالدعاء من غير تأخير كما ينبغي عنه تقديم الظرف على الفعل لأعلى معنى أن ذلك كان هو الموجب للإقبال على الدعاء فقط بل كان جزءا أخيرا من العلة التامة التي من جعلتها كبر سنه عليه الصلاة والسلام وضعف قواه وخوف مواليه حسبها فصل في سورة مريم ﴿ قال ﴾ تفسير الدعاء وبيان لكيفيته لأجل له من الإعراب ﴿ رب هب لي من لدنك ﴾ كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لا ابتداء الغاية مجازا أى أعطنى من محض قدرتك من غير وسط معتاد ﴿ ذرية طيبة ﴾ كما وهبتها لحنة ويجوز أن يتعلق من بمحذوف وقع حالا من ذرية أى كائنة من لدنك والذرية النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد ههنا ولد واحد فالتأنيث في الصفة لتأنيث لفظ الموصوف كما في قول من قال :

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك السكال

وهذا إذا لم يقصد به واحد معين أما إذا قصد به المعين امتنع اعتبار اللفظ نحو طلحة وحمزة فلا يجوز أن يقال جاءت طلحة وذهبت حمزة ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ أى مجيبه وهو تعليل لما قبله وتحريك لسلسلة الإجابة ﴿ فنادته الملائكة ﴾ كان المنادى جبريل عليه الصلاة والسلام كما تفصح عنه قراءة من قرأ فناده جبريل والجمع كما في قولهم فلان يركب الخيل ويابس الثياب وماله غير فرس وثوب قال الزجاج أى أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة وقيل لما كان جبرائيل عليه الصلاة والسلام رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيما له وقيل الرئيس لابتدائه من إلتباع فأسند النداء إلى السكال مع كونه صادرا عنه خاصة وقرئ فناده بالإمالة ﴿ وهو قائم ﴾ جملة حالية من مفعول النداء مقررة لما أفاده الفاء من حصول البشارة عقيب الدعاء وقوله تعالى ﴿ يصلى ﴾

لما صفة لقائم أو خبر ثان عند من يرى تعدده عند كون الثاني جملة كما في قوله تعالى ﴿ في المحراب ﴾ أى فى المسجد أو منه على القول بتعددّها بلا عطف ولا بدلية أو حال من المستكن فى قائم وقوله تعالى فإذا هى حية تسعى أو حال من المستكن فى قائم وقوله تعالى ﴿ فى المحراب ﴾ أى المسجد أو فى غرفة مريم متعلق بىصلى أو بقائم على تقدير كون يعلى حالا من ضمير قائم لأن العامل فيه وفى الحال حينئذ شىء واحد فلا يلزم الفصل بالأجنبي كما يلزم على التقادير الباقية .

﴿ إن الله يبشرك بيحيى ﴾ أى بأن الله وقرىء بكسر الهمزة على تقدير القول أو لإجراء النداء مجراه لكونه نوعا منه وقرىء يبشرك من الإخبار وببشرك من الثلاثى وأيا ما كان ينبغى أن يكون هذا الكلام إلى آخره محكما بعبارة عن الله عز وجل على منهاج قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية كما يلوح من مراجعته عليه الصلاة والسلام فى الجواب إليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك والعدول عن إسناد التبشير إلى نون العظمة حسبا وقع فى سورة مريم للجرى على سنن الكبرياء كما فى قول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك بكذا ولإيذان بأن ما حكى هناك من النداء والتبشير وما يترتب عليه من المحاورة كان كل ذلك بتوسط الملك بطريق الحكاية عن سبحانه لا بالذات كما هو المتبادر وبهذا يتضح اتحاد المعنى فى السورتين الكريميتين فتأهل ويحيى اسم أعجمى وإن جعل عربيا فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل ، روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إنما سمى يحيى لأن الله تعالى أحيا به وعقر أمه وقال قيادة لأنه تعالى أحيا قلبه بالإيمان قال القرطبى كان اسمه فى الكتاب الأول حيا ولا بد من تقدير مضاف يعود إليه الحال أى بولادة يحيى فإن التبشير لا يتعلق بالأعيان ﴿ مصدقا ﴾ حال مقدرة من يحيى ﴿ بكلمة من الله ﴾ أى بعيسى عليه الصلاة والسلام وإنما سمى كلمة لأنه وجد بكلمة كائنه منه تعالى قيل هو أول من آمن به وصدق بأنه كلمة الله وروح منه وقال السدى لقيت أم يحيى أم عيسى فقالت

يا مريم أشعرت بحبلى فقالت مريم وأنا أيضا حبلى قالت فإنى وجدت ما فى بطنك فذلك قوله تعالى (مصدقا بكلمة) الخ وقال ابن عباس رضى الله عنهما إن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر وقيل بثلاث سنين وقتل قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بمدة يسيرة وعلى كل تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمان مديد لما أن مريم ولدت وهى بنت ثلاث عشرة سنة أو بنت عشر سنين وقيل بكلمة من الله أى بكتاب الله سى كلمة كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته ﴿ وسيدا ﴾ عطف على مصدقا أى رئيسا يسود قومه ويفوقهم فى الشرف وكان فائقا للناس قاطبة فإنه لم يلم بخطيئة ولم يهزم بمعصية فيألفها من سيادة ما أسناها ﴿ وحصورا ﴾ عطف على ما قبله أى مبالغا فى حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة ، روى أنه مر فى صحابه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقنا ﴿ ونبيا ﴾ عطف على ما قبله مترتب على ما عدد من الخصال الحميدة ﴿ ومن الصالحين ﴾ أى ناشئا منهم لأنه كان من أصلاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو كائنا من جملة المشهورين بالصلاح كما فى قوله تعالى (ولأنه فى الآخرة لمن الصالحين) والمراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذى لا بد منه فى منصب النبوة من أقاصى مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى عن السؤال كأنه قيل فإذا قال زكريا عليه السلام حينئذ فقيل قال ﴿ رب ﴾ لم يخاطب الملك المنادى له بملاسة أنه المباشر للخطاب وإن كان ذلك بطريق الحكاية عنه تعالى بل جرى نهج دعائه السابق مبالغة فى التضرع والمناجاة وجدا فى التبتل إليه تعالى واحترازا عما عسى يوهم خطاب الملك من توهم أن علمه سبحانه بما يصدر عنه يتوقف على توسطه كما يتوقف وقوف البشر على ما يصدر عنه سبحانه على توسطه فى عامة الأحوال وإن لم يتوقف عليه فى بعضها ﴿ أنى يكون لى غلام ﴾ فيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاما عند التبشير كما فى قوله تعالى (إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وأنى بمعنى كيف أو من أين وكان تامة وأنى واللام متعلقتان بها

وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما آخر أى كيف أو من أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع جالا من غلام إذ لو تأخر لكان صفة له أو ناقصة واسمها ظاهر وخبرها إما أنى واللام متعلقة بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى منصوب على الظرفية ﴿وقد بلغنى الكبير﴾ حال من ياء المتكلم أى أدركنى كبر السن وأثر فى كقولهم أدركته السن وأخذته السن وفيه دلالة على أن كبر السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب للإنسان لا يكاد يتركه قيل كان له تسع تسع وتسعون سنة وقيل اثنتان وتسعون وقيل مائة وعشرون وقيل ستون ، وقيل خمس وستون وقيل سبعون وقيل خمس وسبعون وقيل خمس وثمانون ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وامرأتى عاقر﴾ أى ذات عقر وهو أيضا حال من الياء فى لى عند من يجوز تعدد الحال أو من ياء بلغنى أى كيف يكون لى ذلك والحال أنى وامرأتى على حالة منافية له كل المنافاة وإنما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدره الله تعالى عليه لاسيما بعد مشاهدته عليه الصلاة والسلام للشواهد السالفة استعظاما لقدرة الله سبحانه وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته عز وجل عليه فى ذلك لا استبعادا له وقيل بل كان ذلك للاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد وقيل كان ذلك استفهاما عن كيفية حدوثه ﴿قال﴾ استئناف كما سلف ﴿كذلك﴾ إشارة إلى مصدر يفعل فى قوله عز وجل ﴿الله يفعل ما يشاء﴾ أى ما يشاء أن يفعله من عجيب الأفاعيل الخارقة للعادات فالله مبتدأ ويفعل خبره والسكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف أى الله يفعل ما يشاء أن يفعله فعلا مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى هو خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر فقدم على العامل لإفادة التقصر بالنسبة إلى ما هو أدنى من المشار إليه واعتبرت السكاف مقحمة لتأكيدها إفاده اسم الإشارة من الغنخامة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أو على أنها حال من ضمير المصدر المقدر معرفة أى يفعل ما يشاء

بيان لذلك الشأن المهم أو كذلك خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر كذلك وقوله تعالى (الله يفعل ما يشاء بيان) له ﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى علامة تدلنى على تحقق المستول ووقوع الحبل وإنما سألتها لأن العلوق أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة من حين حصولها بالشكر ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهورا معتادا ولعل هذا السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد إذ به يظهر ما ذكر من كون التفاوت بين سنى يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين لأن ظهور العلامة كان عقيب تعيينها لقوله تعالى فى سورة مريم فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم الآية اللهم إلا أن تكون المجاوبة بين زكريا ومريم فى حالة كبرها وقد عدت من جملة من تكلم فى الصغر بموجب قولها المحكى والجعل إبداعى واللام متعلقة به والتقديم لما مر مرارا من الإعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أو بمحذوف وقع حالا من آية وقيل هو بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما لى والتقديم لأنه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الجار فلا يتغير حالهما بعد دخول الناسخ ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ﴾ أى أن تقدر على تكليمهم ﴿ ثلاثة أيام ﴾ أى متوالية لقوله تعالى فى سورة مريم (ثلاث ليال سويا) مع القدرة على الذكر والتسبيح وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة كأنه قيل آية حصول المطلوب ووصول النعمة أن تحبس لسانك إلا عن شكرها وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال ﴿ إلا رمزا ﴾ أى إشارة بيد أو رأس أو نحوهما وأصله التحرك يقال ارتمز أى تحرك ومنه قيل للبحر الراموز وهو استثناء منقطع لأن الإشارة ليست من قبيل الكلام أو متصل على أن المراد بالكلام ما فهم منه المرام ولا ريب فى كون الرمز من ذلك القبيل وقرىء رمزا بفتحيتين على أنه جمع رامز كخدم وبضميتين على أنه جمع رموز كرسل على أنه حال منه ومن الناس معا بمعنى مترامين كقوله :

متى ما تلقى فردين ترجف روافف أليتيك وتستطارا

﴿واذكر ربك﴾ أى فى أيام الحبس شكراً لحصول التفضل والإنعام كما يؤذن به العرض لعنوان الربوبية ﴿كثيراً﴾ أى ذكر كثيراً أو زماناً كثيراً ﴿وسبح﴾ أى سبحه تعالى أو أفعّل التسبيح ﴿بالعشى﴾ أى من الزوال إلى الغروب وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل ﴿والإبكار﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى ، قيل المراد بالتسبيح الصلاة بدليل تقييده بالوقت كما فى قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقيل الذكر اللسانى كما أن المراد بالذكر الذكر القلبى وقرئ الأبكار بفتح الهمزة على أنه جمع بكر كسحر وأسحار ﴿ولذ قالت الملائكة﴾ شروع فى شرح بقية أحكام اصطفاء آل عمران لإثر الإشارة إلى نبد من فضائل بعض أقاربهم أعنى زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام لاستدعاء المقام إياهما حسبما أشير إليه وقرئ بتذكير الفعل والمراد بالملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام وقد مر ما فيه من السلام ولذ منصوب بمضمر معطوف على المضمر السابق عطف القصة على القصة وقيل معطوف على الظرف السابق أعنى قوله (لذ قالت امرأة عمران) منصوب بناصبه فتدبر أى واذكر أيضاً من شواهد اصطفاائهم وقت قول الملائكة عليهم الصلاة والسلام ﴿يامريم﴾ وتكرير التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الأحكام السابقة فإنها من أحكام التريبة الجسدية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التريبة الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها ، فيل كلوها شفاها كرامة لها أو إرهاباً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام لمكان الإجماع على أنه تعالى لم يستنبه امرأة وقيل ألهموها ﴿إن الله اصطفاك﴾ أولاً حيث تقبلت من أمك بقبول حسن ولم يتقبل غيرك أنثى ورباك فى حجز زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك بالكرامات السنية ﴿وطهرك﴾ أى بما يستقذر من الأحوال والأفعال وبما قدفك به اليهود بإنطاق الطفل ﴿واصطفاك﴾ آخرآ ﴿على نساء العالمين﴾ بأن وهب لك عيسى عليه الصلاة

والسلام من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء وجعلس كما آية للعالمين فعلى هذا ينبغي أن يكون تقديم حكاية هذه المقابلة على حكاية بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام لما مر مرارا من التنبية على أن كلا منهما مستحق للاستقلال بالتذكير ولو روعى الترتيب الخارجى لتبادر كون الشكل شيئا واحدا وقيل المراد بالاصطفاءين واحد والتسكير للتأكييد وتبيين من اصطفاها عليهن فينبئ لا إشكال في ترتيب النظم السكريم إذ يحمل حينئذ الاصطفاء على ما ذكر أولا وتجعل هذه المقابلة قبل بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام لإيذاها بكونها قبل ذلك متوفرة على الطاعات والعبادات حسبما أمرت بها بجهته فيها مقبلة على الله تعالى متبثلة إليه تعالى منسلخة عن أحكام البشرية مستعدة لهيضان الروح عليها ﴿يا مريم﴾ تسكير النداء للإيذان بأن المقصود بالخطاب ما يرد بعده وأن ما قبله من تذكير النعم كان تمهيدا لذكره وترغيبا في العمل بموجبه ﴿اقتنى لربك﴾ أى قوى في الصلاة أو أطيل القيام فيها له تعالى والتعرض لعنوان ربوبيته تعالى لها للإشعار بعلية وجوب الامتثال بالأمر ﴿واسجدى واركعى مع الراكعين﴾ أمرت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها مبالغة في إيجاب رعايتها وإيذاها بفضيلة كل منها وأصالتها وتقديم السجود على الركوع إما لكون الترتيب في شريعتهم كذلك وإما لكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ولا يقتضى ذلك كون الترتيب الخارجى كذلك بل اللائق به الترقى من الأدنى إلى الأعلى وإما ليقترن ركعى بالراكعين للإشعار بأن من لا ركوع في صلاتهم ليسوا مصلين وأما ما قيل من أن الواو لا توجب الترتيب فغايتها التصحيح لا الترجيح وتجريد الأمر بالركنين الأخيرين عما قيد به الأول لما أن المراد تقييد الأمر بالصلاة بذلك وقد فعل حيث قيد به الركن الأول منها وقيل المراد بالقنوت لإدامة الطاعات كما في قوله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) وبالسجود الصلاة لما مر من أنه أفضل أركانها وبالركوع الخشوع والإخبات ، قيل لما أمرت بذلك قامت في الصلاة حتى ورمت قدميها وسالت دما وقيحا ﴿ذلك﴾ إشارة إلى

ما سلف من الأمور البديعة وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأن المشار إليه وبعد منزلته في الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أى من الأنباء المتعلقة بالغيب والجملة مستأنفة لاجل لها من الإعراب وقوله تعالى : ﴿ نوحيه إليك ﴾ جملة مستقلة مبينة للأولى وقيل الخبر هو الجملة الثانية ومن أنباء الغيب وصيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحي لم ينقطع بعد ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أى عند الذين اختلفوا وتنازعوا في تربية مريم وهو تقرير وتحقيق لسكونه وحيا على طريقة التهكم بمنكره كما في قوله تعالى (وما كنت بجانب الغربي) الآية (وما كنت ثاويا في أهل مدين) الآية فإن طريق معرفة أمثال هاتيك الحوادث والواقعات إما المشاهدة وإما السماع وعدمه محقق عندهم فبقى احتمال المعاينة المستحيلة ضرورة فنفتت تسكما بهم ﴿ إذ يلقون أقلامهم ﴾ ظرف للاستقرار العامل في لديهم وأقلامهم أقداهم التي اقترعوا بها وقيل اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركا ﴿ أيهم يكفل مريم ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أى يلقونها ينظرون أو ليعلموا أيهم يكفلها ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أى في شأنها تنافسا في كفالتها حسبما ذكر فيما سبق وتكرير ما كنت لديهم مع تحقق المقصود بعطف إذ يختصمون على إذ يقولون كما في قوله عز وجل (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى) للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه السلام عند إلقاء الأقلام وعدم حضوره عند الاختصاص مستقل بالشهادة على نبوته عليه السلام لاسيما إذا أريد باختصاصهم تنازعهم قبل الاقتراع فإن تغيير الترتيب في الذكر مؤكده ﴿ إذ قالت الملائكة ﴾ شروع في قصة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو بدل من ولدت قالت الملائكة منصوب بخاصبه وما بينهما اعتراض جيء به تقرير لما سبق وتنبيها على استقلاله وكونه حقيقا بأن يعد كمنظاره من شواهد النبوة وترك العطف بينهما بناء على اتحاد المخاطب والمخاطب ولإيذاننا بتقارن الخطابين أو تقاربهما في الزمان وقيل (٣١ - أبو السعود - أول)

منصوب بمضمر معطوف على ناصبه وقيل بدل من إذ يختصمون كأنه قيل وما كنت حاضرا في ذلك الزمان المديد الذي وقع في طرف منه الاختصاص وفي طرف آخر هذا الخطاب إشعارا بإحاطته عليه الصلاة والسلام بتفاصيل أحوال مريم من أولها إلى آخرها والقائل جبريل عليه الصلاة والسلام وإيراد صيغة الجمع لما مر ﴿يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ من لا ابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أى بكلمة كائنة منه عز وجل : ﴿اسمه﴾ ذكر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر وهو مبتدأ خبره ﴿المسيح﴾ وقوله تعالى ﴿عيسى﴾ بدل منه أو عطف بيان وقيل خبر آخر وقيل خبر مبتدأ محذوف وقيل منصوب بإضمار أعنى مدحا وقوله تعالى ﴿ابن مريم﴾ صفة لعيسى وقيل المراد بالإسم ما به يتميز المسمى عن سواه فالخبر حينئذ بمجموع الثلاثة إذ هو المميز له عليه الصلاة والسلام تمييزا عن جميع من أعدها والمسيح لقبه عليه الصلاة والسلام وهو من الألقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه المبارك وعيسى معرب من إيشوع والتصدى لاشتقاقهما من المسح والعيس وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام مسح بالبركة أو بما يطهره من الذنوب أو مسحه جبريل عليهما الصلاة والسلام أو مسح الأرض ولم يقم في موضع أو كان عليه الصلاة والسلام يمسح ذا العاهة فيبرأ وبأنه كان في لونه عيس أى يياض يعلوه حمرة من قبيل الرقم على الماء وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها تنبيها على أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه وبذلك فضلت على نساء العالمين ﴿وجيها في الدنيا والآخرة﴾ الوجيه ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف وهو حال مقدرة من كلمة فإنها وإن كانت نكرة لكنها صالحة لأن ينصب بها الحال وتذكيرها باعتبار المعنى والوجهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة ﴿ومن المقربين﴾ أى من الله عز وجل وقيل هو إشارة إلى رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة وهو عطف على الحال الأولى وقد عطف عليه قوله تعالى ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلا﴾ أى

يكلّمهم حال كونه طفلاً وكهلاً كلام الأنبياء من غير تفاوت والمهد مصدر سمي به ما يهد للصبي أى يسوى ملى مضجعه وقيل لأنه رفع شاباً والمراد وكهلاً بعد نزوله وفى ذكر أحواله المختلفة المتنافية إشارة إلى أنه بمنزل من الألوهية ﴿ومن الصالحين﴾ حال أخرى من كلمة معطوفة على الأحوال السالفة أو من الضمير فى يكلم .

﴿قالت﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فإذا قالت مريم حين قالت لها الملائكة ما قالت فقيل قالت متضرعة إلى ربها ﴿رب أنى يكون﴾ أى كيف يكون أو من أين يكون ﴿لى ولد﴾ على وجه الاستبعاد العادى والتعجب واستعظام قدرة الله عز وجل وقيل على وجه الاستفهام والاستفسار بأنه بالتزوج أو بغيره يكون الولد ويكرن إما تامة وأنى واللام متعلقان بها بتأخير الفاعل عن الجار والمجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالاً من ولد إذ لو تأخر لكان صفة له وإما ناقصة واسمها ولد وخبرها إما أنى واللام متعلقة بمضمر وقع حالاً كما مر أو خبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى ﴿ولم يمسنى بشر﴾ جملة حالية محققة للاستبعاد أى والحال أنى على حالة منافية للولادة ﴿قال﴾ استئناف كما سلف والقائل هو الله تعالى أو جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ الكلام فى إعرابه كما مر فى قصة زكريا بعينه خلا أن إيراد يخلق ههنا مكان يفعل هناك لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسه بشر أبدع وأعرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فإن فمكان الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل ولذلك عقب ببيان كيفيته فقيل ﴿إذا قضى أمراً﴾ من الأمور أى أراد شيئاً كما فى قوله تعالى إنما أمره إذا أراد شيئاً وأصل القضاء الأحكام أطلق على الإرادة الإلهية القطعية المتعلقة بوجود الشيء لإيجابها لإبائه البتة وقيل الأمر ومنه قوله تعالى ﴿وقضى ربك﴾ فإنما يقول له كن ﴿لاغير﴾ فىكون من غير تريث وهو كما ترى تمثيل لسكال قدرته تعالى وسهولة حصول المقدورات حسباً تقتضيه مشيئته وتصوير لسرعة

حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المأمور المطيع للأمر القوي المطاع وبيان
لأنه تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مدرجا بأسباب ومواد معتادة يقدر على
خلقها دفعة من غير حاجة إلى شيء من الأسباب والمواد ﴿ ويعلمه الكتاب ﴾
أى الكتابة أو جنس الكتب الإلهية ﴿ والحكمة ﴾ أى العلوم وتهذيب
الأخلاق ﴿ والنزوة والإنجيل ﴾ لإفرادهما بالذكر على تقدير كون المراد
بالكتاب جنس الكتب المنزلة لزيادة فضلها وإنافتها على غيرهما والجللة عطف
على يبشرك أو على وجيها أو على يخلق أو كلام مبتدأ سيق تطيبها لقلبها وإزاحة
لما أهمها من خوف الائمة لما علمت أنها تلد من غير زوج وقرىء ونعلمه
بالنون ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾ منصوب بمضمر يعود إليه المعنى
معطوف على يعلمه أى ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل أى كلهم وقال بعض
اليهود إنه كان مبعوثا إلى قوم مخصوصين ثم قيل كان رسولا حال الصبا وقيل
بعد البلوغ ، وكان أول أنبياء بنى إسرائيل يوسف عليه الصلاة والسلام وآخرهم
عيسى عليه الصلاة والسلام وقيل أولهم موسى وآخرهم عيسى عليهم الصلاة
والسلام وقوله تعالى ﴿ أنى قد جئتكم ﴾ معمول لرسولا لما فيه من معنى
النطق أى رسولا ناطقا بآنى الخ وقيل منصوب بمضمر معمول لقول مضمر
معطوف على يعلمه أى يعلمه أى ويقول أرسلت رسولا بآنى قد جئتكم الخ
وقيل معطوف على الأحوال السابقة ولا يقدر فيه كونها فى حكم الغيبة مع
كون هذا فى حكم التكليم لما عرفت من أن فيه معنى النطق كأنه قيل حال
كونه وجيها ورسولا ناطقا بآنى الخ وقرىء ورسول بالجر عطفًا على كلمة
والباء فى قوله تعالى ﴿ بآية ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل الفعل على
أنها للملابسة والتنوين للنفخيم دون الوحدة لظهور تعددها وكثرتها وقرىء
بآيات أو بجئتكم على أنها للتعدية ومن فى قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ لا ابتداء
الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية عظيمة
كأنه من ربكم أن أنيتكم بآية عظيمة كأنه منه تعالى والتعرض لوصف الربوبية
مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامثال بما سياتى من الأوامر

وقوله تعالى ﴿أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير﴾ بدل من قوله تعالى ﴿أنى قد جعلكم﴾ ومحلّه النصب على نزع الجار عند سيدييه والفراء والجر على رأى الخليل والسكسائي أو بدل من آية وقيل منصوب بفعل مقدر أى أغنى أنى الخ وقيل مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هى أنى أخلق لكم وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف أى أقدر لكم أى لأجل تحصيل إيمانكم ودفع تكذيبكم إياى من الطين شيئاً مثل صورة الطير ﴿فأنفخ فيه﴾ الضمير للكاف أى فى ذلك الشئ المماثل لهيئة الطير وقرىء فأنفخ فيها على أن الضمير للهيئة المقدرة أى أخلق لكم من الطين هيئة كهيئة الطير فأنفخ فيها ﴿فيكون طيراً﴾ حياً طياراً كسائر الطيور ﴿ياذن الله﴾ بأمره تعالى أشار عليه الصلاة والسلام بذلك إلى أن إحياءه من الله تعالى لأمته . قيل لم يخلق غير الخفاش ، روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق الخفاش فأخذ طيناً وصوره ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميز من خلق الله تعالى قيل إنما طلبوا خلق الخفاش لأنه أكمل الطير خلقاً وأبلغ دلالة على القدرة لأن له ثدياً وأسناناً وهى تحيض وتطهر وتلد كسائر الحيوان وتضحك كما يضحك الإنسان وتطير بغير ريش ولا تبهر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما ترى فى ساعتين ساعة بعد الغروب وساعة بعد طلوع الفجر وقيل خلق أنواعاً من الطير ﴿وأبرىء الأكمه﴾ أى الذى ولد أعمى أو الممسوح العين ﴿والأبرص﴾ المبتلى بالبرص لم تكن العرب تنفر من شئ نفرتها منه ويقال له الوضع أيضاً وتخصيص هذين الداءين لأنهما مما أعيا الأطباء وكانوا فى غاية الخذاقة فى زمنه عليه الصلاة والسلام فأراهم الله تعالى المعجزة من ذلك الجنس . روى أنه عليه الصلاة والسلام ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطلق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداويه إلا بالدعاء ﴿وأحي الموتى ياذن الله﴾ كرهه مبالغة فى دفع وهم من توهم فيه اللاهوتية . قال السكبي كان عليه الصلاة والسلام يحيى

الموتى يا حى يا قيوم ، أحياء عازرو كان صديقا له فعاش وولدت بعد ذلك . فقالوا إنك تحيى من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابهم سكتة فأحى لنا سام بن نوح فقال دلونى على قبره ففعلوا فقام على قبره فدعا الله عز وجل فقام من قبره وقد شاب رأسه فقال عليه السلام كيف شبت ولم يكن فى زمانكم شيب قال ياروح الله لما دعوتنى سمعت صوتا يقول أجب روح الله فظننت أن الساعة قد قامت فن هول ذلك شبت فساله عن الزرع قال يا روح الله إن مرارته لم تذهب من حنجرتى وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنة وقال للقوم صدقوه فإنه نبي الله فأمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحر فأرنا آية فقال يا فلان أكلت كذا ويا فلان خبيء لك كذا وذلك قوله تعالى ﴿ وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ أى بالمغيبات من أحوالكم التى لا تشكون فيها وقرىء تذخرون بالذال والتخفيف ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأمور العظام ﴿ لآية ﴾ عظيمة وقرىء لآيات ﴿ لَكُمْ ﴾ دالة على صحة رسالتى دلالة واضحة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ جواب الشرط محذوف لانصباب المعنى إليه أو دلالة المذكور عليه أى انتفعتم بها أو إِنْ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ يَتَّقِي مِنْهُمْ الْإِيمَانَ دلتكم الآية (١) على صحة رسالتى والإيمان بها .

﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ عطف على المضممر الذى تعلق به قوله تعالى بآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية الخ ومصدقا لما بين يدي الخ أو على رسولا على الأوجه الثلاثة فإن مصدقا فيه معنى النطق كما فى رسولا أى ويجعله مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ ومصدقا الخ أو حال كونه مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو منصوب بإضمار فعل دل عليه قد جئتكم مصدقا الخ وقوله من التوراة إما حال من الموصول والعامل مصدقا وإما من ضميره المستتر فى الظرف الواقع صلة والعامل

(١) سقطت من ط .

الاستقرار المضمر في الظرف أو نفس الظرف لقيامه مقام الفعل ﴿ ولأحل لكم ﴾ معمول لمضمر دل عليه ما قبله أى وجئكم لأحل الخ وقيل عطف على معنى مصدقا كقولهم جئته معذرا ولا جئلب رضاه كأنه قيل قد جئتمكم لأصدق ولأحل الخ وقيل عطف على بآية أى قد جئتمكم بآية من ربكم ولأحل لكم ﴾ بعض الذى حرم عليكم ﴾ أى في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام من الشحوم والثروب والسّمك ولحوم الإبل والعمل في السبت ، قيل أحل لهم من السمك والطير ما لا صُصّة له واختلف في إحلال السبت وقرىء حرم على تسمية الفاعل وهو ما بين يدي أو الله عز وجل وقرىء حرم بوزن كرم وهذا يدل على أن شرعه كان ناسخا لبعض أحكام التوراة ولا يخل ذلك بكونه مصدقا لما أن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الأزمان وتأخير المنفعل عن الجار والمجرور لما مر مرارا من المبادرة إلى ذكر ما يسر المخاطبين وللتشويق^(١) إلى ما آخر ﴿ وجئتمكم بآية من ربكم ﴾ شاهدة على صحة رسالتى وقرىء بآيات ﴿ فاتقوا الله ﴾ في عدم قبولها ومخالفة مدلولها ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أمركم به وأنها كم عنه بأمر الله تعالى وتلك الآية هي قولى .

﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ فإنه الحق الصريح الذى أجمع عليه الرسل قاطبة فيكون آية بينة على أنه عايم الصلاة والسلام من جملتهم وقرىء أن الله بالفتح بدلا من آية أو قد جئتمكم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أى قد جئتمكم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أى قد جئتمكم بآية بعد آية مما ذكرت لكم من خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص والإحياء والإنباء بالخفيات وغيره من ولادى بغير أب ومن كلامى في المهد وغير ذلك والأول لتمهيد الحجة والثانى لتقريرها إلى الحكم ولذلك رتب عليه بإلغاء قوله فاتقوا الله أى لما جئتمكم

(١) في ط : التشويق

بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعون فيما أَدْعُوكم إليه ومعنى قراءة من فتح ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه كقوله تعالى (لإيلاف قريش) الخ ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال (إن الله ربى وربكم) إشارة إلى أن استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذى غايته التوحيد وقال فاعبدوه إشارة إلى استكمال القوة العملية فإنه يلزم الطاعة التى هى الإتيان بالأوامر والإلتزام عن المنهى ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام قل آمنتم بالله ثم استقم ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ شروع فى بيان مآل أحواله عليه السلام إثر ما أشير إلى طرف منها بطريق النقل عن الملائكة والفناء فصيحة تفصح عن تحقق جميع ما قالته الملائكة وخروجه من القوة إلى الفعل حسبها شرحته كما فى قوله تعالى (فلما رآه مستقرا عنده) بعد قوله تعالى (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) كأنه قيل لحملته فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت وإنما لم يذكره اكتفاء بحكاية الملائكة وإيذايا بعدم الخلف وثقة بما فصل فى المواضع الأخر وأما عدم نظم بقية أحواله عليه الصلاة والسلام فى سلك النقل فإما للاعتناء بأمرها أو لعدم مناسبتها لمقام فيها من ذكر مقاساته عليه الصلاة والسلام للشدائد ومعاناته للمساكيد والمراد بالإحساس الإدراك القوى الجارى بجرى المشاهدة والكفر بإصرارهم عليه وعتوهم ومكابرتهم فيه مع العزيمة على قتله عليه الصلاة والسلام كما ينبى عنه الإحساس فإنه إنما يستعمل فى أمثال هذه المواقع عند كون متعلقه أمرا محذورا مكروها كما فى قوله عز وجل (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) وكلية من متعلقة بأحس والضمير المجرور لبنى إسرائيل أى ابتداء الإحساس من جهتهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل متعلقة بمحذوف وقع حالا من الكفر ﴿ قال ﴾ أى لخلص أصحابه لا لجميع بنى إسرائيل لقوله تعالى (كما قال عيسى ابن مريم للحواريين) الآية وقوله تعالى (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) ليس بنص فى

في توجيه الخطاب إلى الكل بل يكفى فيه بلوغ الدعوة إليهم ﴿من أنصارى﴾
الأنصار جمع نصير كأشراف جمع شريف .

﴿إلى الله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الياء أى من أنصارى متوجها
إلى الله ملتجئاً إليه أو بأنصارى متضمنا معنى الإضافة كأنه قيل من الذين
يضيفون أنفسهم إلى الله عز وجل ينصروننى كما ينصرفنى وقيل إلى بمعنى فى
أى فى سبيل الله وقيل بمعنى اللام وقيل بمعنى مع ﴿قال﴾ استئناف مبنى على
سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابه عليه الصلاة والسلام
فقيل قال ﴿الحواريون﴾ جمع حوارى يقال فلان حوارى فلان أى صفوته
وخالصته من الحور وهو البياض الخالص ومنه الحواريات للحضريات لخلوص
ألوانهن ونقاتهن سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نياتهم
ونقاء سرائرهم .

وقيل لما عليهم من آثار العبادة وأنوارها وقيل كانوا ملوكا يلبسون
البياض^(١) وذلك أن واحدا من الملوك صنع طعاما وجمع الناس عليه وكان
عيسى عليه الصلاة والسلام على قصعة لا يزال يأكل منها ولا تنقص فذكروا
ذلك للملك فاستدعاه عليه الصلاة والسلام فقال له من أنت قال عيسى ابن مريم
فترك ملسكه وتبعه مع أقاربه فأولئك هم الحواريون وقيل كانوا صيادين
يصطادون السمك يلبسون الثياب البيض فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا فمر بهم
عيسى عليه الصلاة والسلام فقال لهم أنتم تصيدون السمك فإن اتبعتمونى صرتم
بمحيط تصيدون الناس بالحياة الأبدية قالوا من أنت قال عيسى ابن مريم عبد الله
ورسوله فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد
شيئاً فأمره عيسى عليه الصلاة والسلام باللقائها فى الماء مرة أخرى ففعل
فاجتمع فى الشبكه من السمك ما كادت تنمزق واستعانوا بأهل سفينة أخرى
وملاؤا السفينتين فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام وقيل كانوا اثنى عشر

رجلا آمنوا به عليه الصلاة والسلام واتبعوه وكانوا إذا جاعوا قالوا جعنا ياروح
الله فيضرب بيده الأرض فيخرج منها لكل واحد رغيان وإذا عطشوا قالوا
عطشنا فيضرب بيده الأرض فيخرج منها الماء فيشربون فقالوا من أفضل منا
قال عليه الصلاة والسلام أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فصاروا
يغسلون الثياب بالأجرة فسموا حوارين وقيل إن أمه سلمته إلى صباغ
فأراد الصباغ يوما أن يشتغل ببعض مهماته فقال له عليه الصلاة والسلام ههنا
ثياب مختلفة قد جعلت لكل واحد منها علامة معينة فاصبغها بتلك الألوان
فغاب فجعل عليه الصلاة والسلام كلها في جب واحد وقال كوني ياذن الله كما
أريد فرجع الصباغ فسأله فأخبره بما صنع فقال أفسدت على الثياب قال قم
فانظر فجعل يخرج ثوبا أحمر وثوبا أخضر وثوبا أصفر إلى أن أخرج الجميع
على أحسن ما يكون حسبا كان يريد فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به عليه
الصلاة والسلام وهم الحواريون قال القفال ويجوز أن يكون بعض هؤلاء
الحواريين الإثني عشر من الملوك وبعضهم من صيادی السمك وبعضهم من
القصارين وبعضهم من الصباغين والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار
عيسى عليه الصلاة والسلام وأعوانه والمخلصين في طاعته ومحبيه .

﴿ نحن أنصار الله ﴾ أى أنصار دينه ورسوله ﴿ آمنا بالله ﴾ استئناف
جار مجرى العلة لما قبله فإن الإيمان به تعالى موجب لنصرة دينه والذب عن
أوليائه والمخاربة مع أعدائه ﴿ واشهد بأننا مسلمون ﴾ مخلصون في الإيمان
منقادون لما تريد منا من نصرتك طلبوا منه عليه الصلاة والسلام الشهادة
بذلك يوم القيامة يوم أشهد الرسل عليهم الصلاة والسلام لأنهم وعليهم إيذا
بأن مرمى غرضهم السعادة الآخروية ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ تضرع إلى
الله عز وجل وعرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضها على الرسول مبالغة في
إظهار أمرهم ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ أى فى كل ما يأتى ويذكر من أمور الدين
فيدخل فيه الاتباع فى النصرة دخولا أوليا ﴿ فاكثبنا مع الشاهدين ﴾ أى
مع الذين يشهدون بوحدانيتك أو مع الأنبياء الذين يشهدون لاتباعهم أو مع

أمة محمد عليه الصلاة والسلام فإنهم شهداء على الناس قاطبة وهو حال من مفعول اكتبنا .

﴿ ومكروا ﴾ أى الذين علم عيسى عليه الصلاة والسلام كفرهم من اليهود بأن وكبوا به من يقتله غيلة ﴿ ومكر الله ﴾ بأن رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث أنه فى الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يمكن إسناده إليه سبحانه إلا بطريق المشاكلة ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ملك بنى إسرائيل لما قصد قتله عليه الصلاة والسلام أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم أدخل عليه فاقتله فدخل البيت فألقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه وقيل إنه عليه الصلاة والسلام جمع الحواريين ليلة وأوصاهم ثم قال دليكم فى أحدكم قبل أن يصيح الديك وبيعنى بدارهم يسيرة ، فخرجوا وتفزعوا وكانت اليهود تطلبه فنافق أحدهم فقال لهم ما تجعلون لى إن دلتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه فألقى الله عز وجل عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام ورفعه إلى السماء فأخذوا المنافق وهو يقول أنا دليلكم فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم قتال عظيم وقيل لما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله تعالى من الجنون بدعاء عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلتا تبيكيان على المصلوب فأنزل الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام فجاءهما فقال علام تبيكيان فقالتا عليك فقال إن الله تعالى رفعنى ولم يصبنى إلا خير وإن هذا شئ شبه لهم قال محمد بن إسحاق إن اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له إن رجلا من بنى إسرائيل من تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم لإحياء الموتى وإبراء

الأكه والأبرص وفعل وفعل فقال لو علمت ذلك ما خلّيت بينهم وبينه ثم
بعث إلى الخواريين فانتزعهم من أيديهم .

وسأهم عن عيسى عليه الصلاة والسلام فأخبروه فبايعهم على دينهم وأنزل
المصلوب فغيّبه وأخذ الخشبة فأكرمها ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقا
عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم ثم جاء بعده ملك آخر يقال له
تيتوس ^(١) وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام بنحو من
أربعين سنة فقتل وسبي ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجرا على حجر
فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز قال أهل التواريخ حملت مريم
بعيسى عليه الصلاة والسلام وهي بنت ثلاث عشرة سنة وولدت به بيت لحم
من أرض «أورى شلم» لمضى خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض
بابل وأوحى الله تعالى إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعاه إليه من بيت المقدس
ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وعاشت أمه بعد رفعه
ست سنين ﴿ والله خير الماكرين ﴾ أقوامهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم
على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب وإظهار الجلالة في موقع الإضرار
لتربية المهابة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ إذ قال الله ﴾ ظرف لمسكر الله أو لمضمّن نحو وقع ذلك ﴿ يا عيسى
إني متوفيك ﴾ أي مستوفي أجلك ومؤخر كإلى أجلك المسمى عاصما لك من
قتلهم أو قابضك من الأرض من توفيت مالى أو متوفيك نائما إذ روى أنه
رفع وهو نائم وقيل بميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن
أو بميتك من الشهوات العائقة عن التزوج إلى عالم الملكوت وقيل أماته الله
تعالى سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهب النصراني ، قال القرطبي
والصحيح أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد

(١) في ط : طيطوس وها واحد .

وهو اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما وأصل
 القصة أن اليهود لما عزموا على قتله عليه الصلاة والسلام اجتمع الحواريون
 وهم اثنا عشر رجلا في غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر بهم
 إبليس جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال
 المسيح للحواريين أيكم يخرج ويقتل ويكون معي في الجنة فقال واحد منهم
 أنا يا نبي الله فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناولته عكازا
 وألقى عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه
 وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فكساه الله الريش والنور وألبسه النور وقطع
 عنه النور شهوة المطعم والمشرب وذلك قوله تعالى (إني متوفيك) فطار مع
 الملائكة ثم إن أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق فقالت فرقة كان
 الله فينا ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية وقالت فرقة أخرى كان فينا ابن
 الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهم النسطورية وقالت فرقة أخرى منهم كان
 فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء هم المسلمون
 فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوه فلم يزل الإسلام منظمسا إلى أن
 بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم .

﴿ورافعك إلى﴾ أي إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي ﴿ومطهرك من
 الذين كفروا﴾ أي من سوء جوارهم وخبيث صحتهم ودنس معاشرتهم
 ﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ قال قتادة والريبع والشعبي ومقاتل والكأبي هم
 أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من أمة محمد صلى الله عليه الصلاة
 وسلم دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من النصارى ﴿فوق الذين كفروا﴾
 وهم الذين مكروا به عليه الصلاة والسلام ومن يسير بسيرتهم من اليهود فإن
 أهل الإسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة وقيل هم الحواريون
 فينبغي أن تحمل فوقيتهم على فوقية المسلمين بحكم الإتحاد في الإسلام والتوحيد
 وقيل هم الروم وقيل هم النصارى فالمراد بالاتباع مجرد الإدعاء والمحبة وإلا
 فأولئك الكفرة بمعزل من اتباعه عليه الصلاة والسلام ﴿إلى يوم القيامة﴾

غاية للجعل أو للاستقرار المقدر في الظرف لا على معنى أن الجعل أو الفوقية تنهى حينئذ ويتخلص الكفرة من الدلة بل على معنى أن المسلمين يعملونهم إلى تلك الغاية فأما بعدها فيفعل الله تعالى بهم ما يريد ﴿ ثم إلى مرجعكم ﴾ بالبعث وثم للتراخي وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب في ضمن الالتفات فإنه أبلغ في التبشير والإنذار ﴿ فأحكم بينكم ﴾ يؤمّنذ لئلا رجوعكم إلى ﴿ فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمور الدين وفيه متعلق بتختلفون وتقديمه عليه لرعاية الفواصل .

﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً ﴾ تفسير للحكم الواقع بين الفريقين وتفصيل لكيفيته والبداية ببيان حال الكفرة لما أن مساق الكلام التهديدهم وزجرهم عما هم عليه من الكفر والعناد وقوله تعالى : ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ متعلق بأعذبهم لا بمعنى إيقاع كل واحد من التعذيب في الدنيا والتعذيب في الآخرة وإحداثهما يوم القيامة بل بمعنى إتمام مجموعهما يومئذ . وقيل إن المرجع أعم من الدنيوى والآخروى وقوله تعالى إلى يوم القيامة غاية للفوقية لا للجعل والرجوع متراخ عن الجعل وهو غير محدود لا عن الفوقية المحدودة على نهج قولك سأعيرك سكنى هذا البيت شهرًا ثم أخلع عليك خاعة فيلزم تأخر الخلع عن الإعارة لا عن الشهر ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ يخلصونهم من عذاب الله تعالى في الدارين وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أى ليس لواحد منهم ناصر واحد ﴿ وأما الذين آمنوا ﴾ بما أرسلت به ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ كما هو دين المؤمنين ﴿ فيوفهم أجورهم ﴾ أى يعطيهم إياها كاملة ولعل الالتفات إلى الغيبة للإيدان بما بين مصدرى التعذيب والإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال ، وقرئ فنوفهم جريا على سنن العظمه والكبرياء ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ أى بعضهم فإن هذه الكناية

فاشية في جميع اللغات جارية مجرى الحقيقة وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزوا الحدود^(١) واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان والجملة تذييل لما قبله مقرر لمضمونه .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأن المشار إليه وبعد منزلته في الشرف وعلى كونه في ظهور الأمر ونباهة الشأن بمنزلة المشاهد للعاين وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿ تتلوه ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ عليك ﴾ متعلق بتلوه وقوله تعالى ﴿ من الآيات ﴾ حال من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وما بينهما حال من اسم الإشارة أو ذلك خبر لمبتدأ مضمرة أى الأمر ذلك وتلوه حال كما مر وصيغة الاستقبال إما لاستحضار الصورة أو على معناها إذ التلاوة لم تتم بعد ﴿ والذكر الحكيم ﴾ أى المشتغل على الحكم أو المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه والمراد به القرآن فمن تبعية أو بعض مخصوص منه فمن بيانية وقيل هو اللوح المحفوظ فمن ابتدائية ﴿ إن مثل عيسى ﴾ أى شأنه البديع المنتظم لغرابته في سلك الأمثال ﴿ عند الله ﴾ أى في تقديره وحكمه ﴿ كمثل آدم ﴾ أى كحالته العجيبة التي لا يرتاب فيها مراتب ولا ينازع فيها منازع ﴿ خلقه من تراب ﴾ تفسير لما أبهم في المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما وحسم لمادة شبهة الخصوم فإن إنكار خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه الصلاة والسلام بغير أب وأم بما لا يكاد يصح والمعنى خلق قلبه من تراب ﴿ ثم قال له كن ﴾ أى أنشأه بشرا كما في قوله تعالى ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه ويجوز كون ثم لتراخي الخبر به ﴿ فيكون ﴾ حكاية حال ماضية ، روى أن وفد نجران قالوا لرسول صلى الله عليه وسلم مالك تشتم صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول إنه عبد قال أجل هو عبد الله

ورسوله وكتبته ألقاها إلى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانا من غير أب فحيث سلبت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله فقال عليه الصلاة والسلام إن آدم عليه الصلاة والسلام ما كان له أب ولا أم ولم يلزم من ذلك كونه ابناً لله سبحانه وتعالى فكذا حال عيسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ الحق من ربك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق أى ما قصصنا عليك من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه والظرف إما حال أى كأننا من ربك ربك أو خبر ثان أى كائن منه تعالى وقيل هما مبتدأ وخبر أى الحق المذكور من الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطب لتشريفه عليه الصلاة والسلام والإيدان بأن تنزيل هذه الآيات الحققة الناطقة بكنهه الأمر ترتبة له عليه الصلاة والسلام ولطف به ﴿ فلا تكن من الممتريين ﴾ فى ذلك والخطاب إما للنبي صلى الله عليه وسلم على طريقة الإلهاب والتيسير لزيادة التثبيت والإشعار بأن الامتراء فى المحذورية بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يكاد يمكن صدوره عنه فكيف بمن هو بصدد الامتراء وإما لكل من له صلاحية الخطاب ﴿ فمن حاجك ﴾ أى من النصارى إذ هم المتصدرون^(١) للحاجة ﴿ فيه ﴾ أى فى شأن عيسى عليه السلام وأمه زعماء منهم أنه ليس على الشأن المحكى ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ أى ما يوجب له إيجاباً قطعياً من الآيات البينات وسمعوا ذلك منك فلم يرفعوا عما هم عليه من الغى والضلال ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أى هلموا بالرأى والعزيمة ﴿ ندع أبناءنا وأبنائكم ﴾ اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم أعز منهم وأما النساء فنعلقهن من جهة أخرى ﴿ ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحملهم عليها وتقديمهم على النفس فى أثناء المباهلة التى هى من باب المبالك ومظان التلف مع أن الرجل يخاطر لهم بنفسه ويحارب دونهم للإيدان بكمال أمنه عليه الصلاة والسلام وتمام

ثقتنه بأمره وقوة يقينه بأنه إن يصيبهم في ذلك شائبة مكروه أصلا وهو السر في تقديم جانبه عليه السلام على جانب المخاطبين في كل من المقدم والمؤخر مع رعاية الأصل في الصيغة فإن غير المتكلم تبع له في الإسناد .

﴿ ثم نبتهل ﴾ أى نتباهل بأن نلعن السكاذب منا والبهلة بالضم والفتح اللعنة وأصلها الترك من قولهم بهلت الناقة أى تركتها بلا صرار ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ عطف على نبتهل مبين لمعناه ، روى أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما خلوا^(١) قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم يا عبد المسيح ما ترى فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعاتم لتهلكن ، فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فاتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا^(٢) الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها - رضى الله عنهم أجمعين - وهو يقول إذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يامعشر النصارى إني لأرى وجوها لو سألو الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبق على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة فقالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نترك على دينك ونثبت على ديننا قال صلى الله عليه وسلم فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين ، فأبوا قال عليه الصلاة والسلام فإنى أنا جزكم ، فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على ألا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفي حلة ألفا في صفر وألفا في رجب وثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال والذى نفسى بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لا عنوا

(١) في ط : تخالوا .

(٢) في ١٠ : ومعه .

لمسخوا قردة وخنازير ولا اضطرم عليهم الوادى ناراً ولا ستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا .

﴿إن هذا﴾ أى ما قص من نبأ عيسى وأمه عليهما السلام ﴿هو القصص الحق﴾ دون ما عداه من أكاذيب النصارى فهو ضمير الفصل دخلته اللام لكونه أقرب إلى المبتدأ من الخبر وأصلها أن تدخل المبتدأ وقرىء هو بسكون الهاء والقصص خبر إن والحق صفة أو مبتدأ والقصص خبره والجملة خبر لأن ﴿وما من إله إلا الله﴾ صرح فيه بمن الاستغرافية تأكيذا للرد على النصارى فى تشليهم ﴿وإن الله هو العزيز﴾ القادر على جميع المقدورات ﴿الحكيم﴾ المحيط بالمعلومات لا أحد يشاركه فى القدرة والحكمة ليشركه فى الألوهية ﴿فإن تولوا﴾ عن التوحيد وقبول الحق الذى قصصنا (١) عليك بعد ما عاينوا تلك الحجج النيرة والبراهين الساطعة ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أى بهم وإنما وضع موضعه ما وضع للإيدان بأن الإعراض عن التوحيد والحق الذى لا يحيد عنه بعدما قامت به الحجج لإفساد للعالم وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ أمر بخطاب أهل الكتابين وقيل بخطاب وفد نجران وقيل بخطاب يهود المدينة ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى ﴿أن لا نعبد إلا الله﴾ أى نوحده بالعبادة ونخلص فيها ﴿ولا نشرك به شيئاً﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له فى استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن يعبد ﴿ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله﴾ بأن نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله ولا نطيع الأحرار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلا منهم بعضنا بشر مثلنا ، روى أنه لما نزلت اتخذوا أحرارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدكم يا رسول الله فقال عليه السلام أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال عليه السلام هو ذلك ﴿فإن تولوا﴾ عما

دعوتهم إليه من التوحيد وترك الإشراك ﴿فقلوا﴾ أى قل لهم أنت والمؤمنون ﴿اشهدوا بأننا مسلمون﴾ أى لزمتمكم الحجة فاعترفوا بأننا مسلمون دونكم أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطق به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم السلام .

﴿تنبيه﴾ انظر إلى ما روعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحاجة حيث بين أولاً أحوال عيسى عليه السلام وما توارد عليه من الأطوار المنافية للإلهية ثم ذكر كيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام فلما ظهر عندهم دعوا إلى المبالغة بنوع من الإعجاز ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا ببعض الانقياد دعوا إلى ما اتفق عليه عيسى عليه السلام والإنجيل وسائر الانبياء عليهم السلام والكتب ثم لما ظهر عدم إجدائه أيضاً أمر بأن يقال لهم اشهدوا بأننا مسلمون ﴿يا أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿لم تحاجون في إبراهيم﴾ أى في ملته وشريعته تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام وزعم كل منهم أنه عليه السلام منهم وترافعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم ﴿وما أنزلت التوراة﴾ على موسى عليه الصلاة والسلام ﴿والإنجيل﴾ على عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿إلا من بعده﴾ حيث كان من بينه وبين موسى عليهما السلام ألف سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفاً سنة فكيف يمكن أن يتفوه به عاقل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه ثم بيئت بجملة مستأنفة لإشعاراً بكال غفلتهم أى أنتم هؤلاء الأشخاص الخلق حيث ﴿حاججتم فيما لكم به علم﴾ في الجملة حيث وجدتموه في التوراة والإنجيل .

﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ أصلاً إذ لا ذكر لدين إبراهيم في أحد الكتابين قطعاً وقيل هؤلاء بمعنى الذى وحاججتم صلتهم وقيل ها أنتم أصله

أأنتم على الاستفهام للتعجب قبلت الهمزة هاء ﴿ والله يعلم ﴾ ما حاجتكم فيه أو كل شيء فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ أى محل النزاع أو شيئا من الأشياء التى من جملتها ذلك ﴿ ما كان لإبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ تصريح بما نطق به البرهان المقرر ﴿ ولكن كان حنيفاً ﴾ أى ما نأى عن العقائد الزائفة كلها ﴿ مسلماً ﴾ أى منقاداً لله تعالى وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشتراك الإلزام ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تعريض بأنهم مشركون بقولهم عزيز ابن الله والمسيح ابن الله ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم ﴾ أى أقربهم إليه وأخصهم به ﴿ للذين اتبعوه ﴾ أى فى زمانه ﴿ وهذا النبي والذين آمنوا ﴾ لموافقته لهم فى أكثر ما شرع لهم على الأصالة وقرىء والنبي بالنصب عطفاً على الضمير فى اتبعوه وبالجر عطفاً على إبراهيم ﴿ والله ولى المؤمنين ﴾ ينصرونهم ويحازيهم الحسنى بإيمانهم وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبت الحكم فى النبي صلى الله عليه وسلم بدلالة النص ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ نزلت فى اليهود حين دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ولو بمعنى أن ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ جملة حالية جىء بها للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم أى وما يتخطاها الإضلال ولا يعود وباله إلا إليهم لما أنه يضاعف به عذابهم وقيل وما يضلون إلا أمثالهم ويأباه قوله تعالى ﴿ وما يشعرون ﴾ أى باختصاص وباله وضرره بهم .

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ أى بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أى والحال أنكم تشهدون أنها آيات الله أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعتة فى الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حق ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ بتحريفكم وإبراز الباطل فى صورته أو بالتقصير فى التمييز بينهما وقرىء تلبسون بالتشديد وتلبسون بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل كما فى قوله عليه

السلام كلايس ثوبى زور ﴿ونسكتمون الحق﴾ أى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
 ونعته ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى حقيقته ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ وهم
 رؤساؤهم ومفسدوهم لأعقابهم ﴿آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا﴾ أى أظهروا
 الإيمان بالقرآن المنزل عليهم ﴿وجه النهار﴾ أى أوله ﴿واكفروا﴾ أى أظهروا
 ما أنتم عليه من الكفر به ﴿آخره﴾ مرانين لهم أنكم آمنتم به بادية الرأى
 من غير تأمل ثم تأملتم فيه فوقتكم على خلل رأيكم الأول فرجعتهم عنه ﴿لعلهم﴾
 أى المؤمنين ﴿يرجعون﴾ عما هم عليه من الإيمان به كما رجعتهم والمراد بالطائفة
 كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا
 بما أنزل عليهم من إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخره
 لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون وقيل هم اثنا عشر رجلا من
 أحبار خيبر اتفقوا على أن^(١) يدخلوا في الإسلام أول النهار ويقولوا آخره
 نظرنا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا بالنعته الذى ورد في التوراة
 لعل أصحابه يشكون فيه .

﴿ولا تؤمنوا﴾ أى لا تقروا بتصديق قلبى ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ أى لأهل
 دينكم أولا تظهروا إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان على دينكم من قبل فإن
 رجوعهم أرجى وأهم ﴿قل إن الهدى من الله﴾ يهدى به من يشاء إلى الإيمان
 ويثبتة عليه ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ متعلق بمحذوف أى دبرتم ذلك
 وقلتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو بلا تؤمنوا أى ولا تظهروا إيمانكم بأن
 يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياءكم ولا تنفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم
 ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام وقوله تعالى ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾
 اعتراض مفيد ليكون كيدهم غير مجد لطائل أو خبر إن على أن هدى الله بدل
 من الهدى وقرىء أن يؤتى على الاستنهام التقريعى وهو مؤيد للوجه الأول

(١) فى ط : تقولوا بأن .

أى لأن يؤتى أحد الخ دبرتم وقرىء أن على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة
أى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم
(أو يحاجوكم عند ربكم) عطف على أن يؤتى على الوجهين الأولين وعلى
الثالث معناه حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حججتكم والواو ضمير أحد
لأنه فى معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتية من
يشاء والله واسع عليم﴾ رد لهم وإبطال لما زعموه بالحجة الباهرة (يختص
برحمته) أى يجعل رحمته مقصورة على ﴿من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾
كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه .

﴿ومن أهل الكتاب﴾ شروع فى بيان خيانتهم فى المسال بعد بيان
خيانتهم فى الدين والجار والمجرور فى محل الرفع على الابتداء حسبها مرتحيقته
فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الخ خبره قوله تعالى ﴿من إن
تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ على أن المقصود بيان انصافهم بمضمون الجملة
الشرطية لا كونهم ذوات المذكورين كأنه قيل بعض أهل الكتاب بحيث إن
تأمنه بقنطار أى بمال كثير يؤده إليك كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا
وماتى أوقية ذهباً فأداها إليه^(١) ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾
كفمنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر دينارا فجحدته وقيل المأمونون
على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة والخائفون فى القليل اليهود إذ
الغالب فيهم الخيانة ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾ استثناء مفرع من أعم الأحوال
أو الأوقات أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات
إلا فى حال دوام قيامك أو فى وقت دوام قيامك على رأسه مبالغاً فى مطالبته
بالتقاضى وإقامة البيئة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله
تعالى لا يؤده وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال غلوهم فى الشر والفساد

(١) فى ط فأداها إليه

﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ قالوا ليس علينا فى الأميين ﴾ أى فى شأن من ليس من أهل الكتاب ﴿ سبيل ﴾ أى عتاب ومؤاخذه ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ بادعائهم ذلك ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون مفترون على الله تعالى وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا لم يجعل فى التوراة فى حقهم حرمة وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حكمك حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك فى كتابهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها كذب أعداء الله ما من شيء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر .

﴿ بلى ﴾ لإثبات لما نفوه أى بلى عليهم فيهم سبيل وقوله تعالى ﴿ من أوفى بعهدده واتيى فإن الله يحب المتقين ﴾ استئناف مقرر للجملة التى سد بلى مسدها والضمير المجرور لمن أو لله تعالى وعموم المتقين نائب مناب الراجع من الجزاء إلى من ومشعر بأن التقوى ملاك الأمر عام للوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهى ﴿ إن الذين يشترون ﴾ أى يستبدلون ويأخذون ﴿ بعهد الله ﴾ أى بدل ما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم والوفاء بالآمانات ﴿ وأيمانهم ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ ثمنا قليلا ﴾ هو حطام الدنيا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿ لا خلاق ﴾ لا نصيب ﴿ لهم فى الآخرة ﴾ من نعيمها ﴿ ولا يسكلمهم الله ﴾ أى بما يسرهم أو بشيء أصلا وإنما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخ والتقرير فى أثناء الحساب من الملائكة عليهم السلام أو لا ينتفعون بكلمات الله تعالى وآياته والظاهر أنه كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك لقوله تعالى ﴿ ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ فإنه مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم متفرع على الكناية فى حق من يجوز عليه النظر لأن من اعتد بالإنسان انتفت إليه وأعاره بهمه^(١) ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن

(١) فى ط : ١١ وأعاره نظره .

ثمة نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرد المعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ويوم القيامة متعلق بالفعلين وفيه تهويل للوعيد ﴿ولا يذكهم﴾ أى لا يثنى عليهم أو لا يطهرهم من أوضار الأوزار ﴿ولهم عذاب أليم﴾ على ما فعلوه من المعاصي قيل إنها نزلت في أبى رافع ولبابه ابن أبى الحقيق وحى بن أخطب حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا الرشوة على ذلك وقيل نزلت في الأشعث بن قيس حيث كان بينه وبين رجل نزاع فى بشر فاخصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له شاهدك أو يمينه فقال الأشعث إذن يحلف ولا يسأل فقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان وقيل فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به . ﴿ولأن منهم﴾ أى من اليهود المخرفين ﴿لفريقا﴾ ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأضراهما ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ أى يفتلون بها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المخرف أو يعطفونها بشبه الكتاب وقرىء يلوون بالتشديد ويلوئن بقلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على ما قبلها من الساكن ﴿لتحسبوه﴾ أى المخرف المدلول عليه بقوله تعالى (يلوون) الخ وقرىء بالياء والضمير للمسلمين ﴿من الكتاب﴾ أى من جملته وقوله تعالى ﴿وما هو من الكتاب﴾ حال من الضمير المنصوب أى والحال أنه ليس منه فى نفس الأمر وفى اعتقادهم أيضاً ﴿ويقولون﴾ مع ما ذكر من اللى والتحريف على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض ﴿هو﴾ أى المخرف ﴿من عند الله﴾ أى منزل من عند الله ﴿وما هو من عند الله﴾ حال من ضمير مبتدأ فى الخبر أى والحال أنه ليس من عنده تعالى فى اعتقادهم أيضاً وفيه من المبالغة فى تشنيعهم وتقبيح أمرهم وكال جرأنهم ما لا يخفى وإظهار الاسم الجليل والكتاب فى محل الإضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول .

﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون ومفترون على الله تعالى وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه وعن ابن عباس

رضى الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف وغيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذت قريظة بما كتبوا فخلطوه بالكتاب الذى عندهم ﴿ما كان لبشر﴾ بيان لافتراءهم على الأنبياء عليهم السلام حيث قال نصارى نجران إن عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذ ربا حاشاه عليه السلام وإبطال له إثريان افتراءهم على الله سبحانه وإبطاله أى ما صح وما استقام لأحد وإنما قيل لبشر إشعارا بعلو الحكم فإن البشرية منافية للأمر الذى أسنده الكفرة إليهم ﴿أن يؤتبه الله الكتاب﴾ الناطق بالحق الأمر بالتوحيد الناهى عن الإشراك ﴿والحكم﴾ هو ^(١) الفهم والعلم أو الحكمة وهى السنة والنبوة .

﴿ثم يقول﴾ ذلك البشر ما شرفه الله عز وجل بما ذكر من التشريفات وعرفه الحق وأطلع على شئونه العالية ﴿للناس كونوا عبادا لى﴾ الجار متعلق بمحذوف هو صفة لعباد ^(٢) أى عباداً كائنين ﴿من دون الله﴾ متعلق بلفظ عبادا لما فيه من معنى الفعل أو صفة ثانية له ويحتمل الحالية لتخصص النسكرة بالوصف أى متجاوزين الله تعالى سواء كان ذلك استقلالاً أو اشتراكاً فإن التجاوز متحقق فيهما حتماً قيل أن أبا رافع القرظى والسيد النجراتى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال عليه السلام معاذ الله أن يعبد غير الله تعالى وأن نأمر بعبادة غيره تعالى فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى فنزلت وقيل قال رجل من المسلمين يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال عليه السلام لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله تعالى ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ﴿ولكن كونوا﴾ أى واسكن يقول كونوا ﴿ربانيين﴾ الربانى منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللحيانى والرقباني وهو الكامل فى العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل ودينه ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أى بسبب مشايرتكم على تعليم

(٢) فى ط : عبادا .

(١) سقطت من ط .

الكتاب ودراسته أى قراءته فإن جعل خبر كان مضارعا لإفادة الاستمرار المتجدد^(١) وتكرير بما كنتم للإيدان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثانى لمن دونهم وقرىء تعلمون بمعنى عالمين وتدرسون من التدريس وتدرسون من الإدراس بمعنى التدريس كما كرم بمعنى كرم ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير بما تدرسونه على الناس .

﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ بالنصب عطف على ثم يقول ولا مزيدة لتأكيد معنى النفي فى قوله تعالى (ما كان لبشر) أى ما كان لبشر أن يستنبيه الله تعالى ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً وتوسيط الاستدراك بين المعطوفين للمسارة إلى تحقيق الحق ببيان ما يليق بشأنه ويحق صدوره عنه لإثر تنزيهه عما لا يليق بشأبه ويمتنع صدوره عنه وأما ما قيل من أنها غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أرباباً بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة فيقضى بفساده ما ذكر من توسط الاستدراك بين الجملتين المتعاطفتين ضرورة أنهما حينئذ فى حكم جملة واحدة وكذا قوله تعالى ﴿أيأمركم بالكفر﴾ فإنه صريح فى أن المراد بيان انتقاء كلا الأمرين قصداً لبيان انتقاء الأول لانتقاء الثانى ويعضده قراءة الرفع على الاستئناف وتجويز الحالية بتقدير المبتدأ أى وهو لا يأمركم إلى آخره بين الفساد لما عرفته آنفاً وقوله تعالى ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾ يدل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون للسجود عليه السلام ﴿ولمأخذ الله ميثاق النبيين﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم أى أذكر وقت أخذه تعالى ميثاقهم .

﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به

ولتتصرنه ﴿ قيل هو على ظاهره وإذا كان هذا حكم الأنبياء عليهم السلام كان الأمم بذلك أولى وأحرى وقيل معناه أخذ الميثاق من النبيين وأممهم واستغنى بذكرهم عن ذكرهم وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافة إلى الفاعل والمعنى وإذا أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أئمتهم وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضف وهم بنو إسرائيل أو سمامهم نبيين تهكما بهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لأننا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا واللام في لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف وما تحتل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتل الخبرية وقرىء لما بالسكسر على أن ما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب ثم لمجيء رسول مصدق أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتتصرنه أو موصولة والمعنى أخذه الذى آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له وقرىء لما بمعنى حين آتيتكم أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استئقلا .

﴿ قال ﴾ أى الله تعالى بعد ما أخذ الميثاق ﴿ أقررتم ﴾ بما ذكر ﴿ وأخذتم على ذلكم إصري ﴾ أى عهدى سمي به لأنه يؤصر أى يشد وقرىء بضم الهمزة إما لغة كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿ أقررنا ﴾ وإنما لم يذكر أخذهم الإصرار اكتفاء بذلك ﴿ قال ﴾ تعالى ﴿ فاشهدوا ﴾ أى فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار وقيل الخطاب فيه للملائكة ﴿ وأنا معكم من الشاهدين ﴾ أى وأنا أيضاً على إقراركم ذلك وتشاهدكم به ^(١) شاهد وإدخال مع على المخاطبين لما أنهم المباشرون للشهادة حقيقة وفيه من التأكيد والتحذير ما لا يخفى ﴿ فمن تولى ﴾ أى أعرض عما ذكر ﴿ بعد ذلك ﴾ الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة فعنى البعد فى اسم الإشارة لتفخيم الميثاق ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من واجمع باعتبار المعنى كما أن الأفراد فى تولى باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للدلالة

على ترمى أمرهم في السوء وبعد منزلتهم في الشر والفساد أى فأولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة ﴿ هم الفاسقون ﴾ المتمردون الخارجون عن الطاعة من الكفرة فإن الفاسق من كل طائفة من كان متجاوزا عن الحد .

﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ عطف على مقدر أى أيتولون فيبغون غير دين الله وتقديم المفعول لأنه المقصود إنكاره أو على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار وقرئ بقاء الخطاب على تقدير وقل لهم ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض ﴾ جملة حالية مفيدة لو كادة الإنكار ﴿ طوعا وكرها ﴾ أى طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتقى الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فإنهم لا يقدرّون على الامتناع عما قضى عليهم ﴿ وإليه يرجعون ﴾ أى من فيهما والجمع باعتبار المعنى وقرئ بقاء الخطاب والجملة إما معطوفة على ما قبلها منصوبة على الحالية وإما مستأنفة سبقت التهديد والوعيد ﴿ قل آمنا بالله ﴾ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه ومن معه من المؤمنين بالإيمان بما ذكر وجمع الضمير في قوله تعالى ﴿ وما أنزل علينا ﴾ وهو القرآن لما أنه منزل عليهم أيضا بتوسط تبليغه إليهم أو لأن المنسوب إلى واحد من الجماعة قد ينسب إلى الكل أو عن نفسه فقط وهو الأنسب بما بعده والجمع لإظهار جلالة قدره عليه السلام ورفعته محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك ويجوز أن يكون الأمر عاما والإفراد لتشريفه عليه عليه السلام والإيدان بأنه عليه السلام أصل في ذلك كما في قوله تعالى : (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) .

﴿ وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ من الصحف والنزول كما يعدى بالى لانتهاه إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق ومن رام الفرق بأن على لكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وإلى لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسف ألا يرى إلى قوله تعالى : (بما أنزل إليك الخ)

وقوله (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا) الخ وإنما قدم المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أنزل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدمه عليه نزولاً لأنه المعروف له والعيار عليه والأسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وأبناؤه الإثنا عشر وذرايعهم فإنهم حفده إبراهيم عليه السلام ﴿ وما أوتى موسى وعيسى ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما كما ينبي عنه لإيثار الإتياء على الإنزال الخاص بالكتاب وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿ والنبيون ﴾ عطف على موسى وعيسى عليهما السلام أى وما أوتى النبيون من المذكورين وغيرهم ﴿ من ربهم ﴾ من الكتب والمعجزات ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل تؤمن بصحة نبوة كل منهم وبحقية ما أنزل إليهم فى زمانهم وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) وهمزة أحدا ما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المسال بين الناس وإنما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وغيره كما فى قول النابغة :

فما كان بين الخير لاذ حاء سالماً أبو حجير إلا ليهال قلائل

أى بين الخير ويبنى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى منقادون أو مخلصون أنفسنا له تعالى ^(١) لا نجعل له شريكاً فيها وفيه تعريض بإيمان أهل الكتاب فإنه بمنزل عن ذلك ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ﴾ أى غير التوحيد والإقياد لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحاً والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل

الكتابين ﴿دينا﴾ ينتحل إليه وهو نصب على مفعول ليتبع وغير الإسلام حال منه لما أنه كان صفة له فلما قدمت عليه انتصبت حالا أو هو المفعول ودينا تمييز لما فيه من الإيهام أو بدل من غير الإسلام ﴿فلن يقبل﴾ ذلك ﴿منه﴾ أبدا بل يرد أشد رد وأقبحه ، وقوله تعالى ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ إما حال من الضمير المجرور أو استئناف لاحتل له من الإعراب أى من الواقعين فى الخسران والمعنى أن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع فى الخسران بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام واطمأن بذلك أقطع وأقبح واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل والجواب أنه ينفى قبول كل دين يغيره لا قبول كل ما يغيره .

﴿كيف يهدى الله﴾ إلى الحق ﴿قوما كفروا بعد إيمانهم﴾ قيل هم عشرة رهط ارتدوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكة وقيل هم يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مبعضه ﴿وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات﴾ استبعاد لأن يهديهم الله تعالى فإن الحائد عن الحق بعد ما وضع له منهمك فى الضلال بعيد عن الرشاد وقيل نفى وإنكار له وذلك يقتضى أن لا تقبل توبة المرتد وقوله تعالى وشهدوا عطف على إيمانهم باعتبار انحلاله إلى جملة فعلية كما فى قوله تعالى (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله) الخ فإنه فى قوة أن يقال بعد أن آمنوا أو حال من ضمير كفروا بإضمار قد وهو دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان فيكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه والجملة اعتراضية أو حالية .

﴿أوئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿جزاءهم﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ خبره

والجملة خبر لأولئك وهذا يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه ينفي جواز لعن غيرهم ولعل الفرق بينهم وبين غيرهم أنهم مطبوع على قلوبهم ممنوعون عن الهدى آيسون من الرحمة رأسا بخلاف غيرهم والمراد بالناس المؤمنون أو الكل فإن الكافر أيضا يلعن منكرا الحق والمترد عنه ولكن لا يعرف الحق والمترد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه ﴿خالدين فيها﴾ في اللعنة أو العقوبة أو النار وإن لم تذكر لدلالة الكلام عليها ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ أى يمهلون ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ أى من بعد الارتداد ﴿وأصلحوا﴾ أى ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وهو تعليل لما دل عليه الاستثناء وقيل نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على رده فأسرسل إلى قومه أن يسألوا هل لى من توبة فأرسل إليه أخوه الحلاس الآية فرجع إلى المدينة فتاب ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا﴾ كاليهود كفروا بعبسى عليه السلام والإنجيل بعد الإيمان بموسى عليه الصلاة والسلام التوراة ، ثم ازدادوا كفرا حيث كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن أو كفروا به عليه السلام بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بالإصرار عليه والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفرا بقولهم نتر بص به ريب المنون أو نرجع إليه فننافقه بإظهار الإيمان .

﴿إن تقبل توبتهم﴾ لأنهم لا يتوبون إلا عند إشرافهم على الهلاك فكفى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظا في شأنهم وإبرازا لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقا لارتدادهم وازديادهم كفرا ولذلك لم تدخل فيه الفاء ﴿وأولئك هم الضالون﴾ الثابتون على الضلال ﴿إن الذين كفروا وما وتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ لما كان الموت على الكفر سببا لامتناع قبول الفدية زيدت الفاء ههنا للإشعار به وملء الشيء ما يملأ به وذهباً تمييز وقرىء بالرفع على أنه بدل من ملء أو خبر لمحذوف ولو افتدى محمول على المعنى كأنه قيل

فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً أو العطوف على مضمير تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تصدق به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة أو المراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه والمثل يحذف ويراد كثيراً لأن المثلين في حكم شيء واحد ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار إلتصافهم بالصفات الشنيعة المذكورة ﴿لهم عذاب أليم﴾ مؤلم اسم الإشارة مبتدأ والظرف خبره ولاعماده على المبتدأ ارتفع به عذاب أليم على الفاعلية ﴿وما لهم من ناصرين﴾ في دفع العذاب عنهم أو في تخفيفه ومن مزية للاستغراق وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أى ليس لواحد منهم ناصر واحد .

﴿لن تنالوا البر﴾ من ناله نيلاً إذا أصابه والخطاب للمؤمنين وهو كلام مستأنف سيق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم^(١) أى لن تبلغوا حقيقة البر الذى يتنافس فيه المتنافسون ولن تدرکوا شأوه ولن تلحقوا بزمرة الأبرار أولن تنالوا بر الله تعالى وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته ﴿حتى تنفقوا﴾ أى فى سبيل الله عز وجل رغبة فيما عنده ومن فى قوله تعالى ﴿ما تحبون﴾ تبعيضه ويؤيده قراءة من قرأ بعض ما تحبون وقيل ببيانىة وما موصولة أو موصوفة أى مما تهوون ويعجبكم من كرائم أموالكم وأحبها إليكم كما فى قوله تعالى (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) أو بما يعمها وغيرها من الأعمال والمهج^(٢) على أن المراد بالإففاق مطلق البذل وفيه من الإيدان بعزة منال البر ما لا يخفى وكان السلف رضى الله عنهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله عز وجل ، وروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال يا رسول الله إن أحب أموالى إلى بيرحاء فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال عليه السلام بخ ذاك مال رائج أو رائج ولأى أرى أن تجعلها فى الأقربين فقسما فى أقاربه وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه فى

(٢) فى ط : والمهجة .

(١) فى ط : منهم

سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد فكان زيداً
وجد في نفسه وقال إنما أردت أن أتصدق بها^(١) فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم أما إن الله تعالى قد قبلها منك . قيل وفيه دلالة على أن لإنفاق أحب
الأموال على أقرب الأقارب أفضل وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبي موسى
الأشعري أن يشتري له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما
جاءت إليه أعجبه فقال إن الله تعالى يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)
فأعتقها ، وروى أن عمر بن عبد العزيز كانت لزوجته جارية بارعة الجمال وكان
عمر راغباً فيها وكان قد طلبها منها مراراً فلم تعطها لياها ثم لما ولى الخلافة
زينتها وأرسلتها إليه فقالت قد وهبتكم يا أمير المؤمنين فلتخدمك قال من أين
ملكته قالت جئت بها من بيت أبي عبد الملك ففتش عن كيفية تملكها لياها
فقيل إنه كان على فلان العامل ديون فلما توفي أخذت من تركته ففتش عن
حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعاً بإعطاء المال ثم توجه إلى الجارية
وكان يهواها هوى شديداً فقال أنت حرة لوجه الله تعالى فقالت لم يا أمير المؤمنين
وقد أزحت عن أمرها كل شبهة قال لست لأذن بمن نهى النفس عن الهوى
(وما تنفقوا من شيء) ما شرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية
ومن تبعية متعلقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرط أى أى شيء تنفقوا كأنها
من الأشياء فإن المفرد فى مثل هذا الموضع واقع موقع الجمع وقيل محل الجار
والمحذور النصب على التمييز أى أى شيء تنفقوا طيباً تحبونه أو خبيثاً
تكرهونه .

(فإن الله به عليم) تعليل للجواب الشرط واقع موقعه أى فجازيكم
بحسبه جيداً كان أو رديئاً فإنه تعالى عليم بكل شيء تنفقونه علماً كاملاً بحيث

(١) ط : به .

(٢) ط : تملكها

لا يخفى عليه شيء من ذاته وصفاته وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل وفيه من الترغيب في إنفاق الجيد والتحذير عن إنفاق الردىء ما لا يخفى ﴿كل الطعام﴾ أى كل أفراد المطعوم أو كل أنواعه ﴿كان حلالاً لبني إسرائيل﴾ أى حلالاً لهم فإن الحل مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى (لاهن حل لهم) ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ استثناء متصل من اسم كان أى كان كل المطعومات حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل أى يعقوب عليه السلام على نفسه وهو لحوم الإبل والبانها ، قيل كان به وجع الذئب فذئب لئن شفى لا يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه وقيل فعل ذلك للتداوى بإشارة الأطباء واحتج به من جوز للنبى الاجتهاد وللمانع أن يقول كان ذلك بإذن من الله تعالى فيه فهو كتحريمه ابتداء ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ متعلق بقوله تعالى كان حلالاً ولا ضير فى توسيط الاستثناء بينهما وقيل متعلق بحرم وفيه أن تقييد تحريمه عليه السلام بقبليّة تنزيل التوراة ليس فيه مزيد فائدة أى كان ما عدا المستثنى حلالاً لهم قبل أن تنزل التوراة مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة لهم وتشديداً وهو رد على اليهود فى دعواهم البراءة عما نعى عليهم قوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) الآيتين بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا وتبسكت لهم فى منع النسخ والطعن فى دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم موافقته لإبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل والبانها .

﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بأن يحاجهم بكتابتهم الناطق بأن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث مترتب على ظلمهم وبغيهم كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها حرم عليهم من الطيبات عقوبة لهم ويكلفهم إخراجها وتلاوته ليسكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم وإظهار اسم التوراة لتكون الجملة كلاماً مع اليهود منقطعا عما قبله وقوله تعالى :

﴿إن كنتم صادقين﴾ أى فى دعواكم أنه تحريم قديم وجواب الشرط محذوف للدلالة المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة قائلوها فإن صدقكم مما يدعوكم إلى ذلك البتة . روى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين وفى ذلك من الحجة النيرة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وجواز النسخ الذى يمحذونه مالا يخفى والجملة مستأنفة مقررّة لما قبلها .

﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ أى اختلقه عليه سبحانه بزعمه أنه حرم ما ذكر قبل نزول التوراة على بنى إسرائيل و[على]^(١) من تقدمهم من الأمم ﴿من بعد ذلك﴾ من بعد ما ذكر من أمرهم بإحضار التوراة وتلاوتها وما ترتب عليه من التبسكيت والإلزام والتقييد به للدلالة على كمال القبح ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة والجمع باعتبار معناه كما أن الأفراد فى الصلة باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للإشعار^(٢) بعد منزلتهم فى الضلال والطغيان أى فأولئك المصرون على الإفتراء بعد ما ظهرت حقيقة الحال وضائق عليهم حلبة المحاجة والجدال ﴿هم الظالمون﴾ المفرطون فى الظلم والعدوان المبعدون فيهما والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مسوقة من جهته تعالى لبيان كمال عتوهم وقيل هى فى محل النصب داخلة تحت القول عطفا على قوله تعالى فأتوا بالتوراة ﴿قل صدق الله﴾ أى ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل فى شأن التحريم وقيل فى قوله تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا) الخ أو صدق فى كل شأن من الشؤون وهو داخل فى ذلك دخولا أوليا وفيه تعريض بكذبهم الصريح ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم﴾ أى ملة الإسلام التى هى فى الأصل ملة إبراهيم عليه السلام فإنكم ما كنتم متبعين لملة كما تزعمون أو فاتبعوا ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التى اضطركم إلى التحريف والمكابدة وتلفيق الأكاذيب لتسوية الأغراض الدينية الدنيوية

(١) سقطت من ط .

(٢) فى ط : الايدان .

وألزمتمكم تحريم طيبات محللة لإبراهيم عليه السلام ومن تبعه للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه .

﴿ حنيفا ﴾ أى مائلا عن الأديان الزائغة كلها ﴿ وما كان من المشركين ﴾ أى فى أمر من أمور دينه أصلا وفرعا وفيه تعريض بإشراك اليهود وتصريح بأنه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعاً والغرض بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم عليه السلام فى الأصول لأنه لا يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سواه سبحانه وتعالى والجملة تذييل لما قبلها ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ شروع فى بيان كفرهم ببعض آخر من شعائر ملته عليه السلام لإثبات كفرهم بكون كل المطعومات حلاله عليه السلام روى أنهم قالوا بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء [ولسكونه]^(١) فى الأرض المقدسة وقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت أى إن أول بيت وضع للعبادة وجعل متعبدا لهم والواضع هو الله تعالى ويؤيده القراءة على البناء للفاعل وقوله تعالى ﴿ الذى بيكه ﴾ خبر لأن وإنما أخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين. الإضافة والوصف بالجملة بعدها أى للبيت الذى بيكه أى فيها وفى ترك الموصوف من التفخيم مالا يخفى وبكة لغة فى مكة فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم ضربة لازب ولازم والنميط والنسيط فى اسم موضع بالدهناء وقولهم أمر راتب ورأى وسبد رأسه وسمدها وأغبطت الحمى وأغطت وهى علم للبلد الحرام من بكة إذا زحمه لازدحام الناس فيه وعن قتادة يبك الناس بعضهم بعضا أو لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها لم يقصدها جبار إلا قصمه الله عز وجل وقيل بكة اسم لبطن مكة وقيل لموضع البيت وقيل للمسجد نفسه ومكة اسم للبلد كله وأيد هذا بأن التباك وهو الازدحام إنما يقع عند الطواف وقيل مكة اسم للمسجد والمطاف وبكة اسم للبلد لقوله تعالى (الذى

(١) سقطت من ط .

بمكة مباركا). روى أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة وقيل أول من بناه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقيل آدم عليه السلام وقد استوفينا ما فيه من الأقاويل في سورة البقرة وقيل أول بيت وضع بالشرف لآل زمان .

﴿مباركا﴾ كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف فيه^(١) وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب وهو حال من المستكن في الظرف لأن التقدير للذي بيك هو العامل فيه ما قدر في الظرف من فعل الاستقرار ﴿وهدى للعاملين﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدتهم ولأن فيه آيات عجيبة دالة على عظيم قدرته تعالى وبالغ حكمته كما قال ﴿فيه آيات بينات﴾ واضحات كأنحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار ومخالطة ضواري السباع الصيود في الحرم من غير تعرض لها وقر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كما أصحاب الفيل والجملة مفسرة للهدى أو حال أخرى ﴿مقام إبراهيم﴾ أى أثر قدميه عليه السلام في الصخرة التي كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ما روى أنه عليه السلام جاء زائرا من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسماعيل عليه السلام إنزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعت على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقى أثر قدميه عليه وهو إما مبتدأ حذف خبره أى منها مقام إبراهيم أو بدل من آيات بدل البعض من الكل أو عطف بيان إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالاته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا) أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة فإن كل واحد من أثر قدميه في صخرة صماء وغوصه فيها إل

السكبين وإلانة بعض الصخور دون بعض وإبقائه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام وحفظه مع كثرة الأعداء ألف سنة آية مستقلة ويؤيده القراءة على التوحيد ولما بما يفهم من قوله عز وجل .

﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ فإنه وإن كان جملة مستأنفة لإبتدائية أو شرطية . لكنّها في قوة أن يقال وأمن من دخله فتكون بحسب المعنى والمآل معطوفة على مقام إبراهيم ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك أو يحمل على أنه ذكر من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعدهما دلالة على كثرتها . ومعنى أمن داخله آمنه من التعرض له كما في قوله تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله) وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام (رب اجعل هذا البلد آمناً) وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب . وعن عمر رضى الله عنه لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه . ولذلك قال أبو حنيفة رحمة الله تعالى من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج وقيل آمنه من النار وعن النبي صلى الله عليه وسلم من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً وعنه عليه الصلاة والسلام الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود رضى الله عنه وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوهمهم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوهمهم كالقمر ليلة البدر وعن النبي صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتي عام .

﴿ والله على الناس حج البيت ﴾ جملة من مبتدأ هو حج البيت وخبر هو الله وقوله تعالى على الناس متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار أو بمحذوف هو

حال من الضمير المستكن في الجار والعامل فيه ذلك الاستقرار ويجوز أن يكون على الناس هو الخبر والله متعلق بما تعلق به الخبر ولا سبيل إلى أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير المستكن في على الناس لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنوي وذلك بما لا مساغ له عند الجمهور وقد جوزة ابن مالك إذا كانت هي ظرفاً أو حرف جر وعاملها كذلك بخلاف الظرف وحرف الجر فإنهما يتقدمان على عاملهما المعنوي واللام في البيت للعهد وحججه قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعهود وكسر الحاء لغة نجد وقيل هو اسم المصدر وقرئ بفتحها ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ في محل الجر على أنه بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص لعمومه فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف أي من استطاع منهم وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع فلا حاجة إلى الضمير وقيل في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمرة أي هم من استطاع الخ وقيل في حيز النصب بتقدير أعنى وقيل كلمة من شرطية والجزاء محذوف لدلالة المذكور عليه وكذا العائد إلى الناس أي من استطاع منهم إليه سبيلاً فله عليه حج البيت وقد رجح هذا بكون ما بعده شرطية والضمير المجرور في إليه راجع إلى البيت أو إلى حج والجار متعلق بالسبيل قدم عليه اهتماماً بشأنه كما في قوله عز وجل (فول إلى خروج من سبيل) و(هل إلى مرد من سبيل) لما فيه من معنى الإفضاء والإيصال كيف لا وهو عبارة عن الوسيلة من مال أو غيره فإنه قد روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السبيل الزاد والراحلة وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً قال يا رسول الله ما السبيل قال الزاد والراحلة وهو المراد بما روى أنه عليه السلام فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة وهكذا روى عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وعليه أكثر العلماء خلا أن الشافعي أخذ بظااهره فأوجب الاستئابة على الزمن القادر على أجرة من ينوب عنه والظاهر أن عدم تعرضه عليه السلام لصحة البدن لظهور الأمر كيف لا والمفسر في الحقيقة هو السبيل الموصل لنفس المستطيع إلى البيت وهذا لا يتصور بدون الصحة وعن ابن الزبير أنه على قدرة القوة

ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه وعنه ذلك على قدر الطاقة وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر وقد يقدر عليه من لا راحلة له ولا زاد وعن الضحاك أنه إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع .

﴿ومن كفر﴾ وضع من كفر موضع من لم يحج تأكيذاً لوجوبه وتشديد [النكير]^(١) على تاركه ولذلك قال عليه السلام من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه عليه السلام قال في خطبته أيها الناس إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا ﴿فإن الله غنى عن العالمين﴾ وعن عبادتهم وحيث كان من كفر من جملتهم داخلا فيها دخولا أوليا اكتفى بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبار العربية عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه ما لا مزيد عليه حيث أثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذم الناس لا انفكاك لهم عن أدائه والخروج عن عهده وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص والإيهام ثم التبيين والإجمال ثم التفصيل لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير وعبر عن تركه بالكفر الذى لا قبيح وراءه وجعل جزاؤه استغناءه تعالى المؤذن بشدة المقت وعظم السخط لاعن تاركه فقط فإنه قد ضرب عنه صفحا إسقاطا له عن درجة الاعتبار واستهجانا بذكره بل عن جميع العالمين بمن فعل وترك ليبدل على نهاية شدة الغضب . هذا وقال ابن عباس والحسن وعطاء رضى الله تعالى عنهم ومن كفر أى جحد فرض الحج وزعم أنه ليس بواجب وعن سعيد بن المسيب نزلت في اليهود فإنهم قالوا الحج إلى مكة غير واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال إن الله كتب عليكم

(١) سقط من ط .

الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا لا تؤمن به ولا نصلى إليه ولا نحججه فنزل ومن كفر وعن النبي صلى الله عليه وسلم حجوا قبل أن لا تحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع إلى السماء في الثالثة وروى حجوا قبل أن يمنع البر جانبيه وعن ابن مسعود حجوا هذا البيت قبل أن ينبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت وعن عمر رضى الله عنه لو ترك الناس الحج عاما واحدا ما فوظروا .

﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ هم اليهود والنصارى وإنما خاطبوا بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للإيمان به وبما يصدق من القرآن العظيم مبالغة في تقييد حالهم في كفرهم بها وقوله عز وجل ﴿ لم تكفرون بآيات الله ﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون لكفرهم بها سبب من الأسباب وتحقيق لما يوجب الاجتناب عنه بالكلية والمراد بآياته تعالى ما يعم الآيات القرآنية التي من جملتها ما تلى في شأن الحج وغيره وما في التوراة والإنجيل من شواهد نبوته عليه السلام وقوله تعالى ﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ حال من فاعل تكفرون مفيدة للتشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار وإظهار الجلالة في موقع الإضرار لتربية المهابة وتهويل الخطاب وصيغة المبالغة في شهيد للتشديد في الوعيد وكلمة ما إما عبارة عن كفرهم أو هي على عمومها وهو داخل فيها دخولا أوليا والمعنى لاى سبب تكفرون بآياته عز وجل^(١) والحال أنه تعالى مبالغ في الاطلاع على جميع أعمالكم وفي جازاتكم عليها ولا ريب في أن ذلك يسد جميع أنحاء ما تأتون به ويقطع أسبابه بالكلية ﴿ قل يا أهل الكتاب ﴾ أمر بتوبيخهم بالإضرار لما توبيخهم بالاضلال والتكرير للمبالغة في حملة عليه السلام على تفريرهم وتوبيخهم وترك عطفه على الأمر السابق للإيذان باستقلالهم كما أن قطع قوله تعالى ﴿ لم تصدون ﴾ عن قوله تعالى ﴿ لم تكفرون ﴾ للإشعار بأن كل واحد من كفرهم وصددهم شناعة على حياها مستقلة في استتباع اللائمة والتفريع وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب

(١) في ط : وجل .

لنا كيد الاستقلال وتشديد التشفيع فإن ذلك العنوان كما يستدعى الإيمان بما هو مصدق لما معهم يستدعى ترغيب الناس فيه فصدّهم عنه في أقصى مراتب القباحة ولكون صدّهم في بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالآيات الدالة على نبوته عليه السلام وقرىء تصدون من أصدّه .

﴿عن سبيل الله﴾ أى دينه الحق الموصل إلى السعادة الأبدية وهو التوحيد وملة الإسلام ﴿من آمن﴾ مفعول لتصدون قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به. كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم ويقولون لأن صفته عليه السلام ليست في كتابهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقيل أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا إلى ما كانوا فيه ﴿تبغونها﴾ على إسقاط الجار وإيصال الفعل إلى الضمير كما في قوله :

فتسولى غلامهم ثم نادى أظليما أصيدكم أم حمارا
بمعنى أصيد لكم أى تطلبون لسبيل الله التى هى أقوم السبل ﴿عوجا﴾
اعوجاجا بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه ميلا عن الحق بنفى النسخ وتغيير
صفة الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك والجملة حال من فاعل
تصدون وقيل من سبيل الله ﴿وأنتم شهداء﴾ حال من فاعل تصدون باعتبار
تقييده بالحال الأولى أو من فاعل تبغونها أى والحال أنكم شهداء تشهدون بأنها
سبيل الله لا يحوم حولها شائبة اعوجاج وأن الصد عنها إضلال قال ابن عباس
رضى الله عنهما أى شهداء [على] (١) أن فى التوراة إن دين الله الذى لا يقبل غيره .
هو الإسلام أو وأنتم عدول فيما بينكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم فى القضايا
وعظائم الأمور ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ اعتراض تذييلي فيه تهديد ووعيد
شديد قيل لمبا كان صدّهم للمؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم

(١) سقط من ط .

مادة حيلتهم من إحاطة عليه تعالى بأعمالهم كما أن كفرهم بآيات الله تعالى لما كان بطريق العلانية ختمت الآية السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن طيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين تحذيرا لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم لأثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعا لهم عن ذلك وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالسكينة فإنه في قوة أن يقال لا طيعوا فريقا الخ كما أن تعميم التوبيخ فيما قبله للبالغة في الزجر أو للمحافظة على سبب النزول فإنه روى أن نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فربهم شاس بن قيس اليهودي وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين فغاضه ما رأى منهم من تألف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الرأي بعد ما كان بينهم ما كان من العداوة والشئان فأمر شابا يهوديا كان معه بأن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعث وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر فيه للأوس ويذسدهم ما قيل فيه من الأشعار ففعل فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواءبوا وقالوا السلاح السلاح فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فعملوا أنها نزع من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام الواحدى اصطفوا للقتال فنزلت الآية إلى قوله تعالى (لعلمكم تهتدون) فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون وقوله تعالى كافرين إما مفعول ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير كما في قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

أحوال من مفعوله والأول أدخل في تنزيه المؤمنين عن نسبتهم إلى الكفر لما فيه من التصريح بكون الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه ضرورة سبق الخطاب بعنوان المؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع ترسيظه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة الكفر وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه الصارف العاقل عن مباشرته أو لممانعة الإيمان له كأنه قيل بعد إيمانكم الراسخ وفيه من تثبت المؤمنين ما لا يخفى.

﴿ وكيف تكفرون ﴾ استفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع كما في قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد) الخ لا بمعنى إنكار الواقع كما في قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا) الخ وفي توجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر من المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه بأن يقال أتكفرون لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال فإذا أنكر ونفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهاني وقوله تعالى ﴿ وأنتم تتلى عليكم آيات الله ﴾ جملة وقعت حالا من ضمير المخاطبين في تكفرون مؤكدة للإنكار والاستبعاد بما فيها من الشئون الداعية إلى الثبات على الإيمان الرادعة ^(١) عن الكفر وقوله تعالى ﴿ وفيكم رسوله ﴾ معطوف عليها داخل في حكمها فإن تلاوة آيات الله تعالى عليهم وكون رسوله عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بتحقيق الحق وإزاحة الشبه من أقوى الزواجر عن الكفر وعدم إسناد التلاوة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للإيدان باستقلال كل منهما في الباب .

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾ أى ومن يتمسك بدينه الحق الذى بينه على

(١) في ط : الوازعة .

لسان رسوله عليه الصلاة والسلام وهو الإسلام والتوحيد المعبر عنه فيما سبق بسبيل الله ﴿ فقد هدى ﴾ جواب للشرط وقد لإفادة معنى التحقيق كان الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلًا ومعنى التوقع فيه ظاهر فإن المعتصم به تعالى متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للهدى ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إلى المطلوب والتنوين للتفخيم والوصف بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين ييغون له عوجا وهذا وإن كان هو دينه الحق في الحقيقة والاهتداء إليه هو الاعتصام به بعينه لكن لما اختلف الاعتباران وكان العنوان الأخير مما يتنافس فيه المتنافسون أبرز في معرض الجواب للحث والترغيب على طريقة قوله تعالى ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تكرير الخطاب بعنوان الإيمان تشریف إثر تشریف .

خصائص الإسلام

﴿ اتقوا الله ﴾ الاتقاء افتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة ﴿ حق تقائه ﴾ أى حق تقواه وما يجب منها وهو استغراغ الوسع في القيام بالمواجب والاجتناب عن المحارم كما في قوله تعالى ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وعن ابن مسعود رضى الله عنه هو أن يطاع ولا يعصى ويذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر وقد روى مرفوعا إليه عليه السلام وقيل هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه وقيل وهو أن ينزه الطاعة عن الالتفات^(١) إليها وعن توقع المجازاة وقد مر تحقيق الحق في ذلك عند قوله عز وجل ﴿ هدى للمتقين ﴾ والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد وأصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما في تهمة وتخمة وياؤها المفتوحة ألفا .

﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أى مخلصون نفوسكم لله تعالى لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا كما في قوله تعالى ﴿ ومن أحسن ديننا ممن أسلم وجهه لله ﴾

(١) أى لا يرى نفسه طائعا إلا بتوفيق الله تعالى ولا يلتفت إلى عمله مجردا عن

وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تموتن على حال من الأحوال إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه كما تنبى عنه الجملة الاسمية ولو قيل إلا مسلمين لم يفد بفائدتها والعامل فى الحال ما قبل إلا بعد النقض وظاهر النظم الكريم وإن كان نهيا عن الموت المقيد بقيد هو السكون على أى حال غير حال الإسلام لسكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذى هو السكون على حال الإسلام حينئذ وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد بإيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور فإن النهى عن المقيد فى أمثاله نهى عن القيد ورفع له من أصله بالسكينة مفيد لما لا يفيد النهى عن نفس القيد فإن قولك لا تصل إلا وأنت خاشع يفيد من المبالغة فى إيجاب الخشوع فى الصلاة ما لا يفيد قولك لا تترك الخشوع فى الصلاة لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط وذاك نهى عنه وعمّا يقارنه ومفيد لسكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة وأن الصلاة بدونه حقا أن لا تفعل وفيه نوع تحذير عما وراء الموت وقوله عز وجل .

﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ أى بدين الإسلام أو بكتابه لقوله عليه الصلاة والسلام القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم إما تمثيل للحالة الحاصلة من استظهارهم به ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلى من مكان رفيع بحبل وثيق مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجازى فى المفردات وإما استعارة للحبل لما ذكر من الدين أو الكتاب أو الاعتصام ترشيح لها أو مستعار للوثوق به والاعتماد عليه ﴿ جميعا ﴾ حال من فاعل اعتصموا أى مجتمعين فى الاعتصام ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أى لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية يحارب بعضكم بعضا أو لا تحدثوا ما يوجب التفرق^(١) ويزيل الألفة التى أنتم عليها ﴿ واذكروا

(١) وهى البدع التى فرقت الأمة إلى طوائف وشيع يحكمها الهوى ، وقد حدث ذلك فى القرن الثانى الهجرى ، واشتد خطره ، ثم ضعفت تلك الأهواء وتلاشت تقريرا .

نعمة الله ﴿ مصدر مضاف إلى الفاعل وقوله تعالى ﴿ عليكم ﴾ متعلق به أو
 محذوف وقع حالا منه وقوله تعالى ﴿ إذ كنتم ﴾ ظرف له أو للاستقرار
 في عليكم أى اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا إنعامه مستقراً عليكم وقت
 كونكم ﴿ أعداء ﴾ فى الجاهلية بينكم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة
 وقيل هم الأوس والخزرج كانوا أخوين لأب وأم ف وقعت بين أولادها العداوة
 والبغضاء وتناولت الحروب فيما بينهم مائة وعشرين سنة ﴿ فألف بين قلوبكم ﴾
 بتوفيقكم للإسلام ﴿ فأصبحتم ﴾ أى فصرتم ﴿ بنعمته ﴾ التى هى ذلك التآليف
 ﴿ إخوانا ﴾ خبر أصبحتم أى إخوانا متحابين مجتمعين على الأخوة فى الله
 متراحمين متصالحين متفقين على كلمة الحق وقيل معنى فأصبحتم فدخلتم فى الصباح
 فالباء حينئذ متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل وكذا إخوانا أى فأصبحتم
 ملتبسين حال كونكم إخوانا .

﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار ﴾ شفا الحفرة وشفتها حرفها أى كنتم
 مشرفين على الوقوع فى نار جهنم لكفركم إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة
 لوقعتم فيها ﴿ فأنقذكم ﴾ بأن هداكم للإسلام ﴿ منها ﴾ الضمير للحفرة أو للنار
 أو للشفا والتأنيث للمضاف إليه كما فى قوله :

• كما شرقت صدر القناة من الدم •

أو لأنه بمعنى الشفة فإن شفا البئر وشفتها جانبها كالجانب والجانبه وأصله
 شفو قلبت الواو ألفا فى المذكر وحذفت فى المؤنث ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى
 مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه
 وبعد منزلته فى الفضل وكال تميزه به عما عداه وانتظامه بسببه فى سلك الأمور
 المشاهدة ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة وعملها
 النصب على أنها صفة لمصدر محذوف أى مثل ذلك التبيين الواضح ﴿ يبين الله
 لكم آياته ﴾ أى دلائله ﴿ لعلمكم تهتدون ﴾ طلباً لثباتكم على الهدى
 وازديادكم فيه .

﴿ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وإرشاده إثر أمرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الأوامر والنواهي تثبيتاً للكل على مراعاة ما فيها من الأحكام بأن يقوم بعضهم بمواجبتها ويحافظ على حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة ويردعهم عن الإخلال بها والجمهور على إسكان لام الأمر وقرىء بكسرها على الأصل وهو من كان التامة ومن تبعيضية متعلقة بالأمر أو بمحذوف وقع حالاً من الفاعل وهو أمة ويدعون صفتها أى لتوجد منكم أمة داعية إلى الخير والأمة هى الجماعة التى يؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها أو من الناقصة وأمة اسمها ويدعون خبرها أى لتسكن منكم أمة داعين إلى الخير وأياماً كان فتوجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقيين ولو أدخل بها الكل أئموا جميعاً لا بحيث يتحتم على الكل إقامتها على ما ينبى عنه قوله عز وجل ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ الآية ولأنها من عظام الأمور وعزائمها التى لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها فإن من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر وينهى عن معروف ويغلظ فى مقام اللين ويلين فى مقام الغلظة وينكر على من لا يريده الإنكار إلا التمدى والإصرار وقيل من بيانية كما فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) الآية والأمر من كان الناقصة والمعنى كونوا أمة تدعون الآية كقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية ولا يقتضى ذلك كون الدعوة فرض عين فإن الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطاب العام^(١) والدعاء إلى الخير عبارة عن الدعاء إلى ما فيه صلاح دينى أو دنيوى فعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه بقوله تعالى :

(١) فى ١٠ : الأعم .

﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام لإظهار فضلها وعلوها (١) على سائر الخيرات كعطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام وحذف المفعول الصريح من الأفعال الثلاثة إما للإيذان بظهوره أى يدعون الناس ويأمرونهم وينهونهم ولما التقصد إلى إيجاد نفس الفعل كما فى قولك فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة باعتبار انصافهم بما ذكر من النعمت الفاضلة وكما تميزهم بذلك عن عداهم وانتظامهم بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والإفراد فى كاف الخطاب إما لأن المخاطب كل من يصلح للخطاب وإما لأن التعمين غير مقصود أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة ﴿ هم المفلحون ﴾ أى هم الأحقاء بكال الفلاح وهم ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحون إما للعهد أو للإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن خير الناس فقال : « أمرهم بالمعروف وأنهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم » ، وعنه عليه السلام « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه » ، وعنه عليه السلام « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم » ، وعن على رضى الله عنه « أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، ومن شأنا الفاسقين (٢) وغضب الله غضب الله له ، والأمر بالمعروف فى الوجوب والندب تابع للأمر به وأما النهى عن المنكر فواجب

(١) فى ط : وإناقتها ، والمعنى واحد .

(٢) شأنا الفاسقين أى أبغضهم .

كله فإن جميع ما أنكره الشرع حرام^(١) والعاصي يجب عليه النهي عما ارتكبه
لإذ يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شيء منهما
والنوبيخ في قوله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ إنما هو على
نسيان أنفسهم لا على أمرهم بالبر وعن السلف مروا بالخبر وإن لم تفعلوا
﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾ هم أهل الكتابين حيث تفرقت اليهود فرقا
والنصارى فرقا ﴿واختلفوا﴾ باستخراج التأويلات الزائفة وكتم الآيات
الناطقة وتحريفها بما أخلدوا إليه من حطام الدنيا الدنيئة ﴿من بعد ما جاءهم
البيّنات﴾ أى الآيات الواضحة المبيّنة للحق للاتفاق عليه واتحاد الكلمة فالنهي
متوجه إلى المتصدين للدعوة أصالة وإلى أعقابهم تبعا ويجوز تعميم الموصول
للمختلفين من الأمم السالفة المشار إليهم بقوله عز وجل ﴿وما اختلف فيه إلا
الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات﴾ وقيل هم المبتدعة من هذه الأمة وقيل
هم الحرورية^(٢) وعلى كل تقدير فالمنهى عنه إنما هو الاختلاف فى الأصول
دون الفروع إلا أن يكون مخالفا للنصوص البيّنة أو الإجماع لقوله عليه الصلاة
والسلام لا اختلاف أمتى رحمة، وقوله عليه السلام دمن اجتهد فأصاب فله أجران
ومن أخطأ فله أجر واحد .

﴿وأولئك﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار انصافهم بما فى حين الصلة وهو
مبتدأ وقوله تعالى ﴿لهم﴾ خبره وقوله تعالى ﴿عذاب عظيم﴾ مرتفع بالظرف
على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ
الأول وفيه من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين والتشديد فى تهديد المشبهين
بهم ما لا يخفى ﴿يوم تبيض وجوه﴾ أى وجوه كثيرة وقرىء تبيض ﴿وتسود
وجوه﴾ كثيرة وقرىء تسواد وعن عطاء تبيض وجوه المهاجرين والأنصار
وتسود وجوه بنى قريظة والنضير ويوم منصوب على أنه ظرف للاستقرار فى

(١) وهذا الأمر يكتسب الصفة العالمية من عالمية دعوة الإسلام فليس خاصا بالنهي
فى مجتمع المسلمين وحدهم .

(٢) لاداعى للتخصيص فكل من أحدث فى الإسلام بدعة فهو داخل فى هذا النوع

لهم أى لشبوت العذاب العظيم لهم أو على أنه مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيرا لهم عن عاقبة التفرق بعد مجيء البينات وترغيبا في الاتفاق على التمسك بالدين أى اذكروا يوم تبيض الخ ويباض الوجه وسواده كنايةتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه وقيل يؤسم أهل الحق بلباض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعى النور بين يديه وييمينه وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالا وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدى بذلك عند الإجمال ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ على إرادة القول أى فيقال لهم ذلك والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم والظاهر أنهم أهل الكتابين وكفرهم بعد إيمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إيمان أسلافهم أو إيمان أنفسهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام أو جميع الكفرة حيث كفروا بعد ما أقروا بالتوحيد يوم الميثاق أو بعد ما تمكنوا من الإيمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة وقيل المرتدون وقيل أهل البدع والأهواء والفناء في قوله عز وعلا .

﴿فذوقوا العذاب﴾ أى العذاب المعهود الموصوف بالعظيم للدلالة على أن الأمر بذوق العذاب على طريق الإهانة مترتب على كفرهم المذكور كما أن قوله تعالى ﴿بما كنتم تكفرون﴾ صريح في أن نفس الذوق معال بذلك والجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم أو على مضيه في الدنيا ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله﴾ أعني الجنة والنعيم المخلد عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى وقرىء ابيضت كما قرىء اسودت ﴿هم فيها خالدون﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من السياق كأنه قيل كيف يكونون فيها فقيل هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون وتقديم الظرف للمحافظة على رأس الآي ﴿تلك﴾ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار

وتعذيب الكفار ومعنى البعد للإيذان بعلو شأنها وسمو مكانها في الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿آيات الله﴾ خبره وقوله تعالى ﴿فتلوها﴾ جملة حالية من الآيات والعامل فيها معنى الإشارة أو هي الخبر وآيات الله بدل من اسم الإشارة والالتفات إلى التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة على لسان جبريل عليه السلام لإبراز كمال العناية بالتلاوة وقرىء يتلوها على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى وقوله تعالى ﴿عليك﴾ متعلق بفتلوها وقوله تعالى ﴿الحق﴾ حال مؤكدة من فاعل نتلوها أو من مفعوله أى ملتبسين أو [التلاوة]^(١) ملتبسة بالحق والعدل ليس في حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن أو زيادة عقاب المسيء أو بالعقاب من غير جرم بل كل ذلك موفى لهم حسب استحقاقهم بأعمالهم بموجب الوعد والوعيد وقوله ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وآكده فإن تنكير الظلم وتوجيه النفي إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم بأحاد الجمع المعروف والالتفات إلى الاسم الجليل إشعاراً بعلو الحكم وبيان لسكال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه أى ما يريد فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الأوقات فضلاً عن أن يظلمهم فإن المضارع كما يفيد الاستمرار في الإنبات يفيد في النفي بحسب المقام كما أن الجملة الاسمية تدل بمعرفة المقام على دوام الثبوت وعند دخول حرف النفي تدل على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وفي سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما في قوله تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) .

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أى له تعالى وحده من غير شركة أصلاً ما فيهما من المخلوقات الفائقة للحصر ملكاً وخلقاً وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً وإيراد كلمة ما إما لتغليب غير العقلاء وإما لتنزيلهم منزلة غيرهم لإظهارا

(١) سقطت من ط .

لحقارتهم في مقام بيان عظمتة تعالى ﴿وإلى الله﴾ أى إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره شركة أو استقلالا ﴿ترجع الأمور﴾ أى أمورهم فيجأى كلا منهم بما وعد له وأوعده من غير دخل في ذلك لأحد قط فالجملة مقرررة لمضمون ما ورد في جزاء الفريقين وقيل هى معطوفة على ما قبلها مقرررة لمضمونه فإن كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعى إرادة الخير بهم ﴿كنتم خير أمة﴾ كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير وكنتم من كان الناقصة التى تدل على تحقق شيء بصفة في الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق كما في قوله تعالى وكان الله غفورا رحيما وقيل كنتم كذلك في علم الله تعالى أو في اللوح أو فيما بين الأمم السالفة وقيل معناه أنتم خير أمة ﴿أخرجت للناس﴾ صفة لأمة واللام متعلقة بأخرجت أى أظهرت لهم وقيل بخير أمة أى كنتم خير الناس للناس فهو صريح في أن الخيرية بمعنى النفع للناس وإن فهم ذلك من الإخراج لهم أيضا أى أخرجت لأجلهم ومصالحهم قال أبو هريرة رضى الله عنه معناه كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل فتدخلونهم في الإسلام وقال قتادة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبي قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم في الإسلام فهم خير أمة للناس .

﴿تأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ استئناف مبين لكونهم خير أمة كما يقال زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم وصيغة المستقبل للدلالة على الاستمرار وخطاب المشافهة وإن كان خاصا بمن شاهد الوحى من المؤمنين لكن حكمه عام لكل قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج أصل هذا الخطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعمر سائر أمتة وروى الترمذى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى وظاهر أن المراد بكل أمة أوائلهم وأواخرهم

لا أوائلهم فقط فلا بد أن تكون أعقاب هذه الأمة أيضا داخلية في الحكم وكذا الحال فيما روى أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين مرا بنهر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فبهما ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة رضوان الله عليهم فقالا لهم نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه . وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضى الله عنهما كنتم خير أمة الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وروى عن الضحاك أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم .

﴿ وتؤمنون بالله ﴾ أى إيماننا متعلقا بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وإنما لم يصرح به تفصيلا لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون وللإيمان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة وأن ما خلا عن شيء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان بالله^(١) تعالى فى شيء قال تعالى : (ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا) وإنما آخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة لأن دلالتهما على خيريتهما للناس أظهر من دلالتة عليهما وليقترن به قوله تعالى .

أهل الكتاب والإسلام

﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ﴾ أى لو آمنوا كإيمانكم لكان ذلك خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادات رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إتياء الأجر مرتين وقيل مما هم فيه من الكفر فالخيرية إنما هى باعتبار زعمهم وفيه ضرب تهكم بهم وإنما لم يتعرض للؤمن به أصلا للإشعار بظهور أنه الذى يطلق

(١) فى ظ : به تعالى .

عليه اسم الإيمان لا يذهب الوهم إلى غيره ولو فصل المؤمن به ههنا أو فيما قبل
 لربما فهم أن لأهل الكتاب أيضا إيمانا في الجملة لكن إيمان المؤمنين خير منه
 وهيات ذلك ﴿منهم المؤمنون﴾ جملة مستأنفة سبقت جوابا عما نشأ من
 الشرطية الدالة على انتفاء الخيرية لانتفاء الإيمان عنهم كأنه قيل هل منهم من
 آمن أو كلهم على الكفر فقبل منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارين
 كعبد الله بن سلام وأصحابه .

﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ المتمردون في الكفر الخارجون عن الحدود
 ﴿لن يضرركم إلا أذى﴾ استثناء مفرغ من المصدر العام أى لن يضرركم أبدا
 ضرا ما إلا ضرر أذى لا يبالي به من طعن وتهديد لا أثر له ﴿ولن يقاتلكم
 يولوكم الأدبار﴾ أى ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئا من قتل أو أسر
 ﴿ثم لا ينصرون﴾ عطف على الشرطية وثم للتراخي في الرتبة أى لا ينصرون
 من جهة أحد ولا يمتعون منكم قتلا وأخذا وفيه تثبيت لمن آمن منهم فإنهم كانوا
 يؤذونهم بالتلمى بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم وبشارة لهم بأنهم لا يقدر
 على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يعبا به مع أنه وعدم الغلبة عليهم
 والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل وإنما لم يعطف نفي متصوريتهم
 على الجزاء لأن المقصود هو الوعد بنفي النصر مطلقا ولو عطف عليه لكان
 مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وكم بين الوعدين كأنه قيل ثم شأنهم الذى أخبركم
 عنه وأبشركم به أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينصرون بعد ذلك
 بجناح ولا يقومون على ساق ولا يستقيم لهم أمر وكان كذلك حيث لقي بنو
 قريظة والنضير وبنو قينقاع ويهود خيبر ما القوا .

﴿ضربت عليهم الذلة﴾ أى هدر النفس والمال والأهل وذل التمسك
 بالباطل ﴿أيما ثقفوا﴾ أى وجدوا ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾
 استثناء من أعم الأحوال أى ضربت عليهم الذلة ضرب القبة على من هي عليه
 في جميع الأحوال إلا حال كونهم معتمدين بذمة الله أو كتابه الذى أتاهاهم
 وذمة المسلمين أو بذمة الإسلام واتباع سبيل المؤمنين ﴿وباءوا بغضب من

الله ﴿ أى رجعوا مستوجبين له والتسكير للتفخيم والتحويل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التسكير من الفخامة والهلل أى كأن الله عز وجل ﴾ وضربت عليهم المسكنة ﴿ فهى محيطة بهم من جميع جوانبهم واليهود كذلك فى غالب الحال مساكين تحت أيدي المسلمين والنصارى .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبوء بالغضب العظيم ﴿ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ أى ذلك الذى ذكر كأن بسبب كفرهم المستمر بآيات الله الناطقة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وتحريفهم لها وبسائر الآيات القرآنية ﴿ ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ أى فى اعتقادهم أيضا وإسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الكفر والقتل ﴿ بما عصروا وكانوا يعتدون ﴾ أى كأن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار فإن الإصرار على الصغائر يفضى إلى مباشرة الكبائر والاستمرار عليها يؤدى إلى الكفر وقيل معناه أن ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث أنهم مخاطبون بالفروع من حيث المؤاخذة ﴿ ليسوا سواء ﴾ جملة مستأنفة سيقت تمهيدا لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب وتذكيرا لقوله تعالى ﴿ منهم المؤمنون ﴾ والضمير فى ليسوا لأهل الكتاب جميعا لا للفاسقين منهم خاصة وهو اسم ليس وخبره سواء وإنما أفرد لأنه فى الأصل مصدر والمراد بنفى المساواة بنفى المشاركة فى أصل الاتصاف بالقبائح المذكورة لا بنفى المساواة فى مراتب الاتصاف بها مع تحقق المشاركة فى أصل الاتصاف بها أى ليس جميع أهل الكتاب متشاركين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح والابتلاء بما يترتب عليها من العقوبات وقوله تعالى :

﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الإيهام كما أن ما سبق من قوله تعالى (تأمرون بالمعروف) الآية مبين لقوله تعالى (كنتم خير أمة) الخ ووضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين والإيدان بأن تلك الأمة من أوتى نصيبا وافرا من الكتاب لا من أراذلهم والقائمة المستقيمة العادلة من أقت العود فقام بمعنى استقام وهم الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد وأضرابهم وقيل هم أربعون رجلا من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمدا عليهما الصلاة والسلام وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبي عليه السلام منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه وقوله تعالى ﴿ يتلون آيات الله ﴾ في محل الرفع على أنه صفة أخرى لأمة وقيل في محل النصب على أنه حال منها لتخصمها بالنعمة والعامل فيه الاستقرار الذي يتضمنه الجار أو من ضميرها في قائمة أو من المستكن في الجار لوقوع خبر الأمة والمراد بآيات الله القرآن وقوله تعالى :

﴿ آنا الليل ﴾ ظرف ليتلون أي في ساعاته جمع أي بزنة عصا أو لاني بزنة معي ، أو لاني بزنة ظلي ، أو لاني بزنة نحي ، أو أنو بزنة جرو .

﴿ وهم يسجدون ﴾ أي يصلون إذ لا تلاوة في السجود قال عليه الصلاة والسلام ألا لاني نهي أن أقرأ راكعا وساجدا وتخصيص السجود بالذكر من بين سائر أركان الصلاة لكونه أدل على كمال الخضوع والتصريح بتلاوتهم آيات الله في الصلاة مع أنها مشتملة عليها قطعا لزيادة تحقيق المخالفة وتوضيح عدم المساواة بينهم وبين الذين وصفوا آثفا بالكفر بها وهو السر في تقديم هذا النعت على نعت الإيمان والمراد بصلاتهم التمجيد إذ هو أدخل في مدحهم وفيه تنسني لهم التلاوة فإنها في المكتوبة وظيفة الإمام واعتبار حالهم عند

الصلاة على الانفراد يأباه مقام المدح وهو الأنسب بالعدول عن إيرادها باسم الجنس المتبادر منه الصلاة المكتوبة وبالتعبير عن وقتها بالآزاء المهمة وقيل صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخرها ليلة ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم وقرأ هذه الآية وإيراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتأكيده وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والجملة حال من فاعل يتلون وقيل هي مستأنفة والمعنى أنهم يقومون تارة ويسجدون أخرى يبتغون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون في الصلاة من الخضوع لله عز وجل كما في قوله تعالى: (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقيل المراد بالسجود هو الخضوع كما في قوله تعالى: (ولله يسجد ما في السموات والأرض) ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ صفة أخرى لأمة مميّنة لمبايئتهم اليهود من جهة أخرى أى يؤمنون بهما على الوجه الذى نطق به الشرع والإطلاق للإيدان بالغنى عن التقييد لظهور أنه الذى يطلق عليه الإيمان بهما فلا^(١) يذهب الوهم إلى غيره وللتعريض بأن إيمان اليهود بهما مع قولهم عزى ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسال ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان بهما فى شيء أصلا ولو قيد بما ذكر فرما توهم^(٢) أن المنتقى عنهم هو القيد المذكور مع جواز إطلاق الإيمان على إيمانهم بالأصل وهيئات .

﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ صفتان أخريان لأمة أجزيتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود فى الفضائل المتعلقة بتكميل الغير لإثر بيان مبايئتهم لهم فى الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضا بمداهنتهم فى الاحتساب بل بتعكيسهم فى الأمر بإضلال الناس وحدهم عن سبيل الله

(١) فى ط : لا يذهب .

(٢) فى ط : لربما توهم .

فإنه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ صفة أخرى
لأمة جامعة لافنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارة في الخير فرط
الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر النور على
التراخي أى يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية
وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادرتهم إلى الشرور وإيثار كلمة في على
ما وقع في قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة) الخ للإيدان بأنهم مستقرون في أصل
الخير متقبلون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل لأنهم خارجون عنها منتهون
إليها ﴿وأولئك﴾ إشارة إلى الأمة باعتبار اتصافهم بما فصل من النعوت الجليلة
وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم في الفضل وإيثاره
على الضمير للإشعار بعلو الحكم والمدح أى أولئك المنعوتون بتلك الصفات
الفاضلة بسبب اتصافهم بها ﴿من الصالحين﴾ أى من جملة من صلحت أحوالهم
عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثنائه ﴿وما يفعلوا من خير﴾ كأننا
ما كان مما ذكر أو لم يذكر ﴿فلن يكفروا﴾ أى لن يعدموا ثوابه البتة عبر
عنه بذلك كما عبر عن توفية الثواب بالشكر لإظهار الكمال تنزهه سبحانه
وتعالى عن ترك إثابهم بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من
القبائح وتعديته إلى مفعولين بتضمنين معنى الحرمان وإيثار صيغة البناء للمفعول
للمجرى على سنن الكبرياء وقرىء الفعلان على صيغة الخطاب .

﴿والله عليم بالمتقين﴾ تذييل مقرر ما قبله فإن علمه تعالى بأحوالهم
يستدعى توفية أجورهم لاحالة ، والمراد بالمتقين إما الأمة المعهودة بوضع موضع
الضمير العائد إليهم مدحاً لهم وتعييناً لعنوان تعلق العلم بهم وإشعاراً بمناسبات
إثابهم وهو التقوى المنطوية^(١) على الخصائص السالفة وإما جنس المتقين عموماً
وهم مندرجون تحت حكمه اندراجاً أولياً .

أعمال الكافرين ونواياهم

﴿إن الذين كفروا﴾ أى بما يجب أن يؤمن به . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بنو قريظة والنضير فإن معاندتهم كانت لأجل المال وقيل هم مشركوا قريش فإن أبا جهل كان كثير الافتخار بماله وقيل أبو سفيان وأصحابه فإنه أنفق مالا كثيرا على الكفار يوم بدر وأحد وقيل هم الكفار كافة فإنهم فآخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين فرد الله عز وجل عليهم وقال ﴿لن تنفي عنهم﴾ أى لن تدفع عنهم ﴿أموالهم ولا أولادهم من الله﴾ أى من عذابه تعالى ﴿شيئاً﴾ أى شيئاً يسيراً منه أو شيئاً من الإغناء ﴿وأولئك أصحاب النار﴾ أى مصاحبوها على الدوام وملازموها ﴿هم فيها خالدون﴾ أبداً .

﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا﴾ بيان لسكيفة عدم إغناء أموالهم التى كانوا يعولون عليها فى جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطباعهم الفارغة ومما موصولة اسمية حذف عاؤها أى حال ما ينفقه الكفرة قرابة أو مفاخرة وسمعة أو المنافقون رياء وخوفاً وقصته العجيبة التى تجرى مجرى المثل فى الغرابة ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ أى برد شديد فإنه فى الأصل مصدر وإن شاع إطلاقه على الريح الباردة كالصرصر وقيل كلمة فى تجريدية كما فى قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ﴿أصاب حث قوم ظلوا أنفسهم﴾ بالكفر والمعاصى فباءوا بغضب من الله وإنما وصفوا بذلك لأن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع ﴿فأهلكته﴾ تقوية لهم ولم تدع منه أثراً ولا عثيراً والمراد تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلمة من غير أن يعود إليهم نفع ما بحرث [قوم]^(١) كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما برجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب الذى مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى (كمثل الذى استوقد ناراً) ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه الريح

(١) سقطت من ظ

دون الحرث ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرىء تنفقون ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بما يدينه من ضياع ما أنفقوا من الأموال ﴿ ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ لما أضاعوها بإففاقها لا على ما ينبغي وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول أى ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقد جوز أن يكون المعنى وما ظلم الله تعالى أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة ويأباه أنه قد مر اعتراض له تصريحاً وقرىء ولكن بالتشديد على أن أنفسهم اسمها ويظلمون خبرها والعائد محذوف للفاصلة أى ولكن أنفسهم بظلمونها وأما تقدير ضمير الشأن فلا سبيل إليه لاختصاصه بالشعر ضرورة كما في قوله :

﴿ ولكن من يبصر جفونك يعشق ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة ﴾ بطانة الرجل ووليجه من يعرفه أسراراً ثقة به شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام « الأنصار شعار والناس دثار » قال ابن عباس رضى الله عنهما كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والمخالفة^(١) فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين فنهوا عن ذلك ويؤيده قوله تعالى (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وهى صفة المنافق وأياما كان فالحكم عام للكفرة كافة ﴿ من دونكم ﴾ أى من دون المسلمين وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف وقع صفة لبطانة أى كائنة من دونكم مجاوزة لكم .

﴿ لا يألونكم خبالا ﴾ جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى الاجتناب عنهم

(١) فى ط : الحلف .

أو صفة بطانة يقال آلا في الأمر إذا أقصر فيه ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم لا آلوك نصحا ولا آلوك جهدا على تضمين معنى المنع والنقص والخيال الفساد أى لا يقصرون لكم في [تمنى]^(١) الفساد ﴿ودوا ما عنتم﴾ أى تمنوا عنتم أى مشقتكم وشدة ضرركم وهو أيضاً استئناف مؤكد للمنى موجب لزيادة الاجتناب عن المنهى عنه ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ استئناف آخر مفيد لمزيد الاجتناب عن المنهى عنه أى قد ظهرت البغضاء في كلامهم لما أنهم لا يتمايلون مع مبالغتهم في ضبط أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين وقرىء قد بدا البغضاء والأفواه جمع فم وأصله فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على أفواه وتصغيره على فويه والنسبة إليه فوهى ﴿وما تخفى صدورهم أكبر﴾ مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاته المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿إن كنتم تعقلون﴾ أى إن كنتم من أهل العقل أو إن كنتم تعقلون ما بين لكم من الآيات والجواب محذوف للدلالة المذكور عليه .

﴿ها أنتم أولاء﴾ جملة من مبتدأ وخبر صدرت بحرف التنبيه لإظهار آ لكمال العناية بمضمونها أى أنتم أولاء المخطئون في موالاتهم وقوله تعالى (تحبونهم ولا يحبونكم) بيان لخطئهم في ذلك وهو خبر ثان لأنتم أو خبر لأولاء والجملة خبر لأنتم كقولك أنت زيد تحبه أو صلة له أو حال والعامل معنى الإشارة ويجوز أن ينتصب أولاء بفعل يفسره ما بعده وتكون الجملة خبرا ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أى بجنس الكتب جميعا وهو حال من ضمير المفعول في لا يحبونكم والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فبالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم

﴿ وَإِذَا لقوكم قَالُوا آمَنَّا ﴾ نفاقاً ﴿ وَإِذَا خَلُوا عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ الْغِيظَ ﴾
 أى من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجذوا إلى التشفى سيلاً ﴿ قُلْ مَوْتُوا ﴾
 بغیظكم ﴿ دَعَاءُ عَلَيْهِمْ بِدَوَامِ الْغِيظِ وَزِيَادَتِهِ بِتَضَاعُفِ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ إِلَى أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ أَوْ بِاشْتِدَادِهِ إِلَى أَنْ يَهْلِكُمْ ﴾ ﴿ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فيعلم
 ما فى صدوركم من العداوة والبغضاء والحق وهو يحتمل أن يكون من المقول
 أى وقُلْ لَهُمْ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَخْفَى بِمَا تَخْفَوْنَ مِنْ عَضِ الْأَنَامِلِ غِيظاً
 وَأَنْ يَكُونَ خَارِجاً عَنْهُ بِمَعْنَى لَا تَتَعَجَّبْ مِنْ إِطْلَاعِي إِيَّاكَ عَلَى أَسْرَارِهِمْ فَإِنَّ عَلِيمٌ
 بِذَاتِ الصُّدُورِ وَقِيلَ هُوَ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطِيبِ النَّفْسِ
 وَقُوَّةِ الرَّجَاءِ وَالِاسْتِبْشَارِ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَهْلِكُوا غِيظاً يَاعِزَّازِ الْإِسْلَامِ
 وَإِذْلَالِهِمْ بِقُوَّتِهِ^(١) مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ قَوْلٍ كَأَنَّهُ قِيلَ حَدِثْ نَفْسَكَ بِذَلِكَ .
 ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ بَيَانُ لِنَتَاهِ
 عِدَاوَتِهِمْ إِلَى حَدِّ أَنْ حَسَدُوا مَا نَالَهُمْ مِنْ خَيْرٍ وَمَنْفَعَةٍ وَشَتَمُوا بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ضَرٍّ
 وَشَدَّةٍ وَذَكَرَ الْمَسَّ مَعَ الْحَسَنَةِ وَالْإِصَابَةَ مَعَ السَّيِّئَةِ لِإِلْإِذَانِ بَأَن مَدَارِ مَسَامَتِهِمْ
 أَذْنَى مَرَاتِبِ إِصَابَةِ الْحَسَنَةِ وَمَنَاطِ فَرْحِهِمْ تَمَامِ إِصَابَةِ السَّيِّئَةِ وَإِلَّا لَأَنَّ الْمَسَّ
 مُسْتَعَارٌ لِمَعْنَى الْإِصَابَةِ ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا ﴾ أى عَلَى عِدْوَاتِهِمْ أَوْ عَلَى مَشَاقِ
 التَّكَالِيفِ ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ ﴾
 مَكْرُهُمْ وَحِيلَتُهُمْ الَّتِي دَبَّرُوهَا لِأَجْلِكُمْ وَقُرِءَ لَا يَضُرُّكُمْ بِكُسْرِ الضَّادِ وَجَرَمِ الرَّاءِ
 عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ مِنْ ضَارِهِ يَضِيرُهُ بِمَعْنَى ضَرُّهُ يَضُرُّهُ وَضَمَّةُ الرَّاءِ فِي الْقِرَاءَةِ
 الْمَشْهُورَةِ لِلِإِتْبَاعِ كَضَمَّةِ مَدٍّ ﴿ شَيْئاً ﴾ نَصَبَ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ أَيْ لَا يَضُرُّكُمْ شَيْئاً
 مِنَ الضَّرْرِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَحِفْظِهِ الْمَوْعُودِ لِلصَّابِرِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَلِأَنَّ الْمَجْدَ فِي الْأَمْرِ
 الْمُتَدَرَّبِ بِالِاتِّقَاءِ وَالصَّبْرِ يَكُونُ جَرِيئاً عَلَى الْخَصْمِ ﴿ إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فِي
 عِدَاوَتِكُمْ مِنَ الْكَيْدِ ﴿ مُحِيطٌ ﴾ عَلِمَا فَيَعَاقِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَقُرِءَ بِالتَّاءِ الْفَوْقِيَّةِ^(٢)
 أَيْ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى فَيَجَازِيكُمْ بِمَا أَنْتُمْ أَهْلُهُ .

(٢) فى ط : الفوقانية .

(١) فى ط : وإذلالهم به .

غزوة بدر

﴿ وإذ غدوت ﴾ كلام مستأنف سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر على أن وجودهما مستتبع لما وعد من النجاة من مضرة كيد الأعداء وإذ نصت على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم خاصة مع عموم الخطاب فيما قبله وما بعده له وللمؤمنين لاختصاص مضمون الكلام به عليه السلام أى واذا كر لهم وقت غدوك ليتذكروا ما وقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنهم إن لم يوا الصبر والتقوى لا يضرهم كيد الكفرة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجابها كرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها كما سلف بيانه في تفسير قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة) الخ والمراد به خروجه عليه السلام إلى أحد وكان ذلك من منزل عائشة رضى الله عنها وهو المراد بقوله تعالى ﴿ من أهلك ﴾ أى من عند أهلك ﴿ تبوء المؤمنون ﴾ أى تنزلهم أوتىهم وتسوى لهم ﴿ مقاعد ﴾ ويؤيد قراءته من قرأ تبوء للمؤمنين والجملة حال من فاعل غدوت لكن لا على أنها حال مقدرة أى ناوبا وقاصدا للتبوءة كما قيل بل على أن المقصود تذكير الزمان الممتد المتسع لابتداء الخروج والتبوءة وما يترتب عليها إذ هو المذكر للقصة وإنما عبر عنه بالغدو الذى هو الخروج غدوة مع كون خروجه عليه السلام بعد صلاة الجمعة كما ستعرفه إذ حينئذ وقعت التبوءة التى هى العمدة فى الباب إذ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وتزاييلهم عن أحيازهم المعينة لهم عند التبوءة وعدم صبرهم وبهذا يتبين خلل رأى من احتج به على جواز أداء صلاة الجمعة قبل الزوال واللام فى قوله تعالى ﴿ للقتال ﴾ إما متعلقة بتبوء أى لأجل القتال وإما بحذوف وقع صفة لمقاعد أى كائنة ومقاعد القتال أما كئنه ومواقفه فإن استعمال المقعد والمقام بمعنى المكان اتساعا شائع ذائع كما فى قوله تعالى (فى مقعد صدق) وقوله تعالى (قبل أن تقوم من مقامك) .

روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله عبد الله بن أبي بن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة وإن رجعوا خائنين وقال بعضهم يارسول الله أخرج بنا إلى هؤلاء الأكلاب لا يرون أنا قد جئنا عنهم فقال عليه الصلاة والسلام إني قد رأيت في منامى بقرا مذبحه حولي فأولتها خيراً ورأيت في ذباب سيفي ثلثاً فأولته هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة فتدعهم فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ أخرج بنا إلى أعدائنا وقال النعمان بن مالك الأنصاري رضى الله عنه يارسول الله لا تحرمنى الجنة فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة ثم قال بقولى أشهد أن لا إله إلا الله وأنى لأفر من الزحف فلم يزالوا به عليه السلام حتى دخل فلبس لأمنته فلما رأوه كذلك ندموا وقالوا بثما صنعنا نشير على رسول الله والوحى يأتية وقالوا اصنع يارسول الله ما رأيت فقال ما ينبغي لنبي أن يلبس لأمنته فيضعها حتى يقاتل نخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال لسنة ثلاث من الهجرة فمشى على رجله فجعل يصف أصحابه للقتال فكأنما يقوم بهم القدح إن رأى صدرا خارجا قال تأخر وكان نزوله في عدوة الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا من مكانكم فإن نزال غالبين ما نبتم مكانكم ((والله سميع)) لا قوالكم ((عليم)) بضمايركم والجملة اعتراض للإيدان بأنه قد صدر عنهم هناك من الأقوال والأفعال ما لا ينبغي صدوره عنهم .

﴿إذ همّت﴾ بدل من إذ غدوت مبين لما هو المقصود بالتذكير أو ظرف
لسميع عليم على معنى أنه تعالى جامع بين سماع الأقوال والعلم بالضمائر في ذلك
الوقت إذ لا وجه لتقييد كونه تعالى سميعا عليما بذلك الوقت . قال الفراء معنى
قولك ضربت وأكرمت زيدا أن زيدا منصوب بهما وأنهما تسليطا عليه معا
﴿طائفتان منكم أن تفشلا﴾ متعلق بهمت والباء محذوفة أى بأن تفشلا أى تجبنا
وتضعفا وهما حييان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس
وهما الجناحان من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ألف رجل
وقيل تسعمائة وخمسين وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتح إن صبروا
فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخزل عبد الله بن أبى بلث
الناس فقال يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعهم عمرو بن حزم الأنصارى
فقال أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم فقال عبد الله لو نعلم قتالا لاتبعناكم فهم الحيان
باتباع عبد الله فعصمهم الله تعالى فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن
ابن عباس رضى الله عنهما أضمرُوا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا
والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس قلبا تخلو النفس عنه عند الشدائد
﴿والله وليهما﴾ أى عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة والجملة اعتراض ويجوز
أن تكون حالا من فاعل همّت أو من ضميره فى تفشلا مفيدة لاستبعاد فشلهما
أو همهما به مع كونهما فى ولاية الله تعالى وقرىء والله وليهم كما فى قوله تعالى
﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ وعلى الله وحده دون ما عداه مطلقا
استقلالا أو اشتركا ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فى جميع أمورهم فإنه حسبيهم وإظهار
الاسم الجليل للتبرك والتأميل^(١) فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى
واللام فى المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليا وفيه إشعار بأن
وصف الإيمان من دواعى التوكل وموجباته .

﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ جملة مستأنفة سقت لإيجاب الصبر والتقوى

بتذكير ما ترتب عليهما من النصر لإثر تذكير ما ترتب علي عدمهما من الضرر
وقيل لإيجاب التوكل على الله تعالى بتذكير ما يوجبه وبدر اسم ماء بين مكة
والمدينة كان رجل اسمه بدر بن كعدة فسمى باسمه وقيل سمي به لصفاؤه كالبدر
واستدارته وقيل هو اسم الموضع أو الوادي وكانت وقعة بدر في السابع عشر
من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ حال من مفعول نصركم
وأذلة جمع جمع ذليل وإنما جمع قلة للإيذان باتصافهم حينئذ بوصفي القلة والاذلة
لذا كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان ضعف حالهم في الغاية خرجوا على النواضح
يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ولم يكن في العسكر إلا فرس واحد وقيل
فرسان للبقداد ومرثد وتسعون بعيرا وست أدرع وثمانية سيوف وكان العدو
زهاء ألف ومعهم مائة فرس وشكة وشوكة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اقتصر على الأمر
بالتقوى مع كونه مشفوعا بالصبر فيما سبق وما لحق للإشعار بأصلاته وكون
الصبر من مبادئه اللازمة له ولذلك قدم عليه في الذكر وفي ترتيب الأمر بالتقوى
على الإخبار بالنصر إيذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم أى إذا
كان الأمر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى راجين
أن تشكروا ما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل أو لعلكم
ينعم الله عليكم بالنصر كما فعل ذلك من قبل فوضع الشكر موضع سببه الذى
هو الإنعام .

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم
لتشريفه والإيذان بأن وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام (لهم) ^(١) وإذ
ظرف لنصركم قدم عليه الأمر بالتقوى لإظهار كمال العناية به والمراد به
الوقت المعتقد الذى وقع فيه ما ذكر بعده وما طوى ذكره تعويلا على شهادة
الحال مما يتعلق به وجود النصر وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار
صورتها أى نصركم وقت قولك ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة

(١) سقطت من ط .

قال الشعبي بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفي يريد أن يمدد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ثم حكى ههنا ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف﴾ الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر والإمداد في الأصل إعطاء الشيء حالا بعد حال . قال المفضل ما كان منه بطريق التقوية والإعانة يقال فيه أمدده يمدد إمداداً وما كان بطريق الزيادة يقال فيه مده يمدد مداً ومنه والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر وقيل المد في الشر كما في قوله تعالى (ويمددهم في طغيانهم يعمهون) وقوله (ونمد له من العذاب مداً) والإمداد في الخير كما في قوله تعالى (وأمددناكم بأموال وبنين) والتعرض لعنوان الربوبية ههنا وفيما سيأتى مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار العناية بهم والإشعار بعله الإمداد والمعنى إنكار عدم كفاية الإمداد بذلك المقدار وفيه وكلة لن للإشعار بأنهم كانوا حينئذ كالأيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم ﴿من الملائكة﴾ بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف إليه أى كائنين من الملائكة ﴿منزليين﴾ صفة لثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف وقرئ مبنيًا للفاعل من الصيغتين أى منزليين النصر .

﴿بلى﴾ لإيجاب لما بعد لن وتحقيق له أى بلى يكفيكم ذلك ثم وعدهم (١) الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثاً لهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال ﴿إن تصبروا﴾ على لقاء العدو ومناقضتهم ﴿وتتقوا﴾ معصية الله ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ويأتوكم﴾ أى المشركون ﴿من فورهم هذا﴾ أى من ساعتهم هذه وهو فى الأصل مصدر فارت القدر أى اشتد غليانها ثم استعير للسرعة ثم أطلق على كل حالة لا ريث فيها أصلاً ووصفه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعيينه وتقريبه ونظم إتيانهم بسرعة فى سلك شرطى الإمداد المستتبعين له . وجوداً وعدماً أعنى الصبر والتقوى مع تحقق الإمداد لا محالة سواء أسرعوا أو أبطأوا لتحقيق أصله أو لبيان تحققه على أى حال فرض على أبلغ وجه .

وأكد به بتعليقه بأبعد التقادير ليعلم تحققة على سائرها بالطريق الأولى فإن هجوم الأعداء وإتيانهم بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادة فعلى به تحقق الإمداد إيدانا بأنه حيث تحقق مع ما ينافيه عادة فالآن يتحقق بدونه أولى وأحرى كما إذا أردت وصف درع بغاية الحصانة تقول إن لبستها وبارزت بها الأعداء فضر بوك بأيد شداد وسيوف حداد لم تتأثر منها قطعاً ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ من التسويم الذى هو إظهار سيما الشيء أى معلمين أنفسهم أو خيلهم فقد روى أنهم كانوا بعثهم بيض إلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام وروى أنهم كانوا على خيل بلق قال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمام بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة عمام صفر وقال قتادة والضحاك كانوا قد أعلموا بالعن فى نواصى الخيل وأذناها روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه تسوموا فإن الملائكة قد تسومت وقرئ مسومين على البناء للمفعول ومعناه معلمين من جهته سبحانه وقيل مرسلين من التسويم بمعنى الإسماء .

﴿ وما جعله الله ﴾ كلام مبدأ غير داخل فى حيز القول مسوق^(١) من جنابه تعالى لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وأن حقيقة النصر مختص به عز وجل ليشق به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته معطوف على فعل مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فإن الإخبار بوقوع النصر على الإطلاق وتذكيره وقتة وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص هو الإمداد بالملائكة مرة بعد أخرى وتعيين وقتة فيما مضى يقضى بوقوعه حينئذ قضاء قطعياً لم يكن لم يصرح به تعريلاً على تعاضد الدلائل وتأخذ الإمارات والتخايل وإيدانا بكمال الغنى عنه بل احترازاً عن شائبة التكرير أو عن إيهام احتمال الخلف فى الوعد المحتوم كأنه قيل عقيب قوله تعالى (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من

(١) فى ١١ : سبق .

الملائكة مسومين) فأمدكم بهم وما جعله الله الخ . والجعل متعدد إلى واحد هو الضمير العائد إلى مصدر ذلك الفعل المقدر وأما عوده إلى المصدر المذكور أعنى قوله تعالى أن يمدكم أو إلى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى يمددكم كما قيل فغير حقيق بجزاله التنزيل لأن الهيئة البسيطة متقدمة على المركبة فبيان العلة الغائبة لوجود الإمداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقه أن يكون بعد بيان وجوده في نفسه ولا ريب في أن المصدرين المذكورين غير معتبرين من حيث الوجود والوقوع كمصدر الفعل المقدر حتى يتصدى لبيان أحكام وجودهما بل الأول معتبر من حيث الكفاية والثاني من حيث الوعد على أن الأول هو الإمداد بثلاثة آلاف وقوله تعالى :

﴿ لا بشرى لكم ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل وتلويح الخطاب لتشريف المؤمنين ولإيذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غنى عنه بماله من التأييد الروحاني . أى وما جعل إمدادكم بإنزال الملائكة عياناً لشيء من الأشياء إلا للبشرى . لكم بأنكم تنهرون ﴿ ولتطمئن قلوبكم به ﴾ أى بالإمداد وتسكن إليه كما كانت السكينة لبني إسرائيل كذلك فكلها علة غائية للجعل وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه من اتحاد الفاعل والزمان وكونه مصدراً مسوقاً للتعليل وبقي الثاني على حاله لفقدانها وقيل للإشارة أيضاً إلى أصلاته في العلية وأهميته في نفسه كما في قوله تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وفي قصر الإمداد عليهما إشعار بأن الملائكة عليهم السلام لم يباشروا يومئذ القتال وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المباشرين بتكثير السواد ونحوه كما هو رأى بعض السلف . رضى الله عنه وقيل الجعل متعدد إلى اثنين وقوله عز وجل لا بشرى لكم استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله تعالى شيئاً من الأشياء إلا بشارة لكم فاللام في قوله تعالى ولتطمئن متعلقة بمحذوف تقديره ولتطمئن قلوبكم به فعل ذلك . ﴿ وما النصر ﴾ أى حقيقة النصر على الإطلاق فيندرج في حكمة النصر المعهود اندراجاً أولياً ﴿ إلا من عند الله ﴾ أى إلا كائن من عنده تعالى من غير

أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب والعدد وإنما هي مظاهر له بطريق جريان سنته تعالى أو وما النصر المعهود إلا من عنده تعالى لا من عند الملائكة فإنهم بمعزل من التأثير وإنما قصارى أمرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب ﴿العزيز﴾ أى الذى لا يغالب فى حكمه وأفضيته وإجراء هذا الوصف عليه تعالى للإشعار بعلّة اختصاص النصر به تعالى كما أن وصفه بقوله ﴿الحكيم﴾ أى الذى يفعل كل ما يفعل حسب مقتضيه الحكمة والمصلحة للإيدان بعلّة جعل النصر بإنزال الملائكة فإن ذلك من مقتضيات الحكمة ^(١) البالغة ﴿ليقطع﴾ متعلق بقوله تعالى ولقد نصركم وما بينهما تحقيق لحقيقته وبيان لكيفية وقوعه والمقصود على التعليل بما ذكر من البشرى والاطمئنان إنما هو الإمداد بالملائكة على الوجه المذكور فلا يقدح ذلك فى تعليل أصل النصر بالقطع وما عطف عليه أو بما تعلق به الخبر فى قوله عز وعلا (وما النصر إلا من عند الله) على تقدير كونه عبارة عن النصر المعهود وقد أشير إلى أن المعلن بالبشارة والاطمئنان إنما هو الإمداد الصورى لا ما فى ضمنه من النصر المعنوى الذى هو ملاك الأمر وأما تعلقه بنفس النصر كما قيل فمع ما فيه من الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي هو الخبر محل بسداد المعنى كيف لا ومعناه قصر النصر بخصوص المعلن بعلل معينة على الحصول من جهته تعالى وليس المراد إلا قصر حقيقة النصر أو النصر المعهود على ذلك والمعنى لقد نصركم الله يومئذ أو وما النصر الظاهر عند إمداد الملائكة إلا ثابت من عند الله ليقطع أى يهلك وينقص ﴿طرفا من الذين كفروا﴾ أى طائفة منهم بقتل وأسر وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون وأسر سبعون ﴿أو يكبتهم﴾ أى يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فإن الكبت شدة غيظ أو وهن يقع فى القلب من كبتة بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقه وقيل الكبت الإصابة بمكروه وقيل هو الصرع للوجه واليدين فالتاء حيثئذ غير مبدلة أو للتنويع ﴿فينقلبوا خائبين﴾

أى فينهمزوا منقطعى الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشيء كما فى قوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا).

﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ اعتراض وسط بين المعطوف عليه المتعلق بالعاجل والمعطوف المتعلق بالآجل لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين إثر بيان أن لا تأثير للناصرين وتخصيص النفى برسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء من غيره بالطريق الأولى وإنما خص الاعتراض بموقعه لأن ما قبله من القطع والسكت من مظان أن يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشرى القتال مدخل فى الجملة ﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ عطف على يكبتهم والمعنى أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل نصركم عليهم ليهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا [على الكفر] ^(١) وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخرى المخصوص بأشد الكفرة كفرا وإلا فطلق التعذيب الأخرى متحقق فى الفريقين الأولين أيضا ونظم التوبة والتعذيب المذكور فى سلك العلة الغائية للنصر المترتبة عليه فى الوجود من حيث أن قبول توبتهم فرع تحققها الناشئ من علمهم بحقيقة الإسلام بسبب غلبة أهله المترتبة على النصر وأن تعذيبهم بالعذاب المذكور مترتب على إصرارهم على الكفر بعد تبين الحق على الوجه المذكور هذا وقيل إن عتبة بن أبى وقاص شج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر رباعيته فجعل عليه الصلاة والسلام يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أنى حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجهه بنبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم فنزلت ليس لك من الأمر شيء الآية . كأنه نوع معاتبة على إنكاره عليه السلام لفلاحهم وقيل أراد أن يدعو عليهم فنراه الله تعالى لعلمه

بأن منهم من يؤمن بقوله تعالى أو يتوب عليهم حينئذ معطوف على الأمر أو على شيء بإضمار أن أى ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء أو ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم ونقل عن الفراء وابن الأنبارى أن أو بمعنى إلا أن والمعنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح به أو يعذبهم فتتشفى منهم وأيا ما كان فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد لإثبات بيان بعض ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهر لأن كلا منهما مبنى على اختصار الأمر كله بالله تعالى ومنبئ عن سلبه عن سواه .

وأما تعلق كل القصة بغزوة أحد على أن قوله تعالى إذ تقول بدل ثان من إذ غدوت وأن ما حكي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع يوم أحد وأن الإمداد الموعود كان مشروطا بالصبر والتقوى فلما لم يفعلوا لم يتحقق الموعود كما قيل فلا يساعده النظم الكريم أما أو لا فالأن المشروط بالصبر والتقوى إنما هو الإمداد بخمسة آلاف لا بثلاثة آلاف مع أنه لم يقع الإمداد يومئذ ولا بملك واحد وأما ثانيا فلأنه كان ينبغي حينئذ أن يعنى عليهم جناتهم وحرمانهم بسببها تلك النعمة الجليلة ودعوى ظهوره مع عدم دلالة السياق والسياق عليه بل مع دلالتها على خلافه بما لا يكاد يسمع وأما ثالثا فلأنه لا سبيل إلى جعل الضمير في قوله تعالى (وما جعله الله) الخ . عائدا إلى الإمداد الموعود لأنه لم يتحقق فكيف يبين علته الغائية ولا إلى الوعد به على معنى أنه تعالى إنما جعل ذلك الوعد لبشارتكم واطمئنان قلوبكم فلم تفعلوا ما شرط عليكم من الصبر والتقوى فلم يقع لإنجاز الموعود لما أن قوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) صريح في أنه قد وقع الإمداد الموعود لكن أثره إنما هو مجرد البشارة والاطمئنان وقد حصل وأما النصر الحقيقي فليس ذلك إلا من عنده تعالى وجعله استثناء مقرر لعدم وقوع الإمداد على معنى أن النصر الموعود مخصوص به تعالى فلا ينصر من خالف أمره بترك الصبر والتقوى واعتساف بين يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن قوله تعالى (ليقطع طرفا)

الآية متعلق حينئذ بما تعلق به قوله تعالى (من عند الله) من الثبوت والاستقرار ضرورة أن تعلقه بقوله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر) الآية، مع كون ما بينهما من التفصيل متعلقا بوقعة أحد من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فلا بد من اعتبار وجود النصر قطعاً لأن تفصيل الأحكام المترتبة على وجود شيء بصدد بيان انتفائه مما لم يعد في كلام الناس فضلاً عن الكلام المجيد فالحق الذي لا يحيد عنه أن قوله تعالى إذ تقول ظرف لنصركم وأن ما حكى في أثناءه إلى قوله تعالى خائبين متعلق بيوم بدر قطعاً وما بعده محتمل للوجهين المذكورين وقوله تعالى .

﴿فإنهم ظالمون﴾ تعليل على كل حال لقوله تعالى أو يعذبهم مبين لسكون ذلك من جهتهم وجزاء لظلمهم ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ كلام مستأنف سيق لبيان اختصاص ملكوت كل الكائنات به عز وجل لإثبات اختصاص طرف من ذلك به سبحانه تقريراً لما سبق وتسكئة له وتقديم الجار للقصر وكلمة ما شاملة للعقلاء أيضاً تغليبا أى له ما فيهما من الموجودات خلقاً وملكاً لا مدخل فيه لأحد أصلاً فله الأمر كله ﴿يعفو لمن يشاء﴾ أن يغفر له مشيئة مبنية على الحكمة والمصلحة^(١) ﴿ويعذب من يشاء﴾ أن يعذبه بعمله مشيئة كذلك وإيثار كلمة من في الموضوعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء وتقديم المغفرة على التعذيب للإيدان بسبق رحمة تعالى غضبه وبأنها من مقتضيات الذات دونه فإنه من مقتضيات سيئات العصاة وهذا صريح في نفي وجوب التعذيب والتقيد بالتوبة وعدمها كالمنا في له ﴿والله غفور رحيم﴾ تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى (يعفو لمن يشاء) مع زيادة وفي تخصيص التذييل به دون قرينة من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى .

جهاد النفس وجهاد العدو

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا ﴾ كلام مبتدأ مشتمل على ما هو ملاك الأمر في كل باب لا سيما في باب الجهاد من التقوى والطاعة وما بعدهما من الأمور المذكورة على نهج الترغيب والترهيب جرى به في تضاعيف القصة مسارعة إلى إرشاد المخاطبين إلى ما فيه وإيذاً بسكال وجوب المحافظة عليه فيما هم فيه من الجهاد فإن الأمور المذكورة فيه مع كونها مناطاً للفوز في الدارين على الإطلاق عمدة في أمر الجهاد عليها يدور فلك النصر والغلبة كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما لقوا ما لقوا ولعل إيراد النهي عن الربا في أثنائها لما أن الترغيب في الإنفاق في السراء والضراء الذي عمده الإنفاق في سبيل الجهاد متضمن للترغيب في تحصيل المال فكان مظنة مبادرة الناس إلى طرق الاكتساب ومن جعلتها الربا فنهرها عن ذلك والمراد بأكله أخذه وإنما عبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد بالأخذ ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيع وقوله عز وجل ﴿ أضعافاً مضاعفة ﴾ ليس لتقييد النهي به بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخاً لهم بذلك إذ كان الرجل يربى إلى أجل فإذا حل قال للمدين زدني في المسال حتى أزيدك في الأجل فيفعل وهكذا عند محل كل أجل فيستغرق بالشئ الطفيف ما له بالكلية ويحله بالنصب على الحالية من الربا وقرئ مضعفه ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما نهيتهم عنه من الأعمال ^(١) التي من جملتها الربا ﴿ لعلمكم تفلحون ﴾ راجين للفلاح ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي ما يتعاطونها كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه ﴿ وأطيعوا الله ﴾ في كل ما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ والرسول ﴾ الذي يبلغكم أوامره ونواهيه ﴿ لعلمكم ترحمون ﴾ راجين لرحمته . عقب الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة

(١) في ط : من الأمور .

وترغيباً في الطاعة وإيراد لعل في الموضعين للإشعار بعزة منال الفلاح والرحمة قال محمد ابن إسحق هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد .

﴿ وسارعوا ﴾ عطف على أطيعوا وقرىء بغير واو على وجه الاستئناف أى بادروا وأقبلوا وقرىء وسابقوا ﴿ إلى مغفرة من ربكم وجنة ﴾ أى إلى ما يؤدى إليهما وقيل إلى الإسلام وقيل إلى التوبة وقيل إلى الإخلاص وقيل إلى الجهاد وقيل إلى أداء جميع الواجبات وترك جميع المنهيات فيدخل فيها ما من الأمور المأمور بها والمنهى عنها دخولا أوليا وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية مقدمة على التحلية ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لمغفرة أى كائنة من ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار مزيد اللطف بهم وقوله تعالى ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ أى كمرضهما صفة لجنة وتخصيص العرض بالذكر للبالغة في وصفها بالسعة والبسطة على طريقة التمثيل فإن العرض في العادة أدنى من الطول وعن ابن عباس رضى الله عنهما كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض ﴿ أعدت للمتقين ﴾ فى حيز الجر على أنه صفة أخرى لجنة أو فى محل النصب على الحالية منها لتخصيصها بالصفة أى هيئت لهم وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن وأنها خارجة عن هذا العالم ﴿ الذين ينفقون ﴾ فى محل الجر على أنه نعت للمتقين مادح لهم أو بدل منه أو بيان أو فى حيز النصب أو الرفع على المدح ومفعول ينفقون محذوف ليتناول كل ما يصلح للإنفاق أو متروك بالكلية كما فى قولك يعطى ويمنع ﴿ فى السراء والضراء ﴾ فى حالتى الرخاء والشدة واليسر والعسر أو فى الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة أى لا يخلو فى حال ما يوافق ما قدروا عليه من قليل أو كثير .

﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ عطف على الموصول والعدول إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار وأما الإنفاق فحيث كان أمرا متجددا عبر عنه بما يفيد

الحدث هو التجدد والكظم الحبس يقال كظم غيظه أى حبسه قال المبرد تأويله أنه كتبه على امتلائه منه يقال كظمت السقاء إذا ملأته وشددت عليه أى الممسكين عليه الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه وعن النبي صلى الله عليه وسلم من كظم غيظاً وهو قادر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ﴿والعافين عن الناس﴾ أى التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته . روى أنه ينادى مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله تعالى فلا يقوم إلا من عفا وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء فى أمتى قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً فى الأمم التى مضت وفى هذين الوصفين إشعار بكمال حسن موقع عفوهِ عليه الصلاة والسلام عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره عليه السلام وندب له عليه السلام إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوا بحمزة رضى الله عنه حيث قال حين رآه قد مثل به لأمثلن بسبعين مكانك .

﴿والله يحب المحسنين﴾ اللام إما للجذب وهم داخلون فيه دخولا أوليا وإما للعهد عبر عنهم بالمحسنين لإيذاناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذى هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسرهُ عليه السلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك والجملة تذييل يقرر مضمون^(١) ما قبلها ﴿والذين﴾ مرفوع على الابتداء وقيل مجرور معطوف على ما قبله من صفات المتقين وقوله تعالى (والله يحب المحسنين) اعتراض بينهما مشير إلى ما بينهما من التفاوت فإن درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أو على نفس المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر ﴿إذا فعلوا فاحشة﴾ أى فعلة بالغة فى القبح كالزنا ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ بأن أتوا ذنبا أى ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة أو الفاحشة ما يتعدى إلى الغير وظلم النفس ما ليس كذلك قيل قال المؤمنون يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله تعالى منا كان أحدهم إذا أذنب

أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره افعل كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل إن نهان التمار أتمه امرأة حسناء تطلب منه تمرأ فقال لها هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت وقيل جرى مثل هذا بين أنصاري وامرأة رجل ثقي كان بينهما مؤاخاة فندم الأنصاري وحثا على رأسه التراب وهام على وجهه وجعل يسيح في الجبال تائبا مستغفرا ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت وأياما كان في إطلاق اللفظ ينتظم ما فعله الزناة انتظاما أوليا ﴿اذكروا الله﴾ تذكروا حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء أو وعيده أو حكمه وعقابه .

﴿ فاستغفروا لذنوبهم ﴾ بالتوبة والندم والفاء للدلالة على أن ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لا محالة ﴿ ومن يغفر الذنوب ﴾ استفهام إنكارى والمراد بالذنوب جنسها كما في قولك فلان يلبس الثياب ويركب الخيل لا كلها حتى يخل بما هو المقصود من استحالة صدور مغفرة فرد منها عن غيره تعالى وقوله تعالى ﴿إلا الله﴾ يدل من الضمير المستكن في يغفر أى لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله خلا أن دلالة الاستفهام عن الانتفاء أقوى وأبلغ لإيذانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء فيسارع إلى الجواب به والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة والجملة معترضة بين المعطوفين أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه والإشعار بالوعد بالقبول ﴿ ولم يصروا ﴾ عطف على فاستغفروا وتأخيره عنه مع تقدم عدم الإصرار على الاستغفار رتبة لإظهار الاعتناء بشأن الاستغفار واستحقاقه للسارعة إليه عقيب ذكره تعالى أو حال من فاعله أى ولم يقيموا أو غير مقيمين ﴿ على ما فعلوا ﴾ أى ما فعلوه من الذنوب فاحشة كانت أو ظلما أو على فعلهم . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة وأنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ﴿ وهم يعلمون ﴾ حال من فاعل يصروا أى لم يصروا على ما فعلوا وهم عالمون ببقبحه والنهي عنه

والوعيد عليه والتقييد بذلك لما أنه قد يعذر من لا يعلم ذلك إذا لم يكن التقصير (١)
في تحصيل العلم به .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين آخرا باعتبار انصافهم بما مر من الصفات الحميدة وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعيد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ جزاؤهم ﴾ بدل اشتغال منه وقوله تعالى ﴿ مغفرة ﴾ خبر له أو جزاؤهم مبتدأ ثان ومغفرة خبر له والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر لقوله تعالى (والذين إذا فعلوا) الخ على الوجه الأول وهو الأظهر الأنسب بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنب في سلك الجزاء إذ على الوجهين يكون قوله تعالى أولئك الخ جملة مستأنفة مبينة لما قبلها كاشفة عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين ولم يذكر من أوصاف الأولين ما فيه شائبة الذنب حتى يذكر في مطلع الجزاء الشامل لهما المغفرة وتخصيص الإشارة بالآخرين مع اشتراكهما في حكم أعداد الجنة لهما تعسف ظاهر ﴿ من ربه ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة للمغفرة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائنة من جهته تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلّة الحكم والتشريف ﴿ وجنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ عطف على مغفرة والتذكير المشعر بكونها أدنى من الجنة السابقة مما يؤيد رجحان الوجه الأول ﴿ خالدين فيها ﴾ حال مقدرة من الضمير في جزاؤهم لأنه مفعول به في المعنى لأنه في قوة يحجزهم الله جنات خالدين فيها ولا مساغ لأن يكون حالا من جنات في اللفظ وهي لأصحابها في المعنى إذ لو كان كذلك لبرز الضمير .

﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أى ونعم أجر العاملين ذلك أى ما ذكر من المغفرة والجنات والتعجير عنهما بالأجر المشعر بأنهما يستحقان بمقابلة العمل وإن كان بطريق التفضل لمزيد الترغيب في الطاعات والزجر

عن المعاصي والجملة تذييل مختص بالتائبين حسب اختصاص التذليل السابق بالاولين وناهيك مضمونهما دليلا على ما بين الفريقين من التفاوت النير والتباين البين شتان بين المحسنين الفائزين بمحبة الله عز وجل وبين العاملين الخائزين لأجرتهم وعما لهم .

عود إلى جهاد الأعداء

﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ رجوع إلى تفصيل بقية القصة بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح والخلو المضى والسنن الوقائع وقيل الأمم والظرف إما متعلق بخلت أو بمحذوف وقع حالا من سنن أى قد مضت من قبل زمانكم أو كائنة من قبلكم وقائع سننها الله تعالى فى الأمم المكذبة كما فى قوله تعالى (وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا) الخ والفاء فى قوله تعالى ﴿ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ للدلالة على سببية خلوها للسير والنظر أو للأمر بهما وقيل المعنى على الشرط أى إن شككتم فسيروا الخ وكيف خبر مقدم لكان معلق بفعل النظر والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض لأن الأصل استعماله بالجار .

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما سلف من قوله تعالى قد خلت إلى آخره ﴿ بيان للناس ﴾ أى تبين لهم على أن اللام متعلقة بالمصدر أو كائن لهم على أنها متعلقة بمحذوف وقع صفة له وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون أى هذا أيضا لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب فإن الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضا على أن ينظروا فى عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا بما يعانون من آثار دمارهم وإن لم يكن الكلام مسوقا لهم ﴿ وهدى وموعظة ﴾ أى وزيادة بصيرة وموعظة لكم وإنما قيل ﴿ للمتقين ﴾ للإيذان بعلة الحكم فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين إلى التقوى والهدى والموعظة لهم إنما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين

إلى التقوى والهدى والموعظة على ظاهرهما أى هذا بيان لمآل أمر الناس وسوء
مغبته وهداية لمن اتقى منهم وزجر لهم عما هم عليه من التكذيب وأن يراد به
ما يعمهم ويعم^(١) غيرهم من المتقين بالفعل ويراد بالهدى والموعظة أيضاً ما يعم
ابتداءهما والزيادة فيهما وإنما قدم كونه بيانا للتكذيبين مع أنه غير مسوق له
على كونه هدى وموعظة للمتقين مع أنه المقصود بالسياق لأن أول ما يترتب
على مشاهدة آثار هلاك أسلافهم ظهور حال أخلافهم وأما زيادة الهدى أو أصله
فأمر مترتب عليه وتخصيص البيان للناس مع شموله للمتقين أيضاً لما أن المراد
به مجرد البيان العارى عن الهدى والعظة والاقصاء عليهما في جانب المتقين مع
ترتبهما على البيان لما أنهما المقصد الأصلي ويجوز أن يكون تعريف الناس
للجنس أى هذا بيان للناس كافة وهدى وموعظه للمتقين منهم خاصة وقيل
كلمة هذا إشارة إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين والمصرين وقوله تعالى
قد خلت الآية اعتراض للبحث^(٢) على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر
العالمين وأنت خير بأن الاعتراض لا بد أن يكون مقرراً لمضمون ما وقع في
خلاله ومعانيته آثار هلاك المكذبين مما لا تعلق له بحال أحد الأصناف الثلاثة
للمؤمنين وإن كان باعثاً على الإيمان زاجراً عن التكذيب وقيل إشارة إلى
القرآن ولا يخفى بعده .

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ﴾ تشجيع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسليمة عما
أصابهم يوم أحد من القتل والقرح وكان قد قتل يومئذ خمسة من المهاجرين
حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه
وسلم وعبد الله بن جحش ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان بن مظعون
وسعد مولى عتبة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن الأنصار سبعون رجلاً

(١) سقطت من ط .

(٢) في ط : للبحث .

رضى الله عنهم أى لاتضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ولا تخزنوا على من قتل منكم ﴿ وأتم الأعلون ﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين أى والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من أحوال أسلافهم فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الإشعار به فيما سبق أو وأتم المهودون بغاية علو الشأن لما أنكم على الحق وقتالكم الله عز وجل وقتلاككم في الجنة وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم في النار ، وقيل وأتم الأعلون حالا منهم حيث أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ متعلق بالنهى أو بالأعلون وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه أى إن كنتم مؤمنين فلا تمنوا ولا تخزنوا فإن الإيمان يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله تعالى وعدم المبالاة بأعدائه أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون فإن الإيمان يقتضى العلو لا محالة أو إن كنتم مصدقين بوعد الله تعالى فأنتم الأعلون وأيا ما كان فالمقصود تحقيق المعلق به كما في قول الأجير إن كنت عملت لك فأعطني أجرى ولذلك قيل معناه إذ كنتم مؤمنين وقيل معناه إن بقيتم على الإيمان .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ القرح بالفتح والضم لغتان كالضعف والضعف وقد قرىء بهما وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها ، وقرىء بفتحين ، وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد ، والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر ثم لم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أحق بأن لاتضعفوا فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفا وعشرين رجلا منهم صاحب لوأثمهم وجرحوا عددا كثيرا وعقروا عامة خيلهم بالنبل ﴿ وتلك الأيام ﴾ إشارة إلى الأيام الجارية فيما بين الأمم الماضية والآتية كافة لا إلى الأيام المعهودة خاصة من يوم بدر ويوم أحد بل هى داخلة فيها دخولا أوليا والمراد بها

أوقات الضفر والغلبة ﴿نداوها بين الناس﴾ نصرها بينهم نديل لهؤلاء تارة
ولهؤلاء أخرى كقول من قال :

فيوما علينا ويوما لنا ويوما نساء ويوما نسر

والمداولة كالمعاورة يقال داولته بينهم فتداولوه أى عاورته فتعاوروه واسم
الإشارة متبدأ والأيام إما صفة له أو بدل منه أو عطف بيان له فتداولها خبره
أو خبر فتداولها حال من الأيام والعامل معنى اسم الإشارة أو خبر بعد خبر
وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيدان بأن تلك المداولة ستة
مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة سابقتها ولأحققتها وفيه ضرب من التسلية وقوله
عز وجل ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ إما من باب التمثيل أى ليعاملكم معاملة
من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم أو العلم فيه مجاز عن
التمييز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الإيمان من
غيرهم كما في قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز
الخبيث من الطيب) أو هو على حقيقته معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث
أنه موجود بالفعل إذ هو الذى يدور عليه فلك الجزء لا من حيث أنه
موجود بالقوة وإطلاق الإيمان مع أن المراد هو الرسوخ والإخلاص فيه
للإيدان بأن اسم الإيمان لا ينطلق على غيره والالتفات إلى الغيبة بإسناده
إلى اسم الذات المستجمع للصفات لتربيته المهابة والإشعار بأن صدر كل واحد
بما يذكر بصدد التعايل من أفعاله تعالى باعتبار منشأ معين من صفاته تعالى
مغاير لمنشأ الآخر والجملة علة لما هو فرد من أفراد مطلق المداولة التى نطق بها
قوله تعالى (نداوها بين الناس) من المداولة المعهودة الجارية بين فريقى المؤمنين
والكافرين واللام متعلقة بمادل عليه المطلق من الفعل المقيد بالوقوع بين
الفريقين المذكورين أو بنفس الفعل المطلق باعتبار وقوعه بينهما والجملة
معطوفة على علة أخرى لها معتبرة إما على الخصوص والتعيين محذوفة لدلالة
المذكورة عليها لكونها من مبادئها كأنه قيل نداوها بينهم وبين عدوكم ليظهر

أمركم وليعلم الخ فإن ظهور أعمالهم وخروجها من القوة إلى الفعل من مبادئ
تمييزهم عن غيرهم وموجب تعلق العلم الأزل بها من تلك الحثيثة وكذا الحال
في باب التمثيل فتأمل وإما على العموم والإيهام للتنبيه على أن العلل غير منحصرة
فيها عدد من الأمور وأن العبد يسوءه ما يجرى عليه من النوائب ولا يشعر
بأن الله تعالى جعل له في ذلك من الالطاف الخفية ما لا يخطر ببال كأنه قيل
نداولها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم الخ وفيه من تأكيد
التسلية ومزيد التبصرة ما لا يخفى وتخصيص البيان بعلة هذا الفرد من مطلق
المدولة دون سائر أفرادها الجارية فيما بين بقية الأمم تعيينا أو إيهاما لعدم تعلق
الغرض العلمي ببيانها ولك أن تجعل المحذوف المبهم عبارة عن علل سائر أفرادها
للإشارة إجمالا إلى أن كل فرد من أفرادها له علة داعية إليه كأنه قيل نداولها بين
الناس كافة ليكون كيت وكيت من الحكم الداعية إلى تلك الأفراد وليعلم الخ
فاللام الأولى متعلقة بالفعل المطلق باعتبار تفهيد بتلك الأفراد والثانية باعتبار
تفهيده بالفرد المعهود وقيل هي متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره وليعلم الله الذين
آمنوا فعل ذلك .

﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ جمع شهيد أى ويكرم ناسا منكم بالشهادة
وهم شهداء أحد فمن ابتدائية أو تبعيضية متعلقة بـ يتخذ أو بمحذوف وقع حالا
من شهداء أو جمع شاهد أى ويتخذ منكم شهودا معدلين بما ظهر منهم من الثبات
على الحق والصبر على الشدائد وغير ذلك من شواهد الصدق ليشهدوا على الأمم
يوم القيامة فمن بيانه لأن تلك الشهادة وظيفه السكل دون المستشهدين فقط
وأيا ما كان فى لفظ الاتخاذ المنبئ عن الاصطفاء والتقريب من تشريفهم وتفخيم
شأنهم ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ اعتراض مقرر لمضمون
ما قبله ونفى المحبة كناية عن البغض وفى إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته
تعالى لمقابلتهم والمراد بهم إما غير الثابتين على الإيمان فالتقرير من حيث أن
بغضه تعالى لهم من دواعى إخراج المخلصين المصطفين للشهادة من بينهم وإما

الكفرة الذين أدبل لهم فالتقرير من حيث أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم فإنها مختصة بأوليائه تعالى بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين وقوله تعالى ﴿وليخص الله الذين آمنوا﴾ أى ليصفهم ويظهرهم من الذنوب عطف على يتخذ وتكرير اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التخصيص وهذه الأمور الثلاثة علل للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين قدمت في الذكر لأنها المحتاجة إلى البيان ولعل تأخير العلة الأخيرة عن الاعتراض لتلايتهم اندراج المذنبين في الظالمين أو ليقترن بقوله عز وجل ﴿ويمحق الكافرين﴾ فإن التخصيص فيه محو الآثار وإزالة الأوضار كما أن المحق عبارة عن النقص والإذهاب قال المفضل هو أن يذهب الشيء بالسكية حتى لا يرى منه شيء ومنه قوله تعالى ﴿يمحق الله الربا﴾ أى يستأصله وهذه علة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأصروا على الكفر وقد محقهم الله عز وجل جميعاً .

﴿أم حسبتم﴾ كلام مستأنف سيق لبيان ماهى الغاية القصوى من المداولة والنتيجة لما ذكر من تمييز المخلصين وتمحيصهم واتخاذ الشهداء وإظهار عزة منالها والخطاب للذين انهمزوا يوم أحد وأم منقطعة وما فيها من كلمة بل للإضراب عن التسليمية ببيان السبب^(١) فيما لقوا من الشدة إلى تحقيق أنها مبادئ الفوز بالمطلب الأسنى والهمزة للإنكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿أن تدخلوا الجنة﴾ وتفوزوا بنعيمها وقوله تعالى ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ حال من ضمير تدخلوا مؤكدة للإنكار فإن رجاء الأجر بغير عمل ممن يعلم أنه منوط به مستبعد عند العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم لما بينهما من الزوم المبني على لزوم تحقق الأول لتحقيق الثانى ضرورة استحالة تحقق شيء

(١) فى ط : العلل .

بدون علمه تعالى به وإيثارها على التصريح للمبالغة في تحقيق المعنى المراد فإنها لإثبات لعديم جهادهم بالبرهان وللإيدان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال إنما هو علم الله تعالى بها كأنه قيل والحال أنه لم يوجد الذين جاهدوا منكم وإنما وجه النفي إلى الموصوفين مع أن المنفى هو الوصف فقط وكان يكفي أن يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية عن معنى ولما تجاهدوا للمبالغة في بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلاً وفي كلمة لما إيدان بأن الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل إلا أنه غير معتبر في تأكيد الإنكار وقرىء يعلم بفتح الميم على أن أصله يعلمن فخذت النون أو على طريقة إتياع الميم لما قبلها في الحركة لإبقاء تفخيم اسم الله تعالى ومنكم حال من الذين .

﴿ ويعلم الصابرين ﴾ منصوب بإضمار أن على أن الواو للجمع كما في قولك لا تأكل السمك وتشرب اللبن أى لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أى الجمع بينهما وإيثار اسم الفاعل على الموصول للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللحفاظة على الفواصل وقيل مجزوم معطوف على المجزوم قبله قد حرك لآلتقاء الساكنين بالفتح للخفة والإتياع كما مر ويؤيده القراءة بالسكس على ما هو الأصل في تحريك الساكن وقرىء يعلم بالرفع على أن الواو للحال وصاحبها الموصول والمبتدأ محذوف أى وهو يعلم الصابرين كأنه قيل ولما تجاهدوا وأنتم صابرون .

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ﴾ أى تمنون الحرب فإنها من مبادئ الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك ﴿ من قبل أن تلقوه ﴾ متعلق بتمنون مبين لسبب إقدامهم على التنى أى من قبل

أن تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته وقرىء تلاقوه ﴿ فقد رأيتموه ﴾ أى ما تتمنونه من أسباب الموت أو الموت بمشاهدة أسبابه وقوله تعالى ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ حال من ضمير المخاطبين وفى إثبات الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة فى مشاهدتهم له والفاء فصيحة كأنه قيل إن كنتم صادقين فى تمنىكم ذلك فقد رأيتموه معانين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا فلم فعلتم ما فعلتم وهو تويسخ لهم على تمنىهم الحرب وتسببهم لها ثم جنبهم وانزاههم لا على تمنى الشهادة بناء على تضمنها لغلبة الكفار لما أن مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر بباله شيء غير ذلك فلا يستحق العتاب من تلك الجملة .

﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ مبتدأ وخبر ولا عمل لما بالاتفاق لا تتقاض نفية بإلا قوله تعالى ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ صفة لرسول منبئة عن كونه فى شرف الخلو فإن خلو مشاركته فى منصب الرسالة من شواهد خلوه عليه الصلاة والسلام لا محالة كأنه قيل قد خلت من قبله أمثاله فسيخلو كما خلوا والقصر قلبى فإنهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا كسائر الرسل فى أنه يخلو كما خلوا أو يجب التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم فرد عليهم بأنه ليس إلا رسولا كسائر الرسل فسيخلوا كما خلوا ويجب التمسك بدينه كما يجب التمسك بدينهم وقيل هو قصر لإفراد فإنهم لما استعظموا عدم بقاءه عليه الصلاة والسلام لهم نزلوا منزلة المستبعدين لهلاكه كأنهم يعتقدون فيه عليه الصلاة والسلام وصفين الرسالة والبعد عن الهلاك فرد عليهم بأنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك فلا بد حينئذ من جعل قوله تعالى قد خلت الح كلاما مبتدأ مسوقا لتقرير عدم برأيه عليه الصلاة والسلام من الهلاك وبيان كونه أسوة لمن قبله من الرسل عليهم السلام وأياما كان فالسلام يخرج على خلاف مقتضى الظاهر ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ إنكار لارتدادهم وانقلابهم عن الدين بخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به وقيل الفاء للسببية

والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لا انقلابهم بعد وفاته مع كونه سبباً في الحقيقة لثباتهم على الدين وإيراد الموت بكلمة أن مع عليهم به البتة لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لما ذكر من استعظامهم إياه وهكذا الحال في سائر الموارد فإن كلمة إن في كلام الله تعالى لا تجرى على ظاهرها قط ضرورة علمية تعالى بالوقوع أو اللاوقوع بل تحمل على اعتبار حال السامع أو أمر آخر يناسب المقام وتقديم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذي ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت في شرف الوقوع فزجر الناس عن النكوص (١) عنده وحملهم على الثبوت هناك أهم ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام وهو الخلو بالموت دون القتل . روى أنه لما التقى الفشتان حمل أبو دجانة في نفر من المسلمين على المشركين فقاتل قتالاً شديداً وقاتل على بن أبي طالب رضي الله عنه قتالاً عظيماً حتى التوى سيفه وكذا سعد بن أبي قاص فقتلوا جماعة من المشركين وهزموهم فلما نظر الرماة إليهم ورأوا أنهم قد انهزموا أقبلوا على النهب ولم يلتفتوا إلى نهي أميرهم عبد الله بن جبير فلم يبق منهم عنده إلا ثمانية نفر فلما رآهم خالد بن الوليد قد اشتغلوا بالغنيمة حمل عليهم في مائتين وخمسين فارساً من المشركين من قبل الشعب وقتلوا من بقي من الرماة ودخلوا خلف أفضية المسلمين ففرقوهم وهزموهم وحملوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلواهم حتى أصيب هناك نحو ثلاثين رجلاً كل منهم يجثو بين يديه ويقول وجهي لوجهك وقاء نفسي لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع ورمى عبد الله بن قيسمة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه الكريم فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتلته ابن قيسمة وهو يزعم أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم فقال قتلت محمداً وصرخ صارخ قيل إنه إبليس ألا أن محمداً قد قتل فانكفأ الناس وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى عباد الله قال كعب بن مالك

كنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين فنذيت بأعلى صوتي يامعشر المسلمين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحملوه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقيون وقال بعضهم ليت ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قتل ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم فقال أنس بن النضر وهو عم أنس بن مالك . يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا كما ما على ما مات عليه ثم قال اللهم إني أعوذ بك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به (١) هؤلاء ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل وتجويزهم لقتله عليه الصلاة والسلام مع قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) لما أن كل آية ليس يسمعها كل أحد ولا كل من يسمعها يستحضرها في كل مقام لاسيما في مثل ذلك المقام الهائل وقد غفل عمر رضى الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته عليه الصلاة والسلام وقام في الناس فقال إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي (٢) وأن رسول الله ما مات ولسكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يزل يكرر ذلك إلى أن قام أبو بكر رضى الله عنه فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية قل الراوى والله لساكن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها أبو بكر وقال عمر رضى الله عنه والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر رضى الله عنه يتلوها فغفرت حتى ماتت حتى رجلاى وعرفت أن

(٢) في ١١ قد مات .

(١) للروى : مما صنع . . مما فعل .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ﴿ومن يثقلب على عقبه﴾ بإدباره عما كان يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الجهاد وغيره وقيل بارتداده^(١) عن الإسلام وما ارتد يومئذ أحد من المسلمين إلا ما كان من المنافقين .

﴿فإن يضر الله﴾ بما فعل من الانقلاب ﴿شيئاً﴾ أى شيئاً من الضرر وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وسيجزى الله الشاكرين﴾ أى الثابتين على دين الإسلام الذى هو أجل نعمة وأعز معروف سموا بذلك لأن الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه وفيه إيماء إلى كفران المنقلبين . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بهم الطائعون لله تعالى من المهاجرين والأنصار وعن علي رضى الله عنه أبو بكر وأصحابه رضى الله عنهم وعنه رضى الله عنه أنه قال أبو بكر من الشاكرين ومن أحباء الله تعالى وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن جزائهم .

﴿وما كان لنفس أن تموت﴾ كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذراً من قتلهم وبناء على الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام ببيان أن موت كل نفس منوط بمشيئة الله عز وجل لا يكاد يقع بدون تعلّقها به وإن خاضت موارد الختوف واقتحمت مضائق كل هول وخوف وقد أشير بذلك إلى أنها لم تكن متعلقة بموتهم في الوقت الذى حذروه فيه ولذلك لم يقتلوا حينئذ لا لإحجامهم عن مباشرة القتال وكتابة كان ناقصة اسمها أن تموت وخبرها الظرف على أنه متعلق بمحذوف .

وقوله تعالى ﴿إلا بإذن الله﴾ استثناء مفرغ من أعم الأسباب أى وما كان الموت حاصلًا لنفس من النفوس بسبب من الأسباب إلا بمشيئته تعالى على أن الإذن مجاز منها لكونها من لوازمه أو إلا بإذنه لملك الموت في قبض روحها وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة إلى النفوس بصورة

الأفعال الاختيارية التي لا يتسنى للفاعل إيقاعها والإقدام عليها بدون إذنه تعالى أو بتنزيل إقدامها على مبادئه أعنى القتال منزلة الإقدام على نفسه للبالغته في تحقيق المرام فإن موتها حيث استحال وقوعه عند إقدامها عليه أو على مبادئه وسعيها في إيقاعه فلأن يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر وفيه من التحريض على القتال ما لا يخفى ﴿كتابا﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أى كتبه الله كتابا ﴿موجلا﴾ مؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ولو ساعة وقرىء موجلا بالواو بدل الهمزة على قياس التخفيف وبعد تحقيق أن مناط^(١) الموت والحياة محض مشيئة الله عز وجل من غير أن يكون فيه مدخل لأحد أصلا أشير إلى أن توفية ثمرات الأعمال دائرة على إرادتهم ليصرفوها عن الأغراض الدنيئة إلى المطالب السنية فليل.

﴿ومن يرد﴾ أى بعمله ﴿ثواب الدنيا نؤته﴾ بنون العظمة على طريق الالتفات ﴿منها﴾ أى من ثوابها ما نشاء أن نؤتيه إياه كما فى قوله عز وجل (من كان يريد العاجلة نجعلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) وهو تعريض بمن شغلهم الغنائم يؤمئذ وقد مر تفصيله ﴿ومن يرد﴾ أى بعمله ﴿ثواب الآخرة نؤته منها﴾ أى من ثوابها ما نشاء من الأضعاف حسبا جرى به الوعد الكريم ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ نعمة الإسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى والقدر إلى ما خلقت هى لأجله من طاعة الله تعالى لا يلوهم عن ذلك صارف أصلا والمراد بهم إما المجاهدون المعهودون من الشهداء وغيرهم وإما جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولا أولياء والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ووعد بالمازى عليه وفى تصديرها بالسين وإيهام الجزاء من التأكيد والدلالة على نخامة شأن الجزاء وكونه بحيث يقصر عنه البيان ما لا يخفى وقرىء الأفعال الثلاثة بالياء.

﴿وكأن﴾ كلام مبتدأ ناع عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم

عن سنن الربانيين المجاهدين في سبيل الله مع الرسل الخالين^(١) عليهم السلام وكأين لفظة مركبة من كاف التشبيه وأى حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث في كذا وكذا والنون تنوين أثبتت في الخط على غير قياس وفيها خمس لغات هي إحداهن والثانية كأن مثل كاعن والثالثة كآين مثل كعين والرابعة كيثن بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهى قلب ما قبلها والخامسة كآن مثل كمن وقد قرىء بكل منها وحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى ﴿من نبي﴾ تمييز لها لأنها مثل كم الخبرية وقد جاء تمييزها منصوبا كما في قوله

أطرد اليأس بالرجاء فكأين آملا حم يسره بعد عسر

وقوله تعالى ﴿قاتل معه ربيون كثير﴾ خبر لها على أن الفعل مسند إلى الظاهر والرباط هو الضمير المجرور في معه وقرىء قتل وقيل على صيغة المبني للمفعول مخففة ومشددة والربى منسوب إلى الرب كالربانى وكسر الراء من تغييرات النسب وقرىء بضمها وفتحها أيضاً على الأصل وقيل هو منسوب إلى الربة وهى الجماعة أى كثير من الأنبياء قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه علماء أتقياء أو عابدون أو جماعات كثيرة^(٢) فالظرف متعلق بقاتل أو بمحذوف وقع حالا من فاعله كما في القراءتين الأخيرتين إذ لا احتمال فيهما لتعلقه بالفعل أى قتلوا أو قتلوا كائنين معه في القتال لا في القتل قال سعيد بن جبير ما سمعنا بنى قتل في القتال وقال الحسن البصرى وجماعة من العظماء لم يقتل نبي في حرب قط وقيل الفعل مسند إلى ضمير النبي والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا منه والرباط هو الضمير المجرور الراجع إليه وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا خوف أى كم نبي قاتل كائنا معه في القتال ربيون كثير وأما على القراءتين الأخيرتين فغير ظاهر لا سيما على قراءة التشديد وقد جوز به بعضهم وأيده بأن مدار التوبيخ انخذاً لهم للإرجاف يقتله عليه السلام أى كم من نبي قتل كائنا معه في القتال أو في القتال ربيون الخ وقوله تعالى :

(١) فى ط : الحالية .

(٢) فى ١١ كثيرون .

﴿فما وهنوا﴾ عطف على قاتل على أن المراد به عدم الوهن المتوقع من القتال كما في قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فإن الإتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه بحسب الظاهر ولكنه بحسب الحقيقة صنع جديده مصحح له دخول الفاء المرتبة له على ما قبله أى فافتروا وما انكسرت هممتهم ﴿لما أصابهم﴾ فى أثناء القتال وهو علة للمنفى دون النفى نعم يشعر بملته قوله تعالى ﴿فى سبيل الله﴾ فإن كون ذلك فى سبيله عز وجل مما يقوى قلوبهم ويزيل وهنهم وما موصولة أو موصوفة فإن جعل الضمير ان جميع الربيين فى عبارة عما عدا القتل من الجراح وسائر المكاهر المعترية للسكل وإن جعلنا للبعض الباقيين بعد ما قتل الآخرون كما هو الأليق^(١) بمقام توبيخ المنخذلين بعد ما استشهد الشهداء فى عبارة عما ذكر مع ما اعتراهم من قتل إخوانهم من الخوف والحزن وغير ذلك هذا على القراءة المشهورة وأما على القراءتين الأخيرتين فإن أسند الفعل إلى الربيين فالضمير ان للباقيين منهم حتما وإن أسند إلى ضمير النبي كما هو الأنسب بالتوبيخ على الانخذال بسبب الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام فهما للباقيين أيضا إن اعتبر كون الربيين مع النبي فى القتل وللجميع إن اعتبر كونهم معه فى القتال ﴿وما ضعفوا﴾ عن العدو وقيل عن الجهاد وقيل فى الدين ﴿وما استكانوا﴾ أى وما خضعوا للعدو وأصله استمكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد والألف من إشباع الفتحة أو استمكن من السكون لأنه يطلب أن يكون لمن يخضع له وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند استيلاء الكفرة عليهم والإرجاف بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعترضوا بابن أبى المنافق فى طلب الأمان من أبى سفيان ﴿والله يحب الصابرين﴾ أى على مقاساة الشدائد ومعاونة المكاهر فى سبيل الله فينهبرهم ويعظم قدرهم والمراد بالصابرين إما المعهودين والإظهار

في موضع الإضمار للشناء عليهم بحسن الصبر والإشعار بعلّة الحكم وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة تذييل لما قبلها .

﴿ وما كان قولهم ﴾ كلام مبين لمحاسنهم القولية معطوف على ما قبله من الجمل المبينة لمحاسنهم وقولهم بالنصب الفعلية خبر لكان واسمها أن وما بعدها في قوله تعالى ﴿ إلا أن قالوا ﴾ والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ما كان قولهم عند أى لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأحوال شيء من الأشياء إلا أن قالوا ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ أى صغائرنا ﴿ ولإسرافنا في أمرنا ﴾ أى تجاوزنا الحد في ركوب الكبرياء أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط في جنب الله تعالى هضما لهم واستصغاراً (١) لهممهم وإسنادا لما أصابهم إلى أعمالهم وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أى في مواطن الحرب والتقوية والتأييد من عندك أو ثبتنا على دينك الحق ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ تقريرا له إلى حيز القبول فإن الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوم شائبة الجزع والخور والتزلزل في مواقف الحرب ومرصد الدين وفيه من التمريض بالمنهزمين مالا يخفى وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية عنهما برفع قولهم على أنه الاسم والخبر أن وما في حيزها أى ما كان قولهم حينئذ شيئا من الأشياء إلا هذا القول المنبئ عن أحسن (٢) المحاسن وهذا كما ترى أقمد بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أن الإخبار بكون قولهم المطلق خصوصية قولهم المحكى عنهم منفصلا كما تفيدته قراءتهما أكثر إفادة للسامع من الإخبار بكون خصوصية قولهم المذكور قولهم لما أن مصب الفائدة وموقع البيان في الجمل الخبرية هو الخبر فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة

(٢) في ط : أحسن .

(١) في ط : واستصغارا .

من الوقوع في الخارج وفي ذهن السامع ولا يخفى أن ذلك ههنا في أن مع ما في خيزها أتم وأكمل وأما ما تفيدته الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية. فحيث كانت سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة إجمالية وتجعل عنوانا للموضوع لا مقصودا بالذات في باب البيان وإنما اختار الجمهور ما اختاره لقاعدة صناعية هي أنه إذا اجتمع معرفتان فالأعرف منهما أحق بالإسمية ولا ريب في أعرافية أن قالوا للدلالة على جهة النسبة وزمان الحدث ولأنه يشبه المضمهر من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به وقولهم مضاف إلى مضمهر فهو بمنزلة العلم فتأمل .

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ بسبب دعائهم ذلك ﴿ ثَوَابِ الدُّنْيَا ﴾ أى النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿ وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ الْحَسَنَ وَهُوَ الْجَنَّةُ وَالنَّعِيمُ الْخُلْدُ وَتَخْصِيصُ وَصَفِ الْحَسَنِ بِهِ لِلْإِيْذَانِ بِفَضْلِهِ وَمَزِيَّتِهِ وَأَنَّهُ الْمَعْتَدُ بِهِ عِنْدَهُ تَعَالَى ﴾ وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ تَذِيلٌ مَقَرَّرٌ لِمُضْمُونٍ ^(١) مَا قَبْلَهُ فَإِنَّ حُبَّ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ عِبَارَةٌ عَنْ رِضَاهُ عَنْهُ وَإِزَادَةُ الْخَيْرِ بِهِ فَهِيَ مَبْدَأُ لِكُلِّ سَعَادَةٍ وَالْإِيمَانُ لِمَا لِلْعَبْدِ وَإِنَّمَا وَضَعَ الْمَظْهَرُ مَوْضِعَ ضَمِيرِ الْمُعْهُودِينَ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُمَا حَكِي عَنْهُمْ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ وَإِمَّا لِلْجَنَسِ وَهُمْ دَاخِلُونَ فِيهِ دَخُولًا أَوَّلِيًّا وَهَذَا أَنْسَبُ بِمَقَامِ تَرْغِيبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَحْصِيلِ مَا حَكَى عَنْهُمْ مِنَ الْمُنَاقِبِ الْجَلِيلَةِ .

من دستور الحرب

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ شروع في زجرهم عن متابعة الكفار ببيان استتباعها لحسن الدنيا والآخرة لإثر ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء إفضاءها ^(٢) إلى فوزهم بسعادة الدارين وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيزه ووصفهم بالإيمان لتذكير حالهم وتبتيهتهم عليها بإظهار

(١) في ١ : يقرر مضمون .

(٢) في ط : إفضاءه .

مباينتها لحال أعدائهم كما أن وصف المنافقين بالكفر في قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لذلك قصدا إلى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم قال على رضى الله عنه نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم فوقوع قوله تعالى : ﴿ يردوكم على أعقابكم ﴾ جوابا للشرط مع كونه في قوة أن يقال إن تطيعوهم في قولهم ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم يدخلوكم في دينهم باعتبار كونه تمهيدا لقوله تعالى : ﴿ فَتَنَقَّلُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى للدنيا والآخرة غير فائزين بشئ منهما واقعين في العذاب الخالد على أن الارتداد على العقب علم على انتكاس الأمر ومثل في الحور بعد الكور وقيل المراد بهم اليهود والنصارى حيث كانوا يستخونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين ويقولون لو كان نبيا حقاً لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما عليه ويوما له وقيل أبو سفيان وأصحابه والمراد بطاعتهم استئمانهم والاستكانة لهم وقيل الموصول على عمومته والمعنى نهى المؤمنين عن طاعتهم في أمر من الأمور حتى لا يستجروهم إلى الارتداد عن الدين فلا حاجة على هذه التقادير إلى ما مر من البيان .

﴿ بل الله مولاكم ﴾ إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية كأنه قيل فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم لا غيره فأطيعوه واستعينوا به عن موالاتهم وقرىء بالنصب كأنه قيل فلا تطيعوهم بل أطيعوا الله ومولاكم نصب على أنه صفة له ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ خصوه بالطاعة والاستعانة ﴿ سئل ﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات جريا على سنن الكبرياء التقوية^(١) المهابة وقرىء بالياء والسين لتأكيد الإلقاء ﴿ في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ بسكون العين وقرىء بضمها على الأصل وهو ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ولهم القوة والغلبة وقيل ذهبوا إلى

مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم فعند ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب فأمسكوا فلا بد من كون نزول الآية في تضاعيف الحرب أو عقيب انتقضائها^(١) وقيل هو ما ألقى في قلوبهم من الرعب يوم الأحزاب ﴿بما أشركوا بالله﴾ متعلق بخلق دون الرعب وما مصدرية أى بسبب إشرأكم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ونصر المؤمنين عليهم وكلاهما من دواعي الرعب ﴿مالم ينزل به﴾ أى بإشرأكم ﴿سلطاناً﴾ أى حجة سميت به لوضوحها ولإنارتها أو لقوتها أو لحديثها ونفوذها وذكر عدم تنزيلها مع استعالة تحققها في نفسها من قبيل قوله :

• ولا ترى الضب بها ينجحر •

أى لا ضب ولا انجحر وفيه إيذان بأن المتبع في الباب هو البرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة .

﴿وماوهم﴾ بيان لأحوالهم في الآخرة إثر بيان أحوالهم في الدنيا وهى الرعب أى ما يأوون إليه في الآخرة ﴿النار﴾ لاملجأ لهم غيرها ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ أى مثواهم وإنما وضع موضعه المظهر المذكور للتخليط والتعليل والإشعار بأنهم في إشرأكم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أى بئس مثوى الظالمين النار وفى جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم نوع رمز إلى خلودهم فيها فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المسكن وأما المأوى فهو المسكن الذى يأوى إليه الإنسان ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ نصب على أنه مفعول ثان لصدق صريحاً وقيل بنزع الجار أى فى وعده نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى بالنصر وهو ما وعدهم على لسان نبيه عليه السلام من النصر

(١) في ط : انتقضائه •

حيث قال للرماة لا تبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتتم مكانكم وفي رواية أخرى لا تبرحوا عن هذا المكان فإننا لانزال غالبين ما دمتم في هذا المكان وقد كان كذلك فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلا ذريعا وذلك قوله تعالى :

﴿ إذ تحسبهم ﴾ أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا من حسبه إذا أبطل حسبه وهو ظرف لصدقكم وقوله تعالى : ﴿ يا ذنه ﴾ أى بتيسيره وتوفيقه لتحقيق أن قتلهم بما وعدهم الله تعالى من النصر وقيل هو ما وعدهم بقوله تعالى (إن تصبروا وتتقوا) الآية وقد مر تحقيق أن ذلك كان يوم بدر كيف لا والموعود بما ذكر إيمانه عز وجل بإنزال الملائكة عليهم السلام وتقبيد صدق وعده تعالى بوقت قتلهم يا ذنه تعالى صريح في أن الموعود هو النصر المعنوى والتيسير لا الإمداد بالملائكة وقيل هو ما وعده تعالى بقوله سنلقى الخ وأنت خبير بأن اللقاء الرب كان عند تركهم القتال ورجوعهم من غير سبب أو بعد ذلك في الطريق على اختلاف [في] ^(١) الروايتين وأياً ما كان فلا سبيل إلى كونه مغيا بقوله تعالى ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ أى جبنتم وضعف رأيكم أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف القلب ﴿ وتنازعتم في الأمر ﴾ فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون وولوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلا وضربا فما موقفا هنا بعد هذا وقال أميرهم عبد الله بن جبير رضى الله عنه لا نخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فثبت مكانه في نفردون العشرة من أصحابه ونفر الباكون للنهب وذلك قوله تعالى :

﴿ وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ أى من الظفر والغنيمة وانهزام العدو فلما رأى المشركون ذلك حملوا عليهم من قبل الشعب وقتلوا أمير الرماة ومن معه من أصحابه حسبما فصل في تفسير قوله تعالى (أفإن مات أو قتل انقلبتم

سورة آل عمران

٥٧٩

على أعقابكم) وجواب إذا محذوف وهو منعكم نصره وقيل امتحنكم ويرده جعل
الابتلاء غاية للصرف المترتب على منع النصر وقيل هو انقسمتم إلى قسمين
كما ينبي عنه قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين تركوا المركز
وأقبلوا على النهب ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى
نالوا شرف الشهادة هذا على تقدير كون إذا شرطية وحتى ابتدائية داخلية على
الجملة الشرطية وقيل إذا اسم كما في قولهم إذا يقوم زيد يقوم عمرو وحتى حرف
جر بمعنى إلى المتعلقة بقوله تعالى صدقكم باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيل
لقد نصركم الله إلى وقت فشلكم وتنازعكم الخ وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ثم صرفكم
عنهم﴾ حتى حالت الحال ودالت الدولة وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى
﴿ليبتليكم﴾ أى يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب ليظهر ثباتكم على الإيمان
عندها ﴿واقعد عفا عنكم﴾ تفضلا ولما علم من ندمكم على المخالفة ﴿والله ذو
فضل على المؤمنين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤذن بأن ذلك العفو
بطريق التفضل والإحسان لا بطريق الوجوب عليه أى شأنه أن يتفضل
عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال أدب عليهم إذ الابتلاء
أيضا رحمة والتذكير للتفخيم والمراد بالمؤمنين إما المخاطبون والإظهار فى
موقع الإضمار للتشريف والإشعار بعلة الحكم ولما الجنس وهم داخلون فى
الحكم دخولا أوليا ﴿إذ تصعدون﴾ متعلق بصرفكم أو بقوله تعالى :
ليبتليكم أو بمقدر كما ذكرنا والإصعاد الذهاب والإبعاد فى الأرض وقرىء
بثلاثى أى فى الجبل وقرىء تصعدون من التفعّل بطرح إحدى التاءين وقرىء
تصعدون من يصعدون بالالتفات إلى الغيبة .

﴿ولا تلوون على أحد﴾ أى لا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد
منكم لواحد وقرىء تلوون بواو واحدة بقلب الواو المضمومة همزة وحذفها
تخفيفا وقرىء يلوون كيصعدون ﴿والرسول يدعوك﴾ كان عليه الصلاة والسلام
يدعوهم إلى عباد الله أنا رسول الله من يكره له الجنة وإيراده عليه السلام
ب عنوان الرسالة للإيذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته

سبحانه لإشباعاً في توبيخ المنهزمين ﴿ في أخراكم ﴾ في ساقتهكم وجماعتكم
الأخرى ﴿ فأنابكم ﴾ عطف على صرفكم أى فجازاكم الله تعالى بما صنعتم
﴿ غما ﴾ موصولاً ﴿ بغم ﴾ من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين
والإرجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وفوت الغنيمة فالتشكيك للتشكيك
أو غما بمقابلة غم أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له ﴿ لسكراناً
تحنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ﴾ أى لتتحنوا على الصبر في الشدائد فلا
تحنوا على نفع فات أو ضرر آت وقيل لا زائدة والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم
من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجراح والهنيم عقوبة لكم وقيل
الضمير في أنابكم للرسول صلى الله عليه وسلم أى وإسألكم في الاغتمام فاغتم بما
نزل عليكم كما اغتمتم بما نزل عليه ولم يترككم على عصيانكم تسليمة لكم
وتنفيساً لكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر وما أصابكم من الجراح
وغير ذلك ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أى عالم بأعمالكم وبما أردتم^(١) بها .

﴿ ثم أنزل عليكم ﴾ عطف على قوله تعالى فأنابكم والخطاب للمؤمنين
حقاً ﴿ من بعد الغم ﴾ أى الغم المذكور والتصريح بتأخر الإنزال عنه مع
دلالة ثم عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان ونذكير عظم النعمة كما في قوله تعالى
﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحو ﴾ الآية ﴿ أمانة ﴾ أى أمانة نصب على المفعولية
وقوله تعالى ﴿ نعاساً ﴾ بدل منها أو عطف بيان وقيل مفعول له أو هو المفعول
وأمانة حال منه متقدمة عليه أو مفعول له حال من المخاطبين على تقدير مضاف
أى ذو أمانة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة وقرىء بسكون الميم كأنها مرة من
الآمن وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن
المقدم والتشويق إلى المؤخر وتخصيص الخوف من بين فنون الغم بالإزالة لأنه
المهم عندهم حينئذ لما أن المشركين لما انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين
بالرجوع فلم يأمنوا كرتهم وكانوا تحت الحيف متأهبين للقتال فأنزل الله تعالى

(١) في ط : قصدتم .

عليهم الأمانة فأخذهم النعاس . قال ابن عباس رضى الله عنهما أمنهم يومئذ بنعاس
تغشاهم بعد خوف وإلما ينعس من أمن والخائف لا ينام وقال الزبير رضى الله
عنه كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأنزل الله علينا النوم
والله لما نرى أسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمع إلا كالحلم يقول
لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا وقال أبو طلحة رضى الله عنه رفعت
رأسي يوم أحد فجعلت لا أرى أحدا من القوم إلا وهو يمد تحت حجفته من
النعاس . قال وكنت ممن ألقى عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدي
فأخذه ثم يسقط السوط من يدي فأخذه وفيه دلالة على أن من المؤمنين من
لم يلق عليه النعاس كما ينبغي عنه قوله عز وجل :

﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ قال ابن عباس هم المهاجرون وعامة الأنصار
ولا يقدح ذلك في عموم الإنزال للكل والجملة في محل النصب على أنها صفة
لنعاسا وقرىء بالتاء على أنها صفة لأمنة وفيه أن الصفة حقها أن تتقدم على البدل
وعطف البيان وأن لا يفصل بينها وبين الموصوف بالمفعول له وأن المعهود أن
يحدث عن البدل دون المبدل منه ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ أى أوقعتهم
في الهموم والأحزان أو ما بهم إلا هم أنفسهم وقصد خلاصها من قولهم همى
الشيء أى كان من همى وقصدى والقصر مستفاد بمعونة المقام وطائفة مبتدأ
وما بعدها إما خبرها وإلما جاز ذلك مع كونها نكرة لاعتمادها على واو الحال
كما في قوله :

سرينا ونجم قد أضاء فذ بدا محياك أخفى ضوءه كل شارق

أو لوقوعها في موضع التفصيل كما في قوله :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول

وإما صفتها والخبر محذوف أى ومعكم طائفة أو وهناك طائفة وقيل تقديره
ومنكم طائفة وفيه أنه يقتضى دخول المنافقين في الخطاب بإزالة الأمانة

وأيا ما كان فالجملة إما حالية مبينة لفظاً لفظاً الهول مؤكدة لعظم النعمة في الخلاص عنه كما في قوله تعالى ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ وإما مستأنفة مسوقة لبيان حال المنافقين وقوله عز وجل ﴿يظنون بالله﴾ حال من ضمير أهمهم أو من طائفة لتخصيصها بالصفة أو صفة أخرى لها أو خبر بعد خبر أو استئناف مبين لما قبله وقوله تعالى ﴿غير الحق﴾ في حكم المصدر أى يظنون به تعالى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه وقوله تعالى ﴿ظن الجاهلية﴾ بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية والإضافة كما في حاتم الجود ورجل صدق وقوله تعالى :

﴿يقولون﴾ بدل من يظنون لما أن مسئلتهم كانت صادرة عن الظن أى يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة الاسترشاد ﴿هل لنا من الأمر﴾ أى من أمر الله ووعدده من النصر والظفر ﴿من شيء﴾ أى من نصيب قط أو هل لنا من التدبير من شيء وقوله تعالى ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ أى إن الغلبة بالآخرة لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون أو أن التدبير كله لله فإنه تعالى قد نذر الأمر كما جرى في سابق قضائه فلا مرد له وقرىء كله بالرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿يخفون في أنفسهم﴾ أى يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿ما لا يمدون لك﴾ استئناف أو حال من ضمير يقولون وقوله تعالى قل إن الأمر الخ اعتراض بين الحال وصاحبها أى يقولون ما يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الإنكار والتكذيب وقوله تعالى ﴿يقولون﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ عما قبله كأنه قيل أى شيء يخفون فقليل يحدثون أنفسهم أو يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية ﴿لو كان لنا من الأمر شيء﴾ كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام من أن الغلبة لله تعالى ولأوليائه وأن الأمر كله لله أو لو كان لنا من التدبير والرأى شيء ﴿ما قتلنا ههنا﴾ أى ما غلبنا أو ما قتل من قتل منا في هذه المعركة على أن النفي راجع إلى نفس القتل لا إلى وقوعه فيها فقط ولما برحنا من منازلنا كما رآه ابن ابى ويؤيده تعيين مكان القتل وكذا قوله تعالى :

﴿ قل لو كنتم في بيوتكم ﴾ أى لو لم تخرجوا إلى أحد وقعدتم بالمدينة كما تقولون ﴿ لبرز الذين كتب عليهم القتل ﴾ أى فى اللوح المحفوظ بسبب من الأسباب الداعية إلى البروز ﴿ إلى مضاجعهم ﴾ إلى مصارعهم التى قدر الله تعالى قتالهم فيها وقتلوا هنالك البتة ولم تنفع العزيمة على الإقامة بالمدينة قطعا فإن قضاء الله تعالى لا يرد وحكمه لا يعقب وفيه مبالغة فى رد مقاتلتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما فى قوله عز وجل (أينما تكونوا يدرككم الموت) بل عين مكانه أيضا ولا ريب فى تعيين زمانه أيضا لقوله تعالى (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) روى أن ملك الموت حضر مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام فنظر إلى رجل من أهل المجلس نظرة هائلة فلما قام قال الرجل من هذا فقال سليمان عليه السلام ملك الموت قال أرسلنى مع الريح إلى عالم آخر فإنى رأيت منه مرأى هائلا فأمرها عليه السلام فألقته فى قطر سحيق من أقطار العالم فما لبث أن عاد ملك الموت إلى سليمان عليه السلام فقال كنت أمرت بقبض روح ذلك الرجل فى هذه الساعة فى أرض كذا فلما وجدته فى مجلسك قلت متى يصل هذا إليها وقد أرسلته بالريح إلى ذلك المكان فوجدته هناك فقضى أمر الله عز وجل فى زمانه ومكانه من غير إخلال بشيء من ذلك وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القتل وقرىء كتب عليهم القتال وقرىء لبرز بالتشديد على البناء للمفعول ﴿ وليبتلى الله ما فى صدوركم ﴾ أى ليعاملكم معاملة من يبتلى ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ويظهر ما فيها من السرائر وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للإيدان بكثرتها كأنه قيل فعل ما فعل لمصالح جمّة وليبتلى الخ وجعلها عللا لبرز ياباه الذوق السليم فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والحوادث لا بيان حكمة البروز المفروض أو الفعل مقدر بعدها أى وللابتلاء المذكور فعل ما فعل لا لعدم العناية بأمر المؤمنين ونحو ذلك وتقدير الفعل مقدما خال عن هذه المزية .

﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾ من مخفيات الأمور ويكشفها أو يخلصها من الوسوس ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ أى السرائر والضمائر الخفية التى لا تسكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها والجملة إما اعتراض للتنبيه على أن الله تعالى غنى عن الابتلاء وإنما يبرز صورة الابتلاء لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين أو حال من متعلق الفعلين أى فعل ما فعل للابتلاء والتمحيض والحال أنه تعالى غنى عنهما محيط بمخفيات الأمور وفيه وعد ووعد ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾ وهم الذين انهمزوا يوم أحد حسبما مرت حكايته ﴿إنما استزلمهم الشيطان﴾ أى إنما كان سبب انهمزهم أن الشيطان طلب منهم الزلل ﴿ببعض ما كسبوا﴾ من الذنوب والمعاصى التى هى مخفية أمر النبي صلى الله عليه وسلم وترك المركز والحرص على الغنيمة أو الحياة فخرموا التأييد وقررة القلب وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بذنوب تقدمت لهم فإن المعاصى يجر بعضها إلى بعض كالطاعة وقيل استزلمهم بذنوب سبقت منهم وكرهوا القتل قبل لإخلاص التوبة والخروج من المظلمة ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿إن الله غفور﴾ للذنوب ﴿حليم﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب والجملة تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق وفى إظهار الجلالة تربية للهابية وتأكيد للتعليل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ وهم المنافقون القائلون ولو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ههنا وإنما ذكر فى صدر الصلة كفرهم تصريحاً بمباينة حالهم للمؤمنين وتنفيراً عن مماثلتهم آثر ذى أثر وقوله تعالى .

﴿وقالوا لإخوانهم﴾ تعيين لوجه الشبه والمماثلة التى نهوا عنها أى قالوا لأجلهم وفى حقهم ومعنى أخوتهم اتفاقهم نسباً أو مذهباً ﴿إذا ضربوا فى الأرض﴾ أى سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها وإيثار إذا المفيدة لمعنى الاستقبال على إذا المفيدة لمعنى المضى لحكاية الحال الماضية إذ المراد بها الزمان المستمر المنتظم للحال الذى عليه يدور أمر استحضار الصورة . قال الزجاج إذا ههنا تنوب عما مضى من الزمان وما يستقبل يعنى أنها مجرد الوقت أو يقصد

بها الاستمرار وظرفيتها لقولهم إنما هي باعتبار ما وقع فيها بل التحقيق أنها ظرف له لا لقولهم كأنه قيل قالوا لأجل ما أصاب إخوانهم حين ضربوا الخ ﴿أو كانوا﴾ أي إخوانهم ﴿غزا﴾ جمع غاز كغفى جمع عاف قال :
ومغبرة الآفاق خاشعة الصوى لها قلب عافى الحياض أجون

وقرىء بتخفيف الزاى على حذف التاء من غزاة وإفراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجهم تحت الضرب فى الأرض لأنه المقصود ببيانه فى المقام وذكر الضرب فى الأرض توطئة له وتقديمه لسكثرة وقوعه على أنه قد يوجد بدون الضرب فى الأرض إذ المراد به السفر البعيد وإنما لم يقل أو غزوا للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة أو بانقضاء ذلك أى كانوا غزا فيما معنى وقوله تعالى ﴿لو كانوا عندنا﴾ أى مقيمين ﴿ما مانوا وما قتلوا﴾ مفعول لقولنا دليل على أن هناك مضمرأ قد حذف ثقة به أى إذا ضربوا فى الأرض فقاتوا أو كانوا غزا فقتلوا وليس المقصود بالنهى عدم مائلتهم فى النطق بهذا القول بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه كما أنه المنكر على قائله ألا يرى إلى قوله عز وجل :

﴿ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم﴾ فإنه الذى جعل حسرة فيها قطعاً وإليه أشير بذلك كما نقل عن الزجاج أنه إشارة إلى ظنهم أنهم لو لم يحضروا القتال لم يقتلوا وتعلقه بقولوا ليس باعتبار نطقهم بذلك القول بل باعتبار ما فيه من الحكم والاعتقاد واللام لام للعاقبة كما فى قوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما على ذلك أصلاً وقيل هو تعليل للنهى بمعنى لا تكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ليحمله الله تعالى حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم فذلك كما مر إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد ويجوز أن يكون إشارة إلى ما دل عليه النهى أى لا تكونوا مثلهم ليحمله الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم فإن مصادكم لهم فى القول والاعتقاد مما يغمرهم

ويعظيهم ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ رد لباطلهم^(١) إثر بيان غائلته أى هو المؤثر في الحياة والمات وحده من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل في ذلك فإنه تعالى قد يحيي المسافرين والغازي مع اقتحامهما لموارد الحتوف ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لأسباب السلامة ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم وقرىء بالياء على أنه وعيد للذين كفروا وما يعملون عام متناول لقولهم المذكور ولمنشئه الذي هو اعتقادهم ولما ترتب على ذلك من الأعمال ولذلك تعرض لعنوان البصر لا لعنوان السمع وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد .

﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم ﴾ شروع في تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو والسفر من القتل والموت في سبيل الله تعالى ليس مما ينبغي أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون إثر إبطال ترتبه عليهما واللام هي الموصوطة للقسم وما في قوله تعالى ﴿ لمغفرة من الله ورحمة ﴾ لام الابتداء والتنوين في الموضعين للتقاعيل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة للبتداء وقد حذفت صفة رحمة لدلالة المذكور عليها والجملة جواب للقسم ساد مسد جواب الشرط والمعنى أن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل أصلاً ولئن وقع ذلك بأمر الله تعالى لنفحة يسيرة من مغفرة ورحمة كائنتين من الله تعالى بمقابلة ذلك ﴿ خير مما يجمعون ﴾ أى الكفرة من منافع الدنيا وطيبانها مدة أعمارهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما خير من طلاع الأرض ذهبة حراء وقرىء بالتاء أى مما تجمعون أنه أنتم لو لم تموتوا والاقتصار على بيان خيريهما من ذلك بلا تعرض للإخبار بحصولهما لهم للإيدان بعدم الحاجة إليه بناء على استحالة التخيب منه تعالى بعد الإطماع وقد قيل لا بد من حذف آخر أى لمغفرة لكم من الله الخ وحيثئذ يكون أيضاً إخراج المقدس مخرج الصفة دون الخبر لشعو ما ذكر من ادعاء الظهور والغنى عن الإخبار به وتغيير الترتيب الواقع في قولهم

ما ماتوا وما قتلوا المبني على كثرة الوقوع وقلته للمبالغة في الترغيب في الجهاد ببيان زيادة مزية القتل في سبيل الله وإنافته في استجلاب المغفرة والرحمة وفيه دلالة واضحة على ما مر من أن المقصود بالنهاي إنما هو عدم مماثلتهم في الاعتقاد بمضمون القول المذكور والعمل بموجبه لا في النطق به وإضلال الناس به .

﴿ ولئن متم أو قتلتم ﴾ أى على أى وجهه اتفق هلاككم حسب تعلق الإرادة الإلهية وقرىء متم بكسر الميم من مات ﴿ لاإلى الله ﴾ أى إلى المعبود بالحق العظيم الشأن الواسع الرحمة الجزيل الإحسان ﴿ تحشرون ﴾ لا إلى غيره فيوفىكم أجوركم ويجزل عطاءكم والسكلام فى لامي الجملة كما مر فى أختها ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب مضمون السكلام على ما ينبى عنه السياق من استحقاقهم للائمة والتعنيف بموجب الجملة البشرية أو من سعة ساحة مغفرته تعالى ورحمته والباء متعلقة بلمت قدمت عليه للقصر وما مزيدة للتوكيد أو نكرة ورحمة بدل منها مبين لإبهامها^(١) والتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لرحمة أى فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله تعالى وهى ربطه على جأشه وتحصيصه بمكارم الأخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف بهم حيث اغتممت لهم بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة أمرك وإسلامك للعدو .

﴿ ولو ﴾ لم تكن كذلك بل ﴿ كنت فظا ﴾ جافيا فى المعاشرة قولا وفعلًا وقال الراغب الفظ هو السكرية الخلق وقال الواحدى هو الغليظ الجانب السىء الخلق ﴿ غليظ القلب ﴾ قاسيه وقال السكبي فظا فى القول غليظ القلب فى الفعل ﴿ لا تفضوا من حولك ﴾ لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا إليك وتردوا فى مهاوى الردى والفناء فى قوله عز وجل ﴿ فاعف عنهم ﴾ لترتيب العفو أو الأمر به على ما قبله أى إذا كان الأمر كما ذكر فاعف عنهم فيما يتعلق بحقوقك كما عفا الله عنهم ﴿ واستغفر لهم ﴾ الله فيما يتعلق بحقوقه تعالى إتماما للشفقة عليهم وإكالا

للبرهم ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ أى في أمر الحرب إذ هو المعهود أو فيه وفي أمثاله مما تجرى فيه المشاورة عادة استظهاراً بآرائهم وتطبيها لقلوبهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة وقرى وشاورهم في بعض الأمر .

﴿ فإذا عزم ﴾ أى عقيب المشاورة على شيء واطمأن به نفسك ﴿ فتوكل على الله ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أرشد لك وأصلح فإن علمه مختص به سبحانه وتعالى وقرى " فإذا عزم على صيغة التكلم أى عزم لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل على ولا تشاور بعد ذلك أحداً والالتفات للتربية الملهمة وتعليل التوكل أو الأمر به فإن عنوان الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال مستدع للتوكل عليه تعالى أو الأمر به ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ عليه تعالى فينصرهم ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ^(١) والجملة تعليل للتوكل عليه تعالى وقوله تعالى ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ جملة مستأنفة سيقى بطريق تلوين الخطاب تشریفاً للمؤمنين لإيجاب توكلهم عليه تعالى وحثهم على اللجأ إليه وتحذيرهم عما يفضى إلى خذلانه أى إن ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم على طريق نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد الغالب ذاتاً وصفة ولو قيل فلا يغلبكم أحد لدل على نفى الصفة فقط ثم المفهوم من ظاهر النظام الكريم وإن كان نفى مغلوبيتهم من غير تعرض لنفى المساواة أيضاً وهو الذى يقتضيه المقام لكن المفهوم منه فهما قطعياً هو نفى المساواة وإثبات الغالبية للمخاطبين فإذا قلت لا أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمفهوم منه حتماً أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا أمر مطرد في جميع اللغات ولا اختصاص له بالنفى الصريح بل هو مطرد فيما ورد على طريق الاستفهام الإنكارى كما في قوله تعالى (ومن أظلم ممن افتري على الله كذباً) في مواقع كثيرة من التنزيل وما هو نص قاطع فيما ذكرنا ما وقع في سورة هود حيث قيل بعده

(١) في ط : خير لهم وصلاح .

في حقهم لا جرم أنهم في الآخرة هم الآخسرون فإن كونهم أخسر من كل خاسر يستدعى قطعاً كونهم أظلم من كل ظالم .

((وإن يخذلكم)) كما فعل يوم أحد وقرى "يخذلكم من أخذه إذا جعله يخذولاً ((فمن ذا الذي ينصركم)) استفهام إنكارى مفيد لانقضاء الناصر ذاتاً وصفة بطريق المبالغة ((من بعده)) أى من بعد خذلانه تعالى أو من بعد الله تعالى على معنى إذا جاوز تموء ((وعلى الله فليتوكل المؤمنون)) تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة قصره عليه تعالى والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به على ما مر من غلبة المخاطبين على تقدير نصرته تعالى لهم ومغلوبيتهم على تقدير خذلانه تعالى إياهم فإن العلم بذلك بما يقتضى قصر التوكل عليه تعالى لا محالة والمراد بالمؤمنين إما الجففس والمخاطبون داخلون فيه دخولاً أولياً وإلا هم خاصة بطريق الالتفات وأياً ما كان ففيه تشریف لهم بعنوان الإيمان اشتراكاً أو استقلالاً وتعليل لتجتم التوكل عليه تعالى فإن وصف الإيمان بما يوجب قطعاً ((وما كان لنبي)) أى وما صح لنبي من الأنبياء ولا استقام له ((أن يغل)) أى يخون في المغنم فإن النبوة تنافيه منافاة بينه يقال غل شيئاً من المغنم يغل غلواً وأغل إغلالاً إذا أخذه خفية والمراد إما تنزيهه ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز وأفاضوا في الغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألم أعمد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتاكم أمرى فقالوا تركنا بقية إخواننا وقوفا فقال عليه السلام بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم بينكم وأما المبالغة في النهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روى أنه بعث طلحة فغنم النبي صلى الله عليه وسلم بعدهم غنائم فقسمها بين الحاضرين^(١) ولم يترك للطلحة شيئاً فنزلت .

(١) في ط : الحاضرين .

والمعنى ما كان لنبي أن يعطى قوما من العسكر ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بين الكل بالسوية وعبر عن حرمان بعض الغزاة بالغلول تغليظا وأما ما قيل من أن المراد تنزيهه عليه السلام عما تنفوه به بعض المنافقين اذ روى أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فبعيد جدا وقرئ على البناء للمفعول والمعنى ما كان له أن يوجد غالا أو ينسب إلى الغلول .

﴿ ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ يأت بالذى غله بعينه يحمله على عنقه كما ورد في الحديث الشريف وروى أنه عليه السلام قال ألا لا أعرفن أحدكم يأتي ببيعير له رغاء وبيقرة لها خوار وبشاة لها نغاء فينادى يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا فقد بلغتك أو يأت بما احتمل من إثمه ووباله ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾ أى تعطى وإياها جزاء ما كسبت خيرا أو شرا كثيرا أو يسيرا ووضع المكسوب موضع جزائه تحقيقا للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب كما وكيفما كأنهما شئ واحد وفى إسناد التوفية إلى كل كاسب وتعليقها بكل مكسوب مع أن المقصود بيان حال الغال عند إتيانه بما غله يوم القيامة من الدلالة على فخامة شأن اليوم وهول مطالعه والمبالغة فى بيان فظاعة حال الغال ما لا يخفى فإنه حيث وفى كل كاسب جزاء ما كسبه ولم ينقص منه شئ وإن كان جرمه فى غاية القلة والحقارة فلأن لا ينقص من جزاء الغال شئ وجرمه من أعظم الجرائم أظهر وأجلى ﴿ وهم ﴾ أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿ لا يظلمون ﴾ بزيادة عقاب أو بنقص ثواب .

﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ أى سعى فى تحصيله وانتحى نحوه حيثما كان بفعل الطاعات وترك المنكرات كالنبي ومن يسير بسيرته ﴿ كمن بآء ﴾ أى رجع ﴿ بسخط ﴾ عظيم لا يقادر قدره كائن ﴿ من الله ﴾ تعالى بسبب معاصيه كالغال ومن يدين بدينه والمراد تأكيد نفى الغلول عن النبي عليه الصلاة والسلام

وتقريره بتحقيق المباينة السكينة بينه وبين الغال حيث وصف كل منهما بنقيض ما وصف به الآخر فقبول رضوانه تعالى بسخطه والاتباع بالبهو والجمع بين الهمزة والفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المماثلة بينهما والحكم بها على ما ذكر من حال الغال كأنه قيل أبعد ظهور حاله يكون من ترقى إلى أعلى عليين كمن تردى إلى أسفل سافلين وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإدخال الروعة وتربية المهابة ﴿وماواه جهنم﴾ إما كلام مستأنف مسوق لبيان مآل أمر من باء بسخطه تعالى وإما معطوف على قوله تعالى باء بسخط عطف الصلة الاسمية على الفعلية وأيا ما كان فلا محل له من الإعراب ﴿وبئس المصير﴾ اعتراض تذييلي والمخصوص بالذم محذوف أى وبئس المصير جهنم والفرق بينه وبين المرجع أن الأول يعتبر فيه الرجوع على خلاف الحالة الأولى بخلاف الثانى ﴿هم﴾ راجع إلى الموصولين باعتبار المعنى ﴿درجات عند الله﴾ أى طبقات متفاوتة فى عليه تعالى وحكمه شبهوا فى تفاوت الأحوال وتباينها بالدرجات مبالغة وإيذاناً بأن بينهم تفاوتاً ذاتياً كالدرجات أو ذوو درجات ﴿والله بصير بما يعملون﴾ من الأعمال ودرجاتها فيجازيهم .

﴿لقد من الله﴾ جواب قسم محذوف أى والله لقد من الله أى أنعم ﴿على المؤمنين﴾ أى من قومه عليه السلام ﴿إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ أى من نسبهم أو من جنسهم عربياً مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة ليكونوا واقفين على حاله فى الصدق والأمانة مفتخرين به وفى ذلك شر لهم عظيم قال الله تعالى ﴿ولأنه لذكر لك ولقومك﴾ وقرىء من أنفسهم أى أشرافهم فإنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونها وقرىء لمن من الله على المؤمنين إذ بعث النخ . على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى منه إذ بعث النخ أو على أن إذ فى محل الرفع على الابتداء بمعنى لمن من الله عليه من ^(١) المؤمنين وقت بعثه وتخصيصهم بالامتنان مع عموم نعمة البعثة للأسود والأحمر لما مر من مزيد انتفاعهم بها

وقوله تعالى من أنفسهم متعاق بمحذوف وقع صفة لرسولا أى كأننا من أنفسهم وقوله تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ صفة أخرى أى يتلو عليهم القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شئ من الوحي ﴿ ويذكهم ﴾ عطف على يتلو أى يظهرهم من دنس الطباع وسوء العقائد وأوضاع الأوزار .

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ أى القرآن والسنة وهو صفة أخرى لرسولا مترتبة في الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيدان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعي ترتيب الوجود كما في قوله تعالى (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويذكهم) لتبادر إلى الفهم عد الجميع نعمة واحدة وهو السر في التعبير عن القرآن بالآيات تارة وبالكتاب والحكمة [تارة] ^(١) أخرى رمزا إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح في ذلك شمول الحكمة لما في مطاوى الأحاديث الكريمة من الشرائع كما سلف في سورة البقرة ﴿ وإن كانوا من قبل بعثته عليه السلام وتزكيتهم وتعليمهم ﴾ لفى ضلال مبين ﴾ أى بين لا ريب في كونه ضلالا وأن هي المخففة من الثقيلة ^(٢) وضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية والظرف الأول لغو متعلق بكان والثاني خبرها وهي مع خبرها خبر لأن المخففة التي حذف اسمها أعنى ضمير الشأن وقيل هي نافية واللام بمعنى إلا أى وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين وأياما كان فالجملة إما حال من الضمير المنصوب في يعلمهم أو مستأنفة وعلى التقديرين فهي مبينة لسكال النعمة وتتمامها .

﴿ أَوْ لِمَا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أِنِّى هَٰذَا ﴾ كلام مبتدأ مسوق لإبطال بعض ما صدر عنهم من الظنون الفاسدة والآقاويل الباطلة الناشئة منها إثر إبطال بعض آخر منها والهمزة للتقريع والتقريع والواو عاطفة لدخولها على محذوف قبلها ولما ظرف لقلتم مضاف إلى ما بعده وقد أصبتم فى محل الرفع على أنه صفة لمصيبة والمراد بها ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم وبمثلها ما أصاب المشركين يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين وأنى هذا مقول قلتم وتوسط الظرف وما يتعلق به بينه وبين الهمزة مع أن^(١) المقصود إنكاره والمعطوف بالواو حقيقة لتأكيد النكير وتشديد التقريع فإن فعل القبيح فى غير وقته أقبح والإنكار على فاعله أدخل والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم من أين أصابنا هذا وقد تقدم الوعد بالنصر على توجيه الإنكار والتقريع إلى صدور ذلك القول عنهم فى ذلك الوقت خاصة بناء على عدم كونه مظنة له داعيا إليه بل على كونه داعيا إلى عدمه فإن كون مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم مما يهون الخطب ويورث الصلوة أو أفعلتهم ما فعلتم ولما أصابتكم غائلته قلتم أنى هذا على توجيه الإنكار إلى استبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها وتذكير اسم الإشارة فى أنى هذا مع كونه إشارة إلى المصيبة ليس لكونها عبارة عن القتل ونحوه بل لما أن إشارتهم ليست إلا إلى ما شاهدوه فى المعركة من حيث هو من غير أن يخطر ببالهم تسميته باسم ما فضلا عن تسميته باسم المصيبة وإنما هى عند الحكاية وقوله عز وجل :

﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن سؤالهم الفاسد إثر تحقيق فساده بالإنكار والتقريع ويبيّن لهم ببيان أن ما نالهم إنما نالهم من جهتهم بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة وقيل

(١) فى قى : مع أنه

باختيارهم الخروج من المدينة ويأباه أن الوعد بالنصر كان بعد ذلك كما ذكر عند قوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده) الآية وأن عمل النبي صلى الله عليه وسلم بموجبه قد رفع الخطر عنه وخفف جناباتهم فيه على أن اختيار الخروج والإصرار عليه كان ممن أكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ وأين هم من التفوه بمثل هذه الكلمة وقبل بأخذهم الفداء يوم بدر قبل أن يؤذن لهم والاول هو الأظهر والأقوى وإنما يعضده توسط خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بين الخطابين المتوجهين إلى المؤمنين وتفويض التبكيك إليه عليه السلام فإن توبيخ الفاعل على الفعل إذا كان من نهاه عنه كان أشد تأثيراً ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ ومن جملة النصر عند الطاعة والخذلان عند المخالفة وحيث خرجتم عن الطاعة أصابكم منه تعالى ما أصابكم والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها داخل تحت الأمر .

في الهزيمة عبرة

﴿ وما أصابكم ﴾ رجوع إلى خطاب المؤمنين إثر خطابه عليه السلام بسريقتضيه وإرشاد لهم إلى طريق الحق فيما سألوا عنه وبيان لبعض ما فيه من الحكم والمصالح ودفع لما عسى أن يتوهم من قوله تعالى (هو من عند أنفسكم) من استقلالهم في وقوع الحادثة والعدول عن الإضمار إلى ما ذكر للتحويل وزيادة التقرير ببيان وقته بقوله تعالى ﴿ يوم التقي الجمعان ﴾ أي جمعكم وجمع المشركين ﴿ فبإذن الله ﴾ أي فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار سمي ذلك إذناً لكونها من لوازمه ﴿ وليعلم المؤمنون ﴾ عطف على قوله تعالى فبإذن الله عطف المسبب عن السبب والمراد بالعلم التمييز والإظهار فيما بين الناس ﴿ وليعلم الذين نافقوا ﴾ عطف على ما قبله من مثله وإعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في سلك^(١) المنافقين وللايذان باختلاف حال

العلم بحسب التعلق بالفريقين فإنه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه السابق بالمناقين على وجه جديد وهو السر في إيراد الأولين بصيغة اسم الفاعل المبنيّة عن الاستمرار والآخرين بموصول صلته فعل دال على الحدوث والمعنى وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز التابئين على الإيمان والذين أظهروا النفاق ﴿وقيل لهم﴾ عطف على نافقوا داخل معه في حيز الصلة أو كلام مبتدأ قال ابن عباس رضى الله عنهما هم عبد الله بن أبي وأصحابه حيث انصرفوا يوم أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام أذكركم الله لا (١) تخذلوا نبيكم وقومكم ودعاهم إلى القتال وذلك قوله تعالى:

﴿تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾ قال السدى ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا وقيل أو ادفعوا عن أهلكم وبلدكم وحریمكم إن لم تقاتلوا في سبيل الله تعالى وترك العطف بين تعالوا وقاتلوا لما أن المقصود بهما واحد وهو الثانى وذكر الأول توطئة له وترغيب فيه لما فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا حين خيروا بين الخصلتين المذكورتين فقيّل قالوا ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ أى لو نحسن قتالا ونقدر عليه وإنما قالوه دغلا واستهزاء وإنما عبر عن نفى القدرة على القتال بنفى العلم به لما أن القدرة على الأفعال الاختيارية مستلزمة للعلم بها أو لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال أصلا وإنما هو إلقاء النفس إلى التهلكة وفى جعلهم التالى مجرد الاتباع دون القتال الذى هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال حيث لا ترضى نفوسهم بجعله تالياً لمقدم مستحيل الوقوع ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ الصمير مبتدأ وأقرب خبره واللام فى للكفر والإيمان متعلقة به كذا يومئذ ومنهم وعدم جواز تعاق حرفين متحدين لفظاً ومعنى بعامل واحد بلا عطف أو بدلية إنما هو فيما عدا أفعال

(١) فى ط : أن تخذلوا .

التفضيل من العوامل لاتحاد حيثية عملها وأما أفعل التفضيل فحيث دل على أصل الفعل وزيادته جرى مجرى عاملين كأنه قيل قتل قريشهم للكفر زائد على قريشهم للإيمان وقيل تعلق الجارين به لشبههما بالظرفين أى هم للكفر يوم إذ قالوا ما قالوا أقرب منهم للإيمان فإنهم كانوا قبل ذلك يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمانة مؤذنة بكفرهم فلما انخلوا عن عسكر المسلمين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأن تقليل سواد المسلمين بالانخدال تقوية للمشركين وقوله تعالى :

﴿ يقولون بأفوههم ما ليس في قلوبهم ﴾ جملة مستأنفة مقررمة لمضمون ما قبلها وذكر الأفواه والقلوب تصوير لنفاقهم وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم وما عبارة عن القول والمراد به إما نفس الكلام الظاهر في اللسان تارة وفي القلب أخرى فالمثبت والمنفى متحدان ذاتا وإن اختلفا مظهرأ وإما القول المملوظ فقط فالمنفى حينئذ منشؤه الذى لا ينبغي عنه القول أصلا وإنما عبر عنه به لإبانة لما بينهما من شدة الاتصال أى يتفوهون بقول لا وجود له أو لمنشئه في قلوبهم أصلا من الأباطيل التى من جملتها ما حكى عنهم آنفا فإنهم أظهروا فيه أمرين ليس في قلوبهم شيء منهما أحدهما عدم العلم بالقتال والآخر الاتباع على تقدير العلم به وقد كذبوا فيهما كذبا بينا حيث كانوا علمين به غير ناوين للاتباع بل كانوا مصرين مع ذلك على الانخدال عازمين على الارتداد وقوله عز وجل :

﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد لإثر بيان خلوها عما يوافقها وصيغة التفضيل لما أن بعض ما يكتمونه من أحكام النفاق وذم المؤمنين وتخطئة آرائهم والشتماتة بهم وغير ذلك يعلمه المؤمنون على وجه الإجمال وأن تفاصيل ذلك وكيفية مخصصة بالعلم الإلهي ﴿ الذين قالوا ﴾ مرفوع على أنه بدل من واو يكتمون أو خبر لمبتدأ محذوف وقيل مبتدأ خبره قل فادروا بحذف العائد

تقديره قل لهم الخ أو منصوب على الذم أو على أنه نعت للذين نافقوا أو بدل منه وقيل مجرور على أنه بدل من ضمير أفواههم أو قلوبهم كما في قوله على جوده لضمن بالماء حاتم والمراد بهم عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿إخوانهم﴾ أى لأجلهم وهم من قتل يوم أحد من جنسهم أو من أقاربهم فيندرج فيهم بعض الشهداء ﴿وقعدوا﴾ حال من ضمير قالوا بتقدير قد أى قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخزال ﴿لو أطاعونا﴾ أى فيما أمرناهم به ووافقونا في ذلك ﴿ما قتلوا﴾ كما لم تقتل وفيه إيدان بأنهم أمروهم بالانخزال حين انخزلوا وأغروهم كما غروا وحمل القعود على ما استصوبه ابن أبي عند المشاورة من الإقامة بالمدينة ابتداء وجعل الإطاعة عبارة عن قبول رأيه والعمل به يرده كون الجملة حالية فإنها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة مع أن ابن أبي ليس من القاعدين فيها بذلك المعنى على أن تخصيص عدم الطاعة بإخوانهم ينادى باختصاص الأمر أيضاً بهم فيستحيل أى يحمل على ما خاطب به النبي صلى الله عليه وسلم عند المشاورة.

﴿قل﴾ تبكيها لهم وإظهارا لكونهم ﴿فادروا عن أنفسكم الموت﴾ جواب لشرط قد حذف تعويلاً على ما بعده من قوله تعالى ﴿إن كنتم صادقين﴾ كما أنه شرط حذف جوابه لدلالة الجواب المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فيما ينبي عنه قولكم من أنكم قادرون على دفع القتل عنكم كتب عليه فادفعا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم معلقاً بسبب خاص موقفاً بوقت معين بدفع سببه فإن أسباب الموت في إمكان المدافعة بالحال وامتناعها سواء وأنفسكم أعز عليكم من إخوانكم وأمرها أهم لديكم من أمرهم والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوباً عليكم لا بسبب أنكم دفعتموه بالعود مع كتابته عليكم فإن ذلك مما لا سبيل إليه بل قد يكون القتال سبباً للنجاة والعود مؤدياً إلى الموت. روى أنه مات يوم قالوا سبعون منافقاً وقيل أراد إن كنتم صادقين في مضمون الشرطية والمعنى أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين فقوله تعالى ﴿فادروا عن أنفسكم الموت﴾ خيلئذ استهزاء بهم أى إن كنتم

رجالا دفاعين لأسباب الموت فادرؤا جميع أسبابه حتى لا تموتوا كما درأتم في زعمكم هذا السبب الخاص .

مكانة الشهداء

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذي يحذرونه ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر بل هو من أجل المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون لإثربيان أن الحذر لا يجدى ولا يغنى وقرىء ولا تحسبن بكسر السين والمراد بهم شهداء أحد وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شهاب وعبد الله ابن جحش وباقيهم من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقرىء بالياء على الإسناد إلى ضميره عليه السلام أو ضمير من يحسب وقيل إلى الذين قتلوا والمفعول الأول محذوف لأنه في الأصل مبتدأ جاز الحذف عند القرينة والتقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتا أى لا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتا على أن المراد من توجيه النهى إليهم تنبيه السامعين على أنهم أحقاء بأن يسألوا بذلك ويبشروا بالحياة الأبدية والكرامة السنية والنعيم المقيم لكن لا في جميع أوقاتهم بل عند ابتداء القتل إذ بعد تبين حالهم لهم لا يبقى لاعتبار تسليتهم وتبشيرهم فائدة ولا لتنبيه السامعين وتذكيرهم وجه وقرىء قتلوا بالتشديد لكثرة المقتولين ﴿بل أحياء﴾ أى بل هم أحياء وقرىء منصوبا أى بل أحسبهم أحياء على أن الحسبان بمعنى اليقين كما في قوله :

حسبت التقى والمجد خير تجارة رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقلا

أو على أنه وارد على طريق المشاكلة ﴿عند ربهم﴾ في محل الرفع على أنه خبر ثان للمبتدأ المقدر أو صفة لأحياء أو في محل النصب على أنه حال من الضمير في أحياء وقيل هو ظرف لأحياء أو للفعل بعده والمراد بالعندية التقرب والزلقى وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن الترية والتبليغ إلى السكالم مع

الإضافة إلى ضميرهم مزيد تسمية لهم ﴿يرزقون﴾ أى من الجنة وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم . قال الإمام الواحدى الأصح فى حياة الشهداء ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون . وروى عنه عليه السلام أنه قال لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيور^(١) خضر تدور فى أنهار الجنة وروى ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش وفيه دلالة على أن روح الإنسان جسم لطيف لا يفنى بحراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه ونأله والتأذاه ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيوراً خضراء أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكر وقيل المراد أنها تتعلق بالأفلاك والكواكب فتلتذ بذلك وتسكتسب زيادة كمال ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والزلفى من الله عز وجل والتمتع بالنعيم المخلد عاجلاً .

﴿ويستبشرون﴾ يسرون بالإشارة ﴿بالذين لم يلحقوا بهم﴾ أى بإخوانهم الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله فيلحقوا بهم ﴿من خلفهم﴾ متعلق بيلحقوا والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم أو بمحذوف وقع حالاً من فاعل يلحقوا أى لم يلحقوا بهم حال كونهم متخلفين عنهم باقين فى الدنيا ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ بدل من الذين بدل اشتغال مبين لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بدواتهم وأن هى المخففة من أن واسمها ضمير الشأن المحذوف وخبرها الجملة المنفية أى يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم وهو أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية لا يكدرها خوف [ولا]^(٢) وقوع محذور ولا حزن [على]^(٣) فوات مطلوب أو لا خوف عليهم فى الدينانم القتل

(١) فى ١٠ : طير .

(٢) سقطت من ط .

(٣) سقطت من ط .

فإنه عين الحياة التي يجب أن يرغب فيها فضلاً عن أن تخاف وتحذر أى لا يعتبرهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتبرهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً فإن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ﴿يستبشرون بنعمة﴾ كرر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لا يقادر قدرها وهي ثواب أعمالهم وقد جوز أن يكون الأول متعلقاً بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم ييانا لبعض ما أجمل في قوله تعالى (فرحين بما آتاهم الله من فضله) ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الإضافية أى كائنة منه تعالى ﴿وفضل﴾ أى زيادة عظيمة كما في قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ بفتح أن عطف على فضل منتظم معه في سلك المستبشر به والمراد بالمؤمنين إما الشهداء والتعابير عنهم بالمؤمنين للإيدان بسمو رتبة الإيمان وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم وعدت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة في الدين وقرىء بكسرها على أنه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله محبطة لا أجر له وفيه من الحث على الجهاد والترغيب في الشهادة والبعث على ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح ما لا يخفى .

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ صفة مادحة للمؤمنين لاختصاصه أو نصب على المدح أو رفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ بجملته ومن للبيان والمقصود من الجمع بين الوصفين المدح والتعليل لا التقييد لأن المستجيبين كلهم محسنون ومتقون . روى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن

يرهبهم ويرهبهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان» وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس نخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت ﴿الذين قال لهم الناس﴾ يعنى الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي وإطلاق الناس عليه لمأثنه من جنسهم وكلامه كلامهم يقال فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وماله سوى فرس فرد وغير ثوب واحد أو لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه السلام إن شاء الله تعالى فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران فألقى الله تعالى في قلبه الرعب وبدا له أن يرجع فمر به ركب من بني عبد قيس يريدون المدينة للبيرة فشرط لهم حمل بعير من زيب إن ثبطو المسلمين وقيل لقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشرأ من الإبل ضمنها منه سهيل بن عمرو ونفخ نعيم ووجد المسلمين يتجهزون للخروج فقال لهم أنوكم في دياركم فلم يفلمت مشكم أحد إلا شريد أفترؤن أن تخرجوا وقد جمعوا لكم فقرروا فقال عليه السلام والذي نفسى بيده لا أخرجن ولو لم يخرج معى أحد نفخ في سبعين راكبا كلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل . قيل هى السكلمة التى قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار .

﴿فزادهم إيماناً﴾ الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله إن أريد به نعيم وحده والمعنى أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك بل ثبت به يقينهم بالله تعالى وازداد اطمئنانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده وهو دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادة ونقصانا فإن ازدياد اليقين بالإلف وكثرة التأمل وتناسر الحجج مما لا ريب فيه ويعضده قول ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلنا يارسول الله الإيمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة

وينقش حتى يدخل صاحبه النار ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ أى عسبنا الله وكافينا من أحسبه إذا كماه والدليل على أنه بمعنى المحسب أنه لا يستفيد بالإضافة تعريفاً في قولك هذا رجل حسبك ﴿ ونعم الوكيل ﴾ . أى نعم الموكل إليه والخصوص بالمدح محذوف أى الله عز وجل ﴿ فانقلبوا ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى نخرجوا إليهم ووافوا الموعد . روى أنه عليه الصلاة والسلام وافى بجيشه بدرأ وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً كثيراً والباء في قوله تعالى ﴿ بنعمة ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالاً من الضمير فى فانقلبوا والتثنية للتفخيم أى فرجعوا من مقصدهم ملتبسين بنعمة عظيمة لا يقدر قدرها وقوله عز وجل :

﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لفخامتها الذاتية التى يفيدها التكثير بالفخامة الإضافية أى كائنة من الله تعالى وهى العافية والثبات على الإيمان والزيادة فيه وحذر العدو منهم ﴿ وفضل ﴾ أى ربح فى التجارة وتشكيره أيضاً للتفخيم ﴿ لم يمسه سوى ﴾ حال أخرى من الضمير فى فانقلبوا أو من المستكن فى الحال كأنه قيل منعمين حال كونهم سالمين عن السوء والحال إذا كان مضارعاً منفياً لم وفيه ضمير ذى الحال جاز فيه دخول الواو كما فى قوله تعالى (أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) وعدمه كما فى هذه الآية الكريمة وفى وقى قوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً) .

﴿ واتبعوا ﴾ فى كل ما أتوا من قول وفعل ﴿ رضوان الله ﴾ الذى هو مناط الفوز بخير الدارين ﴿ والله ذو فضل عظيم ﴾ حيث تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب فى الدين وإظهار الجراءة على العدو وحفظهم عن كل ما يسوءهم مع إصابتهم بالنعمة الجليل وفيه تحسير لمن تخلف عنهم وإظهار خطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء وروى أنهم قالوا هل يكون هذا غزوا فأعطاهم الله تعالى ثواب الغزو ورضى عنهم ﴿ إنما ذلكم ﴾ إشارة إلى المشتب أو إلى من حمله على التثبيط والخطاب للمؤمنين وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الشيطان ﴾ إما خبره وقوله تعالى ﴿ يخوف أوليائه ﴾

جملة مستأنفة مبنية لشيظنته أو حال كما في قوله تعالى (فتلك بيوتهم خاوية) الخ وإما صفته والجملة خبره ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أى إنما ذلك قول الشيطان أى إبليس والمستكن في يخوف إما للمقدر وإما للشيطان بحذف الراجع إلى المقدر أى يخوف به والمراد بأوليائه إما أبوسفیان وأصحابه فالمفعول الأول مخوف أى يخوفكم أوليائه كما هو قراءة ابن عباس وابن مسعود ويؤيده قوله تعالى ﴿ فلا تخافوهم ﴾ أى أوليائه ﴿ وخافون ﴾ في مخالفة أمرى وإما القاعدون فالمفعول الثانى مخوف أى يخوفهم الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير البارز في فلا تخافوهم للناس الثانى أى فلا تخافون فتعدوا عن القتال وتجنبوا وخافونى فجاهدوا مع رسولى وسارعوا إلى ما يأمركم به والخطاب لفريقى الخارجين والفاعدين والفاء لترتيب النهى أو الانتهاء على ما قبلها فإن كون المخوف شيطانا بما يوجب عدم الخوف والنهى عنه ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن الإيمان يقتضى إثارة خوف الله تعالى على خوف غيره ويستدعى الأمن من شر الشيطان وأوليائه .

﴿ ولا يحزنك ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه بتخصيصه بالإنسانية والإيدان بأصاليه في تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤنه ﴿ الذين يسارعون في الكفر ﴾ أى يقعون فيه سريعا لغاية حرصهم عليه وشدة رغبتهم فيه وإيثار كلمة في على ما وقع في قوله تعالى : (أولئك يسارعون في الخيرات) فإن ذلك مؤذن بملاستهم للخيرات وتقلبهم في فنونها في طرفى المسارعة وتضاعفها وأما إيثار كلمة إلى في قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) الخ فلأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها والمراد بالموصول المنافقون من المتخلفين وطائفة من اليهود حسبما عين في قوله تعالى (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا) وقيل قوم ارتدوا عن الإسلام والتعبير عنهم بذلك للإشارة بما في حيز الصلة إلى مظنة وجود المنهى عنه واعترائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى لا يحزنوك بمسارعتهم في

الكفر ومبادرتهم إلى تنفيذ^(١) أحكامه ومظاهرتهم لأهله وتوجيه النهي إلى جبهتهم مع أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثير منهم للمبالغة في ذلك لما أن النهي عن التأثير نهى عن التأثير بأصله ونفى له بالمرّة وقد يوجه النهي إلى اللازم والمراد هو النهي عن الملموم كما في قولك لا أرينك ههنا وقرأ لا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاء والمعنى واحد وقيل معنى حزنه جعل فيه حزناً كما في دهنه أى جعل فيه دهنًا ومعنى أحزنه جعله حزينًا وقيل معنى حزنه أحدث له الحزن ومعنى أحزنه عرضه للحزن .

﴿إنهم لن يضروا الله﴾ تعليل للنهي وتسكين للتسليّة بتحقيق نفى ضررهم أبداً أى لن يضروا بذلك أولياء الله البتّة وتعليل نفى الضرر به تعالى لئلا يشربهم والإيذان بأن مضارّتهم بمنزلة مضارّته سبحانه وفيه مزيد مبالغة في التسليّة وقوله تعالى ﴿شيئاً﴾ في حيز النصب على المصدرية أى شيئاً من الضرر والتسكير لتأكيد ما فيه من القلّة والحقارة وقيل على نزع الجار أى بشيء ما أصلاً وقيل المعنى لن ينقصوا بذلك من ملكه تعالى وسلطانه شيئاً كما روى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى لو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على قلب أتقى^(٢) رجل منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على قلب أفجر^(٣) رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً والأول هو الأنسب بمقام التسليّة والتعليل .

﴿يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ استئناف مبين لسر ابتلائهم بما هم فيه من انهمالك في الكفر وفي ذكر الإرادة من الإيذان بكمال خلوص الداعى إلى حرمانهم وتعذيبهم حيث تعلقت بهما إرادة أرحم الراحمين ما لا يخفى وصيغة الإستقبال للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها أى يريد الله بذلك أن لا يجعل لهم في الآخرة حظاً ما من الثواب ولذلك

(٢) في ط : أتقى قلبه

(١) في ط : إلى تمشية .

(١) في ط : أفجر قلب

وقد جوز كون الموصول الأول علما للكفار والثاني خاصا بالمعهودين وأنت خبير بأنه مع خلوّه عن النكت المذكورة مما لا يليق بفخامة شأن التنزيل لما أن صدور المسارعة في الكفر بالمعنى المذكور وكونها مظنة لإيراث الحزن لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفهم من النهى عنه إنما يتصور من علم انصافه بها وأما من لا يعرف حاله من الكفرة الكاتنين في الأما كن البعيدة فإسناد المسارعة المذكورة إليهم باعتبار كونها من مبادئ حزنه عليه السلام مما لا وجه وقوله تعالى :

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ جملة مبدأة مبينة لسكمال فظاعة عذابهم بذكر غاية إيلاهم بعد ذكر نهاية عظمه . قيل لما جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة وتأله عند كونها خاسرة وصف عذابهم بالإيلا مراعاة لذلك .

استدراج الكفار

﴿ ولا يحسن الذين كفروا إنما نملى لهم خير لأنفسهم ﴾ عطف على قوله تعالى (ولا يحزنك الذين) الآية والفعل مسند إلى الموصول وأن بما في حينها سادة مسد مفعوليه عند سيديويه لتمام المقصود بها وهو تعلق الفعل القلبي بالنسبة بين المبتدأ والخبر أو مسد أحدهما والآخر محذوف عند الاختش وما مصدرية أو موصولة حذف عاندها ووصلها في الكتابة لاتباع الإمام أى لا يحسن الكافرون أن إملاءنا لهم أو أن ما نمليه لهم خير لأنفسهم أو لا يحسن الكافرون خيرية إملائنا لهم أو خيرية ما نمليه لهم ثابتة أو واقمة ومآله نهيهم عن السرور بظاهر إملائه تعالى لهم بناء على حسابان خيريته لهم وتحسيرهم ببيان أنه شر بحت وضرر محض كما أن مآل المعطوف عليه نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحزن بظاهر حال الكفرة بناء على توهم الضرر من قبلهم وتسليته عليه السلام ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية والمراد بالموصول إما جنس الكفرة فيندرج تحت حكمه الكلى أحكام المعهودين اندراجا أوليا ولما المعهودون خاصة فيأثار الإظهار

تركهم في طغيانهم يعمهون إلى أن يهلكوا على الكفر ﴿ولهم﴾ مع ذلك الحرمان الكلي ﴿عذاب عظيم﴾ لا يقادر قدره قيل لما دات المسارعة في الشيء على عظم شأنه وجلالة قدره عند المسارع وصف عذابه بالعظم رعاية للمناسبة وتنبها على حقارة ما سارعوا فيه وخساسته في نفسه والجملة إمامبتدأة مبينة لحظهم من العقاب لاثربيان أن لا شيء لهم من الثواب وإما حال من الضمير في لهم أى يريد الله حرمانهم من الثواب معدا لهم عذاب عظيم ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾ أى أخذوه بدلا منه رغبة فيما أخذوه ولمراضا عما تركوه وقد مر تحقيق القول في هذه الاستعارة في تفسير قوله عز وجل (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) مستوفى .

﴿إن يضروا الله شيئا﴾ تفسيره كما مر غير أن فيه تعريضا ظاهرا باقتصار الضرر عليهم كأنه قيل وإنما يضرون أنفسهم فإن جعل الموصول عبارة عن المسارعين المعهودين بأن يراد بالاشتراء الكفر بالإيمان لإثاره عليه إما بأخذه بدلا من الإيمان الحاصل بالفعل كما هو حال المرتدين أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله في التوراة كما هو شأن اليهود ومنافقيهم فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده ببيان علته بتغيير عنوان الموضوع فإن ما ذكر في حين الصلة من الاشتراء المذكور صريح في حقوق ضرره بأنفسهم تعديه إلى غيرهم أصلا كيف لا وهو علم في الخسران الكلي والحرمان الأبدى دال على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ورزانة الرأي ورصانة التدبير من مضارة حزب الله تعالى وهى أعز من الأبلق الفرد وأمنع من عقاب الجو وإن أجرى الموصول على عمومه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للبعينين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الإيمان من الاستعداد القريب له الحاصل بمشاهدة الوحي الناطق وملاحظة الدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس كما هو دأب جميع الكفرة فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقرير القواعد الكلية لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام هذا

على الإضمار لرعاية المقارنة الدائمة بين الصلة وبين الإيماء الذي هو عبارة عن إمهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرًا طويلًا فإن المقارن له دائماً إنما هو الكفر المستمر لا المسارعة المذكورة ولا الاشتراء المذكور فإنهما من الأحوال المتجددة المنقضية في تضاعيف الكفر المستمر وقرىء لا تحسبن بالتاء والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأنسب بمقام التسليية أو لكل من يتأتى منه الحسبان قصداً إلى إشاعة فظاعة حالهم والموصول مفعول وإنما نملئ لهم إما بدل منه وحيث كان التعويل على البدل وهو ساد مسد المفعولين كما في قوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون) اقتصر على مفعول واحد كما في قولك جعلت المتاع بعضه فوق بعض وإمامفعول ثان بتقدير مضاف إما فيه أى لا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإيماء خير لأنفسهم أو في المفعول الأول أى لا تحسبن حال الذين كفروا أن الإيماء خير لأنفسهم ومعنى التفضيل باعتبار زعمهم .

﴿لإنما نملئ لهم ليزدادوا إثماً﴾ استئناف مبين لحكمة الإيماء وما كافته واللام لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة وقرى بفتح الهمزة ههنا على إيقاع الفعل عليه وكسرها فيما سبق على أنه اعتراض بين الفعل ومعموله مفيد لمزيد الاعتناء بإبطال الحسبان ورده على معنى لا يحسبن الكافرون أن إيماءنا لهم لازدياد الإثم حسبها هو شأنهم بل إنما هو لتلافى ما فرط منهم بالتوبة والدخول في الإيمان ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب مهين﴾ لما تضمن الإيماء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر وصف عذابهم بالإهانة ليكون جزاؤهم جزاء وفاقاً والجملة إما مبتدأة مبينة لحالهم في الآخرة إثر بيان حالهم في الدنيا وإما حال من الوار أى ليزدادوا إثماً معداً لهم عذاب مهين وهذا متعين على القراءة الأخير .

﴿ما كان الله ليزر المؤمنين على ما أتم عليه﴾ كلام مستأنف مسوق لوعده المؤمنين ووعيد المنافقين بالعقوبة الدنيوية التي هي الفضيحة والخزى إثر بيان عقوبتهم الآخروية والمراد بالمؤمنين المخلصون وما الخطاب فقد قيل إنه لجمهور

المصدقين من أهل الإخلاص وأهل النفاق ففيه التفات في ضمن التلوين والمراد بما هم عليه اختلاط بعضهم بعضا واستواؤهم في إجراء أحكام الإسلام عليهم إذ هو القدر المشترك بين الفريقين وقيل إنه للكفار والمنافقين وهو قول ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين ففيه تلوين فقط ولعل المنافقين عطف تفسيري للكفار وإلا فلا شركة بين المؤمنين والمنافقين في أمر من الأمور والمراد بما هم عليه ما مر من القدر المشترك فإنه كما يجوز نسبته إلى الفريقين معا يجوز نسبته إلى كل منهما لا الكفر والنفاق كما قيل فإن المؤمنين ما كانوا مشاركين لهم في ذلك حتى لا يتركوا عليه وقيل إنه للمؤمنين خاصة وهو قول أكثر أهل المعاني ففيه تلوين والتفات كما مر والتعرض لإيمانهم قبل الخطاب للإشعار بعلّة الحكم والمراد بما هم عليه ما مر غير مرة والاول هو الأقرب وإليه جنح المحققون من أهل التفسير لكونه صريحا في كون المراد بما هم عليه ما ذكر من القدر المشترك بين الفريقين من حيث هو مشترك بينهما بخلاف القولين الآخرين فإنهما بمعزل من ذلك كيف لا والمفهوم مما عليه المنافقون هو الكفر والنفاق وما عليه المؤمنون هو الإيمان والإخلاص لا القدر المشترك بينهما ولئن فهم ذلك فإنما يفهم من حيث الانتساب إلى أحدهما لا من حيث الانتساب إليهما معا وعليه يدور أمر الاختلاط المحجوج إلى الإفراز واللام في ليدّر إما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدرة أى ما كان الله مريداً أو متصديا لأن يذر المؤمنين الخ ففي توجيه النفي إلى إرادة الفعل تأكيد مبالغة ليست في توجيهه إلى نفسه وأما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدر في ذلك زيادتها كما لا يقدر زيادة حروف الجر في عملها وقوله عز وجل ،

﴿ حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ غاية لما يفيد النفي المذكور كأنه قيل ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط بل يقدر الأمور ويرتب الأسباب حتى يزل المنافق من المؤمن وفي التعبير عنهما بما ورد به النظم الكريم تسجيل على كل منهما بما يليق به وإشعار بعلّة الحكم وإفراد الخبيث والطيب مع تعددها أريد

بكل منهما وتكثره لا سيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع للإيدان بأن مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادهما كما في مثل قوله تعالى (ذلك أدنى ألا تعولوا) ونظيره قوله تعالى (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لسكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم وتعليق الميز^(١) بالخبث المعبر به عن المنافق مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعلقه بهم وإفرازهم عن المنافقين لما أن الميز الواقع بين الفريقين إنما هو بالتصرف في المنافقين وتغييرهم من حال إلى حال مغايرة للأولى مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان وإن ظهر من يداخلهم لا بالتصرف فيهم وتغييرهم من حال إلى حال أخرى مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير إليه في قوله تعالى (والله يعلم المفسد من المصلح) وإنما لم ينسب عدم الترك إليهم لما أنه مشعر باعتناء بشأن من نسب إليه فإن المتبادر منه عدم تركه^(٢) على حالة غير ملائمة كما يشهد به الذوق السليم وقرئ حتى يميز من التمييز وقوله تعالى :

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ تمهيد لبيان الميز الموعود على طريق تجريد الخطاب للمخلصين تشریفاً لهم وقوله عز وجل ﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ إشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الإجمال وإظهار الاسم الجليل في الموضوعين لتربية المهابة فالمعنى ما كان الله ليترك المخلصين على الاختلاط بالمنافقين بل يرتب المبادئ حتى يخرج المنافقين من بينهم وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما في قلوبهم من الكفر والنفاق ولكنه تعالى يوحى إلى رسوله عليه السلام فيخبره بذلك وبما ظهر منهم من الأقوال والأفعال حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف فيفضحهم على رؤس الأشهاد ويخلصنك من خسة الشركاء

(١) في ١٠ : التمييز .

(٢) في ط : عدم الترك .

(٣٩ — أبو السعود — أول)

وسوء جوارهم والتعرض للاجتباء للإيدان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية لا يتأتى إلا من رشحته الله تعالى لمنصب جليل تقاصرت عنه همم الأمم واصطفاه على الجماهير لإرشادهم وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه السلام في هذا الباب أمر متين له أصل أصيل جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل الخالية عليهم السلام وتعميم الأمر في قوله تعالى :

﴿ فَأَمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ﴾ مع أن سوق النظم الكريم للإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام لإيجاب الإيمان بالطريق البرهاني والإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل وهم شهداء بصحة نبوته عليه الصلاة والسلام والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام فيدخل فيه تصديقه عليه السلام فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولا أو ليا هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم وقد جوز أن يكون المعنى لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخالص الذين امتحن الله تعالى قلوبهم كبذل الأرواح في الجهاد وإنفاق الأموال في سبيل الله تعالى فيجعل ذلك عيارا على عقائدكم وشاهدا بضمائركم حتى يعلم بعضكم بما في قلب بعض بطريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور فإن ذلك مما استأثر الله تعالى به وأنت خبير بأن الاستدراك باجتباء الرسل المنبي عن مزيد مزيهم وفضل معرفتهم على الخلق لئلا يبين قصور رتبهم عن الوقوف على خفايا السرائر صريح في أن المراد إظهار تلك السرائر بطريق الوحي لا بطريق التكليف بما يؤدي إلى خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء وأقرب من ذلك حمل الآية السكرية على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة في إملائه تعالى للكفرة لئلا يبين شريعته لهم فالمعنى ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبدا كما تركهم كذلك إلى الآن لسريقتهم بل يفرض عنهم المنافقين ولذلك فعله يومئذ حيث خلى الكفرة وشأنهم فأبرز لهم صورة الغلبة فأظهر من في قلوبهم مرض ما فيها من الخبائث وافتضحوا على رؤس الأشهاد وقيل قال

الكافرون إن كان محمدا صادقا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت ﴿ولمن يؤمنوا﴾ أى بما ذكر حق الإيمان ﴿وتتقوا﴾ أى عدم مراعاة حقوقه أو النفاق ﴿فلكم﴾ بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى ﴿أجر عظيم﴾ لا يبلغ كنهه .

البخل والبخلاء

﴿ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم﴾ بيان لحال البخل ووخامة عاقبته وتخطئة لأهله فى توهم خيرته حسب بيان حال الإماء وإيراد ما بخلوا به بعنوان إيتاء الله تعالى إياه من فضله للمبالغة فى بيان سوء صنيعهم فإن ذلك من موجبات بذله فى سبيله كما فى قوله تعالى (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) والفعل مستند إلى الموصول والمفعول الأول محذوف لئلا لالة الصلة عليه وضمير الفصل راجع إليه أى لا يحسن الباخلون بما آتاهم الله من فضله من غير أن يكون لهم مدخل فيه أو استحقاق له هو خير آ لهم من إنفاقه وقيل الفعل مستند إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى ضمير من يحسب والمفعول الأول هو الموصول بتقدير مضاف والثانى ما ذكر كما هو كذلك على قراءة الخطاب أى ولا يحسن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير آ لهم ﴿بل هو شر لهم﴾ التنصيص على شريته لهم مع إدراكها (١) من نفي خيريته للمبالغة فى ذلك والتنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ بيان لكيفية شريته أى سيلزمون وبال ما بخلوا به من الزكاة حية فى عنقه تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول أنا مالك . ﴿ولله﴾ وحده لا لأحد غيره استقلالاً أو اشتراكاً ﴿ميراث السموات والأرض﴾ أى ما يتوارثه أهلها من مال وغيره من الرسالات التى يتوارثها أهل السموات والأرض فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه فى سبيله تعالى عند هلاكهم

(١) فى ط : انفقاهمها .

وتدوم^(١) عليهم الحسرة والندامة ﴿ والله بما تعملون ﴾ من المنع والبخل ﴿ خبير ﴾ فيجازيكم على ذلك وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والالتفات للمبالغة في الوعيد والإشعار بأشداد غضب الرحمن الناشئ من ذكر قبائحهم وقرىء بالياء على الظاهر ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ قالته اليهود لما سمعوا قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) وروى أنه عليه السلام كتب مع أبي بكر رضى الله عنه إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فتحاص إن الله فقير حتى سألنا القرض فطمه أبو بكر رضى الله عنه في وجهه وقال لولا الذى بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله فنزلت والجمع حينئذ مع كون القائل واحدا لرضا الباقيين بذلك والمعنى أنه لم يخف عليه تعالى وأعد له من العذاب كفاء والتعبير عنه بالسماح للإيذان بأنه من الشناعة والسماجة بحيث لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع والتوكيد القسمى للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد .

﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ أى سنكتب ما قالوه من العظيمة الشناعة في صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه ولا نهمله كما ينبت المكتوب والسين للتأكيد أى لن يفوتنا أبدا تدوينه وإثباته لكونه في غاية العظم والاهول كيف لا وهو كفر بالله تعالى واستهزاء بالقرآن العظيم والرسول الكريم ولذلك عطف عليه قوله تعالى ﴿ وقتلهم الأنبياء ﴾ لإيذاننا بأنهما في العظم لإخوان وتنبيهها على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها بل لهم فيه سوابق وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذه العظام والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم وقوله تعالى ﴿ بغير حق ﴾ منعلق بمحذوف وقع حالا من قتلهم أى كأننا بغير حق في اعتقادهم أيضا كما هو في نفس الأمر وقرىء سيكتب على البناء

للفاعل وسيكتب على البغاء للفعول وقتلهم بالرفع ﴿ ونقول ذوقوا عذاب
الحريق ﴾ أى ومنتقم منهم بعد السكتة بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق
كما أذقم المسلمين الغصص وفيه من المبالغات ما لا يخفى وقرئ ويقول بالياء
ويقال على البناء للفعول ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى العذاب المذكور وما فيه من معنى
البعد للدلالة على عظم شأنه وبعد منزلته في الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره
قوله تعالى ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ أى بسبب ما اقترفته من قتل الأنبياء
والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من المعاصي والتعير عن الأنفس بالأيدي لما
أن عامة أفاعيلها تزاوول بهن ومحل أن فى قوله تعالى :

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة
ناعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده
بغير ذنب من قبلهم والتعير عن ذلك ينفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس
بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغالبيان كمال نزاهته
تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم كما يعبر
عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أن الأعمال غير موجهة للثواب حتى
يلزم من تخلفه عنها ضياعها وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبرار ما ذكر
من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم وقيل هى لرعاية جمعية العبيد
من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على أنها للمبالغة كما لا كيفا هذا وقد
قيل محل أن الجر بالعطف على ما قدمت وسببته للعذاب من حيث أن نفى الظلم
مستلزم للعدل المقتضى لإثابة المحسن ومعاقبة المسىء وفساده ظاهر فإن ترك
التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعا ولا عقلا حتى ينتهض نفى الظلم سببا
للتعذيب حسبا ذكره القائل فى سورة الأنفال وقيل سببية ذنوبهم لعذابهم مقيدة
بانضمام انتفاء ظلمه تعالى إليها إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم وأنت
خبر بأن إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافى كون تعذيب
هؤلاء الكفرة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه وإنما يحتاج

إلى اعتبار عدمه معه وإنما يحتاج إلى ذلك أن لو كان المدعى أن جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين .

﴿ الذين قالوا ﴾ نصب أو رفع على الذم وهم كعب بن الأشرف ومالك ابن صيفي وحبي بن أخطب وفتحاص بن عازوراء ووهب بن يهوذا ﴿ إن الله عهد إلينا ﴾ أى أمرنا فى التوراة وأوصانا ﴿ أن لا تؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ كما كان عليه أمر أنبياء بنى إسرائيل حيث كان يقرب بالقربان فيقوم النبى فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله أى تحيله إلى طبعها بالإحراق وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم فإن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات سواء ولما كان محصل كلامهم الباطل أن عدم إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم لعدم إتيانه بما قالوا ولو تحقق الإتيان به لتحقق الإيمان رد عليهم بقوله تعالى ﴿ قل ﴾ أى تسبكتما لهم وإظهارا لصدقهم ﴿ قد جاءكم رسل ﴾ كثيرة العدد كبيرة المقدار ﴿ من قبل بالبينات ﴾ أى المعجزات الواضحة ﴿ وبالذى قلتم ﴾ بعينه من القربان الذى تأكله النار ﴿ فلم تلتزمواهم إن كنتم صادقين ﴾ أى فيما يدل عليه كلامكم من أنكم تؤمنون لرسول يأتىكم بما اقترحتموه فإن ذكرىا ويحيى وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد جاءوكم بما قلتم فى معجزات أخر فما لكم لم تؤمنوا لهم حتى اجترأتم على قتلهم ﴿ فإن كذبوك ﴾ شروع فى تسليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إثر ما أوحى إليه ما يحزنه عليه الصلاة والسلام من مقالات الكفرة من المشركين واليهود وقوله تعالى ﴿ فقد كذب رسل من قبلك ﴾ تعليل لجواب الشرط أى فتسل فقد كذب الخ ومن متعلقة بكذب أو بمحذوف هو صفة الرسل أى كائنة من قبلك ﴿ جاءوا بالبينات ﴾ أى المعجزات الواضحة صفة لرسول ﴿ والزبور ﴾ هو جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحسم من زبرته إذا حسنته وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته ﴿ والكتاب المنير ﴾ قيل أى التوراة والإنجيل والزبور والكتاب فى عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين فى عامة المواقع

وقرىء وبالزبر بإعادة الجار دلالة على أنها مغايرة بالذات للبينات ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وعد ووعيد للصدق والمكذب وقرىء ذائقة الموت بالتنوين وعدمه كما في قوله ولا ذاكر الله إلا قليلا ﴿ولنما توفون أجوركم﴾ أى يعطون جزاء أعمالكم على التمام والسكال ﴿يوم القيامة﴾ أى يوم قيامكم من القبور وفى لفظ التوفية إشاره إلى أن بعض أجورهم يصل إليهم قبله كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ﴿فمن زحزح عن النار﴾ أى بعد عنها يومئذ ونجا والزحزحة فى الأصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿وأدخل الجنة فقد فاز﴾ بالنجاة ونيل المراد والفوز الظفر بالبغية وعن النبى صلى الله عليه وسلم من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه مدينته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس بما يحب أن يؤتى إليه ﴿وما الحياة الدنيا﴾ أى لذاتها وزخارفها ﴿إلا متاع الغرور﴾ شبهت بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتره وهذا لمن آثرها على الآخرة فأما من طلب بها الآخرة فهى له متاع بلاغ والغرور إما مصدر أو جمع غار ﴿لتبلون﴾ شروع فى تسليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عما سيلقونه من جهة الكفرة من المكارة إثر تسليتهم عما قد وقع منهم ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه ويستعدوا للقاءه ويقابلوه بحسن الصبر والثبات فإن هجوم الأوجال مما يزلزل أقدام الرجال والاستعداد للكروب بما يهون الخطوب وأصل البلاء الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا ملاسته ومفارقته وذلك إنما يتصور حقيقة مما لا وقوف له على عواقب الأمور وأما من جهة العالم الخبير فلا يكون إلا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين أو الأمور قبل أن يرتب عليه شيئا هو من مبادئ العادية كما مر والجملة جواب قسم محذوف أى والله لتبلون أى لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق والأعمال الحسنة وفائدة التوكيد إما تحقيق معنى الابتلاء تهوينا للخطب ولما تحقيق وقوع المبتلى به مبالغة الحث على ما أريد منهم من التهيؤ والاستعداد ﴿فى أموالكم﴾

بما يقع فيها من ضروب الآفات المؤدية إلى هلاكها وأما إنفاقها في سبيل الخير مطلقاً فلا يليق نظمه في سلك الابتلاء لما أنه من باب الإضعاف لا من قبيل الإيتلاف ﴿وأنفسكم﴾ بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك وتقديم الأموال لكثرة وقوع الهلكة فيها ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أى من قبل إيتائكم القرآن وهم اليهود والنصارى عبر عنهم بذلك للإشعار بمدار الشقاق والإيذان بأن بعض ما يسمعون منه مستند على زعمهم إلى الكتاب كما في قوله تعالى (إن الله عهد إلينا) الخ والتصريح بالقبلية لتأكيد الإشعار وتقوية المدار فإن قدم نزول كتابهم مما يؤيد تمسكهم به ﴿ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ من الطعن في الدين الخفيف والقدح في أحكام الشرع الشريف وصد من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن وما كان من كعب بن الأشرف وأضرابه من هجاء المؤمنين وتحريض المشركين على مضادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما لا خير فيه ﴿وإن تصبروا﴾ أى على تلك الشدائد والبلوى عند ورردها وتقابلوها بحسن التجميل ﴿وتتقوا﴾ أى تبتلوا إلى الله تعالى بالسكينة معرضين عما سواه بالمرة بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه ﴿فإن ذلك﴾ إشارة إلى الصبر والتقوى وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتكما وبعد منزلتهما وتوحيد حرف الخطاب إما باعتبار كل واحد من المخاطبين وإما لأن المراد بالخطاب مجرد التنبيه من غير ملاحظة خصوصية أحوال المخاطبين ﴿من عزم الأمور﴾ من معزوماتها التى يتنافس فيها المتنافسون أى مما تجب أن يعزم عليه كل أحد لما فيه من كمال المزية والشرف أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه يعنى أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى لا بد أن تصبروا وتتقوا والجملة تعليل لجواب الشرط واقع موقعه كأنه قيل وإن تصبروا وتتقوا فهو خير لكم أو فافعلوا أو فقد أحسنتم أو فقد أصبتم فإن ذلك الخ ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى صبر المخاطبين وتقواهم فالجملة حينئذ جواب الشرط وفى إبراز الأمر بالصبر والتقوى في صورة الشرطية من إظهار كمال

اللفظ بالعباد ما لا يخفى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ﴾ كلام مستأنف سيق ليبيان بعض أذياتهم وهو كتمانهم ما في كتابهم من شواهد نبوته عليه الصلاة والسلام وغيرها وإذ منصوب على المفعولية بمضمر أمر به النبي صلى الله عليه وسلم خاصة بطريق تجريد الخطاب إثر الخطاب الشامل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين ليكون مضمونه من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للبالغ في إيجاب ذكرها على ما مر بيانه في تفسير قوله تعالى وإذ قال (ربك للملائكة إني جاعل) الخ أى اذكر وقت أخذه تعالى ﴿ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى ذكروا بعنوان إيتاء الكتاب مبالغة في تقييد حالهم . ﴿ لتبينه ﴾ حكاية لما خوطبوا به والضمير للكتاب وهو جواب لقسم ينهى عنه أخذ الميثاق كأنه قيل لهم بالله لتبينه ﴿ للناس ﴾ وتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التي من جملتها أمر نبوته عليه الصلاة والسلام وهو المقصود بالحكاية وقرئ بالياء لأنهم غيب ﴿ ولا تكتمونه ﴾ عطف على الجواب وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفيا كما في قولك والله لا يقوم زيد وقيل اكتمنى بالتأكيد في الأول لأنه تأكيد له وقيل هو حال من ضمير المخاطبين إما على إضمار مبتدأ بعد الواو أى وأنتم لا تكتمونه وإما على رأى من جوز دخول الواو على المضارع المنفى عند وقوعه حالا أى لتبينه غير كاتمين والنهى عن السكتان بعد الأمر بالبيان إما للبالغ في إيجاب الأمور به وإما لأن المراد بالبيان الأمور به ذكر الآيات الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وبالسكتان المنهى عنه إلقاء التاويلات الزائغة والشبهات الباطلة وقرئ بالياء كما قبله ﴿ فتبذوه ﴾ النبذ الرمى والإبعاد أى طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثق بفنون التأكد والقوة .

﴿ وراء ظهورهم ﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلا فإن نبذ الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به والإعراض عنه بالسكينة كما أن جعله نصب العين علم في كمال العناية به وفيه من الدلالة على تحتم بيان الحق على علماء الدين وإظهار

ما منحوه من العلم للناس أجمعين وحرمة كتبه لغرض من الأغراض الفاسدة أو لطمع في عرض من الأعراض الفانية الكاسدة ما لا يخفى وعن النبي صلى الله عليه وسلم من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار وعن طاوس أنه قال لو هب بن منبه لاني أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب وقال والله لو كنت نبيا فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعذبك وعن محمد بن كعب لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل وعن علي رضي الله عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ﴿واشتروا به﴾ أي بالكتاب الذي أمروا ببيانه ونهوا عن كتبه فإن ذكر نبذ الميثاق يدل على ذلك دلالة واضحة وإيقاع الفعل على السكوت مع أن المراد به كتم بعضه كدلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ونحوها لما أن ذلك كتم للسكوت إذ به يتم الكتاب كما أن رفض بعض أركان الصلاة رفض لأكملها أو بمنزلة كتم السكوت من حيث أنهما سيان في الشناعة واستمرار العقاب كما في قوله تعالى (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) والاشتراء مستعار لاستبدال متاع الدنيا بما كتموه أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدلا منه^(١) ﴿ثمنًا قليلا﴾ أي شيئا نافيا حقيرا من حطام الدنيا وأعراضها وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة في المأخوذ والإعراض عن المعطى والتعبير عن المشتري الذي هو العمدة في العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة إليه وجعل الكتاب الذي حقه أن يتنافس فيه المتنافسون مصحوبا بالباء الداخلة على الآلات والوسائل من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنيء الحقير على الشريف الخطير وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلي وسيلة والمصلحة مقصدا ما لا يخفى جلالة شأنه ورفعة مكانه ﴿فبئس ما يشترون﴾ ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ويشتررون صفته والخصوص بالذم محذوف أي بئس شيئا

(١) في ط : بدله .

يشترونه ذلك الثمن ﴿ لا تحسبن ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم
أو لكل أحد من يصلح له .

﴿الذين يفرحون بما أتوا﴾ أى بما فعلوا كما فى قوله تعالى (لأنه كان وعده
مأتيا) ويدل عليه قراءة أبى : يفرحون بما فعلوا وقرىء بما أتوا بمعنى أعطوا
وبما أتوا أى بما أتوه عن علم التوراة . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم
اليهود حرفوا التوراة وفرحوا بذلك وأحبوا أن يوصفوا بالديانة والفضل
روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شئ مما فى التوراة
فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمدوا إليه وفرحوا
بما فعلوا وقيل فرحوا بسكتان النصوص الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام
وأحبوا أن يحمدوا بأنهم متبعون ملة إبراهيم عليه السلام فالوصول عبارة
عن المذكورين أو عن مشاهيرهم وضع موضع ضميرهم والجملة مسوقة لبيان
ما تستتبعه أعمالهم المحكية من العقاب الأخرى إثر بيان قباحتها وقد أدمج
فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وهو إصرارهم على ما هم عليه من القبائح
وفرحهم بذلك ومحبتهم لأن يوصفوا بما ليس فيهم من الأوصاف الجميلة وقد
نظم ذلك فى سلك الصلة التى حقها أن تكون معلومة الثبوت للوصول عند
المخاطب إذانا بشهرة اتصافهم بذلك وقيل هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا
بأنهم رأوا المصلحة فى ذلك واستحمدوا به وقيل هم المنافقون كافة وهو الأنسب
بظاهر قوله تعالى :

﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ لشهرة أنهم كانوا يفرحون بما
فعلوا من إظهار الإيمان وقلوبهم مطمئنة بالسكفر ويستحمدون إلى المسلمين
بالإيمان وهم عن فعله بألف منزل وكانوا يظهرون محبة المؤمنين وهم فى الغاية
القاصية من العداوة فالوصول عبارة عن طائفة معهودة من المذكورين وغيرهم
فإن أكثر المنافقين كانوا من اليهود ولعل الأولى لإجراء الوصول على عمومه
شاملا لكل من يأتى بشئ من الحسنات فيفرح به فرح إعجاب ويود أن
يمدحه الناس بما هو عار منه من الفضائل منتظما للمعهودين انتظاما أوليا وأياما

كان فهو مفعول أول لتحسين وقوله تعالى ﴿ فلا تحسبنهم ﴾ تأكيد له والفاء زائدة والمفعول الثاني قوله تعالى ﴿ بمفازة من العذاب ﴾ أى ملتبسين بنجاة منه على أن المفازة مصدر ميمي ولا يضر تأنيثها بالتاء لما أنها مبنية عليها وليست للدلالة على الوحدة كما فى قوله:

فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا بالموارد ولا سبيل إلى جعلها اسم مكان على أن الجار متعلق بمحذوف وقع صفة لها أى بمفازة كائنة من العذاب لأنها ليست من العذاب وتقدير فعل خاص ليصح به المعنى أى بمفازة منجية من العذاب مع كونه خلاف الأصل تعسف مستغنى عنه وقرئ بضم الباء فى الفعلين على أن الخطاب شامل للدؤمنين أيضاً وقرئ بياء الغيبة وفتح الباء فيهما على أن الفعل له عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد من يتأتى منه الحسبان ومفعولاه كما ذكر وقرئ بضم الباء فى الثانى فقط على أن الفعل للموصول والمفعول الأول محذوف لسكونه عين الفاعل والثانى بمفازة أى لا يحسبن الذين يفرحون أنفسهم فائزين وقوله تعالى فلا يحسبنهم تأكيد للأول والفاء زائدة كما مر ويجوز أن يحمل الفعل الأول على حذف المفعولين معا اختصاراً لدلالة مفعولى الثانى عليهما على عكس ما فى قوله :

بأى كتاب أو بآية منه ترى حبه عارا على وتحسب

حيث حذف فيه مفعولا الثانى لدلالة مفعولى الأول عليهما أو على أن الفعل الأول للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل حاسب ومفعوله الأول الموصول والثانى محذوف لدلالة مفعول الفعل الثانى عليه والفعل الثانى مسند إلى ضمير الموصول والفاء للعطف لظهور تفرع حسبانهم على عدم حسبانه عليه السلام ومفعولاه الضمير المنصوب وقوله تعالى بمفازة وتصدير الوعيد بينهم عن الحسبان المذكور للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة وقطع أطماعهم الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة كما نجوا به من المأخذة الدنيوية وعليه كان مبنى فرحهم وأما نهيه عليه السلام للتعريض بحسبانهم المذكور لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته عليه السلام ﴿ ولهم

عذاب أليم ﴿ بعد ما أشير إلى عدم نجاتهم من مطلق العذاب حقق أن لهم فردا منه لا غاية له في المدة والشدة كما تلوح به الجملة الاسمية والتنكير التفخيمي والوصف .

﴿ والله ﴾ أى خاصة ﴿ ملك السموات والأرض ﴾ أى السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء ويريد إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة تغذية وإماتة من غير أن يكون لغيره شائبة دخل في شيء من ذلك بوجه من الوجوه فالجملة مقررمة لما قبلها وقوله تعالى ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ تقرير لاختصاص ملك العالم الجسماني المعبر عنه بقطريه به سبحانه وتعالى قادرا على الكل بحيث لا يشذ من ملكوته شيء من الأشياء يستدعى كون ما سواه كائنا ما كان مقدورا له ومن ضرورته اختصاص القدرة به تعالى واستحالة أن يشاركه شيء من الأشياء في القدرة على شيء من الأشياء فضلا عن المشاركة في ملك السموات والأرض وفيه تقرير لما مر من ثبوت العذاب الأليم لهم وعدم نجاتهم منه وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بمناط الحكم فإن شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية مع ما فيه من الإشعار باستقلال كل من الجملتين بالتقرير ﴿ إن في خلق السموات ﴾ جملة مستأنفة سيقنت لتقرير ما سبق من اختصاصه تعالى بالسلطان القاهر والقدرة التامة صدرت بكلمة التأكيذ اعتناء بتحقيق مضمونها أى في إنشائها على ما هي عليه في ذاتها وصفاتها من الأمور التي يحارفي فهم أجلاها العقول ﴿ والأرض ﴾ على ما هي عليه ذاتا وصفة .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أى في تعاقبهما في وجه الأرض وكون كل منهما خلفه للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الأرض أو في تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قربا وبعدا بحسب الأزمنة أو في اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة أما في الطول والقصر فإن البلاد القرية

من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها وأما فى أنفسها فإن كرية الأرض تقتضى أن يكون بعض الأما كن ليلا وفى مقابله نهارا وفى بعضها صباحا وفى بعضها ظهرا أو عصرًا أو غير ذلك والليل قيل إنه اسم جنس يفرق بين واحده وجمعه بالتاء كتمر وتمرّة والليالى جمع جمع والصحيح أنه مفرد ولا يحفظ له جمع والليالى جمع ليلة وهو جمع غريب كأنهم توهموا أنها ليلة كما فى كيمكة وكياكى كأنها جمع كيمكة والنهار اسم لما بين طلوع الفجر وغروب الشمس قاله الراغب وقال ابن فارس هو ضياء ما بينهما وتقديم الليل على النهار إما لأنه الأصل فإن غرر الشهور تظهر فى الليالى وإما لتقدمه فى الخلفية حسبما ينبى عنه قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) أى نزله منه فيخلفه ﴿لآيات﴾ اسم إن دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفاً أى لآيات كثيرة عظيمة لا يقادر قدرها دالة على تعاجيب شئونه التى من جملتها ما مر من اختصاص الملك العظيم والقدرة التامة به سبحانه وعدم التعرض لما ذكر فى سورة البقرة من الفلك والمطر وتصريف الرياح والسحاب لما أن المقصود ههنا بيان استبداده تعالى بما ذكر من الملك والقدرة فاكتفى بمعظم الشواهد الدالة على ذلك وأما هناك فقد قصد فى ضمن بيان اختصاصه تعالى بالالوهية بيان اتصافه تعالى بالرحمة الواسعة فنظمت دلائل الفضل والرحمة فى سلك دلائل التوحيد فإن ما فصل هناك [هو] (١)

من آيات رحمته تعالى كما أنه من آيات ألوهيته ووحدته .

﴿لأولى الأبواب﴾ أى لذوى العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم المتجردين عن العلائق النفسانية المتخلصين من العوائق الظلمانية المتأملين فى أحوال الحقائق وأحكام النعوت المراقبين فى أطوار الملك وأسرار الملكوت المتفكرين فى بدائع صنائع الملك الخلاق المتدبرين فى روائع حكمه المودعة فى الأنفس والآفاق الناظرين إلى العالم بعين الاعتبار والشهود المتفحصين عن

حقيقة سر الحق في كل موجود المشايرين على مراقبته وذكراه غير ملتفتين إلى شيء مما سواه إلا من حيث أنه مرآة لمشاهدة جماله وآلة للملاحظة صفات كماله فإن كل ما ظهر في مظاهر الإبداع وحضر محاضر التكوين والاختراع سبيل سوى إلى عالم التوحيد ودليل قوى على الصانع المجيد ناطق بآيات قدرته فهل من سامع واع ومخبر بأنباء علمه وحكمته فهل له من داع يكلم الناس على قدر عقولهم ويرد جوابهم بحسب مقولهم يحاور تارة بأوضح عبارة ويلوح أخرى بالطف إشارة مراعيًا في الحوار إلهامهم وتصريحهم وإن من شيء إلا تسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم فتأمل في هذه الشئون والأسرار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار . عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل لك يا عائشة أن تأذني لي الليلة في عبادة ربّي فقلت يا رسول الله إني لأحب قربك وأحب هوائك قد أذنت لك فقام إلى قربته من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلي فقرأ من القرآن وجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وجعل يبكي ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بليت الأرض فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا ثم قال وبألى لا أبكي وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة إن في خلق السموات والأرض الخ ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروى ويل لمن لا كها بين فكيه ولم يتأملها وعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول إن في خلق السموات والأرض الخ .

((الذين يذكرون الله)) الموصول إما موصول بأولى الأبواب مجرور على أنه نعت كاشف له بما في حيز الصلة وإما مفصول عنه مرفوع أو منصوب على المدح أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر هو القول المقدر قبل قوله تعالى ربنا وفيه من تفكيك الأنظم الجليل ما لا يخفى وأياماً كان فقد أشير بما في حيز صلته أن المراد بهم الذين لا يغفلون

عنه تعالى في عامة أوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته لما أيقنوا بأن كل ما سواه فائض منه وعائد إليه فلا يشاهدون حالا من الأحوال في أنفسهم وإليه أشير بقوله عز وجل ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ ولا في الآفاق وإليه أشير بما بعده إلا وهم يعاينون في ذلك شأننا من شئونه تعالى فالمراد به ذكره تعالى مطلقاً سواء كان ذلك من حيث الذات أو من حيث الصفات والأفعال وسواء قارنه الذكر اللساني أولاً وأما ما يحكى عن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة رضى الله عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله تعالى فقال بعضهم أما قال الله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً) فقاموا يذكرون الله على أقدامهم فليس مرادهم به تفسير الآية وتحقيق مصداقها على التعيين وإنما أرادوا به التبرك بنوع موافقة لها في ضمن الإتيان بفرد من أفراد مدلولها وأما حمل الذكر على الصلاة في هذه الأحوال حسب الاستطاعة كما قال عليه السلام لعمران بن الحصين صلى قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب توىء إيماءً فيما لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه والقيام والقعود جمع قائم وقاعد كنيام ورقود جمع قائم وراقد وانتصابهما على الحالية من ضمير يذكرون أى يذكرونه قائمين وقاعدين وقوله تعالى وعلى جنوبهم متعلق بمحذوف معطوف على الحاليين أى وكائنين على جنوبهم أى مضطجعين والمراد تعميم الذكر للأوقات كما مر وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ليس لتخصيص الذكر بها بل لأنها الأحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الإنسان غالباً ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ عطف على يذكرون منتظم معه في حيز الصلة فلا محل له من الإعراب وقيل محله النصب على أنه معطوف على الأحوال السابقة وليس بظاهر وهو بيان لتفكيرهم في أفعاله سبحانه إثر بيان تفكيرهم في ذاته تعالى على الإطلاق وأشار إلى نتيجة التي يؤدي إليها من معرفة أحوال المعاد حسبما نطقت به ألسنة الرسل وآيات الكتاب فكما أنها آيات تشريعية هادية للخلق إلى معرفته تعالى ووجوب طاعته كذلك المخلوقات آيات تكوينية مرشدة لهم إلى ذلك فالأولى منبهات لهم على

الثانية ودواع إلى الاستشهاد بها كذه الآية السكرية ونحوها بما ورد في مواضع غير محصورة من التنزيل والثانية مؤيدات للأولى وشواهد دالة على صحة مضمونها وحقية مكشوفها فإن من تأمل في تضاعيف خلق العالم على هذا النمط البديع قضى باتصاف خالقه تعالى بجميع ما نطقت به الرسل والكتب من الوجوب الذاتي والوحدة الذاتية والملك القاهر والقدرة التامة والعلم الشامل والحكمة البالغة وغير ذلك من صفات السكال وحكم بأن من قدر على إنشائه بلا مثال يحتديه أو قانون ينتحيه فهو على إعادته. بالبعث أقدر وحكم بأن ذلك ليس إلا لحكمه باهرة هي جزاء المكلفين بحسب استحقاقهم المنوط بأعمالهم أى علومهم وأعتقداتهم التابعة لأنظارهم فيما نصب لهم من الحجج والدلائل والآمارات والمخايل وسائر أعمالهم المتفرعة على ذلك فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح بل متناول للعمل القلبي هو أشرف أفرادها لما أن لكل من القلب والقالب عملاً خاصاً .

ومن قضية كون الأول أشرف من الثاني كون عمله أيضاً أشرف من عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفته تعالى التي هي أول الواجبات على العباد والغاية القصوى من الخلق على ما نطق به عز وجل وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون أى ليعرفون كما أعرب عنه قوله عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف خلقت الخلق لأعرف وإنما طريقها النظر والتفكير فيما ذكر من شئونه تعالى وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لا تفضلوني على يونس بن متى فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وإنما كان ذلك التفكير في أمر الله تعالى ولذلك قال عليه السلام لآعبادة مثل التفكير وقد عرفت أنه مستتبع لتحقيق ما جاءت به الشريعة الحقة وإلا لما فسر النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليباوكم أيامكم أحسن عملاً) بقوله عليه الصلاة والسلام أيامكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله تعالى (٤٠ - أبو السعود - أول)

فإن التورع عن محارمه سبحانه موقوف على معرفة الحلال والحرام المنوطة بالكتاب والسنة فيعتمد تنصديق الآيات التكوينية وتوافق الأدلة السمعية والعقلية وهو السر في نظم ما حكى عن المتنسكين من الأمور المستدعية للإيمان بالشرعية في سلك نتيجة تفكيرهم كما ستقف عليه وإظهار خلق السموات والأرض مع كفاية الإضمار لإبراز كمال العناية ببيان حالهم والإيذان بكون تفكيرهم على وجه التحقيق والتفصيل وعدم التعرض لإدراج اختلاف الملوين في سلك التفكير مع ذكره فيما سلف إما للإيذان بظهور اندراجهم فيه لما أن ذلك من الأحوال التابعة لأحوال السموات والأرض كما أشير إليه وإما للإشعار بمسارعتهم إلى الحكم بالنتيجة بمجرد تفكيرهم في بعض الآيات من غير حاجة إلى بعض آخر منها في إثبات المطلوب والخلق مصدر على حاله أى يتفكرون في إنشائهما وإبداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات وقيل بمعنى المخلوق على أن الإضافة بمعنى فى أى يتفكرون فيما خلق فيهما أعم من أن يكون بهاريق الجزئية منهما أو بطريق الحلول فيهما أو على أنها بيانة .

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ كلمة هذا إشارة إلى السموات والأرض متضمنة لضرب من التعظيم كما فى قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) والتذكير لما أنهما باعتبار تعلق الخلق بهما فى معنى المخلوق أو إلى الخلق على تقدير كونه بمعنى المخلوق وباطلا إما صفة لمصدر مؤكد محذوف أو حال من المفعول به أى ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثا عاريا عن الحكمة خاليا عن المصلحة كما تلبى عنه أوضاع الغافلين عن ذلك المعرضين عن التفكير فيه بل منتظما لحكمة^(١) جليلة ومصالح عظيمة من جعلتها أن يكون مدارا لمعايش العباد ومنارا يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد حسبا أفصحته عنه الرسل والكتب الإلهية كما تحققتة مفصلا والجملة بتمامها فى حين النصب بقول مقدر

(١) فى ط : الحسم .

هو على تقدير كون الموصول نعتاً لأولى الألباب استئناف مبين لنتيجة التفكر
ومدلول الآيات ناشئ مما سبق فإن النفس عند سماع تخصيص الآيات المنصوبة
في خلق العالم بأولى الألباب ثم وصفهم بذكر الله تعالى والتفكر في محال تلك
الآيات تبقى مترقبة لما يظهر منهم من آثارها وأحكامها كأنه قيل فماذا يكون
عند تفكيرهم في ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة فقيل كيت وكيت مما ينبغي
عن وقوفهم على سر الخلق المؤدى إلى معرفة صدق الرسل وحقيقة الكتب الناطقة
بتفاصيل الأحكام الشرعية على التفصيل الذي وقفت عليه هذا وأما جعله حالاً
من المستمكن في الفعل كما أطبق عليه الجمهور فما لا يساعده جزالة النظم الكريم
لما أن ما في حيز الصلة وما هو قيد له حقه أن يكون من مبادئ الحكم الذي
أجرى على الموصول ودواعي ثبوته له كذكرهم الله عز وجل في عامة أوقاتهم
وتفكيرهم في خلق السموات والأرض فإنهما مما يؤدي إلى اجتلاء تلك الآيات
والاستدلال بها على المطلوب ولا ريب في أن قولهم ذلك ليس من مبادئ
الاستدلال المذكور بل من نتائج المترتبة عليه فاعتباره قيداً لما في حيز الصلة
مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل نعم هو حال من ذلك على تقدير كون الموصول
مرفوعاً أو منصوباً على المدح أو مرفوعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف إذ لا اشتباه
في أن قولهم ذلك مبادئ مدحهم ومحاسن مناقبهم وفي إبراز هذا القول في
معرض الحال دون الخبر إشعار بمقارنته لتفكيرهم من غير تلغيم و تردد في ذلك.
وقوله تعالى ﴿سبحانك﴾ أي تنزيها لك عما لا يليق بك من الأمور التي
من جملتها خلق ما لا حكمة فيه اعتراض مؤكد لمضمون ما قبله وممد لما بعده
من قوله تعالى ﴿فقنا عذاب النار﴾ فإن معرفة سر خلق العالم وما فيه من
الحكمة البالغة والغاية الحميدة والقيام بما تقتضيه من الأعمال الصالحة وتنزيه
الصانع تعالى عن العبث من دواعي الاستعادة مما يحيق بالمخلين بذلك من وجهين
أحدهما الوقوف على تحقق العذاب فالفاء لترتيب الدعاء على ما ذكر والثاني
الاستعداد لقبول الدعاء فالفاء لترتيب المدعو أعني الوقاية على ذلك كأنه قيل
وإذ قد عرفنا شرك وأطعنا أمرك ونزهنالك عما لا ينبغي فقنا عذاب النار الذي

هو جزاء الذين لا يعرفونك ^(١) ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتَه ﴾
مبالغة في استدعاء الوقاية وبيان لسببه وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة في التضرع
والجوار وتأكيدها لإظهار كمال اليقين بمضمونها والإيذان بشدة الخوف وإظهار
النار في موضع الإضمار لتحويل أمرها وذكر الإدخال في مورد العذاب لتعيين
كيفيةه وتعيين غاية فظاعته . قال الواحدى للإخراء معان متقاربة يقال أخزاه
الله أى أبعدوه وقيل أهانه وقيل أهلكه وقيل فضحه . قال ابن الأنبارى الخزى
لغة الهلاك بتلف أو بانقطاع حجة أو بوقوع في بلاء والمعنى فقد أخزيتَه خزيا
لا غاية وراءه كقولهم من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك أى المرعى الذى
لا مرعى بعده وفيه من الإشعار بفضاعة العذاب الروحاني ما لا يخفى .

وقوله تعالى ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالهم
بيان خلود عذابهم بفقدان من ينصرهم ويقوم بتخليصهم وغرضهم تأكيد
الاستدعاء ووضع الظالمين موضع ضمير المدخلين لذمهم والإشعار بتعليل
دخولهم النار بظلمهم ووضعهم الأشياء في غير مواضعها وجمع الأنصار بالنظر
إلى جمع الظالمين أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار والمراد به من ينصر
بالمداغة والقهر فليس في الآية دلالة على نفي الشفاعة على أن المراد بالظالمين
هم الكفار .

﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ﴾ حكاية لدعاء آخر لهم مبنى على
تأملهم في الدليل السمعى بعد حكاية دعائهم السابق المبني على التفكير في الأدلة
العقلية وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لإظهار كمال الضراعة والابتهال والتأكيد
للإيذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة وكمال النشاط والمراد بالنداء الدعاء
وتعديتهما بالى لتضمنهما معنى الإنهاء وباللام لاشتغالها على معنى التخصيص ^(٢)
والمراد بالمتنادى الرسول صلى الله عليه وسلم وتنوينه ^(٣) للتفخيم وإيثاره على

(١) في ط : لا يعرفون ذلك .

(٢) في ط : الاحتصاص .

(٣) في ط : وتنوينه .

الداعى للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الدانى والقاصى لما فيه من الإيذان برفع الصوت وينادى صفة لمناديا عند الجمهور كما فى قولك سمعت رجلا يقول كيت وكيت ولو كان معرفة لكان حالا منه كما إذا قلت سمعت زيدا يقول الخ ومفعول ثان لسمعنا عند الفارسى وأتباعه وهذا أسلوب يديع يصار إليه للمبالغة فى تحقيق السماع والإيذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم وللتوسل إلى تفصيله واستحضار صورته وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك حيث عبر عن المسموع منه بالمنادى ثم وصف بالنداء للإيمان على طريقة قولك سمعت متكلمًا يتكلم بالحكمة لما أن التفسير بعد الإبهام والتقييد بعد الإطلاق أوقع عند النفس وأجدر بالقبول وقيل المنادى القرآن العظيم ﴿أن آمنوا﴾ على أن دأب التفسيرية أو بأن آمنوا على أنها مصدرية ﴿بربكم﴾ بما لكم ومتولى أموركم ومبلغكم إلى الكمال وفى إطلاق الإيمان ثم تقييده تفضيخ لشأنه .

﴿فآمننا﴾ أى فآمننا بأمره وأجبنا نداءه ﴿ربنا﴾ تكرير للنصرع وإظهار كمال الخضوع وعرض للاعتراف برؤيته مع الإيمان به والفاء فى قوله تعالى : ﴿فآمنر لنا﴾ الفاء لترتيب المغفرة أو الدعاء بها على الإيمان به تعالى والإقرار برؤيته فإن ذلك من دواعى المغفرة والدعاء بها ﴿ذقوبنا﴾ أى كبائرنا فإن الإيمان يجب ما قبله ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ أى صغائرنا فإنها مكفرة عن اجتنب^(١) الكبائر ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أى مخصوصين بصحبتهم مغنمين لجوارهم معدودين من زمرة من وفى إشعار بأنهم كانوا يحبون لقاء الله ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والأبرار جمع بار أو بر كالأصحاب وأرباب ﴿ربنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك﴾ حكاية لدعاء آخر لهم مسبوق بما قبله معطوف عليه لتأخر التحلية عن التخليّة وتكرير النداء لما مر مكررا والمراد بالموعود الثواب وعلى لما متعلقة بالوعد كما فى قولك

(١) فى ط : ومجتنب .

وعد الله الجنة على الطاعة أى وعدتنا على تصديق رسلك أو بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف أى وعدتنا وعدا كائننا على السنة رسلك وقيل التقدير منزلا على رسلك أو محولا على رسلك ولا يخفى أن تقدير الأفعال الخاصة فى مثل هذه المواقع تعسف وجمع الرسل مع أن المنادى هو الرسول صلى الله عليه وسلم وحده لما أن دعوته عليه السلام لا سيما فى باب التوحيد وما أجمع عليه الكل من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم عليهم السلام كيف لا وقد أخذ منهم الميثاق بالإيمان به عليه السلام لقوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب) الآية وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعود على السنة الكل وإيثار الجمع لإظهار كمال الثقة بإنجاز الموجود بناء على كثرة الشهود .

((ولا تخزنا يوم القيامة)) قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله (يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه) مظهرين أنهم بمن أمن معه رجاء للانتظام فى سلكهم يومئذ وقوله تعالى ((إنك لا تخلف الميعاد)) تعليل لتحقيق ما نظموا فى سلك الدعاء وهذه الدعوات وما فى تضاعيفها كمال الضراعة والابتهال ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد بل لخوفهم من ألا يكونوا من جملة الموجودين بتغير الحال وسوء الخاتمة والمآل فرتجعها إلى الدعاء بالتثبيت أو للمبالغة فى التعبد والخشوع والميعاد الوعد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه البعث بعد الموت وفى الآثار عن جعفر الصادق من حزنه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ هذه الآية .

((فاستجاب لهم ربهم)) الاستجابة بمعنى الإجابة وقال تاج القراء الإجابة عامة والاستجابة خاصة بأعطاء المسئول وتعدى باللام وبمنفسها كما فى قوله :
 • فلم يستجبه عند ذاك مجيب • وهو عطف على الاستئناف المقدر فيما سلف مترتب على ما فى حيزه من الادعية كما أن قوله عز وجل (ثم قيل للذين ظلموا) الخ عطف على قيل المقدر قبل الآن أى قيل لهم الآن آمنتم به ثم قيل الآية وكما أن قوله تعالى فى سورة الأعراف (ونطبع على قلوبهم) معطوف

على ما دل عليه معنى أو لم يهد لهم الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ ولا ضير في اختلافهما صيغة لما أن صيغة المستقبل هناك للدلالة على الاستمرار المناسب لمقام الدعاء وصيغة الماضي ههنا للإيذان بتحقيق الاستجابة وتقررهما كما لا ضير في الاختلاف بين قوله تعالى (إذ تستغيثون ربكم) وبين ما عطف عليه من قوله تعالى (فاستجاب لكم) كما سيأتي ويجوز أن يكون معطوفاً على مضمير ينساق إليه الذهن أى دعوا بهذه الأدعية فاستجاب الخ وأما على تقدير كون المقدّر حالاً فهو عطف على يتفكرون باعتبار مقارنته لما وقع حالاً من فاعله أعنى قوله تعالى ربنا ربنا الخ فإن الاستجابة مترتبة على دعواتهم لا على مجرد تفكيرهم وحيث كانت هي من أوصافهم الجميلة المترتبة على أعمالهم بالآخرة استحققت الانظام في سلك محاسنهم المعدودة في أنناء مدحهم وأما على تقدير كون الموصول نعتاً لأولى الأبواب فلا مساغ لهذا العطف أصلاً لما عرفت من أن حق ما في حيز الصلة أن يكون من مبادئ جريان الحكم على الموصول وقد عرفت أن دعواتهم السابقة ليست كذلك فأين الاستجابة المتأخرة عنها وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى السكّال مع الإضافة إلى ضميرهم من تشيرفهم وإظهار اللطف بهم ما لا يخفى .

((أنى لا أضيع عمل عامل منكم)) أى بآنى وهكذا قرأ أبى رضى الله عنه والباء للسببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم أى سنته السنية مستمرة على ذلك والالتفات إلى التكلم والخطاب لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطات والمراد تأكيدها ببيان سببها والإشعار بأن مدارها أعمالهم التى قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء وتعميم الوعد لسائر العاملين وإن لم يبلغوا درجة أولى الأبواب لتأكيد استجابة الدعوات المذكورة والتعبير عن ترك الإثابة بالإضاعة مع أنه ليس بإضاعة حقيقة إذ الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه وقرىء بكسر الهمزة على إرادة

القول أى قائلاً إني الخ فلا إلتفات حينئذ وقرىء لا أضيع بالتشديد ومن متعلقة بمحذوف وقع صفه لعامل أى عامل كائن منكم وقوله تعالى ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ بيان لعامل وتأكيده لعمومه وقوله تعالى ﴿ بعضكم من بعض ﴾ جملة معترضة مبينة لسبب انتظام النساء في سلك الرجال في الوعد فإن كون كل منهما من الآخر لتشعبهما من أصل واحد أو لفرط الإلتصال بينهما أو لاتفاقهما في الدين والعمل بما^(١) يستدعى الشركة والاتحاد في ذلك . روى أن أم سلمة رضى الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت وقوله تعالى ﴿ فالذين هاجروا ﴾ ضرب تفصيل لما أجمل في العمل وتعداد لبعض أحاسن أفرادهم على وجه المدح والتعظيم أى فالذين هجروا^(٢) الشرك أو الأوطان والعشائر للدين وقوله تعالى .

﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ على الأول عبارة عن نفس الهجرة وعلى الثانى عن كبتيتها وكونها بالقسر والاضطرار ﴿ وأوذوا في سبيل ﴾ أى بسبب الله ومن أجله وهو متناول لكل أذية نالته من قبل المشركين ﴿ وقاتلوا ﴾ أى الكفار في سبيل الله تعالى ﴿ وقتلوا ﴾ استشهدوا في القتال وقرىء بالعكس لما أن الواو لا تستدعى الترتيب أو لأن المراد قتل بعضهم وقتال آخرين إذ ليس المعنى على اتصاف كل فرد من أفراد الموصول المذكور بكل واحد مما ذكر في حيز الصلة بل على اتصاف الكل بالكل في الجملة سواء كان ذلك باتصاف كل فرد من الموصول بواحد من الأوصاف المذكورة أو باثنين منها أو بأكثر إما بطريق التوزيع أو بطريق حذف بعض الموصولات من البين كما هو رأى الكوفيين كيف لا ولو أدير الحكم على اتصاف كل فرد بالكل لكان قد أضيع عمل من اتصف بالبعض وقرىء وقتلوا بالتشديد .

﴿ لا كفرن عنهم سيئاتهم ﴾ جواب قسم محذوف أى والله لا كفرن والجملة القسمية خبر للبتدأ الذى هو الموصول وهذا تصريح بوعد ما سأله

(١) في ط : مما .

(٢) في ط : هاجروا .

الداعون بخصوصه بعد ما وعد ذلك عموماً وقوله تعالى ﴿ ولأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ إشارة إلى ما عبر عنه الداعون فيما قبل بقولهم وآتنا ما وعدتنا على رسلك وتفسير له ﴿ ثواباً ﴾ مصدر مؤكد لما قبله فإن تكفير السيئات وإدخال الجنة في معنى الإثابة وقوله تعالى ﴿ من عند الله ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة له مبينة لشرفه أى لأثيبتهم إثابة كائنة أو ثواباً كائناً من عنده تعالى بالغاً إلى المرتبة العالية^(١) من الشرف وقوله تعالى ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله والاسم الجليل مبتدأ خبره عنده وحسن الثواب مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو هو مبتدأ ثان والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول والعندية عبارة عن الاختصاص به تعالى مثل كونه بقدرته تعالى وفضلهم بحيث لا يقدر عليه غيره بحال شيء يكون بحضرة أحد لا يد عليه لغيره فالاختصاص مستفاد من التمثيل سواء جعل عنده خبراً مقدماً لحسن الثواب أولاً وفي تصدير الوعد الكريم بعدم إضاعة العمل ثم تعقيقه بمثل هذا الإحسان الذي لا يقدر^(٢) قدره من لطف المسلك المنبئ عن عظم شأن المحسن ما لا يخفى .

﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ بيان لقبح ما أوتى الكفرة من حظوظ الدنيا وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها لإثريان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على أن المراد تثبيته على ما هو عليه كقوله تعالى (فلا تطع المكذبين) أو على أن المراد نهى المؤمنين كما يوجه الخطاب إلى مداره القوم ورؤسائهم والمراد أفناؤهم^(٣) ولكل أحد من يصلح للخطاب من المؤمنين والنهي للمخاطب وإنما جعل للتقلب مبالغة أى لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة ووفور الحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى منهم من التبسط في المكاسب والمتاجر والمزارع . روى أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين

(١) في ط : القاصية .

(٢) في ط : لا يقادر .

(٣) في ١١ : عاتتهم وهما بمعنى .

في رخاء ولين عيش فيقولون إن أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت وقرىء لا يغرنك بالنون الخفيفة ﴿متاع قليل﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى هو متاع قليل لا قدر له في جنب ما ذكر من ثواب الله تعالى قال عليه السلام ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في ليم فليستظر به يرجع فإذا لا يجدى وجوده لو أجديه ولا يضر فقداؤه لفاقديه ﴿ثم ما وأهم﴾ أى مصيرهم الذى يأوون إليه لا يبرحونه ﴿جهنم﴾ التى لا يوصف عذابها وقوله تعالى .

﴿وبئس المهاد﴾ ذم لها وإيدان بأن مصيرهم إليها بما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم والمخصوص بالذم محذوف أى بئس ما مهدوا لأنفسهم جهنم ﴿لكن﴾ الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴿بيان لسكمال حسن حال المؤمنين غب بيان وتكرير له لإثر تقرير مع زيادة خلودهم في الجنات لitim بذلك سرورهم ويزداد تبجحهم ويتكامل به سوء حال الكفرة وإيراد التقوى في حيز الصلة للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الإتقاء من الشرك والمعاصى فالوصول مبتدأ والظرف خبره وجنات مرتفع به على الفاعليه لاعتماده على المبتدأ أو الظرف خبر الجنات والجملة خبر للموصول وخالدين فيها أى فى الجنات حال مقدره من الضمير أو من جنات لتخصصها بالوصف والعامل ما فى الظرف من معنى الاستقرار ﴿نزلا من عند الله﴾ وقرىء بسكون الزاى وهو ما يعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما قال أبو الشعر الضبي :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا
واتصابه على الحالية من جنات لتخصصها بالوصف والعامل فيه ما فى
الظرف من معنى الاستقرار وقيل هو مصدر مؤكد كأنه قيل رزقا أو عطاء من
عند الله ﴿وما عند الله خير﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿للأبرار﴾ متعلق
بمحذوف هو صفة لخير أى ما عنده تعالى من الأمور المذكورة الدائمة خير
كأن للأبرار أى بما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل والتعبير عنهم

بالأبرار للإشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البر كما أنها من قبيل التقوى والجملة تذييل لما قبلها .

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ جملة مستأنفة سيقى لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حكيت هنتهم من نبذ الميثاق وتحريف الكتاب وغير ذلك بل منهم من له مناقب جليلة . قيل هم عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم أربعون من أهل نجران واثنتان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا وقيل المراد به أصحاب النجاشي فإنه لما مات فعاه جبريل إلى النبي عليه السلام فقال عليه السلام أخرجوا فصولوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فخرج إلى البقيع فنظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه واستغفر له فقال المنافقون أنظروا إلى هذا يصلى على علج نصراني لم يره قط وليس على دينه فنزلت وإنما دخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما كما في قوله تعالى ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ .

﴿ وما أنزل إليكم ﴾ من القرآن ﴿ وما أنزل إليهم ﴾ من الكتابين وتأخير إيمانهم بهما عن إيمانهم بالقرآن في الذكر مع أن الأمر بالعكس في الوجود لما أنه عيار ومبين عليهما فإن إيمانهم بهما إنما يعتبر بتبعية إيمانهم به إذ لا عبرة بأحكامهما المنسوخة وما لم ينسخ منها إنما يعتبر من حيث ثبوته بالقرآن ولتعلق ما بعده بهما والمراد بإيمانهم بهما إيمانهم بهما من غير تحريف ولا كتم كما هو ديدن المخرفين وأتباعهم من العامة ﴿ خاشعين لله ﴾ حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار المعنى ﴿ لا يشتركون بآيات الله ثمتنا قليلا ﴾ تصريح بمخالفتهم للمخرفين والجملة حال كما قبله ونظمها في سلك محاسنهم ليس من حيث عدم الاشتراء فقط بل لتضمن ذلك لإظهار ما في الكتابين من شواهد نبوته عليه السلام ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم من حيث اتصافهم بما عد من صفاتهم الحميدة وما فيه من معنى البعد للدلالة على رتبهم وبعد منزلتهم في الشرف والفضيلة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ لهم ﴾ وقوله ﴿ أجرهم ﴾ أى المختص بهم الموعود لهم بقوله تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ وقوله تعالى ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾

مرتفع بالظرف على الفاعلية أو على الإبتداء والظرف خبره والجملة خبر
لأولئك وقوله تعالى ﴿عند ربهم﴾ نصب على الحالية من أجرهم والمراد به
التشريف كالصفة .

﴿إن الله سريع الحساب﴾ لنفوذ علمه بجميع الأشياء فهو عالم بما يستحقه
كل عامل من الأجر من غير حاجة إلى تأمل والمراد بيان سرعة وصول الأجر
الموعود إليهم ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إثر ما بين في تضعيف السورة الكريمة
فنون الحكم والأحكام ختمت بما يوجب المحافظة عليها ف قيل ﴿اصبروا﴾ أى
على مشاق الطاعات وغير ذلك من المسكاره والشدائد ﴿وصابروا﴾ أى
غالبوا أعداء الله تعالى بالصبر فى مواطن الحروب وأعدى عدوكم بالصبر على
مخالفة الهوى وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشد
منه وأشق ﴿ورابطوا﴾ أى أقيموا فى الشغور رابطين خيلكم فيها مترصدين
للغزو ومستعدين له قال تعالى (ومن رابط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وعن
النبي صلى الله عليه وسلم من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر
رمضان وقيامه لا يفطرو ولا ينفتل عن صلاته إلى الحاجة ﴿واتقوا الله﴾
فى مخالفة أمره على الإطلاق فيندرج فيه ما ذكر فى تضعيف السورة الكريمة
إندراجا أولياً ﴿لعلمكم تفلحون﴾ كى تتنظموا فى زمرة المفلحين الفائزين
بكل مطلوب الناجين من كل الكروب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ
سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسدهم . وعنه صلى الله
عليه وسلم من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه
وملائكته حتى تحجب الشمس والله أعلم .

سورة النساء ، مدنية ، وهي مائة وخمس وسبعون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها الناس ﴾ خطاب يعم حكمه جميع المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم من الموجودين حينئذ والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة عند انتظامهم فيه لكن لا بطريق الحقيقة فإن خطاب المشافهة لا يتناول القاصرين عن درجة التكليف إلا عند الحنابلة بل إما بطريق تغليب الفريق الأول على الآخرين وإما بطريق تعميم حكمه لهما بدليل خارجي فإن الإجماع منعقد على أن آخر الأمة مكلف بما كلف به أولها كما ينبى عنه قوله عليه السلام الحلال ما جرى على لسانى إلى يوم القيامة والحرام ما جرى على لسانى إلى يوم القيامة وقد فصل فى موضعه وأما الأسم الدارجة قبل النزول فلا حظ لهم فى الخطاب لاختصاص الأوامر والنواهى بمن يتصور منه الامتثال وأما اندراجهم فى خطاب ما عداهما بما له دخل فى تأكيد التكليف وتقوية الإيجاب فستعرف حاله ولفظ الناس ينتظم الذكور والإناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكر فى قوله تعالى ﴿ اتقوا ربكم ﴾ فواردة على طريقة التغليب لعدم تناولها حقيقة للإناث عند غير الحنابلة وأما إدخالهن فى الأمر بالتقوى بما ذكر من الدليل الخارجى وإن كان فيه مراعاة جانب الصيغة لكنه يستدعى تخصيص لفظ الناس ببعض أفراده والمأمور به إما مطلق التقوى التى هى التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك وإما التقوى فيما يتعلق بحقوق أبناء الجنس أى اتقوه فى مخالفة أوامره ونواهيه على الإطلاق أو فى مخالفة تسكليفه الوارة ههنا وأياً ما كان فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب وكذا وصف الرب بقوله تعالى .

﴿ الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ فإن خلقه تعالى ليأهم على هذا النمط البديع لإنبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التى من جملتها عقابهم على معاصيهم وعن نعمة كاملة لأقدارها من أقوى الدواعى إلى الاتقاء من موجبات

نقمته وأتم الزواجر عن كفران نعمته وكذا جعله تعالى إياهم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة هي نفس آدم عليه السلام من موجبات الاحتراز عن الإخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الأخوة وتعميم الخطاب في ربكم وخلقكم للامم السالفة أيضا مع اختصاصه فيما قبل بالمأمورين بناء على أن تذكير شمول ربوبيته تعالى وخلقته للكل من مؤكدات الأمر بالتقوى وموجبات الامتثال به تفكيك للنظم الكريم مع الاستغناء عنه لأن خلقه تعالى للمأمورين من نفس آدم عليه السلام حيث كان بواسطة ما بينهم وبينه عليه السلام من الآباء والأمهات كان التعرض لخلقهم متضمنا للتعرض لخلق الوسايط جميعا وكذا التعرض لربوبيته تعالى لهم متضمن للتعرض لربوبيته تعالى لأصولهم قاطبة لا سيما وقد نطق بذلك قوله عز وجل ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ فإنه مع ما عطف عليه صريح في ذلك وهو معطوف إما على مقدر ينبي عنه سوق الكلام لأن تفريغ الفروع من أصل واحد يستدعي إنشاء ذلك الأصل لا محالة كأنه قيل خلقكم من نفس واحدة خلقها أولا وخلق منها زوجها الخ وهو استئناف مسوق لتقرير وحدة المبدأ وبيان كيفية خلقهم منه وتفصيل ما أجمل أولا أو صفة لنفس مفيدة لذلك ولما على خلقكم داخل معه في حين الصلة مقرر ومبين لما ذكر وإعادة الفعل مع جواز عطف مفعوله على مفعول الفعل الأول كما في قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) الخ لإظهار ما بين الخلقين من التفاوت فإن الأول بطريق التفريع من الأصل والثاني بطريق الإنشاء من المادة فإنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام . روى أنه عز وجل لما خلقه عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى فلما انتبه وجدها عنده وتأخير ذكر خلقها عن ذكر خلقهم لما أن تذكير خلقهم أدخل في تحقيق ما هو المقصود من حملهم على الامتثال بالأمر بالتقوى من تذكير خلقها وتقديم الجار والمجرور للاعتناء ببيان مبدئيته عليه السلام لها مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر كما مر مرارا وإيرادها بعنوان الزوجية تمهيد لما بعده من التناسل .

﴿وبث منهما﴾ أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل ﴿رجالا كثيرا﴾ نعت لرجالا مؤكدا لما أفاده التنكير من الكثرة والإفراد باعتبار معنى الجمع أو العدد وقيل هو نعت لمصدر مؤكدا للفعل أى بثا كثيرا ﴿ونساء﴾ أى كثيرة وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور ولم يشارهما على ذكورا وإناثا لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها بترشيح كل فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئية غيره وقرىء وخالق وبث على حذف المبتدأ أى وهو خالق وبث ﴿واتقوا الله الذى تساءلون به﴾ تكرير للأمر وتذكير ببعض^(١) آخر من موجبات الامتثال به فإن سؤال بعضهم بعضا بالله تعالى بأن يقولوا أسألك بالله وأنشدك الله على سبيل الاستعطاف يقتضى الانتقام من مخالفة أوامره ونواهيه وتعليق الانتقام بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بترية المهابة وإدخال الروعة ولوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته وتساؤلون أصله تتساؤلون فطرح لحدى التامين تخفيفا وقرىء بإدغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس وقرىء تسألون من الثلاثى أى تسألون به غيركم وقد فسر به القراءة الأولى والثانية وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع كما فى قولك رأيت الهلال وتراءياه وبه فسر عم يتساءلون على وجه وقرىء تسألون بنقل حركة الهمزة إلى السين .

﴿والأرحام﴾ بالنصب عطفا على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا وينصره قراءة تساءلون به وبالأرحام فإنهم كانوا يقرنونها فى السؤال والمناشدة بالله عز وجل ويقولون أسألك بالله وبالرحم أو عطما على الاسم الجليل أى اتقوا الله والأرحام وصلوها ولا تقطعوها فإن قطيعتها مما يجب أن يتقى وهو قول مجاهد وقتادة والسدى والضحاك والقراء والزجاج وقد جوز الواحدى نسبته على إغراء أى والزموا الأرحام وصلوها وقرىء بالجر عطفا على الضمير المجرور وبالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره والأرحام

(١) فى ط : لبعض .

كذلك أى مما يتقى أو يتساءل به وقد نبه سبحانه وتعالى حيث قرنها باسمه الجليل. على أن صلتها بمكان منه كما فى قوله تعالى (أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا). وعنه عليه السلام الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾ أى مراقبا وهى صيغة من رقب يرقب رقبا ورقوبا ورقبانا إذا أحد النظر لأمر يريد تحقيقه أى حافظا مطلعا على جميع ما يصدر عنك من الأفعال والأقوال وعلى ما فى ضمائرهم من النيات يريدان لمجازاتهم بذلك وهو تعليل للأمر ووجوب الامتنال به وإظهار الاسم الجليل لتأكيده وتقدير الجار والمجرور لرعاية الفواصل ،

﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ شروع فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف ما يقابلها أمرا ونهيا عقيب الأمر بنفسه مرة بعد أخرى وتقدير ما يتعلق باليتامى لإظهار كمال العناية بأمرهم ولما يستهم بالأرحام إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلبا تفوض الوصاية إلى الأجانب واليتيم من مات أبوه من اليتيم وهو الانفراد ومنه الدرة اليتيمة وجمعه على يتامى إما أنه لما جرى مجرى الأسماء جمع على يتامى ثم قلب ف قيل يتامى أو لأنه لما كان من وادى الآفات جمع على يتامى ثم جمع يتامى على يتامى والاشتقاق يقتضى صحة إطلاقه على الكبار أيضا واختصاصه بالصغار مبنى على العرف وأما قوله عليه السلام لا يتم بعد الحلم فتعليم للشريعة لا تعيين لمعنى اللفظ أى لا يجرى على اليتيم بعده حكم الأيتام والمراد بإيتاء أموالهم قطع المخاطبين أطعامهم الفارغة عنها وكف أكنفهم الخاطفة عن اختزالها وتركها على حالها غير متعرض لها بسوء حتى تأتيمهم وتصل إليهم سالمة كما ينبى عنه ما بعده عن النهى عن التبديل والأكل لا الإعطاء بالفعل فإنه مشروط بالبلوغ وإيناس الرشد على ما ينطق به قوله تعالى (حتى إذا بلغوا) الآية وإنما عبر عما ذكر بالإيتاء مجازا للإيذان بأنه ينبغى أن يكون مرادهم بذلك إيصالا إليهم لا مجرد ترك التعرض لها فالمراد بهم إما الصغار على ما هو المتبادر والأمر خاص بمن يتولى أمرهم من الأولياء والأوصياء وشمول حكمه لأولياء من كان بالغاً عند نزول الآية بطريق الدلالة دون العبارة وأما من جرى عليه

اليتم في الجملة مجازاً أعم من أن يكون كذلك عند النزول أو بالغا فالأمر شامل
لأولياء الفريقين صيغة موجبة عليهم ما ذكر من حفظ أموالهم والتحفظ عن
إضاعتها مطلقاً وأما وجوب الدفع إلى الكبار فاستفاد مما سيأتي من الأمر به
وقيل المراد بهم الصغار والإيتاء الإعطاء في الزمان المستقبل وقيل أطلق اسمهم
على الكبار بطريق الاتساع لقرب عهدهم باليتم حثاً للأولياء على المسارعة إلى
دفع أموالهم إليهم أول ما بلغوا قبل أن يزول عنهم اسمهم المعهود فالإيتاء بمعنى
الإعطاء بالفعل ويأباهما ما سيأتي من قوله تعالى (وابتلوا اليتامى) الخ فإن ما فيه
من الأمر بالدفع وارد على وجه التكليف الابتدائي لا على وجه تعيين وقته
أو بيان شرطه فقط كما هو مقتضى القوانين وأما تعميم الاسم للصغار والكبار
مجازاً بطريق التغليب مع تعميم الإيتاء للإيتاء حالاً وللإيتاء مآلاً وتعميم
الخطاب لأولياء كلا الفريقين على أن من بلغ منهم فوليه مأمور بالدفع إليه
بالفعل وأن من لم يبلغ بعد فوليه مأمور بالدفع إليه عند بلوغه الرشد فمع ما سبق
تكلف لا يخفى فالأنسب ما تقدم من حمل إيتاء أموالهم إليهم على ما يؤدي إليه
من ترك التعرض لها بسوء كما يلوح من التعبير عن الإعطاء بالفعل بالدفع سواء
أريد باليتامى الصغار أو ما يعم الصغار والكبار حسبما ذكر آتفاً وأما ما روى
من أن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له فلما بلغ طلب منه ماله
فمنعه فنزلت فلما سمعها قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب
الكبير فغير قادح في ذلك لما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
﴿ولا تبدلوا الخبيث بالطيب﴾ نهي عن أخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص
بعد النهي الضمني عن أخذه على الإطلاق وتبدل الشيء بالشيء واستبداله به أخذ
الأول بدل الثاني بعد أن كان حاصله أو في شرف الحصول يستعملان أبداً
يافضائهما إلى الحاصل بأنفسهما وإلى الزائل بالياء كما في قوله تعالى (ومن يتبدل
الكفر بالإيمان) الخ وقوله تعالى (أستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) وأما
التبديل فيستعمل تارة كذلك كما في قوله تعالى (وبدلناهم بجنّتهم جنتين) الخ
وأخرى بالعكس كما في قولك بدلت الحلقة بالخاصة إذا أذبتها وجعلتها خانماً
(٤١ - أبو السعود - أول)

نص عليه الأزهرى وتارة أخرى بإفضائه إلى مفعوليه بنفسه كما فى قوله تعالى (يبدل الله سيئاتهم حسنات) والمراد بالخبيث والطيب إن كان هو الحرام والحلال فالمنهى عنه استبدال مال اليتيم بمال أنفسهم مطلقا كما قاله الفراء والزجاج وقيل معناه لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموالهم فالمنهى عنه أكل ماله مكان ما لهم المحقق أو المقدر وقيل هو اختزال ماله مكان حفظه وأياما كان فإنما عبر عنهما بهما تنفيذا عما أخذوه وترغيبا فيما أعطوه وتصويرا لمعاملتهم بصورة ما لا يصدر عن العاقل وإن كان هو الردىء والجيد فمورد النهى ما كانوا عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم وإعطاء الردىء من مال أنفسهم وبه قال سعيد ابن المسيب والنخعى والأزهرى والسدى وتخصيص هذه المعاملة بالنهى لخروجها مخرج العادة لا لإباحة ما عداها وأما التعبير عنها بتبديل الخبيث بالطيب مع أنها تبدليه به أو تبديل الطيب بالخبيث فللايذان بأن الأولياء حقهم أن يكونوا فى المعاضات عاملين لليتيم لا لأنفسهم مراعين لجانبه قاصدين لجلب المحبوب إليه مشترى كان أو ثمنا لا لسلب المساوب عنه ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ نهى عن منكر آخر كانوا يتعاطونه أى لا تأكلوها مضومة إلى أموالكم ولا تسووا بينهما وهذا حلال وذاك حرام وقد خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولي فقيرا ﴿لأنه﴾ أى الأكل المفهوم من النهى ﴿كان حوبا﴾ أى ذنبا عظيما وقرىء بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوبا وقرىء حابا وهو أيضا مصدر كقال قولا وقالا ﴿كبيرا﴾ مبالغة فى بيان عظم ذنب الأكل المذكور كأنه قيل من كبار الذنوب العظيمة لا من أفئتها ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى﴾ الإقساط العدل وقرىء بفتح التاء فقليل هو من قسط أى جار ولا مريدة كما فى قوله تعالى (لئلا يعلم) وقيل هو بمعنى أقسط فإن الزجاج حكى أن قسط يستعمل استعمال أقسط والمراد بالخوف العلم كما فى قوله تعالى (فمن خاف من موص جنتا) عبر عنه بذلك إيدانا بكون المعلوم مخوفا محذورا لا معناه الحقيقى لأن الذى علق به الجواب هو العلم بوقوع الجور المخوف لا الخوف منه وإلا لم يكن الأمر شاملا لمن يصر على الجور ولا يخافه وهذا

شروع في النهى عن منكر آخر كانوا يباشرونه متعلق بأنفس اليتامى أصالة
 وبأموالهم تبعاً عقيب النهى عما يتعلق بأموالهم خاصة وتأخير عنه لقلّة وقوع
 المنهى عنه بالنسبة إلى الأول ونزوله منه بمنزلة المركب من الفرد وذلك أنهم
 كانوا يتزوجون من تحمل لهم من اليتامى اللاتي يلوطن لهن لكن لا لرغبة فيهن بل
 في مالهن ويسيثون في الصحبة والمعاشرة ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن وهذا
 قول الحسن وقيل هي اليتيمة التي تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها
 ويريد أن ينكحها بأذى من مهر نساءها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن
 في إكمال الصداق وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء وهذا قول الزهري
 رواية عن عروة عن عائشة رضي الله عنها وأما اعتبار اجتماع عدد كثير منهن
 كما أطبق عليه أكثر أهل التفسير حيث قالوا كان الرجل يحد اليتيمة لها مال
 وجمال ويكون وليها فيتزوجها ضناً بها عن غيره فربما اجتمعت عنده عشر
 منهن الخ فلا يساعده الأمر بنكاح غيرهن فإن المحذور حينئذ يندفع بتقليل
 عددهن أي وإن خفتم أن لا تعدلوا في حق اليتامى إذا تزوجتم بهن بإساءة العشرة
 أو ينقص الصداق ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾ ما موصولة أو موصوفة ما بعدها
 حصلت أو صفتها أو ثرت على من ذهاباً إلى الوصف وإيذاناً بأنه المقصود بالذات
 والغالب في الاعتبار لا بناء على أن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء
 لإخلاله بمقام الترغيب فيهن وقرأ ابن أبي عتبة من طاب ومن في قوله تعالى
 ﴿من النساء﴾ بيانية وقيل تبعية والمراد بهن غير اليتامى بشهادة قرينة المقام
 أي فانكحوا من استطابتهن نفوسكم من الأجنبية وفي إثارة الأمر بنكاحهن
 على النهى عن نكاح اليتامى مع أنه المقصود بالذات مزيد لطف في استئثارهم
 عن ذلك فإن النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه كما أن وصف النساء
 بالطيب على الوجه الذي أشير إليه فيه مبالغة في الاستمالة ليهن والترغيب فيهن
 وكل ذلك للاعتناء بصرفهن عن نكاح اليتامى وهو السر في توجيه النهى الضمني
 إلى النكاح المتزقب مع أن سبب النزول هو النكاح المحقق لما فيه من المسارعة
 إلى دفع الشر قبل وقوعه فرب واقع لا يرفع والمبالغة في بيان حال النكاح

المحقق فإن محظوريه المترقب حيث كانت للجور المترقب فيه فمحظورية المحقق مع تحقق الجور فيه أولى وقيل المراد بالطيب الحل أى ما حل لكم شرعاً لأن ما استطابوه شامل للمحرمات ولا يخص له بمن عداهن وفيه فرار من مخذور ووقوع فيما هو أفضح منه لأن ما حل لهم بحمل وقد تقرر أن النص إذا تردد بين الإجمال والتخصيص يحمل على الثانى لأن العام المخصوص حجة فى غير محل التخصيص والمحمل ليس بحجة قبل ورود البيان أصلاً ولئن جعل قوله تعالى حرمت عليكم الخ دالاً على التفصيل بناء على ادعاء تقدمه فى التنزيل فليجعل دالاً على التخصيص ((مثنى وثلاث ورباع)) معدولة عن أعداد مكررة غير منصرفة لما فيها من العدلين عدلها عن صيغها وعدلها عن تكررها وقيل للعدل والصفة فإنها بنيت صفات وإن لم تكن أصولها كذلك وقرئ وثلاث ورباع على القصر من ثلاث ورباع ومحملن النصب على أنها حال من فاعل طاب مؤكدة لما أفاده وصف الطيب من الترغيب فيهن والاستمالة لهن بتوسيع دائرة الإذن أى فانسكحو الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثلاثين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً حسبما يريدون على معنى أن لكل واحد منهم أن يختار أى عدد شاء من الأعداد المذكورة لا أن بعضها لبعض منهم وبعضها لبعض آخر كما فى قولك اقتسموا هذه البذرة درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أفردت لفهم منه تجوز الجمع بين تلك الأعداد دون التوزيع ولو ذكرت بكلمة أو لفات تجوز الاختلاف فى العدد ، هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة لما نزلت الآية فى اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب الكبير أخذ الأولياء . يتخرجون من ولايتهم خوفاً من لحوق الحوب بترك الإقسط مع أنهم كانوا لا يتخرجون من ترك العدل فى حقوق النساء حيث كان تحت الرجل منهم عشر ممن فقيل لهم إن خفتهم ترك العدل فى حقوق اليتامى فتخرجتم منها نخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنسكوحات لأن من تخرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متخرج ولا تائب عنه وقيل كانوا لا يتخرجون من الزنى وهم يتخرجون من ولاية اليتامى فقيل إن خفتهم الجور فى حق اليتامى .

خفافوا الزنى فانكحوا ما حل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات ولا يخفى أنه لا يساعدهما جزالة التنظيم الكريم لبنائهما على تقدم نزول الآية الأولى وشيوعها بين الناس مع ظهور توقف حكمها على ما بعدها من قوله تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) إلى قوله تعالى (وكفى بالله حسيبا) .

﴿ فإن خفتن أن لا تعدلوا ﴾ أى فيما بينهن ولو فى أقل الأعداد المذكورة كما خفتن في حق اليتامى أو كما لم تعدلوا فى حقهن أو كما لم تعدلوا فيما فوق هذه الأعداد ﴿ فواحدة ﴾ أى فالزموها أو فاختروا واحدة وذروا الجمع بالكلية وقرئ بالرفع أى فالمنع واحدة أو لحسبكم واحدة ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أى من السراى بالغة ما بلغت من مراتب العدد وهو عطف على واحدة على أن اللزوم والاختيار فيه بطريق الترسى لا بطريق النكاح كما فيما عطف عليه لاستلزامه ورود ملك النكاح على ملك اليمين بموجب اتحاد المخاطبين فى الموضوعين بخلاف ما سياتى من قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فيما ملكت أيمانكم) فإن المأمور بالنكاح هناك غير المخاطبين بملك اليمين وإنما سوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين السراى من غير حصر فى عدد لقلة تبعتهن وخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم بينهن وقرئ أو من ملكت أيمانكم وما فى القراءة المشهورة للإيدان بقصور رتبتن عن رتبة العقلاء ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والترسى ﴿ أدنى أن لا تعدلوا ﴾ العول الميل من قولهم عال الميزان عولا إذا مال وعال فى الحكم أى جار والمراد هنا الميل المحذور المقابل للعدل أى ما ذكر من اختيار الواحدة والترسى أقرب بالنسبة إلى ما عداهما من أن لا تميلوا ميلا محظورا لانتفائه رأسا بانتفاء محله فى الأول وانتفاء خطره فى الثانى بخلاف اختيار العدد فى المأثر فإن الميل المحذور متوقع فيه لتحقيق المحل والخطر ومن ههنا تبين أن مدار الأمر هو عدم العول لا تحقيق العدل كما قيل وقد فسر بأن لا يكتر عيالكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم أى مانهم فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤنة على طريقة الكتابة ويؤيده قراءة أن تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله ووجه كون

التسرى مظنة قلة العيال مع جواز الاستسكثار من السرارى أنه يجوز العزل
عنهن بغير رضاهن ولا كذلك المهاثر والجملة مستأنفة جارية مما قبلها مجرى
التعليل ﴿ وآتوا النساء ﴾ أى اللاتى أمر بنسكاحهن ﴿ صدقاتهن ﴾ جمع صدقة
كسكرة وهى المهر وقرىء بسكون الدال على التخفيف وبضم الصاد وسكون
الدال جمع صدقة كغرفة وبضمهما على التوحيد وهو تنقيل صدقة كظلمة فى
ظلمة ﴿ نحلة ﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن جرير وابن زيد فريضة من الله تعالى
لأنها مما فرضه الله فى النحلة أى الملة والشرعة والديانة فانتصابها على الحالية من
الصدقات أى أعطوهن مهورهن حال كونها فريضة منه تعالى وقال الزجاج تدينه
فانتصابها على أنها مفعول له أى أعطوهن ديانة وشرعية وقال السكبي نحلة أى
هبة وعطية من الله وتفضلا منه عليهن فانتصابه على الحالية منها أيضاً وقيل عطية
من جهة الأزواج من نحلة كذا إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه
نحلة ونحلا والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الأزواج لإفادة
معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب خاطر وانتصابها على المصدرية لأن الإيتاء
والنحلة بمعنى الإعطاء كأنه قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أى أعطوهن
مهورهن عن طيبة أنفسكم أو على الحالية من ضمير آتوا أى آتوهن صدقاتهن
ناحلين طيبى النفوس بالإعطاء أو من الصدقات أى منحولة معطاة عن طيبة
الأنفس فالخطاب للأزواج وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم
وكانوا يقولون هدياً لك النافجة لمن يولد له بنت يعنون تأخذ مهرها فتنفج به
مالك أى تعظمه ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه ﴾ الضمير للصدقات وتذكيره
لإجرائه مجرى ذلك فإنه يشار به إلى المتعدد كما فى قوله عز وجل (قل أونبئكم
بخبير من ذلكم) بعد ذكر الشهوات المعدودة وقد روى عن رؤية أنه حين قيل
له فى قوله :

فيها خطوط من سواد وبلق وكأنه فى الجسد توليع البهق
إن أردت الخطوط ينبغى أن تقول كأنها وإن أردت السواد والبلق ينبغى
أن تقول كأنهما قال لكنى أردت كأن ذلك أو للصدقات الواقع موقعه صدقاتهن

كأنه قيل وآتوا النساء صداقهن كما في قوله تعالى (فأصدق وأكن) حيث عطف
أكن على ما دل عليه المذكور ووقع موقعه كأنه قيل إن أخرتني أصدق وأكن
واللام متعلقة بالفعل وكذا عن لسن بتضمينه معنى التجاني والتجاوز ومن متعلقة
بمحذوف وقع صفة لشيء أى كائن من الصداق وفيه بعث لمن على تقليل الموهوب
﴿ نفسا ﴾ تمييز والتوحيد لما أن المقصود بيان الجنس أى إن وهن لسن
شيئا من الصداق متجافيا عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى
البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم لمن عدل عن لفظ الهبة والسماحة
إلى ما عليه النظم الكريم ليدان أن العمد في الأمر إنما هو طيب النفس
وتجافيا عن الموهوب بالمرءة ﴿ فكلوه ﴾ أى نفذوا ذلك الشيء الذى طابت به
نفوسهن وتصرفوا فيه تملكا وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه
التصرفات المسالية ﴿ هنيئا مريئا ﴾ صفتان من هتؤ الطعام ومرؤ إذا كان
سائغا لا تمنع فيه وقيل الهنىء الذى يلذه الأكل والمرىء ما يحمد عاقبته
وقيل ما ينساغ في مجراه الذى هو المرىء وهو ما بين الحلقوم إلى فم المعدة
سمى بذلك لمروء الطعام فيه أى انسياغه ونصبهما على أنهما صفتان للبصر
أى أ كلا هنيئا مريئا أو على أنهما حالان من الضمير المنصوب أى كلوه وهو
هنىء مرىء وقد يوقف على كلوه ويبدأ هنيئا مريئا على الدعاء وعلى أنهما
صفتان أقيمتا مقام المصدرين كأنه قيل هنأ ومرأ وهذه عبارة عن التحليل
والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة . روى أن ناسا كانوا يتأثمون أن يقبل
أحدهم من زوجته شيئا بما ساقه إليها فنزلت ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾
رجوع إلى بيان بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى وتفصيل ما أجمل
فيما سبق من شرط إيتائهما ووقته وكيفية إثر بيان بعض الأحكام المتعلقة
بأنفسهن أعنى نكاحهن وبيان بعض الحقوق المتعلقة بغيرهن من الأجنيات
من حيث النفس ومن حيث المال استطرادا والخطاب للأولياء نهوا أن
يؤتوا المبذرين من اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها وإنما أضيفت إليهم وهى
لليتامى لا نظرا إلى كونها تحت ولايتهم كما قيل فإنه غير مصحح لاتصافها

بالوصف الآتي بل تنزيلا لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء
فكان أموالهم عين أموالهم لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجفسي والنسبي مبالغة
في حملهم على المحافظة عليها كما في قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا يقتل
بعضكم بعضا حيث عبر عن بنى نوعهم بأنفسهم مبالغة في زجرهم عن قتلهم
فكان قتلهم قتل أنفسهم وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها مناطا للمعاش
الأولياء فقيل ﴿التي جعل الله لكم قياما﴾ أى جعلها الله شيئا تقومون به
وتنتعشون على حذف الأول فلو ضيعتموه لضعتم ثم زيد في المبالغة حتى جعل
ما به القيام قياما فكانها في أنفسها قيامكم وانتعاشكم وقيل إنما أضيفت إلى
الأولياء لأنها من جنس ما يقيم به الناس معاشهم حيث لم يقصد بها الخصوصية
الشخصية بل الجنسية التي هي معنى ما يقام به المعاش وتميل إليه القلوب ويدخر
لأوقات الاحتياج وهي بهذا الاعتبار لا تختص باليتامى وأنت خبير بأن ذلك
بمعزل من حمل الأولياء على المحافظة المذكورة كيف لا والوحدة الجنسية
المالية ليست مخصصة بما بين أموال اليتامى وأموال الأولياء بل هي متحققة
بين أموالهم وأموال الأجانب فإذن لا وجه لاعتبارها أصلا وقرىء اللاتي
واللواتى وقرىء قيا بمعنى قياما كما جاء عودا بمعنى عياذا وقرىء قواما بكسر
القاف وهو ما يقام به الشيء أو مصدر قاوم وقرىء بفتحها ﴿وارزقوهم فيها
واكسوهم﴾ أى واجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم بأن تجروا وترجوا
حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال وقيل الخطاب لسل
أحد كائنا من كان والمراد نهيه عن أن يفوض أمر ماله إلى من لا رشد له
من نسائه وأولاده ووكلائه وغير ذلك ولا يخفى أن ذلك محل بجزالة النظم
الكریم ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ أى كلاما لينا تطيب به نفوسهم وعن
سعيد بن جبیر ومجاهد وابن جریج عدوهم عدة جميلة بأن تقولوا إذا صلحتم
ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم وكل ما سكنت إليه النفس لحسنه شرعا أو عقلا
من قول أو عمل فهو معروف وما أنكرته لقبحه شرعا أو عقلا فهو منكرو
﴿وابتلوا اليتامى﴾ شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم وبيان

شرطه بعد الأمر بإيتائها على الإطلاق والنهي عنه عند كون أصحابها سفهاء أى واختبروا من ليس منهم بين السفه قبل البلوغ بمتبع أحوالهم فى صلاح الدين والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بما يليق بحالهم فإن كانوا من أهل التجارة فبأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه يبعوا وشراء وإن كانوا من له ضياع وأهل وخدم فبأن تعطوهم منه ما يصرفونه إلى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم وسائر مصارفهم حتى تبين لكم كيفية أحوالهم ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ بأن يحتلموا لأنهم يصلحون حينئذ للنكاح ﴿ فإن آنستم ﴾ أى شاهدتم وتبينتم وقرئ أحستم بمعنى أحسستم كما فى قول من قال :

خلا أن العتاق من المطايا أحسن به وهن إليه شوس
﴿ منهم رشد ﴾ أى اهتداء إلى وجوه التصرفات من غير عجز وتبذير
وتقديم الجار والمجرور على المفعول للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر
أو للاعتداد بمبدئياته له والتنوين للدلالة على كفاية رشد فى الجملة وقرئ بفتح
الراء والشين وبضمهما ﴿ فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ من غير تأخير عن حد
البلوغ وفى إثارة الدفع على الإيتاء الوارد فى أول الأمر إيدان بتفاوتهما
بحسب المعنى كما أشير إليه فيما سلف ونظم الآية الكريمة أن حتى هى التى تقع
بعدها الجمل كالتى فى قوله :

فما زالت القتل تبيع دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل
وما بعدها جملة شرطية جعلت غاية للإبتلاء وفعل الشرط بلغوا وجوابه
الشرطية الثانية كأنه قيل وابتلوا ليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع
أموالهم إليهم بشرط إيتائهم الرشدة منهم وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير
رشيد إما بالتبذير أو بالعجز لا يدفع إليه ماله أبداً وبه أخذ أبو يوسف ومحمد
وقال أبو حنيفة ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لأن البلوغ بالسن ثمانى عشر
سنة فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الإنسان لما
قاله عليه الصلاة والسلام مرورهم بالصلاة لسبع دفع إليه ماله. أو نس منه

أو لم يؤنس ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾ أى مسرفين ومبادرين
كبرهم أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون فى إنفاقها وتقولون ننفق كما
نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا والجملة تأكيد للأمر بالدفع
وتقرير لها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى ﴿ومن كان غنيا فليستعفف﴾ الخ
أى من كان من الأولياء والأوصياء غنيا فليتنزه عن أكلها وليقنع بما آتاه الله
تعالى من الغنى والرزق إشفاقاً على اليتيم وإبقاء على ماله ﴿ومن كان﴾ من
الأولياء والأوصياء ﴿فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ بقدر حاجته الضرورية
وأجرة سعيه وخدمته وفى لفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف ما يدل على أن
للوصى حقاً لقيامه عليها . عن النبي عليه الصلاة والسلام أن رجلاً قال له إن
فى حجرى يتيماً أفأكل من ماله قال بالمعروف غير متأمل مالا ولا واق مالك
بماله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ولى يقيم قال له أفأشرب من لبن إبله
قال إن كنت تبغى ضالتها وتلوط حوضها وتهمأ جرباها وتسقيها يوم ورودها
فاشرب غير مهتر بنسل ولا فاهك فى الحلب وعن محمد بن كعب يتقرم كما تتقرم
البهيمة وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لا بد منه وعن الشعبي يأكل من ماله
بقدر ما يعين فيه وعنه كالميتة يتناول عند الضرورة وعن مجاهد يستسلف فإذا
أيسر أدى وعن سعيد بن جبير إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس
ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فإن أيسر قضاءه وإن أعسر فهو
فى حل وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنى أنزلت نفسى من مال الله تعالى
منزلة ولى اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف وإذا
أيسرت قضيت . واستعف أبلغ من عف كأنه يطلب زيادة العفة ﴿فإذا دفعتم
إليهم أموالهم﴾ بعد ما راعيتهم الشرائط المذكورة وتقديم الجار والمجرور على
المفعول الصريح للاهتمام به ﴿فأشهدوا عليهم﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها
وبرئت عنها ذممكم لما أن ذلك أبعد من التهمة وأنفى للخصومة وأدخل فى الأمانة
وبراءة الساحة وإن لم يكن ذلك واجبا عند أصحابنا فإن الوصى مصدق فى
الدفع مع اليمين خلافاً للملك والشافعى رحمهما الله ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أى

محاسباً فلا تخالفوا ما أمركم به ولا تتجاوزوا ما حد لكم ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ شروع في بيان أحكام الموارث بعد بيان أحكام أموال اليتامى المنتقلة إليهم بالإرث والمراد بالأقربين المتوارثون منهم ومن في مما متعلقة بمحذوف وقع صفة لنصيب أي لهم نصيب كائن بما ترك وقد جوز تعلقها بنصيب ﴿ وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ لإيراد حكمهن على الاستقلال دون الدرج في تضاعيف أحكامهم بأن يقال للرجال والنساء الخ للإعثناء بأمرهن والإيدان بأصالتهن في استحقاق الإرث والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية فإنهم لم يكونوا يورثون النساء والأطفال ويقولون إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة روى أن أوس بن ثابت الأنصاري خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات فنوى أبناء عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه فقال ارجعي حتى أنظر ما يحدثه الله تعالى فنزلت فأرسل إليهما إن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين فلا تفرقا من مال أوس شيئاً حتى يمين فنزل يوصيكم الله الخ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي لابن العم وهو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب وقوله تعالى ﴿ مما قل منه أو كثر ﴾ بدل من ما الأخيرة بإعادة الجار وإليها يعود الضمير المجرور وهذا البدل مراد في الجملة الأولى أيضاً محذوف للتعويل على المذكور وفائدته دفع توهم تخصيص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال وتحقيق أن لكل من الفريقين حقا من كل ما جل ودق ﴿ نصيبا مفروضا ﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى (فريضة من الله) كأنه قيل قسمة مفروضة أو على الحالية إذ المعنى ثبت لهم نصيب كائن بما ترك الوالدان والأقربون حال كونه مفروضا أو على الاختصاص أي أعني نصيبا مقطوعا مفروضا واجبا لهم وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ أي قسمة التركة وإنما قدمت مع كونها مفعولا لأنها المبحوث عنها ولأن في الفاعل تعددا فلو روعي الترتيب

يفوت تجاوب أطراف الكلام ﴿أولو القربى﴾ من لا يرث ﴿واليتامى والمساكين﴾ من الأجانب ﴿فارزقوهم منه﴾ أى أعطوهم شيئاً من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة وقيل الضمير لما وهو أمر ندب كلف به البالغون من الورثة تطيباً لقلوب الطوائف المذكورة وتصدقا عليهم وقيل أمر وجوب ثم اختلف في نسخه ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ويعتذروا من ذلك ولا يمتنعوا عليهم ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾ أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذرائعهم الضعاف بعد وفاتهم أو لمن حضر المريض من العواد عند الإيصال بأن يخشوا ربهم أو يخشوا أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضر بهم بصرف المال عنهم أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزها صلة للذين على معنى وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ورثة ضعافاً خافوا عليهم الضياع وفي ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه وبعث على التراحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاد نفسه وتهديد للبخالف بحال أولاده وقرىء ضعفاء وضعافى وضعافى ﴿فليتقوا الله﴾ في ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للبدا والمنتهى إذ لا نفع للأول بدون الثانى ثم أمرهم بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب أو للمريض ما يصده عن الإسراف في الوصية وتضييع الورثة يذكره التوبة وكلمة الشهادة أو لحاضرى القسمة عذراً ووعداً حسناً أو يقولوا في الوصية ما لا يؤدى إلى تجاوز الثالث .

وقوله تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ أى على وجه الظلم أو ظالمين استئناف جىء به لتقرير مضمون ما فضل من الأوامر والنواهي

﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ﴾ أى ملء بطونهم ﴿ نَارًا ﴾ أى ما يجر إلى النار ويؤدى إليها وعن أبى بردة أنه صلى الله عليه وسلم قال : يبعث الله تعالى قوما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا ، فقليل من هم ؟ فقال عليه السلام : ألم تر أن الله يقول (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا) ، ﴿ وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ أى سيدخلون نارا هائلة مبهمة الوصف وقرىء بضم الياء مخففا ومشددا من الإصلاء والتصلية يقال صلى النار قاصى حرها وصليته وشويته وأصليته وصليته ألقيته فيها والسعير فعيل بمعنى مفعول من سمرت النار إذا ألهمت . روى أن آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا وروى أنه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلية فصعب الأمر على اليتامى فنزل قوله تعالى (وإن تخاطبواهم) الآية .

﴿ يوصيكم الله ﴾ شروع فى تفصيل أحكام الموارث المجملة فى قوله تعالى (للرجال نصيب) الخ وأقسام الورثة ثلاثة قسم لا يسقط بحال وهم الآباء والأولاد والأزواج فهؤلاء قسمان والثالث السكالة أى يأمركم ويعهد إليكم ﴿ فى أولادكم ﴾ أولاد كل واحد منكم أى فى شأن ميراثهم بدىء بهم لأنهم أقرب الورثة إلى الميت وأكثرهم بقاء بعد المورث ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ جملة مستأنفه جرى بها لتبيين الوصية وتفسيرها وقيل محلها النصب بيوصيكم على أن المعنى يفرض عليكم ويشرع لكم هذا الحكم وهذا قريب مما رآه الفراء فإنه يجرى ما كان بمعنى القول من الأفعال بجراه فى حكاية الجملة بعده ونظيره قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) الآية وقوله تعالى للذكر لا بد له من ضمير عائد إلى الأولاد محذوف ثقة بظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم أى للذكر منهم وقيل الألف واللام قائم مقامه والأصل لذكرهم ومثل صفة لموصوف محذوف أى للذكر منهم حظ الأنثيين والبداءة ببيان حكم الذكر لإظهار منيته على الأنثى كما أنها المناط فى تضعيف حظه وإيثار اسمى الذكر والأنثى على ما ذكر أولا من الرجال والنساء للتنصيص على استواء

السكبار والصغار من الفريفيين في الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر في ذلك أصلاً كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الأطفال كالنساء ﴿فإن كن﴾ أى الأولاد والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى ﴿نساء﴾ أى خلصا ليس معهن ذكر ﴿فوق اثنتين﴾ خبر ثان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ أى المتوفى المدلول عليه بقريئة المقام ﴿وإن كانت﴾ أى المولودة ﴿واحدة﴾ أى امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت وعدم التعرض للموصوف لظهوره مما سبق ﴿فلها النصف﴾ مما ترك وقرىء واحدة على كان التامة واختلف في الثنتين فقال ابن عباس حكمهما حكم الواحدة لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما وقال الجمهور حكمهما حكم ما فوقهما لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان ثم لما أوم ذلك أن يزداد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين﴾ ويؤيد ذلك أن البنات الواحدة لما استحققت الثلث مع أخيها الأقوى منها في الاستحقاق فلأن تستحقه مع مثلها أولى وأحرى وأن البناتين أمس رحما من الأخنتين وقد فرض الله لهما الثلثين حيث قال تعالى ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ .

﴿ولأبويه﴾ أى لأبوى الميت . غير النظم الكريم لعدم اختصاص حكمه بما قبله من الصور ﴿لشكل واحد منهما﴾ بدل منه بتكرير العامل وسط بين المبتدأ الذى هو قوله تعالى ﴿السدس﴾ وبين خبره الذى هو لأبويه ونقل الخبرية إليه تنصيحا على استحقاق كل منهما السدس وتأكيده بالتفصيل بعد الإجمال وقرىء السدس بسكون الدال تخفيفا وكذلك الثلث والرابع والثلثين ﴿مما ترك﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من السدس والعامل الاستقرار المعتبر في الخبر أى كأننا مما ترك المتوفى ﴿إن كان له ولد﴾ أو ولد ابن ذكر كان أو أنثى واحدا أو متعددا غير أن الأب في صورة الأنوثة بعد ما أخذ فرضه المذكور ويأخذ ما بقى من ذوى الفروض بالعصوبة ﴿فإن لم يكن له ولد﴾ ولا ولد ابن ﴿وورثه أبواه﴾ فحسب ﴿فلأمه الثلث﴾ مما ترك والباقي

للأب وإنما لم يذكر لعدم الحاجة إليه لأنه لما فرض انحصار الوارث في أبويه وعين نصيب الأم علم أن الباقي للأب وتخصيص جانب الأم بالذكر وإحالة جانب الأب على دلالة الحال مع حصول البيان بالعكس أيضا لما أن حظها أخصر واستحقاقه أتم وأوفر أو لأن استحقاقه بطريق العصوبة دون الفرض هذا إما لم يكن معهما أحد الزوجين أما إذا كان معهما ذلك فللأم ثلث ما بقي بعد فرض أحدهما لا ثلث الكل كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما فإنه يفرض إلى تفضيل الأم على الأب مع كونه أقوى منها في الإرث بدليل إضعافه عليها عند انفردهما عن أحد الزوجين وكونه صاحب فرض وعصبة وذلك خلاف وضع الشرع .

﴿ فإن كان له إخوة ﴾ أي عدد ممن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كانت من جهة الأبوين أو من جهة أحدهما وسواء كانوا ذكورا أو إناثا أو مختلطين وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالأب ﴿ فالأمه السدس ﴾ أما السدس الذي حجبوها عنه فهو للأب عند وجوده ولهم عند عدمه وعليه وعليه الجمهور وعند ابن عباس رضي الله عنهما أنه لهم على كل حال خلا أن هذا الحجب عنده لا يتحقق بما دون الثلاث وبالآخوات الخالص وقرئ فإممه بكسر الهمزة اتباعا لما قبلها ﴿ من بعد وصية ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة متعلقة بما تقدم جميعا لا بما يليها وحده أي هذه الأنصاء للورثة من بعد إخراج وصية ﴿ يوصى بها ﴾ أي الميت وقرئ مبنيا للمفعول مخففا ومبنيا للفاعل مشددا وفائدة الوصف الترغيب في الوصية والندب إليها ﴿ أو دين ﴾ عطف على وصية إلا أنه غير مقيد بما قيدت به من الوصف بل هو مطلق يتناول ما ثبت بالبينة أو الإقرار في الصحة وإيثار أو المفيدة للإباحة على الواو للدلالة على تساويهما في الوجوب وتقدمهما على القسمة بمجموعين أو منفردين وتقديم الوصية على الدين ذكر مع تأخرها عنه حكما لإظهار كمال العناية بتنفيذها لكونها مظنة للتفريط في أدائها وإطرادها بخلاف الدين ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ الخطاب للورثة فأباؤكم مبندأ وأبناؤكم عطف عليه ولا تدرون

خبره وأيهم مبتدأ وأقرب خبره ونفعاً نصب على التمييز منه وهو منقول من
 الفاعلية كأنه قيل أيهم أقرب لكم نفعه والجملة في حيز النصب بلا تدرون ،
 والجملة الكبيرة اعتراضية مؤكدة لوجوب تنفيذ الوصية أى أصولكم وفروعكم
 الذين يتوفون لا تدرون أيهم أنفع لكم أمن يوصى ببعض ماله فيعبرضكم
 لثواب الآخرة بتنفيذ وصيته أم من لا يوصى بشيء فيوفر عليكم عرض الدنيا
 وليس المراد بنفي الدراية عنهم بيان اشتباه الأمر عليهم وكون أنفعية كل
 من الأول والثاني في حيز الاحتمال عندهم من غير رجحان أحدهما على الآخر
 كما في قوله عليه الصلاة والسلام مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم
 آخره فإن ذلك بمعزل من إفادة التأكيد المذكور والترغيب في تنفيذ الوصية
 بل تحقيق أنفعية الأول في ضمن التعريض بأن لهم اعتقاداً بأنفعية الثاني
 مبني على عدم الدراية ، وقد أشير إلى ذلك حيث عبر عن الأنفعية بأقرية
 النفع تذكيراً لمناط زعمهم وتعييناً لمنشأ خطئهم ومبالغة في الترغيب المذكور
 بتصوير الثواب الآجل بصورة العاجل لأن الطباع مجبولة على حب الخير
 الحاضر كأنه قيل لا تدرون أيهم أنفع لكم فتحكمون نظراً إلى ظاهر الحال
 وقرب المنال بأنفعية الثاني مع أن الأمر بخلافه فإن ثواب الآخرة لتحقيق
 وصوله إلى صاحبه ودوام تمتعه به مع غاية قهر مدة ما بينهما من الحياة الدنيا
 أقرب وأحضر وعرض الدنيا لسرعة نفاذه وفنائه أبعد وأقصى وقيل الخطاب
 للمورثين والمعنى لا تعلون من أنفع لكم من يرثكم من أصولكم وفروعكم
 عاجلاً وآجلاً فتجروا في شأنهم ما أوصاكم الله تعالى به ولا تعمدوا إلى تفضيل
 بعض وحرمان بعض ، روى أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من
 الآخر في الجنة سأل الله تعالى أن يرفع إليه صاحبه فيرفع إليه بشفاعته قيل
 فالجملة الاعتراضية حينئذ مؤكدة لأمر القسمة وأنت خير بأنه مشعر بأن مدار
 الإرث ما ذكر من أقرية النفع أنه العلاقة النسبية ﴿ فريضة من الله ﴾
 نصبت نصب مصدر مؤكدة لفعل محذوف أى فرض الله ذلك فرضاً أو لقوله
 تعالى ﴿ يوصيكم الله ﴾ فإنه في معنى يأمركم ويفرض عليكم ﴿ إن الله كان عليماً ﴾

أى بالمصالح والرتب ﴿حكما﴾ فى كل ما قضى وقدر فيدخل فيه الأحكام المذكورة دخولا أوليا .

﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ من المال شروع فى بيان أحكام القسم الثانى من الورثة ووجه تقديم حكم ميراث الرجال بما لا حاجة إلى ذكره ﴿إن لم يكن لهن ولد﴾ أى ولد وارث من بطنها أو من صلب بنيتها أو بنى بنيتها وإن سفل ذكر كان أو أنثى واحدا كان أو متعددا لأن لفظ الولد ينظم الجميع منكم أو من غيركم والباقي لورثتهن من ذوى الفروض والعصبات أو غيرهم وليبت المسال إن لم يكن لهن وارث آخر أصلا ﴿فإن كان لهن ولد﴾ على نحو ما فصل والفاء لترتيب ما بعدها على قبلها فإن ذكر تقدير عدم الولد وبيان حكمه مستتبع لتقدير وجوده وبيان حكمه ﴿فلكم الربع مما تركن﴾ من المال والباقي لباقي الورثة ﴿من بعد وصية﴾ متعلق بكلتا الصورتين لا بما يليه وحده ﴿يوصين بها﴾ فى محل الجرح على أنه صفة لوصية وفائدتها ما مر من ترغيب الميت فى الوصية وحث الورثة على تنفيذها ﴿أو دين﴾ عطف على وصية سواء كان ثبوته بالبينه أو بالإقرار وإثار أو على الواو لما مر من الدلالة على تساويهما فى الوجوب والتقدم على القسمة وكذا تقديم الوصية على الدين ذكرنا لما ذكر من إبراز كمال العناية بتنفيذها ﴿ولهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد﴾ على التفصيل المذكور آنفا والباقي لبقية ورثتهن من أصحاب الفروض والعصبات أو ذوى الأرحام أو لبيت المسال إن يكن لكم وارث آخر أصلا ﴿فإن كان لكم ولد﴾ على النحو الذى فصل ﴿فلهن الثمن مما تركن﴾ من المال والباقي للباقيين ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ الكلام فيه كما فصل فى نظيره فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما فرض للمرأة كما فى النسب لمزيتها عليها وشرفه الظاهر ولذلك اختص بتشريف الخطاب وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتراكا فى الجهة والقرب ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة وتستوى الواحدة والعدد منهن فى الربع والثمن ﴿وإن كان رجل﴾ شروع فى بيان أحكام

القسم الثالث من الورثة المحتمل للسقوط ووجه تأخيرهم عن الأولين بين والمراد بالرجل الميت وقوله تعالى ﴿يورث﴾ على البناء للمفعول من ورث لا من أورث خبر كان أى يورث منه ﴿كلالة﴾ الكلالة فى الأصل مصدر بمعنى السكال وهو ذهاب القوة من الإعياء استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد لضعفهما بالإضافة إلى قرابتهما وتطلق على من لم يخلف ولدا ولا والدا وعلى من ليس بوالد ولا ولد من المخلفين بمعنى ذى كلالة كما تطلق القرابة على ذوى القرابة وقد جوز كونها صفة كالهجاجة والفقاعة للأحق فنصبها إما على أنها مفعول له أى يورث منه لأجل القرابة المذكورة أو على أنها حال من ضمير يورث أى حال كونه ذا كلالة أو على أنها خبر لكان ويورث صفة لرجل أى إن كان رجل موروث ذا كلالة ليس له والد ولا ولد وقرئ يورث على البناء للفاعل مخففا ومشددا فانتصاب كلالة إما على أنها حال من ضمير الفعل والمفعول محذوف أى يورث وارثه حال كونه ذا كلالة وإما على أنها مفعول به أى يورث ذا كلالة وإما على أنه مفعول له أى يورث لأجل الكلالة ﴿أو امرأة﴾ عطف على رجل مقيد بما قيد به أى أو امرأة تورث كذلك ولعل فصل ذكرها عن ذكره للإيدان بشرفه وأصالته فى الأحكام ﴿وله﴾ أى للرجل ففيه تأكيد للإيدان المذكور حيث لم يتعرض لها بعد جريان ذكرها أيضا وقيل الضمير لكل منهما ﴿أخ أو أخت﴾ أى من الأم فحسب وقد قرئ كذلك فإن أحكام بنى الأعيان والعلات هى التى ذكرت فى آخر السورة الكريمة والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير يورث أو من رجل على تقدير كون يورث صفة وسيقت لتصوير المسألة وذكر الكلالة لتحقيق جريان الحكم المذكور وإن كان مع من ذكر ورثة أخرى بطريق الكلالة وأما جريانه فى صورة وجود الأم أو الجدة مع أن قرابتهما ليست بطريق الكلالة فإجماع ﴿فلسكل واحد منهما﴾ من الأخ والأخت ﴿السدس﴾ من غير تفضيل للذكر على الأنثى لأن الإدلاء إلى الميت بمحض الأنوثة .

﴿فإن كانوا أكثر من ذلك﴾ أى أكثر من الأخ أو الأخت المنفردين

بواحد أو بأكثر والفاء لما مر من أن ذكر احتمال الانفراد مستتبع لذكر احتمال التعدد (فهم شركاء في الثلث) يقتسمونه بالسوية والباقي لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات هذا وأما جواز أن يكون يورث في القراءة المشهورة مبنيا للمفعول من أورث على أن المراد به الوارث والمعنى وإن كان رجل يجعل وارثا لأجل الكلاله أو ذا كلاله أى غير والد أو ولد ولذلك الوارث أخ أو أخت فلكل واحد من ذلك الوارث وأخيه أو أخته السدس فإن كانوا أكثر من ذلك أى من الاثنين بأن كانوا ثلاثة أو أكثر فهم شركاء في الثلث الموزع للإثنين لا يزداد عليه شيء فبمعزل من السداد أما أولا فلان المعتبر على ذلك التقدير إنما هي الأخوة بين الوارث وبين شريكه في الإرث من أخيه أو أخته لا ما بينه وبين مورثه من الأخوة التي عليها يترتب حكم الإرث وبها يتم تصوير المسألة وإنما المعتبر بينهما الوراثه بطريق الكلاله وهي عامة لجميع صور القربات التي لا تكون بالولادة فلا يكون نصيبه ولا نصيب شريكه عما ذكر بعينه ومن ادعى اختصاصها بالأخوة لأم متمسكا بالإجماع على أن المراد بالكلاله ههنا أولاد الأم فقد اعترف بطلان رأيه من حيث لا يحقسب كيف لا ومبناه إنما هو الإجماع على أن المراد بالأخوة في قوله تعالى (وله أخ أو أخت) هو الأخوة لأم خاصة حسبما شهدت به القراءة المحكية والآية الآتية في آخر السورة الكريمة ولولا أن الرجل عبارة عن الميت والأخوة معتبرة بينه وبين ورثته لما أمكن كون السكل أولاد الأم ثم إن الكلاله كما نهت عليه باقية على إطلاقها ليس فيها شائبة اختصاص بأولاد الأم فضلا عن الإجماع على ذلك وإلا لاقتصر البيان على حكم صورة انحصار الورثة فيهم وإنما الإجماع فيما ذكر من أن المراد بالأخ والأخت من كان لأم خاصة وأنت خبير بأن ذلك في قوة الإجماع على أن يورث من ورث لا من أورث فتدبر وأما ثانيا فلأنه يقتضى أن يكون المعتبر في استحقاق الورثة في الفرض المذكور أخوة بعضهم لبعض من جهة الأم فقط لما ذكر من الإجماع مع ثبوت الاستحقاق على تقدير الأخوة من الجهتين وأما ثالثا فلأن حكم صورة

انفراد الوارث عن الأخ والأخت يبقى حيثئذ غير مبين وليس من ضرورة كون حظ كل منهما السدس عند الإجماع كونه كذلك عند الانفراد ألا يرى أن حظ كل من الأختين الثلث عند الإجماع والنصف عند الانفراد وأما رابعا فلأن تخصيص أحد الورثة بالتوريث وجعل غيره تبعاً له فيه مع اتخاذ السكل في الإدلاء إلى المورث مما لا عهد به .

﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ الكلام فيه كالذي مر في نظائره خلا أن الدين ههنا موصوف بوصف الوصية جريا على قاعدة تقييد المعطوف بما قيد به المعطوف عليه لاتفاق الجمهور على اعتبار عدم المضاربة فيه أيضاً وذلك إنما يتحقق فيما يكون ثبوته بالإقرار في المرض كأنه قيل أو دين يوصى به ﴿ غير مضار ﴾ حال من فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور وما حذف من المعطوف اعتماداً عليه كما أن رجالاً في قوله تعالى (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) على قراءة المبني للفعول فاعل لفعل ينفي عنه المذكور ومن فاعل الفعل المذكور والمحذوف اكتفاء به على قراءة البناء للفاعل أى يوصى بما ذكر من الوصية والدين حال كونه غير مضار للورثة أى بأن يوصى بما زاد على الثلث أو تكون الوصية لقصد الإضرار بهم دون القرية وبأن يقر في المرض بدين كاذباً وتخصيص هذا القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت في حقهم ﴿ وصية من الله ﴾ مصدر مؤكد لفعل محذوف وتنوينه للتفخيم ومن متعلقة بمضمر وقع صفة له مؤكدة لفخامته الذاتية بالفخامة الإضافية أى يوصيكم بذلك وصية كائنة من الله كقوله تعالى (فريضة من الله) ولعل السر في تخصيص كل منهما بمحله الإشعار بما بين الأحكام المتعلقة بالأصول والفروع وبين الأحكام المتعلقة بغيرهم من التفاوت حسب تفاوت الفريضة والوصية وإن كانت كلاًهما واجبة المراعاة أو منصوب بغير مضار على أنه مفعول به فإنه اسم فاعل معتمد على ذى الحال أو منفي معنى فيعمل في المفعول الصريح ويعضده القراءة بالإضافة أى غير مضار لوصية الله وعهده لا في شأن الأولاد فقط كما قيل إذ لا تعلق لهم بالمقام بل في شأن الورثة المذكورة ههنا فإن الأحكام المفصلة كلها

مندرجة تحت قوله تعالى (يوصيكم الله) جارية مجرى تفسيره وبيانه ومضاريتها الإخلال بحقوقهم ونقصها بما ذكر من الوصية بما زاد على الثلث والوصية لقصد الإضرار دون القرابة والإقرار بالدين كاذبا وإيقاعها على الوصية مع أنها واقعة على الورثة حقيقة كما في قوله :

✽ يا سارق الليلة أهل الدار ✽

للبالغة في الزجر عنها بإخراجها مخرج مضارة أمر الله تعالى ومضادته وجعل الوصية عبارة عن الوصية بالثلث فما دونه يقتضى أن يكون غير مضار حالا من ضمير الفعل المتعلق بالوصية فقط وذلك يؤدي إلى الفصل بين الحال وعاملها بأجنبي هو المعطوف على وصية مع أنه لا تنحسم به مادة المضارة لبقاء الإقرار بالدين عن إطلاقه ﴿ والله عليم ﴾ بالمضار وغيره ﴿ حلیم ﴾ لا يعاجل بالعقوبة فلا يغتر بالإمهال وإيراد الاسم الجليل مع كفاية الإضمار لإدخال الروعة وتريفة المهابة .

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى الأحكام التي تقدمت في شئون التامى والمواريث وغير ذلك ﴿ حدود الله ﴾ أى شرائعه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فى جميع الأوامر والنواهي التي من جملتها ما فصل ههنا وإظهار الاسم الجليل لما ذكر آنفا ﴿ يدخله جنات ﴾ نصب على الظرفية عند الجمهور وعلى المفعولية عند الأخفش ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ صفة لجنات منصوبة حسب اقتصابها ﴿ خالدین فيها ﴾ حال مقدرة من مفعول يدخله وصيغة الجمع بالنظر إلى جمعية من بحسب المعنى كما أن أفراد الضمير بالنظر إلى أفراد لفظا ﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من دخول الجنات الموصوفة على وجه الخلود وما فيه من معنى البعد للإيدان بكمال علو درجته ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذى لا فوز ورامه وصف الفوز وهو الظفر بالخير بالعظيم إما باعتبار متعلقه أو باعتبار ذاته فإن الفوز بالعظيم عظيم والجملة اعتراض .

﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ ولو فى بعض الأوامر والنواهي قال مجاهد فيما اقتص من المواريث و عكر قالمة عن ابن عباس من لم يرض بقسم الله تعالى

ويتعدا ما قال الله تعالى وقال الكلبي يعنى ومن يكفر بقسمة الله المواريث ويتعد حدوده استحلالا والإظهار في موقع الإضرار للبالغ في الزجر بتحويل الأمر وتربية المهابة ﴿ ويتعد حدوده ﴾ شرانعه المحدودة في جميع الأحكام فيدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا ﴿ يدخله ﴾ وقرىء بنون العظمة في الموضعين ﴿ نارا ﴾ أى عظمة هائلة لا يقادر قدرها ﴿ خالدا فيها ﴾ حال كما سبق ولعل إيثار الأفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ واختيار الجمع هناك نظرا إلى المعنى للإيذان بأن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة ﴿ وله عذاب مهين ﴾ أى وله مع عذاب الحريق الجسماني عذاب آخر مبهم لا يعرف كنهه وهو العذاب الروحاني كما يؤذن به وصفه والجملة حالية .

﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾ شروع في بيان بعض آخر من الأحكام المتعلقة بالنساء إثر بيان أحكام المواريث واللاتي جمع التي بحسب المعنى دون اللفظ وقيل جمع على غير قياس والفاحشة الفعلة القبيحة أريد بها الزنا لزيادة قبحه والإتيان الفعل والمباشرة يقال أتى الفاحشة أى فعلها وباشرها وكذا جاءها ورهقها وغشيها وقرىء بالفاحشة فالإتيان بمنعاه المشهور ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل يأتين أى اللاتي يفعلن الزنا كائنات من نسائكم أى من أزواجكم كما في قوله تعالى (والذين يظاهرون من نسائهم) وقوله تعالى (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) وبه قال السدي ﴿ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ﴾ خبر للوصول والفاء للدلالة على سببية ما في حيز الصلة للحكم أى فاطلبوا أن يشهد عليهن بإتيانها أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم

﴿ فإن شهدوا ﴾ عليهن بذلك ﴿ فامسكوهن في البيوت ﴾ أى فاحبسوهن فيها واجعلوها سجننا عليهن ﴿ حتى يتوفاهن ﴾ أى إلى أن يستوفى أرواحهن ﴿ الموت ﴾ وفيه تهويل للموت وإبراز له في صورة من يتولى قبض الأرواح وتوفيتها أو يتوفاهن ملائكة الموت ﴿ أو يجعل الله لمن سيلا ﴾ أى يشرع لمن

حكما خاصا بهن ولعل التعبير عنه بالسبيل للإيذان بكونه طريقا مسلوكا فليس فيه دلالة على كونه أخف من الحبس كما قاله أبو مسلم .

﴿ واللذان يأتيناها منكم ﴾ هما الزانى والزانية تغليبا قال السدى أريد بهما البكران منهما كما ينبى عنه كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد وبذلك يدفع التكرار إلا أنه يبقى حكم الزانى المحصن مبهما لاختصاص العقوبة الأولى بالمحصنات وعدم ظهور إلحاقه بأحد الحكمين دلالة لخصاء الشركة فى المناط ﴿ فبأذوهما ﴾ أى بالتوبيخ والتقريع وقيل بالضرب بالنعال أيضا والظاهر أن إجراء هذا الحكم أيضا إنما يكون بعد الثبوت لكن ترك ذكره تعويلا على ما ذكر آنفا ﴿ فإن تابا ﴾ عما فعلا من الفاحشة بسبب ما لقيا من زواج الأذية وقوارع التوبيخ كما ينبى عنه الفاء ﴿ وأصلحا ﴾ أى أعمالهما ﴿ فأعرضوا عنهما ﴾ بقطع الأذية والتوبيخ فإن التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب وقد جوز أن يكون الخطاب للشهود الواقفين على هاتهما ويراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الولاية وبالإعراض عنهما ترك التعرض لهما بالرفع إليهم قيل كانت عقوبة الفريقين المذكورين فى أوائل الإسلام على ما مر من التفصيل ثم نسخ بالحد لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا الشيب ترجم والبكر تجلد وقيل هذه الآية سابقة على الأولى زولا وكانت عقوبة الزناة المطلقات الأذى ثم الحبس ثم الجلد ثم الرجم وقد جوز أن يكون الأمر بالحبس غير منسوخ بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالسكتاب والستة ويوصى بإمسأكن فى البيوت بعد إقامة الحد صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال ولا يخفى أنه مما لا يساعده النظم الكريم وقال أبو مسلم وعزاه إلى مجاهد إن الأولى فى السحاقيات وهذه فى اللواطين وما فى سورة النور فى الزناة والزواني متمسكا بأن المذكور فى الأولى صيغة الإناث خاصة وفى الثانية صيغة الذكور ولا ضرورة للبصير إلى التغليب على أنه لا إمكان له فى الأولى وبآباء الأمر باستشهاد الأربعة فإنه غير معهود فى الشرع فيما عدا الزنا ﴿ إن الله كان

تواباً ﴿مبالغا في قبول التوبة﴾ (رحيماً) واسع الرحمة وهو تعليل للأمر بالإعراض.

﴿إنما التوبة على الله﴾ استئناف مسوق لبيان أن قبول التوبة من الله تعالى ليس على إطلاقه كما ينشئ عنه وصفه تعالى بكونه تواباً رحيماً بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم فقوله تعالى التوبة مبتدأ وقوله تعالى ﴿للذين يعملون السوء﴾ خبره وقوله تعالى على الله متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار فإن تقديم الجار والمجرور على عامله المعنوي مما لانزاع في جوازه وكذا الظرف أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المبتدأ المستكن فيما تعلق به الخبر على رأى من جوز تقديم الحال على عاملها المعنوي عند كونها ظرفاً أو حرف جر كما سبق في تفسير قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت) وأياً ما كان فعنى كون التوبة عليه سبحانه صدور القبول عنه تعالى وكلمة على للدلالة على التحقق ألبتة بحكم جرى العادة وسبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه وهذا مراد من قال كلمة على بمعنى من وقيل هى بمعنى عند وعن الحسن يعنى التوبة التى يقبلها الله تعالى وقيل هى التوبة التى أوجب الله تعالى على نفسه بفضله قبولها وهذا يشير إلى أن قوله تعالى على الله صفة للتوبة بتقدير متعلقه معرفة على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى إنما التوبة الكائنة على الله والمراد بالسوء المعصية صغيرة كانت أو كبيرة وقيل الخبر على الله وقوله تعالى للذين متعلق بما تعلق به الخبر أو بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى متعلق الخبر وليس فيه ما فى الوجه الأول من تقديم الحال على العامل المعنوي إلا أن الذى يقتضيه المقام ويستدعيه النظام هو الأول لما أن ما قبله من وصفه تعالى بكونه تواباً رحيماً إنما يقتضى بيان اختصاص قبول التوبة منه تعالى بالمدكورين وذلك إنما يكون بجعل قوله تعالى للذين الخ خبراً ألا ترى إلى قوله عز وجل (وليس التوبة الذين يعملون السيئات) الخ فإنه ناطق بما قلنا كأنه قيل إنما التوبة لهؤلاء لا لهؤلاء (بجهالة) متعلق بمحذوف

وقع حالا من فاعل يعملون أى يعملون السوء متلبسين بها أى جاهلين سفهاء أو يعملون على أن الباء سببية أى يعملونه بسبب الجهالة لأن ارتكاب الذنب مما يدعو إليه الجهل وليس المراد به عدم العلم بكونه سوءاً بل عدم التفكر في العاقبة كما يفعله الجاهل قال قتادة اجتمع أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فرأوا أن كل شيء عصى به ربه فهو جهالة عمداً كان أو خطأ وعن مجاهد من عصى الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته وقال الزجاج يعنى بقوله بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية ﴿ ثم يتوبون من قريب ﴾ أى من زمان قريب وهو ما قبل حضور الموت كما ينفي عنه ما سيأتى من قوله تعالى : (حتى إذا حضر أحدهم الموت) الخ فإنه صريح في أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة فبقى ما وراءه في حيز القبول وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبل أن ينزل به سلطان الموت وعن الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب .

وعن إبراهيم النخعي مالم يؤخذ بكظمه وهو مجرى النفس ، وروى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرر ، وعن عطاءه لوقبل موته بفواق ناقة ، وعن الحسن أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض وعزتك لا أفارق ابن آدم مادام روحه في جسده ، فقال تعالى : وعزتى لا أغلق عليه باب التوبة مالم يغرر ، ومن تبعية أى يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمي ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زماناً قريباً ففي أى جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين من حيث اتصافهم بما ذكر وما فيه من معنى البعد باعتبار كونهم بانقضاء ذكرهم في حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لسلطان أحد من يصلح للخطاب وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ يتوب الله عليهم ﴾ وما فيه من تكرير الإسناد لتقوية الحكم وهذا وعد بقبول توبتهم لإثبات أن التوبة لهم والفاء للدلالة على سببيتها للقبول ﴿ وكان الله عليهما حكيماً ﴾ مبالغا في العلم والحكمة فيبنى أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة

والجملة اعتراضية مقررة لمضمون ما قبلها وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلّة الحكم فإن الألوهية أصل لاتصافه تعالى بصفات الكمال .

﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ﴾ تصريح بما فهم من قصر القبول على توبة من تاب من قريب وزيادة تعيين له ببيان أن توبة من عداها بمنزلة العدم وجمع السيئات باعتبار تكرر وقوعها في الزمان المديد لا لأن المراد بها جميع أنواعها وبما مر من السوء نوع منها ﴿ حتى إذا حضر أحدكم الموت قال إني تبت الآن ﴾ حتى حرف لإبتداء الجملة الشرطية بعدها غاية لما قبلها أي ليس قبول التوبة للذين يعملون السيئات إلى حضور موتهم وقولهم حينئذ إني تبت الآن وذكر الآن لمزيد تعيين الوقت وإثباته على تاب لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتجاشى عن تسميته توبة ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ عطف على الموصول الذي قبله أي ليس قبول التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء وإنما ذكر هؤلاء مع أنه لا توبة لهم رأساً مبالغته في بيان عدم قبول توبة المسوفين وإيداناً بأن وجودها كعدمها بل في تكرير حرف النفي في المعطوف إشعار خفى بكون حال المسوفين في عدم استتباع الجدوى أقوى من حال الذين يموتون على الكفر والمراد بالموصولين إما الكفار خاصة وإما الفساق وهدم وتسميتهم في الجملة الحالية كفاراً للتخليط كما في قوله تعالى (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) ، وأما ما يعم الفريقين جميعاً فالنسمية حينئذ للتغليب ويجوز أن يراد بالأول الفسقة وبالثاني الكفرة ففيه مبالغة أخرى ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الفريقين وما فيه من معنى البعد للإيدان بترامى حالهم في الفضاغة وبعد منزلتهم في السوء وهو مبتدأ خبره ﴿ أعتدنا لهم ﴾ أي هيأنا لهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾ تكرير الإسناد لما مر من تقوية الحكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بكون العذاب معداً لهم ووصفه للتفخيم الذاتي والوصفي .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحمل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ كان الرجل

إذا مات قريبه يلقي ثوبه على امرأته أو على خباتها ويقول أرث امرأته كما أرث ماله فيصير بذلك أحق بها من كل أحد ثم إن شاء تزوجها بلا صداق غير الصداق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئاً وإن شاء عضلها لتفتدى نفسها بما ورثت من زوجها وإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل إلقاء الثوب فهي أحق بنفسها فنهوا عن ذلك وقيل لهم لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث على زعمكم كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه وقيل كانوا يمسونهن حتى يمتن ويرثوا منهن ف قيل لهم لا يحل لكم ذلك وهن غير راضيات بامساكم وقرىء لاتحل بالناء الفوقية على أن ترثوا بمعنى الوراثة وقرىء كرها بضم الكاف وهى لغة كالضعف والضعف وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر وضيق عليها لتفتدى نفسها منه بما لها وتختلع فقيل لهم ﴿ ولا تعضلوهن ﴾ عطفاً على ترثوا ولا لتأكيد النفي والخطاب للأزواج والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت المرأة بولدها إذا اختنقت رحمها فخرج بعضه وبقي بعضه أى ولا أن تضيقوا عليهن ﴿ لتذهبوا ببعض ما آتينكموهن ﴾ أى من الصداق بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً فتأخذوهن وإنما لم يتعرض لفعلهن لإذنانا بكونه بمنزلة العدم لصدوره عنهن اضطراراً وإنما عبر عن ذلك بالذهاب به لا بالأخذ ولا بالإذهاب للبالغة فى تقييده ببيان تضمنه لأمرين كل منهما محذور شنيع الأخذ والإذهاب منهن لأنه عبارة عن الذهاب مستصحبا به ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ على صيغة الفاعل من بين بمعنى تبين وقرىء على صيغة المفعول وعلى صيغة الفاعل من أبان بمعنى تبين أى بينة القبح من النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلطة ويعضده قراءة أبى إلا أن يفحش عليكم ، وقيل الفاحشة الزنا ، وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أو أعم العلل أى ولا يحل لكم عضلن فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات أو لعلته من العلل إلا فى حال إتيانهن بفاحشة

أو إلا في وقت إتيانهم أو إلا لإتيانهم بها فإن السبب حينئذ يكون من جهنم وأنتم معذورون في طلب النخلع .

﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ خطاب للذين يسيئون العشرة معهن والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة والمراد ههنا النصفه في المبيت والنفقة والإجمال في القول ونحو ذلك ﴿فإن كرهتموهن﴾ وسئتم صحبتهن بمقتضى الطبيعة من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك من الأمور المذكورة فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس واصبروا على معاشرتهن ﴿فعسى أن تسكرها شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ علة للجزاء أقيمت مقامه للإيدان بقوة استلزامها إياه كأنه قيل فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة فلعل لكم فيما تسكرهونه خيرا كثيرا ليس فيما تحبونه وعسى تامة رافعة لما بعدها مستغنية عن تقدير الخبر أى فقد قربت كراهتكم شيئا وجعل الله فيه خيرا كثيرا فإن النفس ربما تسكره ما هو أصلح في الدين وأحد عاقبة وأدنى إلى الخير وتحب ما هو بخلافه فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى أنفسكم وذكر الفعل الأول مع الاستغناء عنه وانحصار العلية في الثانى للتوسل إلى تعميم مفعوله ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصا بمكرهه دون مكروه بل هو سنة إلهية جارية على الإطلاق حسب اقتضاء الحكمة وأن ما نحن فيه مادة من موادها وفيه من المبالغة في الحمل على ترك المفارقة وتعميم الإرشاد ما لا يخفى وقرىء ويجعل مرفوعا على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة حالية تقديره وهو أى ذلك الشئ يجعل الله فيه خيرا كثيرا وقيل تقديره والله يجعل بوضع المظهر موضع المضمّر وتنوين خيرا لتفخيّمه الذاتى ووصفه بالكثرة لبيان ثغامته الوصفية والمراد به ههنا الولد الصالح وقيل الألفة والمحبة .

﴿وإن أردتم استبدال زوج أى تزوج امرأة ترغبون فيها﴾ مكان زوج ﴿ترغبون عنها بأن تطلقوها﴾ وآيتهم لإحداهن ﴿أى إحدى الزوجات فإن المراد بالزوج هو الجنس والجملة حالية بإضمار قد لا معطوفة على الشرط

أى وقد آتيتهم التى تريدون أن تطلقوها ﴿قنطارا﴾ أى مالا كثيرا ﴿فلا تأخذوا منه﴾ أى من ذلك القنطار ﴿شيئا﴾ يسيرا فضلا عن الكثير ﴿أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ استئناف مسوق لتقرير النهى والتنفير عن المنهى عنه والاستفهام للإنكار والتوبيخ أى تأخذونه باهتين وآثمين أو للبهتان والإثم فإن أحدهم كان إذا تزوج امرأة بهت التى تحتها بفاحشة حتى يلجئها إلى الإفتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى زوج الجديدة فهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذى يبهت المكذوب عليه ويدهشه وقد يستعمل فى الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم وقوله عز وجل .

﴿وكيف تأخذونه﴾ إنكار لأخذه لإثر إنكار وتنفير عنه بعد تنفير وقد بولغ فيه حيث وجه الإنكار إلى كيفية الأخذ لئذانا بأنه عما لا سبيل له إلى التحقق والوقوع أصلاً لأن ما يدخل تحت الوجود لابد أن يكون على حال من الأحوال فإذا لم يكن لشيء حال أصلاً لم يكن له حظ من الوجود قطعاً وقوله عز وجل ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ حال من فاعل تأخذونه مفيدة لتأكيد التأكيد وتقرير الاستبعاد أى على أى حال أو فى أى حال تأخذونه والحال أنه قد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية له من الخلوة وتقرر المهر وثبوت حق خدمتهن لكم وغير ذلك ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ عطف على ما قبله داخل فى حكمه أى أخذن منكم عهداً وثيقاً وهو حق الصحبة والمعاشرة أو ما وثق الله تعالى عليهم فى شأنهن بقوله تعالى (فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان) أو ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله تعالى .

﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم﴾ شروع فى بيان من يحرم نكاحها من النساء ومن لا يحرم وإنما خص هذا النكاح بالنهى ولم ينظم فى سلك نكاح المحرمات الآتية مبالغة فى الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه قال ابن عباس وجهور المفسرين كان أهل الجاهلية يتزوجون بأزواج آبائهم فهوا

عن ذلك واسم الآباء ينتظم الأجداد مجازا فتثبت حرمة ما نكحوها نصا وإجماعا ويستقل في إثبات هذه الحرمة نفس النكاح إذا كان صحيحا وأما إذا كان فاسدا فلا بد في إثباتها من الوطء أو ما يجرى مجراه من التقبيل والمس بشهوة ونحوهما بل هو المثبت لها في الحقيقة حتى لو وقع شيء من ذلك بحكم ملك اليمين أو بالوجه المحرم ثبت به الحرمة عندنا خلافا للشافعي في المحرم أى لا تنكحوا التى نكحها آبائكم وإيثار ما على من للذهاب إلى الوصف وقيل ما مصدرية على لإرادة المفعول من المصدر ﴿من النساء﴾ بيان لما نكح على الوجهين ﴿إلا ما قد سلف استثناء ما نكح مفيد للبالغة في التحريم بإخراج الكلام مخرج التعليق بالاحتمال على طريقة قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب والمعنى لا تنكحوا حلائل آبائكم إلا من ماتت منهن والمقصود سد طريق الإباحة بالسكينة ونظيره قوله تعالى (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وقيل هو استثناء عما يستلزمه النهى ويستوجبه مباشرة المنهى عنه كأنه قيل لا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء فإنه موجب للعقاب إلا ما قد مضى فإنه معفو عنه وقيل هو استثناء منقطع معناه لكن ما قد سلف لا مؤاخذه عليه لا أنه مقرر ويأباهما قوله تعالى ﴿إنه كان فاحشة ومقتا﴾ فإنه تعليل للنهى وبيان لكون المنهى عنه في غاية القبح مبغوضا أشد البغض وأنه لم يزل في حكم الله تعالى وعلمه موصوفا بذلك ما رخص فيه لأمة من الأمم فلا يلائم أن يوسط بينهما ما يهون أمره من ترك المؤاخذه على ما سلف منه ﴿وساء سييلا﴾ في كلمة ساء قولان أحدهما أنها جارية مجرى بئس في الذم والعمل ففيها ضمير مبهم يفسره ما بعده والمختص بالذم محذوف تقديره وساء سييلا سبيل ذلك النكاح كقوله تعالى بئس الشراب أى ذلك الماء وثانيهما أنها كسائر الأفعال وفيها ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير إنه وسييلا تمييز والجملة إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو معطوفة على خبر كان محكية بقول مضمرة هو المعطوف في الحقيقة

تقديره ومقولا في حقه ساء سبيلا فإن السنة الأمم كافة لم تزل ناطقة بذلك في الأعصار والأمصار . قيل مراتب القبح ثلاث القبح الشرعي والقبح العقلي والقبح العادي وقد وصف الله تعالى هذا النسكاح بكل ذلك فقوله تعالى فاحشة مرتبة قبحه العقلي وقوله تعالى ومقتا مرتبة قبحه الشرعي وقوله تعالى وساء سبيلا مرتبة قبحه العادي وما اجتمع فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وإخواتكم وبنات الأخ والأخت ﴾ ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن وما يقصد به من التمتع بهن وبيان امتناع ورود ملك النكاح عليهن وانتفاء محليتهن له أصلا وأما حرمة التمتع بهن بملك اليمين في المواد التي يتصور فيها قرار الملك كما في بعض المعطوفات على تقدير رهن فثابتة بدلالة النص لاتحاد المدار الذي هو عدم محلية أبضاعهن لذلك لا بعبارة بشهادة سباق النظم الكريم وسياقه وإنما لم يوجب المدار المذكور امتناع ورود ملك اليمين عليهن رأسا ولا حرمة سببه الذي هو العقد أو ما يجري مجراه كما أوجب حرمة عقد النكاح وامتناع ورود حكمه عليهن لأن مورد ملك اليمين ليس هو البضع الذي هو مورد ملك النكاح حتى يفوت بفوات محليته له كملك النكاح فإنه حيث كان مورده ذلك فات بفوات محليته له قطعا وإنما مورده الرقبة الموجودة في كل رقيق فيتحقق بتحقيق محله حتما ثم يزول بوقوع العتق في المواد التي سبب حرمتها محض القرابة النسبية كالمذكورات ويبقى في البواقي على حاله مستتبعا لجميع أحكامه المقصودة منه شرعا وأما حل الوطء فليس من تلك الأحكام فلا ضير في تخلفه عنه كما في المجوسية . والأمهات تعم الجدات وإن علون والبنات تتناول بناتهن وإن سفلى والأخوات ينتظمن الأخوات من الجهات الثلاث وكذا الباقيات والعممة كل أنثى ولدها من ولد والدك والحالة كل أنثى ولدها من ولد والدتك قريبا أو بعيدا وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القريبة والبعيدة ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ نزل الله تعالى الرضاعة منزلة النسب حتى سمي المرخصة أما للرضيع والمرخصة أختا وكذلك زوج المرخصة أبوه وأبواه جداه وأخته

عمته وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه وأم المرضعة جدته وأختها خالته وكل من ولدها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولدها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه ومنه قوله عليه السلام يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهو حكم كل جار على عمومه وأما أم أخيه لأب وأخت لابنه لأم وأم ابنه وأم عمه وأم خاله لأب فليست حرمتين من جهة النسب حتى يحل بعمومه ضرورة حلن في صور الرضاع بل من جهة المصاهرة ألا يرى أن الأولى موطوءة أبيه والثانية بنت موطوءته والثالثة أم موطوءته والرابعة موطوءة جده الصحيح والخامسة موطوءة جده الفاسد .

﴿ وأمهات نسائكم ﴾ شروع في بيان المحرمات من جهة المصاهرة لأثر بيان المحرمات من جهة الرضاعة التي لها لحة كلحمة النسب والمراد بالنساء المنكوحات على الإطلاق سواء كن مدخولا بهن أولا وعليه جمهور العلماء روى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال في رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها فإنه لا بأس بأن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها وعن عمر وعمران بن الحصين رضي الله عنهما أن الأم تحرم بنفس للعقد وعن مسروق هي مرسله فأرسلوا ما أرسل الله وعن ابن عباس أهبوا ما أهبهم الله خلا أنه روى عنه وعن علي وزيد وابن عمر وابن الزبير رضي الله عنهم أنهم قرؤا وأمهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن وعن جابر روايتان وعن سعيد بن المسيب عن زيد أنه إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل أقام الموت في ذلك مقام الدخول كما قام مقامه في باب المهر والعدة ويلحق بهن الموطوءات بوجه من الوجوه المعدودة فيما سبق والممسوسات ونظائرهن والأمهات تعم المرضعات كما تعم الجدات حسبما ذكر ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم ﴾ الربائب جمع ربيعة فاعيل بمعنى مفعول والتاء للنقل إلى الإسمية والريبب ولد المرأة من آخر سمى به لأنه يربه غالبا كما يرب

ولده وإن لم يكن ذلك أمرا مطردا وهو المعنى بكونهن في الحجور فإن شأنهن الغالب المعتاد أن يكن في حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن لا كونهن كذلك بالفعل وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكملها كما أنها هي النكسة في إيرادهن باسم الرائب دون بنات النساء فإن كونهن بصدد احتضانهم لهن وفي شرف القلب في حجورهم وتحت حمايتهم وتربيتهم مما يقوى الملازمة والشبه بينهن وبين أولادهم ويستدعى لإجرامهن مجرى بناتهن لا تقييد الحرمة بكونهن في حجورهم بالفعل كما روى عن علي رضي الله عنه وبه أخذ داود ومذهب جمهور العلماء ما ذكر أو لا بخلاف ما في قوله تعالى :

﴿ من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ﴾ فإنه لتقييدها به قطعاً فإن كلمة من متعلقة بمحذوف وقع حالا من ربائبكم اللاتي استقررن في حجوركم كائنات من نسائكم الخ ولا مساغ لجعله حالا من أمهات أو ما أضيفت هي إليه خاصة وهو بين لا ستره به ولا مع ما ذكر أولاً ضرورة أن حالته من ربائبكم أو من ضميرها تقتضي كون كلمة من ابتدائية وحالته من أمهات أو من نسائكم تستدعي كونها بيانية وادعاء كونها اتصالية منتظمة لمعنى الابتداء والبيان أو جعل الموصول صفة للنساء من مع اختلاف عامليهما مما يجب تنزيهه ساحة التنزيل عن أمثاله مع أنه سعى في إسكات ما نطق به النبي عليه الصلاة والسلام واتفق عليه الجمهور حسبها ذكر فيما قبل وأما ما نقل من القراءة فضعيفة الرواية وعلى تقدير الصحة محمولة على المسخ ومعنى الدخول بهن لإدخالهن السر والباء للتعدي وهي كناية عن الجماع كنقوهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب وفي حكمه للمس ونظائره كما مر ﴿ فإن لم تكونوا ﴾ أى فيما قبل ﴿ دخلتم بهن ﴾ أصلاً ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أى في نكاح الرائب وهو تصريح بما أشعر به ما قبله والفاء الأولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن بيان حكم الدخول مستتبع لبيان حكم عدمه ﴿ وحلائل أبنائكم ﴾ أى زوجاتهم سميت الزوجة حليلة لحللها للزوج أو لحلولها في محله وقيل لحل كل منهما لإزار صاحبه وفي حكمهن مزيانتهن ومن (٤٣ - أبو السعود - أول)

يحجرين مجراهن من الممسوسات ونظائرهن وقوله تعالى ﴿الذين من أصلابكم﴾ لإخراج الأديعاء دون أبناء الأولاد والأبناء من الرضاع فإنهم وإن سفلوا في حكم الأبناء الصليبين ﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾ في حيز الرفع عطفاً على ما قبله من المحرمات والمراد به جمعهما في النكاح لا في ملك اليمين وأما جمعهما في الوطء بملك اليمين فملحق به بطريق الدلالة لاتحادهما في المدار ولقوله عليه الصلاة والسلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمعن ماءه في رحم أختين بخلاف نفس مالك اليمين فإنه ليس في معنى النكاح في الإفشاء إلى الوطء ولا مستلزما له ولذلك يصح شراء المجوسية دون نكاحها حتى لو وطئها لا يحل له وطء إحداهما حتى يحرم عليه وطء الأخرى بسبب من الأسباب وكذا لو تزوج أخت أمته الموطوءة لا يحل له وطء إحداهما حتى يحرم عليه الأخرى لأن المنكوحه موطوءة حكماً فكأنه جمعهما وطئاً وإسناد الحرمة إلى جمعهما لا إلى الثانية منهما بأن يقال وأخوات نسائكم للاحتراز عن إفادة الحرمة المؤبدة كما في المحرمات السابقات ولكونه بمعزل من الدلالة على حرمة الجمع بينهما على سبيل المعية ويشترك في هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها ونظائرهما فإن مدار حرمة الجمع بين الأختين إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله بوصله وذلك متحقق في الجمع بين هؤلاء بل أولى فإن العمة والخالة بمنزلة الأم فقوله عليه السلام لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها من قبيل بيان التفسير لا بيان التغيير وقيل هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب ﴿إلا ما قد سلف﴾ استثناء منقطع أى لكن ما قد مضى لا تؤاخذون به ولا سبيل إلى جعله متصلاً بقصد التأكيّد والمبالغة كما مر فيما سلف لأن قوله تعالى :

﴿إن الله كان غفورا رحيما﴾ تعليل لما أفاده الاستثناء فيتحتم الانقطاع وقال عطاء والسدى معناه إلا ما كان من يعقوب عليه السلام فإنه قد جمع بين ليا أم يهوذا وبين راحيل أم يوسف عليه الصلاة والسلام ولا يساعده التعليل لأن ما فعله يعقوب عليه السلام كان حلالاً في شريعته وقال ابن عباس رضى

الله عنهما كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله تعالى إلا امرأة الأب والجمع بين الأخنتين وروى هشام بن عبد الله عن محمد بن الحسن أنه قال كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات إلا اثنتين نكاح امرأة الأب والجمع بين الأخنتين ألا يرى أنه قد عقب النهي عن كل منهما بقوله تعالى إلا ما قد سلف وهذا يشير إلى كون الاستثناء فيهما على سنن واحد ويأباه اختلاف التعليقين (والمحصنات) بفتح الصاد وهن ذوات الأزواج أحصنهن الزوج أو الأزواج أو الأولياء أى أعفهن عن الوقوع في الحرام وقرىء على صيغة اسم الفاعل فإنهن أحصن فروجهن عن غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن وقيل الصيغة للفاعل على القراءة الأولى أيضا وفتح الصاد محمول على الشذوذ كما في نظيره ملقح ومسهب من القح وأسهب قيل قد ورد الإحصان في القرآن على أربعة معان الأول الزوج كما في هذه الآية الكريمة الثانى العفة كما في قوله تعالى (محصنين غير مسافحين) الثالث الحرية كما في قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات) والرابع الإسلام كما في قوله تعالى (فإذا أحصن) قيل في تفسيره أى أسلمن وهى معطوفة على المحرمات السابقة وقوله تعالى :

((من النساء)) متعلق بمحذوف وقع حالا منها أى كائنات من النساء وفائدته تأكيد عمومها في دفع توهم شمولها للرجال بناء على كونها صفة للأنفس كما توهم ((إلا ما ملكت أيمانكم)) استثناء من المحصنات استثناء النوع من الجنس أى ما ملكتموه وإسناد الملك إلى الأيمان لما أن سببه الغالب هو الصفة الواقعة بها وقد اشتهر ذلك في الأرقاء لاسيما في إناثهم وهن المرادات ههنا رعاية للمقابلة بينه وبين ملك النكاح الوارد على الحرائر والتعبير عنهن بما لإسقاطهن بما فيهن من قصور الرق عن رتبة العقلاء وهى إمامة حسب عموم صلتها فلا استثناء حينئذ ليس لإخراج جميع أفرادها من حكم التحريم بطريق شمول النفس بل بطريق نفى الشمول المستلزم لإخراج بعضها أى حرمت عليكم المحصنات على الإطلاق إلا المحصنات اللاتي ملكتموهن فإنهن لسن من المحرمات على

الإطلاق بل فيهن من لا يحرم نكاحهن في الجملة وهن المسليات بغير أزواجهن أو مطلقا حسب اختلاف الرأيين وإما خاصة بالمذكورات فالمعنى حرمت عليكم المحصنات إلا اللاتي سبين فإن نكاحهن مشروع في الجملة أى لغير ملاكن وأما حللن لهم بحكم ملك اليمين فمفهوم بدلالة النص لاتحاد المناط لا بعبارة لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان حرمة التمتع بالمحرمات المعدودة بحكم ملك النكاح وإنما ثبوت حرمة التمتع بهن بحكم ملك اليمين بطريق دلالة النص وذلك لما لا يجرى فيه الاستثناء قطعاً وأما عدهن من ذوات الأزواج مع تحقق الفرقة بينهما وبين أزواجهن قطعاً بالتباين أو بالسبي على اختلاف الرأيين فمبنى على اعتقاد الناس حيث كانوا حينئذ غافلين عن الفرقة ألا ترى إلى ما روى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه من أنه قال أصبنا يوم أو طاس سباياهن أزواج فذكر هنا أن نقع عليهن فأسألنا النبي عليه السلام وفي رواية عنه قلنا يا رسول الله كيف نقع على نساء قد عرفنا أنسابهن وأزواجهن فنزلت والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح فاستلناهن .

وفي رواية أخرى عنه وفادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض فأباح وطأهن بعد الاستبراء وليس في ترتيب هذا الحكم على نزول الآية الكريمة ما يدل على كونها مسوقة له فإن ذلك إنما يتوقف على إفادتها له بوجه من وجوه الدلالة لا على إفادتها بطريق العبارة أو نحوها . هذا وقد روى عن أبي سعيد رضى الله عنه أنه قال لأنها نزلت في نساء كن يهاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فيتزوجهن بعض المسلمين ثم يقدم أزواجهن مهاجرين فنهى عن نكاحهن فالمحصنات حينئذ عبارة عن المهاجرات اللاتي يتحقق أو يتوقع من أزواجهن الإسلام والمهاجرة ولذلك لم يزل عنهن اسم الإحصان والنهى للتحريم المحقق وتعرف حال المتوقع وإلا فما عداهن بمعزل من الحرمة واستحقاق إطلاق الاسم عليهن كيف لا وحين انقطعت العلاقة بين المسبية وزوجها مع اتحادهما

في الدين فلأن تنقطع ما بين المهاجرة وزوجها أحق وأولى كما يفصح عنه قوله عز وجل (فإن عليهن مؤمنات فلا ترجعنهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) الآية .

((كتاب الله)) مصدر مؤكد أي كتب الله ((عليكم)) تحريم هؤلاء كتاباً وفرضه فرضاً وقيل منصوب على الإغراء بفعل مضمر أي إلزموا كتاب الله وعليكم متعلق إما بالمصدر وإما بمحذوف وقع حالاً منه وقيل هو إغراء آخر مؤكد لما قبله قد حذف مفعوله لدلالة المذكور عليه أو بنفس عليكم على رأى من جوز تقديم المنصوب في باب الإغراء كما في قوله :

يا أيها المائح دلوى دونك إني رأيت الناس يحمدونك

وقرىء كتب الله بالجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم وقرىء كتب الله بلفظ الفعل ((وأحل لكم)) عطف على حرمت عليكم الخ وتوسيط قوله تعالى (كتاب الله عليكم) بينهما للبالغة في الحمل على المحافظة عن المحرمات المذكورة وقرىء على صيغة المبني للفاعل فيكون معطوفاً على الفعل المقدر وقيل بل على حرمت الخ فإنهما جملتان متقابلتان مؤسستان للتحريم والتحليل المنوطين بأمر الله تعالى ولا ضير في اختلاف المسند إليه بحسب الظاهر لاسيما بعد ما أكدت الأولى بما يدل على أن المحرم هو الله تعالى ((ما وراء ذلكم)) إشارة إلى ما ذكر من المحرمات المعدودة أي أحل لكم نكاح ما سواهن انفراداً وجمعاً ولعل إشار اسم الإشارة المتعرض لوصف المشار إليه وعنوانه على الضمير المتعرض للذات فقط لتذكير ما في كل واحدة منهن من العنوان الذي يدور عليه^(١) حكم الحرمة فيفهم مشاركة من في معناه من فيها بطريق الدلالة فإن حرمة الجمع بين المرأة وعمتها وبين خالتها ليست بطريق الدلالة كما سلف وقيل ليس المراد بالإحلال مطلقاً أي على جميع الأحوال

(١) في ط : عليه يدور .

حتى يرد أنه يلزم منه حل الجمع بين المرأة وعمتها وبين خالتها بل إنما هو لإحلالهن في الجملة أى على بعض الأحوال ولا ريب في حل نكاحهن بطريق الانفراد ولا يقدر في ذلك حرمة بطريق الجمع ألا ترى أن حرمة نكاح المعتدة والمطلقة ثلاثاً والخامسة ونكاح الأمة على الحرية ونكاح الملائكة لا تقدر في حل نكاحهن بعد العدة وبعد التحليل وبعد تطليق الرابعة وانقضاء العدة وبعد تطليق الحرية وبعد إكذاب الملائكة نفسه وأنت خير بأن الحل يجب أن يتعلق ههنا بما يتعلق به الحرمة فيما سلف وقد تعلق هناك بالجمع فلا بد أن يتعلق الحل ههنا به أيضاً .

((أن تبتغوا)) متعلق بالفعلين المذكورين على أنه مفعول له لكن لا باعتبار ذاتهما بل باعتبار بيانهما وإظهارهما أى بين لاكم تحريم المحرمات المعدودة وإحلال ما سواهن لإرادة أن تبتغوا بأموالكم والمفعول محذوف أى تبتغوا النساء أو متروك أى تفعلوا الإبتغاء ((بأموالكم)) بصرفها إلى مهورهن أو بدل اشتغال مما وراء ذلكم بتقدير ضمير المفعول ((محصنين)) حال من فاعل تبتغوا والإحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم والعقاب ((غير مسافحين)) حال ثانية منه أو حال من الضمير في محصنين والسفاح الزنا والفجور من السفح الذى هو صب المنى سمي به لأنه الغرض منه ومفعول الفعلين محذوف أى محصنين فروجكم غير مسافحين الزواني وهى فى الحقيقة حال مؤكدة لأن المحصن غير مسافح ألبتة وما فى قوله تعالى : ((فما استمتعتم به منهن)) إما عبارة عن النساء أو عما يتعلق بهن من الأفعال وعلى التقديرين فهى إما شرطية ما بعدها شرطها وإما موصولة ما بعدها صلتهن وأياً ما كان فهى مبتدأ خبرها على تقدير كونها شرطية إما فعل الشرط أو جوابه أو كلاهما على الخلاف المعروف وعلى تقدير كونها موصولة قوله تعالى : ((فاتوهن أجورهن)) والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ثم على تقدير كونها عبارة عن النساء فالعائد إلى المبتدأ هو الضمير المنصوب فى فاتوهن سواء

كانت شرطية أو موصولة ومن بيانية أو تبعية محلها النصب على الحالية من الضمير المجرور في به والمعنى فأى فرد استمتعتم به أو الفرد الذى استمتعتم به حال كونه من جنس النساء أو بعضهن فأتوهن وقد روعى تارة جانب اللفظ فأفرد الضمير أولا وأخرى جانب المعنى فجمع ثانيا وثالثا وأما على تقدير كونها عبارة عما يتعلق بهن فن ابتدائية متعلقة بالاستمتاع والعائد إلى المبتدأ محذوف والمعنى أى فعل استمتعتم به من جهتهن من نكاح أو خلوة أو نحوهما أو فالفعل الذى استمتعتم به من قبلهن من الأفعال المذكورة فأتوهن أجورهن لأجله أو بمقابلته والمراد بالأجور المهور فإنها أجور أبضاعهن .

﴿ فريضة ﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة أو نعت لمصدر محذوف أى إيتاء مفروضا أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة أى لهن عليكم ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به ﴾ أى لا إثم عليكم فيما تراضيتن به من الخط عن المهر أو الإبراء منه على طريقة قوله تعالى (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه) إثر قوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن) وقوله تعالى (إلا أن يعغون) وتعميمه للزيادة على المسمى لا يساعده رفع الجناح عن الرجال لأنها ليست مظنة الجناح إلا أن يجعل الخطاب للأزواج تغليبا فإن أخذ الزيادة على المسمى مظنة الجناح على الزوجة وقيل فيما تراضيتن به من نفقة ونحوها وقيل من مقام أو فراق ولا يساعده قوله تعالى :

﴿ من بعد الفريضة ﴾ إذ لا تعلق لها بالفريضة إلا أن يكون الفراق بطريق المخالعة وقيل نزلت في المتعة التى هى النكاح إلى وقت معلوم من يوم أو أكثر سميت بذلك لأن الغرض منها مجرد الاستمتاع بالمرأة واستمتاعها بما يعطى وقد أبيحت ثلاثة أيام حين فتحت مكة شرفها الله تعالى ثم نسخت لما لما روى أنه عليه السلام أباحها ثم أصبح يقول يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة وقيل أبيع مرتين وحرم مرتين وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رجع عن القول

بجوازه عند موته وقال اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة وقولي في الصرف ﴿إن الله كان عليهما﴾ بمصالح العباد ﴿حكيما﴾ فيها شرع لهم من الأحكام ولذلك شرع لكم هذه الأحكام اللائقة بحالككم ﴿ومن لم يستطع منكم﴾ من إما شرطية ما بعدها شرطها أو موصولة ما بعدها صلتها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يستطع أى حال كونه منكم وقوله تعالى .

﴿طولا﴾ أو غنى وسعة أى اعتلاء ونيل وأصله الزيادة والفضل مفعول ليستطع وقوله عز وجل ﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ إما مفعول صريح لطول فإن إعمال المصدر المنون شائع ذائع كما في قوله تعالى (أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة) كأنه قيل ومن لم يستطع منكم أن ينال نكاحهن وإما بتقدير حرف الجر أى ومن لم يستطع منكم غنى إلى نكاحهن أو لنكاحهن فالجار في محل النصب صفة لطولا أى طولا موصلا إليه أو كائنا له أو على نكاحهن على أن الطول بمعنى القدرة في القاموس الطول والطائل والطائلة الفضل والقدرة والغنى والسعة ومحل أن بعد حذف الجار نصب عند سبويه والقراء وجر عند الكسائي والآخرى وإما بدل من طولا لأن الطول فضل والنكاح قدرة وإما مفعول ليستطع وطولا مصدر مؤكد له لأنه بمعناه إذ الإستطاعة هى الطول أو تمييز أى ومن لم يستطع منكم نكاحهن استطاعة أو من جهة الطول والغنى أى لا من جهة الطبيعة والمزاج فإن عدم الاستطاعة من تلك الجهة لا تعلق له بالمقام والمراد بالمحصنات الحرائر بدليل مقابلتهن بالمملوكات فإن حريتهن أحصنتهن عن ذل الرق والابتذال وغيرهما من صفات القصور والنقصان وقوله عز وجل .

﴿فما ملكت أيما نكم﴾ إما جواب للشرط أو خبر للبوصول والفاء لتضمنه معنى الشرط والجار متعلق بفعل مقدر حذف مفعوله وما موصولة أى فلينسكح امرأة أو أمة من النوع الذى ملكته أيما نكم وهو فى الحقيقة متعلق بمحذوف وقع صفة لذلك المفعول والمحذوف ومن تبعية أى فلينسكح امرأة

كأئمة من ذلك النوع وقيل من زائدة والموصول مفعول للفعل المقدر أى فلينسكح ما ملكته أيمانكم وقوله تعالى ﴿ من فتياتكم المؤمنات ﴾ في محل النصب على الحالية من الضمير المقدر في ملكك الراجع إلى ما وقيل هو المفعول للفعل المقدر على زيادة من وما ملكت متعلق بنفس الفعل ومن لا ابتداء الغاية أو بمحذوف وقع حالا من فتياتكم ومن للتبعية أى فلينسكح فتياتكم كأنات بعض ما ملكت أيمانكم والمؤمنات صفة لفتياتكم على كل تقدير وقيل هو المفعول للفعل المقدر ومما ملكت على ما تقدم آنفا ومن فتياتكم حال من العائد المحذوف وظاهر النظم الكريم يفيد عدم جواز نكاح الأمة للمستطيع كما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى وعدم جواز نكاح الأمة الكتابية أصلا كما هو رأى أهل الحجاز وقد جوزهما أبو حنيفة رحمه الله تعالى متمسكا بالعمومات فمحمل الشرط والوصف هو الأفضلية ولا نزاع فيها لأحد وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال وبما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وإن كان موسرا وقوله تعالى .

﴿ والله أعلم بإيمانكم ﴾ جملة معترضة جىء بها لتأنيسهم بنكاح الإمام واستزاهم من رتبة الاستنكاف منه ببيان أن مناط التفاضل ومدار التفاخر هو الإيمان دون الأنساب على ما نطق به قوله عز قائلا (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) والمعنى أنه تعالى أعلم منكم بمراتبكم في الإيمان الذي به تنتظم أحوال العباد وعليه يدور فلك المصالح في المعاش والمعاد ولا تعلق له بخصوص الحرية والرق فرب أمة يفوق إيمانها إيمان الحرائر وقوله تعالى : ﴿ بعضكم من بعض ﴾ إن أريد به الاتصال من حيث الدين فهو بيان لتناسبهم من تلك الحيثية لأثر بيان تفاوتهم في ذلك وإن أريد به الاتصال من حيث النسب فهو اعتراض آخر مؤكدا للتأنيس من جهة أخرى والخطاب في الموضعين إما لمن كما في الخطاب الذي يعقبه قد روعى فيما سبق جانب اللفظ وههنا جانب المعنى والالتفات للاهتمام بالترغيب والتأنيس وإما لغيرهم من المسلمين كالخطابات السابقة لحصول

الترغيب بخطابهم أيضا وأيا ما كان لإعادة الأمر بالنكاح على وجه الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَانكحوهن﴾ مع انفهامه من قوله تعالى فيما ملكت أيمانكم حسبما ذكر لزيادة الترغيب في نكاحهن وتقييده بقوله تعالى ﴿يَاْذَن أَهْلَهُنَّ﴾ وتصديره بالفاء للإيذان بترتبه على ما قبله أى وإذ قد وقفتم على جلالة الأمر فأنكحوهن ياْذَن موالين ولا تترفعوا عنهن وفي اشتراط إْذَن الموالى دون مباشرتهم للعقد إشعار بجواز مباشرتهن له ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أى مهورهن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بآتوهن أى أدوا لهن مهورهن بغير مطل وضرار وإلجاء إلى الإقتضاء واللز حسبما يقتضيه الشرع والعادة ومن ضرورته أن يكون الأداء لهن ياْذَن الموالى فيكون ذكر لياتنهن لبيان جواز الأداء لهن لا لسكون المهور لهن وقيل أصله آتوا موالين فحذف المضاف وأوصل الفعل إلى المضاف إليه ﴿مَحْصَنَاتٌ﴾ حال من مفعول فأنكحوهن أى حال كونهن عفاف عن الزنا .

﴿غَيْرُ مَسَاحُاتٍ﴾ حال مؤكدة أى غير مجاهرات به ﴿وَلَا مُتَخَذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ عطف على مساحات ولا لتأكيد ما فى غير من معنى النفي والخذن الصاحب قال أبو زيد الأخدان الأصدقاء على الفاحشه والواحد خدن وخذين والجمع للمقابلة بالانقسام على معنى ألا يكون لواخذه منهن خدن لاعلى معنى ألا يكون لها أخدان أى غير مجاهرات بالزنا ولا مسرات له وكان الزنا فى الجاهلية منقسما إلى هذين القسمين ﴿فَإِذَا أَحْصَنَ﴾ أى بالتزويج وقرىء على البناء للفاعل أى أحصن فزوجهن أو أزواجهن ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ أى فعلمن فاحشة وهى الزنا ﴿فَعَلِمْن﴾ وجب عليهن شرعا ﴿نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أى الحرائر الأبكار ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ من الحد الذى هو جلد مائة فنصفه خمسون كما هو كذلك قبل الإحصان فالمراد بيان عدم تفاوت حدهن بالإحصان كتفاوت حد الحرائر فالفاء فى فإن آتين جواب إذا والثانية جواب إن والشرط الثانى مع جوابه مترتب على وجود الأول كما فى قولك إذ أتيتنى فإن لم أكرمك فعبدى حر ﴿ذَلِكَ﴾ أى نكاح الإمام

﴿لن خشى العنت منكم﴾ أى لمن خاف وقوعه فى الإثم الذى تؤدى إليه غلبة الشهوة وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر يعترى الإنسان بعد صلاح حاله ولا ضرر أعظم من مواجهة المآثم بارتكاب أخش القبائح وقيل أريد به الحد لأنه إذا هويها يخشى أن يواقعها فيحد والأول اللائق بحال المؤمن دون الثانى لإيهامه أن المحذور عنده الحد لا ما يوجبها ﴿وأن تصبروا﴾ أى عن نكاحهن متعفين كافين أنفسكم عما تشتهيه من المعاصى .

﴿خير لكم﴾ من نكاحهن وإن سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرق قال عمر رضى الله عنه أيما حر تزوج بأمة فقد أرق نصفه وقال سعيد بن جبير ما نكاح الأمة من الزنا إلا قريب ولأن حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولأن المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد فى السفر والحضر وعلى بيعها للحاضر والبادى وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده مالا مزيد عليه ولأنها بمنزلة خراجة ولاجة وذلك كله ذل ومهانة سارية إلى الناكح والعزة هى اللاتفة بالمؤمنين ولأن مهرها لمولاهم فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج فلا ينتظم أمر المنزل وقد قال عليه السلام الحرائر صلاح البيت والإمام هلاك البيت ﴿والله غفور﴾ مبالغ فى المغفرة فيغفر لمن لم يصبر عن نكاحهن ما فى ذلك من الأمور المنافية لحال المؤمنين ﴿رحيم﴾ مبالغ فى الرحمة ولذلك رخص لكم فى نكاحهن ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ استئناف مسوق لتقرير ما سبق من الأحكام وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الأنبياء والصالحين قيل أصل النظم الكريم يريد الله أن يبين لكم فزيت اللام لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة ومفعول بين محذوف ثقة بشهادة السباق والسياق أى يريد الله أن يبين لكم ما هو خفى عنكم من مصالحكم وفضائل أعمالكم أو ما تعبدكم به من الحلال والحرام وقيل مفعول يريد محذوف تقديره يريد الله تسريع ما شرع

من التحريم والتحليل لأجل التبيين لـكم وهذا مذهب البصريين ويعزى إلى سيديوه وقيل إن اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير إضمار أن وهى وما بعدها مفعول للفعل المتقدم فإن اللام قد تقام مقام أن في فعل الإرادة والأمر فيقال أردت لأذهب وأن أذهب وأمرتك لتقوم وأن تقوم قال تعالى (يريدون ليطفئوا نور الله) وفي موضع (يريدون أن يطفئوا) وقال تعالى (وأمرنا لنسلم) وفي موضع (وأمرت أن أسلم) وفي آخر (وأمرت لأعدل بينكم) أى أن أعدل بينكم وهذا مذهب الكوفيين ومنعه البصريون وقالوا إن وظيفة اللام هى الجر والنصب فيما قالوا بإضمار أن أى أمرنا بما أمرنا لنسلم ويريدون ليطفئوا وقيل يؤول الفعل الذى قبل اللام بمصدر مرفوع بالابتداء ويجعل ما بعده خبراً له كما فى تسمع بالمعدي خير من أن تراه أى أن تسمع به ويعزى هذا الرأى إلى بعض البصريين ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم .

﴿ ويتوب عليكم ﴾ إذ أنبتم إليه تعالى عما يقع منكم من التقصير والتفريط فى مراعاة ما كلفتموه من الشرائع فإن المكلف قلما يخلو من تقصير يستدعى تلافيه بالتوبة ويغفر لكم ذنوبكم أو يرشدكم إلى ما يردعكم عن المعاصى ويحشركم على التوبة أو إلى ما يكون كفارة لسيئاتكم وليس الخطاب لجميع المكلفين حتى يتخلف مراده تعالى عن إرادته فيمن لم يتب منهم بل لطائف معينة حصلت لهم هذه التوبة ﴿ والله عليم ﴾ مبالغ فى العلم بالأشياء التى من جملتها ما شرع لـكم من الأحكام ﴿ حكيم ﴾ مراعى فى جميع أفعاله الحكمة والمصلحة ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ جملة مبتدأ مسوقة لبيان كمال منفعة ما أراده الله تعالى وكال مضره ما يريد الفجرة لا لبيان إرادته تعالى لتوبته عليهم حتى يكون من باب التكرير للتقرير ولذلك غير الأسلوب إلى الجملة الاسمية دلالة على دوام الإرادة ولم يفعل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ويريد الذين يتبعون السموات ﴾ للإشارة إلى الحدوث وللإيماء إلى كمال المباينة بين مضمونى الجملتين كما مر فى قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا) الآية

والمراد بمتبعي الشهوات الفجرة فإن اتباعها الاثم بها وأما المتعاطى لما
سوغه الشرع من المشتبهات دون غيره فهو متبع له لا لها وقيل هم اليهود
والنصارى وقيل هم المجوس حيث كانوا يحلون الأخوات من الأب وبنات
الأخ وبنات الأخت فلما حرمهن الله تعالى قالوا فإنكم تحلون بذات الخالة
مع أن العمة والخالة عليكم حرام فانكحوا بنات الأخ والأخت فنزلت
﴿ أن تميلوا ﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات
وتكونوا زناة مثلهم وقرىء بالياء التحتانية والضمير للذين يتبعون
الشهوات .

﴿ ميلا عظيما ﴾ أى بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندرة بلا
استحلال ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ بما مر من الرخص ما في عهدتكم من
مشاق التكاليف والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿ وخلق الإنسان
ضعيفا ﴾ عاجزا عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه وقواه حيث
لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه في مشاق الطاعات وعن الحسن
أن المراد ضعف الحلقة ولا يساعده المقام فإن الجملة اعتراض تذييلي مسوق
لتقرير ما قبله من التخفيف بالرخصة في نكاح الإماء وليس لضعف البنية
مدخل في ذلك وإنما الذى يتعلق به التخفيف في العبادات الشاقة وقيل المراد به
ضعفة في أمر النساء خاصة حيث لا يصبر عنهن وعن سعيد بن المسيب ما أيسر
الشیطان من بنى آدم قط إلا أتاها من قبل النساء فقد أتى على ثمانون سنة وذهبت
إحدى عينى وأنا أعشو بالآخرى وإن أخوف ما أخاف على نفسى فتنة النساء
وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما وخلق الإنسان على البناء للفاعل والضمير لله
عز وجل وعنه رضى الله عنه ثمانى آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة
مما طلعت عليه الشمس وغربت (يريد الله ليبين لكم) (والله يريد أن يتوب عليكم)
(يريد الله أن يخفف عنكم) (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) (إن الله لا يفرغ أن
يشرك به ويفرغ مادون ذلك لمن يشاء) (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تاب حسنة

يضاعفها) (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ شروع في بيان بعض الحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس إثر بيان الحرمات المتعلقة بالأبضاع وتصدير الخطاب بالنداء والتوبيخ لإظهار كمال العناية بمضمونه والمراد بالباطل ما يخاف الشرع كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وغير ذلك مما لم يبيحه الشرع أى لا يأكل كل بعضكم أموال بعض بغير طريق شرعى ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ استثناء منقطع وعن متعلقة بمحذوف وقع صفة لتجارة أى إلا أن تكون التجارة تجارة صادرة عن تراض كما في قوله

• إذا كان يوماً ذا كواكب أشعنا •

أى إذا كان اليوم يوماً الخ أو إلا أن تكون الأموال أموال تجارة وقرىء تجارة بالرفع على أن كان تامة أى ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض أى وقوعها أو ولكن وجود تجارة عن تراض غير منتهى عنه وتخصيصها بالذكر من بين سائر أسباب الملك لكونها معظمها وأغلبها وقوعاً وأوفقها لذوى المروءات والمراد بالتراضى مراعاة المتبايعين فيما تعاقدوا عليه في حال المبايعه وقت الإيجاب والقبول عندنا وعند الشافعى رحمة الله حالة الافتراق عن مجلس العقد .

﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أى من كان من جنسكم من المؤمنين فإن كلهم كنفس واحدة وعن الحسن لا تقتلوا إخوانكم والتعبير عنهم بالأنفس للبالغة في الزجر عن قتلهم بتصويره بصورة ما لا يكاد يفعله عاقل أو لانهلستكم أنفسكم بتعريضها للعقاب باقتراف ما يفضى إليه فإنه القتل الحقيقى كما يشعر به إيراد عقيب النهى عن أكل الحرام فيكون مقررراً للنهى السابق وقيل لا تقتلوا أنفسكم بالبئح كما يفعله بعض الجمله أو بارتكاب ما يؤدى إلى القتل من الجنايات وقيل بإلحاقها في التهلكة وأيد بما روى عن عمرو بن العاص أنه تأوله بالتيميم لحوف البرد فلم ينكر عليه النبي عليه الصلاة والسلام وقرىء ولا تقتلوا

بالتشديد للتكثير وقد جمع في التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لما أنه شقيقها من حيث أنه سبب لقوامها وتحصيل كمالها واستيفاء فضائلها وتقديم النهي عن التعرض له لكثرة وقوعه ﴿إن الله كان بكم رحيمًا﴾ تعليل للنهي بطريق الاستئناف أى مبالغاً في الرحمة والرفقة ولذلك نهاكم عما نهاكم^(١) عنه فإن في ذلك رحمة عظيمة لكم بالزجر عن المعاصي وللذين هم في معرض التعرض لهم بحفظ أموالهم وأنفسهم وقيل معناه إنه كان بكم بأمة محمد رحيماً حيث أمر بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصاً لخطاياهم ولم يكلفكم تلك التكاليف الشاقة ﴿وهن يفعل ذلك﴾ إشارة إلى القتل خاصة أو لما قبله من أكل الأموال وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهما في الفساد ﴿عدواناً وظالماً﴾ أى إفراطاً في التجاوز عن الحد وإتياناً بما لا يستحقه وقيل أريد بالعدوان التعدى على الغير وبالظلم الظلم على النفس بتعريضها للعقاب ومحلها النصيب على الحالية أو على التعليل^(٢) أى معتدياً وظالماً أو للعدوان والظلم وقرىء عدواناً بكسر العين .

﴿فسوف نصليهم﴾ جواب للشرط أن ندخله وقرىء بالتشديد من صلى وافتتح النون من صلاه يصليهم ومنه شاة مصلية ويصليهم بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث أنه سبب للصلى ﴿ناراً﴾ أى ناراً مخصوصة هائلة شديدة العذاب ﴿وكان ذلك﴾ أى لإصلاؤه النار ﴿على الله يسيراً﴾ لتحقيق الداعي وعدم الصارف وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وتأكيد استقلال الاعتراض التذييل ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ أى كبائر الذنوب التي نهاكم الشرع عنها بما ذكر ههنا وما لم يذكر وقرىء كبير على إرادة الجنس ﴿نكفر عنكم﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات وقرىء بالياء بالإسناد إليه تعالى والتكفير إمالة المستحق من العقاب بواب أريد أو بتوبة

(١) في ط : نهي .

(٢) في ط : العلية .

أى يغفر لكم ﴿ سيئاتكم ﴾ صغائركم ونمحوها عنكم ، قال المفسرون الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن من الصغائر إذا اجتنبت الكبائر واختلف في الكبائر والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه وقيل ما علم حرمة بقاطع وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنها سبع الإشراف بالله تعالى وقتل النفس التي حرمها الله تعالى وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والربا والفرار من الزحف وعقوق الوالدين وعن علي رضي الله عنه التعقيب بعد الهجرة مكان عقوق الوالدين وزاد ابن عمر رضي الله عنهما السحر واستحلال البيت الحرام وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قال له الكبائر سبع قال هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع وروى عنه إلى سبعين إذلا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار وقيل أريد به أنواع الشرك لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقيل صغر الذنوب [وكبرها] ^(١) بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها وبحسب فاعلمها [فقط] ^(٢) بل بحسب الأوقات والأماكن أيضا فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديث النفس وما بينهما وسائط يصدق عليه الأمران فمن له أمران منهما ^(٣) ودعت نفسه إليهما بحيث لا يتألف فكيفها عن أكبرهما كفر عنه ما ارتكبه لما استحق على اجتناب الأكبر من الثواب ﴿ وندخلكم مدخلا ﴾ بضم الميم اسم مكان هو الجنة ﴿ كريما ﴾ أى حسنا مرضيا أو مصدر ميمي أى إدخالا مع كرامة وقرىء بفتح الميم وهو أيضا يحتمل المكان والمصدر ونصبه على الثانى بفعل مقدر مطاوع للمذكور أى ندخلكم فتدخلون مدخلا أو دخولا كريما كما فى قوله .

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف
أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ ﴿ ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على

بعض) أى عليكم ولعل لما أشار الإيهام عليه للتفادى عن المواجهة بما يشق عليهم . قال القفال لما نهى الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل الأنفس عقبه بالنهى عما يؤدى إليه من الطمع فى أموالهم وتمنيها وقيل نهىهم أولا عن التعرض لأموالهم بالجوارح ثم عن التعرض لها بالقلب على سبيل الحسد لتطهير أعمالهم الظاهرة والباطنة فالمعنى لا تتمنوا ما أعطاه الله تعالى بعضكم من الأمور الدنيوية كالجاه والمال وغير ذلك مما يجرى فيه التنافس دونكم فإن ذلك قسمة من الله تعالى صادرة عن تدبير لا ترق بأحوال العباد مترتب على الإحاطة بمجلائل شؤونهم ودقائقها فعلى كل أحد من المفضل عليهم أن يرضى بما قسم الله له ولا يتمنى حظ المفضل ولا يحسده عليه لما أنه معارضة لحكم القدر المؤسس على الحكيم البالغة لا لأن عدمه خير له ولا لأنه لو كان خلافه لكان مفسدة له كما قيل إذ لا يساعده ما سياتى من الأمر بالسؤال من فضله تعالى فإنه ناطق بأن المنهى عنه تمنى نصيب الغير لا تمنى ما زاد على نصيبه مطلقا هذا وقد قيل لما جعل الله تعالى فى الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين قالت النساء نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد لأننا ضعفاء وهم أقوياء وأقدر على طلب المعاش منا فنزلت وهذا هو الأنسب بتعليل النهى بقوله عز وجل ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ فإنه صريح فى جريان التمثيل بين فريقى الرجال والنساء ولعل صيغة المذكر فى النهى بالبعض والمعنى لكل من الفريقين فى الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعدادة وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه إياه تأكيداً لاستحقاق كل منهما لنصيبه وتقوية لاختصاصه به بحيث لا يتخطاه إلى غيره فإن ذلك مما يوجب الانتهاء عن التمنى المذكور .

وقوله تعالى ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ عطف على النهى وتوسيط التعليل بينهما لتقرير الانتهاء مع ما فيه من الترغيب فى الامتنال بالأمر كأنه قيل لا تتمنوا ما يحتسب بغيركم من نصيبه المكتسب له واسألوا الله تعالى من خزائن (٤٤ - أبو السعود - أول)

نعمه التي لا تنفذ وحذف المفعول الثاني للتعميم أى واسألوه ما تريدون فإنه تعالى يعطيكموه أو لكونه معلوما من السياق أى واسألوه مثله وقيل من زائدة والتقدير واسألوه فضله وقد جاء في الحديث لا يتمنين أحدكم مال أخيه ولكن اقبل اللهم ارزقني اللهم أعطني مثله وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سلوا الله من فضله فإنه يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج وحمل النصيب على الأجر الأخرى وإيقاعه الاكتساب على حقيقته يجعل سبب النزول ما روى أن أم سلمة رضى الله عنها قالت ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم على أن المعنى لكل من الفريقين نصيب خاص به من الأجر مترتب على عمله فلا رجال أجر بمقابلة ما يليق بهم من الأعمال كالجهاد ونحوه وللنساء أجر بمقابلة ما يليق بهن من الأعمال كعظم حقوق الأزواج ونحوه فلا تتمن النساء خصوصية أجر الرجال وليسألن من خزائن رحمته تعالى ما يليق بهن من الأجر لا يساعده سياق النظم الكريم المتعلق بالمواريث وفضائل الرجال ﴿لأن الله كان بكل شيء عليما﴾ ولذلك جعل الناس على طبقات ورفع بعضهم على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية .

﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾ جملة مبتدأة مقررة لمضمومون ما قبلها ولكل مفعول ثان لجعلنا قدم عليه لتأكيد الشمول ودفع توهم تعلق الجعل ببعض دون البعض كما في قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أى ولكل تركه جعلنا ورثة متفاوتة في الدرجة يلونها ويحززون منها أنصباهم بحسب استحقاقهم المنوط بما بينهم وبين المورث من العلاقة ومما ترك بيان لكل قد فصل بينهما بما عمل فيه كما فصل في قوله تعالى (قل أغير الله أنخذ وليا فاطر السموات والأرض) بين لفظ الجلالة وبين صفة التعامل فيما أضيف إليه أغنى غير أو ولكل قوم جعلناهم موالى أى وراث نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين مما ترك الوالدان والأقربون على أن جعلنا موالى صفة

سورة النساء

٦٩١

لكل والضمير الراجع إليه محذوف والكلام مبتدأ وخبر على طريقة قولك لكل من خلقه الله إنسانا من رزق الله أى حظ منه وأما ما قيل من أن المعنى لكل أحد جعلنا موالى مما ترك أى وراثا منه على أن من صلة موالى لأنه فى معنى الوارث وفى ترك ضمير مستكن عائد إلى كل وقوله تعالى الوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالى كأنه قيل من هم فقيل الوالدان ففيه تفكيك للنظم الكريم لأن ببيان الموالى بما ذكر يفوت الإبهام المصحح لاعتبار التفاوت بينهم وبه يتحقق الانتظام كما أشير إليه فى تقرير الوجهين الأولين مع ما فيه من خروج الأولاد من الموالى إذ لا يتناولهم الأقربون كما لا يتناول الوالدين ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ هم موالى الموالاة كان الحليف يرث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) وعند أبى حنيفة رحمه الله إذا أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح وعليه عقله وله إرثه إن لم يكن له وارث أصلا وإسناد العقد إلى الإيمان لأن المعتاد هو الماسحة بها عند العقد والمعنى عقدت أيمانكم عهدوهم لحذف العهد وأقيم المضاف إليه مقامه ثم حذف وقرئ عقدت بالتشديد وعاقدت بمعنى عاقدتهم أيمانكم وماسحتهم وهم وهو مبتدأ متضمن لمعنى الشرط ولذلك صدر الخبر أعنى قوله تعالى ﴿فآتوهم نصيبتهم﴾ بالفاء أو منصوب بمضمر يفسره ما بعده كقولك زيدا فاضربه أو مرفوع معطوف على الوالدان والأقربون وقوله تعالى فآتوهم الخ جملة مبينة للجملة قبلها ومؤكدة لها والضمير للموالى ﴿إن الله كان على كل شيء﴾ من الأشياء التى من جملتها الإتياء والمنع ﴿شهيذا﴾ ففيه وعد ووعيد .

﴿الرجال قوامون على النساء﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سبب استحقاق الرجال الزيادة فى الميراث تفصيلا لمثر بيان تماوت استحقاقهم إجمالا وإيراد الجملة اسمية والخبر على صيغة المبالغة للإيذان بعراقتهم فى الاتصاف بما أسند إليهم ورسوخهم فيه أى شأنهم القيام عليهن بالأمر والنهى قيام الولاية على الرعية وعلل ذلك بأمرين وهبى وكسبى فقيل ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ الباء

سببية متعلقة بقوامون أو بمحذوف وقع حالا من ضميره وما مصدرية والضمير البارز لكلا الفريقين تغليباً أى قوامون عليهن بسبب تفضيل الله تعالى لإياهم عليهن أو ملتبسين بتفضيله تعالى الخ ووضع البعض موضع الضميرين للإشعار بغاية ظهور الأمر وعدم الحاجة إلى التصريح بالمفضل والمفضل عليه أصلاً ولذلك لم يصرح بما به التفضيل من صفات كما له التي هي كمال العقل وحسن التدبير ورزاقه الرأى ومزبد القوة فى الأعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادة فى جميع القضايا وجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ الباء متعلقة بما تعلق به الأولى وما مصدرية وموصولة حذف عائدها من الصلة ومن تبعيضية أو ابتدائية متعلقة بأنفقوا أو بمحذوف وقع حالا من العائد المحذوف أى وبسبب إنفاقهم من أموالهم أو بسبب ما أنفقوه من أموالهم أو كائناً من أموالهم وهو ما أنفقوه من المهر والنفقة . روى أن سعد بن الربيع أحد نقيب الأنصار رضى الله عنهم نشرته عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا فقال عليه السلام لتقتص منه فنزلت فقال عليه السلام أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير .

﴿فالصالحات﴾ شروع فى تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن أى فالصالحات منهن ﴿قانتات﴾ أى مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿حافظات للغيب﴾ أى لمواجب الغيب أى لما يجب عليهن حفظه فى حال غيبة الأزواج من الفروج والأموال . عن النبي صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة إن نظرت إليها صرتك وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها وتلا الآية وقيل لأسرارهم وإضافة المال إليها للإيذان بأن ماله فى حق التصرف فى حكم مالها كما فى قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) الآية ﴿بما حفظ الله﴾ ما مصدرية أى بحفظه تعالى إياهن بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له أو موصولة أى بالذى حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن

والذنب عنهن وقرىء بما حفظ الله بالنصب على حذف المضاف أى بالأمم الذى حفظ. حق الله تعالى وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال .

﴿ واللاقى تخافون نشوزهن ﴾ خطاب للأزواج وإرشادهم إلى طريق القيام عليهن والخوف حالة تحصل فى القلب عند حدوث أمر مكروه أو عند الظن أو العلم بحدوثه وقد يراد به أحدهما أى تظنون عصيانهن وترفعن عن مطاوعنكم من النشز وهو المرتفع من الأرض ﴿ فعظوهن ﴾ فانصحوهن بالترغيب والترهيب ﴿ واهجروهن ﴾ بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والنصيحة ﴿ فى المضاجع ﴾ أى فى المراقف فلا تدخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع وقيل المضاجع المبات أى لا تبايتوهن وقرىء فى المضجع وفى المضطجع ﴿ واضربوهن ﴾ إن لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران ضرباً غير مبرح ولا شأن ﴿ فإن أطعنكم ﴾ بذلك كما هو الظاهر لأنه منتهى ما يعد زاجراً ﴿ فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ بالتوبيخ والأذية أى فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فإن الثائب من الذنب كمن لا ذنب له .

﴿ إن الله كان عليماً كبيراً ﴾ فاحذروه فإنه تعالى أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم أو أنه تعالى على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم عند توبتكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند إطاعتكم لكم أو أنه يتعالى ويكبر أن يظلم أحداً أو ينقص حقه وعدم التعرض لعدم إطاعتهم لهم للإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يتحقق أو يفرض تحققه وأن الذى يتوقع منهن ويليق بشأنهن لا سيما بعد ما كان من الزواج هو الإطاعة ولذلك صدرت الشرطية بالفاء المنبئة عن سببية ما قبلها لما بعدها ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الأحكام وارد على بناء الأمر على التقدير المسكوت عنه أعنى عدم الإطاعة المؤدى إلى المخاصمة والمرافعة إليهم والشقاق المخالفة إما لأن كلا منهما يريد ما يشق على الآخر وإما لأن كلا منهما فى شق أى جهانب غير شق الآخر والخوف ههنا بمعنى العلم قاله ابن عباس والجزم بوجود الشقاق لا ينافى بعث الحكمين لأنه لرجاء إزالته لا لتعرف وجوده بالفعل وقيل بمعنى

الظن وضمير التثنية للزوجين وإن لم يجر ذكرهما لجرى ما يدل عليهما وإضافة الشقاق إلى الظرف إما على إجرائه مجرى المفعول به كما في قوله يأسارق الليلة أو مجرى الفاعل كما في قولك نهاره صائم أى إن علمتم أو ظننتم تأكد المخالفة بحيث لا يقدر الزوج على إزالتها ﴿ فابعدوا ﴾ أى إلى الزوجين لإصلاح ذات البين ﴿ حكما ﴾ رجلا وسطا صالحا للحكومة والإصلاح ﴿ من أهله ﴾ من أهل الزوج ﴿ وحكما ﴾ آخر على صفة الأول ﴿ من أهلها ﴾ فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للإصلاح وهذا على وجه الاستحباب فلو نصبا من الأجانب جاز واختلاف في أنهما هل يليان الجمع والتفريق إن رأيا ذلك فقل لهما ذلك وهو المروى على رضى الله عنه وبه قال الشعبي وعن الحسن يجمعان ولا يفرقان وقال مالك لهما أن يتخالعا إن كان الإصلاح فيه ﴿ إن يريدأ ﴾ أى الحكمان ﴿ إصلاحا ﴾ أى إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى .

﴿ يوفق الله بينهما ﴾ يوقع بين الزوجين الموافقة والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرافة وعدم التعرض لذكر عدم إرادتهما الإصلاح لما ذكر من الإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغي أن يفرض صدورهما وأن الذى يليق بشأنهما ويتوقع صدورهما هو إرادة الإصلاح وفيه مزيد ترغيب للحكمين فى الإصلاح وتحذير عن المساهلة لسيلا ينسب اختلال الأمر إلى عدم إرادتهما فإن الشرطية الناطقة بدوران وجود التوفيق على وجود الإرادة منبهة عن دوران عدمه على عدمها وقبل كلا الضميرين للحكمين أى إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما فتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما وقيل كلاهما للزوجين أى إن أرادا إصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله تعالى بينهما الألفة والوفاق وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتوخاه وفقه الله تعالى لمبتغاه ﴿ إن الله كان عليما خبيراً ﴾ بالظواهر والبواطن فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والأقارب ونحوهم إثر بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الأزواج صدر بما يتعلق

بحقوق الله عز وجل التي هي آكد الحقوق وأعظمها تنبيهاً على جلالة شأن حقوق الوالدين بنظمها في سلكها كما في سائر المواقع وشيئاً نصب على أنه مفعول أى لا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره أو على أنه مصدر أى لا تشركوا به شيئاً من الإشراف جالياً أو خفياً ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أى أحسنوا إليهما إحساناً ﴿وبذي القربى﴾ أى بصاحب القرابة من أخ أو عم أو خال أو نحو ذلك .

﴿واليتمى والمساكين﴾ من الأجنب ﴿والجار ذى القربى﴾ أى الذى قرب جواره وقيل له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين وقرىء بالنصب على الاختصاص تعظيماً لحق الجار ذى القربى ﴿والجار الجنب﴾ أى البعيد أو الذى لا قرابة له وعنه عليه الصلاة والسلام الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام وجار له حقان حق الجوار وحق الإسلام وجار له حق واحد وهو حق الجوار وهو الجار من أهل الكتاب وقرىء والجار الجنب ﴿والصاحب بالجنب﴾ أى الرفيق فى أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فإنه صديق وحصل بجانبك ومنهم من قعد بجانبك فى مسجد أو مجلس أو غير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه وقيل هى المرأة ﴿وابن السبيل﴾ هو المسافر المنقطع به أو الضيف ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ من العبيد والإماء ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً﴾ أى متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ﴿نفوراً﴾ يتفاخر عليهم والجملة تعليل للأمر السابق .

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ بضم الباء وسكون الخاء وقرىء بفتح الأول وبفتحهما وبضمهما والموصول بدل من قوله تعالى (من كان) أو نصب على الذم أو رفع عليه أى هم الذين أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ أى من المال والغنى أو من نعوته عليه السلام التى بينها لهم فى التوراة وهو أنسب بأمرهم للناس بالبخل فإن أحبارهم كانوا يكتمونها ويأمرون أعقابهم

بكتهم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُبِينًا﴾ وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى ومن كان كافراً بنعمة الله تعالى فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار بطريق النصيحة لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر وقيل في الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبلها ﴿والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس﴾ أى للفخار وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا ابتغاء وجه الله تعالى وهو عطف على الذين يبخلون أو على الكافرين وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذى هو الإنفاق فيما لا ينبغي من حيث أنهما طرفا تفریط وإفراط سواء فى القبح واستتباع اللاتمة والذم ويجوز أن يكون العطف بناء على إجراء التغير الوصفي مجرى التغير الذاتى كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث السكتائب فى المزدحم

أومبتداً خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى ومن يكن الخ كأنه قيل والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ﴿ولا يؤمنون بالله ولا اليوم الآخر﴾ ليتحروا بالإنفاق مرضيه تعالى وثوابه وهم مشركو مكة المنفقون أموالهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل المنافقون ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ أى فقرينهم الشيطان وإنما حذف للإيدان بظهوره واستغنائه عن التصريح به والمراد به إبليس وأعوانه حيث حملهم على تلك القبائح وزينوها لهم كما فى قوله تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار ﴿وماذا عليهم﴾ أى على من ذكر من الطوائف .

﴿ولو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا بما رزقهم الله﴾ أى ابتغاء وجه الله تعالى وإنما لم يصرح به تعويلاً على التفصيل السابق واكتفاء بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر فإنه يقتضى أن يكون الإنفاق لا ابتغاء وجهه تعالى وطلب

ثوابه البتة أى وما الذى عليهم أو أى تبعة ووبال عليهم فى الإيمان بالله والإِنفاق فى سبيله وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والإِعتقاد فى الشئ بخلاف ما هو عليه وتحريض على التَّفكر لطلب الجواب لعله يؤدى بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغى أن يجيب إليه إحتياطاً فكيف إذا كان فيه منافع لا تَحصى وتقديم الإيمان بهما لأهميته فى نفسه ولعدم الإِعتداد بالإِنفاق بدونه وأما تقديم إِنفاقهم رثاء الناس على عدم إيمانهم بهما مع كون المؤخر أقبح من المقدم فإِعرابة المناسبة بين إِنفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به ﴿ وكان الله بهم ﴾ وبأحوالهم المحققة ﴿ عليهما ﴾ فهو وعيد لهم بالعقاب أو بأعمالهم المفروضة وبيان لإِثباته تعالى لإِياهم لو كانوا قد آمنوا وأنفقوا كما ينبى عنه قوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ المُنقال مفعول من الثقل كالمقدار من القدر وانتصابه على أنه نعت للمفعول قائم مقامه سواء كان الظلم بمعنى النقص أو بمعنى وضع الشئ فى غير موضعه أى لا ينقص من الأجر ولا يزيد فى العقاب شيئاً مقدار ذرة أو على أنه نعت للبصدر المحذوف نائب منابه أى لا يظلم ظُلماً مقدار ذرة وهى النملة الصغيرة أو كل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة وهو الأنسب بمقام المبالغة فإن قلته فى الثقل أظهر من قلة النملة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة .

﴿ وإن تك حسنة ﴾ أى وإن تك مثقال ذرة حسنة أنث لتأنيث الخبر أو لإِضافته إلى الذرة وحذف النون من غير قياس تشبيهاً بحروف العلة وتخفيفاً لكثرة الاستعمال وقرئ حسنه بالرفع على أن كان تامة ﴿ يضعفها ﴾ أى يضعف ثوابها جعل ذلك مضاعفة لنفس الحسنة تنبيهاً على كمال الإِصال بينهما كأنهما شئ واحد وقرئ يضعفها وكلاهما بمعنى واحد وقرئ تضعفها بنون العظمة على طريقة الإِلتفات . عن عثمان النهدي أنه قال لأبى هريرة رضى الله عنه بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله

تعالى يعطى عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة قال أبو هريرة لا بل سمعته صلى الله عليه وسلم يقول يعطيه ألفى ألف حسنة ثم تلا هذه الآية والمراد الكثرة لا التحديد ﴿وبؤت من لدنه﴾ ويعط صاحبها من عنده على نهج التفضل زائداً على ما وعده في مقابلة العمل ﴿أجرأ عظيماً﴾ عطاء جزيلاً وإنما سماه أجراً لكونه تابعا للأجر مزيداً عليه ﴿فكيف﴾ محلها إما الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف وإما النصب بفعل محذوف على التشبيه بالحال كما هو رأى سيويوه أو على التشبيه بالظرف كما هو رأى الأخفش أى كيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم أو كيف يصنعون ﴿إذا جئنا﴾ يوم القيامة ﴿من كل أمة﴾ من الأمم ﴿بشهاد﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الأعمال وهو نبيهم كما فى قوله تعالى (وكنتم عليهم شهيذا ما دمت فيهم) والعامل فى الظرف مضمون المبتدأ والخبر من هول الأمر وعظم الشأن أو الفعل المقدر ومن متعلقة بجئنا .

﴿وجئنا بك﴾ يا محمد ﴿على هؤلاء﴾ إشارة إلى الشهداء المدلول عليهم بما ذكر ﴿شهيذا﴾ تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم لاستجماع شرعك لجماع قواعدهم وقيل إلى المكذبين المستفهم عن حالهم تشهد عليهم بالكفر والعصيان كما يشهد سائر الأنبياء على أممهم وقيل إلى المؤمنين كما فى قوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) ﴿يؤمنذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾ استئناف لبيان حالهم التى أشير إلى شدتها وفضاعتها بقوله تعالى فكيف فإن أريد بهم المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتعبير عنهم بالموصول لا سيما بعد الإشارة إليهم هؤلاء لذمهم بما فى حيز الصلة والإشعار بعلامة ما اعتراه من الحال الفظيعة والأمر الهائل ولإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه فإن حق الرسول أن يؤمن به ويطاع لا أن يكفر به ويعصى وإن أريد بهم جنس الكفرة فهم داخلون فى زميرهم دخولا أوليا والمراد بالرسول حينئذ الجنس المنتظم للنبي عليه السلام إنتظاما أوليا وأياما كان فقيه من تهويل الأمر ونفطيع الحال ما لا يقادر قدره

وقوله تعالى وعصوا عطف على كفروا داخل معه في الصلة والمراد معاصيهم المغيرة لكفرهم ففيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع في حق المؤاخذة وقيل حال من ضمير كفروا وقيل صلة لموصول آخر أى يود في ذلك اليوم الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول أو الذين كفروا وقد عصوا الرسول أو الذين كفروا والذين عصوا الرسول ولو في قوله تعالى :

((لو تسوى بهم الأرض)) إن جعلت مصدرية فالجمله مفعول ليود أى يودون أن يذنبوا فتسوى بهم الأرض كالموتى وقيل يودون أنهم لم يبعثوا أو لم يخلقوا وكانهم والأرض سواء وقيل تصير البهائم ترابا فيودون حالها وإن جعلت على بابها فالمفعول محذوف للدلالة الجملة عليه أى يودون تسوية الأرض بهم وجواب لو أيضاً محذوف إيذانا بغاية ظهوره أى لسروا بذلك وقوله تعالى ((ولا يكتُمون الله حديثا)) عطف على يود أى ولا يقدرّون على كتمانها لأن جوارحهم تشهد عليهم وقيل الواو للحال أى يودون أن يذنبوا في الأرض وهم لا يكتُمون منه تعالى حديثا ولا يكذبونه بقولهم : والله ربنا ما كنا مشركين إذ روى أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم فيشتد الأمر عليهم فيمتنعون أن تسوى بهم الأرض وقرئ تسوى على أن أصله تتسوى فأدغم التاء في السين وقرئ تسوى بحذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى ((يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون)) لما نهوا فيما سلف عن الإشراك به تعالى نهوا ههنا عما يؤدى إليه من حيث لا يحتسبون فإنه روى أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه صنع طعاما وشرابا حين كانت الخمر مباحة فدعا نفرا من الصحابة رضى الله عنهم فأكلوا وشربوا حتى ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلى بهم فقرأ أعبد ما تعبدون فنزلت وتصدير الكلام بحرفي النداء والتنبيه للبالغه في حملهم على العمل بموجب النهى وتوجيه النهى إلى قرب الصلاة مع أن المراد هو النهى عن إقامة للبالغه في ذلك وقيل المراد النهى عن قربان المساجد

لقلوله علله السلام جنبوا مساآكم صلبا نكم وبأاباه قلوه تعالى (حتى تعلوا ما تقولون) فالملنى لا تقلموها فى حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه إآ بتلك التجربة يظهر أنهم يعامون ما سلقرونه فى الصلاة وامل ما تقولون على ما فى الصلاة يستللى تقدم الشروع فىها على غاية النهى وامل العلم على ما بالقوة على معنى حتى تسكونوا بملث تعلمون ما سلقرونه فى الصلاة تطول بلا طائل لأن تلك الحبثلة إنما تظهر بما ذكر من التجربة على أن إثار ما تقولون على ما تقرؤن حىئذ يكون عاريا عن الداعى وقيل المراد بالسكر سكر النعاس وغلبة النوم وأياما كان فليس مرجع النهى هو المقيد مع بقاء القيد مرخصا بحاله بل إنما هو القيد مع بقاء المقيد على حاله : إن الصلاة كانت على المؤمنى كتاباموقوتا. كأنه قيل يا أيها الذين آمنوا لا تسكروا فى أوقات الصلاة وقد روى أنهم كانوا بعد ما نزلت الآية لا يشربون الخمر فى أوقات الصلاة فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون .

((ولا جنباً)) عطف على قلوه تعالى وأنتم سكارى فإنه فى حيز النصب كأنه قيل لا تقرؤا الصلاة سكارى ولا جنباً والجنب من أصابه الجنابة يستوى فىه المذكر والمؤنث والواحد والجمع لجريانه مجرى المصدر ((إلا عابرى سبيل)) استثناء مفرغ من أعم الأحوال محلله النصب على أنه حال من ضمير لا تقرؤا باعتبار تقيد به بالحال الثانية دون الأولى والعامل فىه فعل النهى أى لا تقرؤا الصلاة جنباً فى حال من الأحوال لأحال كونكم مسافرين على معنى أن فى حالة السفر ينتهى حكم النهى لكن لا بطريق شمول النفى لجميع صورها بل بطريق نفى الشمول فى الجملة من غير دلالة على انتقاء خصوصية البعض المنتفى ولا على بقاء خصوصية البعض الباقى ولا على ثبوت نقيضه لا كلياً ولا جزئياً فإن الاستثناء لا يدل على ذلك عبارة . نعم يشير إلى مخالفة حكم ما بعده لما قبله إشارة لإجمالية يكتمفى بها فى المقامات الخطابية لا فى إثبات الأحكام الشرعية فإن ملك الأمر فى ذلك إنما هو الدليل وقد ورد عقبيه على طريقة البيان وقيل

هو صفة لجنبا على أن إلا بمعنى غير أى وإلا جنبا غير عابرى سبيل ومن حمل الصلاة على مواضعها فسر العبور بالاجتياز بها وجوز للجنب عبور المسجد وبه قال الشافعى رحمه الله وعندنا لا يجوز ذلك إلا أن يكون الماء أو الطريق فيه وقيل إن رجلا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد وكان يصيبهم الجنابة ولا يجدون ممرا إلا فى المسجد فرخص لهم ذلك ﴿ حتى تغسلوا ﴾ غاية للنهى عن قربان الصلاة حالة الجنابة ولعل تقديم الاستثناء عليه للإيدان من أول الأمر بأن حكم النهى فى هذه الصورة ليس على الإطلاق كما فى صورة السكر تشويقا إلى البيان وروما لزيادة تقررره فى الأذهان وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن المصلى حقه أن يتحرز عما يلهمه ويشغل قلبه وأن يزكى نفسه عما يدنسها ولا يكتفى بأذى مراتب التزكية عند إمكان أعاليها .

﴿ وإن كنتم مرضى ﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل فى الاستثناء وبيان ما هو فى حكم المستثنى من الأعذار والافتصار فيما قبل على استثناء السفر مع مشاركة الباقي له فى حكم الترخيص للإشعار بأنه العذر الغالب المنبئ عن الضرورة التى عليها يدور أمر الرخصة كأنه قيل ولا جنبا إلا مضطرين وإليه مرجع ما قيل من أنه جعل عابرى سبيل كناية عن مطلق المعذورين والمراد بالمرض ما يمنع من استعمال الماء مطلقا سواء كان ذلك بتعذر الوصول إليه أو بتعذر استعماله ﴿ أو على سفر ﴾ عطف على مرضى أى أو كنتم على سفر ما طال أو قصر وإيراده صريحا مع سبق ذكره بطريق الاستثناء لبغاء الحكم الشرعى عليه وبيان كيفيته فإن الاستثناء كما أشير إليه بمعزل من الدلالة على ثبوته فضلا عن الدلالة على كيفيته وتقديم المرض عليه للإيدان بأصالته واستقلاله بأحكام لا توجد فى غيره كالاشتداد باستعمال الماء ونحوه ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ هو المكان الغائر المظلم والمجئ منه كناية عن الحدث لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه ليوارى شخصه عن أعين الناس وإسناد المجئ منه إلى واحد منهم من الخاطبين دونهم للنفادى عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا منه أو يستهجن التصريح به وكذلك إثارة الكناية فيما عطف عليه من قوله عز وجل ﴿ أو

لا مستثم النساء ﴿ على التصريح بالجماع ونظمهما في سلك سبى سقوط الطهارة والمصير إلى التيمم مع كونهما سبى وجوبها ليس باعتبار أنفسهما بل باعتبار قيديهما المستفاد من قوله تعالى ﴿ فلم تجدوا ماء ﴾ بل هو السبب في الحقيقة وإنما ذكرنا تمهيدا له وتنديها على أنه سبب للرخصة بعد انعقاد سبب الطهارة الصغرى والكبرى كأنه قيل أولم تسكونوا مرضى أو مسافرين بل كنتم فاقدين للماء بسبب من الأسباب مع تحقق ما يوجب استعماله وتخصيص ذكره بهذه الصورة مع أنه معتبر في صورة المرض والسفر أيضا لندرة وقوعه فيها واستغنائهما عن ذكره إما لأن الجنابة معتبرة فيهما قطعا فيعلم من حكمها حكم الحدث الأصغر بدلالة النص لأن تقدير النظم لا تقر بوا الصلاة في حال الجنابة إلا حال كونكم مسافرين فإن كنتم كذلك أو كنتم مرضى الخ ولما قيل من أن عموم إعواز الماء في حق المسافر غالب والعجز عن استعمال الماء القائم مقام عدمه في حق المريض مغن عن ذكره لفظا وما قيل من أن هذا القيد راجع إلى السكك وأن قيد وجوب التطهر المكفى عنه بالمجئ من الغائط والملاسة معتبر في السكك بما لا يساعده النظم الكريم .

﴿ فتييموا صعيدا طيبا ﴾ فتعمدوا شيئا من وجه الأرض طاهرا قال الزجاج الصعيد وجه الأرض ترابا أو غيره وإن كان صخرًا لا تراب عليه لو ضرب التيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله وعند الشافعي رحمه الله لا بد أن يعلق باليد شيء من التراب ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ أى إلى المرفقين لما روى أنه عليه السلام تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه ولأنه بدل من الوضوء فيقدر بقدره ﴿ إن الله كان عفوا غفورا ﴾ تعليل للترخيص والتيسير وتقرير لهما فإن من عاداته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للذنبيين لا بد أن يكون ميسرا لا معسرا وقيل هو كناية عنهما فإن الترفيه والمسامحة من روادف العفو وتوابع الغفران ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب ﴾ كلام مستأنف مسوق لتعجب المؤمنين من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين

وتوجيهه فيما بعد إلى الكل معا للإيذان بكمال شهرة شناعة حالهم وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها والرؤية بهيرية أى ألم تنظر إليهم فإنهم أحقاء أن تشاهدكم وتتعجب من أحوالهم وتجوز كونها قلبية على أن إلى تتضمن معنى الانتهاء لما فعلوه يآباه مقام تشهير شنائعهم ونظمها في سلك الأمور المشاهدة والمراد بهم أحبار اليهود .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت في حبرين من أحبار اليهود كانا يأتیان رأس المنافقين عبد الله بن أبى ورهطه يثبطانهم عن الإسلام وعنه رضى الله عنه أيضاً أنها نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم كانا إذا تسكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوليا لسانهما وعاباه والمراد بالكتاب هو التوراة وحمله على جنس الكتاب المنتظم لها انتظاما أوليا تطويل للمسافة وبالذى أوتوه ما بين لهم فيها من الأحكام والعلوم التى من جملتها ما علموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الإسلام والتعبير عنه بالنصيب المنبى عن كونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها والمحافظة عليها بكال ركاة آرائهم حيث ضيعوه تضييعا وتنوينه تفخيما مؤيد للتشجيع عليهم والتعجيب من حالهم فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما فى حيز الصلة على كمال شنائعهم والاشعار بمكان ما طوى ذكره فى المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذى هو أحد العرضين وكلمة من متعلقة إما بأوتوا أو بمحذوف وقع صفة لنصبها مبينة لفخامته الإضافية أثر بيان نخامته الذاتية أى نصيبا كائنا من الكتاب وقوله تعالى :

﴿ يشترون الضلالة ﴾ قيل هو حال مقدرة من واأوتوا ولأريب فى أن اعتبار تقدير اشتراهم المذكور فى الإيتاء بما لا يليق بالمقام وقيل هو حال من الموصول أى ألم تنظر إليهم حال اشتراهم وأنت خبير بأنه خال عن إفادة أن مادة التشنيع والتعجيب هو الاشتراء المذكور وما عطف عليه والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أنه استئناف مبين لمناط التشنيع ومدار التعجيب المفهومين

من صدر الكلام على وجه الإجمال والإيهام مبنى على سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم فقليل يأخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهداية وإنما طوى ذكر المتروك لغاية ظهور الأمر لاسيما بعد الإشعار المذكور والتعبير عن ذلك بالاشتراء الذى هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه أخذنا ناشئا عن الرغبة فيها والإعراض عنه للإيدان بكال رغبته في الضلالة التى حقها أن يعرض عنها كل الإعراض ولعراضهم عن الهداية التى يتنافس فيها المتنافسون وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغاية ركاكة آرائهم مالا يخفى حيث صورت حالهم بصورة مالا يكاد يتعاطاه أحد ممن له أدنى تمييز وليس المراد بالضلالة جنسها الحاصل لهم من قبل حتى يخل بمعنى الاشتراء المنبئ عن تأخرها عنه بل هو فردها السكامل وهو عنادهم وتماديهم في الكفر بعد ما علموا بشأن النبي عليه السلام وتيقنوا بحقيقة دينه وأنه هو النبي العربي المبشر به في التوراة ولا ريب في أن هذه الرتبة لم تكن حاصلة لهم قبل ذلك وقد مر في أوائل سورة البقرة .

﴿ ويريدون ﴾ عطف على يشترون شريك له في بيان محل التشنيع والتعجب وصيغة المضارع فهما للدلالة على الاستمرار التجددى فإن تجدد حكم اشتراهم المذكور وتكرر العمل بموجبه في قوة تجدد نفسه وتكرره أى لا يكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون بما فعلوا من كتمان نعوته عليه السلام ﴿ أن تضلوا ﴾ أتم أيضا أيها المؤمنون ﴿ السبيل ﴾ المستقيم الموصل إلى الحق ﴿ والله أعلم ﴾ أى منكم ﴿ بأعدائكم ﴾ جميعا ومن جملتهم هؤلاء وقد أخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون بكم لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم أو هو أعلم بحالهم ومآل أمرهم والجملة معترضة لتقرير إرادتهم المذكورة ﴿ وكفى بالله وليا ﴾ في جميع أموركم ومصالحكم ﴿ وكفى بالله نصيرا ﴾ في كل المواطن فنقوا به واكتفوا بولايته ونصرتة ولا تتولوا غيره أو لا تبالوا بهم وبما يسومونكم من سوء فإنه تعالى يكفكم مكرهم وشرهم ففيه وعد ووعد والباء مزيدة في

فاعل كفى لتأكيد الاتصال الإسنادى بالاتصال الإضافى وتكرير الفعل فى الجملتين مع إظهار الجلالة فى مقام الإضمار لا سيما فى الثانى لتقوية استقلالهما المناسب للاعتراض وتأكيد كفايته عز وجل فى كل من الولاية والنصرة والإشعار بعليتهما فإن الألوهية من موجباتهما لا محالة ﴿من الذين هادوا﴾ قيل هو بيان لأعدائكم وما بينهم اعتراض وفيه أنه لا وجه لتخصيص علمه سبحانه بطائفة من أعدائهم لا سيما فى معرض الاعتراض الذى حقه للعموم والإطلاق وانتظام ما هو المقصود فى المقام انتظاما أوليا كما أشير إليه وقيل هو صلة لنصيرا أى ينصركم من الذين هادوا كما فى قوله تعالى (فن ينصرننى من الله) وفيه ما فيه من تحجير واسع نصرته عز وجل مع أنه لا داعى إلى وضع الموصول موضع ضمير الأعداء لأن ما فى حيز الصلة ليس بوصف ملائم للنصر وقيل هو خبر مبتدأ محذوف وقع قوله تعالى :

﴿يحرفون السكلم عن مواضعه﴾ صفة له أى من الذين هادوا قوم أو فريق يحرفون الخ وفيه أنه يقتضى كون الفريق السابق بمزول من التحريف الذى هو المصداق لاشتراطهم فى الحقيقة فالذى يليق بشأن التنزيل الجليل أنه بيان للوصول الأول المتناول بحسب المفهوم لأهل الكتابين قد وسط بينهما ما وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارة إلى تنفير المؤمنين منهم وتحذيرهم عن مخالطتهم والاهتمام بحملهم على الثقة بالله عز وجل والاكتفاء بولايته ونصرته وأن قوله تعالى يحرفون وما عطف عليه بيان لاشتراطهم المذكور وتفصيل لفنون ضلالتهم وقد روعيت فى النظم الكريم طريقة التفسير بعد الإبهام والتفصيل إثر الإجمال روما لزيادة تقرير يقتضيه الحال والسكلم اسم جنس واحده كلبة كتمر وتمرّة وتذكير ضميره باعتبار إفراده لفظا وجمعية مواضعه باعتبار تعدده معنى وقرىء بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلبة تخفيف كلبة وقرىء يحرفون الكلام والمراد به ههنا إما ما فى التوراة خاصة وإما ما هو أعم منه وما سيحكى عنهم من الكلمات المعهودة (٤٥ - أبو السعود - أول)

الصادرة عنهم في أثناء المحاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مساغ لإرادة تلك الكلمات خاصة بأن يجعل عطف قوله تعالى :

﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ الخ على ما قبله عطفًا تفسيريًا لما ستقف على سره فإن أريد به الأول كما هو رأى الجمهور فتجريفه إزالته عن مواضعه التي وضعه الله تعالى فيها من التوراة كتجريفهم في نعت النبي عليه السلام أسمر ربعة عن مواضعه في التوراة بأن وضعوا مكانه آدم طوال وكتجريفهم الرجم بوضعهم بدله الحد أو صرفه عن المعنى الذى أنزله الله تعالى فيه إلى ما لا صحة له بالتأويلات الزائغة الملائمة لشهواتهم الباطلة وإن أريد به الثانى فلا بد من أن يراد بمواضعه ما يليق به مطلقا سواء كان ذلك بتعيينه تعالى صريحا كمواضع ما فى التوراة أو بتعيين العقل أو الدين كمواضع غيره وأيا ما كان فقولهم سمعنا وعصينا ينبغى أن يجرى على إطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة بل وأن يحمل على ما هو أعم من القول الحقيقى وبما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم ليندرج فيه ما انطقت به السنة حاظم عند تحريف التوراة فإن من لا يتفوه بتلك العظيمة لا يكاد يتجاسر على مثل هذه الجناية وإلا فعمله على ما قالوه فى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم من القبائح خاصة يستدعى اختصاص حكم الشرطية الآتية وما بعدها بهن من غير تعرض لتجريفهم التوراة مع أنه معظم جناياتهم المعدودة ومن ههنا انكشف لك السر الموعود فتأمل أى يقولون فى كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بمحض النسيء صلى الله عليه وسلم أولا بلسان المقال أو الحال سمعنا وعصينا عنادا وتحقيقا للخالفه وقوله تعالى .

﴿واسمع غير مسمع﴾ عطف على سمعنا وعصينا داخل تحت القول أى ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبته عليه السلام خاصة وهو كلام ذو وجهين يحتمل للشر بأن يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاما أصلا بصمم أو موت أى مدعوا عليك بلا سمعت أو غير مسمع كلاما ترصاه فحينئذ يجوز أن يكون نصبه على المفعولية وللخير بأن يحمل على اسمع منا غير مسمع مكروها كانوا

يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين له عليه السلام إرادة المعنى الأخير وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأول مطمئنون به ﴿وراعنا﴾ عطف على اسمع غير مسمع أى ويقولون فى أثناء خطابهم له عليه السلام هذا أيضاً يوردون كلا من العظام الثلاث فى مواقعها وهى أيضاً كلمة ذات وجهين محتملة للخير بحملها على معنى ارقبنا وانظرنا نكلمك وللشر بحملها على السب بالرغبة أى الحق أو بإجرائها مجرى ما يشبهها من كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابقون بها وهى راعينا كانوا يخاطبونه عليه السلام بذلك ينوون الشتيمة والإهانة ويظهرون التوقير والاحترام ومصيرهم إلى مسلك النفاق فى القولين الأخيرين مع تصريحهم بالعصيان فى الأول لما قالوا من أن جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء وقيل كانوا يقولون الأول فيما بينهم وقيل يجوز أن لا ينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا به صاروا^(١) كأنهم نطقوا به .

﴿لما بالسنتهم﴾ أى فتلا بها وصرفا للكلام عن نهجه إلى نسبة السب حيث وضعوا غير مسمع لا أن سمعت مكروها وأجروا راعنا المشابهة لراعينا مجرى انظرنا أو فتلا بها وضما لما يظهر منه من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرونه من السب والتحقير ﴿وطعنا فى الدين﴾ أى قدحنا فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصابهما على التعليل ليقولون باعتبار تعلقه بالقولين الأخيرين أى يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والطعن فى الدين أو على الحالية أى لاوين طاعنين فى الدين ﴿ولو أنهم﴾ عندما سمعوا شيئا من أوامر الله تعالى ونواهيه ﴿قالوا﴾ بلسان المقال أو بلسان المقال أو بلسان الحال مكان قولهم سمعنا وعصينا ﴿سمعنا وأطعنا﴾ إنما أعيد سمعنا مع أنه متحقق فى كلامهم وإنما الحاجة إلى وضع أطعنا مكان عصينا لا للتنبيه على عدم اعتباره بل على اعتبار عدم كيف لا وسماعهم سماع الرد ومرادهم بحكاية الإعلام بأن^(٢) عصيانهم للأمر

(٢) فى ط : إعلام أن

(١) فى ط : جعلوا .

بعد سماعه والوقوف عليه فلا بد من إزالته وإقامة سماع القبول مقامه .

﴿ واسمع ﴾ أى لو قالوا عند مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام بدل قولهم اسمع غير مسمع اسمع ﴿ وانظرونا ﴾ أى ولو قالوا ذلك بدل قولهم راعنا ولم يدسوا تحت كلامهم شرا وفسادا أى لو ثبت أنهم قالوا هذا مكان ما قالوا من الأقوال ﴿ لكان ﴾ قولهم ذلك ﴿ خيرا لهم ﴾ مما قالوا ﴿ وأقوم ﴾ أى أعدل وأسد فى نفسه وصيغة التفضيل إما على بابها واعتبار أصل الفضل فى المفضل عليه بناء على اعتقادهم أو بطريق التهكم وإما بمعنى اسم الفاعل وإنما قدم فى البيان حاله بالنسبة إليهم على حاله فى نفسه لأن همهم مقصورة على ما ينفعهم .

﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى ولكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فخذلهم الله تعالى وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم بذلك. ﴿ فلا يؤمنون ﴾ بعد ذلك .

﴿ إلا قليلا ﴾ قيل أى إلا إيمانا قليلا لا يعبا به وهو الإيمان ببعض الكتب والرسل أو إلا زمانا قليلا وهو زمان الاحتضار فإنهم يؤمنون حين لا ينفعهم الإيمان قال تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) . وكلاهما ليس بإيمان قطعا وقد جوز أن يراد بالقللة العدم بالسلبية على طريقة قوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) أى إن كان الإيمان المعدم إيمانا فهم يحدوثون شيئا من الإيمان فهو فى المعنى تعليق بالحال وأنت خبير بأن السكل يأباه ما يعقبه من الأمر بالإيمان بالقرآن الناطق بهذا لإفضائه إلى التكليف بالحال الذى هو إيمانهم بعدم إيمانهم المستمر أما على الوجه الأخير فظاهر وأما على الأولين فلأن أمرهم بالإيمان المنجز بجميع الكتب والرسل تكليف لهم بإيمانهم ببعض الكتب والرسل وبعدم إيمانهم إلى وقت الاحتضار فالوجه أن يحمل القليل على من يؤمنون لإفضائه إلى وقوع إيمان من لعنه الله تعالى وخذله مع ما فيه من نسبة القراء إلى الاتفاق على

غير المختار بل يجعله ضمير المفعول في لعنهم أى ولكن لعنهم الله إلا فريقا قليلا فإنه تعالى لم يلعنهم فلم ينسد عليهم باب الإيمان وقد آمن بعد ذلك فريق من الأحبار كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما كما سيأتى .

﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إما إلى من حكيت أحوالهم وأقوالهم خاصة بطريق الالتفات ووصفهم تارة بإيتاء الكتاب أى التوراة وأخرى بإيتاء نصيب منها لتوفية كل من المقامين حقه فإن المقصود فيما سبق بيان أخذهم الضلالة وإزالة ما أوتوه بمقابلتها بالتحريف وليس ما أزالوه بذلك كلها حتى يوصفوا بإيتائه بل هو بعضها فوصفوا بإيتائه . وأما ههنا فالمقصود تأكيد إيجاب الامتثال بالأمر الذى يعقبه والتحذير عن مخالفته من حيث أن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه والكفر بالثانى مقتضى للكفر بالأول قطعا ولا ريب فى أن المحذور عندهم إنما هو لزوم الكفر بالتوراة نفسها لا ببعضها وذلك إنما يتحقق بجعل القرآن مصدقا لسكها وإن كان مناط التصديق بعضها منها ضرورة أن مصدق البعض مصدق للكل المتضمن له حتما ولما إلهيم وإلى غيرهم قاطبة وهو الأظهر وأيا ما كان فتفصيل ما فصل لما كان من مظان إقلاع كل من الفريقين عما كانوا عليه من الضلالة عقب ذلك بالأمر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهداية مشفوعا بالوعيد الشديد على المخالفة فقال :

﴿ آمنوا بما نزلنا ﴾ من القرآن عبر عنه بالموصول تشريفا له بما فى حين الصلة وتحقيقا لكونه من عنده عز وعلا ﴿ مصدقا لما معكم ﴾ من التوراة عبر عنها بذلك للايدان بكال وقوفهم على حقيقة الحال فإن المعية المستدعية لدوام تلاوتها وتكرار المراجعة إليها من موجبات العثور على ما فى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكون القرآن مصدقا لها ومعنى تصديقه إياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أو كونه موافقا لها فى القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصى والفواحش وأما ما يتراءى من مخالفته لها فى جزئيات

الأحكام بسبب تفاوت الأمم والأعصار فليست بمخالفة في الحقيقة بل هي عين الموافقة من حيث أن كلا منها حق بالإضافة إلى عصره متضمن للحكمة التي عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي ﴿من قبل أن نطمس وجوها﴾ متعلق بالامر مفيد للمسارعة إلى الامتثال به والجد في الانتهاء عن مخالفته بما فيه من الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وأكده حيث لم يعلق وقوع المتوعد به بالمخالفة ولم يصرح بوقوعه عندها تنبيها على أن ذلك أمر محقق غنى عن الإخبار به وأنه على شرف الوقوع متوجه نحو المخاطبين وفي تشكيك الوجوه المفيد للتكثير تهويل للنخطب وفي إبهامها لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان وأصل الطمس محو الآثار وإزالة الأعلام أي آمنوا من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونزيل آثارها قال ابن عباس رضى الله عنهما نجعلها كخف البعير أو كخاف الدابة وقال قتادة والضحاك نعميها كقوله تعالى (فطمسنا أعينهم) وقيل نجعلها منابت الشعر كوجوه القردة .

﴿ فنردها على أديبارها ﴾ فنجعلها على هيئة أديبارها وأقفاؤها مطموسة مثلها فالقاء للتسيب أو ننكسها بعد الطمس فنردها إلى موضع الألقاء والاقفاء إلى موضعها وقد اكتفى بذكر أشدهما فالقاء للتعقيب وقيل المراد بالوجوه الوجاه على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير أى من قبل أن نغير أحوال وجهاهم فنسلب إقبالهم ووجاهتهم ونكسوهم صغارا وإديبارا^(١) أو نردهم من حيث جاؤا منه وهي أذرعات الشام فالمراد بذلك لإجلاء بنى النضير ولا يخفى أنه لا يساعده مقام تشديد الوعيد وتعميم التهديد للجميع فالوجه ما سبق من الوجوه وقد اختلف في أن الوعيد هل كان بوقوعه في الدنيا أو في الآخرة فقل كان بوقوعه في

(١) في ١٠ : وإذلالا

الدنيا ويؤيده ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه لما قدم من الشام وقد سمع هذه الآية أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله فأسلم وقال يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهى إلى قفاى وفى رواية جاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام ويده على وجهه وأسلم وقال ما قال وكذا ما روى أن عمر رضى الله عنه قرأ هذه الآية على كعب الأحبار فقال كعب يارب أمنت يارب أسلمت مخافة أن يصيبه وعيدها ثم اختلفوا فقيل إنه ممتنظر بعد ولا بد من طمس فى اليهود ومسح وهو قول المبرذ وفيه أن انصراف العذاب الموعود عن أوائلهم وهم الذين باشرُوا أسباب نزوله وموجبات حلوله حيث شاهدوا شواهد النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبوها وفى التوراة فحرفوها وأصروا على الكفر والضلالة وتعلق بهم خطاب المشاهدة بالوعيد ثم نزوله على من وجد بعد مئات من السنين من أعقابهم الضالين ياضلهم العالمين بما مهدوا من قوانين الغواية بعيد من حكمة الله تعالى العزيز الحكيم وقيل إن وقوعه كان مشروطاً بعدم الإيمان وقد آمن من أحبارهم المذكوران وأضرابهما فلم يقع وفيه أن إسلام بعضهم إن لم يكن سبباً لتأكد نزول العذاب على الباقيين لتشديد النكير والعناد بعد لزيادة الحق وضوحاً وقيام الحجة عليهم بشهادة أمثالهم العدول فلا أقل من ألا يكون سبباً لرفعه عنهم وقيل كان الوعيد بوقوع أحد الأمرين كما ينطق به قوله تعالى .

﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ فإن لم يقع الأمر الأول فلا نزاع فى وقوع الثانى كيف لا وهم ملعونون بكل لسان فى كل زمان وتفسير اللعن بالمسح ليس بمقرر البتة وأنت خبير بأن المتبادر من اللعن المشبه بلعن أصحاب السبت هو المسح وليس فى عطفه على الطمس والرد على الأدبار شائبة دلالة على عدم إرادة المسح لضرورة أنه تغيير مغاير لما عطف عليه على أن المتوعد به لا بد أن يكون أمراً حاداً مترتباً على الوعيد محذوراً عندهم ليكون مزجراً عن مخالفة الأمر ولم يعهد أنه وقع عليهم لعن بهذا الوصف إنما الواقع عليهم ما تداولته الألسنة من اللعن المستمر الذى ألفوه وهو بمنزل من صلاحية أن

يكون حكماً لهذا الوعيد أو مزجراً للعنيد وقيل إنما كان الوعيد بوقوع ما ذكر في الآخرة عند الحشر وسيقع فيها لاحالة أحد الأمرين أو كلاهما على سبيل التوزيع وأما ما روى عن عبد الله بن سلام وكعب فمبنى على الاحتياط اللاتقي بشأنهما والحق أن النظم السكريم ليس بنص في أحد الوجهين بل المتبادر منه بحسب المقام هو الأول لأنه أدخل في الزجر وعليه مبنى ما روى عن الخبرين لكن لما لم يتضح وقوعه علم أن المراد هو الثاني والله تعالى أعلم وأياما كان فلعل السر في تخصيصهم بهذه العقوبة من بين العقوبات مراعاة المشاكلة بينهما وبين ما أوجبها من جنائهم التي هي التحريف والتغيير والله هو العليم الخبير ﴿وكان أمر الله﴾ أي ما أمر به كائن ما كان أو أمره بإيقاع شيء ما من الأشياء ﴿مفعولا﴾ نافذاً كائن لا محالة فيدخل فيه ما أوعدتم به دخولا أوليا فالجمله اعتراض تذييلي مقرر لما سبق ووضع الاسم الجليل موضع الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية ما في الاعتراض من الاستقلال .

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد وتأكيده وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة المغفرة بدونه فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ويطمعون في المغفرة كما في قوله تعالى ﴿تخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي على التحريف (ويقولون سيغفر لنا) والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاماً أولياً فإن الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة وقضى بخلود أصناف الكفرة في النار ونزوله في حق اليهود كما قال مقاتل وهو الأنسب بسباق النظم السكريم وسياقه لا يقتضى اختصاصه بكفرهم بل يكفي اندراجه فيه قطعاً بل لا وجه له أصلاً لاقتضائه جواز مغفرة ما دون كفرهم في الشدة من أنواع الكفر أي لا يغفر الكفر لمن اتصف به بلا توبة وإيمان لأن الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر وجواز مغفرته بلا إيمان مما يؤدي إلى فتحه ولأن ظلمات الكفر والمعاصي إنما يسترها نور الإيمان فمن لم يكن له إيمان لم

يغفر له شيء من الكفر والمعاصي ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ عطف على خبر إن وذلك إشارة إلى الشرك وما فيه من معنى البعد مع قربه في الذكر للإيذان ببعد درجته وكونه في أقصى مراتب القبح أى ويغفر ما دونه في القبح من المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة تفضلا من لدنه وإحسانا من غير توبة عنها لكن لا لكل أحد بل ﴿لمن يشاء﴾ أى لمن يشاء أن يغفر له ممن اتصف به فقط لا بما فوّقه فإن مغفرتهم لمن اتصف بهما سواء في استحالة الدخول تحت المشيئة المبنية على الحكمة التشريعية فإن اختصاص مغفرة المعاصي من غير توبة بأهل الإيمان من متممات الترغيب فيه والزجر عن الكفر ومن علق المشيئة بكل الفعلين وجعل الموصول الأول عبارة عن لم يتب والثاني عن تاب فقد ضل سواء السبيل ^(١) كيف لا وإن مساق النظم الكريم لإظهار كمال عظم جريمة الكفر وامتيازه عن سائر المعاصي ببيان استحالة مغفرته وجواز مغفرتها فلو كان الجواز على تقدير التوبة لم يظهر بينهما فرق للإجماع على مغفرتها بالتوبة ولم يحصل ما هو المقصود من الزجر البليغ عن الكفر والطغيان والحمل على التوبة والإيمان .

﴿ومن يشرك بالله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لزيادة تقييد الإشرak وتفضيل حال من يتصف به [ولإظهار المهابة من الكفر] ^(٢) ﴿فقد افترى إثما عظيما﴾ أى افترى واختلق مرتكبا لإثما لا يقادر قدره ويستحق دونه جميع الآثام فلا تتعلق به المغفرة قطعا ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ تعجب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان والمراد بهم اليهود الذين يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل ناس من اليهود جاءوا بأطفالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هل على هؤلاء ذنب فقال عليه الصلاة والسلام لا قالوا ما نحن إلا كهيئتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار أى انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أذكىاء عند الله تعالى مع ما هم عليه من الكفر والإثم

العظيم أو من ادعائهم التكفير مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره أو معاصيه وفيه تحذير من إعجاب المرء بنفسه وبعمله ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ عطف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل هم لا يزكونها في الحقيقة لكنذبهم و بطلان اعتقادهم بل الله يزكي من يشاء تزكيته بمن يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين إذ هو العليم الخبير بما ينطوى عليه البشر من المحاسن والمساوى وقد وصفهم الله بما هم متصفون به من القبايح وأصل التزكية نفي ما يستتبع بالفعل أو بالقول .

﴿ولا يظلمون﴾ عطف على جملة قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها وإيدانا بأنها غنية عن الذكر أى يعاقبون بتلك الفعل القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب ﴿فتيلا﴾ أى أدنى ظلم وأصغره وهو الخيط الذى فى شق النواة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقيل التقدير يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلا ولا يساعده مقام الوعيد .

﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ كيف نصب إما تشبيها (١) بالظرف أو بالحال على الخلاف المشهور بين سيبويه والأخفش والعامل يفترون وبه تتعلق على أى فى أى حال أو على أى حال يفترون عليه تعالى الكذب والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها والجملة فى محل النصب بمسند نزع الخافض والنظر متعلق بهما وهو تعجيب وتنبيه على أن ما ارتكبه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجب : إدعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه وإفترائهم على الله سبحانه . فإن ادعاءهم الزكاة عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضائه إياهم تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولكون هذا أشنع من الأول جرما وأعظم قبيحا لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكيفية من قبول الكفر وارتضائه لعباده ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه

(١) فى ط : على التشبيه .

وجه النظر إلى كيفيته تشديدا للتشجيع وتأكيذا للتعجيب والتصريح بالكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا للبالغة في تقييح حالهم .

﴿ وكفى به ﴾ أى بافترائهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العظام ﴿ إثمنا مينا ﴾ ظاهر بينا كونه [أشد] ^(١) إثمنا والمعنى كفى ذلك وحده في كونهم أشد إثمنا من كل كفار أثيم أو في استحقاقهم لأشد العقوبات لما مر سره وجعل الضمير لزعمهم بما لا مساخ له لإخلاله بهويل أمر الافتراء فتدبر ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ تعجب من حال أخرى لهم ووصفهم بما ذكر من إيتاء النصيب لما مر من منافاته لما صدر عنهم من القبائح وقوله عز وجل ﴿ يؤمنون بالجبث والطاغوت ﴾ استئناف مبين لمادة التعجب مبنى على سؤال ينساق إليه الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون حين ينظر إليهم فقيل يؤمنون بالجبث والأصنام وكل ماعبد من دون الله تعالى فقيل أصله الجبس وهو الذى لاخير عنده فأبدل السين تاء وقيل الجبث الساحر بلغة الحبشة والطاغوت الشيطان قيل هو فى الأصل كل مايطغى الإنسان . روى أن حبي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة فى سبعين راكبا من اليهود ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه عليه السلام فقالوا أأنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لأهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا فهذا إيمانهم بالجبث والطاغوت لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا وقال أبو سفيان لكعب إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينما أهدى طريقا نحن أم محمد فقال ماذا يقول محمد قال يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال وما دينكم قالوا نحن ولادة البيت نسقى الحجاج ونقرى الضيف ونفك العاني وذكروا أفعالهم فقال أنتم أهدى سبيلا .

(١) سقط من ط .

وذلك قوله تعالى ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ أى لأجلهم وفى حقهم ﴿هؤلاء﴾ يعنونهم ﴿أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ أى أقوم ديناً وأرشد طريقة وإيرادهم بعنوان الإيمان ليس من قبل القائلين بل من جهة الله تعالى تعريفاً لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح ﴿أولئك﴾ إشارة إلى القائلين وما فيه من معنى البعد مع قربهم فى الذكر للإشعار ببعد منزلتهم فى الضلال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين لعنهم الله﴾ أى أبعدهم عن رحمته وطردهم والجملة مستأنفة لبيان حالهم وإظهار مصيرهم وما لهم ﴿ومن يلعن الله﴾ أى يبعده عن رحمته ﴿فلن تجد له نصيراً﴾ يدفع عنه العذاب دنيوياً كان أو آخروياً لا يشفاعة ولا بغيرها وفيه تنصيص على حرمانهم بما طلبوا من قریش وفى كلمة لن وتوجيه الخطاب إلى كل أحد ممن يتسنى له الخطاب وتوحيد النصير منكر والتعبير عن عدمه بعدم الوجدان المنبئ عن سبق الطلب مسنداً إلى المخاطب الغام من الدلالة على حرمانهم الأبدى بالكلية ما لا يخفى .

﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ شروع فى تفصيل بعض آخر من قبائحهم وأم منقطعة وما فيها من بل للإضراب والانتقال من ذمهم بتركيتهم أنفسهم وغيرها مما حكى عنهم إلى ذمهم بادعائهم نصيباً من الملك وبخلهم المفرط وشحهم البالغ والهمزة لإنكار أن يكون لهم ما يدعونه وإبطال ما زعموا أن الملك سيصير إليهم وقوله تعالى ﴿فاذن لا يؤتون الناس نقيراً﴾ بيان لعدم استحقاقهم له بل لاستحقاقهم الحرمان منه بسبب أنهم من البخل والدناءة بحيث لو أوتوا شيئاً من ذلك لما أعطوا الناس منه أقل قليل ومن حق من أوتى الملك أن يؤثر الغير بشيء منه فالفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أى إن جعل لهم نصيب منه فاذن لا يؤتون الناس مقدار نقير وهو ما فى ظهر النواة من النقرة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وهذا هو البيان الكاشف عن كنهه حالهم وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متفارقون ويجوز أن لا تكون

الهمزة لإنكار الوقوع بل لإنكار الواقع والتوبيخ عليه أى لعهده منكرًا غير لائق بالوقوع على أن الفاء للعطف والإنكار متوجه إلى مجموع المعطوفين على معنى ألهم نصيب وافر من الملك حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك فلا يؤتون الناس مع ذلك فقيرا كما تقول لغنى لا يراعى أباه ألك هذا القدر من المال فلا تنفق على أهلك شيئا وفائدة إذن تأكيد الإنكار والتوبيخ حيث يجعلون ثبوت النصيب سببا للمنع مع كونه سببا للإعطاء وهى ملغاة عن العمل كأنه قيل فلا يؤتون الناس إذن وقرىء فأذن لا يؤتوا بالنصب على إعمالها .

﴿ أم يحسدون الناس ﴾ منقطعة أيضا مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق إلى توبيخهم بالحسد الذى هو شر الرذائل وأقبحها لا سيما على ما هم بمعزل من استحقاقه واللام فى الناس للعهد والإشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وحمله على الجنس ليداننا بحيازتهم للكمالات البشرية قاطبة فكأنهم هم الناس لا غير لا يلائمه ذكر حديث آل إبراهيم فإن ذلك لتذكير ما بين الفريقين من العلاقة الموجبة لاشتراكهما فى استحقاق الفضل والهمزة لإنكار الواقع واستقبحه فإنهم كانوا يطمعون أن يكون النبي الموعود منهم فلما خص الله تعالى بتلك الكرامة غيرهم حسدوهم أى بل يحسدونهم ﴿ على ما آتاهم الله من فضله ﴾ يعنى النبوة والكتاب وازدياد العز والنصر يوما فيوما وقوله تعالى ﴿ فقد آتينا ﴾ تعليل للإنكار والاستقبح وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتى من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثية كإبراهيم عن كابر وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر والمعنى أن حسدهم المذكور فى غاية القبح والبطلان فإننا قد آتينا من قبل هذا ﴿ آل إبراهيم ﴾ الذين هم أسلاف محمد عليه الصلاة والسلام أو أبناء أعمامه ﴿ الكتاب والحكمة ﴾ أى النبوة .

﴿وَأَتَيْنَاهُمْ﴾ مع ذلك ﴿ملكاً عظيماً﴾ لا يقادر قدره فكيف يستبعدون نبوته عليه الصلاة والسلام ويحسدونه على إتيانها. وتكرير الإتياء لما يقتضيه مقام التفضيل مع الإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة فإن أريد به الإتياء بالذات فالمراد بآل إبراهيم أنبياءهم خاصة والضمير المنصوب في الفعل الثاني ببعضهم إما بحذف المضاف أو بطريق الاستخدام لما أن الملك لم يؤت كلهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام إن أريد به ما يعمه وغيره من الإتياء بالواسطة وهو اللائق بالمقام والأوفق لما قبله من نسبة إتياء الفضل إلى الناس فالمراد بآل إبراهيم كلهم فإن تشریف البعض بما ذكر من إتياء النبوة والملك تشریف للكل لاعتنائهم بآثاره . واقتباسهم من أنواره وفي تفصيل ما أوتوه وتكرير الفعل ووصف الملك بالعظم . وتذكيره التفضيحي من تأكيد الإلزام وتشديد الإنكار ما لا يخفى هذا هو المتبادر من النظم الكريم وإليه جنح جمهور أئمة التفسير لكن الظاهر حينئذ أن يكون قوله تعالى ﴿فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه﴾ حكاية لما صدر عن أسلافهم عقيب وقوع المحكي من غير أن يكون له دخل في الإلزام الذي سيق له الكلام . أي فمن جنس هؤلاء الخاسدين وآبائهم من آمن بما أوتى آل إبراهيم ومنهم من أعرض عنه وأما جعل الضميرين لما ذكر من حديث آل إبراهيم فيستدعي تراخي الآية الكريمة عما قبلها نزولاً وكيف لا وحكاية لإيمانهم بالحديث المذكور . وإعراضهم عنه بصيغة الماضي إنما يتصور بعد وقوع الإيمان والإعراض المتأخرين عن سماع الحديث المتأخر عن نزوله وكذا جعلهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ الظاهر بيان حالهم بعد هذا الإلزام وحمله على حكاية حالهم السابقة لا تساعده الفاء المرتبة لما بعدها على ما قبلها ولا يبعد كل البعد أن تكون الهمزة لتقرير حسدهم وتوبيخهم بذلك ويكون قوله تعالى فقد (آتيناهم) الآية تعليلاً له بدلالته على إعراضهم عما أوتى آل إبراهيم وإن لم يذكر كونه بطريق الحسد كأنه قيل بل أيحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يؤمنون به وذلك . ديدنهم المستمر فإنما قد آتيناهم آل إبراهيم ما آتيناهم أي من جنسهم من آمن بما

آتيناهم ومنهم من أعرض عنه ولم يؤمن به والله سبحانه أعلم وفيه تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وكفى بجحيم سعيرا ﴾ نارا مسعرة يعذبون بها والجملة تنزيل لما قبلها ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا ﴾ إن أريد بهم الذين كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد بالآيات إما القرآن أو ما يعم كله وبعضه أو ما يعم سائر معجزاته أيضاً وإن أريد بهم الجنس المتناول لهم تناولاً أولياً فالمراد بالآيات ما يعم المذكورات وسائر الشواهد التي أوتيتها الأنبياء عليهم السلام ﴿ سوف نصليهم نارا ﴾ قال سيبويه سوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد وينوب عنها السين وقد يذكران في الوعد فيفيدان التأكيد أى ندخلهم نارا عظيمة هائلة ﴿ كلما نضجت جلودهم ﴾ أى احترقت وكلما ظرف زمان والعامل فيه ﴿ بدلناهم جلودا غيرها ﴾ من قبيل بدله بخوفه أمنا لا من قبيل يبدل الله سيئاتهم حسنات أى أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلداً جديداً مغايراً للمحترق صورة وإن كان عينه مادة بأن يزال عنه الإحتراق ليعود إحساسه للعذاب والجملة في محل النصب على أنها حال من ضمير نصليهم وقد جوز كونها صفة لنارا على حذف العائد أى كلما نضجت فيها جلودهم فحنى قوله تعالى .

﴿ ليدوقوا العذاب ﴾ ليدوم ذوقهم^(١) ولا ينقطع كقولك للعزيز أعزك الله وقيل يخلق مكانه جلوداً آخر والعذاب للنفس العاصية لآلة إدراكها قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يبدلون جلودا ببيضاء كأمثال القراطيس وروى أن هذه الآية قرئت عند عمر رضى الله تعالى عنه فقال للقارىء أعدها فأعادها وكان عنده معاذين جبل فقال معاذ عندى تفسيرها يبدل في ساعة مائة مرة فقال عمر رضى الله عنه هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا

(١) فى ط : ذوقه .

فيعودون كما كانوا وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن بين منسكبى الكافر مسيره ثلاثة أيام للراكب المسرع وعن أبي هريرة أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرر الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق ليس لبيان قلته بل لبيان أن إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث أنه لا يدخله نقصان بدوام الملابس أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلاسه أوللتنبيه على شدة تأثيره من حيث أن القوة الذائقة أشد الحواس تأثراً أو على سرائته للباطن ولعل السر في تبديل الجلود مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب وذوقه بحاله مع الاحتراق أو مع إبقاء أبدانهم على حالها مصونة عن الاحتراق أن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك بالاحتراق ولا تستبعد كل الاستبعاد أن تكون مصونة عن التألم والعذاب صيانةً بدنها عن الاحتراق .

﴿ إن الله كان عزيزاً ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ولا يمانعه أحد ﴿ حكيماً ﴾ يعاقب من يعاقبه على وفق حكمته والجملة تعليل لما قبلها من الإصلاء والتبديل وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتحويل الأمر وتربية المهابة وتعليل الحكم فإن عنوان الألوهية مناط لجميع صفات كماله تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ عقب بيان سوء حال الكفرة ببيان حسن حال المؤمنين تكميلاً لمساءة الأولين ومسرة الآخرين أى الذين آمنوا بآياتنا وعملوا بمقتضياتها وهو مبتدأ خبره قوله تعالى :

﴿ سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ وقرىء سيدخلهم بالياء رداً على الاسم الجليل وفى السين تأكيد للوعد ﴿ خالدن فيها أبداً ﴾ حال مقدرة من الضمير المنصوب فى سندخلهم وقوله عز وعلا ﴿ لهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى بما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة البدنية والأدناس الطبيعية فى محل النصب على أنه حال من جنات أو حال ثانية من الضمير المنصوب أو على أنه صفة لجنات بعد صفة أو فى محل الرفع على أنه خبر للموصول بعد خبر

﴿ وندخلهم ظلا ظليلا ﴾ أى فينا نا لا جوب فيه دائما لا تنسخه شمس اللهم
 ارزقنا ذلك بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل
 للتأكيد كما في ليل أليل ويوم أيوم وقرىء يدخلهم بالياء وهو عطف على
 سيدخلهم لا على أنه غير الإدخال الأول بالذات بل بالعنوان كما في قوله تعالى
 (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ)
 ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ في تصدير الكلام بكلمة التحقيق
 وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة وتأكيد
 وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه وهو خطاب
 يعم حكمه المكلفين قاطبة كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذهبهم من
 حقوق الله تعالى وحقوق العباد سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية وإن ورد
 في شأن عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة وذلك أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان رضى الله عنه باب
 الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله
 لم أمنعه فلوى على بن أبى طالب يده وأخذه منه وفتح ودخل النبي صلى الله
 عليه وسلم وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له
 السقاية والسدانة فنزلت فأمر عليا أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه فقال عثمان
 لعلى أكرهت وآذيت ثم جئت ترفو فقال لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنا
 فقرأ عليه الآية فقال عثمان أشهد لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فهبط
 جبريل عليه الصلاة والسلام وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة
 في أولاد عثمان أبدا وقرىء الأمانة على التوحيد والمراد الجنس لا المهود وقيل
 هو أمر للولاة بأداء الحقوق المتعلقة بذهبهم من المناصب وغيرها إلى مستحقها
 كما أن قوله تعالى :

﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ أمر لهم بإيصال الحقوق
 المتعلقة بذهب الغير إلى أصحابها وحيث كان المأمور به ههنا مختصا بوقت المرافعة

قيد به بخلاف المأمور به أو لا فإنه لما لم يتعلق بوقت دون وقت أطلق إطلاقاً
فقوله تعالى أن تحكموا عطف على أن تؤدوا قد فصل بين العاطف والمعطوف
بالظرف المعمول له عند السكوفيين والمقدر يدل هو عليه عند البصريين لأن
ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها عندهم أي وأن تحكموا إذا حكمتم الخ وقوله تعالى
بالعدل متعلق بتحكموا أو بمقدر وقع حالا من فاعله أي متلبسين بالعدل
والإنصاف .

﴿إن الله نعماء يعظكم به﴾ ما إما منصوبة موصوفة بيعظكم به أو مرفوعة
موصولة به كأنه قيل نعم شيئاً يعظكم به أو نعم الشيء الذي يعظكم به والمخصوص
بالمذح مخذوف أي نعماء يعظكم به ذلك وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل
في الحكومات وقرىء نعماء بفتح النون والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة
لمزيد لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الامتثال بالأمر وإظهار الاسم
الجليل لتربية المهابة [في القلوب] ^(١) ﴿إن الله كان سميعاً﴾ لأقوالكم ﴿بصيراً﴾
بأفعالكم فهو وعد ووعد وإظهار الجلالة لما ذكر آنفاً فإن فيه تأكيداً لكل
من الوعد والوعيد ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بعد ما أمر الولاة بطريق العموم
أو بطريق الخصوص بأداء الأمانات والعدل في الحكومات أمر سائر الناس
بطاعتهم لكن لا مطلقاً بل في ضمن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه
وسلم حيث قيل ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ وهم
أمراء الحق وولاة العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدى بهم من المهتدين وأما
أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله تعالى والرسول عليه الصلاة
والسلام في وجوب الطاعة لهم وقيل هم علماء الشرع لقوله تعالى (ولو ردوه إلى
الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ويأباه قوله تعالى :
﴿فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله﴾ إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد

في حكمه إلا أن يجعل الخطاب لأولى الأمر بطريق الالتفات وفيه بعد وتصدير [إن] (١) الشرطية بالفاء لترتبها على ما قبلها فإن بيان حكم طاعة أولى الأمر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة الرسول عليه السلام يستدعي بيان حكمها عند المخالفة أي إن اختلفتم أنتم وأولوا الأمر منكم في أمر من أمور الدين فراجعوا فيه إلى كتاب الله ﴿والرسول﴾ أي إلى سنته وقد استدل به منكروا القياس وهو في الحقيقة دليل على حجيته كيف لا ورد المختلف فيه إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتثمين والبناء عليه وهو المعنى بالقياس ويؤيده الأمر به بعد الأمر بطاعة الله تعالى وبطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة ثابت بالكتاب وثابت بالسنة وثابت بالرد إليهما بالقياس ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ متعلق بالأمر الأخير الوارد في محل النزاع إذ هو المحتاج إلى التحذير من المخالفة وجواب الشرط محذوف عند جمهور البصريين ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوه الخ فإن الإيمان بهما يوجب ذلك أما الإيمان بالله تعالى فظاهر وأما الإيمان باليوم الآخر فلما فيه من العقاب على المخالفة ﴿ذلك﴾ أي الرد المسأوم به ﴿خير﴾ لكم وأصلح ﴿وأحسن﴾ في نفسه ﴿تأويلاً﴾ أي عاقبة ومآلاً وتقديم خيريته لهم على أحسنيته في نفسه لما مر من تعلق أنظارهم بما ينفعهم والمراد ببيان اتصافه في نفسه بالخيرية الكاملة والحسن الكامل في حد ذاته من غير اعتبار فضله على شيء يشاركه في أصل الخيرية والحسن كما ينبئ عنه التحذير السابق :

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾
تلقين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً له من حال الذين يخالفون مامر من الأمر المحتوم ولا يطيعون الله ولا رسوله ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن وبما أنزل من قبله أعنى التوراة لتأكيد التعجب وتشديد

التوبيخ والاستقباح بإظهار^(١) كمال المباينة بين دعواهم وبين ما صدر عنهم وقرىء.
 الفعلان على البناء للفاعل وقوله عز وجل ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى
 الطاغوت ﴾ استئناف سيق لبيان محل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر
 الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون فقول يريدون الخ . روى عن ابن عباس رضى
 الله عنهما أن منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ثم لاثما احتكما إلى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق أهكذا قال نعم فقال عمر
 مكانكما حتى أخرج اليكما فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق
 المنافق حتى برد ثم قال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله
 فنزلت فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وقال إن عمر فرق بين الحق والباطل
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق فالطاغوت كعب بن الأشرف
 سمى به لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلى التشبيه
 بالشیطان والتسمية باسمه أو جعل اختيار التحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه
 وسلم على التحاكم إليه تحاكما إلى الشيطان وقال الضحاك المراد بالطاغوت كهنة
 اليهود وسحرتهم وعن الشعبي أن المنافق دعا خصمه إلى كاهن من جبهة فتحاكما
 إليه وعن السدى أن الحادثة وقعت في قتيل بين بنى قريظة والنضير فتحاكما
 المسلمون من الفريقين إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبى المنافقون منهما إلا
 التحاكم إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى فتحاكما إليه فيكون الاقتصار
 حينئذ في معرض التعجيب والاستقباح على ذكر إرادة التحاكم دون نفسه مع
 وقوعه أيضا للتنبيه على أن إرادته بما يقضى منه العجب ولا ينبغي أن يدخل
 تحت الوقوع فما ظنك بنفسه وهذا أنسب بوصف المنافقين بادعاء الإيمان
 بالتوراة فإنه كما يقتضى كونهم من منافق اليهود يقتضى كون ما صدر عنهم من

(١) في ط بيان .

التحاكم ظاهر المنافاة لادعاء الإيمان بالتوراة وليس التحاكم إلى كعب بن الأشرف بهذه المثابة من الظهور وأيضا فالمتبادر من قوله تعالى .

﴿ وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ كونهم مأمورين بكفره في الكتابين وما ذاك إلا الشيطان وأولياؤه المشهورون بولايته كالكهنة ونظارهم لامن عداهم ممن لم يشتهر بذلك وقرىء أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمع كما في قوله تعالى (أولياؤهم الطاغوت يخرونهم) والجملة حال من ضمير يريدون مفيدة ثلثا كيد التعجيب وتشديد الاستقباح كالوصف السابق وقوله عز وعلا ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ عطف على يريدون داخل في حكم التعجيب فإن اتباعهم لمن يريد إضلالهم وإعراضهم عمن يريد هدايتهم أعجب من كل عجيب . وضلالا إما مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد كما في قوله تعالى ﴿ وأنبتها نباتا حسنا ﴾ أى إضللا بعيدا وإما مصدر مؤكد لفعله المدلول عليه بالفعل المذكور أى فيضلوا ضلالا وأياما كان فوصفه بالبعد الذى نعت هو صوفه للبالغة وقوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﴾ تسكلمة لمادة التعجيب ببيان إعراضهم صريحا عن التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله لإثربيان إعراضهم عن ذلك فى ضمن التحاكم إلى الطاغوت وقرىء تعالوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل تخفيفا كما فى قولهم ما باليت يالة أصلها بالية كعافية وكما قالوا فى آية إن أصلها آية فحذفت اللام ووقعت واو الجمع بعد اللام فى تعالى فضمت فصار تعالوا ومنه قول أهل مكة للمرأة تعالى بكسر اللام وعليه قول أبى فراس الحمدانى :

أيا جارتى ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالى

﴿ رأيت المنافقين ﴾ إظهار المنافقين فى مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق ووذمهم به والإشعار بجملة الحكم والرؤية بصرية وقوله تعالى ﴿ يصدون عنك ﴾ حال من المنافقين وقيل الرؤية قلبية والجملة مفعول ثان لها والأول هو الأنسب يظهور حالهم وقوله تعالى ﴿ صدودا ﴾ مصدر مؤكد لفعله أى يعرضون عنك

إعراضاً وأى إعراض وقيل هو اسم المصدر الذى هو الصد والأظهر أنه مصدر لصد اللزوم والصد مصدر للمتعدي يقال صد عنه صدوداً أى أعرض عنه وصدّه عنه صدّاً أى منعه منه وقوله تعالى .

﴿ فكيف ﴾ شروع فى بيان غائلة جنائياتهم المحسكية ووخامة عاقبتها أى كيف يكون حالهم ﴿ إذا أصابهم مصيبة ﴾ أى وقت إصابة المصيبة لإياهم بافتضاحهم بظهور نفاقهم ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ بسبب ما عملوا من الجنائيات التى من جملتها التجاؤم إلى الطاغوت والإعراض عن حكمك ﴿ ثم جاءوك ﴾ للاعتذار عما صنعوا من القبائح وهو عطف على أصابهم والمراد تفضيغ حالهم وتحويل مادهم من الخطب واعتراهم من شدة الأمر عند إصابة المصيبة وعند المجيء للإعتذار ﴿ يحملون بالله ﴾ حال من فاعل جاؤك ﴿ إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ أى ما أردنا بتجاؤكمنا إلى غيرك إلا الفصل بالوجه الحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولا لحكمك فلا تؤاخذنا بما فعلنا وهذا وعيد لهم على ما فعلوا وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم ولا يغنى عنهم الاعتذار وقيل جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله تعالى فقلوا ما أردنا. أى ما أراد صاحبنا المقتول بالتجاؤكم إلى عمر رضى الله تعالى عنه إلا أن يحسن إليه ويوفق بينه وبين خصمه ﴿ أولئك ﴾ إشاره إلى المنافقين وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والنفاق وهو مبتدأ خبره ﴿ الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ﴾ أى من فنون الشرور والفساد المنافية لما أظهر واللك من الأكاذيب .

﴿ فأعرض عنهم ﴾ جواب شرط محذوف أى إذا كان حالهم كذلك فأعرض عن قبول معذرتهم وقيل عن عقابهم لمصلحة فى استبقائهم ولا تظهر لهم علمك بما فى بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر ﴿ وعظم ﴾ أى أزرهم عن النفاق والكيد .

﴿ وقل لهم فى أنفسهم ﴾ فى حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية على

الشروع التي يعلمها الله تعالى أو في أنفسهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم مسارا بالنصيحة لأنها في السر أنجح ﴿قولا بليغا﴾ مؤثرا واصلا إلى كنهه المراد مطابقا لما سيق له من المقصود فالظرف على التقديرين متعلق بالأمر وقيل متعلق ببلغنا على رأى من يميز تقديم معمول الصفة على الموصوف أى قل لهم قولا بليغا في أنفسهم مؤثرا في قلوبهم يغمثون به اعتماما ويستشعرون منه الخوف استشعارا وهو التوعد بالقتل والاستئصال والإيدان بأن ما في قلوبهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على الله تعالى وأن ذلك مستوجب لأشد العقوبات وإنما هذه المكافاة والتأخير لإظهارهم الإيمان والطاعة وإضمارهم السكفر ولئن أظهروا الشقاق وبرزوا بأشخاصهم من نفاق النفاق ليمسهم العذاب إن الله شديد العقاب ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ كلام مبتدأ جرى به تمهيدا لبيان خطئهم في الإشتغال بستر جنائهم بالاعتذار بالأباطيل وعدم تلافيها بالتوبة أى وما أرسلنا رسولا من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى في طاعته وأمره المرسل إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه لأنه مؤد عنه تعالى فطاعته طاعة الله تعالى ومعصيته معصيته تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله أو يتيسر الله تعالى وتوفيقه في طاعته .

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ وعرضوها لعذاب ﴿[زائد]﴾ على عذاب النفاق بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك ﴿جاؤك﴾ من غير تأخير كما يفصح عنه تقديم الظرف متوسلين بك في التنصل عن جنائياتهم القديمة والحادثة ولم يزدادوا جنائية على جنائية بالقصد إلى سترها بالاعتذار الباطل والإيمان الفاجرة ﴿فاستغفروا الله﴾ بالتوبة والإخلاص وبالغوا في التضرع إليك حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله تعالى واستغفرت لهم وإنما قيل ﴿واستعمر لهم الرسول﴾ على طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعته في حيز القبول ﴿لوجدوا الله توابا رحيما﴾ لعلوه مبالغا في قبول توبتهم والتفضل عليهم بالرحمة وإن فسر الوجدان بالمصادفة كان قوله تعالى توابا حالا ورحيما بدلا منه أو حالا من الضمير فيه وأياما كان ففيه فضل ترغيب للسامعين في المسارعة إلى التوبة والاستغفار ومزيد تنديم لأولئك المنافقين على ما صنعوا لما أن ظهور تبشير قبول التوبة وحصول الرحمة لهم ومشاهدتهم لآثارها نعمة زائدة عليهما موجبة لكمال الرغبة في تحصيلها وتمام الحسرة على فواتها .

﴿فلا وربك﴾ أى فوربك ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد النفي في جوابه أعنى قوله ﴿لا يؤمنون﴾ لأنها تزداد في الإثبات أيضا كما في قوله تعالى ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ ونظائره ﴿حتى يحكموك﴾ أى يتحاكموا إليك ويترافعوا إليك وإنما جرى بصيغة التحكيم مع أنه عليه الصلاة والسلام حاكم بأمر الله سبحانه لإيداناً بأن حقهم أن يجعلوه حكما فيما بينهم وترضوا بحكمه وإن قطع النظر عن كونه حاكما على الإطلاق ﴿فيما شجر بينهم﴾ أى فيما يختلف بينهم من الأمور واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه ﴿ثم لا يجدوا﴾ عطف على مقدر ينساق إليه الكلام أى فتقضى بينهم ثم لا يجدوا ﴿في أنفسهم حرجا﴾ ضيقا ﴿بما قضيت﴾ أى بما قضيت به أو من فضائك وقيل شكا من أجله إذ الشاك في ضيق من أمره ﴿ويسلبوا﴾ أى ينقادوا لأمرك ويدعوا له ﴿تسليما﴾ تأكيد للفعل بمنزلة تكريره أى تسليما تاما بظاهرهم وباطنهم يقال سلم لأمر الله وأسلم له بمعنى وحقيقته سلم نفسه له وأسلمها إذا جعلها سالمة له خالصة أى ينقادوا لحكمك انقيادا لاشبهة فيه بظاهرهم وباطنهم قيل نزلت في شأن المنافق واليهودى [السابقين]^(١) وقيل في شأن الزبير ورجل من الأنصار حين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل فقال عليه الصلاة والسلام اسقيا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك فغضب الأنصارى وقال لأن

(١) سقطت من ط .

كان ابن عمك فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اسق يا زبير
ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقلك ثم أرسله إلى جارك
كان قد أشار على الزبير برأى فيه سعة له ولخصمه فلما أحفظ رسول الله صلى
الله عليه وسلم استوعب للزبير حقه في صريح الحكم ثم خرجا فمرا على المقداد
ابن الأسود فقال لمن القضاء فقال الأنصاري قضى لابن عمته ولوى شدة ففطن
يهودى كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يهملونه
في قضاء يقضى بينهم وأيم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة في حياة موسى فدعانا إلى التوبة
منه وقال اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا في طاعة ربنا حتى رضى
عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس أما والله إن الله ليعلم منى الصدق لو أمرنى محمد
أن أقتل نفسى لقتلتها وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر
رضى الله عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسى بيده إن من أمتى
رجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسى فنزلت في شأن هؤلاء .

﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ﴾ أى لو
أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى إسرائيل من قتلهم أنفسهم أو خروجهم من
ديارهم حين استتابتهم من عبادة العجل وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا فى
معنى أمرنا ﴿ ما فعلوه ﴾ أى المكتوب المدلول عليه بكتبنا أو أحد مصدرى
الفعلين ﴿ إلا قليل منهم ﴾ أى إلا أناس قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين
وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال والله لو أمرنا ربنا لفعلنا والحمد لله الذى
لم يفعل بنا ذلك وقيل معنى اقتلوا أنفسكم تعرضوا بها للقتل بالجهاد وهو بعيد
وقرىء إلا قليلا بالنصب على الاستثناء أو إلا فعلا قليلا ﴿ ولو أنهم فعلوا
ما يوعظون به ﴾ من متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعته والانقياد
لما يراه ويحكم به ظاهرا وباطنا وسميت أوامر الله تعالى ونواهيها مواظ
لاقترانها بالوعد والوعيد ﴿ لكان ﴾ أى فعلهم ذلك ﴿ خيرا لهم ﴾ عاجلا
وآجلا ﴿ وأشد تثبيتا ﴾ لهم على الإيمان وأبعد من الاضطراب فيه وأشد تثبيتا
لثواب أعمالهم .

﴿ ولذا لا تيناهم من لدنا أجرا عظيما ﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل وماذا يكون لهم بعد الثبوت فقل ولذا لو ثبتوا لا تيناهم فإن إذن جواب وجزاء ﴿ ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾ يصلون بسلوكه إلى عالم القدس [والطهارة] ^(١) ويفتح لهم أبواب الغيب قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم ﴿ ومن يطع الله والرسول ﴾ كلام مستأنف فيه فضل ترغيب في الطاعة ومزيد تشويق إليها ببيان أن تبيجتها أقصى ما ينتهى إليه همم الأمم وأرفع ما يمتد إليه أعناق عزائمهم من مجاورة أعظم الخلائق مقدارا وأرفعهم منارا متضمن لتفسير ما أيهم في جواب الشرطية السابقة وتفصيل ما أجمل فيه والمراد بالطاعة هو الانقياد التام والامثال السكال لجميع الأوامر والنواهي ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى المطيعين والجمع باعتبار معنى من كما أن الأفراد في فعل الشرط باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع القرب في الذكر للإيدان بعلو درجتهم وبعده منزلتهم في الشرف وهو مبتدأ خبره ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم ﴾ والجملة جواب الشرط وترك ذكر المنعم به للإشعار بقصور العبارة عن تفصيله وبيانه .

﴿ من النبيين ﴾ بيان للمنعم عليهم والتعرض لمعية سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أن الكلام في بيان حكم طاعة نبيينا عليه الصلاة والسلام لجرىان ذكرهم في سبب النزول مع ما فيه من الإشارة إلى أن طاعته عليه الصلاة والسلام متضمنة لطاعتهم لاشتغال شريعته على شرائعهم التي لا تتغير بتغير الأعصار روى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله إن صرنا إلى الجنة تفضلنا بدرجات النبوة فلا نراك وقال الشعبي جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال ما يبكيك يا فلان فقال يا رسول الله بالله الذي لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من نفسي وأهلي

ومالى وولدى وإنى لأذكرك وأنا فى أهلى فىأخذنى مثل الجنون حتى أراك
وذكرت موتى وأنك ترفع مع النبيين وإنى إن أدخلت الجنة كنت فى منزلة
أدنى من منزلتك فلم يرد النبي عليه الصلاة والسلام فنزلت وروى أن ثوبان
مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له عليه الصلاة والسلام
قليل الصبر عنه فأتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن فى وجهه
فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله فقال يا رسول الله ما بى من وجع
غير أنى إذ لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك فذكرت
الآخرة فنخفت أن لا أراك هناك لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين وإن
أدخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا
فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى أكون
أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين وحكى ذلك عن
جماعة من الصحابة رضى الله عنهم وروى أن أنسا قال يا رسول الله الرجل يحب
قوما ولما يلحق بهم قال عليه الصلاة والسلام المزمع من أحب .

﴿والصديقين﴾ أى المتقدمين فى تصديقهم المبالغين فى الصدق والإخلاص
فى الأقوال والأفعال وهم أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمائل
خواصهم المقربين كباى بكر الصديق رضى الله عنه ﴿والشهداء﴾ الذين بذلوا
أرواحهم فى طاعة الله تعالى وإعلاء كلمته ﴿والصالحين﴾ الصارفين أعمارهم
فى طاعته وأموالهم فى مرضاته وليس المراد بالمعية الاتحاد فى الدرجة ولا مطلق
الاشتراك فى دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية
الآخر وزيارته متى أراد وإن بعد ما بينهما من المسافة ﴿وحسن أولئك رفيقا﴾
الرفيق صاحب مأخوذ من الرفق وهو لى الجانب واللطافة فى المعاشرة قولا
وفعلان جعل أولئك إشارة إلى النبيين ومن بعدهم على أن ما فيه من معنى
البعد لما مر مرارا رفيقا إما تمييز أو حال على معنى أنهم وصفوا بالحسن من
جهة كونهم رفقاء للبطيعة أو حال كونهم رفقاء وإفراده لما أنه كالصديق
والخليط والرسول يستوى فيه الواحد والمتعدد أو لأنه أريد حسن كل واحد

منهم رفيقا وإن جعل إشارة إلى المطيعين فهو تمييز على معنى أنهم وصفوا بحسن الرفيق من النبيين ومن بعدهم لا بنفس الحسن فلا يجوز دخول من عليه كما يجوز في الوجه الأول والجملة تذييل مقرر لما قبله مؤكداً للتزغيب والتشويق قيل فيه معنى التعجب كأنه قيل وما أحسن أولئك رفيقا ولا استقلاله بمعنى التعجب قرئ وحسن بسكون السين .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما للمطيعين من عظيم الأجر ومزيد الهداية ومرافقة هؤلاء المنعم عليهم أو إلى فضلهم ومزيتهم وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته في الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الفضل ﴾ صفته وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ خبره أي ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره أو الفضل خبره ومن الله متعلق بمحذوف وقع حالا منه والعامل فيه معنى الإشارة أي ذلك الذي ذكر فضل كائننا من الله تعالى لا أن أعمال المكافئين موجبة له ﴿ وكفى بالله عليماً ﴾ بجزاء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ الحذر والحذر واحد كالإثر والأثر والشبه والشبه أي تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمكثوه من أنفسكم يقال أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من الخوف كأنه جعل الحذر آتية التي يقي بها نفسه وقيل هو ما يحذر به من السلاح والحزم أي استعدوا للعدو ﴿ فأنفروا ﴾ بكسر الفاء وقرئ بضمها أي أخرجوا إلى الجهاد عند خروجكم ﴿ ثبات ﴾ جمع ثبة وهي الجماعة من الرجال فوق العشرة ووزنها في الأصل فعلة كحطمة حذفت لامها وعوض عنها تاء التأنيث وهل هي واو أو ياء فيه قولان قيل إنها مشتقة من ثبا يثبو كحلا يحلو أي اجتمع وقيل من ثبتت على الرجل إذا أثبتت عليه كأنك جمعت محاسنه ويجمع أيضا على ثبين جبراً لما حذف من عجزه ومحلها النصب على الحالية أي انفروا جماعات متفرقة سرية بعد سرية ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ أي مجتمعين كوكبه واحدة ولا تتخاذلوا فتلحقوا بأنفسكم إلى التهلكة .

﴿ وإن منكم ليهيئات ﴾ أي ليتأقنن وليتخلفن عن الجهاد من بطأ بمعنى أبطأ كعتم بمعنى أعتم والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم

المؤمنين منهم والمنافقين والمبطلون منافقوهم الذين تناقلوا وتحلفوا عن الجهاد أو ليطئن غيره ويثبطنه من بطاً منقولاً من بطو كثقل من ثقل كما بطاً ابن أبي ناسا يوم أحد والاول أنسب لما بعده واللام الأولى للإبتداء دخلت على اسم لان للفصل بالخبر والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استمكن في ليطئن والتقدير وإن منكم لمن أقسم بالله ليطئن ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ كقتل وهزيمة ﴿قال﴾ أي المبطل فرحاً بصنعه وحامداً لرأيه ﴿قد أنعم الله على﴾ أي بالقيود .

﴿إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ أي حاضراً في المعركة فيصيبني ما أصابهم والفاء في الشرطية لترتيب مضمونها على ما قبلها فإن ذكر التبطل مستتبع لذكر ما يترتب عليها كما أن نفس التبطل مستدعية لشيء ينتظر المبطل وقوعه ﴿وإن أصابكم فضل﴾ كفتح وغنيمة ﴿من الله﴾ متعلق بأصابتكم أو بمحذوف وقع صفة لفضل أي فضل كائن من الله تعالى ونسبة لإصابة الفضل إلى جناب الله تعالى دون إصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية كما في قوله سبحانه (وإذا مرضت فهو يشفين) وتقديم الشرطية الأولى لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق وأثرنا فيهم فيها أظهر ﴿ليقولن﴾ ندامة على تثبطه وعوده وتها السكا على حطام الدنيا وتحسرا على فواته وقرىء ليقولن بضم اللام لإعادة للضمير إلى معنى من وقوله تعالى ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ اعتراض وسط بين الفعل ومفعوله الذي هو ﴿يألتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ لئلا يفهم من مطلع كلامه أن تمنيه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظاهرتهم حسبما يقتضيه ما في البين من المودة بل هو للحرص على المسال كما ينطق به آخره وليس لإثبات المودة في البين بطريق التحقيق بل بطريق التهم وقيل الجملة التشبيهية حال من ضمير ليقولن أي ليقولن مشبها بمن لا مودة بينكم وبينه وقيل هي داخلية في المقول أي ليقولن المشبطين يثبطه من المنافقين وضعفة المؤمنين كأن لم تكن بينكم وبين محمد مودة حيث لم يستصحبكم في الغزو حتى تفوزوا بما فاز يألتنى كنت معهم وغرضه إلقاء العداوة.

بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وتأكيدها وكأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف وقرئ لم يكن بالياء والمنادى في ياليتنى محذوف أى يا قوم وقيل يا أطلق للتنبيه على الاتساع وقوله تعالى فأفوز نصب على جواب التمنى وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى فأنا أفوز في ذلك الوقت أو على أنه معطوف على كنت داخل معه تحت التمنى .

﴿ فليقاتل في سبيل الله ﴾ قدم الظرف على الفاعل للاهتمام به ﴿ الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أى يبيعونها بها وهم المؤمنون فالفاء جواب شرط مقدر أى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطلون فالفاء للتعقيب أى لتركوا ما كانوا عليه من التثبط والنفاق وليبدلوه بالقتال في سبيل الله ﴿ ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه ﴾ بنور العظمة النفاتا ﴿ أجرأ عظيماً ﴾ لا يقادر قدره وتعقيب القتال بأحد الأمرين للإشعار بأن المجاهد حقه أن يوطن نفسه بإحدى الحسنيين ولا يخطر بباله القسم الثالث أصلاً . وتقديم القتل للإيدان يتقدمه في استتباع الأجر ، روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله تعالى لمن جاهد في سبيله لا يخرج منه الإجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة ﴿ وما لكم ﴾ خطاب للآمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة في التحريض عليه وتأكيدها لوجوبه وهو مبتدأ وخبر وقوله عز وجل ﴿ لا تقاتلون في سبيل الله ﴾ حال عاملها ما في الظرف من معنى الفعل والاستفهام للإنكار والنفي أى أى شيء لكم غير مقاتلين أى لا عذر لكم في ترك المقاتلة .

﴿ والمستضعفين ﴾ عطف على اسم الله أى في سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو أو على السبيل بحذف المضاف أى في خلاص المستضعفين ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله يعم أبواب الخير .

وتخليص ضعفاء^(١) المؤمنين من أيدي الكفرة أعظمها وأخصها ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾ بيان للمستضعفين أو حال منهم وهم المسلمون الذين بقوا بمكة لصد المشركين أو لضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتننين وإنما ذكر الولدان معهم تسكيلاً للاستعفاف واستجلاً بالرحمة^(٢) وتنبيهاً على تنهاى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان لإرغام آبائهم وأمهاتهم وإيذاناً بإجابة الدعاء الآتى واقتراب زمان الخلاص ببيان شركتهم في التضرع إلى الله تعالى كل ذلك للبالغه في الحث على القتال وقيل المراد بالولدان العبيد والإماء إذ يقال لهما الوليد والوليدة وقد غلب الذكور على الإناث فأطلق الولدان على الولائد أيضاً ﴿الذين﴾ محلله الجر على أنه صفة للمستضعفين أو لما في حيز البيان أو النصب على الاختصاص .

﴿يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ بالشرك الذى هو ظلم عظيم وبأذية المسلمين وهى مكة والظالم صفتها وتذكير ما أسند إليه فإن اسم الفاعل والمفعول إذا أجرى على غير من هوله كان كالفاعل في التذكير والتأنيث بحسب ما عمل فيه ﴿واجعل لنا من لدنك ولياً﴾ كلا الجارين متعلق باجعل لاختلاف معنيهما وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله فإن تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع إلى وردة نبيء عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وتقديم اللام على من للمسارعة إلى إبراز كون المسئول نافعا لهم مرغوباً فيه لديهم ويجوز أن تتعلق كلفة من بمحذوف وقع حالاً من وليا قدمت عليه لكونه نكرة وكذا الكلام في قوله تعالى ﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما أى ول علينا واليا من المؤمنين يوالينا ويقوم بمصالحنا ويحفظ علينا ديننا وشرعنا وينصرنا على أعدائنا

(١) في ط : ضعفه .

(٢) في ط : واستجلاب الرحمة ، خطأ .

ولقد استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خير ولي وأعز ناصر ففتح مكة على يدي نبيه عليه الصلاة والسلام فتولاهم أى تول ونصرهم أية نصره ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها وقيل المراد واجعل لنا من لدنك ولاية ونصرة أى كن أنت ولينا وناصرنا وتكرير الفعل ومتعاقبه للبالغة في التضرع والابتهال .

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ كلام مبتدأ سيق لترغيب المؤمنين في القتال وتشجيعهم ببيان كمال قوتهم بإمداد الله تعالى ونصرته وغاية ضعف أعدائهم أى المؤمنون إنما يقاتلون في دين الله الحق الموصل لهم إلى الله عز وجل وفى إعلاء كلمته فهو وليهم وناصرهم لا محالة ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ أى فيما يوصلهم إلى الشيطان فلا ناصر لهم سواه والفاء فى قوله تعالى ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ لبيان استتباع ما قبلها لما بعدها وذكر بهذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم فى سبيل الشيطان والإشعار بأن المؤمنين أولياء الله تعالى لما أن قتالهم فى سبيله وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين فى القتال وتقوية عزائمهم عليه فإن ولاية الله تعالى علم فى العزة والقوة كما أن ولاية الشيطان مثل فى الذلة والضعف كأنه قيل إذا كان الأمر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان ثم صرح بالتعليل فقيل ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ أى فى حد ذاته فكيف بالقياس إلى قدرة الله تعالى ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى إيدانا بظهورها قالوا فائدة إدخال كان فى أمثال هذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان كذلك فالمعنى أن كيد الشيطان منذ كان كان موصوفا بالضعف .

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من إحجاءهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حراصا عليه بحيث كادوا يباشروه كما ينبى عنه الأمر بكف الأيدي فإن ذلك مشعر

بكونهم بصدد بسطها إلى العدو بحيث يكادون يسطون بهم قال الكلبي إن جماعة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام منهم عبد الرحمن بن عوف الزهري والمقداد ابن الأسود الكندي وقدامة ابن مظعون الجعفي وسعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله تعالى عنهم كانوا يلقون من مشركي مكة قبل الهجرة أذى شديدا فيشكون ذلك إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويقولون ائذن لنا في قتالهم ويقول لهم النبي عليه الصلاة والسلام كفوا أيديكم ﴿ وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة ﴾ فإنني لم أؤمر بقتالهم وبناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبي عليه الصلاة والسلام للإيذان بكون ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى ولأن المقصود بالذات والمعتبر في التعجيب إنما هو كمال رغبتهم في القتال وكونهم بحيث احتاجوا إلى النهي عنه وإنما ذكر في حين الصلة الأمر بكف الأيدي لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية فلا يتعلق ببيان خصوصية الأمر غرض وكانوا في مدة إقامتهم بمكة مستمرين على تلك الحالة فلما هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأمروا بالقتال في وقعة بدر كرهه بعضهم وشق ذلك عليه لكن لا شكا في الدين ولا رغبة عنه بل نفورا عن الإخطار بالأرواح وخوفا من الموت بموجب الجبلية البشرية وذلك قوله تعالى :

﴿ فلما كتب عليهم القتال ﴾ الخ وهو عطف على قيل لهم كفوا أيديكم باعتبار مدلوله الكينائي إذ حينئذ يتحقق التباين بين مدلولي المعطوفين وعليه يدور أمر التعجيب كأنه قيل ألم تر إلى الذين كانوا حراصا على القتال فلما كتب عليهم كرهه بعضهم وقوله تعالى ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس ﴾ جواب لما على أن فريق مبتدأ ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة له ويخشون خبره وتصديره بإذا المفاجأة لبيان مسارعتهم إلى الخشية أثر ذي أثر من غير تلغثم وتردد أي فاجأ فريق منهم أن يخشوا الكفار أن يقتلوهم ولعل توجيه التعجيب إلى السكل مع صدور الخشية عن بعضهم للإيذان بأنه ما كان ينبغي أن يصدر عن أحدهم ما ينافي جالتهم الأولى وقوله تعالى ﴿ كخشية الله ﴾ مصدر مضاف إلى (٤٧ - أبو السعود - أول)

المفعول محله النصب على أنه حال من فاعل يخشون أى يخشونهم مشبهين الأهل خشية الله تعالى ﴿أو أشد خشية﴾ عطف عليه بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله أو على أنه مصدر مؤكد على جعل الخشية ذات خشية مبالغة كما في جد جده أى يخشونهم خشية مثل خشية الله أو خشية أشد خشية من خشية الله وأياما كان فكلمة أو إما للتنويع على معنى أن خشية بعضهم كنخشية الله وخشية بعضهم أشد منها وإما للإيهام على السامع وهو قريب مما في قوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) يعنى أن من يبصرهم يقول إنهم مائة ألف أو يزيدون ﴿وقالوا﴾ عطف على جواب لما أى فلما كتب عليهم القتال هلع^(١) فريق منهم خشية الناس وقالوا ﴿ربنا لم كتب علينا القتال﴾ في هذا الوقت لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى والإنكار لإيجابه بل على طريق تمنى التخفيف. ﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ استزادة في مدة الكف واستمهال إلى وقت آخر حذرا من الموت وقد جوز أن يكون هذا مما نطقت به السنة حالهم من غير أن يتفوهوا به صريحا .

﴿قل﴾ أى ترهيدا لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفانى وترغيبا فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقي ﴿متاع الدنيا﴾ أى ما يتمتع ويتنعم به في الدنيا ﴿قليل﴾ سريع التقضى وشيك الانصرام وإن أخرتم إلى ذلك الأجل ﴿والآخرة﴾ أى ثوابها الذى من جملة الثواب المنوط بالقتال ﴿خير﴾ أى لكم من ذلك المتاع القليل لكثيرته وعدم انقطاعه وصفائه عن السكودورات وإنما قيل ﴿لن اتقى﴾ حنا لهم على اتقاء العصيان والإخلال بمواجب التكليف ﴿ولا تظلمون فتيلا﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى تجزون فيها ولا تنقصون أدنى شيء من أجور أعمالكم التى من جملة ما مسعاكم^(٢) في شأن القتال فلا ترغبوا عنه والفتيل ما في شق النواة من الخيط يضرب به المثل في القلة والحقارة وقرى يظلمون بالياء إعادة للضمير إلى ظاهر من ﴿أينما تكونوا

(١) في ط: فاجأ .

(٢) في ١٠ : جدكم .

يدرككم الموت ﴿كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين اعتناء بالزامهم لإثبات حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته عليه الصلاة والسلام فلا محل له من الإعراب أو في محل النصب داخل تحت القول المأمور به أى أينما تكونوا في الحضر والسفر يدرككم الموت الذى لأجله تكرهون القتال زعماً منكم أنه من مظانّه وتحبون القعود عنه على زعم أنه منجاة منه وفي لفظ الإدراك إشعار بأنهم في الحرب من الموت وهو مجد في طلبهم وقرىء بالرفع على حذف الفاء كما في قوله * من يفعل الحسنات الله يشكرها * أو على اعتبار وقوع أينما كنتم في موقع أينما تكونوا أو على أنه كلام مبتدأ وأينما تكونوا متصل بلا تظلمون أى لا تنقصون شيئاً مما كتب من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم الحروب ومعارك الخطوب .

﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ في حصون رفيعة أو قصور محصنة وقال السدي وقتادة بروج السماء يقال شاد البناء وأشاده وشيده رفعه وقرىء مشيدة بكسر الياء وصفاً لها بفعل فاعلها مجازاً كما في قصيدة شاعر ومشيدة من شاد القصر إذ رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجص وجواب لو محذوف اعتماداً على دلالة ما قبله عليه أى ولو كنتم في بروج مشيدة يدرككم الموت والجملة معطوفة جملة مثلها^(١) أى لو لم تكونوا في بروج مشيدة ولو كنتم الخ وقد اطرء حذفها للدلالة المذكور عليها دلالة واضحة فإن الشيء إذا تحقق عند وجود المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما في الوصلية من التأكيد والمبالغة وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى (أولوا كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) ﴿وإن تصبهم حسنة يقولون هذا من عند الله﴾ كلام مبتدأ جرى به عقيب ما حكى عن المسلمين لما بينهما من المناسبة في اشتغالهما على إسناد ما يكرهونه إلى بعض الأمور وكرهتهم له بسبب ذلك والضمير لليهود والمنافقين

(١) في ط : أخرى .

روى أنه كان قد بسط عليهم الرزق فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قدعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك عنهم بعض الإمساك فقالوا مازلنا نعرف النقص في ثمارنا ومنارنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه وذلك قوله تعالى :

﴿ وإن تصبهم سيئة يقولون هذه من عندك ﴾ أى وإن تصبهم نعمة ورغاء نسبوها إلى الله تعالى وإن تصبهم بلية من جذب وغلاء أضافوها إليك كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى (وإن تصبهم سيئة يطبروا بموسى ومن معه) فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقمهم حجراً (١) ببيان إسناد الكل إليه تعالى على الإجمال إذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقاً وإيجاداً من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شىء منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة كما سيأتى بيانه فهذا الجواب المجمل فى معنى ما قيل رداً على أسلافهم من قوله تعالى (ألا إنما طأرهم عند الله) أى إنما سبب خيرهم وشرهم أو سبب إصابة السيئة التى هى ذنوبهم عند الله تعالى لا عند غيره حتى يسندوها إليه ويطيروا به وقوله تعالى :

﴿ فما هؤلاء القوم ﴾ الخ كلام معترض بين المبين وبينه مسوق من جهته تعالى لتعيرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجيب من كمال غباوتهم والفاء لترتيبه على ما قبله وقوله تعالى ﴿ لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ حال من هؤلاء والعامل فيها ما فى الظروف من معنى الاستقرار أى وحيث كان الأمر كذلك فأى شىء حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثاً أو استشفاف مبنى على سؤال نشأ من الإستفهام كأنه قيل ما بالهم وماذا يصنعون حتى يتعجب منه أو يسأل عن سببه فقيل لا يكادون يفقهون حديثاً من الأحاديث أصلاً فيقولون ما يقولون إذ لو فقهوا شيئاً من ذلك لفهموا هذا النص وما فى معناه وما هو أوضح منه

من النصوص القرآنية الناطقة بأن الكل فائض من عند الله تعالى وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان والبليّة بطريق العقوبة على ذنوب العباد لاسيما النص الوارد عليهم في صحف موسى وإبراهيم الذي وفي أن لا تزر وازرة وزر أخرى ولم يستندوا جناية أنفسهم إلى غيرهم وقوله تعالى :

﴿ ما أصابك من حسنة ﴾ الخ بيان للجواب المجمل المأمور به وإجراؤه على لسان النبي عليه الصلاة والسلام ثم سوق البيان من جهته عز وجل بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى كل واحد من الناس والالتفات لمزيد الاعتناء به والاهتمام بردمقاتهم الباطلة والإشعار بأن مضمونه مبنى على حكمة دقيقة حتى بأن يتولى بيانها علام الغيوب وتوجيه الخطاب إلى كل واحد منهم دون كلهم كما في قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم) للمبالغة في التحقيق بقطع احتمال سببية معصية بعضهم لعقوبة الآخرين أي ما أصابك من نعمة من النعم ﴿ فمن الله ﴾ أي فهي منه تعالى بالذات تفضلا وإحسانا من غير استيجاب لها من قبلك كيف لا وأن كل ما يفعله المرء من الطاعات التي يفرض كونها ذريعة إلى إصابته نعمة ما فهي بحيث لا تكاد تكافئ نعمة حياته المقارنة لأدائها ولا نعمة إقداره تعالى لإيائه على أدائها فضلا عن استيجابها لنعمة أخرى ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا .

﴿ وما أصابك من سيئة ﴾ أي بليّة من البلياء ﴿ فمن نفسك ﴾ أي فهي منها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها وإن كانت من حيث الإيجاد منسوبة ^(١) إليه تعالى نازلة من عنده عقوبة كقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وعن عائشة رضي الله عنها ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شمع نعله إلا بذنب وما يعفو

(١) في ط : منتسبة .

الله عنه أ كثر ، وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبله وما بعده
 لكن لا لبيان حاله عليه الصلاة والسلام بل لبيان حال الكفرة بطريق
 التصوير ولعل ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم والإشعار بأنهم لفرط
 جهلهم وبلادتهم بمعزل عن استحقاق^(١) الخطاب لاسيما بمثل هذه الحكمة
 الأنيقة ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ بيان لجلالة منصبه عليه الصلاة والسلام
 ومكانته عند الله عز وجل بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه عليه الصلاة
 والسلام بناء على جهلهم بشأنه الجليل وتعريف الناس للاستغراق والجار إما
 متعلق برسولا قدم عليه للاختصاص الناظر إلى قيد العموم أى مرسل لكل
 الناس لا لبعضهم فقط كما في قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس) وإما بالفعل
 فرسولا حال مؤكدة وقد جوز أن يكون مصدرا مؤكدا كما في قوله :

لقد كذب الواشون ما فهم عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

أى بإرسال بمعنى رسالة ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ أى على رسالتك بنصب
 المعجزات التى من جملتها هذا النص الناطق والوحى الصادق والالتفات لترتبة
 المهابة وتقوية الشهادة والجملة اعتراض تذييلى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾
 بيان لأحكام رسالته عليه الصلاة والسلام إثر بيان تحققها وثبوتها وإنما كان
 كذلك لأن الأمر والنهى فى الحقيقة هو الله تعالى وإنما هو عليه الصلاة والسلام
 مبلغ لأمره ونهيه فرجع الطاعة وعدمها هو لله سبحانه ، روى أنه عليه الصلاة
 والسلام قال من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله فقال المنافقون
 ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير
 الله ما يريد إلا أن تتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى فنزلت ، والتعبير عنه
 عليه الصلاة والسلام بالرسول دون الخطاب للإيذان بأن مناط كون طاعته
 عليه الصلاة والسلام طاعة له تعالى ليس خصوصية ذاته عليه الصلاة والسلام.

(١) فى ط : من استحقاق .

بل من حيثية رسالته وإظهار الجلالة لتربية المهابة وتأكيد وجوب الطاعة
بذكر عنوان الألوهية وحمل الرسول على الجنس المنتظم له عليه الصلاة والسلام
انتظاما أوليا يأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفیظا ﴾ وجواب الشرط محذوف
والمذكور تعليل له أى ومن أعرض عن الطاعة عنه إنما أرسلناك رسولا مبغيا
لا حفیظا مهميما تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها وحفیظا
حال من السكاف وعليهم متعلق به قدم عليه رعاية للفاصلة وجمع الضمير باعتبار
معنى من كما أن الأفراد فى تولى باعتبار لفظه ﴿ ويقولون ﴾ شروع فى بیان
معاملتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بیان وجوب طاعته أى يقولون
إذا أمرتهم بشئ ﴿ طاعة ﴾ أى أمرنا وشأننا طاعة أو منا طاعة والأصل
النصب على المصدر والرفع للدلالة على الثبات كسلام ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ أى
خرجوا من مجلسك ﴿ بيت طائفة منهم ﴾ أى من القائلين المذكورين وهم
رؤساؤهم ﴿ غير الذى تقول ﴾ أى زورت طائفة منهم وسوت خلاف ما قالت
لك من القبول وضمان الطاعة لأنهم مصرون على الرد والعصيان وإنما يظهرون
ما يظهرون على وجه النفاق أو خلاف ما قلت لها والتبنييت لإما من البيتوتة لأنه
قضاء الأمر وتديبره بالليل يقال هذا أمر بيت بلیل وإما من بيت الشعر لأن
الشاعر يدبره ويسويه وتذكير الفعل لأن تأنيث الطائفة غير حقيقى وقرىء
بإدغام التاء فى التاء لقرب المخرج وإسناده إلى طائفة منهم لبيان أنهم المتصدون
له بالذات والباقيون أتباع لهم فى ذلك لا لأن الباقيين ثابتون على الطاعة .

﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ أى يكتبه فى جملة ما يوحى إليك فيطلبك
على أسرارهم فلا يحسبوا أن مكرهم يخفى عليك فيجدون بذلك إلى الإضرار
بكم سبيلا أو يثبتته فى صحائفهم فيجازيهم عليه وأيا ما كان فالجملة اعتراضية
﴿ فأعرض عنهم ﴾ أى لاتبال بهم وبما صنعوا أو تجاف عنهم ولا تصدلا لانتقام
منهم والفاء لسببية ما قبلها لما بعدها .

﴿وتوكل على الله﴾ في كل ما تأتي وما تذر لاسيما في شأنهم وإظهار الجلالة في مقام الإضمار للإشعار بعلّة الحكم ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ فيكشفك معرفتهم وينتقم لك منهم والإظهار ههنا أيضا لما مر وللتنبية على استقلال الجملة واستغنائها عما عداها من كل وجه ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ إنكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيها فيه من موجبات الإيمان وتدبر الشيء تأمله والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه ثم استعمل في كل تفكير ونظر والفاء للعطف على مقدر أي أيعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه ليعلموا كونه من عند الله تعالى بمشاهدة ما فيه من الشواهد^(١) التي من جماتها هذا الوحي الصادق والنسب الناطق بنفاقهم المحكي على ما هو عليه .

﴿ولو كان﴾ أي القرآن ﴿من عند غير الله﴾ كما يزعمون ﴿لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع إذ لا علم بالأمور الغيبية ماضية كانت أو مستقبلية لغيره سبحانه وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تعين كونه من عنده تعالى . قال الزجاج ولولا أنه من عند الله تعالى لكان ما فيه من الأخبار بالغيب مما يسره المنافقون وما يبيتونه مختلافا بعضه حق وبعضه باطل لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى وقال أبو بكر الأضمر إن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطؤون في السر على أنواع كثيرة من السكيد والمسكر وكان الله تعالى يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك ويخبره بها مفصلة فقل لهم إن ذلك لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لما اطرده الصدق فيه ولوقع فيه الاختلاف فلما لم يقع ذلك قط علم أنه بإعلامه تعالى هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم وأما حمل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم في البلاغة بأن كان بعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني وبعضه على معنى

فاسد غير ملتئم وبعضه بالغاً حد الإعجاز وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته كما جئنا إليه الجمهور فما لا يساعده السباق ولا السياق ومن رام التقريب وقال لعل ذكره ههنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحكم والمصالح المقتضية لذلك فقد بعد عن الحق بمراحل .

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ يقال أذاع السر وأذاع به أى أشاعه وأفشاه وقيل معنى أذاعوا به فعلوا به الإذاعة وهو أبلغ من أذاعوه وهو كلام مسوق لدفع ما عسى يتوهم في بعض المواد من شائبة الاختلاف بناء على عدم فهم المراد ببيان أن ذلك لعدم وقوفهم على معنى الكلام لا لتخلف مدلوله عنه وذلك أن ناساً من ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالأحوال كانوا إذا أخبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة يذيعونه من غير فهم لمعناه ولا ضبط لفحواه على حسب ما كانوا يفهمونه ويحملونه عليه من المحامل وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطاً بأمور تغوت بالإذاعة فلا يظهر أثره المتوقع فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف فنعمى عليهم ذلك وقيل ﴿ ولو ردوه ﴾ أى ذلك الأمر الذى جاءهم ﴿ إلى الرسول ﴾ أى عرضوه على رأيه عليه الصلاة والسلام مستكشفين لمعناه وما ينبغى له من التدبير والاتفات لما أن عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة إلى رأيه عليه الصلاة والسلام ﴿ وإلى أولى الأمر منهم ﴾ وهم كبار الصحابة البصراء فى الأمور رضى الله تعالى عنهم ﴿ لعلمه ﴾ أى لعلم الرادون بمعناه وتدبيره وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول فقيل :

﴿ الذين يستنبطونه منهم ﴾ للإيدان بأنه ينبغى أن يكون قصدهم يرده إليهم استكشاف معناه واستيضاح فحواه أى لعلمه أولئك الرادون الذين يستنبطونه أى يتلقونه ويستخرجون علمه وتدبيره منهم أى من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام وأولى الأمر من صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ولما فعلوا فى حقه ما فعلوا فلم يقع فيه ما وقع من الاشتباه وتوهم الاختلاف وقيل لعلمه الذين

يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها فكلمة من في منهم بيانية وقيل لأنهم كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به وكانت إذاعتهم مفسدة ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وإلى أولى الأمر لعلم تدبير ما أخبروا به الذين يستنبطونه أى يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها وقيل كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون وما يذرون فيه وقيل كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئا من الأخبار^(١) عن السرايا مظفونا غير معلوم الصحة فيذيعونه فيعود ذلك وبالا على المؤمنين ولو ردوه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وإلى أولى الأمر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو بما يذاع أو لا يذاع لعلوا^(٢) صحته وهل هو بما يذاع أو لا يذاع هم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الأمر أى يتلقونه منهم ويستخرجون عليه من جهتهم فساق النظم الكريم حينئذ لبيان جنابة تلك الطائفة وسوء تدبيرهم لإثر بيان جنابة المنافقين ومكرهم والخطاب في قوله تعالى :

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ للطائفة المذكورة على طريقة الالتفات أى لولا فضله تعالى عليكم ورحمته بإرشادكم إلى طريق الحق الذى هو المراجعة فى مظان الاشتباه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر ﴿ لا تبعتم الشيطان ﴾ وعلمتم بأراء المنافقين فيما تاتون وما تذكرون ولم تهتدوا إلى سنن الصواب. ﴿ إلا قليلا ﴾ وهم أولوا الأمر الواقفون على أسرار الكتاب الراسخون فى

معرفة أحكامه فلا استثناء منقطع وقيل ولولا فضله تعالى عليكم ورحمته يارسال الرسول وإنزال الكتاب لا تبعث الشيطان وبقية على الكفر والضلالة إلا قليلا منكم قد تفضل عليه بعقل راجح اهتدى به إلى طريق الحق والصواب وعصمه من متابعة الشيطان كقس بن ساعدة الإيادي وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة ابن نوفل وأضرابهم فالخطاب للكل والاستثناء متصل وقيل المراد بالفضل والرحمة النصرة والظفر بالأعداء أى ولولا حصول النصر والظفر على التواتر والتتابع لا تبعث الشيطان وتركتم الدين إلا قليلا منكم وهم أولوا البصائر النافذة والنيات القوية والعزائم الماضية من أفاضل المؤمنين الواقفين على حقيقة الدين البالغين إلى درجة حق اليقين المستغنيين عن مشاهدة آثار حقيقته من الفتح والظفر وقيل إلا اتباعا قليلا ﴿ فقاتل في سبيل الله ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الالتفات وهو جواب شرط محذوف ينساق إليه النظم الكريم أى إذا كان الأمر كما حكى من عدم طاعة المنافقين وكيدهم وتقصير الآخرين في مراعاة أحكام الإسلام فقاتل أنت وحدك غير مكترث بما فعلوا وقوله تعالى :

﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ أى إلا فعل نفسك استئناف مقرر لما قبله فإن اختصاص تكليفه عليه الصلاة والسلام بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده وفيه دلالة على أن ما فعلوا من التثبط لا يضره عليه الصلاة والسلام ولا يؤاخذ به وقيل هو حال من فاعل قاتل أى فقاتل غير مكلف إلا نفسك وقرئ لا تكلف بالجزم على النهى وقيل على جواب الأمر وقرئ بنون العظمة أى لا تكلفك إلا فعل نفسك لا على معنى لا تكلف أحدا إلا نفسك ﴿ وحرص المؤمنين ﴾ عطف على الأمر السابق داخل في حكمه فإن كون حال الطائفتين كما حكى سبب للأمر بالقتال وحده وبتحريض خلص المؤمنين والتحريض على الشيء الحث عليه والترغيب فيه قال الراغب كأنه في الأصل إزالة الحرص وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به أى رغبتهم في القتال ولا تعنف بهم وإنما لم يذكر المحرض عليه لغاية ظهوره وقوله تعالى :

﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ عبدة منه سبحانه وتعالى محقة الإنجاز بكف شدة الكفرة ومكروهم فإن ما صدر بلعل وعسى مقرر الوقوع من جهته عز وجل وقد كان كذلك حيث روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر للصغرى في ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت نخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين راكبا ووافوا الموعد وألقى الله تعالى في قلوب الذين كفروا الرعب فرجعوا من مر الظهران وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وافى بجيشه بدرا وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيرا كثيرا وقد مر في سورة آل عمران ﴿ والله أشد بأسا ﴾ أى من قريش ﴿ وأشد تنكيلا ﴾ أى تعذيبا وعقوبة تنكل من يشاهدها عن مباشرة ما يؤدى إليها والجملة اعتراض تذيلى مقرر لما قبلها وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة وتكرير الخبر لتأكيد التشديد وقوله تعالى :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ أى من ثوابها جملة مستأنفة سيقنت لبيان أن له عليه الصلاة والسلام فيما أمر به من تحريض المؤمنين حظا موفورا فإن الشفاعة هى التوسط بالقول فى وصول شخص إلى منفعة من المنافع الدنيوية أو الآخروية أو خلاصه من مضرة ما كذلك من الشفع كأن المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والحسنة منها ما كانت فى أمر مشروع روعى بها حق مسلم ابتغاء لوجه الله تعالى من غير أن يتضمن غرضا من الأغراض الدنيوية وأى منفعة أجل مما قد حصل للمؤمنين بتحريضه عليه للصلاة والسلام على الجهاد من المنافع الدنيوية والآخروية وأى مضرة أعظم مما تخلصوا منه بذلك من التثبط عنه ويندرج فيها الدعاء للمسلم فإنه شفاعة إلى الله سبحانه وعليه مساق آية التحية الآتية روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود ﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة ﴾ وهى ما كانت بخلاف الحسنة ﴿ يكن له

كفل منها ﴿ أى نصيب من وزرها مساو لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء ﴾ وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴿ أى مقتدراً من أقات على الشيء إذا اقتدر عليه أو شهيدا حفيظا واشتقاقه من القوت فإنه يقوى البدن ويحفظه والجملة تذييل مقرر لما قبلها على كلا المعنيين .

﴿ وإذا حييتم بتحية ﴾ ترغيب في فرد شائع من أفراد الشفاعة الحسنة إثر ما رغب فيها على الإطلاق وحذر عما يقابلها من الشفاعة السيئة وإرشاد إلى توفية حق الشفيع وكيفية أدائه فإن تحية الإسلام من المسلم شفاعة منه لأخيه إلى الله تعالى والتحية مصدر حي أصلها تحية كتسمية من سمى وأصل الأصل تحي بثلاث ياءات فحذفت الأخيرة وعوض عنها تاء التانيث وأدغمت الأولى في الثانية بعد نقل حركتها إلى الحاء قال الراغب أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ثم استعملت في كل دعاء وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضا يقول حيّاك الله ثم استعملها الشرع في السلام وهي تحية الإسلام وقال تعالى تحيتهم فيها سلام وقال فسلّموا على أنفسكم تحية من عند الله قالوا في السلام مزية على التحية لما أنه دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية وهي مستلزمة لطول الحياة وليس في الدعاء بطول الحياة ذلك ولأن السلام من أسمائه تعالى فالبدء بذكره مما لا ريب في فضله ومزيته أى إذا سلم عليكم من جهة المؤمنين ﴿ خيوا بأحسن منها ﴾ أى بتحية أحسن منها بأن تقولوا وعليكم السلام ورحمة الله إن اقتصر المسلم على الأول وبأن تزيدوا وبركاته إن جمعهما المسلم وهي النهاية لانتظامها لجميع فنون المطالب التي هي السلامة عن المضار ونيل المنافع ودوامها ونماؤها .

﴿ أوردوها ﴾ أى أجيبوها بمثلها . روى أن رجلا قال أحدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك فقال الرجل نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية فقال عليه الصلاة والسلام إنك لم تترك لي فضلا فرددت

عليك مثله وجواب التسليم واجب وإنما التخيير بين الزيادة وتركها وعن النخعي أن السلام سنة والرد فريضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الرد واجب وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه إلا نزع الله منهم روح القدس وردت عليه الملائكة ولا يرد في الخطبة وتلاوة القرآن جهرا ورواية الحديث وعند دراسة العلم والأذان والإقامة ولا يسلم على لاعب النرد والشطرنج والمغني والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعارى في الحمام وغيره قالوا ويسلم الرجل على امرأته لا على الأجنبية والسنة أن يسلم الماشى على القاعد والراكب على الماشى وراكب الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والقليل على الكثير وإذا التقيا ابتدرا وعن أبي حنيفة رضى الله عنه لا يجهر بالرد يعنى الجهر الكثير وعن النبي عليه الصلاة والسلام إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم أى وعليكم ما قلتم حيث كان يقول بعضهم السام عليكم وروى لا تبدأ اليهودى بالسلام وإذا بدأك فقل وعليك وعن الحسن أنه يجوز أن يقول للكافر وعليك السلام دون الزيادة وقيل التحية بالأحسن عند كون المسلم مسلما ورد مثلها عند كونه كافرا .

﴿إن الله كان على كل شيء حسيبا﴾ فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم التى من جملتها ما أمرتم به من التحية فحافظوا على مراعاتها حسبا أمرتم به . ﴿الله لا إله إلا هو﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ جواب قسم محذوف أى والله ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة . وقيل إلى بمعنى فى والجملة القسمية إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو خبر ثان للبتدأ أو هى الخبر ولا إله إلا هو اعتراض وقوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ أى فى يوم القيامة أو فى الجمع حال من اليوم أو صفة للمصدر أى جمعا لا ريب فيه ﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾ إنكار لأن يكون أحد أصدق منه تعالى فى وعده وسائر أخباره وبيان لاستحالة كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره .

﴿فما لكم﴾ مبتدأ وخبر والاستفهام للإنكار والنفي والخطاب لجميع المؤمنين لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه إلى بعضهم وقوله تعالى ﴿في المنافقين﴾ متعلق إما بما تعلق به الخبر أى شىء كائن لكم فيهم أى فى أمرهم وشأنهم لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وإما بما يدل عليه قوله تعالى ﴿فئتين﴾ من معنى الافتراق أى فما لكم تفرقون فى المنافقين وإما بمحذوف وقع حالا من فئتين أى كائنتين فى المنافقين لأنه فى الأصل صفة فلما قدمت انتصبت على الحال^(١) كما هو شأن صفات النكرات على الإطلاق أو من الضمير فى تفرقون وانتصاب فئتين عند البصريين على الحالية من المخاطبين والعامل ما فى لكم من معنى الفعل كما فى قوله تعالى ﴿فما لهم عن النذكرة معرضين﴾ وعند الكوفيين على خبرية كان مضمرة أى فما لكم فى المنافقين كنتم فئتين والمراد إنكار أن يكون للمخاطبين شىء يصحح اختلافهم^(٢) فى أمر المنافقين وبيان وجوب بت القول بكفرهم وإجرائهم مجرى المجاهدين بالكفر فى جميع الأحكام وذكرهم بعنوان النفاق باعتبار وصفهم السابق . روى أنهم قوم من المنافقين استأذنوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فى الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فرحلة حتى لحقوا بالمشركين فاختلف المسلمون فى أمرهم وقيل هم قوم هاجروا من مكة إلى المدينة ثم بدا لهم فرجعوا وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا على دينك وما أخرجنا إلا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا وقيل هم ناس أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة وقيل هم قوم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم رجعوا ويأباه ما سيأتى من جعل هجرتهم غاية للنهى عن توليهم وقيل هم العرنيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرده ما سيأتى من الآيات الناطقة بكيفية المعاملة معهم من السلم والحرب وهؤلاء قد أخذوا وفعل بهم ما فعل من المثل والقتل ولم ينقل فى أمرهم اختلاف المؤمنين .

(١) فى ط : حالا .

(٢) فى ط : مصحح لاختلافهم .

﴿ والله أركسهم ﴾ حال من المنافقين مفيدة لتأكيد الإنكار السابق واستبعاد وقوع المنكر ببيان وجود الغافى بعد بيان عدم الداعى وقيل من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو أى شىء يدعوكم إلى الاختلاف في كفرهم مع تحقق ما يوجب اتفاقكم على كفرهم وهو أن الله تعالى قد ردهم في الكفر كما كانوا ﴿ بما كسبوا ﴾ بسبب ما كسبوه من الارتداد والحق بالمشركين والاحتيال على رسول الله صلى الله عليه وسلم والعائد إلى الموصول محذوف وقيل ما مصدرية أى بكسبهم وقيل معنى أركسهم نكسهم بأن صيرهم للنار وأصل الركن رد الشىء مقلوبا وقرىء ركسهم مشددا وركسهم أيضا مخففا ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالقاتلين بإيمانهم من الفستين وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك وإشعار بأنه يؤدي إلى محاولة المحال الذى هو هداية من أضله الله تعالى وذلك بأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم وهم بمعزل من ذلك سعى في هدايتهم وإرادة لها ووضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيده استحالة الهداية بما ذكر في حين الصلة وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها بأن يقال أتهدون الخ للمبالغة في إنكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته فضلا عن إمكان نفسه وحمل الهداية والإضلال على الحكم بهما ياباه قوله تعالى :

﴿ ومن يضل الله فلن نجد له سبيلا ﴾ أى ومن يخلق فيه الضلال كأننا من كان فلن نجد له سبيلا من السبل فضلا عن أن تهديه إليه وفيه من الإفصاح عن كمال الاستحالة ما ليس في قوله تعالى (ومن يضل الله فما له من هاد) ونظائره وحمل إضلاله تعالى على حكمه وقضائه بالضلال محل بحسن المقابلة بين الشرط والجزاء وتوجيه الخطاب إلى كل واحد من المخاطبين للإشعار بشمول عدم الوجدان لكل على طريق التفصيل والجملة إما حال من فاعل تريدون أو تهدوا والرابط هو الواو أو اعتراض تذييلي مقرر للإنكار السابق ومؤكده لاستحالة الهداية فينبذ يجوز أن يكون الخطاب لكل أحد من يصلح له من المخاطبين

أولا ومن غيرهم ﴿ودوا لوتكفرون﴾ كلام مستأنف لبيان غلوهم وتماديهم في الكفر وتصديهم لإضلال غيرهم إثر بيان كفرهم وضلالهم في أنفسهم وكلمة لومصدرية غنية عن الجواب وهي مع ما بعدها نصب على المفعولية أى ودوا أن تكفروا وقوله تعالى ﴿كما كفروا﴾ نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى كفروا مثل كفرهم أو حال من ضمير ذلك المصدر كما هو رأى سيبويه وقوله تعالى ﴿فتكونون سواء﴾ عطف على تكفرون داخل في حكمه أى ودوا أن تكفروا فتكونوا سواء مستويين في الكفر والضلال وقيل كلمة لو على بابها وجوابها محذوف كفعول ودوا التقدير ودوا كفركم لوتكفرون كما كفروا لسروا بذلك ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ الفاء جواب شرط محذوف وجمع أولياء لمراعاة جمع المخاطبين فإن المراد نهى أن يتخذ واحد من المخاطبين وليا واحدا منهم أى إذا كان حالهم ما ذكر من ودادة كفركم فلا توالوهم ﴿حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ أى حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بهجرة كائنة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام لا لغرض من أغراض الدنيا .

﴿فإن تولوا﴾ أى عن الإيمان المؤيد^(١) بالهجرة الصحيحة المستقيمة ﴿نفذوهم﴾ أى إذا قدرتم عليهم ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ من الحل والحرم فإن حكمهم حكم سائر المشركين أسرا وقتلا ﴿ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾ أى جانبوهم محاربة كلية ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبدا ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ استثناء من قوله تعالى نفذوهم واقتلوهم أى إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم وهم الأسليون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت خروجه من مكة قد وادع هلال بن عويمر الأسلى على أنه لا يعينه ولا يعين عليه وعلى أن من وصل إلى

(١) في ط المظاهر .

هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذئ ل هلال وقيل هم بنو بكر بن زيد مناة وقيل هم خزاعة .

﴿ أو جاءوكم ﴾ عطف على الصلة أى أو الذين جاءوكم كافين عن قتالكم وقاتل قومهم استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان أحدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين والآخر من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين أو على صفة قوم كأنه قيل إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين أو إلى قوم كافين عن القتال لكم والقتال عليكم والأول هو الأظهر لما سيأتى من قوله تعالى (فإن اعتزلوكم) الخ فإنه صريح فى أن كفهم عن القتال أحد سببى استحقاقهم لنفى التعرض لهم وقرىء جاءوكم بغير عاطف على أنه صفة بعد صفة أو بيان ليصلون أو استئناف ﴿ حصرت صدورهم ﴾ حال بإضمار قد بدليل أنه قرىء حصرة صدورهم وحصرات صدورهم وقيل هو بيان لجاءوكم وهم بنو مدلج جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين والحصر الضيق والاقباض ﴿ أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ﴾ أى من أن يقاتلوكم أى لأن يقاتلوكم أو كراهة أن يقاتلوكم الخ ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم ﴾ جملة مبتدأة جارية مجرى التعليل لاستثناء الطائفة الأخيرة من حكم الأخذ والقتل ونظمهم فى سلك الطائفة الأولى الجارية مجرى المعاهدين مع عدم تعلقهم بنا ولا بمن عاهدونا كالطائفة الأولى أى ولو شاء الله لسلطهم عليكم ببسط صدورهم وتقوية قلوبهم وإزالة الرعب عنها ﴿ فقاتلوكم ﴾ عقيب ذلك ولم يكفوا عنكم واللام جواب لو على التكرير أو الإبدال من الأولى وقرىء فلقتلوكم بالتخفيف والتشديد ﴿ فإن اعتزلوكم ﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿ فلم يقاتلوكم ﴾ مع ما علمتم من تمسكهم من ذلك بمشيئة الله عز وجل ﴿ وألقوا إليكم السلم ﴾ أى الإنقياد والاستسلام وقرىء بسكون اللام ﴿ فإجعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ طريقا بالأسر أو بالقتل فإن كفهم عن قتالكم وأن يقاتلوا قومهم أيضاً وإلقاءهم إليكم السلم وإن لم يعاهدوكم كافية فى استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾ هم قوم من أسد وغطمان كانوا إذا أتوا المدينة أسلخوا وعاهدوا

ليأمنوا المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم وقيل
هم بنو عبد الدار وكان دينهم ما ذكر ﴿كلوا ردوا إلى الفتنة﴾ أى دعوا إلى
الكفر وقتال المسلمين ﴿أركسوا فيها﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه وكانوا
فيها شرا من كل عدو شرير ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ بالكف عن التعرض لكم
بوجه ما ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ أى لم يلقوا إليكم الصلح والعهد بل نبذوه
إليكم ﴿ويكفوا أيديهم﴾ أى لم يكفوها عن قتالكم ﴿نفذوهم واقتلوهم حيث
ثقتهم﴾ أى تمكنتهم منهم ﴿وأولئكم﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات
القييحة ﴿جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ حجة واضحة في الإيقاع بهم قتلا
وسبيا لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والغدر وإضرارهم بأهل
الإسلام أو تسلطا ظاهرا حيث أذن لكم في أخذهم وقتلهم ﴿وما كان لمؤمن﴾
أى وما صح له ولا لاق بحاله ﴿أن يقتل مؤمنا﴾ بغير حق فإن الإيمان زاجر
عن ذلك ﴿إلا خطأ﴾ فإنه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت
الطاقة البشرية وانتصابه إما على أنه حال أى وما كان له أن يقتل مؤمنا في حال
من الأحوال إلا في حال الخطأ أو على أنه المفعول له أى وما كان له أن يقتله
لمعلمة من العلل إلا للخطأ أو على أنه صفة للمصدر أى إلا قتلا خطأ وقيل إلا
بمعنى ولا التقدير وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا عمداً ولا خطأ وقيل ما كان نفى
في معنى النهي والاستثناء منقطع أى لكن إن قتله خطأ فجزاؤه ما يذكر والخطأ
ما لا يقارنه القصد إلى الفعل أو إلى الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح
غالبا أو لا يقصد به محذور كرمى مسلم في صف الكفار مع الجهل بإسلامه
وقرى خطأ بالمد وخطا كعصا بتخفيف الهمزة . روى أن عياش بن أبي ربيعة
وكان أخا أبي جهل لأمه أسلم وهاجر إلى المدينة خوفا من أهله وذلك قبل
هجرة النبي عليه الصلاة والسلام فأقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا يأويها
سقف حتى يرجع شرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبي أنيسة فأتياه
وهو في أطعم فقتل منه أبو جهل في الذروة والغارب وقال أليس محمد يبحثك
على صلة الرحم انصرف وبر أمك وأنت على دينك حتى نزل وذهب معهما

فلما فسحا من المدينة كتفاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة فقال للحرث هذا أخى فمن أنت يا حرث لله على إن وجدتك خاليا أن أقتلك وقدما به على أمه خلعت لا يحل كتافه أو يرتد ففعل بلسانه ثم هاجر بعد ذلك وأسلم الحرث وهاجر فلقية عياش بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه فأنحى عليه فقتله ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلتاه ولم أشعر بإسلامه فنزلت ﴿ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة﴾ أى فعلية أو فجراؤه تحرير رقبة أى إعتاق نسمة عبر عنها بها كما يعبر عنها بالرأس ﴿مؤمنة﴾ أى محكوم بإسلامها وإن كانت صغيرة ﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر الموارث لقول الضحاك بن سفيان الكلأى كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى أن أورث امرأة أشيم الضبابى من عقل زوجها ﴿إلا أن يصدقوا﴾ أى إلا أن يتصدق أهله عليه سمي العفو عنها صدقة حثا عليه وتنبها على فضله وعن النبي عليه الصلاة والسلام كل معروف صدقة وقرىء إلا أن يتصدقوا وهو متعلق بعليه أو بمسلمة أى تجب الدية أو يسلمها إلى أهله إلا وقت تصدقهم عليه فهو فى محل النصب على الظرفية أو إلا حال كونهم متصدقين عليه فهو حال من الأهل أو القاتل ﴿فإن كان﴾ أى المقتول ﴿من قوم عدو لكم﴾ كفار محاربين ﴿وهو مؤمن﴾ ولم يعلم به القاتل لسكونه بين أظهر قومه بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم أو بأن أتاهم بعدما فارقهم لهم من المهمات ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أى فعلى قاتله الكفارة دون الدية إذ لا وراثة بينه وبين أهله لأنهم محاربون ﴿وإن كان﴾ أى المقتول المؤمن ﴿من قوم﴾ كفرة ﴿بينكم وبينهم ميثاق﴾ أى عهد مؤقت أو مؤبد ﴿فدية﴾ أى فعلى قاتله دية ﴿مسلمة إلى أهله﴾ من أهل الإسلام إن وجدوا ولعل تقديم هذا الحكم ههنا مع تأخيره فيما سلف للإشعار بالمسارعة إلى تسليم الدية تحاشيا عن توهم نقض الميثاق ﴿وتحرير رقبة مؤمنة﴾ كما هو حكم سائر المسلمين ولعل لإفراده بالذكر مع اندراجه فى حكم ماسبق من قوله تعالى ﴿ومن قتل مؤمنا خطأ﴾ الخ لبيان أن كونه فيما بين المعاهدين لا يمنع وجوبه

الدية كما منعه كونه فيما بين المحاربين وقبل المراد بالمقتول الذي أو المعاهد
 لئلا يلزم التكرار بلا فائدة ولا التوريت بين المسلم والكافر وقد عرفت عدم
 لزومهما ﴿فن لم يجد﴾ أى رقة ليمحررها بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به
 إليها من الثمن ﴿فصيام﴾ أى فعلية صيام ﴿شهرين متتابعين﴾ لم يتخلل بين
 يومين من أيامهما لإفطار ﴿توبة﴾ نصب على أنه مفعول له أى شرع لكم
 ذلك توبة أى قبولاً لها من تاب الله عليه إذا قبل توبته أو مصدر مؤكد لفعل
 محذوف أى تاب عليكم توبة وقيل على أنه حال من الضمير المجزور في عليه
 بحذف المضاف أى فعلية صيام شهرين حال كونه ذا توبة وقوله تعالى :
 ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لتوبة أى كائنة منه تعالى : ﴿وكان
 الله عليهما﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها حاله ﴿حكيماً﴾ في كل ما شرع
 وقضى من الشرائع والأحكام التي من جملتها ما شرعه في شأنه ﴿ومن يقتل
 مؤمناً متعمداً﴾ لما بين حكم القتل خطأ وفصل أقسامه الثلاثة عقب ذلك
 ببيان القتل عمداً خلا أن حكمه الديوى لما بين في سورة البقرة اقتصر ههنا
 على حكمه الآخرى . روى أن مقيس بن ضبابة السكناى وكان قد أسلم هو
 وأخوه هشام وجد أخاه قتيلاً في بنى النجار فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وذكر له القصة فأرسل عليه السلام معه زبير بن عياض الفهري وكان من
 أصحاب بدر إلى بنى النجار يأمرهم بتسليم القاتل إلى مقيس ليقتص منه إن
 علموه وبأداء الدية إن لم يعلموه فقالوا سمعنا وطاعة لله تعالى ولرسوله عليه السلام
 ما نعلم له قاتلاً ولسكننا نؤدى دية فأتوه بمائة من الإبل فانهصروا راجعين إلى
 المدينة حتى إذا كانوا ببعض الطريق أتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه فقال
 أتقبل دية أخيك فيكون مسبة عليك اقتل الذى معك فيكون نفساً بنفس
 وفضل الدية فتغفل الفهري فرماه بصخرة فشدخه ثم ركب بعيراً من الإبل
 واستاق بقيتها راجعاً إلى مكة كافراً وهو يقول :

قتلت به فهراً وحملت عقله سراً بنى النجار أصحاب قارع
 وأدركت ثأرى واضطجعت موسداً وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت وهو الذى استثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح عن
أمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة وقوله تعالى : متعمدا حال من فاعل يقتل
وروى عن السكسائي سكن التاء كأنه فر من توالى الحركات ﴿ فجزاؤه ﴾
الذى يستحقه بجنايته ﴿ جهنم ﴾ وقوله تعالى ﴿ خالدا فيها ﴾ حال مقدره من
فاعل فعل مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل فجزاؤه أن يدخل جهنم خالدا فيها
وقيل هو حال من ضمير يجزاها وقيل من مفعول جازاه وأيد ذلك بأنه
أنسب بعطف ما بعده عليه لموافقته له صيغة ولا يخفى أن ما يقدر للحال
أو للعطف عليه حقه أن يكون بما يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا ويدل عليه
الكلام دلالة بيّنة وظاهر أن كون جزائه ما ذكر لا يقتضى وقوع الجزاء
البتة كما ستقف عليه حتى يقدر يجزاها أو جازاه بطريق الإخبار عن وقوعه
وأما قوله تعالى : ﴿ وغضب الله عليه ﴾ فمعطوف على مقدر يدل عليه الشرطية
دلالة واضحة كأنه قيل بطريق الاستئناف تقريراً وتأكيذاً لمضمونها حكم الله
بأن جزاءه ذلك وغضب عليه أى انتقم منه ﴿ ولعنه ﴾ أى أبعد عن الرحمة
يجعل جزائه ما ذكر وقيل هو وما بعده معطوف على الخبر بتقدير أن وحمل
المباضى على معنى المستقبل كما فى قوله تعالى (ونفخ فى الصور) ونظائره أى
فجزاؤه جهنم وأن يغضب الله عليه الخ ﴿ وأعد له ﴾ فى جهنم ﴿ عذاباً عظيماً ﴾
لا يقادر قدره ولما ترى فى الآية السكينة من التهديد الشديد والوعيد الأكيد
وفنون الإبراق والإرعاد وقد تأيدت بما روى من الأخبار الشداد كقوله
عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل
مؤمن وقوله عليه الصلاة والسلام لو أن رجلاً قتل بالمشرك وآخر رضى بالمغرب
لأشرك فى دمه وقوله عليه الصلاة والسلام من أعان على قتل مؤمن ولو بشرط
كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى وبنحو ذلك
من القوارع تمسكت الخوارج والمعتزلة بها فى خلود من قتل المؤمن عمداً فى
النار ولا متمسك لهم فيها إلا لما قيل من أنها فى حق المستحل كما هو رأى
عكرمة وأضرابه بدليل أنها نزلت فى مقيس بن ضبابة السكناى المرتد حسبما

مرت حكايته فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بل لأن المراد بالخلود هو المسكك الطويل لا الدوام لتظاهر النصوص الناطقة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم وما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا وكذا ما روى عن سفيان أن أهل العلم كانوا إذا سئلوا قالوا لا توبة له محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى في التشديد والتغليظ وعليه يحمل ما روى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال أبا الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة . كيف لا وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا سأله ألقا تل المؤمن توبة قال لا وسأله آخر ألقا تل المؤمن توبة فقال نعم فقل له قلت لذلك كذا ولهذا كذا قال كان الأول لم يقتل بعد فقلت ما قلت كيلا يقتل وكان هذا قد قتل فقلت له ما قلت لئلا يئأس وقد روى عنه جواز المغفرة بلا توبة أيضا حيث قال في قوله تعالى : فجزاؤه جهنم الآية هي جزاؤه فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له وروى مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال هو جزاؤه إن جازاه وبه قال عون بن عبد الله وبكر بن عبد الله المزني وأبو صالح قالوا قد يقول الإنسان لمن يزرجه عن أمر إن فعلته فجزاؤك القتل والضرب ثم إن لم يحازه بذلك لم يكن ذلك منه كذبا قال الواحدى والأصل في ذلك أن الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد وإن امتنع أن يخلف الوعد . بهذا وردت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال من وعده الله تعالى على عمله ثوابا فهو منجزه له ومن أوعده على عمله عقابا فهو بالخيار والتحقيق أنه لا ضرورة إلى تفريع ما نحن فيه على الأصل المذكور لأنه لإخبار منه تعالى بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزبه بذلك . كيف لا وقد قال الله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ولو كان هذا إخبارا بأنه تعالى يجزى كل سيئة بمثلها لعارضه قوله تعالى (ويعفو عن كثير) ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إثر ما بين حكم القتل بقسميه وأن ما يتصور صدوره عن المؤمن إنما هو القتل خطأ شرع في التحذير عما يؤدي إليه من قلة المبالاة في الأمور ﴿إذا ضربتم

في سبيل الله ﴿ أى سافرتهم في الغزو ولما في إذا من معنى الشرط صدر
 قوله تعالى : ﴿ فتدينوا ﴾ بالفاء أى فاطلبوا بيان الأمر في كل ما تأتون
 وما تذكرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية وقرىء فتثبتوا أى اطلبوا لإثباته
 وقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام ﴾ نهى عما هو نتيجة لترك
 المسأور به وتعيين لمادة مهمة من المواد التي يجب فيها التبيين وقرىء السلم
 بغير ألف وبكسر السين وسكون اللام أى لا تقولوا بغير تدبر لمن حياكم
 بتحية الإسلام أو لمن ألقى إليكم مقابليد الاستسلام والانقياد ﴿ لست مؤمنا ﴾
 وإنما أظهرت ما أظهرت متعوذا بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه وقرىء
 مؤمنا بالفتح أى مبذولا لك الأمان وهذا أنسب بالقراءتين الأخيرتين
 والاقتصار على ذكر تحية الإسلام في القراءة الأولى مع كونها مقرونة بكلمتى
 الشهادة كما سيأتى في سبب النزول للبالغة في النهى والزجر والتنبيه على كمال
 ظهور خطئهم ببيان أن تحية الإسلام كانت كافية في المسكافة والانزجار عن
 التعرض لصاحبها فكيف وهى مقرونة بهما وقوله تعالى ﴿ تبتغون عرض
 الحياة الدنيا ﴾ حال من فاعل لا تقولوا منبىء عما يحملهم على العجلة وترك
 التأنى لسن لا على أن يكون النهى راجعا إلى القيد فقط كما في قولك لا تطلب
 العلم تبتغى به الجاه بل إليهما جميعا أى لا تقولوا له ذلك حال كونكم طالبين
 لما له الذى هو حطام سريع النفاد وقوله تعالى ﴿ فعند الله مغنم كثيرة ﴾
 تعليل للنهى عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمنى كأنه قيل لا تبتغوا ماله
 فعند الله مغنم كثيرة يغنمكموها فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه وقوله تعالى
 ﴿ كذلك كنتم من قبل فن الله عليكم ﴾ تعليل للنهى عن القول المذكور ولعل
 تأخيرها لما فيه من نوع تفصيل ربما يخل بتقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم
 مع ما فيه من مراعاة المقارنة بين التعليل السابق وبين ما علل به كما في قوله تعالى
 (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم) الخ وتقديم خبر
 كان للقصر المقيد لتأ كيد المشابهة بين طرفي التشبيه وذلك إشارة إلى الموصول
 باعتبار انصافه بما في حين الصلة والفاء في فن للعطف على كنتم أى مثل ذلك

الذى ألقى إليكم السلام كنتم أيضاً في بدء إسلامكم لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها فمن الله عليكم بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم والفاء في قوله تعالى: ﴿فتبينوا﴾ فصيحة أى إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا بيان هذا الأمر البين وقبسوا حاله بحالكم وافعلوا به ما فعل بكم فى أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن هذا هو الذى تقتضيه جزاله التنزيل وتستدعيه غمامة شأنه الجليل ومن حسب أن المعنى أول ما دخلتم فى الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فخصت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطاة قلوبكم لأستنكم فمن الله عليكم بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدم فيه وأن صرتم أعلاماً فيه فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الإسلام فى السكف ولا تقولوا الخ فقد أبعد عن الحق لأن المراد كما عرفت بيان أن تحصين الدماء والأموال حكم مترتب على ما فيه المائلة بينه وبينهم من مجرد التفوه بكلمة الشهادة وإظهار أن ترتبه عليه فى حقهم يقتضى ترتبه عليه فى حقه أيضاً إلزاماً لهم وإظهاراً لخطئهم ولا يخفى أن ذلك إنما يتأتى بتفسير منه تعالى عليهم المترتب على كونهم مثله بتحصيل دمايتهم وأموالهم حسبما ذكر حتى يظهر عندهم وجوب تحصين دمه وماله أيضاً بحكم المشاركة فيما يوجب به وحيت لم يفعل ذلك بل فسر به لم يبق فى النظم الكريم ما يدل على ترتب تحصين دمايتهم وأموالهم على ما ذكر فنأين له أن يقول فخصت دماءكم وأموالكم حتى يتأتى البيان وارتاب تقديره بناء على اقتضاء ما ذكر فى تفسير المن إياهم بناء على أساس واه كيف لا وإنما ذكره بصدد التفسير وإن كان أمراً متفرعاً على ما فيه المائلة مبنياً عليه فى حقهم لكنه ليس بحكم أريد إثباته فى حقه بناء على ثبوته فى حقهم كالتحصين المذكور حتى يستحق أن يتعرض له ولا بأمر له دخل فى وجوب اعتبار ظاهر الإسلام من الداخلين فيه حتى يصح نظمه فى سلك ما فرع عليه قوله فعليكم أن تفعلوا الخ .

وحمل الكلام على معنى أنكم في أول الأمر كنتم مثله في قصور الرتبة في الإسلام فمن الله عليكم وبلغتم هذه الرتبة العالية منه فلا تستقصروا حالته نظرا إلى حالتكم هذه بل اعتدوا بها نظرا إلى حالتكم السابقة يرد أنه قتل لم يكن لاستقصار إسلامه بل لتوهم عدم مطابقة قلبه للسان فإن الآية الكريمة نزلت في شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك وكان قد أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم غالب بن فضالة الليثي فهربوا وبقى مرداس لثقتهم بإسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا كبر وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجدا شديدا وقال قتلتموه إرادة ما معه فقال أسامة إنه قال بلسانه دون قلبه وفي رواية إنما قالها خوفا من السلاح فقال عليه الصلاة والسلام هلا شققت عن قلبه وفي رواية أفلا شققت عن قلبه ثم قرأ الآية على أسامة فقال يا رسول الله استغفر لي فقال كيف بلا إله إلا الله قال أسامة فما زال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ ثم استغفر لي وقال أعتق رقبة وقيل نزلت في رجل قال يا رسول الله كنا نطلب القوم وقد هنهم الله تعالى فقصدت رجلا فلما أحس بالسيف قال إني مسلم فقتلته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلت مسلما قال إنه كان متعزدا فقال عليه الصلاة والسلام أفلا شققت عن قلبه ﴿إن الله كان بما تعملون﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفيةاتها ﴿خبيرا﴾ فيجازيكم بحسبها إن خيرا فخير وإن شرا فشر فلا تتهاونوا في القتل واحتاطوا فيه والجملة تعليل لما قبلها بطريق الاستئناف وقرئ بفتح أن على أنها معموله لتبينوا أو على حذف لام التعليل ﴿لا يستوى القاعدون﴾ بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعدتهم في الجهاد بعد ما مر من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ليأنف القاعد عنه ويرفع بنفسه عن انحطاط رتبته فيهنزله رغبة في ارتفاع طبقته والمراد بهم الذين أذن لهم في القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم قال ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها وهو الظاهر الموافق لتاريخ النزول لا ما روى عن مقاتل من أنهم الخارجون إلى تبوك فإنه مما لا يوافق التاريخ ولا يساعده الحال إذا لم يكن للمتخلفين يومئذ هذه الرخصة وقوله تعالى ﴿من المؤمنين﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من القاعدين أى كائنين من المؤمنين وفائدتها الإيذان من أول الأمر بعدم إخلال وصف القعود بإيمانهم والإشعار بعلة استحقاقهم لما سيأتى من الحسنى ﴿غير أولى الضرر﴾ صفة للقاعدين لجريانه مجرى النكرة حيث لم يقصد به قوم بأعيانهم أو بدل منه وقرئـ بالنصب على أنه حال منه أو استثناء وبالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه والضرر المرض أو العاهة من عى أو عرج أو زمانة أو نحوها وفي معناه العجز عن الأبهة . عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه أنه قال كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيت السكينة ف وقعت فخذته على فخذى حتى خشيت أن ترضاها ثم سرى عنه فقال اكتب فكتبت (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون) فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى يارسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين فغشيت السكينة كذلك ثم سرى عنه فقال اكتب (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) ﴿والمجاهدون﴾ لإيرادهم بهذا العنوان دون الخروج المقابل لوصف المعطوف عليه كما وقع في عبارة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكذا تقييد المجاهدة بكونها ﴿فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ لمدهم بذلك والإشعار بعلة استحقاقهم لعلو المرتبة مع ما فيه من حسن موقع السبيل فى مقابلة القعود وتقديم القاعدين فى الذكر والإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبى عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابلتهم فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشئيين المتفاوتين زيادة ونقصانا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر وعليه قوله تعالى (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) إلى غير ذلك وأما قوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فلعل تقديم الفاضل فيه لأن صلاته ملكة لصلة المفضول وقوله عز وجل ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم

وأنفسهم على القاعدين درجة ﴿ استثناف مسوق لتفصيل ما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم استوائهما إجمالا ببيان كينيته وكميته مبنى على سؤال ينساق إليه المقال كأنه قيل كيف وقع ذلك فقيل فضل الله الخ وأما تقدير ما لهم لا يستون فإنما يليق بجعل الاستثناف تعليلا لعدم الاستواء مسوقا لإثباته وفيه عكس ظاهر فإن الذى يحق أن يكون مقصودا بالذات إنما هو بيان تفاضل الفريقين على درجات متفاوتة وأما عدم استوائهما فقصارى أمره أن يكون توطئة لذكره ولام المجاهدين والقاعدين للعهد فقيد كون الجهاد فى سبيل الله معتبر فى الأول كما أن قيد عدم الضرر معتبر فى الثانى ودرجة نصب على المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل أى فضل الله تفضيلة أو على نزع الخافض أى بدرجة وقيل على التمييز وقيل على الحالية من المجاهدين أى ذوى درجة وتفويتها للتفخيم وقوله تعالى ﴿ وكلا ﴾ مفعول أول لما يعقبه قدم عليه لإفادة القصر تأكيداً للوعد أى كل واحد من المجاهدين والقاعدين ﴿ وعد الله الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة لا أحدهما فقط كما فى قوله تعالى (وأرسلناك للناس رسولا) على أن اللام متعلقة برسولا والجملة اعتراض جىء به تداركا لما عسى أن يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول وقوله عز وجل ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين ﴾ عطف على قوله تعالى فضل الله الخ واللام فى الفريقين مغنية لهما عن ذكر القيود التى تركت على سبيل التدرىج وقوله تعالى ﴿ أجرا عظيما ﴾ مصدر مؤكد لفضل على أنه بمعنى أجر وإيثاره على ما هو مصدر من فعله للإشعار بكون ذلك التفضيل أجرا لأعمالهم أو مفعول ثان له بتضمينه معنى الإعطاء أى أعطاهم زيادة على القاعدين أجرا عظيما وقيل هو منصوب بنزع الخافض أى فضلهم بأجر عظيم وقوله تعالى ﴿ درجات ﴾ بدل من أجرا بدل السكل مبين لسكمية التفضيل وقوله تعالى ﴿ منه ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات دالة على فخامتها وجلالة قدرها أى درجات كأنه منه تعالى قال ابن محيرز هى سبعون درجة ما بين كل درجتين عدو الفرس الجواد المضر سبعين خريفا وقال السدى هى سبعمائة درجة وعن أبى هريرة رضى الله عنه

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله تعالى للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ويجوز أن يكون انتصاب درجات على المصدرية كما في قولك ضربه أسواطاً أى ضربات كأنه قيل فضلمهم تفضيلاً وقوله تعالى ﴿ومغفرة﴾ بدل من أجراً بدل البعض لأن بعض الأجر ليس من باب المغفرة أى مغفرة لما فرط منهم من الذنوب التي لا يكفرها سائر الحسنات التي يأتى بها القاعدون أيضاً حتى تعد من خصائصهم وقوله تعالى ﴿ورحمة﴾ بدل السكل من أجراً مثله درجات ويجوز أن يكون انتصابهما بإضمار فعلهما أى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة هذا .

ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبيء عن المغايرة وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه حسباً بقتضيه الكلام ويستدعيه حسن النظام إما التنزيل للاختلاف العنوانى بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتى تمهيداً لسلوك طريق الإبهام ثم التفسير روماً لمزيد التحقيق والتقرير كما في قوله تعالى (فلما جاء أمر نأنجيناً هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) كأنه قيل فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهما لحرمان القاعدين قيل وكلا وعد الله الحسنى ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإبهام بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة ففيل ما قيل والله در شأن التنزيل وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات على أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله تعالى عاجلاً في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيقي بكونه درجة واحدة وبالتفضيل الثانى ما أنعم به في الآخرة من الدرجات العالية الغائبة للحرص كما ينبغي عنه تقديم الأول وتأخير الثانى وتوسط الوعد بالجنة بينهما كأنه قيل وفضلهم عليهم في الدنيا درجة واحدة وفي الآخرة درجات لا تحصى وقد وسط بينهما في الذكر ما هو متوسط بينهما في الوجود أعنى الوعد بالجنة توضيحاً لخالهما ومسارعة إلى

تسليية المفضلول والله سبحانه أعلم . هذا ما بين المجاهدين وبين القاعدين غير أولى الضرر وأما أولو الضرر فهم مساوون للمجاهدين عند القائلين بمفهوم الصفة وبأن الاستثناء من النفي لإثبات وأما عند من لا يقول بذلك فلا دلالة لعبارة النص عليه وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خلفتم في المدينة أقواما ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره وبعبارة أخرى إن في المدينة لأقواما ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد إلا كانوا معكم فيه قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حسبهم العذر قالوا هذه المساواة مشروطة بشرطة أخرى سوى الضرر قد ذكرت في قوله تعالى (ليس على الضعفاء ولا على المرضى إلى قوله إذا نصبحوا لله ورسوله) وقيل القاعدون الأول هم الأضرأ والثاني غيرهم وفيه من تفكيك النظم الكريم ما لا يخفى ولا ريب في أن الأضرأ أفضل من غيرهم درجة كما لا ريب في أنهم دون المجاهدين بحسب الدرجة الدنيوية ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ تذييل مقرر لما وعد من المغفرة والرحمة ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ﴾ بيان لحال القاعدين عن الهجرة بعد بيان حال القاعدين عن الجهاد وتوفاهم يحتمل أن يكون ماضيا ويؤيده قراءة من قرأ توفتهم وأن يكون مضارعا قد حذف منه إحدى التامين وأصله تتوفاهم على حكاية الحال الماضية والقصد إلى استحضار صورتها ويعضده قراءة من قرأ توفاهم على مضارع وفيت بمعنى أن الله تعالى يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها أى يمكنهم من استيفائها فيستوفونها ﴿ ظالمى أنفسهم ﴾ حال من ضمير توفاهم فإنه وإن كان مضافا إلى المعرفة إلا أنه نكرة في الحقيقة لأن المعنى على الانفصال وإن كان موصولا في اللفظ كما في قوله تعالى (غير محلى الصيد) وهديا بالغ الكعبة (وثانى عطفه) أى محلى الصيد وبالغا الكعبة وثانيا عطفه كأنه قيل ظالمين أنفسهم وذلك بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفار الموجبة للإخلال بأمور الدين فإنها نزلت في ناس من أهل مكة قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة ﴿ قالوا ﴾ أى الملائكة للمتوفين

تقريراً لهم بتقصيرهم في إظهار إسلامهم وإقامة أحكامهم من الصلاة ونحوها وتوبيخاً لهم بذلك ﴿فيم كنتم﴾ أي في أي شيء كنتم من أمور دينكم ﴿قالوا﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا قالوا في الجواب فقيل قالوا متجانفين عن الإقرار الصريح بما هم فيه من التقصير متعللين بما يوجبهم على زعمهم ﴿كننا مستضعفين في الأرض﴾ أي في أرض مكة عاجزين عن القيام بمواجب الدين فيما بين أهلها ﴿قالوا﴾ لإبطالا لتعلمهم وتبكييتاً لهم ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ إلى قطر آخر منها تقدرون فيه على إقامة أمور الدين كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة وأما حمل تعلمهم على إظهار العجز عن الهجرة وجعل جواب الملائكة تكذيباً لهم في ذلك فيرده أن سبب العجز عنها لا ينحصر في فقدان دار الهجرة بل قد يكون لعدم الاستطاعة للخروج بسبب الفقر أو لعدم تمكن الكفرة منه فلا يكون بيان سعة الأرض تكذيباً لهم ورداً عليهم بل لابد من بيان استطاعتهم أيضاً حتى يتم التبكييت وقيل كانت الطائفة المذكورة قد خرجت مع المشركين إلى بدر منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباهم فقتلوا فيها فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقالوا لهم ما قالوا فيكون ذلك منهم تقرعاً وتوبيخاً لهم بما كانوا فيه من مساعدة الكفرة وانتظامهم في عسكرهم ويكون جوابهم بالاستضعاف تعللاً بأنهم كانوا مقهورين تحت أيديهم وأنهم أخرجوهم كارهين فرد عليهم بأنهم كانوا بسبيل من الخلاص عن قهرهم متمكنين من المهاجرة ﴿فأولئك﴾ الذين حكيت أحوالهم الفظيعة ﴿ماواهم﴾ أي في الآخرة ﴿جهنم﴾ كما أن ماواهم في الدنيا دار الكفر لتركهم الفريضة المحتومة فماواهم مبتدأ وجهنم خبره والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر إن والفاء فيه لنضمن اسمها معنى الشرط وقوله تعالى قالوا فيم كنتم حال من الملائكة بإضمار قد عند من يشترطه أو هو الخبر والعائد منه محذوف أي قالوا لهم والجملة المصدرة بالفاء معطوفة عليه مستنتجة منه وبما في هذه ﴿وساء مصيراً﴾ أي مصيرهم أي جهنم وفي الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب المهاجرة من موضع

لا يتمكن الرجل من إقامة أمر دينه بأى سبب كان وعن النبي صلى الله عليه وسلم من فر دينه من أرض إلى أرض وإن كان شيرا من الأرض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ إلا المستضعفين ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم في الموصول وضميره والإشارة إليه ومن في قوله تعالى ﴿ من الرجال والنساء والوالدان ﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من المستضعفين كاثني عشر منهم وذكر الوالدان إن أريد بهم المالك أو المراهقون ظاهر وأما إن أريد بهم الأطفال فللمبالغة في أمر الهجرة والإيدان بأنها بحيث لو استطاعها غير المكلفين لوجبت عليهم والإشعار بأنهم لا يحصى لهم عنها البتة تجب عليهم كما بلغوا حتى كأنها واجبة عليهم قبل البلوغ لو استطاعوا أن يهاجروا بهم متى أمكنت وقوله تعالى ﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ﴾ صفة للمستضعفين فإن ما فيه من اللام ليس للتعريف أو حال منه أو من الضمير المستكن فيه وقيل تفسير لنفس المستضعفين لكثرة وجوه الاستضعاف واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة ومبادئها واهتداء السبيل معرفة طريق الموضع المهاجر إليه بنفسه أو بدليل ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر من صفات العجز ﴿ عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ جىء بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيدانا بأن الهجرة من تأكد الوجوب بحيث ينبغي أن يعد تركها ممن تحقق عدم وجوبها عليه ذنبا يجب طلب العفو عنه رجاء وطمعا لاجز ما وقطعا ﴿ وكان الله غفورا غفورا ﴾ تذييل مقرر لما قبله ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا ﴾ ترغيب في المهاجرة وتأنيس لها أى يجد فيها متحولا ومهاجرا وإنما عبر عنه بذلك تأكيذا للترغيب لما فيه من الإشعار يكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة إلى ما يكون سببا لرغم أنف قومه الذين هاجروهم والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب وقيل يجد فيها طريقا يراغم بسلوكه قومه أى يفارقهم على رغم أنوفهم ﴿ وسعة ﴾ أى من الرزق ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ﴾ أى قبل أن يصل إلى المقصد وأن

كان ذلك خارج بابيه كما ينبغي عنه إظهار الخروج من بيته على المهاجرة وهو عطف على فعل الشرط وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقيل هو حركة الهاء نقلت إلى السكاف على نية الوقف كما في قوله :

من عزي سبني لم أضربه عجت والدهر كثير عجه

وقرئ بالنصب على إضمار أن كما في قوله * وألحق بالحجاز فأستريح * (فقد وقع أجره على الله) أي ثبت ذلك عنده تعالى ثبوت الأمر الواجب . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث بالآيات المتقدمة إلى مسلي مكة قال جندب بن ضمرة لبنيه وكان شيخا كبيرا إحملوني فإنني لست من المستضعفين وإنني لأهتدى الطريق والله لا أبيت الليلة بمكة فحمله على سرير متوجها إلى المدينة فلما بلغ التعميم أشرف على الموت فصفق يمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما أبايعك رسولك فمات حميدا فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو توفي بالمدينة لكان أتم أجرا كل هجرة في غرض ديني من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهي هجرة فنزلت . قالوا إلى الله عز وجل وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام .

((وكان الله غفورا)) مبالغا في المغفرة فيغفر له ما فرط منه من الذنوب التي من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج ((رحيم)) مبالغا في الرحمة فيرحمه بإتمام^(١) ثواب هجرته .

الصلاة في الضرورات

((وإذا ضربتم في الأرض)) شروع في بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ولقاء العدو والمرض والمطر وفيه تأكيد لعزيمة المهاجر على المهاجرة وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤنة أي إذا سافرت أي مسافرة كانت

(١) في ط : بإكمال

ولذلك لم يقيد بما قيد به المهاجرة ﴿فليس عليكم جناح﴾ أى لا حرج [ولا] ^(١) ما ثم
 ﴿أن تقصروا﴾ أى فى أن تقصروا والقصر خلاف المد يقال قصرت الشيء
 أى جعلته قصيرا بحذف بعض أجزائه أو أوصافه فمتعلق القصر حقيقة إنما
 هو ذلك الشيء لا بعضه فإنه متعلق الحذف دون القصر وعلى هذا فقوله تعالى
 ﴿من الصلوة﴾ يذبحى أن يكون مفعولا لتقصروا على زيادة من حسبها رآه
 الأخفش وأما على تقدير أن تكون تبعيضية ويكون المفعول محذوفا كما هو
 رأى سيبويه أى شيئا من الصلاة فينبغى أن يصار إلى وصف الجزء بصفة
 الكل أو يراد بالقصر معنى الحبس يقال قصرت الشيء إذا حبسته أو يراد
 بالصلاة الجنس ليكون المقصور بعضا منها وهى الرباعيات أى فليس عليكم
 جناح فى أن تقصروا بعض الصلاة بتقصيفها وقرئ تقصروا من الإقصار
 وتقصروا من التقصير والكل بمعنى وأدنى مدة السفر الذى يتعلق به القصر عند
 أبى حنيفة مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الأقدام بالإقتصاد وعند
 الشافعى مسيرة يومين وظاهر الآية الكريمة التخيير وأفضلية الإتمام وبه قال ^(٢)
 الشافعى وبما روى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه أتم فى السفر وعن عائشة
 رضى الله عنها أنها أتمت نارة وقصرت أخرى وعن عثمان رضى الله عنه أنه
 كان يتم ويقصر وعندنا يجب القصر لا محالة خلا أن بعض مشايخنا سماه عزيمة
 وبعضهم رخصة إسقاط بحيث لا مساغ للإتمام لا رخصة ترفيه إذ لا معنى
 للتخيير بين الأخف والأثقل وهو قول عمر وعلى وابن عباس وابن عمر
 وجابر رضوان الله عليهم وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو
 قول مالك .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على
 لسان نبيكم عليه السلام وعن أنس رضى الله عنه خرجنا مع النبي صلى الله عليه

وسلم من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة وعن
 عمران بن حصين رضى الله عنه ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في السفر
 إلا ركعتين وصلى بمكة ركعتين ثم قال أتموا فإنما قوم سفر وحين سمع ابن مسعود
 أن عثمان رضى الله عنه صلى بمكة أربع ركعات استرجع ثم قال صليت مع
 رسول الله عليه الصلاة والسلام بمكة ركعتين وصليت مع أبي بكر رضى الله عنه
 بمكة ركعتين وصليت مع عمر رضى الله عنه بمكة ركعتين فليت حظى من أربع
 ركعات ركعتان متقبلتان وقد اعتذر عثمان رضى الله عنه عن إتمامه بأنه تأهل
 بمكة وعن الزهري أنه إنما أتم لأنه أزمع الإقامة بمكة وعن عائشة رضى الله عنها
 أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيدت في
 الحضر وفي صحيح البخارى أنها قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين
 في الحضر والسفر وزيد في صلاة الحضر وأما ما روى عنها من الإتمام فقد
 اعتذرت عنه وقالت أنا أم المؤمنين بحيث حلت فهى دارى وإنما ورد ذلك بنفى
 الجناح لما أنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا
 في القصر فصرح بنفى الجناح عنهم لتطيب به نفوسهم ويطمئنوا إليه كما في قوله
 تعالى (فن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) مع أن ذلك
 الطواف واجب عندنا ركن عند الشافعى وقوله تعالى :

﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه
 أى إن خفتم أن يتهرضوا لكم بما تكرهونه من القتال وغيره فليس عليكم
 جناح الخ وهو شرط معتبر في شرعية ما يذكر بعده من صلاة الخوف المؤداة
 بالجماعة وأما في حق مطلق القصر فلا اعتبار له اتفاقا لتظاهر السنن على مشروعيته
 حسبما وقفت على تفاصيلها وقد ذكر الطحاوى في شرح الآثار مسنداً إلى يعلى
 ابن أمية أنه قال قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إنما قال الله (فليس عليكم
 جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) وقد آمن الناس

فقال عمر رضى الله عنه عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته وفيه دليل على عدم جواز الإكمال لأن التصديق بما لا يحتمل التملك إسقاط محض لا يحتمل الرد كما حقق في موضعه ولا يتوهم أنه مخالف للكتاب لأن التقييد بالشرط عندنا إنما يدل على ثبوت الحكم عند وجود الشرط وأما عدمه عند عدمه فمسكوت عنه فإن وجد له دليل ثبت عنده أيضا وإلا بقی^(١) على حاله لعدم تحقق دليله لا لتحقيق دليل عدمه وناهيك بما سمعت من الأدلة الواضحة وأما عند القائلين بالمفهوم فلا أنه إنما يدل على نفي الحكم عند عدم الشرط إذ لم يكن له فائدة أخرى وقد خرج الشرط ههنا مخرج الأغلب كما في قوله تعالى (ولا تذكرها فتياكم على البغاء إن أردن تحصنا) بل نقول إن الآية الكريمة مجملة في حق مقدار القصر وكيفيته وفي حق ما يتعلق به من الصلوات وفي مقدار مدة الضرب الذى يبط به القصر فكل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من القصر في حال الأمن وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف وبالضرب في المدة المعينة بيان لإجمال الكتاب وقد قيل إن قوله تعالى إن خفتم الخ متعلق بما بعده من صلاة الخوف منفصل عما قبله فإنه روى عن أبي أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال نزل قوله تعالى (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حول فنزل (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فليس عليكم جناح) الخ وقد قرئ من الصلاة أن يفتنكم بغير أن خفتم على أنه مفعول له لما دل عليه الكلام كأنه قيل شرع لكم ذلك كراهة أن يفتنكم الخ فإن استمرار الاشتغال بالصلاة مظنة لاعتذارهم على إيقاع الفتنة وقوله تعالى .

(إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) تعليل لذلك باعتبار تعلله بما ذكر أو لما يفهم من الكلام من كون فتنتهم متوقعة فإن كمال عداوتهم للمؤمنين من

موجبات التعرض لهم بسوء وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ﴾ بيان لما قبله من النص المجمل الوارد في مشروعية القصر بطريق التخيير وتصوير لسكيفيته عند الضرورة التامة وتخصيص البيان بهذه الصورة مع الاكتفاء فيما عداها بالبيان بطريق السنة لمزيد حاجتها إليه لما فيها من كثرة التغير عن الهيئة الأصلية ومن هنا ظهر لك أن مورد النص الشريف على المقصورة وحكم ما عداها مستفاد من حكمها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التجريد وبظاهره يتعلق من لا يرى صلاة الخوف بعده عليه السلام ولا يخفى أن الأئمة بعده نوابه عليه السلام قوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه السلام كما في قوله تعالى رخذ من أموالهم صدقة) وقد روى أن سعيد بن العاص لما أراد أن يصلي بطبرستان صلاة الخوف قال من شهد منكم صلاة الخوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فوصف له ذلك فصلى بهم كما وصف وكان ذلك بحضور الصحابة رضى الله عنهم فلم يذكره أحد فحل محل الإجماع وروى في السنن أنهم غزوا مع عبد الرحمن بن سمرة بابل فصلى بهم صلاة الخوف ﴿ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ أى أردت أن تقيم بهم الصلاة .

﴿ فَلَتَقِمَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ﴾ بعد أن جعلتهم طائفتين ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو ليحرسوكم منهم وإنما لم يصرح به لظهوره ﴿ وَلِيَأْخُذُوا ﴾ أى الطائفة القائمة معك ﴿ أَسْلِحَتِهِمْ ﴾ أى لا يضعوها ولا يلقوها إنما عبر عن ذلك بالآخذ للإيدان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا ﴾ أى القائمون معك وأنموا الركعة ﴿ فَلْيَكُونُوا مِنْ ورائكم ﴾ أى فليصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة ﴿ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا ﴾ بعد وهى الطائفة الواقعة تجاه العدو للحراسة وإنما لم تعرف لما أنها لم تذكر فيما قبل ﴿ فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ﴾ الركعة الباقية ولم يبين فى الآية الكريمة حال الركعة الباقية لكل من الطائفتين وقد بين ذلك بالسنة حيث روى عن ابن عمرو وابن مسعود رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حين صلى صلاة الخوف

صلى بالطائفة الأولى ركعة وبالطائفة الأخرى ركعة كما في الآية الكريمة
ثم جاءت الطائفة الأولى وذهبت هذه إلى مقابلة العدو حتى قضت الأولى الركعة
الآخيرة بلا قراءة وسلموا ثم جاءت الطائفة الأخرى وقضوا الركعة
الأولى بقراءة حتى صار لكل طائفة ركعتان ﴿ولياخذوا﴾ أى
هذه الطائفة .

﴿حذرهم وأسلحتهم﴾ لعل زيادة الأمر بالحذر في هذه المرة لكونها
مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي صلى الله عليه وسلم
في شغل شاغل وأما قبلها فربما يظنونهم قائمين للحرب وتكليف كل من
الطائفتين بما ذكر لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لإلقاء السلاح والإعراض
عن غيرها ومظنة^(١) لهجوم العدو كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ود الذين كفروا
لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ فإنه
استئناف مسوق لتعليل الأمر المذكور والخطاب للفريقين بطريق الالتفات
أى تمنوا أن ينالوا منكم غرة ويلتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة
والمراد بالامتنعة ما يتمتع به في الحرب لا مطلقا وهذا الأمر للوجوب لقوله
تعالى . ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن
تضعوا أسلحتكم﴾ حيث رخص لهم في وضعها إذا ثقل عليهم استصحابها
بسبب مطر أو مرض وأمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقل .

﴿وخذوا حذركم﴾ لئلا يهجم العدو عليكم غيلة روى الكلبي عن
أبي صالح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا محاربا وبني أنمار فنزلوا ولا يرون
من العدو أحدا فوضع الناس أسلحتهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
لحاجة له وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادى والسماء ترش فحال الوادى بينه
عليه السلام وبين أصحابه فجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصر به
غورث ابن الحرث المحاربى فقال قتلنى الله أن لم أقتلك ثم انحدر من الجبل

ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هو قائم على رأسه وقد سل سيفه من غمده فقال يا محمد من يعصمك مني الآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عز وجل ثم قال اللهم اكفني غورث بن الحرث بما شئت ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب لوجهه من زلخه زلخها بين كتفيه فبدر سيفه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه ثم قال يا غورث من يمنعك مني الآن قال لا أحد قال عليه الصلاة والسلام تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك قال لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبدا ولا أعين عليك عدوا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث والله لآنت خير مني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحق بذلك منك فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليهم قصته فآمن بعضهم قال وسكن الوادي فقطع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأخبرهم بالخبر وقوله تعالى :

((إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا)) تعليل للأمر بأخذ الحذر أي أعد لهم عذابا مهينا بأن يخذلهم وينصرهم عليهم فاهتموا بأموركم ولا تهملوا في مباشرة الأسباب ليحل^(١) بهم عذابه بأيديكم وقيل لما كان الأمر بالحذر من العدو موها لتوقع غلبته واعتزازه نفي ذلك الإيهام بأن الله تعالى ينصرهم ويهين عدوهم لتقوى قلوبهم ((فإذا قضيتُم الصلاة)) أي صلاة الخوف أي أدبتموها على الوجه المبين وفرغتم منها ((فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم)) أي فداوموا على ذكر الله تعالى وحافظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه في جميع الأحوال حتى في حال المسابقة والقتال كما في قوله تعالى : ((إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)) ((فإذا اطمانتم)) سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتكم بعد ما وضعت الحرب أوزارها ((فأقيموا الصلاة)) أي الصلاة التي دخل وقتها حينئذ أي أدوها بتعديل أركانها ومراعاة

شرائطها وقيل المراد بالذكر في الأحوال الثلاثة الصلاة فيها أى فإذا أردتم أداء الصلاة فصلوا قياما عند المسابقة وعودا جائين على الركب عند المراماة وعلى جنوبكم مشخين بالجراح فإذا اطمأنتم في الجملة فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال التى هى [من] ^(١) أحوال القلق والازعاج وهو رأى الشافعى رحمه الله وفيه من البعد ما لا يخفى .

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ أى فرضا موقتا قال مجاهد وقته الله عليهم فلا بد من إقامتها في حالة الخوف أيضا على الوجه المشروح وقيل مفروضا مقدرا في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتين فلا بد أن تؤدى في كل وقت حسبما قدر فيه .

﴿ ولا تنهوا في ابتغاء القوم ﴾ أى لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب الكفار بالقتال والتعرض لهم بالحرب وقوله تعالى : ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ تعليل للنهى وتشجيع لهم أى ليس ما تقاسونه من الآلام مختصا بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم إنهم يصبرون على ذلك فالكم لا تصبرون مع أنكم أولى به منهم حيث ترجون من الله من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب في الآخرة ما لا يخطر ببالهم وقرئ إن تكونوا بفتح الهمزة أى تهنوا لأن تكونوا تألمون وقوله تعالى فإنهم تعليل للنهى عن الوهن لأجله والآية نزلت في بدر الصغرى ﴿ وكان الله عليا ﴾ مبالغا في العلم فيعلم أعمالكم وضماؤكم ﴿ حكما ﴾ فيما يأمر وينهى فجدوا في الامتثال بذلك فإن فيه عواقب حميدة .

وجوب الحكم بما أنزل الله

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ روى أن رجلا من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بنى ظفر سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان في جراب دقيق

لجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه نخبأها عند زيد بن السمين اليهودي فالتصت الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل فنزلت وروى أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله وقيل نزل على رجل من بني سليم من أهل مكة يقال له الحجاج بن علاط فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع الدخول ولا الخروج فأخذ ليقتل فقبل دعه فإنه قد لجأ إليك فتركه وأخرجوه من مكة فالتحق بتجار من قضاة نحو الشام فنزلوا منزلاً فسرق بعض متاعهم وهرب فأخذوه ورجعوه بالحجارة حتى قتلوه وقيل إنه ركب سفينة إلى جدة فسرق فيها كيساً فيه دنانير فأخذ وألقى في البحر .

﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ أى بما عرفك وأوحى به إليك
 ﴿ ولا تكن للخائنين ﴾ أى لأجلهم والذب عنهم وهم طعمة ومن يعينه من قومه أو هو ومن يسير بسيرته ﴿ خصيماً ﴾ مخاصماً للبراءة أى لا تخاصم اليهود لأجلهم والنهى معطوف على أمر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فاحكم به ولا تكن الخ ﴿ واستغفر الله ﴾ مما هممت به تعويلاً على شهادتهم :
 ﴿ إن الله كان عفورا رحيماً ﴾ مبالغا في المغفرة والرحمة لمن يستغفره ،
 ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ أى يخونونها بالمعصية كقوله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلمها لرجوع ضررها إليهم والمراد بالموصول إما طعمة وأمثاله وأما هو ومن عاوناه وشهد ببراءته من قومه فإنهم شركاء في الإثم والخيانة
 ﴿ إن الله لا يحب من كان خواناً ﴾ مفرطاً في الخيانة مصرأً عليها ﴿ أثيماً ﴾ منهمكاً فيه وتعليق عدم المحبة الذى هو كناية عن بغض والسخط بالمبالغ في الخيانة والإثم ليس لتخصيصه به بل لبيان إفراط طعمة وقومه فيهما ﴿ يستخنون

﴿ من الناس ﴾ يستترون منهم حياء وخوفا من ضررهم ﴿ ولا يستخفون من الله ﴾
أى لا يستحيون منه سبحانه وتعالى وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من
عقابه ﴿ وهو معهم ﴾ عالم بهم وبأحوالهم فلا طريق إلى الاستخفاء منه سوى
ترك ما يستقبحه ويؤاخذ به ﴿ إذ يبيتون ﴾ يدبرون ويوزرون ﴿ ما لا يرضى
من القول ﴾ من رمى البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور ﴿ وكان الله بما
يعملون ﴾ من الأعمال الظاهرة والخافية ﴿ محيطا ﴾ لا يعزب عنه شيء منها
ولا يفوت .

﴿ ها أنتم هؤلاء ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له لإليهم بطريق الالتفات
إذنا بأن تعديد جنائياتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع والجملة مبتدأ وخبر
وقوله تعالى ﴿ جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ﴾ جملة مبدئة لوقوع أولاء خبرا
ويجوز أن يكون أولاء اسما موصولا بمعنى الذين وجادلتم الخ صلة له والمجادلة
أشد المخاصمة والمعنى هبوا أنكم خاصمتهم عن طعمة وأمثاله في الدنيا ﴿ فمن
يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴾ فمن يخاصم عنهم يومئذ عند تعذيبهم وعقابهم
﴿ أم من يكون عليهم وكيلا ﴾ حافظا ومحاميا من بأس الله تعالى وانتقامه .

﴿ ومن يعمل سوءا ﴾ قبيحا ليسوء^(١) به غيره كإفعل طعمة بقتادة واليهودى
﴿ أو يظلم نفسه ﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب وقيل السوء ما دون الشرك
وقيل هما الصغيرة والكبيرة ﴿ ثم يستغفر الله ﴾ بالتوبة الصادقة ﴿ يجد الله
غفورا ﴾ لذنوبه كائنة ما كانت ﴿ رحيم ﴾ متفضلا عليه وفيه مزيد ترغيب
لطعمة وقومه في التوبة والاستغفار لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة
نعمة زائدة كإمر ﴿ ومن يكسب إثما ﴾ من الآثام ﴿ فإنما يكسبه على نفسه ﴾
حيث لا يتعدى ضرره ووباله إلى غيره فليخترز عن تعريضها للعقاب والعذاب
عاجلا وآجلا ﴿ وكان الله عليما ﴾ مبالغا في العلم ﴿ حكيم ﴾ مراعيًا للحكمة في

(١) في ط أم يسوء .

كل ما قدر وقضى ولذلك لا تحمل وازرة وزر أخرى ﴿ ومن يكسب خطيئة ﴾ صغيرة أو ما لا عمد فيه من الذنوب وقرىء ومن يكسب بكسر الكاف وتشديد السين وأصله يكتسب ﴿ أو إثمًا ﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد ﴿ ثم يرم به ﴾ أى يقذف به ويسنده [إليه] ^(١) وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لما كان أو وتذكيره لتغليب الإثم على الخطيئة كأنه قيل ثم يرم بأحدهما وقرىء يرم بهما وقيل الضمير للكسب المدلول عليه بقوله تعالى يكسب وثم للتراخي في الرتبة ﴿ بريئًا ﴾ أى بما رماه به ليحمله عقوبته العاجلة كما فعله طعمة يزيد .

﴿ فقد احتمل أى بما فعل من تحميل جريرته على البرىء ﴾ بهتانًا وهو الكذب على الغير بما يبهت منه ويتحير عند سماعه لفظاعته وهوله وقيل هو الكذب الذى يتحير فى عظمه ﴿ وإثما مبینا ﴾ أى بينا فاحشا وهو صفة لإثما وقد اكتفى فى بيان عظم البهتان بالتنكير التفضيلى كأنه قيل بهتاننا لا يقادر قدره وإثما مبینا على أن وصف الإثم بما ذكر بمنزلة وصف البهتان به لأنهما عبارة عن أمر واحد هو رمى البرىء بجناية نفسه قد عبر عنه بهما تهويلا لأمره وتفظيما لحاله فمدار العظم والفتخامة كون المرمى به للراى فإن رمى البرىء بجناية ما خطيئة كانت أو إثما بهتان وإثم فى نفسه أما كونه بهتانًا فظاهر وأما كونه إثما فلأن كون الذنب بالنسبة إلى من فعله خطيئة لا يلزم منه كونه بالنسبة إلى من نسبته إلى البرىء منه أيضا كذلك بل لا يجوز ذلك قطعا كيف لا وهو كذب محرم فى جميع الأديان ^(٢) فهو فى نفسه بهتان وإثم لا محالة ويكون تلك الجناية للراى يتضاعف ذلك شدة ويزداد قبحا لكن لا لانضمام جنايته .

(١) سقط من ط .

(٢) لا دين إلا الإسلام على الحقيقة وهو ما آمن به نوح فمن بعده صراحة وقد أكد المؤلف ذلك فيما سبق ولعل مراده هنا الشرائع الممهدة للشرعة محمد صلى الله عليه وسلم .

المكسوبة إلى رعى البرىء وإلا لكان الرمى بغير جنائية مثله في العظم ولا لمجرد اشتماله على تبرئة نفسه الخاطئة وإلا لكان الرمى بغير جنائية مع تبرئة نفسه كذلك في العظم بل لاشتماله على قصد تحميل جنائته على البرىء وإجراء عقوبتها عليه كما ينبىء عنه إيثار الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الإيذان بانعكاس تقديره مع ما فيه من الإشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر نعم بما ذكر من انضمام كسبه وتبرئة نفسه إلى رعى البرىء تزداد الجنائية قبحا لكن تلك الزيادة وصف للجموع لا للإثم.

﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته ﴾ بإعلامك ما هم عليه بالوحى وتبليهم على الحق وقيل بالنبوة والعصمة ﴿ لهم طائفة منهم ﴾ أى من بنى ظفر وهم الذابون عن طعمة وقد جوز أن يكون المراد بالطائفة كلهم ويكون الضمير راجعا إلى الناس وقيل هم وفد بنى ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا جئناك لنبايعك على أن لا تكسر أصنامنا ولا تعشرنا فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أن يضلوك ﴾ أى بأن يضلوك عن القضاء بالحق مع علمهم بكمنه الأمر والجملة جواب لولا وإنما نفى همهم مع أن المنفى إنما هو تأثيره فقط إيذانا بانتفاء تأثيره بالسلبية وقيل المراد هو الهم المؤثر ولا ريب في انتفائه حقيقة وقيل الجواب محذوف أى لأضلوك وقوله تعالى لهم جملة مستأنفة أى لقد هممت طائفة الخ ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ لاقتصار وبال مكرهم عليهم من غير أن يصيبك منه شيء والجملة اعتراض وقوله تعالى ﴿ وما يضرؤنك من شيء ﴾ عطف عليه ومحل الجار والمجرور النصب على المصدرية أى وما يضرؤنك شيئا من الضرر لما أنه تعالى عاصمك وأما ما خطر ببالك فكان عملا منك بظاهر الحال ثقة بأقوال القائلين من غير أن يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ أى القرآن الجامع بين العنوانين وقيل المراد بالحكمة السنة ﴿ وعليك ﴾ بالوحى من خفيات الأمور التى من جملتها وجوه لإبطال كيد المنافقين أو من أمور الدين وأحكام الشرع ﴿ ما لم تكن تعلم ﴾ ذلك إلى وقت التعليم .

﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة العامة والرياسة التامة ﴿ لاخير في كثير من نجواهم ﴾ أى في كثير من تناجى الناس ﴿ إلا من أمر ﴾ أى إلا في نجوى من أمر ﴿ بصدقة أو معروف ﴾ وقيل المراد بالنجوى المتناجون بطريق المجاز وقيل النجوى جمع نجى نقله السكرماني وأيا ما كان فالاستثناء متصل ويجوز الانقطاع أيضا على معنى لكن من أمر بصدقة الخ ففي نجواه الخير . والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل فينتظم أصناف الجميل وفنون أعمال البر وقد فسر ههنا بالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع على أن المراد بالصدقة الصدقة الواجبة ﴿ أو إصلاح بين الناس ﴾ عند وقوع المشاقة والعداء^(١) بينهم من غير أن يجاوز في ذلك حدود الشرع الشريف وبين إما متعلق بنفس إصلاح يقال أصلحت بين القوم أو بمحذوف هو صفة له أى كائن بين الناس عن أبي أيوب الأنصاري رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم فقال بلى يا رسول الله قال تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا قالوا ولعل السر في أفراد هذه الأقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدى إلى الناس إما لإيصال المنفعة أو لدفع المضرة والمنفعة إما جسمانية كإعطاء المال وإليه الإشارة بقوله تعالى (إلا من أمر بصدقة) وإما روحانية وإليه الإشارة بالأمر بالمعروف وأما دفع الضرر فقد أشير إليه بقوله تعالى (أو إصلاح بين الناس) .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ إشارة إلى الأمور المذكورة أعنى الصدقة والمعروف والإصلاح فإنه يشار به إلى متعدد وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بها للإيذان ببعد منزلتها ورفعة شأنها وترتيب الوعد على فعلها إثر بيان خيرية الأمر بها لما أن المقصود الأصلي هو الترغيب في الفعل وبيان خيرية الأمر به للدلالة

(١) في ط : وللعادة .

على خيريته بالطريق الأولى لما أن مدار حسن الأمر وقبحه حسن المأمور به وقبحه فحيث ثبت خيرية الأمر بالأمور المذكورة نفيرية فعلها أثبت وفيه تحريض للأمر بها على فعلها أو إشارة إلى الأمر بها كأنه قيل ومن يأمر بها والكلام في ترتيب الوعد على فعلها كالذي مر في الخيرية فإن استتباع الأمر بها للأجر العظيم إنما هو ليكونه ذريعة [وسبباً] ^(١) إلى فعلها فاستتباعه له أولى وأحق ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ علة للفعل والتقيد به لأن الأعمال بالنيات وأن من فعل خيراً لغير ذلك لم يستحق به غير الحرمان ﴿فسوف نؤتيه﴾ بنون العظمة على الالتفات وقرئ بالياء ﴿أجرأ عظيماً﴾ يقصر عنه الوصف ﴿ومن يشاقق الرسول﴾ التعريض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعة ما اجتروا عليه من المشاققة والمخالفة وتعليل الحكم الآتي بذلك ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات الدالة على ثبوته ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي غير ما هم مستمررون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم.

﴿قوله ما تولى﴾ أي نجعله والياً لما تولى من الضلال ونخذه بأن نخلى بينه وبين ما اختاره ﴿ونصليه جهنم﴾ أي ندخله إياها وقرئ بفتح النون من صلاة ﴿وساءت مصيراً﴾ أي جهنم وفيها دلالة على حجية الإجماع وحرمة مخالفته ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ قد مر تفسيره فيما سبق وهو تكرير للتأكيد والتشديد أو لقصة طعمة وقد مر موته كافراً. وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن شيخاً من العرب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني شيخ منهك في الذنوب إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه ولياً ولم أوقع المعاصي جراءة على الله تعالى وماتوهمت طرفه عين أني أعجز الله هرباً وإني لتادم تائب مستغفر فما ترى حالي عند الله تعالى فنزلت ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً

بعيداً ﴿ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة كما أنه افتراء وإثم عظيم ولذلك جعل الجزاء في هذه الشرطية فقد ضل الخ وفيما سبق فقد افترى إثمًا عظيمًا حسبما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه .

﴿ إن يدعون من دونه ﴾ أى ما يعبدون من دونه عز وجل ﴿ إلا إنا ﴾ يعنى اللات والعزى ومناة ونحوها . عن الحسن أنه لم يكن من أحياء العرب حتى إلا كان لهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بنى فلان قيل لأنهم كانوا يقولون فى أصنامهم هن بنات الله وقيل لأنهم كانوا يلبسونها أنواع الحلى ويزينونها على هيات النسوان وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله وقيل تسميتها إناثا لتأنيث أسمائها أو لأنها فى الأصل جماد والجادات تؤنث من حيث أنها ضاهت الإناث لانفعالها وإيرادها بهذا الاسم للتنبيه على قرط حماقة عبدها وتناهى جهلهم والإناث جمع أنثى كرباب وربى وقرىء على التوحيد وأثنا أيضا على أنه جمع أنيث كقليب وقلب أو جمع إناث كشمار وثمر وقرىء وثنا واثنا بالتخفيف والتثقيب جمع وثن كقولك أسد وأسد وآسد على الأصل وقلب الواو ألفا نحو أجوه فى جوه ﴿ وإن يدعون ﴾ وما يعبدون بعبادتها ﴿ إلا شيطانا مريدا ﴾ إذ هو الذى أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها فكانت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو الذى لا يتعلق^(١) بخير وأصل التركيب للباسه ومنه صرح بمرد وشجرة مرداء للتي تنثر ورقها .

﴿ لعنه الله ﴾ صفة ثانية لشيطانا ﴿ وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ﴾ عطف على الجملة المتقدمة أى شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله وهذا القول الشنيع الصادر عنه عند اللعن ولقد برهن على أن عبادة الأصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأن ما يعبدونها يفعل ولا يفعل فعلا إختياريا

وذلك ينافى الألوهية غاية المناقاة ثم استدل عليه بأن ذلك عبادة للشيطان وهو أفضح الضلال من وجوه ثلاثة الأول منهمك في الغى لا يكاد يعلق بشيء من الخير والهدى فتكون طاعة ضلالا بعيداً عن الحق والثاني أنه ملعون لضلاله فلا تستتبع مطاوعته سوى اللعن والضلال والثالث أنه في غاية السعى في إهلاكهم وإضلالهم فوالاة من هذا شأنه غاية الضلال فضلا عن عبادته والمفروض المقطوع أى نصيباً قدر لى وفرض من قولهم فرض له في العطاء ﴿ولا ضلنهم ولا منينهم﴾ الأمانى الباطلة كطول الحياة وألا بعث ولا عقاب ونحو ذلك ﴿ولا منهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ أى فليقطعنها بموجب أمرى ويشقنها من غير تعلم في ذلك ولا تأخير وذلك ما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب ﴿ولا منهم فليغيرن﴾ ممثلين به ﴿خلق الله﴾ عن نهجه صورة أو صفة وينتظم فيه ما قيل من فقه عين الحامى وخصاء العبيد والوشم والوشى ونحو ذلك وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقا لكن الفقهاء رخصوا في البهائم لمكان الحاجة وهذه الجمل المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالا أو حالا وما فيها من اللامات كلها للقسم والمأمور به في الموضوعين محذوف ثقة بدلالة النظم عليه ﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله﴾ يأيثار ما يدعو إليه على ما أمر الله تعالى به ومجاوزته عن طاعة الله تعالى إلى طاعته ﴿فقد خسر خسرا مبينا﴾ لأنه ضيع رأس ماله بالسكينة واستبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار ﴿يعدم﴾ أى ما لا يكاد ينجزه ﴿ويعنيهم﴾ أى الأمانى الفارغة أو يفعل لهم الوعد والتمنية على طريقة فلان يعطى ويمتنع والضميران لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد في يتخذ وخسر باعتبار لفظها .

﴿وما يعدم الشيطان إلا غرورا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد إما بإلقاء الخواطر الفاسدة أو بالسنة أوليائه وغرورا إما مفعول ثان للوعد أو مفعول لأجله أو نعت لمصدر محذوف أى وعدا ذا غرور أو مصدر على غير لفظ المصدر لأن يعدم في قوة يغرم بوعده والجملة اعتراض وعدم التعرض للتمنية لأنها باب من الوعد ﴿أولئك﴾ إشارة إلى أولياء

الشیطان وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم في الخسران وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿مأواهم﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿جهنم﴾ خبر للثاني والجملة من الثاني [وخبره] ^(١) خبر للأول ﴿ولا يجدون عنها محيصا﴾ أى معدلا ومهربا من حاص الحمار إذا عدل وقيل خلص ونجا وقيل الحيص هو الروغان بنفور عنها متعلق بمحذوف وقع حالا من محيصا أى كائنا عنها ولا مساغ لتعلقه بمحيصا أما إذا كان اسم مكان فظاهر وأما إذا كان مصدرا فلأنه لا يعمل فيما قبله .

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿سندخلهم﴾ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ﴿قرن وعيد الكفرة بوعيد المؤمنين زيادة لمسة هؤلاء ومساءة أولئك﴾ وعد الله حقا ﴿أى وعده وعدا وحق ذلك حقا فالأول مؤكد لنفسه لأن مضمون الجملة الاسمية وعد والثاني مؤكد لغيره ويجوز أن ينتصب الموصول بمضمر يفسره ما بعده وينتصب وعد الله بقوله تعالى سندخلهم لأنه فى معنى نعدم إدخال جنات الخ وحقا على أنه حال من المصدر ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ جملة مؤكدة بليغة والمقصود من الآية معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه والمبالغة فى تأكيد ترغيبا للعباد فى تحصيله والقييل مصدر كالقول والقال وقال ابن السكيت القيل والقال اسمان لا مصدران ونصبه على التمييز وقرئ بإشمام الصاد وكذا كل صاد ساكنة بعدها دال .

الأعمال والثواب

﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾ أى ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيتكم أيها المسلمون ولا بأمانى أهل الكتاب وإنما يحصل .

(١) سقطت من ط .

بالإيمان والعمل الصالح ولعل نظم أمانى أهل الكتاب فى سلك أمانى المسلمين مع ظهور حالها للإيدان بعدم إجداء أمانى المسلمين أصلاً كما فى قوله تعالى (ولا الذين يموتون وهم كفار) كما سلف وعن الحسن ليس الإيمان بالتقنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل إن قوما ألهمهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل وقيل إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابتنا قبل كتابكم فمحن أولى بالله تعالى منكم فقال المسلمون نحن أولى منكم نبينا غاتم النبيين وكتابتنا يقضى على الكتب المتقدمة فنزلت وقيل الخطاب للمشركين ويؤيده تقدم ذكرهم أى ليس الأمر بأمانى المشركين وهو قولهم لا الجنة ولا نار وقولهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالاً وقولهم لا وتين مالا وولداً ولا أمانى أهل الكتاب وهو قولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) وقولهم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) ثم قرر ذلك بقوله تعالى .

((من يعمل سوءاً يجز به)) عاجلاً أو آجلاً لما روى أنه لما نزلت قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه فمن ينجو مع هذا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما تحزن أو تمرض أو يصيبك البلاء قال بلى يا رسول الله قال هو ذاك ((ولا يجد له من دون الله)) أى مجاوزاً لموالاته الله ونصرته ((وليا)) يواليه ((ولا نصيراً)) ينصره فى دفع العذاب فيه .

((ومن يعمل من الصالحات)) أى بعضها أو شيئاً منها فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها ((من ذكر أو أنثى)) فى موضع الحال من المستكن فى يعمل ومن للبيان أو من الصالحات فمن للابتداء أى كائناً من ذكر الخ ((وهو مؤمن)) حال شرط اقتران العمل بها فى استدعاء الثواب المذكور تنبيهاً على أنه لا اعتداد به دونه ((فأولئك)) إشارة إلى من بعثوا ان تصافه بالإيمان والعمل الصالح والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد فيما سبق باعتبار لفظها وما فيه

من معنى البعد لما مر غير مرة من الإشعار بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته في الشرف ﴿يدخلون الجنة﴾ وقرىء يدخلون مبنيًا للفعول من الإدخال ﴿ولا يظلمون نقيرا﴾ أى لا ينقصون شيئًا حقيرًا من ثواب أعمالهم فإن النقيير علم في القلة والحقارة وإذا لم ينقص ثواب المطيع فلأن لا يزداد عقاب العاصي أولى وأحرى كيف لا والمجازى [هر] ^(١) أرحم الراحمين وهو السر في الاختصار على ذكره عقيب الثواب ﴿ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله﴾ أى أخلص نفسه له تعالى لا يعرف له ربا سواه وقيل بذل وجهه له في السجود وقيل أخلص عمله له عز وجل وقيل فوض أمره إليه تعالى وهذا إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أحسن دينًا من فعل ذلك أو مساويا له وإن لم يكن سيك التركيب مضمرا لإلنكار المساواة ونفيها يرشدك إليه العرف المطرد والاستعمال الفاشى فإنه إذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وعليه مساق قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى) ونظائره وديننا نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن دينه أحسن من دين من أسلم الخ فالتفضيل في الحقيقة جار بين الدينين لا بين صاحبيهما فقيهه تنبيه على أن ذلك أقصى ما انتهى إليه القوة البشرية ﴿وهو محسن﴾ أى آت بالحسنات تارك للسيئات أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسر عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك والجملة حال من فاعل أسلم ﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها وقبولها ﴿حنيفا﴾ مائلا عن الأديان الزائغة وهو حال من فاعل اتبع أو [حال ^(٢)] من إبراهيم .

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ اصطفاه وخصه بكرامات تشبه كرامات

(١) سقطت من ط .

(٢) سقطت من ط .

الخليل عند خليله وإظهاره عليه الصلاة والسلام في موقع الإضمار لتفخيم شأنه والتنصيص على أنه الممدوح وتأكيده استقلال الجملة الاعتراضية والخلة من الخلال فإنه ود تخلل النفس وخالطها وقيل من الخلل فإن كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر أو من الخل وهو الطريق في الرمل فإنهما يتوافقان في الطريقة أو من الخلة بمعنى الخصلة فإنهما يتوافقان في الخصال وفائدة الاعتراض جملة من جعلتها الترغيب في اتباع ملته عليه السلام فإن من بلغ من الزلفى عند الله تعالى مبلغا مصححا لتسميته خليلًا تحقيق بأن يكون اتباع طريقته أهم ما يمتد إليه أعناق الهمم وأشرف ما يرمى نحوه أحداق الأمم قيل إنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتار منه فقال خليله لو كان إبراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت ولكنني أريد لها للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة فرجع غلماناه عليه الصلاة والسلام فاجتازوا ببطحاء لينة فملأوا منها الغرائر حياء من الناس وجاءوا بها إلى منزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وألقوها فيه وتفرقوا وجاء أحدهم فأخبر إبراهيم بالقصة فاغتم لذلك غما شديدا لا سيما لاجتماع الناس ببابه رجاء الطعام فغلبته عيناه وعمدت سارة إلى الغرائر فإذا فيها أجود ما يكون من الحواري فاخترت وفي رواية فأطعمت الناس وانتبه إبراهيم عليه الصلاة والسلام فاشتم رائحة الخبز فقال من أين لكم قالت سارة من خليلك المصري فقال بل من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله تعالى خليلًا!

طاعة الله على أهل السماء والأرض

(وَلله ما في السموات والأرض) جملة مبتدأة سيقى لتقرير وجوب طاعة الله تعالى على أهل السموات والأرض ببيان أن جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا لا يخرج عن ملكوته شيء منها فيجازى كلا بموجب أعماله خيرا أو شرا وقيل لبيان أن اتخاذ عز وجل لإبراهيم عليه السلام خليلًا ليس لاحتياجه سبحانه إلى ذلك في شأن من شأنه كما هو دأب الأديمين:

فإن مدار خلتهم افتقار بعضهم إلى بعض في مصالحهم بل لمجرد تكريمته وتشريفه عليه السلام وقيل لبيان أن الخلعة لا تخرجه عن رتبة العبودية وقيل لبيان أن اصطفاؤه عليه السلام للخلعة بمحض مشيئته تعالى أي له تعالى ما فيهما جميعا يختار منهما ما يشاء لمن يشاء وقوله عز وجل ﴿وكان الله بكل شيء محيطا﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله على الوجوه المذكورة فإن إحاطته تعالى علما وقدره بجميع الأشياء التي من جملتها ما فيهما من المكلفين وأعمالهم مما يقرر ذلك أكمل تقرير

أحكام في معاشره النساء

﴿ويستفتونك في النساء﴾ أي في حقهن على الإطلاق كما ينبى عنه الأحكام الآتية لا في حق ميراثهن خاصة فإنه صلى الله عليه وسلم قد سئل عن أحوال كثيرة مما يتعلق بهن فما بين حكمه فيما سلف أحيل بيانه على ما ورد في ذلك من الكتاب وما لم يبين حكمه بعد بين ههنا وذلك قوله تعالى ﴿قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ بإسناد الإفتاء الذي هو بيان^(١) المبهم وتوضيح المشكل إليه تعالى وإلى ما تلى من الكتاب فيما سبق باعتبارين على طريقة قولك أغنانى زيد وعطاؤه بعطف ما على المبتدأ أو ضميره في الخبر لما كان الفصل بالمفعول والجار والمجرور وإيثار صيغة المضارع للإيذان باستمرار التلاوة ودوامها وفي الكتاب إما متعلق ببتلى أو بمحذوف وقع حالا من المستكن فيه أى يتلى كأننا فيه ويجوز أن يكون ما يتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبره على أن المراد به اللوح المحفوظ والجملة معترضة مسوقة لبيان عظم شأن المتلو عليهم وأن العدل في الحقوق المبينة فيه من عظام الأمور التي تجب مراعاتها والحفاظه عليها فيما يتلى حينئذ متناول لما تلى وما سيتلى ويجوز أن يكون مجرورا على القسم المنبى عن تعظيم المقسم به وتفخيمه كأنه قيل قل الله يفتيكم فيهن وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب فالمراد بقوله تعالى يفتيكم بيانه السابق

واللاحق ولا مساغ لعطفه على المجرور من فيهن لاختلاله لفظاً ومعنى وقوله تعالى : ﴿ في يتامى النساء ﴾ على الوجه الأول وهو الأظهر متعلق بـ يتلى أى ما يتلى عليكم فى شأنهن وعلى الآخرين بدل من فيهن وهذه الإضافة بمعنى من لأنها إضافة الشيء إلى جنسه وقرئ ييتامى بقلب ^(١) همزة أيامى ياء .

﴿ اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ أى ما فرض لهن من الميراث وغيره .
 ﴿ وترغبون ﴾ عطف على الصلة عطف جملة مثبتة على جملة منفية وقيل حال من فاعل تؤتونهن بتأويل وأتم ترغبون ولأريب فى أنه لا يظهر لتقييد عدم الإيتاء بذلك فائدة إلا إذا أريد بما كتب لهن صداقهن ﴿ أن تنكحوهن ﴾ أى فى أن تنكحوهن لا لأجل التمتع بهن بل لأكل مالهن أوفى أن تنكحوهن بغير إكمال الصداق وذلك ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها من أنها اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن ينقسطوا لهن فى إكمال الصداق أو عن أن تنكحوهن وذلك ما روى عنها رضى الله تعالى عنها أنها يتيمة يرغب فيها عن نكاحها ولا ينكحها فيعضلها طمعا فى ميراثها وفى رواية عنها رضى الله تعالى عنها هو الرجل يكون عنده يتيمة هو وليها ووارثها وشريكها فى المال حتى فى العلق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فالمراد بما كتب لهن على الوجه الأول والآخر ميراثهن وبما يتلى فى حقهن قوله تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم) وقوله تعالى (ولا تأكلوها) ونحوهما من النصوص الدالة على عدم التعرض لأموالهم وعلى الوجه الثانى صداقهن وبما يتلى فيهن قوله تعالى (وإن خفتم أن لا تنقسطوا فى اليتامى) الآية .

﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ عطف على يتامى النساء وما يتلى فى حقهم وقوله تعالى (يوصيكم الله) الخ وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثونهم كما لا يورثون

(١) فى ط : على قلب .

النساء وإنما يورثون الرجال القوامين^(١) بالأمور . روى أن عيفة ابن حصن الفرارى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنا بأنك تعطى الابنة النصف والأخت النصف وإنما كننا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال عليه الصلاة والسلام كذلك أمرت ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ بالجر عطف على ما قبله وما يتلى في حقهم قوله تعالى (ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) ونحو ذلك مما لا يكاد يحصر هذا على تقدير كون في يتامى النساء متعلقا بـ يتلى وأما على تقدير كونه بدلا من فيهن فالوجه نصبه عطفا على موضع فيهن أى يفتيكم أن تقوموا ويجوز نصبه بإضمار فعل أى ويأمركم وهو خطاب للولادة أو للأولياء والأوصياء ﴿ وما تقبلوا ﴾ في حقوق المذكورين ﴿ من خير ﴾ حسبما أمرتم به أو ما تفعلوه من خير على الإطلاق فيندرج فيه ما يتعلق بهم اندراجا أوليا .

﴿ فإن الله كان به عليما ﴾ فيجازيكم بحسبه ﴿ وأن امرأة خافت ﴾ شروع في بيان ما لم يبين فيما سلف من الأحكام أى إن وقعت امرأة ﴿ من بعها نشوزا ﴾ أى تجافيا عنها وترفعان صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها ﴿ أو أعرضا ﴾ بأن يقل محادثتها وموانستها لما يقتضى ذلك من الدواعى والأسباب ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ حيثئذ ﴿ أن يصلحا بينهما صلحا ﴾ أى فى أن يصلحا بينهما بأن تحط عنه^(٢) المهر أو بعضه أو القسم كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبت يومها لعائشة رضى الله عنها أو بأن تهب له شيئا تستمليه وقرى يصلحا من يتصالحا ويصلحا من يصطلحا ويصلحا من المفاعلة وصلحا إما منصوب بالفعل المذكور على كل تقدير على أنه مصدر منه بحذف الزوائد وقد يدبر عنه باسم المصدر كأنه قيل إصلاحا أو تصالحا أو

(١) فى ط : القوام .

(٢) فى ط : له .

لمصطلحا حسبما قرىء الفعل أو بفعل مترتب على المذكور أى فيصلح حالهما صلحا ويينهما ظرف للفعل أو حال من صلحا والتعرض لنفى الجناح عنهما مع أنه ليس من جانبها الأخذ الذى هو المظنة للجناح لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطى والأخذ .

﴿ والصلح خير ﴾ أى من الفرقة أو من سوء العشرة أو من الخصومة فاللام للعهد أو هو خير من الخيور فاللام للجنس والجملة اعتراض مقرر لما قبله وكذا قوله تعالى ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ أى جعلت حاضرة له مطبوعة عليه لا تنفك عنه أبدا فلا المرأة تسمح بحقوقها من الرجل ولا الرجل يجرؤ بحسن المعاشرة مع دمايتها فإن فيه تحقيقاً للصلح وتقريراً له بحث كل منهما عليه لكن لا بالنظر إلى حال نفسه فإن ذلك يستدعى التماضى فى المماكسة والشقاق بل بالنظر إلى حال صاحبه فإن شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجمالية بغير استمالة بما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها إليه لاستمالاته وكذا شح نفسها بحقوقها بما يحمل الرجل على أن يقتنع من قبلها بشيء يسير ولا يكلفها بذل الكثير فيتحقق بذلك الصلح ﴿ وإن تحسنوا ﴾ فى العشرة ﴿ وتقوا ﴾ النشوز والإعراض مع تعاضد^(١) الأسباب الداعية إليهما وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة ولم تضطروهن إلى بذل شيء من حقوقهن ﴿ فإن الله كان بما تعملون ﴾ أى من الإحسان والتقوى أو بما تعملون جميعا فيدخل ذلك فيه دخولا أولياً ﴿ خبيراً ﴾ فيجازيكم ويثيبكم على ذلك البتة لاستحالة أن يضيع أجر المحسنين وفى خطاب الأزواج بطريق الالتفات والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ولفظ التقوى المنبئ عن كون النشوز والإعراض مما يتوقى منه وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة والترغيب فى حسن المعاملة مالا يخفى . روى أنها نزلت فى عمرة بنت محمد بن مسلمة وزوجها سعد بن الربيع

(١) فى ط : وإن تعاضدت .

تزوجها وهي شابة فلما علاها الكبر تزوج شابة وآثرها عليها وجفاها ؛
فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشككت إليه ذلك ، وقيل : نزلت
في أبي السائب ، كانت له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها
ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقني ودعني على أولادي فأقسم لي من كل شهرين
إن شئت فلا تقسم لي فقال إن كان يصلح ذلك فهو أحب إلي فأتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت .

﴿ ولئن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ﴾ أي محال أن تقدروا على أن
تعدلوا بينهن بحيث لا يقع ميل ما إلى جانب إحداهن في شأن من الشؤون البتة
وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول اللهم
هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذي فيما تملك ولا أملك وفي رواية وأنت أعلم
بما لا أملك يعني فرط محبته لعائشة رضي الله عنها ﴿ ولو حرصتم ﴾ أي على
إقامة العدل وبالغتم في ذلك .

﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أي فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور
واعدلوا ما استطعتم فإن عجزكم عن حقيقة العدل إنما يصحح عدم تكليفكم
بها لا بما دونها من المراتب الداخلة تحت استطاعتكم ﴿ فتذروها ﴾ أي التي تلمتم
عنها ﴿ كالمعلقة ﴾ التي ليست ذات بعل أو مطلقة وقرىء كالمسجونة وفي الحديث
من كانت له امرأتان يميل مع إحداها جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل
﴿ وإن تصلحوا ﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿ وتلقوا ﴾ الميل فيما يستقبل
﴿ فإن الله كان غفورا ﴾ يغفر لكم ما فرجا منكم من الميل ﴿ رحيم ﴾ يتفضل
عليكم برحمته ﴿ وإن يتفرقا ﴾ وقرىء يتفارقا أي وإن يفارق كل منهما
صاحبه بأن لم يتفق بينهما وفاق بوجه ما من الصلح وغيره ﴿ يغن الله كلا ﴾
منهما أي يجعله مستغنيا عن الآخر ويكفهم مهماته ﴿ من سعته ﴾ من غناه
وقدرته وفيه زجر لهما عن المفارقة رغما لصاحبه ﴿ وكان الله واسعا حكيما ﴾
مقتدرا متقنا في أفعاله وأحكامه وقوله تعالى ﴿ والله ما في السموات وما في

الأرض ﴿ أى من الموجودات كائنا ما كان من الخلاق وأرزاقهم وغير ذلك جملة مستأنفة منبهة على كمال سعته وعظم قدرته ﴾ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴿ أى أمرناهم في كتبهم وهم اليهود والنصارى ومن قبلهم من الأمم واللام في الكتاب للجنس ومن متعلقة بوصينا أو بأوتوا .

﴿ وإياكم ﴾ عطف على الموصول ﴿ أن اتقوا الله ﴾ أى وصينا كلا منكم ومنهم بأن اتقوا الله على أن أن مصدرية حذف منها^(١) الجار ويجوز أن تكون مفسرة لأن التوصية في معنى القول فقوله تعالى ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ حينئذ من تنمة القول المحكى أى ولقد قلنا لهم ولكم اتقوا الله وإن تكفروا إلى آخر الآية وعلى تقدير كون أن مصدرية مبنى الكلام وإرادة القول أى أمرناهم وإياكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم إن تكفروا الآية وقيل هى جملة مستأنفة خوطب بها هذه الأمة وأياها كان فالترتب على كفرهم ليس مضمون قوله تعالى فإن لله الآية بل هو الأمر بعلبه كأنه قيل وإن تكفروا فاعلموا أن لله ما فى السموات وما فى الأرض من الخلاق قاطبة مفتقرون إليه فى الوجود وسائر النعم المتفرعة عليه لا يستغنون عن فيضه طريقة عين فحقه أن يطاع ولا يعصى ويتقى عقابه ويرجى ثوابه وقد قرر ذلك بقوله تعالى ﴿ وكان الله غنيا ﴾ أى عن الخلق وعبادتهم ﴿ حميدا ﴾ محمودا فى ذاته حمدوه أو لم يحمدوه فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم وإنما وصاهم بالتقوى لرحمته لا لحاجته ﴿ والله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ كلام مبتدأ مسوق للمخاطبين توطئة لما بعده من الشرطية غير داخل تحت القول المحكى أى له سبحانه ما فيهما من الخلاق خلقا وملكا يتصرف فيهم كيفما يشاء إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة .

﴿ وكفى بالله وكبيلا ﴾ فى تدبير أمور السكل وكل الأمور فلا بد من أن

(١) فى ط : عنها .

يتوكل عليه لاعلى أحد سواه ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ﴾ أى يفتنكم ويستأصلكم بالمرة ﴿ ويأت بأخرين ﴾ أى ويوجد دفعة مكانكم قوما آخرين من البشر أو خلقا آخرين مكان الإنس ومنعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أى إن يشأ أفناكم وإيجاد آخرين يذهبكم الخ يعنى أن إبقاءكم على ما أتم عليه من العصيان إنما هو لسكال غناه عن طاعتكم ولعدم تعلق مشيئته المبنية على الحكم البالغة بإفنائكم لالعجزه سبحانه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ وكان الله على ذلك ﴾ أى على إفنائكم بالمرة وإيجاد آخرين دفعة مكانكم ﴿ قديرا ﴾ بليغ القدرة وفيه لاسيما فى توسط^(١) الخطاب بين الجزاء وما عطف عليه من تشديد التهديد ما لا يخفى وقيل هو خطاب بان عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب لى أن يشأ يمتكم ويأت بأزاس آخرين يوالونه فمعناه هو معنى قوله تعالى (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على ظهر سلمان وقال لهم قوم هذا يريد أبناء فارس ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا ﴾ كالمجاهد يريد بمجاهده الغنيمة ﴿ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ أى فعنده تعالى ثوابهما له إن أراد فماله يطلب أحسهما فليطلبهما كمن يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة أو ليطلب أشرفهما فإن من جاهد خالصا لوجه الله تعالى لم تخطئه الغنيمة وله فى الآخرة ما هى فى جنبه كلا شىء أى فعند الله ثواب الدارين فيعطى كلا ما يريد كقوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) الآية ﴿ وكان الله سميعا بصيرا ﴾ عالما بجميع المسموعات والمبصرات فيندج فيها ما صدر عنهم من الأقوال والأعمال المتعلقة بمراداتهم اندرجا أوليا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ مبالغين فى العدل وإقامة القسط فى جميع الأمور مجتهدين فى ذلك حق الاجتهاد ﴿ شهداء لله ﴾ بالحق

تقيمون شهادتكم لوجه الله تعالى وهو خبر ثان وقيل حال ﴿ولو على أنفسكم﴾ أى ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقرروا عليها على أن الشهادة عبارة عن الإخبار بحق الغير سواء كان ذلك عليه أو على ثالث بأن تكون الشهادة مستتبعة لضرر ينالكم من جهة المشهود عليه ﴿أو الوالدين والأقربين﴾ أى ولو كانت على والديكم وأقاربكم ﴿إن يكن﴾ أى المشهود عليه ﴿غنيا﴾ يبتغى في العادة رضا ويتقى سخطه ﴿أو فقيراً﴾ يترحم عليه غالباً وقرىء إن يكن غنى أو فقير على أن كان تامة وجواب الشرط محذوف لدلالة قوله تعالى :

﴿فإن الله أولى بهما﴾ عليه أى فلا يمتنعوا عنها طلباً لرضا الغنى أو ترحمهما على الفقير فإن الله تعالى أولى بجنسى الغنى والفقير المدلول عليهما بما ذكر ولو أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها وقرىء أولى بهما ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أى مخافة أن تعدلوا عن الحق فإن اتباع الهوى من مظان الجور الذى حقه أن يخاف ويحذر وقيل كراهة أن تعدلوا بين الناس أو إرادة أن تعدلوا بين الناس أو إرادة أن تعدلوا عن الحق ﴿وإن تلوا﴾ أى ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل بأن تأتوا بها لاعلى وجهها وقرىء وإن تلوا من الولاية والتصدى أى وإن وليتم إقامة الشهادة ﴿أو تعرضوا﴾ أى عن إقامتها رأساً ﴿فإن الله كان بما تعملون﴾ من لى الألسنة والإعراض بالكلية أو من جميع الأعمال التى من جملتها ما ذكر ﴿خبيراً﴾ فيجازيكم لاحالة على ذلك فهو على القراءة المشهورة وعيد محض وعلى القراءة الأخيرة متضمن للوعيد .

خطاب للمسلمين جميعاً

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب لكافة المسلمين فعنى قوله تعالى ﴿آمنوا﴾ بالله ورسوله والكتاب الذى أنزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴿اثبتوا على الإيمان بذلك ودوموا عليه وازدادوا فيه طمأنينة ويقينا أو آمنوا بما ذكر متصلاً بناء على أن إيمان بعضهم إجمالى والمراد بالكتاب الثانى الجنس

المنتظم لجميع الكتب السماوية لقوله تعالى (وكتبه) وبالإيمان به الإيمان بأن كل كتاب من تلك الكتب منزل منه تعالى على رسول معين لإرشاد أمته إلى ما شرع لهم من الدين بالأوامر والنواهي لكن لا على أن مدار الإيمان بكل واحد من تلك الكتب خصوصية ذلك الكتاب ولا على أن أحكام تلك الكتب وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقي منها معتبر بالإضافة إليها بل على أن الإيمان بالكل مندرج تحت الإيمان بالكتاب المنزل على رسوله وأن أحكام كل منها كانت حقة ثابتة إلى ورود ما نسخها وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب الجليل المصون عن النسخ والتبديل كما مر في تفسير خاتمة سورة البقرة وقرىء نزل وأنزل على البناء للمفعول وقيل هو خطاب لمؤمني أهل الكتاب لما أن عبد الله ابن سلام وابن أخيه سلامة وابن أخيه سلمة وأسدا وأسيدا ابني كعب وثعلبة ابن قيس ويامين بن يامين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فقال عليه السلام بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله فقالوا لا نفعل فنزلت فأمنوا كلهم فأمرهم بالإيمان بالكتاب المتناول للتوراة مع أنهم مؤمنون بها من قبل ليس لكون المراد بالإيمان ما يعم لإنشاء والثبات عليه ولا لأن متعلق الأمر حقيقة هو الإيمان بما عداها كأنه قيل آمنوا بالكل ولا تخصوه بالبعض بل لأن المأمور به إنما هو الإيمان بها في ضمن الإيمان بالقرآن على الوجه الذي أشار إليه آنفا لا إيمانهم السابق ولأن فيه حملا لهم على التسوية بينها وبين سائر الكتب في التصديق لاشتراك الكل فيما يوجبه وهو النزول من عند الله تعالى وقيل خطاب لأهل الكتابين فالمعنى آمنوا بالكل لا ببعض دون بعض وأمر كل طائفة بالإيمان بكتابه في ضمن الأمر بالإيمان بحسن الكتاب لما ذكر وقيل هو للمنافقين فالمعنى آمنوا بقلوبكم لا بألسنتكم فقط (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أى بشيء من ذلك .

﴿ فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه .
 وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما أنه ^(١) بالكفر بأحدهما
 لا يتحقق الإيمان أصلا وجمع الكتب والرسول لما أن الكفر بكتاب أو برسول
 كفر بالكل وتقديم الرسول فيما سبق لذكر الكتاب بعنوان كونه منزلا عليه
 وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لأنهم وسائط بين الله عز وجل وبين
 الرسل في إنزال الكتب .

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ قال قتادة هم اليهود آمنوا بموسى ﴿ ثم كفروا ﴾
 بعبادتهم العجل ﴿ ثم آمنوا ﴾ عند عوده إليهم ﴿ ثم كفروا ﴾ بعيسى والإنجيل
 ﴿ ثم ازدادوا كفرا ﴾ بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم قوم تكرر
 منهم الارتداد وأصروا على الكفر وازدادوا تماديا في الغي ﴿ لم يكن الله ليغفر
 لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ لما أنه يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على
 الإيمان فإن قلوبهم قد ضربت بالكفر وتمرت على الردة وكان الإيمان عندهم
 أهون شيء وأدونه لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم وخبر
 كان محذوف أى مريدا ليغفر لهم وقوله عز وجل ﴿ بشر المنافقين بأن لهم
 عذابا أليما ﴾ يدل على أن المراد بالمذكورين الذين آمنوا في الظاهر نفاقا
 وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا كفرا ونفاقا ووضع التبشير ^(٢)
 موضع الإنذار ^(٣) تهكما بهم ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء ﴾ في محل نصب
 أو الرفع على الذم بمعنى أريد بهم الذين أو هم الذين وقيل نصب على أنه صفة
 للمنافقين وقوله تعالى ﴿ من دون المؤمنين ﴾ حال من فاعل يتخذون أى يتخذون
 الكفرة أنصارا متجاوزين ولاية المؤمنين وكانوا يوالونهم ويقول بعضهم
 لبعض لا يتم أمر محمد عليه الصلاة والسلام فتولوا اليهود ﴿ أيبغون عندهم العزة ﴾
 إنكار لرأيهم وإبطال له وبيان لخفية رجائهم وقطع لأطماعهم الفارغة والجملة

(٢) في ط : يشر .

(١) في ط : لما أن .

(٣) في ط : أنذر .

معتزلة مقرر لما قبلها أى يطلبون بموالاتة الكفرة والقوة والغلبة ؟ قال الواحدى أصل العزة الشدة ومنه قيل للأرض الشديدة الصلبة عزاز وقوله تعالى .

﴿ فإن العزة لله جميعاً ﴾ تعليل لما يفيد الاستفهام الإنكارى من بطلان رأيهم وخيبة رجائهم فإن انحصار جميع أفراد العزة فى جنابه عز وعلا بحيث لا ينالها إلا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة قال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) يقضى ببطلان التعزز بغيره سبحانه وتعالى واستحالة الانتفاع به وقيل هو جواب شرط محذوف كأنه قيل إن يبتغوا عندهم العزة فإن العزة لله وجميعاً حال من المستمكن فى قوله تعالى لله لاعتقاده على المبتدأ ﴿ وقد نزل عليكم ﴾ خطاب للمنافقين بطريق الالتفات مفيد لتشديد التوبيخ الذى يستدعيه تعداد جنائياتهم وقرىء مبنياً للمفعول من التنزيل والإزال ونزل أيضاً مخففا والجملة حال من ضمير يتخذون أيضاً مفيدة لكمال قباحة حالهم ونهاية استعصامهم عليه سبحانه ببيان أنهم فعلوا ما فعلوا من موالاتة الكفرة مع تحقق ما يمنعهم من ذلك وهو ورود النهى الصريح عن مجالستهم المستلزم للنهى عن موالاتهم على أبلغ وجه وآ كده إثر بيان انتفاء ما يدعوهم إليه بالجملة المعتزلة كأنه قيل تتخذونهم أولياء والحال أنه تعالى قد نزل عليكم قبل هذا بمكة ﴿ فى الكتاب ﴾ أى القرآن الكريم ﴿ أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهنأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ وذلك قوله تعالى (ولإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم) الآية وهذا يقتضى الانزجار عن مجالستهم فى تلك الحالة القبيحة فكيف بموالاتهم والاعتزاز بهم وأن هى الخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف والجملة الشرطية خبرها وقوله تعالى يكفر بها حال من آيات الله وقوله تعالى ويستهنأ بها عطف عليه داخل فى حكم الحالية وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتشريفها وإبانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها أى نزل عليكم فى الكتاب أنه إذا سمعتم آيات الله مكفوراً بها ومستهنأ بها وفيه دلالة على أن المنزل على النبي عليه السلام وإن خوطب به خاصة منزل على الأمة وأن مدار الإعراض عنهم هو العلم بخوضهم فى الآيات

ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية وأخرى بالسمع وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله تعالى يكفر بها ويستهنأ بها .

﴿إنكم إذن مثلهم﴾ جملة مستأنفة سيقنت لتعليل النهى غير داخلية تحت التنزيل وإذن ملغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدأ والخبر أى لا تقعدوا معهم في ذلك الوقت إنكم إن فعلتموه كنتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب وإفراد المثل لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع وقرىء شاذاً مثلهم بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كما في قوله تعالى (مثل ما أنكم تنطقون) وقيل هو منصوب على الظرفية أى في مثل حالهم وقوله تعالى ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ تعليل لسكونهم مثلهم في الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم في العذاب والمراد بالمنافقين إما المخاطبون وقد وضع موضع ضميرهم الظاهر^(١) تسجيلاً بنفاقهم وتعليلاً للحكم بأخذ الاشتقاق وإما الجنس وهم داخلون تحتة دخولا أولياً وتقديم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين ونصب جميعاً مثل ما قبله ﴿الذين يتربصون بكم﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين بتعدد بعض آخر من جنائيات المنافقين وقبائحهم وهو إبادل من الذين يتخذون أوصفة للمنافقين فقط إذ هم المتربصون دون الكافرين أو مرفوع أو منصوب على الذم أى ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من ظفر أو إخفاق والفاء في قوله تعالى :

﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ لترتيب مضمونه على ما قبلها فإن حكاية تربصهم مستتبعة لحكاية ما يقع بعد ذلك كما أن نفس التربص يستدعى شيئاً ينتظر المتربص وقوعه .

﴿قالوا﴾ أى لكم ﴿ألم نكن معكم﴾ أى مظاهرين لكم فأسهموا لنا في الغنيمة ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ من الحرب فإنها سجال ﴿قالوا﴾

(١) في ط : المظهر .

أى للكفرة ﴿ أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ أى أَلَمْ نَغْلِبْكُمْ وَنَتَمَكَّنْ مِنْ قَتْلِكُمْ وَأَسْرَكُمْ فَأَبْقَيْنَا عَلَيْكُمْ ﴿ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بِأَنْ نَبْطِنَاهُمْ عَنْكُمْ وَخَيْلْنَا لَهُمْ مَا ضَعُفَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ وَمَرْضَوْا فِي قِتَالِكُمْ وَتَوَانَيْنَا فِي مَظَاهِرْتَهُمْ وَإِلَّا لَكُنْتُمْ نَهْبَةً لِلنَّوَابِ فَهَاتُوا نَصِيباً لَنَا مِمَّا أَصَبْتُمْ وَتَسْمِيَةِ ظَفَرِ الْمُسْلِمِينَ فَتَحَا وَمَا لِلْكَافِرِينَ نَصِيبًا لَتَعْظِيمِ شَأْنِ الْمُسْلِمِينَ وَتَحْقِيرِ^(١) حِظِّ الْكَافِرِينَ وَفَرَى وَنَمْنَعُكُمْ بِإِضْهَارِ أَنْ ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ حِكْمًا يَلِيقُ بِشَأْنِ كُلِّ مِنْكُمْ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَقَدْ أُجْرِيَ عَلَيَّ مِنْ تَفْوِهِ بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ حِكْمُهُ وَلَمْ يَضْعِ السَّيْفَ عَلَى مَنْ تَكَلَّمَ بِهَا نِفَاقًا ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ حِينَئِذٍ كَمَا قَدْ يَجْعَلُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا بِطَرِيقِ الْإِبْتِلَاءِ وَالِاسْتِدْرَاجِ أَوْ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَنْ الْمُرَادَ بِالسَّبِيلِ الْحِجَّةَ .

من علامات النفاق

﴿ إِنْ الْمُنَافِقِينَ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ كَلَامٌ مُبْتَدَأُ سَبْقٍ لِبَيَانِ طَرَفٍ آخَرَ مِنْ قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ أَيْ يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُ الْخَادِعُ مِنْ إِظْهَارِ الْإِيمَانِ وَإِبْطَانِ نَقِيضِهِ وَاللَّهُ فَاعِلٌ بِهِمْ مَا يَفْعَلُ الْغَالِبُ فِي الْخِدَاعِ حَيْثُ تَرَكَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مَعَ صَوْمِي الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَأَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ الدَّرَكَ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ وَقَدْ مَرَّ التَّحْقِيقُ فِي صَدْرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَقِيلَ يَعْطُونَ عَلَى الصِّرَاطِ نُورًا كَمَا يَعْطَى الْمُؤْمِنُونَ فَيَمْضُونَ بِنُورِهِمْ ثُمَّ يَطْفَأُ نُورُهُمْ وَيَبْقَى نُورُ الْمُؤْمِنِينَ فَيَنَادُونَ انظُرُوا نَفْتَسَ مِنْ نُورِكُمْ . ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى ﴾ مُتَاقِلِينَ كَالْمُسْكِرِ عَلَى الْفِعْلِ وَقَرِءَ بِفَتْحِ الْكَافِ وَهَمَّا جَمْعًا كَسْلَانِ ﴿ يَرَامُونَ النَّاسَ ﴾ لِيَحْسَبُوهُمْ مُؤْمِنِينَ وَالْمَرَاءَةَ مِفَاعِلَةٌ بِمَعْنَى التَّفْعِيلِ كَنَعَمٍ وَنَاعِمٍ أَوْ لِلْمُقَابَلَةِ فَإِنَّ الْمَرَاتِي يَرَى غَيْرَهُ عَمَلُهُ وَهُوَ يَرِيهِ اسْتِحْسَانُهُ وَالْجُمْلَةُ إِمَّا اسْتِثْنَاءٌ مَبْنِيٌّ عَلَى سَوْأَلِ نَشْأٍ مِنَ الْكَلَامِ كَأَنَّهُ قِيلَ فَمَاذَا يَرِيدُونَ بِقِيَامِهِمْ إِلَيْهَا كَسَالَى فَقِيلَ يَرَامُونَ الْخَوْفَ أَوْ حَالٍ مِنْ ضَمِيرِ قَامُوا

(١) فِي ط : وَتَحْقِيرِ .

(٥١ - أَبُو السَّوْد - أَوَّل)

﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ عطف على يراءون أى لا يذكرونه سبحانه إلا ذكراً قليلاً وهو ذكرهم باللسان فإنه بالإضافة إلى الذكر بالقلب قليل أو إلا زماناً قليلاً أو لا يصلون إلا قليلاً لأنهم لا يصلون إلا بمرآى من الناس وذلك قليل وقيل لا يذكرونه تعالى فى الصلاة إلا قليلاً عقد التكبير والتسليم ﴿مذبذبين بين ذلك﴾ حال من فاعل يراءون أو منصوب على الذم وذلك إشارة إلى الإيمان والكفر المدلول عليهما بمعونة المقام أى مترددين بينهما متحيرين قد ذذبهم الشيطان وحقيقة المذبذب ما يذب ويدفع عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى وقرىء بكسر الهمزة أى مذبذبين قلوبهم أو رأيهم أو دينهم أو بمعنى متذبذبين كما جاء صلصل بمعنى تصلصل وفى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه متذبذبين وقرىء مدبذبين بالدال غير المعجمة وكأن المعنى أخذ بهم تارة فى دبة أى طريقة وأخرى فى أخرى .

﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أى لا منسوبين إلى المؤمنين ولا منسوبين إلى الكافرين أولاً صائرين إلى الأولين ولا إلى الآخرين فمحله النصب على أنه حال من ضمير مذبذبين أو على أنه بدل منه أو بيان وتفسير له ﴿ومن يضلل الله﴾ لعدم استعداده للهداية والتوفيق ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ موصلاً إلى الحق والصواب فضلاً عن أن تهديه إليه والخطاب لكل من يصلح له كائنات من كان ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ نهوا عن موالاة الكفرة صريحاً وإن كان فى بيان حال المتأفقين زجر^(١) عن ذلك مبالغة فى الزجر والتحذير ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أى أتريدون بذلك أن تجعلوا الله عليكم حجة بينة على أنكم منافقون فإن موالاة الكفار أو صلة الكفار أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال أتعلمون الخ المبالغة فى إنكاره وتهويل أمره ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل لإرادته فضلاً عن صدور

(١) فى ط : مزجرة .

نفسه كما في قوله عز وجل (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) وهو الطبقة التي في قعر جهنم وإنما كان كذلك لأنهم أخبروا الكفرة حيث ضموا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله وخداعهم وأما قوله عليه السلام ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ونحوه فمن باب التشديد والتهديد والتغليظ مبالغة في الزجر وتسمية طبقاتها السبع دركات لكونها متداركة متتابعة بعضها تحت بعض وقرئ بفتح الراء وهو لغة كالسطر والسطر ويعضده أن جمعه أدراك (ولن تجد لهم نصيرا) يخلصهم منه والخطاب كما سبق .

(إلا الذين تابوا) أي عن النفاق وهو استثناء من المنافقين بل من ضميرهم في الخبر (وأصلحوا) ما أفسدوا من أحوالهم في حال النفاق (واعتصموا بالله) أي وثقوا به وتمسكوا بدينه (وأخلصوا دينهم) أي جعلوه خالصا (لله) لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه (فأولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد المنزل وعلو الطبقة (مع المؤمنين) أي المؤمنين المعهودين الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلا منذ آمنوا وإلا فهم أيضا مؤمنون أي معهم في الدرجات العليا (١) من الجنة وقد بين ذلك بقوله تعالى (وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما) لا يقادر قدره فيساهمونهم فيه (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) استئناف مسوق لبيان أن مدار تعذيبهم وجودا وعدما إنما هو كفرهم لشيء آخر فيكون مقررا لما قبله من إناباتهم عند توبتهم وما استهفامية مقيدة للنفي على أبلغ وجه وآكده أي أي شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم أي تفسى به من الغيظ أم يدرك به النار أم يستجلب به نفعاً أم يستدفع به ضرراً كما هو شأن الملوك وهو الغنى المتعالي عن أمثال ذلك؟ وإنما هو أمر يقتضيه كفرهم فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر

اتنهي التعذيب لا محالة وتقديم الشكر على الإيمان لما أنه طريق موصل إليه فإنه يدرك أولاً ما عليه من النعم الأنفسية والآفاقية فيشكر شكرياً مبهماً ثم يترقى إلى معرفة المنعم فيؤمن به وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿وكان الله شاكراً﴾ الشكر من الله سبحانه هو الرضا بالسير من طاعة عباده وإضعاف الثواب بمقابلته ﴿عليماً﴾ مبالغاً في العلم بجميع المعلومات التي من جملتها شكركم وإيمانكم فيستحيل أن لا يوفيكم أجوركم .

﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ عدم محبته تعالى لشيء كناية عن سخطه والباء متعلقة بالجهر ومن بمحذوف وقع حالا من السوء أي لا يحب الله تعالى أن يجهر أحد بالسوء كأننا من القول ﴿إلا من ظلم﴾ أي إلا جهر من ظلم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ويذكره بما فيه من السوء فإن ذلك غير مستحوط عنده سبحانه وقيل هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم (ولمن انتصر بعد ظلمه) الآية وقيل ضاف رجل قوماً فلم يطعموه فاشتكاكم فعوتب على الشكاية فزلت وقرئ إلا من ظلم على البناء للفاعل فالاستثناء منقطع أي ولكن الظالم يرتكب ما لا يحبه الله تعالى فيجهر بالسوء ﴿وكان الله سميعاً﴾ لجميع المسموعات فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم ﴿عليماً﴾ بجميع المعلومات التي من جملتها حال المظلوم والظالم فالجملة تذييل مقرر لما يفيد الاستثناء .

﴿إن تبدوا خيراً﴾ أي خير كان من الأقوال والأفعال ﴿أو تخفوه﴾ أو تعفوا عن سوء ﴿مع ماسوغ لكم من مؤاخذه السيئ والتنصيف عليه مع اندراجه في إبداء الخير وإخفائه لما أنه الحقيق بالبيان وإنما ذكر إبداء الخير وإخفائه بطريق التسبيب له كما ينبى عنه قوله عز وجل ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ فإن إيراده في معرض جواب الشرط يدل على أن العمدة هو العفو مع القدرة أي كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذه وقال الحسن يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى وقال الكلبي هو أيذر على عفو ذنوبكم منكم على عفو ذنوب من ظلمكم وقيل عفواً عن عفا قديراً على إيصال الثواب إليه ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسوله﴾ أي يؤدي

إليه مذهبهم ويقتضيه رأيهم لا أنهم يصرحون بذلك كما ينبغي عنه قوله تعالى ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى بأن يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم لكن لا بأن يصرحوا بالإيمان به تعالى وبالكفر بهم قاطبة بل بطريق الاستلزام كما يحكيه قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بِيَعْبُذُ وَنُكْفِرُ بِيَعْبُذُ﴾ أى نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم كما قالت اليهود نؤمن بموسى والتوراة وعزير ونكفر بما وراء ذلك وما ذاك إلا كفر بالله تعالى ورسوله وتفريق بين الله تعالى ورسوله فى الإيمان لأنه تعالى قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بحقيقة دين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل وبالله تعالى أيضا من حيث لا يحتسب ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أى بين الإيمان والكفر ﴿سبيلا﴾ يسلكونه مع أنه لا واسطة بينهما قطعا إذ الحق لا يتعدد^(١) وماذا بعد الحق إلا الضلال .

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة ﴿هَمُ الْكَافِرُونَ﴾ الكاملون فى الكفر لا عبرة بما يدعونه ويسمونه إيمانا أصلا ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى حق ذلك أى كونهم كاملين فى الكفر حقا أو صفة لمصدر الكافرين أى هم الذين كفروا كفرا حقا أى ثابتا يقينا لا ريب فيه ﴿وأعتدنا للكافرين﴾ أى لهم وإنما وضع المظهر مكان المضمّر ذما لهم وتذكيرا لوصفهم أو لجميع الكافرين وهم داخلون فى زمرة دحولا أوليا ﴿عذابا مهينا﴾ سيذوقونه عند حلوله ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله﴾ أى على الوجه الذى بين فى تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) الآية ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخرين كما فعله الكفرة ودخول بين على أحد تد مر تحقيقه فى سورة البقرة بما لا مزيد عليه ﴿أُولَئِكَ﴾ المتعوتون بالنعوت الجائلة المذكورة ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾ الموعودة لهم

(١) فى ط : يختلف .

وتصديره بسوف لتأ كيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تراخى
وقرىء نوتهم بنون العظمة ﴿وكان الله غفورا﴾ لما فرط منهم ﴿رحيما﴾
مبالغا في الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم .

عود إلى اليهود

﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾ نزلت في أحبار
اليهود حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا فأتنا بكتاب من
السماء جملة كما أتى به موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كتابا محررا بخط سماوى
على الملوخ كما نزلت التوراة أو كتابا نعاينه حين ينزل أول كتابا إلينا بأعياننا
بأنك رسول الله وما كان مقصدهم بهذه العظيمة إلا التحكم والتعنت قال الحسن
ولو سألوهم لى يتبينوا الحق لأعظامهم وفيما آتاهم كفاية ﴿فقد سألو موسى
أ كبر من ذلك﴾ جواب شرط مقدر أى إن استكبرت ما سألوهم منك فقد
سألو موسى شيئا أ كبر منه وقيل تعليل للجواب أى فلا تبال بسؤالهم فقد
سألو موسى أ كبر منه وهذه المسألة وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا
مقتدين بهم فى كل ما يأتون وما يذوون أسندت إليهم والمعنى أن لهم فى ذلك
عرقا راسخا وأن ما اقترحوه عليك ليس أول جهالاتهم ﴿فقالوا أرنا الله
جهرة﴾ أى أرناه نره جهرة أى عيانا أو مجاهرين معاينين له والفاء تفسيرية
﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ أى النار التى جاءتهم ^(١) من السماء فأهلكتهم وقرىء
الصعقة ﴿بظلمهم﴾ أى بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل فى
تلك الحالة التى كانوا عليها وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا ﴿ثم اتخذوا
العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أى المعجزات التى أظهرها لفرعون من العصا
واليد البيضاء وخلق البحر وغيرها لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم بعد ﴿فغفونا
عن ذلك﴾ ولم نستأصلهم وكانوا أحقاه به. قيل هذا استدعاء لهم إلى التوبة كأنه

(١) فى ط : جاءت .

قيل إن أولئك الذين أجزموا تابوا فغفونا عنهم فتوبوا أتم أيضا حتى نغفرو عنكم .

﴿ وآتيناهم موسى سلطانا مبينا ﴾ سلطانا ظاهرا عليهم حيث أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن معصيتهم ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ أى بسبب ميثاقهم ليعطوه على ما روى أنهم هموا بنقضه فرفع الله تعالى عليهم الجبل فجاءوا وأقلعوا عن النقص وهو الأنسب بما سيأتى من قوله عز وجل (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) ﴿ وقلنا لهم ﴾ على لسان موسى عليه السلام والطور يظلمهم^(١) ﴿ ادخلوا الباب ﴾ قال قتادة كنا نحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس وقيل هو إيليا وقيل هو أريحا وقيل هو اسم قرية وقيل باب القبة التى كانوا يصلون إليها فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام ﴿ سجدا ﴾ أى متظامنين خاضعين ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا ﴾ أى لا تظلموا باصطياد الحيتان ﴿ فى السبت ﴾ وقرىء لا تعتدوا ولا تعدوا بفتح العين وتشديد الدال على أن أصله تعتدوا وأدغمت التاء فى الدال لتقاربهما فى الخروج بعد نقل حركتهما إلى العين ﴿ وأخذنا منهم ﴾ على الامثال بما كفروه ﴿ ميثاقا غليظا ﴾ مؤكدا وهو العهد الذى أخذه الله عليهم فى التوراة قيل إنهم أعطوا الميثاق على أنهم إن هموا بالرجوع عن الدين فאלله تعالى يعذبهم بأى أنواع العذاب أراد .

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ ما من ردة لنا كيد أو نكرة تامة ونقضهم بدل منها والباء متعلقة بفعل محذوف أى فبسبب نقضهم ميثاقهم ذلك فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والمسخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم أو على أعقابهم . روى أنهم اعتدوا فى السبت فى عهد داود عليه السلام فلعنوا ومسحوا قرده وقيل متعلقة بحرماننا على أن قوله تعالى (فبظلم) بدل من قوله تعالى (فبما) وما عطف عليه فيكون التحريم معللا بالكل ولا يخفى أن قولهم إنا قتلنا المسيح وقولهم على

(١) فى ط : مظل لهم .

مریم البهتان متأخر عن التحريم ولا مساغ لتعلقها بما دل عليه قوله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم) لأنه رد لقولهم (قلوبنا غلف) فيكون من صلة قوله تعالى (وقولهم) المعطوف على المجرور فلا يعمل في جاره ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ أى بالقرآن أو بما فى كتابهم ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف أى هى مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أو هو تخفيف غلف جمع غلاف أى هى أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال السكبي يعنون أن قلوبنا بحيث لا يصل إليها حديث إلا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضاً ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ كلام معترض بين المعطوفين جرى به على وجه الاستطراد مسارة إلى رد زعمهم الفاسد أى ليس كفرهم وعدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غلفا بحسب الجبلية بل الأمر بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم أو ليست قلوبهم كما زعموا بل هى مطبوع عليها بسبب كفرهم ﴿فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه أو إلا إيماناً قليلاً لا يعبأ به .

﴿وبكفرهم﴾ أى بعيسى عليه السلام وهو عطف على (قولهم) ولإعادة الجار لطول ما بينهما بالاستطراد وقد جوز عطفه على بكفرهم فيكون هو وما عطف عليه من أسباب الطبع وقيل هذا المجموع معطوف على مجموع ما قبله وتكرير ذكر الكفر للإيدان بتكرير كفرهم حيث كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام ﴿وقولهم على مریم بهتاناً عظيماً﴾ لا يقادر قدره حيث نسبوها إلى ما هى عنه بألف منزل ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مریم رسول الله﴾ نظم قولهم هذا فى سلك سائر جنایاتهم التى نعت عليهم ليس لمجرد كونه كذباً بل لتضمنه لايتهاجم بقتل النبی عليه السلام والاستهزاء به فإن وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة إنما هو بطريق التهكم به عليه السلام كما فى قوله تعالى (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) الخ ولإنبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجليل من جهته تعالى

مدحا له ورفعوا لمحله عليه السلام وإظهارا لغاية جرائمهم في تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم في افتخارهم بذلك ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾ حال أو اعتراض .

﴿ ولكن شبه لهم ﴾ روى أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير فأجمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه سيرفعه^(١) إلى السماء فقال لأصحابه أيكم يرضى بأن يلقي عليه شبهة فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فالتقى الله تعالى عليه شبهة فقتل وصلب وقيل كان رجل ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى عليه السلام فرفع عيسى عليه السلام وألقى شبهة على المنافق فدخلوا عليه وقتلوه وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام وقيل إن بطيانوس اليهودي دخل بيتا كان هو فيه فلم يجده وألقى الله تعالى عليه شبهة فلما خرج ظن أنه عيسى عليه السلام فأخذ وقتل وأمثال هذه الخوارق لا تستبعد في عصر النبوة وقيل إن اليهود لما هموا بقتله عليه السلام فرفعه الله تعالى إلى السماء خاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة بين عوامهم فأخذوا إنسانا وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس وأظهروا لهم أنه هو المسيح وما كانوا يعرفونه إلا بالاسم لعدم مخالطته عليه السلام لهم إلا قليلا وشبهه مسند إلى الجار والمجرور كدأه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام والمقتول أو في الأمر على قول من قال لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس أو إلى ضمير المقتول للدلالة إنا قتلنا على أن تم مقتولا .

﴿ وإن الذين اختلفوا فيه ﴾ أى في شأن عيسى عليه السلام فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود إنه كان كاذبا فقتلناه حتما وتردد آخرون فقال بعضهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا وقال من سمع منه عليه السلام إن الله يرفعني إلى

(١) في ط : يرفعه .

السماء لأنه رفع إلى السماء وقال قوم صاب الناسوت وصعد اللاهوت [وقد مر]^(١) ﴿لنن شك منه﴾ لنن تردد والشك كما يطلق على ما لم يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكد بقوله تعالى ﴿ما لهم به من علم إلا إتباع الظن﴾ استثناء منقطع أى لكنهم يتبعون الظن ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن إليه النفس جزما كان أو غيره فلا استثناء حينئذ متصل ﴿وما قتلوه يقينا﴾ أى قتلنا يقينا كما زعموا بقولهم لئنا قتلنا المسيح وقيل معناه وما علموه يقينا كما فى قول من قال :

كذلك تخبر عنها العالما بها وقد قتلت بعلمى ذلكم يقنا

من قولهم قتلت الشئ علما ونحتره علما إذا تبالغ علمك فيه وفيه تهكم بهم لإشعاره بعلمهم فى الجملة وقد نفى ذلك عنهم بالسكينة ﴿بل رفعه الله إليه﴾ رد وإنكار لزعمهم قتله^(٢) وإثبات لرفعه ﴿وكان الله عزيزا﴾ لا يغالب فيما يريد ﴿حكيم﴾ فى جميع أفعاله فيدخل فيها تدبيراته تعالى فى أمر عيسى عليه السلام دخولا أوليا ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أى من اليهود والنصارى وقوله تعالى .

﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ جملة قسمية وقعت صفة لموصوف محذوف إليه يرجع الضمير الثانى والأول لعيسى عليه السلام أى وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهر روحه بأنه عبد الله ورسوله ولات حين إيمان لانقطاع وقت التكليف ويعضده أنه قرى ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون لما أن أحدا فى معنى الجمع وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه فسرهم كذلك فقال له عكرمة فإن أتاه رجل فضرب عنقه قال لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفثيه قال فإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع قال يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به وعن شهر بن حوشب

(٢) فى ط : لقتله .

(١) سقطت من ط .

قال لي الحجاج آية ما قرأها إلا تخالج في نفسي شئ منها يعني هذه الآية وقال
لني أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك فقلت
إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدو الله
أتاك عيسى عليه السلام نبيا فكذبت به فيقول آمنت أنه عبد نبي وتقول
للنصراني أتاك عيسى عليه السلام نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله فيؤمن أنه
عبد الله ورسوله حيث لا يشفعه إيمانه قال وكان متكئا فاستوى جالسا فنظر
إلى وقال ممن سمعت هذا قلت حدثني محمد بن علي بن الحنفية فأخذ ينسكك
الأرض بقضيبه ثم قال لقد أخذتها من عين صافية والإخبار بحالهم هذه وعيد
لهم وتحريض على المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يضطروا إليه مع انتفاء
جدواه وقيل كلا الضميرين لعيسى والمعنى وما من أهل الكتاب الموجودين عند
نزول عيسى عليه السلام أحدا إلا ليؤمنن به قبل موته. روى أنه عليه السلام ينزل
من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى
تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام وبهلك الله في زمانه الدجال وتقع الأمانة
حتى ترتع الأسود مع الإبل والنور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان
بالحيات ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون
ويدفنونه وقيل الضمير الأول يرجع إلى الله تعالى وقيل إلى محمد صلى الله عليه
وسلم ﴿ ويوم القيامة يكون ﴾ أي عيسى عليه السلام .

﴿ عليهم ﴾ على أهل الكتاب ﴿ شهداء ﴾ فيشهد على اليهود بالكذب وعلى
النصارى بأنهم دعوه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ فبظلم من الذين
هادوا ﴾ لعل ذكرهم بهذا العنوان للإيذان بكال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعد
ما هادوا أي تابوا من عبادة العجل مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخس
النفوس إثر بيان عظمه في حد ذاته بالتفويض التفضيحي أي بسبب ظلم عظيم
خارج عن حدود الأشباه والأشكال صادر عنهم ﴿ حرما عليهم طيبات أحلت
لهم ﴾ ولمن قبلهم لا بشيء غيره كما زعموا فإنهم كانوا كلما ارتكبوا معصية من
المعاصي التي أفتروها يحرم عليهم نوع من الطيبات التي كانت محلة لهم ولمن

تقدمهم من أسلافهم عقوبة لهم وكانوا مع ذلك يفترون على الله سبحانه [الكذب] ^(١) ويقولون اسنا بأول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا فكذبهم الله عز وجل في مواقع كثيرة وبكتهم بقوله تعالى (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن نزل التوراة قل فانتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) أى فى ادعائكم أنه تحریم قديم . روى أنه عليه السلام لما كلفهم إخراج التوراة لم يجسر أحد على إخراجها لما أن كون التحريم بظلمهم كان مسطوراً فيها فبهتوا وانقلبوا صاغرين ﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ أى ناساً كثيراً أو صداً كثيراً ﴿وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه﴾ فإن الربا كان محرماً عليهم كما هو محرم علينا وفيه دليل على أن النهى يدل على حرمة المنهى عنه ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿وأعدنا للكافرين منهم﴾ أى للهصرين على الكفر لا لمن تاب وآمن من بينهم ﴿عذاباً أليماً﴾ سيدوقونه فى الآخرة كما ذاقوا فى الدنيا عقوبة التحريم ﴿لكن الراسخون فى العلم منهم﴾ استدراك من قوله تعالى وأعدنا الخ وبيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلاً وآجلاً أى لكن الثابتون فى العلم منهم المتقنون المستبصرون فيه غير التابعين للظن كأولئك الجهلة والمراد بهم عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿والمؤمنون﴾ أى منهم وصفوا بالإيمان بعد ما وصفوا بما يوجب من الرسوخ فى العلم بطريق العطف المنبئ عن المغايرة بين المعطوفين تنزيلاً للاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى وقوله تعالى :

﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ حال من المؤمنين مبينة لكيفية إيمانهم وقيل اعتراض مؤكداً لما قبله وقوله عز وجل ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قيل نصب بإضمار فعل تقديره وأعنى المقيمين الصلاة على أن الجملة معترضة بين

المبتدأ والخبر وقيل هو عطف على ما أنزل إليك على أن المراد بهم الأنبياء عليهم السلام أى يؤمنون بالكتب وبالأنبياء أو الملائكة قال مكى أى ويؤمنون بالملائكة الذين صفتهم إقامة الصلاة لقوله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقيل عطف على السكاف فى إليك أى يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة وهم الأنبياء وقيل على الضمير المجرور فى منهم أى لكن الراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة وقرىء بالرفع على أنه معطوف على المؤمنون بناء على ما مر من تنزيل التغيرات العنوانى منزلة التغيرات الذاتى وكذا الحال فيما سياتى من المعطوفين فإن قوله تعالى ﴿والمؤتون الزكوة﴾ عطف على المؤمنون مع اتحاد الكل ذاتا وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ فإن المراد بالكل مؤمنوا أهل الكتاب قد وصفوا أولا بكونهم راسخين فى علم الكتاب إيدانا بأن ذلك موجب للإيمان حتما وأن من عداهم إنما بقوا مصرين على الكفر لعدم رسوخهم فيه ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع والأحكام واكتفى من بينها بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المستبعين لساير العبادات البدنية والمالية ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد تحقيقا لحيازتهم الإيمان بفطرته وإحاطتهم به من طرفيه وتعريضا بأن من عداهم من أهل الكتاب ليسوا بمؤمنين بواحد منهما حقيقة فإنهم مشركون بالله سبحانه بقولهم عزير ابن الله^(١) وقولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة كافرون باليوم الآخر وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما عدد من الصفات الجميلة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجاتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ الذى هو الراسخون وما عطف عليه والسين لتأكيد الوعد وتنكير الأجر للتعظيم وهذا أنسب بتجاوب طرفى الاستدراك حيث أوعد الأولون بالعذاب الأليم ووعد الآخرون بالأجر العظيم كأنه قيل

(١) فى ط : فإنهم بقولهم عزير ابن الله مشركون بالله سبحانه

إثر قوله تعالى وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً لكن المؤمنون منهم سنؤتيهم أجراً عظيماً وأما ما جئنا إليه الجمهور من جعل قوله تعالى (يؤمنون بما أنزل إليك) الخ خبراً للبهتدأ في كمال السداد أنه غير متعرض لتقابل الطرفين وقرىء سيؤتيهم يالياه مراعاة لظاهر قوله تعالى والمؤمنون بالله

رد على أهل الكتاب

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتاباً من السماء واحتجاج عليهم بأنه ليس بدعا من الرسل وإنما شأنه في حقيقة الإرسال وأصل الوحي كشأن سائر مشاهير الأنبياء الذين لا ريب لأحد في نبوتهم والكتاب في محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي إحياء مثل إحيائنا إلى نوح أو على أنه حال من ذلك المصدر المقدر معرفاً كما هو رأى سيبويه أي أوحينا الإحياء حال كونه مشبهاً لإحيائنا (١) الخ ومن بعده متعلق بأوحينا وإنما بدى بذكر نوح لأنه أبو البشر وأول نبي شرع الله تعالى على لسانه الشرائع والأحكام وأول نبي عذبت أمته لردم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض ﴿وأوحينا إلى إبراهيم﴾ عطف على أوحينا إلى نوح داخل معه في حكم التشبيه أي وكما أوحينا إلى إبراهيم ﴿واسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط﴾ وهم أولاد يعقوب عليهم السلام ﴿وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان﴾ خصوا بالذكر مع ظهور انتظامهم في سلك النبيين تشریفاً لهم وإظهاراً لفضلهم كما في قوله تعالى (من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وتصريحا بمن ينتمى إليهم اليهود من الأنبياء وتكرير الفعل لمزيد تقرير الإحياء والتنبيه على أنهم طائفة خاصة مستقلة بنوع مخصوص من الوحي .

﴿وآتينا داود زبوراً﴾ قال القرطبي كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها

(١) في ط . بإحيائنا .

حكم من الأحكام وإنما هي حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله تعالى وقرىء بضم الراء وهو جمع زبر بمعنى مزبور والجملة عطف على أوحينا داخل في حكمه لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء أى وكما آتينا داود زبورا وإيثاره على وأوحينا إلى داود لتحقيق الماثلة في أمر خاص هو إيتاء الكتاب بعد تحقيقها في مطلق الإيحاء ثم أشير إلى تحقيقها في أمر لازم لها لزوما كليا وهو الإرسال فإن قوله تعالى ﴿ورسلا﴾ نصب بمضمر يدل عليه أوحينا معطوف عليه داخل معه في حكم التشبيه كما قبله أى وكما أرسلنا رسلا لا بما يفسره قوله تعالى ﴿قد قصصناهم عليك﴾ أى وقصصنا رسلا كما قالوا وفرعوا عليه أن قوله تعالى قد قصصناهم على الوجه الأول منصوب على أنه صفة لرسلا وعلى الوجه الثانى لا محل له من الإعراب فإنه بما لا سبيل إليه كما ستقف عليه وقرىء برفع رسل وقوله تعالى ﴿من قبل﴾ متعلق بقصصنا أى قصصنا من قبل هذه السورة أو اليوم .

﴿ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ عطف على رسلا منصوب بناصبه وقيل كلاهما منصوب بنزع الخافض والتقدير كما أوحينا إلى نوح وإلى رسل الخ والحق أن يكون انتصابهما بأرسلنا فإن فيه تحقيقا للماثلة بين شأنه عليه الصلاة والسلام وبين شئون من يعترفون بنبوته من الأنبياء عليهم السلام في مطلق الإيحاء ثم إيتاء الكتاب ثم في الإرسال فإن قوله تعالى إنا أوحينا إليك منتظم لمعنى آتيناك وأرسلناك حتما كما أنه قيل إنا أوحينا إليك لإيحاء مثل ما أوحينا إلى نوح ومثل ما أوحينا إلى إبراهيم ومن بعده وآتيناك الفرقان إيتاء مثل ما آتينا داود زبورا وأرسلناك لإرسال مثل ما أرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا آخرين لم نقصصهم عليك من غير تفاوت بينك وبينهم في حقيقة الإيحاء وأصل الإرسال فما للكفرة يسألونك شيئا لم يعطه أحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام ومن ههنا اتضح أن رسلا لا يمكن نصبه بقصصنا فإن ناصبه يجب أن يكون معطوفا على أوحينا داخلا معه في حكم التشبيه الذى يدور فلك الاحتجاج على الكفرة ولا ريب في أن قصصنا لا تعلق له بشيء من الإيحاء والإيتاء حتى

يمكن اعتباره في ضمن قوله تعالى إنا أوحينا إليك ثم يعتبر بينه وبين المذكور ماثلة مصححة للتشبيه على أن تقديره في رسلا الأول يقتضى تقدير نفيه في الثانى وذلك أشد استحالة وأظهر بطلانا .

﴿ وكلم الله موسى ﴾ برفع الجلالة ونصب موسى وقرىء على القلب وقوله تعالى ﴿ تسليما ﴾ مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز قال الفراء العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام والجملة إما معطوفة على قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) عطف القصة على القصة لا على آتينا وما عطف عليه وإما حال بتقدير قد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات والمعنى أن التسليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحى خص به موسى من بينهم فلم يكن ذلك قادحا في نبوة سائر الأنبياء عليهم السلام فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه عليه السلام جملة قادحا في صحة نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلا مع ظهور أن نزولها كذلك لحكم مقتضيه لذلك من جملة ما أن بنى إسرائيل كانوا فى العناد وشدة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها ومع ذلك ما آمنوا بها إلا بعد اللتى والتى وقد فضل الله تعالى نبيها محمدا صل الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا أو على الحال بأن يكون رسلا موطئا لما بعده أو على البدلية من رسلا الأول أى مبشرين لأهل الطاعة بالجنة ومنذرين للعصاة بالنار ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة ﴾ أى معذرة يعتذرون بها قائلين لولا أرسلت إلينا رسولا فيبين لنا شرائعك ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها كما فى قوله عز وجل (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) الآية وإنما سميت حجة مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة فى فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء للتنبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة

التي لامرد لها ولذلك قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أحد أغير من الله تعالى ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أحد أحب إليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه وما أحد أحب إليه الإعذار^(١) من الله تعالى ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب فاللام متعلقة بأرسلنا وقيل بقوله تعالى (مبشرين ومنذرين) وحجة اسم كان وللناس خبرها وعلى الله متعلق بمحذوف وقع حالا من حجة أى كائنة على الله أو هو الخبر وللناس حال على الوجه المذكور ويجوز أن يتعلق كل منهما بما يتعلق به الآخر الذى هو الخبر ولا يجوز التعلق بحجة لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه وقوله تعالى .

﴿ بعد الرسل ﴾ أى بعد إرسالهم وتبليغ الشرائع إلى الأمم على أسنتهم متعلق بحجة أو بمحذوف وقع صفة لها لأن الظروف يوصف بها الأحداث كما يخبر بها عنها نحو القتال يوم الجمعة ﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ لا يغالب فى أمر من أموره ومن قضيته الامتناع عن الإجابة إلى مسألة المتعنتين ﴿ حكيم ﴾ فى جميع أفعاله التى من جملتها إرسال الرسل وإنزال الكتب فإن تعدد الرسل والكتب واختلاها فى كيفية النزول وتغايرها فى بعض الشرائع والأحكام إنما هو لتفاوت طبقات الأمم فى الأحوال التى عليها يدور فلك التكليف فكما أنه سبحانه وتعالى برأهم على أنحاء شتى وأطوار متباينة حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية كذلك تعبدهم بما يليق يشأنهم وتقتضيه أحوالهم المتخالفة واستعداداتهم المتغيرة من الشرائع والأحكام حسبما تستدعيه الحكمة التشريعية وراعى فى إرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك من الأمور المتعلقة بمعاشهم ومعادهم ما فيه مصلحتهم فسؤال تنزيل الكتاب جملة اقتراح فاسد إذ حينئذ تتعاقم التكاليف فيثقل على المكلف قبولها والخروج عن عهدها وأما التنزيل المنجم الواقع حسب الأمور الداعية إليه فهو أيسر قبولا وأسهل امتثالاً ﴿ لكن الله يشهد ﴾ بتخفيف النون

(١) فى ط : المذر .

ورفع الجلالة وقرىء بتشديد النون ونصب الجلالة وهو استدراك عما يفهم بما قبله كأنهم لما تعتوا عليه بما سبق من السؤال واحتج عليهم بقوله تعالى (إنا أوحينا) الخ قيل لأنهم لا يشهدون بذلك لكن الله يشهد ﴿بما أنزل إليك﴾ على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول والباء صلة للشهادة أى يشهد بحقيقة ما أنزل إليك من القرآن المعجز الناطق بنبوتك وقيل لما نزل قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) قالوا ما نشهد لك بذلك فنزل لكن الله يشهد .

﴿أنزله بعلمه﴾ أى ملتبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره وهو تأليفه على نمط بديع يعجز عنه كل بليغ أو بعلمه بحال من أنزله عليه واستعداداه لاقتباس الأنوار القدسية أو بعلمه الذى يحتاج إليه الناس فى معاشهم ومعادهم فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث من المفعول والجملة فى موقع التفسير لما قبلها وقرىء نزل وقوله تعالى ﴿والملائكة يشهدون﴾ أى بذلك مبتدأ وخبر والجملة عطف على ما قبلها وقيل حال من مفعول أنزله أى أنزله والملائكة يشهدون بصدقه وحقيقته ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة وحججا ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها ﴿إن الذين كفروا﴾ أى بما أنزل الله تعالى وشهد به أو بكل ما يجب الإيمان به وهو داخل فيه دخولا أوليا والمراد بهم اليهود حيث كفروا به ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ وهو دين الإسلام من أراد سلوكه بقولهم ما نعرف صفة محمد فى كتابنا وقرىء صدوا مبنيًا للمفعول ﴿قد ضلوا﴾ بما فعلوا من الكفر والصد عن طريق الحق ﴿ضللا بعيدا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الإقلاع عنه .

﴿إن الذين كفروا﴾ أى بما ذكر آنفا ﴿وظلموا﴾ أى محمدا صلى الله عليه وسلم بإنكار نبوته وكتمان نعرته الجليلة ووضع غيرها مكانها أو الناس بصددهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر ﴿ولا ليهديهم طريقا﴾ لا طريق جهنم لعدم استعدادهم للهداية إلى الحق والأعمال الصالحة التى هى طريق الجنة والمراد بالهداية المفهومة

من الاستثناء بطريق الإشارة خلقه تعالى لأعمالهم السيئة المؤدية بهم إلى جهنم عند صرف قدرتهم واختيارهم إلى اكتسابها أو سوقهم إليها يوم القيامة بواسطة الملائكة والطريق على عمومهم والاستثناء متصل وقيل خاص بطريق الحق والاستثناء منقطع ((خالدين فيها)) حال مقدرة من الضمير المنصوب والعامل فيها ما دل عليه الاستثناء دلالة واضحة كأنه قيل يدخلهم جهنم خالدين فيها الخ وقوله تعالى ((أبدا)) نصب على الظرفية رافع لاحتمال حمل الخلود على المسكت الطويل ((وكان ذلك)) أى جعلهم خالدين فى جهنم ((على الله يسيرا)) لاستحالة أن يتعذر عليه شيء من مراداته تعالى .

أمر بالإيمان

((يا أيها الناس)) بعد ما حكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعمل اليهود يالاً باطيل واقتراحهم الباطل تغتتا ورد عليهم ذلك بتحقيق نبوته عليه الصلاة والسلام وتقرير رسالته ببيان أن شأنه عليه الصلاة والسلام فى أمر الوحي والإرسال كمشئون من يعترفون بنبوته من مشاهير الأنبياء عليهم السلام وأكد ذلك بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة أمر المسكتين كافة على طريق تلوين الخطاب بالإيمان بذلك أمراً مشفوعاً بالوعد بالإجابة والوعيد على الرد تنبيهاً على أن الحجة قد لزمت ولم يبق بعد ذلك لأحد عذر فى عدم القبول وقوله عز وجل ((قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم)) توكيداً للشهادة وتقرير لحقيقة المشهود به وتمهيد لما يعقبه من الأمر بالإيمان وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته والمراد بالحق هو القرآن الكريم والباء متعلقة بجاءكم فهى للتعدية أو بمحذوف وقع حالاً من الرسول أى ملتبساً بالحق ومن أيضاً متعلقة إما بالفعل وإما بمحذوف هو حال من الحق أى جاءكم به من عنده تعالى أو جاءكم بالحق كائناً من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين للإيذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كمالهم اللائق بهم ترغيباً لهم فى الامتثال بما بعده من الأمر والفاء فى قوله عز وجل ((فآمنوا)) للدلالة على إيجاب ما قبلها لما بعدها أى فآمنوا به وبما جاء به من الحق وقوله

تعالى ﴿خير لكم﴾ منصوب على أنه مفعول لفعل واجب الإضمار كما هو رأى الخليل وسيبويه أى اقصدوا أو اتوا أمرا خيرا لكم بما أتم فيه من الكفر أو على أنه نعت لمصدر محذوف كما هو رأى الفراء أى آمنوا لإيماننا خيرا لكم أو على أنه خبر كان المضمره الواقعة جوابا للآمر لا جزاء للشرط الصناعى وهو رأى الكسائى وأبى عبيدة أى يكن الإيمان خيرا لكم ﴿وإن تكفروا﴾ أى أن تصروا وتستمروا على الكفر به ﴿فإن الله ما فى السموات والأرض﴾ من الموجودات سواء كانت داخلية فى حقيقتهم وبذلك يعلم حال أنفسهم على أبلغ وجه وآكده أو خارجه عنهما مستقرة فيهما من العقلاء وغيرهم فيدخل فى جملتهم المخاطبون دخولا أوليا أى كلها له عز وجل خلقا وملكا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهره شئ منها فمن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لا محالة أو فمن كان كذلك فهو غنى عنكم وعن غيركم لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم وقيل فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لأمره ﴿وكان الله عليما﴾ مبالغا فى العلم فهو عالم بأحوال الكل فيدخل فى ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولا أوليا ﴿حكيا﴾ مراعىا للحكمة فى جميع أفعاله التى من جملتها تعذيبه تعالى إياهم بكفرهم.

زجر النصارى

﴿يا أهل الكتاب﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى زجرا لهم عما هم عليه من الكفر والضلال ﴿لا تغلوا فى دينكم﴾ بالإفراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام وادعاء ألوهيته وأما غلو اليهود فى حط رتبته عليه السلام ورميهم له بأنه ولد لغير رشدة فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ أى لا تصفوه بما يستحيل انتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ صاحبة الولد بل زهوه عن جميع ذلك ﴿إنما المسيح﴾ قد مر تفسيره فى سورة آل عمران وقرىء بكسر الميم وتشديد السين كالكسيت على صيغة المبالغة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿عيسى﴾ بدل منه أو عطف بيان له وقوله تعالى ﴿ابن مريم﴾

صفة له مفيدة لبطلان ما وصفوه عليه السلام به من بنوته لله تعالى وقوله تعالى ﴿رسول الله﴾ خبر للبتدأ والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي عن القول الباطل المستلزم للأمر بضده أعنى الحق أى إنه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها ﴿وكتبته﴾ عطف على رسول الله أى مكون بكلمته وأمره الذى هو كن من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أى أوصلها إليها وجعلها^(١) فيها بنفخ جبريل عليه السلام وقيل أعلها إياها وأخبرها بها بطريق البشارة وذلك قوله تعالى (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) وقيل الجملة حال من ضميره عليه السلام المستكن فيما دل عليه وكتبته من معنى المشتق الذى هو العامل فيها وقد مقدرة معها .

﴿وروح منه﴾ قيل هو الذى نفخ جبريل عليه السلام فى درع مريم فحملت بإذن الله تعالى سمي النفخ روحا لأنه ريح تخرج من الروح ومن لا ابتداء الغاية مجازا لا تبعيضية كما زعمت النصارى يحكى أن طيبيا حاذقا نصرانيا للرشيد ناظر على بن حسين الواقدي المروزي^(٢) ذات يوم فقال له إن فى كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية فقرأ الواقدي (وسخر لكم ما فى السموات والأرض جميعا منه) فقال لىلم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءا منه تعالى علوا كبيرا فانقطع النصرانى فأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا ووصل الواقدي بصلة فاخرة . وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح أى كائنة من جهته تعالى جعلت منه تعالى وإن كانت بنفخ جبريل عليه السلام لتكون النفخ بأمره سبحانه وقيل سمي روحا لإحيائه الأموات وقيل لإحيائه القلوب كما سمي به القرآن لذلك فى قوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) وقيل أريد بالروح الوحي الذى أوحى إلى مريم بالبشارة وقيل جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شىء بغاية الطهارة والنظافة قالوا إنه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونا من النفخ لا من النطفة وصف بالروح وتقديم كونه

(١) فى ط : وحصلها . (٢) فى ط : المروزي خطأ .

عليه السلام رسول الله في الذكر من تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحاً منه في الوجود لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل وتعيين مآل ما يحتمله وسد باب التأويل الزائغ .

﴿ فآمنوا بالله ﴾ وخصوه بالالوهية ﴿ ورسله ﴾ أجمعين وصفوهم بالرسلالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلسلهم بوصفه بالالوهية ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أى الالهة ثلاثة الله والمسيح ومريم كما ينبى عنه قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) أو الله ثلاثة إن صح إلههم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود والثانى العلم والثالث الحياة ﴿ انتهوا ﴾ أى عن التثليث ﴿ خيرا لكم ﴾ قد مر وجوه اقتصابه ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ أى بالذات منزّه عن التعدد بوجه من الوجوه فالله مبتدأ وإله خبره وواحد نعت أى مفرد فى ألوهيته ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أى أسبحه تسبيحا من أن يكون له ولد أو سجدوه تسبيحا من ذلك فإنه إنما يتصور فيمن يماثله شيء ويتطرق إليه فناء والله سبحانه منزّه عن أمثاله وقرىء أن يكون أى سبحانه ما يكون له ولد وقوله تعالى ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه وتقديره أى له ما فيهما من الموجودات خلقا وملاكا وتصرفا لا يخرج عن ملكوته شيء من الأشياء التى من جملتها عيسى عليه السلام فكيف يتوهم كونه ولدا له تعالى ﴿ وكفى بالله وكيفا ﴾ إله بكل الخلق أمورهم وهو غنى عن العالمين فأنى يتصور فى حقه اتخاذ الولد الذى هو شأن العجزة المحتاجين فى تدبير أمورهم إله من يخلفهم ويقوم مقامهم ﴿ لن يستنكف المسيح ﴾ استئناف مقرر لما سبق من التنزيه والاستنكاف الأنفة والترفع من نكفت الدمع إذا نحيته عن وجهك بالأصبع أى لن يأنف ولن يترفع .

﴿ أن يكون عبداً لله ﴾ أى عن أن يكون عبداً له تعالى مستمر على عبادته وطاعته حسبما هو وظيفة العبودية كيف وأن ذلك أقصى مراتب الشرف والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عنه مع أن شأنه عليه السلام المباهاة به كما يدل عليه احواله ويفصح عنه أقواله أو لا يرى أن أول مقالة قالها

للناس قوله (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) لوقوعه في موقع الجواب عما قاله الكفرة . روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأي شيء أقول قالوا تقول له عبد الله قال إنه ليس بعار أن يكون عبد الله قالوا بلى فنزلت وهو السرفي جعل المستنكف عنه كونه عليه السلام عبدا له تعالى دون أن يقال عن عبادة الله ونحو ذلك مع إفادة فائدة جلييلة هي كمال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالسكينة فإن كونه عبدا له تعالى حالة مستمرة مستتبعة لدوام العبادة قطعا فعدم الاستنكاف عنه مستلزم لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى كما أشير إليه بخلاف عبادته تعالى فإنها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام^(١) يكفي في إنصاف موصوفها بما تحققها مرة فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عدم الاستنكاف عن دوامها .

((ولا الملائكة المقربون)) عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله تعالى وقيل أن أريد بالملائكة كل واحد منهم لم يحتج إلى التقدير واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وقال مساقه لرد النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضى أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم مستلزما لعدم استنكافه عليه السلام وأجيب بأن مناط كفر النصارى ورفعهم له عليه السلام عن رتبة العبودية لما كان اختصاصه عليه السلام وامتيازهم عن سائر أفراد البشر بالولادة من غير أب وبالعلم بالمغيبات وبالرفع إلى السماء عطف على عدم استنكافه عن عبوديته تعالى عدم استنكاف من هو أعلى درجة منه فيما ذكر فإن الملائكة مخلوقون من غير أب ولا أم وعالمون بما لا يعلمه البشر من المغيبات ومقارهم السموات العلا ولا نزاع لأحد في علو درجاتهم من هذه الحيثية وإنما النزاع في علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات وبأن الآية ليست للرد على النصارى فقط بل على عبدة الملائكة أيضا فلا اتجاه لما

(١) في ١٠ : لا تستلزم الدوام .

قالوا حينئذ وإن سلم اختصاصها بالرد على النصارى فلعلة أريد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير والتفصيل لا باعتبار التكبر والتفضيل كما في قولك أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرموس ولئن سلم إرادة التفضيل فغاية الأمر الدلالة على أفضلية المقربين منهم وهم الكروبيون الذين حول العرش أو من هو أعلى منهم رتبة من الملائكة عليهم السلام على المسيح من الأنبياء عليهم السلام وليس يلزم من ذلك فصل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً وهل التشاجر إلا فيه ﴿ومن يستنكف عن عبادته﴾ أى عن طاعته فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى بما لا سبيل لهم إلى إنكار اتصافهم به إن قيل لم عبر عن عدم طاعتهم له تعالى بالاستنكاف عنها مع أن ذلك منهم كان بطريق إنكار كون الأمر من جهته تعالى لا بطريق الاستنكاف قلنا لأنهم كانوا يستنكفون عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل هو إلا استنكاف عن طاعة الله تعالى إذ لأمر له عليه الصلاة والسلام سوى أمره تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ﴿ويستكبر﴾ الاستكبار الألفه عما لا ينبغي أن يؤنف عنه وأصله طلب الكبر لنفسه بغير استحقاق له لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله فيه بل بمعنى عد نفسه كبيراً واعتقاده كذلك وإنما عبر عنه بما يدل على الطلب للإيدان بأن مآله محض الطلب بدون حصول المطلوب وقد عبر عن مثل ذلك بنفس الطلب في قوله تعالى (يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً) فإنهم ما كانوا يطلبون ثبوت العوج لسبيل الله مع اعتقادهم لاستقامتها بل كانوا يعدونها ويعتقدونها معوجة ويحكمون بذلك ولكن عبر عن ذلك بالطلب لما ذكر من الإشعار بأن ليس هناك شيء سوى الطلب والاستكبار دون الاستنكاف المنبئ عن توهم حقوق العار والنقص من المستنكف عنه .

﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ أى المستنكفين ومقابلهم المدلول عليهم ذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام وقد ترك ذكر أحد الفريقين في المفصل تعويلاً على إنباء التفصيل عنه وثقة بظهور اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلاق كافة كما ترك ذكر أحد

الفريقين في التفصيل عند قوله تعالى (فأما الذين آمنوا بالله) الآية مع عموم الخطاب لهما اعتمادا على ظهور اقتضاء إثابة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمول الجزاء لكل وقيل الضمير للمستنكفين وهناك مقدر معطوف عليه والتقدير فسيحشرهم إليه يوم يحشر العباد لمجازاتهم وفيه أن الأنسب بالتفصيل الآتي اعتبار حشر الكل في الإجمال على نهج واحد وقرئ فسيحشرهم بكسر السين وهى لغة وقرئ فسنحشرهم بنون العظمة بطريق الالتفات .

((فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات)) بيان لحال الفريق المنوى ذكره في الإجمال قدم على بيان حال ما يقابله لإبانة لفضله ومسارة إلى بيان كون حشره أيضا معتبرا في الإجمال وإيراده بعنوان الإيمان والعمل الصالح لا يوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات ((فيوفيه أجورهم)) من غير أن ينقص منها شيئا أصلا ((ويزيدهم من فضله)) بتضعيفها أضعافا مضاعفة وبإيفاء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ((وأما الذين استنكفوا)) أى من عبادته عز وجل ((واستكبروا فيعذبهم)) بسبب استنكافهم واستكبارهم ((عذابا ألينا)) لا يحيط به الوصف ((ولا يجدون لهم من دون الله ولية)) يلى أمورهم ويدبر مصالحهم ((ولا نصيرا)) ينصرهم من بأسه تعالى وينجيهم من عذابه ((يا أيها الناس)) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافة المستكفين لإثربيان بطلان ما عليه الكفرة من فنون الكفر والضلال وإلزامهم بالبراهين القاطعة التى تخربها صم الجبال وإزاحة شبههم الواهية بالبينات الواضحة وتنبيه لهم على أن الحجة قد تمت [عليهم]^(١) فلم يبق بعد ذلك علة لمتعلل ولا عذر لمعتذر .

((قد جاءكم)) أى وصل إليكم وتقرر فى قلوبكم بحيث لا سبيل لكم إلى الإنكار ((برهان)) البرهان ما يبرهن به على المطلوب والمراد به القرآن الدال على صحة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام المثبت لما فيه من الأحكام التى

(١) سقطت من ط .

من جملتها ما أشير إليه بما أثبتته الآيات الكريمة من حقيقة الحق وبطلان الباطل . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام عبر عنه به لما معه من المعجزات التي تشهد بصدقه وقيل هو المعجزات التي أظهرها وقيل هو دين الحق الذي أتى به وقوله تعالى :

﴿ من ربكم ﴾ إما متعلق بجاءكم أو بمحذوف وقع صفة مشرفة لبرهان مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائن منه تعالى على أن من لا ابتداء الغاية مجازا وقد جوز على الثاني كونها تبيينية بمحذوف المضاف أى كائن من براهين ربكم والتعرض لعنوان الربونية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيدان بأن مجيئه إليهم لتريبتهم وتكملهم ﴿ وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾ أريد به أيضا القرآن الكريم عبر عنه تارة بالبرهان لما أشير إليه آنفا وأخرى بالنور النير بنفسه المنور لغيره إيدانا بأنه بين بنفسه مستغن في ثبوت حقيقته وكونه من عند الله تعالى بإعجازه غير محتاج إلى غيره مبين لغيره من الأمور المذكورة وإشعاراً بهدايته للمخلق وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وقد سلك به مسلك العطف المبني على تغاير الطرفين تنزيلا للمغايرة العنوانية منزلة للمغايرة الذاتية وعبر عن ملاسته للمخاطبين تارة بالمجيء المستند إليه المنبئ عن كمال قوته في البرهانية كأنه يجيء بنفسه فيثبت أحكامه من غير أن يجيء به أحد ويجيء على شبه الكفرة بالإبطال وأخرى بالإزالة الموقع عليه الملائم لحيثية كونه نورا توفيرا له باعتبار كل واحد من عنوانيه حظه اللائق به وإسناد إنزاله إليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه هذا على تقدير كون البرهان عبارة عن القرآن العظيم وأما على تقدير كونه عبارة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن المعجزات الظاهرة على يده أو عن الدين الحق فالأمر حينئذ وقوله تعالى إليكم متعلق بأنزلنا فإن إنزاله بالذات وإن كان إلى النبي صلى الله عليه وسلم لكنه منزل إليهم أيضا بواسطة عليه الصلاة والسلام وإنما اعتبر حاله بالواسطة دون حاله بالذات كما في قوله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس)

ونظائره لإظهار كمال اللطف بهم والتصريح بوصوله إليهم بمبالغة في الإعذار وتقديمه على المعقول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لما مر غيره من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر والمحافظة على فواصل الآية الكريمة .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ﴾ حسبا يوجه البرهان الذي أتاهم ﴿ واعتصموا به ﴾ أى عصموا به أنفسهم مما يريدها من زيغ الشيطان وغيره ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الجنة وما يفيض عليهم [به] ^(١) مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وغير عن إفاضة الفضل بالإدخال على طريقة قوله * علقتهما تبنا وماء باردا * وتنوين رحمة وفضل تفخيمى ومنه متعلق بمحذوف وقع صفة مشرفة لرحمة ﴿ ويهديهم إليه ﴾ أى إلى الله عز وجل وقيل إلى الموعود وقيل إلى عبادته ﴿ صراطا مستقيما ﴾ هو الإسلام والطاعة فى الدنيا وطريق الجنة فى الآخرة وتقديم ذكر الوعد بإدخال الجنة على الوعد بالهداية إليها على خلاف الترتيب فى الوجود بين الموعودين للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلى قيل انتصاب صراطا على أنه مفعول لفعل محذوف ينبىء عنه يهديهم أى يعرفهم صراطا مستقيما .

حكم الكلالة

﴿ يستفتونك ﴾ أى فى الكلالة استغنى عن ذكره بوروده فى قوله تعالى ﴿ قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ وقد مر تفسيرها فى مطلع السورة الكريمة والمستفتى جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ، يروى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق مكة عام حجة الوداع فقال إن لى اختا فكم أخذ من ميراثها إن ماتت وقيل كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلل لى كلالة فكيف أصنع فى مالى . وروى عنه رضى الله عنه أنه قال عادنى

(١) سقطت من ط .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضاً وصب من وضوئه على فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث وإنما يرثني كلاله فنزلت وقوله تعالى ﴿إن امرؤ هلك﴾ استئناف مبين للفتيا وارتفع امرؤ بفعل يفسره المذكور وقوله تعالى :

﴿ليس له ولد﴾ صفة له وقيل حال من الضمير في هلك ورد بأنه مفسر للمحذوف غير مقصود في الكلام أى إن هلك امرؤ غير ذى ولد ذكر كان أو أنثى واقتصر على ذكر عدم الولد مع أن عدم الوالد أيضاً معتبر في الكلاله ثقة بظهور الأمر ودلالة تفضيل الورثة عليه وقوله تعالى ﴿وله أخت﴾ عطف عطف على قوله تعالى ليس له ولد أو حال والمراد بالأخت من ليست لأم فقط فإن فرضها السدس وقد مر ببيانه في صدر السورة الكريمة ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أى بالفرض والباقي للعصبة أولها بالرد إن لم يكن عصبة ﴿وهو﴾ أى المرء المفروض ﴿يرثها﴾ أى أخته المفروضة إن فرض هلاهما مع بقائه ﴿لأن لم يكن لها ولد﴾ ذكر كان أو أنثى فالمراد بإرثه لها إحراز جميع ما لها إذ هو المشروط بانتفاء الولد بالسكينة لا لإرثه لها في الجملة فإنه يتحقق مع وجود بنتها وليس في الآية ما يدل على سقوط الإخوة بغير الولد ولا على عدم سقوطهم وإنما دلت السنة الشريفة على سقوطهم في الأب^(١) ﴿فلأن كانتا اثنتين﴾ عطف على الشرطية الأولى أى اثنتين فصاعداً ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ الضمير لمن يرث بالآخوة والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى قيل وفائدة الإخبار عنها بـاثنتين مع دلالة ألف التثنية على الإثنية التنبية على أن المعتبر في اختلاف الحكم هو العدد دون الصغر والكبر وغيرهما ﴿وإن كانوا﴾ أى من يرث بطريق الآخوة ﴿أخوة﴾ أى مختلطة ﴿رجالاً ونساء﴾ بدل من أخوة والأصل وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكر على المؤنث ﴿فلذا كر﴾

(١) في ط دلت على سقوطها السنة الشريفة في

أى فلذكر منهم ﴿ مثل حظ الأنثيين ﴾ يقتسمون التركة على طريقة التعصيب وهذا آخر ما أنزل من كتاب الله تعالى فى الأحكام ، روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال فى خطبته ألا إن الآية التى أنزلها الله تعالى فى سورة النساء فى الفرائض فأولها فى الولد والوالد ونانها فى الزوج والزوجة والأخوة من وثنانها فى الزوج والزوجة والأخوة من الأم والآية التى ختم بها السورة فى والآية التى ختم بها سورة الأنفال أنزلها فى أولى الأرحام .

﴿ يبين الله لكم ﴾ أى حكم الكلالة أو أحكامه وشرائعه التى من جملتها حكمها ﴿ أن تضلوا ﴾ أى كراهة أن تضلوا فى ذلك وهذا رأى البصريين صرح به المبرد وذهب الكسائى والفراء وغيرهما من الكوفيين إلى تقدير اللام ولا فى طرفى أن أى لثلاثا تضلوا وقال الزجاج هو مثل قوله تعالى : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وقال أبو عبيد رويت للكسائى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وهو لا يدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله لإجابة أى لثلاثا يوافق فاستحسنه وليس ما ذكر من الآية والحديث نصا فيما ذهب إليه الكسائى وأضرابه فإن التقدير فهما عند البصريين كراهة أن تزولا وكراهة أن يوافق الخ وقيل ليس هناك حذف ولا تقدير وإنما هو مفعول يبين أى يبين لكم ضلالكم الذى هو من شأنكم إذا خليتكم وطباعكم لتحترزوا عنه وتجتروا خلافه وأنت خير بأن ذلك إنما يليق بما إذا كان بيانه تعالى تعيين على طريقة مواقع الخطأ والضلال من غير تصريح بما هو الحق والصواب وليس كذلك .

﴿ والله بكل شئ ﴾ من الأشياء التى من جملتها أحوالكم المتعلقة بمجياكم ومما تكم ﴿ عليم ﴾ مبالغ^(١) فى العلم فيبين لكم ما فيه

(١) فى ١٠ : بليغ فى العلم .

مصلحتكم ومنفعتكم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النساء
فكانما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وورث ميراثا وأعطى من الأجر كمن
اشتري محررا أو برىء من الشرك وكان في مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز
عنهم والله أعلم .

تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الأول من تفسير العلامة أبي السعود
ويليه الجزء الثانى وأوله سورة المائدة

فهرس موضوعى

للجزء الأول من تفسير

أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى

فهرس موضوعى

للجزء الأول من تفسير أبى السعود

الموضوع

الصحيفة

تقديم المحقق

عالم الروم أبو السعود العمادى
مناهج فهم القرآن الكريم
تفسير أبى السعود
كلمة أخيرة

١	مقدمة المؤلف
٧	سورة فاتحة الكتاب
٨	معنى فاتحة الكتاب وأسمائها
٨	هل البسملة من القرآن
١١	تفسير البسملة
١٦	الحمد والودح والشكر
٢٥	سر وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة
٢٧	العبادة والعبودية والاستعانة
٢٨	أجناس الهداية
٣٠	النعم ومن الذين أنعم الله عليهم
٣٣	حكم قراءة آمين فى الصلاة
٣٤	سورة البقرة
	آراء فى الحروف المقطعة
٣٨	هل الحروف آيات ؟ إعرابها
٤٣	الهدى والضلال
٤٨	معانى التقوى ومراتبها
٥٢	الإيمان

الصفحة	الموضوع
٥٥	هل يدخل الحرام فى الرزق ؟
٥٧	إنزال الكتب السماوية
٦١	أحوال الكفر والكفار
٦٨	من علامات النفاق
١٠١	تحرير المؤمنين على العباد
١٠٥	المراد بالتقوى
١١٠	دلائل أن القرآن من عند الله
١١٨	بشارات المؤمنين
١٢٧	حكمة ضرب المثل فى القرآن
١٣١	صفات الفاسقين
١٥٦	قصة خلق آدم وإسجاد الملائكة له ورفض إبليس السجود
١٦٣	عناصر كفر بنى إسرائيل
٢٤١	اليهود والنصارى يكفر بعضهم بعضا
٢٤٣	شناعة تخريب المساجد
٢٤٧	موقف اليهود والنصارى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم
٢٤٩	تذكير بنى إسرائيل بنعم الله عليهم
٢٤٩	رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وشريعة التحليل عليه السلام
٢٦٣	وصية إبراهيم ويعقوب لأولادهم باتباع الإسلام
٢٦٧	هعار أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وعقيدتهم
٢٧٣	موقف اليهود من تغيير القبلة
٢٨٩	تهديد للذين يكتنمون ما أنزل الله من الهدى
٢٩٢	من دلائل عظمة الله وقدرته
٣٠٥	البر وعناصره
٣٠٨	القصاص والوصية
٣١٣	تشريع الصيام
٣٢٠	أمر بقتال المعتدين فى الشهر الحرام

الموضوع	الصفحة
٢٢٥ تشريع الحج	
٣٣٣ عود إلى تفريرع بى إسرائيل	
٣٣٧ حكم القتال فى الأشهر الحرم	
٣٣٩ الحمر والميسر	
٢٤٣ أحكام اليتامى ونكاح الشركات	
٣٤١ الإيلاء من الزوجات	
٣٥٥ من أحكام الطلاق والرضاع والعدة	
٣٧٠ عود إلى شناعاى بى إسرائيل	
٣٨٠ فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرسل	
٣٨٩ محاجة إبراهيم للذى كفر	
٣٩١ بعث عزيز بعد موته	
٣٩٦ طلب إبراهيم دليلا عمليا على إحياء الموتى	
٣٩٩ دعوة إلى الصدقة	
٤١١ الربا والتجارة	
٤١٥ أحكام الديون	
٤٢٢ إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم ومن تبعه	
٤٣٠ سورة آل عمران	
من دلائل قدرة الله تعالى	
٤٣٩ الحكم والمتشابه فى القرآن	
٤٤٩ حقارة شأن الدنيا وزيلتها	
٤٥٥ الدين واحد وهو الإسلام ، وسبب اختلاف الناس فيه	
٤٦٠ مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم لله تعالى	
٤٦٦ اصطفاء الله تعالى للأنبياء عليهم السلام	
٤٧٩ اصطفاء مريم	
٤٨٢ ولادة عيسى عليه السلام	
٤٨٨ عيسى والحواريون	

الموضوع	الصفحة
عناصر دعوة الإسلام	٤٩٨
خيانة أهل الكتاب فى المال	٥٠٢
خير الصدقات	٥١٢
فضل الكعبة المشرفة	٥١٦
من خصائص الإسلام	٥٢٢
أهل الكتاب والإسلام	٥٣٤
غزوة بدر	٥٤٤
جهاد النفس وجهاد العدو	٥٥٥
عود إلى جهاد الأعداء	٥٦٠
تحريض المؤمنين على القتال	٥٦١
من دستور الحرب	٥٧٥
المنافقون والحرب	٥٨١
فى الهزيمة عبرة	٥٩٤
مكانة الشهداء عند ربهم	٥٩٨
استدراج الكفار	٦٠٥
البخل والبخلاء	٦١١
من دلائل عظمة الله تعالى	٦٢١
من دلائل الإيمان والمؤمنين	٦٢٤
سورة النساء	٦٣٧
دعوة إلى الإيمان بالله تعالى	
من أحكام أموال اليتامى	٦٤٠
تعدد الزوجات	٦٤٣
من أحكام الميراث	٦٥١
أحكام تتعلق بالنساء	٦٦٢
المهرمات من النساء	٦٦٩

الموضوع	الصفحة
٦٨٠ نكاح الإماء	
٦٩١ أسباب امتياز الرجال فى الميراث	
٦٩٤ حقوق الوالدين والأقارب	
٦٩٩ الطهارة وأحكامها	
٧٠٥ تحريف أهل الكتاب لكتبهم وعرض لقبائهم	
٧٢٠ تشريعات للمؤمنين	
٧٢٤ تعجب من أحوال الكفرة والمنافقين	
٧٣٧ تحريض المؤمنين على الجهاد	
٧٥١ تحذير المؤمنين من المنافقين	
٧٦٣ المعفون من الجهاد	
٧٦٩ الصلاة فى الضرورات	
٧٧٦ وجوب الحكم بما أنزل الله	
٧٨٥ الأعمال والثواب	
٧٨٨ طاعة الله على أهل السماء والأرض	
٧٨٩ أحكام فى معاشررة النساء	
٧٩٦ خطاب للمسلمين جميعاً	
٨٠١ من علامات النفاق	
٨٠٦ عود إلى اليهود	
٨١٤ رد على أهل الكتاب	
٨٢٠ زجر النصارى	
٨٢٥ أمر بالإيمان	
٨٢٧ حكم السكلاة	

